مِنْ تُرَاث
عَبْدِ ٱلعَزِيز
ٱلثَّعَالِبي

الرِّسَالَةُ المُحَمَّدِيَّةُ

مِنْ نُزُولِ ٱلوَحْيِ إِلَىٰ وَفَاتِهِ

صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

تأليف

عبد العزيز الثعالبي

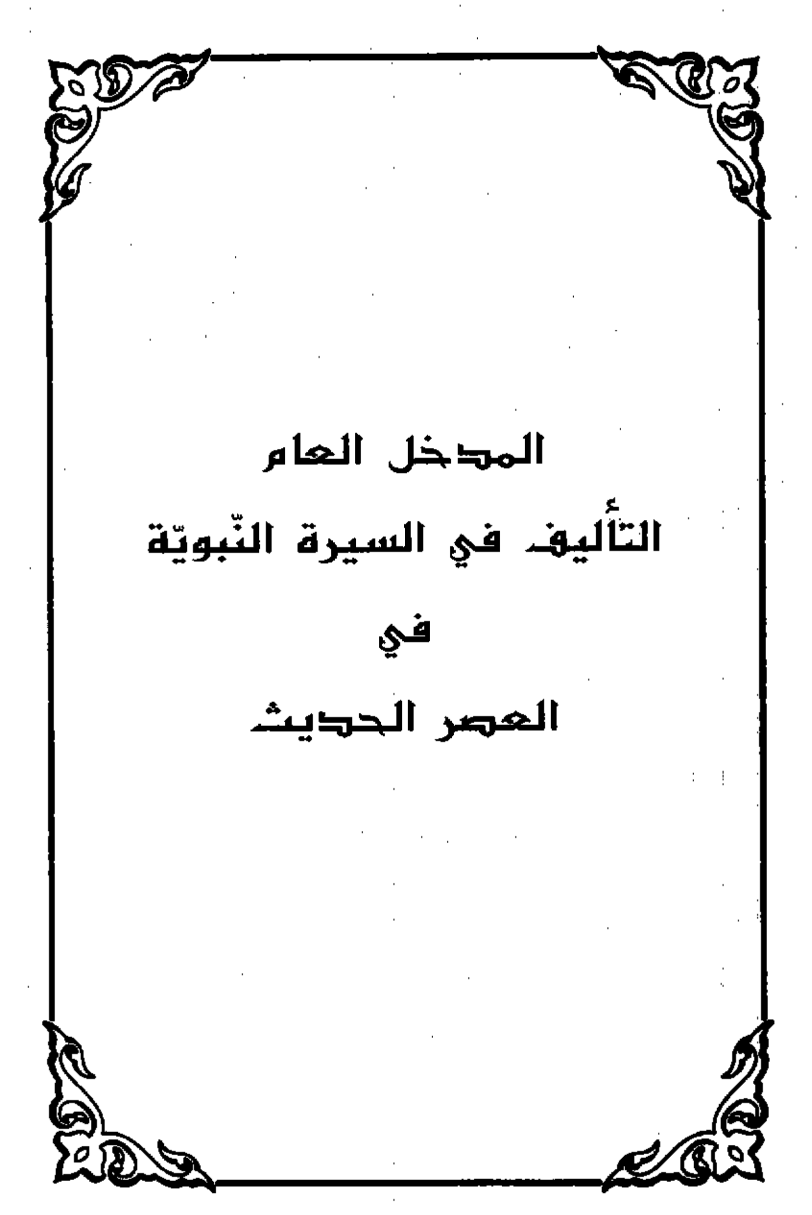
تحقيق

الدكتور صالح الخرفي



دمشق - بيروت





المدخل العام

التّأليف في السيرة النّبويّة

في

العصر الحديث

الرسالة المحمّديّة

«وكان جديراً بكلّ من يتصدّى للكتابة عن (الرسالة المحمديّة)، أن يحلّل حياة صاحبها الباهرة، تحليلاً فنّياً، مليئاً بالعبر، مع المطابقة بينها وبين روح العصر الذي يكتبون فيه، لأن رسالته عامّة إلى جميع العصور. يجب أن تفهم في كلّ عصر بما يناسبه، ويلائم طريقة التفكير فيه، وتذوّق أناسيه، حتى تكون حجّة عليهم. وهو أمر شكلي، لا يغيّر جوهر الرّسالة، بل يفيدها. وهذا ما أردت أن أسلكه في هذا الكتاب، من غير بهرج صناعي، لتبقى للرّسالة قداستها، وتكون حلية لها دون غيرها.

ومرادي، ألا أكسو الرسالة ثوباً فضفاضاً من الاستهواء، كما فعل القدماء».

عبد العزيز الثعالبي
من مقدّمة كتابه
(معجز محمد رسول الله)
الجزء الثاني. الطبعة الأولى
مطبعة الإرادة تونس
1938/1357

السيرة المحمّديّة

«وإن دراسة هاته «السيرة المحمّدية» الماجدة، لواجب حتميّ، لكل من أصبح يفكّر في ترميم أمته، أو إعادة بنائها على القواعد الأولية الخالدة، بقطع النظر عن تلبساتها الزمانية والمكانية»

عبد العزيز الثعـالبي
(حضارة العرب)
مطبعة العرب تونس
1938

صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

شغفتُ به حبّاً، فإن ذُكِرَ اسمُه
تحـدّر دمـعُ العيـن، يستـأذن الخـدَّا
بـ (سيـرتـه) عطَّرتُ ظِـلَّ جـوانحـي
لعـلَّ يَـدَ الألطـاف، تَسْتنقِـذُ العبـدا
أرطِّـبُ حَلِقـي بـالصـلاة علـى اسْمِـه
فتنقلـبُ الأشـواقُ فـي مُهجتـي بَـردا

من قصيد: (محطات في رحلة العمر)
صالح الخرفي
(دار الحياة). القرارة
وادي ميزاب الجزائـر
12 ربيع الأول 1418هـ
17 يوليو/ تموز 1997 م



عبد العزيز الثعالبي

صورة نادرة، نشرت في الصفحة الأولى من جريدة (الشورى) القاهرية في العدد (283) يوليو/ تموز (1930)

بمناسبة مغادرته بغداد نهائياً ووصوله إلى فلسطين في طريقه إلى مصر



محمد الحبيب شلبي (1906 ـ 1997)

كاتم سرّ الثعالبي

وصاحب الفضل في الحفاظ على مخطوطة الكتاب

فهرس

بسم الله الرحمن الرحيم

مخطوطة بغداد، والعثور عليها

بنعمة من الله وفضل، كان العثور على هذه المخطوطة، بخط الشيخ عبد العزيز الثعالبي عن السيرة النبويّة، على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التسليم، لم تمسسها يد بسوء، إلاّ عوادي الزمن، من طول الاحتباس، وعدوى الرطوبة، طيلة ما يقرب من سبعين عاماً. يوم ألّف الثعالبي هذه السيرة، وهو في دار الغربة والاغتراب في بغداد، محاضراً في جامعة آل البيت في أواسط العشرينات[١]، إلى أن كتب الله

(١) يشير (محمد بهجت الأثري) إلى ما يلي:
«وغالب ظنّي، أنّه استقدم إلى بغداد، استقدمه صديقه فهمي المدرّس، أمين جامعة آل البيت. فوصل علاقته بالملك، فيصل الأوّل، وعيّنه أستاذاً محاضراً في الجامعة (الشعبة الدينيّة) لتدريس الفلسفة الإسلامية، وحكمة التشريع. وجامعة آل البيت هذه، كناية عن معهد فقهي، صغير، أنشىء في سنة ١٩٢٤. ولم يرد طلبته في أحسن أحواله على خمسين طالباً. أنشأه الملك فيصل لغرض سياسي خاص، اقتضته أحوال زمانه، ثمّ سرعان ما وضعت في طريقه العراقيل والأشواك بدوافع سياسية خفيّة».

وأما قول (الأثري)، فوصل علاقته بالملك فيصل الأوّل، مشيراً إلى فهمي المدرس. فإن الحبيب شلبي في مخطوطة له عن حياة الثعالبي بعنوان (لمحة عن حياة رجل العروبة والإسلام الزعيم التونسي، خالد الذكر، المرحوم الشيخ عبد العزيز الثعالبي) يؤكد أن صداقة الثعالبي لفيصل كانت أسبق من ذلك بكثير، ويقول:
«ثمّ ذهب سنة ١٩٢٦ إلى العراق، فاحتفى به صديقه الحميم، فيصل بن الحسين الذي صار ملكاً على العراق، وقد كانا تعارفا، وتصادقا في الأستانة سنة 1912، عندما كان فيصل عضواً بمجلس (المبعوثان). واتّخذه فيصل مستشاراً خاصاً له. لا يصدر في كثير من المسائل الهامّة، إلا عن رأيه ومشورته. ثم كلّفه بوظيفة =

لهذه المخطوطة أن ترى النّور في أواسط التسعينات[١].

وطيلة ما يقرب من نصف قرن، من الحصار المضروب على الثعالبي، وعلى افكاره ومبادئه، وأصدقائه وأوفيائه، بل الحصار المضروب، على مجرّد أيّ ذكر لاسمه، نصف قرن من يوم عودة الثعالبي من المنفى في المشرق صيف سنة ١٩٣٧[٢]، إلى سنة ١٩٨٧[٣]، يوم أن كتب الله عهداً جديداً لتونس، التي أنجبت الثعالبي وأحبّته، ورفعها ورفعته إلى مقام زعماء العروبة والإسلام، وروّاد الحريّة والاستقلال. في النصف الأوّل من القرن العشرين.

في هذا العهد الجديد، بدأ تتقشّع السحب الداكنة التي كانت تحجب وجه الثعالبي عن الأجيال التي تلته، وبدأت دورة الوفاء له. تتدفّق من جديد في عروق أبناء وطنه، وعاد الثعالبي في أواخر هذا القرن، كما كان في أوائله. رمزاً لتونس الحديثة، تؤلّف فيه الكتب، وتتجه إليه الدّراسات

= أستاذ في جامعة آل البيت ببغداد، يحاضر عن التاريخ الإسلامي وفلسفة التشريع. فعقد له مرتّباً وافراً».
انظر: عبد العزيز الثعالبي، رائد الحرية والنهضة الإسلامية، أنور الجندي دار الغرب الإسلامي ١٩٨٤.
أمّا الحبيب شلبي، فله أكثر من مخطوطة، تتعلق بحياة الثعالبي.

(١) زيارتي للحكيم (أحمد بن ميلاد: ١٩٠٢ ـ ١٩٩٤) الصديق الشخصي، والطبيب الخاص للثعالبي، سبقت زيارتي للحبيب شلبي، فهو الذي دلّني عليه، وزوجته الكريمة، وابن ميلاد وشلبي لهما الفضل في الحفاظ على تراث الثعالبي، وكانا يتعاونان في رعايته وترتيبه، وينسقان جهودهما في سبيل ذلك.
انظر: عبد العزيز الثعالبي. من آثاره وأخباره في المشرق والمغرب. صالح الخرفي، دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٦.

(٢) وصل الثعالبي إلى تونس بحراً، قادماً من مرسيليا يوم الخميس ٨ جويلية/ يوليو ١٩٣٧.

(٣) في ٧ نوفمبر ١٩٨٧، دخلت تونس في عهد جديد، حمل شعار (المصالحة الوطنيّة) رمزاً له. فأعاد إلى الذاكرة كثيراً من الرموز الوطنية التي حجبها العهد السّابق، ورفع أذان الصلوات الخمس، على الشاشة الصغيرة وفي الإذاعة الوطنيّة، وعزّز مكانة اللغة العربيّة في الدّوائر الرّسميّة.

الجامعية، وتنتظم به الندوات، وتقام له الذكريات.

وفي طليعة هذه العودة للثعالبي، عودة إرثه الفكري والقلمي إلى الظهور وخروج مخطوطاته ووثائقه، من ظلمات التكتّم والتوقّي، إلى نور الإشعاع والإصداع. إعادة طبع ونشر لدراساته وأبحاثه، أو تحقيقاً وترجمة لها. أو نشراً لم يسبق لمخطوطات ووثائق كانت في طيّ الكتمان. وتتضافر في ذلك كلّه جهود جلّة من العلماء والمحققين، الأوفياء للحقيقة التاريخيّة. بريئة من النوازع المغرضة. وجهود سبقتها، يطبعها الوفاء للثعالبي، حيّاً وميّتاً. والوفاء لإرثه بعد رحيله، والحفاظ عليه في غمرة التنكّر لصاحبه، والتكتّم عليه، في سورة البحث عنه، والصبر والمصابرة على إيصال هذه الأمانة إلى ساحل النجاة، وتسليمها للأيدي الأمينة قبل مفارقة الحياة.

ومن أصفياء الثعالبي، المقربين إليه، الأوفياء له، الحافظين لإرثه، المرحوم محمد الحبيب شلبي[1]، كاتم سرّه، وصاحب الفضل في الحفاظ على مخطوطة (البعثة المحمّديّة) التي تؤلّف صفحات هذا الكتاب. وحامل النّفس الكريم في السهر عليها، والتكتّم على مكمنها، حتّى على زوجته وأفراد أسرته. ومدّرع الصبر الجميل على إبقائها سرّاً بين ضلوعه، من يوم رحيل الثعالبي سنة ١٩٤٤، إلى أن غامت ذاكرة المرحوم شلبي في أواخر

---

(١) (محمد الحبيب شلبي: ١٩٠٦ ـ ١٩٩٧) من رموز الحركة الوطنية، في المغرب العربي. ومن الوجوه البارزة في الحزب الحر الدستوري التونسي القديم، ومن أعضاء لجنته التنفيذية، تولّى في أواخر الأربعينات وأوائل الخمسينات مناصب قيادية من بينها (مدير الحزب سنة ١٩٥٥). غداة وفاة الثعالبي، كان شلبي يشغل مهام، عضو اللجنة التنفيذيّة وأمين المال العام، ونائب المدير العام. لازم الثعالبي منذ عودته من المشرق إلى وفاته، وتعهّده بالزيارة أيام مرضه بالشّلل، وسجّل بعض هذه الزيارات في مذكّرات. وأبّنه بخطاب مؤثر قبل دفنه. وترجم لحياته في أكثر من مذكّرة مخطوطة. خطيب، ومحاضر، وكاتب في الصحافة، وفي جريدة (الإرادة) خاصّة. وتولّى الأمانة العامة للجنة إغاثة فلسطين في تونس. وله كتاب مخطوط عن القضيّة الفلسطينيّة. وصدر له سنة ١٩٦٩ كتيب بعنوان (ظهور الإسلام).

أيّامه. والمخطوطة لم تزل سرّاً لم يعلم به أحد.

أوّل زيارة لي، لأسرة شلبي الكريمة، كانت بتاريخ ٩ سبتمبر ١٩٩٤، خمسين عاماً بعد وفاة الثعالبي، كان الأستاذ الحبيب، رحمه الله. على عتبة التسعين من عمره، لا يخونه النظر المجهد في من حوله، ولكن تخونه الذاكرة، وكثيراً ما تسعفه بالآية الكريمة، يردّدها:

﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

رجوت الأسرة الكريمة، يحدوني شكّ يشبه اليقين، أن تبحث لي عن أثر للثعالبي في محفوظات صديقه الأوفى، وكاتم سرّه، ورافع صورته مفردة في غرفة استقباله، ومسمّي ابنه الوحيد باسم (عبد العزيز). فأشارت الزوجة الفاضلة إلى إحدى[1] بنات الأستاذ شلبي الثلاث، فهي التي تعرف مكامن والدها. فقد كانت كالظل له، في جلسته على مكتبه، أو خطواته بين كتبه ووثائقه. وهي الأمينة على مكتبته العامرة.

وعلمت من الأخت الكريمة، أنّ لوالدها محفوظات في مكان أمين في البيت، كان يوصي طول حياته بعدم الاقتراب منه، أو الاطلاع على ما فيه، ودرجنا صغاراً على الوفاء لهذه الوصيّة، فما لأحدنا علم بما فيه حتى اليوم، ولا ذاكرة الوالد تصله بما اختزن فيه منذ سنوات طويلة.

وتملّكني حبّ الاطلاع على ما فيه، وألححت على الأخت في ذلك، وفاء للثعالبي وللوالد، معاً. فكانت المحفوظات كلها تخصّ الثعالبي[2]

---

(١) هي السيدة (صبيحة الحبيب شلبي) حرم السيد محمود المحرزي، ولها جهد مشكور في مساعدتي على الاطلاع على محفوظات والدها، وعلى تراث الثعالبي عنده.

(٢) تراث الشيخ عبد العزيز الثعالبي، فيما يبدو لي، بعد اتصالي المباشر بالمرحومين: أحمد بن ميلاد، والحبيب شلبي، هذا التراث قد آل إلى الاثنين معاً. فالحكيم (ابن ميلاد) كان الطبيب المباشر للثعالبي، وكانت تربط الاثنين صداقة عائليّة حميمة، للسيّدة نبيهة ابن ميلاد فضل فيها. زيادة على موقع الحكيم من الحزب الدستوري القديم، عضواً في لجنته التنفيذيّة، والمراقب المالي فيما =

= بعد. وقد عقد المؤتمر التحضيري للحزب في منزله بزنقة الرياض عدد (٤) يوم الجمعة ٥ شوال ١٣٦٣ هـ/ ٢٢ سبتمبر ١٩٤٤. قبل أسبوع من وفاة الثعالبي الذي لم يستطع حضور المؤتمر لمرضه، فأناب عنه علي كاهية لمباشرة جلسة المؤتمر.
بعد وفاة الثعالبي، طلب بعض أعضاء اللجنة التنفيذية من الحكيم وراوية عنه، وهو المقتدر مالياً، شراء تراث الثعالبي من ابنه عبد الحميد، مخافة أن يفرّط فيه طلباً للمال. وهو ما تمّ بالفعل، فاشتراه الحكيم ابن ميلاد، وكان أميناً على هذا التراث. وفيّاً له، ساهراً عليه هو وزوجته الكريمة، طيلة ما يقرب من نصف قرن، بالرّغم من الظروف العصيبة التي اكتنفت هذه المهمّة الصعبة.
أما الحبيب شلبي، وقد أشرنا إلى مكانته من الثعالبي، تلك المكانة التي جعلته يمضي بعض وثائقه ومذكراته عنه، وترجمته لحياته بـ (كاتم السر للثعالبي). فإنّ هذه الحظوة هي التي فتحت الطريق لجزء غير قليل من تراث الثعالبي، إلى خزانة شلبي. وأغلب الظنّ أنّ ذلك تمّ في حياة الثعالبي.
وكان المرحوم شلبي في قمّة الوفاء لما وصلت إليه يده من تراث الثعالبي حتى ضاعت ذاكرته، ولم يضع التراث، وبالرّغم مما كان يعانيه الأستاذ شلبي من علّة مرضية مزمنة، فقد كان معقد أمل الثعالبي في أيام محنته وعزلته، قبل وفاته وأنيسه الوحيد، عند انفضاض الأقربين من حوله.
جاء في إحدى مذكرات شلبي عن زيارة للشيخ بتاريخ ١٩٤١/٦/٢٥، والحرب العالمية الثانية تدور رحاها، وكان الثعالبي ينذر باندحار ألمانيا في هذه الحرب رغم انتصاراتها الخاطفة. ودخول جيشها قلب باريس. قبل عام وكلّ أعضاء اللجنة التنفيذيّة، يعاكسون رأيه في ذلك، ويصفونه بالخرف، كتب شلبي رواية عن الشيخ:
«وستحلّ الكارثة بألمانيا، من دون شكّ ولا ريب، وسيتنفّس العالم الصعداء من طغيان النازية، وتعصّبها المقيت! وستتاح للأمم المستعبدة، فرص منقطعة النظير للتحرّر من ربقة الاستعمار الغربي.
ثمّ تنهّد الشيخ، تنهدة عميقة، وظللت وجهه مسحة من الكآبة، ونظر إليّ مليّاً. وقال: آه، ليتني أكون حيّاً، إذ ذاك، وتعود لي صحّتي الذّاهبة!.

فحاولت أن أسلّيه، ولكنّه قطع عليّ الكلام قائلاً: ولكنني، لا أظنّ أنني سأعيش إلى ذلك الوقت، ثم اغرورقت عيناه بالدّموع، ونظر إليّ نظرة، فيها المرارة واليأس، والإشفاق والرجاء. وقال لي:
أوصيك بهذا الشعب خيراً، يا بني، فإنّه لا ثقة لي في أحد غيرك، من أعضاء

ومن بينها مخطوطة هذا الكتاب عن سيرة الرّسول ﷺ . جزى الله خير الجزاء. كلّ من له يد في حسن الظنّ بي، ومساعدتي في الوصول إلى المخطوطة، وإخراجها إلى النّور. وكتب لنا من وراء نشر هذه السيرة العطرة، نفحة من رحمته التي وسعت كلّ شيء.

أبادر إلى القول بأنّ هذه المخطوطة هي الصيغة الأولى للجزء الذي نشره الثعالبي في حياته سنة ١٩٣٨ بعنوان (معجز محمد رسول الله ﷺ) والذي أعيد نشره مؤخّراً، ثمّ استكمل بالجزء الثاني[1].

وقد تملكتني الحيرة، في تاريخ كتابة هذه المخطوطة، فهي تخلو من أيّة صفحة تحمل عنواناً، أو صفحات تذيلها بفهرس أو مراجع، فهي تبدأ مباشرة بـ (البعثة المحمّديّة) كما هو واضح في الصورة المثبتة في صدر هذا

= اللجنة التنفيذية، ثم استدرك، ولكنّ صحّتك المختلة من أثر العلّة، التي ألزمتك الفراش، سنين طويلة من زهرة شبابك، ربما تعوقك عن الاضطلاع بالمهامّ الخطيرة، التي تنتظرك، رزقك الله الصحّة والعافية والقوّة. وأمدّك بروح منه».

(١) صدر (معجز محمد رسول الله) في طبعته الأولى سنة ١٣٥٧ هـ ١٩٣٨ م. مطبعة الإرادة، تونس، وعلى الغلاف، كما هو واضح من الصورة كلمة (الجزء الثاني). وجاء في مقدّمته: «وكنت أسلفته بسفر مختصر من تاريخ الأمّة العربيّة. فجاء بحمد الله إرهاصاً لهذا الإعجاز». ثمّ قال: «وبدا لي أن أعجّل بطبعه ونشره، قبل المختصر».
ولم يظهر أثر لهذا (المختصر) حتّى الآن، وجدير بالذكر، أنّ الثعالبي ألقى سلسلة محاضرات، ابتداء من شهر جانفي ١٩٣٨، نشرتها جريدة (تونس) لزين العابدين السنوسي، تباعاً وتحت عنوان (حضارة العرب)، وجاء في التمهيد لهذا النشر في العدد (٧١) السنة الثانية، الجمعة ١٢ ذي القعدة ١٣٥٦ هـ ١٤ جانفي ١٩٣٨:

«في دار الأرقم بن الأرقم، حضارة العرب، كان يوم الجمعة الفائت موعد افتتاح سلسلة المحاضرات التي سيلقيها أسبوعياً في نادي الحزب الحرّ الدستوري، الشيخ الزعيم الجليل، عبد العزيز الثعالبي حول تاريخ العرب، ومجد العروبة والإسلام».
وجمع السنوسي فيما بعد الحلقات التي نشرها في جريدته (تونس) في كتيّب بعنوان (حضارة العرب).

الكتاب، وتنتهي بالصفحة الأخيرة عند دفن الرسول ﷺ.

ولازمتني هذه الحيرة طيلة تصفّح المخطوطة، حتّى فاجأتني قصاصة مدرجة بين صفحاتها، بحبر المخطوطة وورقها. وبخطّ الشيخ، للتذكير بتحقيق مطلب، توسّط في إنجازه، ينص: «قدّم طلباً في ذلك إلى مديريّة منطقة بغداد، تحت نمرة ٩٧٧٦. بتاريخ ١٩٢٩/١٢/٤»[١].

وفي صفحة (٣٤) من المخطوطة، عند الحديث عن الإسراء، وركوبه ﷺ البراق. جاء ما يلي: «إلى أن انتهيت إلى بيت المقدس، فأوثقته بالحلقة التي بباب المسجد» وعقّب الشيخ بين هلالين بقوله: «وهو مكان حائط مبكى اليهود اليوم، الذي وقعت من أجله ثورة أغسطس الماضي»[٢].

وجاء في (الموسوعة الفلسطينيّة): «ظلّ النزاع على حائط البراق نواة الاهتمام والقلق حتى كانت مظاهرة مجموعة من شباب تل أبيب عند الحائط في ٢٣ أغسطس/آب ١٩٢٩، ينشدون النشيد اليهودي، ويرفعون العلم الصهيوني، وردّ المسلمون على الحادث الاستفزازي بمظاهرة مضادّة. وامتدّت حوادث العنف إلى هجمات منتشرة على اليهود في القدس والخليل وأماكن أخرى»[٣].

يتّضح ممّا مرّ ذكره، أنّ الثعالبي كتب هذه المخطوطة في السنوات

---

(١) هي قصاصة تذكير للثعالبي، أدرجها في المخطوطة، لموضوع عنّ له أثناء الكتابة. فسجّله على هذه القصاصة، وجاء فيها ما يلي: «محمد عبد الوهاب، المعاينة يوم الثلاثاء المقبل، يريد أن يكون سواقاً خصوصياً، تعلّم عند فيتر، قدّم طلباً في ذلك إلى مديرية منطقة بغداد تحت نمرة ٩٧٧٢ بتاريخ ١٩٢٩/١٢/٤. الطلب يلتمس أولاً من جواد أفندي، معاون البوليس وارتر. بأن ينجز طلبه ولا يؤخر».
وفي صيغة المذكّرة وموضوعها، ما يوحي بالمكانة الاجتماعية للثعالبي في بغداد، واستعداده لمساعدة النّاس في أبسط قضاياهم.

(٢) جاء تعقيب الشيخ في صلب النّص، ولم يكن على الهامش وغالباً ما يفعل الشيخ ذلك، إلا في التعاليق المطوّلة، فإنّه يدرجها في الهامش.

(٣) انظر (الموسوعة الفلسطينية) القسم الثاني، الدراسات الخاصّة، المجلّد الخامس صفحة (٨٢) الطبعة الأولى. بيروت ١٩٩٠.

الأخيرة لإقامته في بغداد، تلك السنوات الممتدّة بين ١٩٢٦ إلى ١٩٣٠. بعد إغلاق (جامعة آل البيت) بمؤامرة من (المعتمد البريطاني) وإبعاد الثعالبي من بغداد، خوفاً من تأثير مواقفه ضدّ الاستعمار، وانتدابه مراقباً للبعوث العلميّة العراقية في القاهرة[١].

أردت بهذا التقصّي في تاريخ كتابة المخطوطة، الوصول إلى تحديد الموقع الزمني لها بين الكتب التي تناولت السيرة النبويّة في العهد الحديث، وتحديد مكانة الثعالبي بين المؤلّفين المعاصرين له في السيرة العطرة.

السيرة النبويّــة في العصر الحديث:

ظلّت سيرة الرسول ﷺ حتى أواخر القرن التّاسع عشر، وأوائل القرن العشرين حكراً على الكتب الموروثة في السير والمغازي. .وفي صدارتها (سيرة ابن هشام) أو الموسوعات التاريخيّة ومن بينها (تاريخ الطبري)، وبقيت جهود المهتمّين بالسيرة محصورة في إعادة تقليب هذه الأمّهات من الكتب، تحقيقاً ونشراً، تهذيباً وتعليقاً، ولم تجرؤ هذه الجهود على إعادة

---

(١) انظر: عبد العزيز الثعالبي، رائد الحريّة والنهضة الإسلامية، أنور الجندي، دار الغرب الإسلامي، وجاء في الصفحة (١١٢) من رسالة لمحمد بهجت الأثري عن الثعالبي وجامعة آل البيت:
«فألغيت، وأنف الملك راغم، تحقيقاً للمناهج الخفية التي كان يرسمها الاستعمار لهذه البلاد، لإماتة ضميرها العربي الإسلامي. فمضى فهمي المدرّس إلى الميدان السياسي يحارب مع المعارضين الاستعمار البريطاني وأعوانه بمقالاته المتوهّجة، وأرسل الثعالبي، خوفاً من امتداد تأثيره البليغ في الشعب إلى القاهرة، وسمي فيها، مراقب البعوث العراقية. وقد كان هو والمدرّس في الجامعة مصدري قلق للسلطة الاستعمارية.
وأشارت جريدة (الشورى) في عددها (٢٨١) ١٧ صفر ١٣٤٩/٨ يوليو ١٩٣٠ إلى فقرة بعنوان: (العراق يودّع الثعالبي). وفي عددها (٢٨٣) تعليق بعنوان (الأستاذ الثعالبي لا يزال موضوع الحفاوة والإجلال في فلسطين).
وفي العدد (٢٩١) سبتمبر ١٩٣٠ نشرت الجريدة: (ماذا لقي الثعالبي في جمرك القنطرة! عجائب وغرائب) مشيرة إلى مضايقة الثعالبي في اجتيازه الحدود إلى مصر.

صياغة السيرة، صياغة حديثة، تخرجها من الإطار الموسوعي الفضفاض الذي يبعدها عن أذهان الناشئة المعاصرة، ويجعل استيعابها من الصعوبة بمكان(١).

وظلّت السيرة في الوقت ذاته، لهيبتها وجلالها محصورة التّناول في رجال الدّين، وبين علماء المسلمين، وفي المعاهد الدينيّة، وحلقات التدريس في كبريات المساجد في العالم الإسلامي(٢).

على أنّ النشر الحديث لبعض المصادر القديمة في السيرة، وإخراجها من عالم المخطوط إلى عالم المطبوع، كان خارج العالم الإسلامي، وعلى أيدي المستشرقين، فسيرة ابن هشام صدرت بمدينة (جوتنجن) بألمانيا سنة ١٨٦٢ م بعناية العلامة المستشرق (وستنفلد). وأمّا (تاريخ الأمم والملوك) للطبري، فقد صدرت طبعته الحديثة بين سنتي ١٨٧٩ و١٨٩٨ بمطبعة (بريل) بمدينة (ليدن)(٣).

---

(١) انظر فيما بعد إلى معالجة هذا الموضوع في مقدّمات الكتب الحديثة في السيرة النبويّة.

(٢) أشار محمد عبد السلام هارون في مقدّمة كتابه (تهذيب سيرة ابن هشام) إلى ما يلي: «ولعل سرّاً دفيناً كان ينزع بي إلى معاودة تلك التلاوة، أن والدي رحمه الله، كان ممّن ألفوا في السيرة. صنع في ذلك موجزاً سمّاه (تلخيص الدّروس الأوليّة في السيرة المحمّديّة) وجعله في ثلاثين فصلاً. وظلّ ذلك الكتاب دهراً طويلاً، لا يدرّس سواه في المعاهد الدينيّة، إذ كان من برامج الدّراسة فيها، درس خاصّ يسمّى: (درس السيرة).

(٣) صدرت لتاريخ الطبري، طبعة سنة ١٣٥٨/١٩٣٩ عن مطبعة الاستقامة بالقاهرة. وجاء في غلافها الداخلي: قوبلت هذه الطبعة على النسخة المطبوعة بمطبعة (بريل) بمدينة (ليدن).
انظر المقدّمة المطوّلة للطبعة الحديثة للطبري، تحقيق أبو الفضل إبراهيم وفيها ترجمة ضافية للمؤلف، وعرض شامل لطبعات كتابه. وقال أبو الفضل في هذه المقدّمة:
«وقد اتخذت النسخة المطبوعة في أوروبا، أصلاً في التحقيق، باعتبارها النسخة الكاملة، التي نشرت نشراً علميّاً، على أساس المخطوطات المتنوّعة التي وقعت للمصححين». =

واعتمدت الطبعات العربية التي تسلسلت بعد ذلك، على الطبعة الأروبيّة، استكمالاً لها، تحقيقاً، وتوسّعاً في مراجعتها على مختلف المخطوطات.

الاستشراق والسيرة النبويّة

وإذا كان الاستشراق العلمي المجرّد من الأهواء، له الفضل الأسبق. بفضل سبق الطّباعة في أروبا. واستقرار بعض المخطوطات العربيّة في مكتبات العواصم الأروبية، له الفضل في الدّخول بالمخطوط العربي إلى عالم الطباعة المعاصرة، فإنّ وجهاً آخر من الاستشراق، الذي لم يسلم من الهوى والتعصب، والذي واكب الحملات الأروبيّة الاستعمارية على العالم الإسلامي، واستوطن الأقطار العربيّة والإسلاميّة التي خضعت للهجمة الغربيّة الظالمة. هذا الوجه من الاستشراق، لم تسلم السيرة النبويّة، ولا التاريخ الإسلامي من دسائسه ومطاعنه[1]، بل راح يعبث فيهما بدافع

= ومقدّمته هذه بتاريخ ١٩٦٠ أمّا مقدّمته للطّبعة الثانية فهي بتاريخ ١٩٦٧.

وهذا التحقيق، يعتبر أوفى تحقيق، وأدقّه لتاريخ الطبري. أمّا طبعة الاستقامة التي سبقته، فقد حذفت التعليقات والفهارس حذفاً كاملاً. واكتفت بالنّص الطبريّ وحده، غير محقّق.

أمّا (سيرة ابن هشام) فإنّ الطبعة المحققة بجهود، مصطفى السقّا، إبراهيم الإيباري، عبد الحفيظ شلبي. فقد تضمّنت هي الأخرى، مقدّمة ضافية عن تاريخ كتابة (السيرة النبويّة). وأعلام المؤلّفين في السيرة، والمخطوطات المتنوّعة لها.

واعتمد المحققون في هذه الطبعة على تسع نسخ بين مخطوطة، ومطبوعة، تأتي في أوّلها النسخة المطبوعة في ألمانيا.

وطبعة (دار إحياء التراث العربي) و(مؤسسة التاريخ العربي) التي تحمل تاريخ ١٤١٣ و١٩٩٣ استبعدت أيّ تاريخ للمقدّمة، وللطبعات التي سبقتها.

(١) من الكتب التي ندّت عن هذا التوجّه البغيض، واتسمت بسمة من الواقعية، لا حبّاً في الإسلام، وإنّما لتثبيت أقدام الاستعمار في الديار الإسلامية، كتاب (الإسلام) لهنري لمنس، ومما جاء في مقدّمته:

«فلست أقصد بكتابي هذا أن أمجّد الإسلام، ولكنّي، لما رأيت أنّه صار من المسائل الكبرى التي اشتغلت بها أذهان الباحثين في العصر الحاضر، وأسست من أجله مجلّة علميّة في باريس، نال بها المسلمون نجاحاً، أدّى إلى أن =

من أحقاد قديمة تنزع إلى الحروب الصليبية. وأطماع جديدة، تحدو الغزوات الاستعماريّة الحديثة.

وإذا كانت الغاية البعيدة للاستعمار هي إضعاف العالم الإسلامي، وإخضاعه للهيمنة الغربيّة. فإنّ ضرب المقوّمات الروحيّة للشعوب المسلمة، تأتي في صدارة هذه المواجهة الشرسة، ومحور هذه المقوّمات: كتاب الله، وسنّة رسوله. والنيل من شخصيّة الرسول ﷺ والتشكيك في رسالته، والتطاول على معجزاته، بدعوى التفكير العلميّ الحديث، والنظريّة

= المسيحيين ومنهم أولاد الصليبيين، يساعدونهم بالمال على إقامة مسجد في باريس يعبدون الله فيه» ثم يضيف في موضع آخر:

«والذي نستخلصه ممّا تقدّم، أنّه يجب على الدّول الأوروبيّة التي تميل إلى التوسّع في الاستعمار، أن تتعرّف ديانة رعاياها، وأصدقاءها المسلمين، كما ينبغي. إذ الدّول لا تزال حتّى الساعة على اعتقادها الذي كانت عليه، أيام القرون الوسطى. وهو، أن الإسلام صورة من صور الديانة الوثنية».

وأمّا الهدف البعيد لـ (لمنس) وهو أحد الرهبان اليسوعيين، من كتابه (الإسلام) فيتضّح من هذه الفقرة:

«على الإسلام، أن يهيّء الأمم العريقة في الهمجيّة. وأخصّها الأمم الإفريقيّة، إلى التمدّن. فإنها، بما فطرت عليه من الانحطاط في الإدراك، وما تعوّدته من الشهوات، محتاجة إلى التحوّل من الوثنية إلى الإسلام، ليتسنّى لنا تحويلها من الإسلام إلى النصرانيّة».

و(هنري لمّنس ١٨٦٢ ـ ١٩٣٧) مستشرق، بلجيكي المولد، فرنسي الجنسيّة، من علماء الرهبان اليسوعيين، كان أستاذاً للأسفار القديمة في كلية رومة، عاش فترة في الجزائر، وتحدّث عنها طويلاً في كتابه (الإسلام). ثمّ استقرّ في بيروت، وتولّى إدارة جريدة (البشير). له كتب بالعربيّة. أما كتابه (الإسلام) فألّفه بالفرنسيّة، وترجم إلى العربيّة. ومن نظراته الثاقبة عن الوضع في الجزائر في أواخر القرن الماضي، قوله:

«إنّه يخشى من حدوث ثورة في الجزائر تسوء عقباها، ولكنّنا نرى في هذه الحالة، وهي أسوأ حالة يمكن تصوّرها بالنسبة إلى الحكومة الفرنسيّة، أن انشقاق الرّؤساء، وأحقاد الطوائف، تمنع الثورة من أن تمتدّ إلى جميع أرجاء البلاد. فالفوضى علّة الإسلام الباطنية».

العقليّة التي ترفض الغيبيات، إلا أن تخضعها للحسّ المجرّد، والتجربة الماثلة. كلّ ذلك يدخل في سياق اجتثاث الشخصيّة العربيّة المسلمة من تربتها الأصيلة، واقتلاعها من جذورها، وتركها (أعجاز نخل خاوية، فهل ترى لهم من باقية»؟!.

وإلى جانب الاستشراق المغرض، وقف التبشير المسموم، كلاهما في ركاب قادة الاحتلال الغربي، للعالم الإسلامي، فتشكّل بهم جميعاً الثالوث الصليبي الحاقد، المجرّد من أيّة نفحة سماويّة في تبشيره، أو نزعة علميّة بريئة في استشراقه، أو نبض إنساني في حملاته.

ألم يجمع أحد قادة الاحتلال في الجزائر، قطيعاً من أبناء الجزائر اليتامى، وقدّمهم هديّة إلى راعي الكنيسة في إفريقيا، الكاردينال (لافيجري) قائلا[1]:

«حاول يا أبت أن تجعلهم مسيحيين، حتّى لا يعودوا إلى دينهم، فيطلقوا علينا النّار». (لافيجري) الذي قال:

«علينا أن نخلّص هذا الشعب، ونحرّره من قرآنه، وعلينا أن نعنى على الأقلّ بالأطفال، لتنشئتهم على مبادىء، غير التي شبّ عليها أجدادهم، فإنّ واجب فرنسا، تعليمهم الإنجيل، أو طردهم إلى أقاصي الصحراء، بعيدين عن العالم المتحضّر».

ومن العجيب أن الاستشراق مرّة أخرى، والتبشير معه، كانا وراء صعود موجة جديدة من التأليف العربيّ الحديث في السيرة النبويّة في أوائل القرن العشرين. فقد ظهرت طبقة جديدة من الشباب المسلم الذي رحل إلى أوربا، واستكمل دراساته العليا في جامعاتها، فجمع إلى ثقافته الإسلاميّة ثقافة غربيّة، مكّنته من الاطلاع الواعي على ما ألّف الغرب والاستشراق عن الرّسول الكريم ﷺ.

---

(١) انظر: (في رحاب المغرب العربي). الدكتور صالح الخرفي، دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان ١٩٨٥.

وكان هذا التأليف الغربيّ أحد قسمين، تأليف مغرض، استثار أقلاماً عربيّة مسلمة للردّ على أكاذيبه وأضاليله على الإسلام ونبيّه. وتأليف ظاهره البحث العلميّ المجرّد. لكنّه لم يخل من شوائب، وهنات موروثة، ندر أن يبرأ منها قلم مستشرق، مهما صدقت النيّة، وتجرّد العلم. وهذا النوع من التأليف شجّع أقلاماً عربيّة أخرى، على تعريب بعض مؤلّفات المستشرقين عن الرّسول الأعظم ﷺ والتعقيب عليها، أو انتقاء فقرات منها للتّرجمة. وهكذا نشطت حركة التعريب في السيرة النبويّة وتلقّت المكتبة العربيّة الحديثة، مؤلّفات عن الإسلام وعن (محمد) ﷺ. ألّفها كتّاب غربيّون وعرّبتها أقلام عربيّة، منافحة عن دينها وأصالتها[١].

محمد حسين هيكل و(حياة محمّد)

هذا العنوان: (حياة محمد) هو في الأصل عنوان لكتاب المستشرق الفرنسي (إميل ديرمنجم) (la vie de mohamet) صدر في باريس سنة ١٩٢٩[٢]. وكتاب (حياة محمد) ليهكل الذي صدر سنة ١٩٣٥، نشره

---

(١) من بين هذه الكتب التي صدرت في الثلاثينات: ما أصدره (عمر أبو النصر) سنتي ١٩٣٤ و١٩٣٥ تحت عنوان (المحمّديّات) ومنها (محمد ﷺ النبي العربي) و(محمد بن عبد الله) وآراء مشاهير كتاب الغرب في رسالته ونبوّته ـ وقد تضمّن (١٨) كاتباً من الغرب، من بينهم (كارليل) و(ديرمنجم). المكتبة الأهلية للطبع والترجمة والتأليف والنشر، بيروت.
وجاء في مقدّمة (المعرّب) لهذه الآراء (عمر أبو النصر):
«لقد حاول كتّاب الغرب في السنوات المتأخّرة، بحث تاريخ الرسول، بحثاً متعانقاً، معتدلاً، فرأينا أن نعرض لأبحاثهم هذه، وأن نتناول آراءهم بشيء كثير من القصد، لنخرج كتابنا هذا، مصوّراً لرأي الغرب، المنصف المعتدل، الصادق، البعيد عن الأهواء في محمّد، ورسالة محمّد».

(٢) قدّم الكتاب لقرّاء العربيّة (أحمد عبد السّلام بلافريج) وكان طالباً في باريس ونشر عرضه للكتاب في مجلة (الفتح) القاهريّة، العدد(١٤٧) ذو القعدة ١٣٤٧ هـ مايو ١٩٢٩ م. السنة الثالثة: ومما جاء في عرضه:
«اللهجة السائدة في الكتاب هي لهجة الإخلاص، والروح المستولية على الكاتب هي روح الإخلاص، وإنك لتشعر بذلك في كل صفحة من صفحات الكتاب، =

حلقات متسلسلة في (السياسة) الأسبوعيّة، الجريدة التي كان يتولّى رئاسة تحريرها، وهذه الحلقات بدأت في الأصل، عرضاً لكتاب (دير منجم) وتعقيباً عليه. وتحمل عنوان كتابه. بدأ نشرها في فبراير/ شباط واستمرّ حتى يونيو/ حزيران من سنة ١٩٣٣ على ستّ حلقات، حتى استثار هذا العرض انتقاداً لهيكل من استناده إلى كتاب مستشرق في الحديث عن الرسول ﷺ. وكان جديراً به أن يتّجه مباشرة إلى التأليف عنه. فردّ (هيكل) يقول تحت عنوان:

كيف؟ ولماذا أكتب حياة محمد؟[1]

«أمّا ما أقوم به من بحث في حياة محمد، فلم يكن الدّافع الأوّل إليه كتاب (دير منجم) أو كتاب أيّ مستشرق من المستشرقين. وكنت أنا بسبيل البحث في حياة النبيّ العربي بحثاً، لم أفكّر في تدوين شيء منه، قبل استكماله على الوجه الذي أحبّه، ولكن كتاب (ديرمنجم) أحد الكتب التي قرأت أثناء هذا البحث. وكان هذا الكتاب جديراً بأن يوضع جانباً، لولا أنني وجدت في اتخاذ كتاب ككتاب (ديرمنجم) علّة لتدوين بحث موجز في هذه الحياة الحافلة».

ثمّ يشير الدكتور هيكل إلى ما سبق أن أشرنا إليه من أن التبشير إلى جانب الاستشراق، كانا وراء حفز الهمم في إنصاف سيرة الرّسول من

= حتى تلك التي تحتوي على أغلاط، وذلك ما نشكر عليه صديقنا ديرمانكام).
والمؤلّف أقام مدّة في المغرب، ودخل الريف أيّام ثورة الأمير عبد الكريم الخطابي. وكان مراسلاً بأخبار الثورة لجريدة (لانفورماسيون).
ويجدر التنويه بكتاب يحمل نفس العنوان (la vie de Mohamed) سابق لكتاب (ديرمنجم) بأكثر من عشر سنوات، وقد استفاد منه الأخير، وأشار إليه في مقدّمة كتابه، صدر بالفرنسيّة في باريس سنة ١٩١٨ للفنّان الرّسام، الفرنسي مولدا، الجزائري موطناً ومدفناً، المسلم عقيدة، ناصر الدين دينيه، والذي أعلمه أنّ الكتاب لم يترجم إلى العربيّة، وللمؤلّف كتاب آخر، بعد تأديته الحجّ سنة ١٣٤٧ بعنوان (الحجّ إلى بيت الله الحرام)، صدر بعد وفاته بأشهر سنة ١٩٣٠.

(١) انظر جريدة (السياسة) العدد (٢٨٠٥) ٣٣ مايو ١٩٣٣، والانتقاد جاء في مقال نشرته السياسية للدّكتور حسن الهراوي.

المتطاولين عليها من كتاب الغرب، فيقول:

«فقد جال بخاطري أن أكتب في حياة (محمد) منذ نشطت حركة التبشير والمبشّرين في مصر أوائل الشتاء الماضي» يقصد شتاء سنة ١٩٣٣.

لكن هيكل ما لبث بعد هذا الاعتراض عليه، أن علّق نشر حلقاته، في فترة من المراجعة الذاتية في العطلة الصيفيّة. امتدّت ثلاثة أشهر، من يونيو حتّى سبتمبر ١٩٣٣. والذي يؤكّد وجهة المراجعة الذاتيّة، وشبه الاقتناع بنظريّة المعترضين عليه، وإن كابر فيها في الفقرة السابقة. أنّه استأنف النشر بعيداً عن (ديرمنجم) وقال في بداية العودة إلى أبحاثه:

«في الفصول الأولى من هذا البحث، توخّينا أن نعرض كتاب (ديرمنجم) عن حياة محمد وننقده على ضوء ما ورد في كتب السيرة، مما وضع أئمة هذا الفنّ كابن هشام، والواقدي، وابن سعد، وغيرهم، ممّن جاء بعدهم، وأخذ عنهم، لكنّنا ألفينا (ديرمنجم) أغفل منذ هجرة النبي عليه السلام إلى المدينة، ما كان بينه وبين اليهود، إغفالاً يكاد يكون تامّاً. على ما كان لصلات الفريقين من بعيد الأثر في حياة يثرب، وفي اتجاه نشاط المسلمين. لذلك، آثرنا أن لا نقف عند كتاب (ديرمنجم)، وأن نذهب في بحثنا مستقلّين عنه، آخذين عن المصادر الإسلاميّة وغير الإسلاميّة، متوخّين السير على الطريقة العلميّة الحديثة في كتابة التاريخ»[١].

وتوالت حلقات (هيكل) عن (حياة محمد) في (السياسة الأسبوعيّة) حتّى أغسطس/آب ١٩٣٤. ثمّ صدرت الحلقات في كتابه الشهير الذي يحمل نفس العنوان، وقدّم للكتاب شيخ الأزهر مصطفى المراغي. وأقيمت

---

(١) انظر جريدة (السياسة) العدد (٢٩٠٦) ١٦ جمادى الأولى ١٣٥١/١٧ سبتمبر ١٩٣٣ والمقال بعنوان (حياة محمد). والتعلّة التي تذرّع بها هيكل للانصراف بعيداً عن (ديرمنكام) بسبب إغفاله اليهود في المدينة إغفالاً كاد يكون تامّاً، تعلّة مردودة، فالمؤلّف قد خصّص فصلاً بعنوان (اليهود) وقال في مطلعه:
«كنّا نودّ ألا نسجّل هذه الوقائع لمحمد، الذي علمنا من نبله وسموّ نفسه ما علمنا. وإذا كان محمّد قد قسا على اليهود، فإنّ من الانصاف أن يعترف بأنّهم خانوه».

حفلة تكريميّة كبرى للدكتور هيكل بمناسبة صدور كتابه في منتصف شهر مايو/ أيار ١٩٣٥.

ومن الصدف العجيبة أن الشيخ عبد العزيزالثعالبي الذي كان يقيم في القاهرة في تلك الفترة، كان من بين الوجوه البارزة التي حضرت الاحتفال[١].

وقد اختلفت الآراء في تقييم كتاب (حياة محمد) للدكتور هيكل، وخاضت الصحافة في نقده، وعابت على المؤلّف مجاراته للمستشرقين في إغفال المعجزات في حياة الرسول ﷺ بدعوى الطريقة العلميّة الحديثة، وانتقدت بعض الكتابات تقديم شيخ الأزهر للكتاب[٢] وبعض الكتابات الأخرى التي اعتادت الدكتور هيكل ثائراً على العقائد بعد عودته من بعثته في فرنسا، اعتبرت كتابه (حياة محمد) عودة إلى الحضيرة الإسلامية، وإن

---

(١) جريدة (السياسة) العدد (٢٧٠٣) ١٣ صفر ١٦/١٣٥٤ مايو ١٩٣٥. وجاء في العدد تحت عنوان (حفل التكريم)، ومن بين الحضور الشيخ عبد العزيز الثعالبي، زعيم تونس، والدكتور عبد الرحمن شهبندر، والشيخ رشيد رضا، والزنكلوني، وعبد الوهاب النجار، وعبد الحميد سعيد، وحمد باشا الباسل، وعبد العزيز البشري، وأحمد أمين، وعبد الوهاب عزّام، وعلي الجارم، ولطفي السيّد وطه حسين.

(٢) جاء ذلك في مقال نشرته مجلة (الفتح) لمحمّد زهران، في صورة خطاب لشيخ الأزهر، جاء فيه:

«سيدي الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغي، السلام عليكم ورحمة الله.

وبعد:

فقد أدهش المؤمنين جدّاً، وآسفهم كثيراً، أن رأس المفكّرين، وتاج العلماء المعروف بأنّه يقدّر كل شيء قدره، وينظر إلى عواقب الأمور كأنّها ماثلة أمام عينه. يقرظ أعظم التقريظ، كتاباً تضمّن من عجيب التلبيس، وبليغ المغالطة، بإلباس الباطل ثوب الحق، وصوغ الخيالات في صورة الحقائق، وستر جمال الحقيقة بالإغراق في زخرفة القول وتنميقه، مما لا يخفى عظيم ضرره، ووخيم مغبّته. فقد ألفينا فيه مما يخالف القرآن العظيم، وصحاح الأحاديث التي تفوت الحصر، وما أجمع عليه المسلمون».

(الفتح) العدد (٤٤٤) العام التّاسع. صفر ١٣٥٤ هـ.

ظلّت الثقافة الغربيّة مسيطرة على منهجه التفكيري[١].

ومهما قيل عن كتاب (حياة محمد) بما له أو عليه، فلم يزل، منذ صدوره قبل ما يزيد على ستّين عاماً، من أوسع الكتب انتشاراً في السيرة النبويّة، فقد أشرف على طبعته العشرين.

ويوم احتفلت الأوساط الفكريّة والأدبيّة والدينيّة بصدور كتاب هيكل، سجّلت جريدة (البلاغ) القاهريّة لفتة جديرة بالتنويه، في مسيرة التأليف الحديث في السيرة النبويّة، وهي فتح الباب للأقلام الحديثة والمعاصرة للاهتمام بسيرة الرسول ﷺ التي كانت حكراً على الأوساط الدينيّة، وإعادة الوعي من جديد، تأليفاً وتحقيقاً، بالبعثة المحمّديّة، واعتبرت جريدة (البلاغ) الدكتور هيكل رائداً في هذا التوجّه، ويكفيه ذلك فخراً. حيث قالت في افتتاحيّة عددها الذي سجّل وقائع التكريم:[٢].

---

(١) في مقال آخر في (الفتح) لمصطفى أحمد الرفاعي اللّبان، جاء:
ولكن الحق الذي لا ينبغي ستره، أنّه حين كتب عن رسول الله ﷺ لم يتناسب ما كتب مع المكتوب له، فجاء أشبه بما يقال عن العظماء، من غير الأنبياء والمرسلين، صلوات الله عليهم أجمعين.
ولو أنّ الدكتور، مثقف ثقافة دينيّة، وامتلأت روحه بمعاني القرآن الكريم، والحديث النبوي العظيم، وعرف حقّ المعرفة عمل رسول الله ﷺ، لكان في كتابته موفّقاً أكثر».
(الفتح) العدد (٤٧١) العام العاشر، شعبان ١٣٥٤ م.
وكتب محمد صبيح في جريدة (مصر القناة) في ٩ ذي الحجّة سنة ١٣٥٦/ ١٠ فبراير ١٩٣٨. تعليقاً على صدور كتاب (في منزل الوحي) للدكتور هيكل بك. ما يلي:
«ومهما يكن الأمر، فلقد أعجبنا بهيكل، ثائراً على العقائد، وأعجبنا به خاضعاً لها. فلا أقلّ من أن نسجّل له مقدرته في أن يحمل قراءه على متابعته، في حالين متباينين أشدّ التّباين. وإن كنّا أشدّ ترحيباً به اليوم، في صفوف المؤمنين».

(٢) جريدة (البلاغ): (تكريم الدكتور هيكل) العدد (٣٨٦٣) ١٦ مايو ١٩٣٥ وتقديم شيخ الأزهر للكتاب، يعتبر تزكية لهذا الاتجاه، والشيخ المراغي من دعاة الإصلاح والتجديد في الأزهر، ومن طلبة الشيخ محمد عبده (المراغي: ١٨٨١ - ١٩٤٥).

«ولذلك يلاحظ، أنّه منذ بدأ الدكتور هيكل نشر (حياة محمد) فصولاً في السياسة الأسبوعيّة، ويلفت النّاس إلى هذا البحث، ويغريهم به. اتجه الكثيرون إلى الأدب الإسلامي، لا في مصر وحدها، بل في الشرق العربي كلّه. فظهرت في دمشق، كما ظهرت في مصر، تراجم لأبي بكر الصدّيق، وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفّان، وخالد بن الوليد، وأخرج الدكتور طه حسين (على هامش السيرة) كتابه القيّم.

فالدكتور هيكل بك، قد أحدث تيّاراً جديداً، ووجه النّفوس وجهة جديدة بإقدامه على كتابة السّيرة النبويّة الشّريفة».

عبّاس محمود العقّاد و(عبقريّة محمّد)

وكما كان شأن (هيكل) مع (ديرمنجم) في التوجّه إلى الكتابة عن السيرة النبوية كان توجّه العقاد إلى هذه السيرة، بسبب ما كتبه الفيلسوف الانجليزي (توماس كارليل) عن (محمد بن عبد الله) في كتابه (الأبطال). وليس ما كتبه بالذي يرضي نظرة القارىء المسلم إلى نبيّه عليه الصلاة والسلام، بل فيما كتبه غير قليل من البعد عن الحقيقة، فـ (كارليل) يرى الرسول مجرّد بطل من الأبطال في صورة رسول، ويدرسه في إطار البطولة في بقيّة بني البشر، وإذا اعترف له بالرّسالة السماويّة، فإنّه لم يعترف له بالعصمة:

«وهب لمحمّد غلطات وهفوات، وأيّ إنسان لا يخطىء! إنّما العصمة لله وحده فإنّه ليس في طاقة أيّة هفوات أو غلطات، أن تزرى بتلك الحقيقة الكبرى، وهي أنّه رجل صادق ونبيّ مرسل».

رجل صادق ونبيّ مرسل، ولكنّ القرآن في نظر (كارليل) ليس كلام الله، أو وحياً منه. ولكنّه ما هو إلا جمرات ذاكيات قذفت بها نفس محمد:

«والقرآن خارج من فؤاد محمد، فهو جدير أن يصل إلى أفئدة سامعيه وقارئيه، والقرآن لو تبصرون، ما هو إلا جمرات ذاكيات قذفت بها نفس

رجل كبير النفس، بعدأن أوقدتها الأفكار الطوال في الخلوات الصامتات»[١].

ورغم ذلك، يكفي قرّاء العربيّة أن (كارليل) أحد القلائل بين كتّاب الغرب، نظر إلى نبيّ الرحمة، نظرة إعجاب وتقدير، واعتراف بعظمته. فأدرج اسمه بين ستّة من أبطال كتابه، فيهم القسّيس، والشاعر والملك، وجعل ترتيبه الثاني، بعد (أودين البطل في صورة إله)!

أقول قرّاء العربيّة، وأقصد طائفة من الشباب العربي المسلم، في أوائل القرن العشرين، لم يستطع اللقاء بدينه وتاريخه وأمجاده، وحتى معالم حضارته في الأحياء القديمة من مدينته، إلاّ بواسطة ما يكتبه الغرب المأخوذ بسحر الشرق، يقول (العقّاد) عن هذه الجماعة، ويقصد جماعته:[٢].

«ومن عجائبها أنّ الذي كان يغريها بالأحياء الوطنيّة، هو قراءتها في الكتب الافرنجية، التي كانت شائعة بينها. لأنّهم كانوا يقرأون، أكثر ما كانوا يقرأون كتب «ديكنز» و«هازليت» و«لي هانت» و«كارليل». وهم كتّاب مولعون بعرض الأخلاق الاجتماعيّة، ودراسة العادات المحليّة، وتمثيل الريفيين والحضريين في أوضاعهم المختلفة».

ويضيف (العقاد) موضّحاً كيف كان كتاب «الأبطال» طريقه إلى (عبقريّة محمد):

«ففي يوم من أيّام المولد، كان الكاتب الانجليزي العظيم «توماس كارليل» هو محور الحديث كلّه، لأنّه، كما يعلم الكثيرون بين قرّاء العربيّة، صاحب كتاب «الأبطال» الذي عقد فيه فصلاً عن النّبيّ محمد عليه السلام. وجعله نموذج البطولة النبويّة بين أبطال العالم الذين اختارهم للوصف والتدليل.

وتساءلنا: ما بالنا نقنع بتمجيد «كارليل» للنّبي. وهو كاتب غربي

---

(١) (كتاب الأبطال) توماس كارليل، ترجمة محمد السباعي، دار المعارف، تونس ١٩٨٦.

(٢) (عبقريّة محمد) نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع. بدون تاريخ.

لا يفهمه، كما نفهمه، ولا يعرف الإسلام كما نعرفه، ثمّ سألني بعض الاخوان: «ما بالك أنت يا فلان. لا تضع لقرّاء العربيّة كتاباً عن محمّد على النمط الحديث»؟

قلت: «أفعل. وأرجو أن يتمّ ذلك في وقت قريب».

ولكنّه لم يتمّ في وقت قريب. بل تمّ بعد ثلاثين سنة![1].

طه حسين و(على هامش السيرة).

أمّا طه حسين، الذي صدر كتابه (على هامش السيرة) في الفترة التي كان ينشر فيها (هيكل) فصوله عن (حياة محمد) سنة ١٩٣٣، فقد كان اتصاله بالسيرة اتصالاً مباشراً بأمّهات الكتب القديمة فيها. وربّما نقل عنها نقلاً حرفيّاً. وإن لم ينقل وأعاد صياغة الوقائع والأخبار بأسلوبه المتميّز بالوضوح، وقالبه القصصي الآسر، فإنك لن تجد صعوبة بالغة في ردّ الوقائع إلى مراجعها الأصلية، ومظانّها من الكتب الموروثة منذ قرون عدّة. وهو يدلّك عليها في مقدّمة كتابه:[2].

«ولن يتعب الذين يريدون أن يردّوا فصول هذا الكتاب، القديم في جوهره وأصله، الجديد في صورته وشكله، إلى مصادره القديمة التي أخذ منها. فهذه المصادر قليلة جدّاً، لا تكاد تتجاوز (سيرة ابن هشام) و(طبقات ابن سعد) و(تاريخ الطبري). وليس في هذا الكتاب، فصل أو نبأ أو

---

(١) تنامت في النشر المعاصر، ظاهرة عجيبة، تضافرت عليها بعض دور النشر في العالم العربي، وهو استبعاد التّأريخ للمقدّمات وللطبعات السابقة، تحسّباً لعزوف القارىء عن اقتناء الكتاب إذا وجده قديماً في طبعة جديدة. وهي ظاهرة تدلّ على مدى الحرص على الكسب، ولو على حساب الأمانة التاريخيّة.
فالطبعة المشار إليها من (عبقريّة محمد) لا تساعد على أي تحديد زمني، فالمقدّمات الثلاث للطبعات الثلاث، لا تحمل أيّ تاريخ، ولهذا تبقى إشارة العقاد في مقدّمة الطبعة الأولى إلى تأخّر إنجاز كتابه ثلاثين سنة، دون مدلول محدّد، لأنّها لا تحمل أيّ تاريخ.

(٢) (على هامش السيرة) الجزء الأوّل، دار المعارف، القاهرة، الطبعة (٣٢) ١٩٩٢.

حديث، إلا وهو يدور حول خبر من الأخبار، ورد في كتاب من هذه الكتب».

وطه حسين في كتابه هذا، القديم في جوهره، الجديد في شكله، يحدّد الهدف البعيد من وراء إعادة صياغة السيرة النبويّة بأسلوب حديث، وهذا الهدف يتمثّل في معالجة عزوف القارىء المعاصر، والشباب منه خاصّة، عن مطالعة هذه الكتب الموسّعة في المغازي والسير، والتّاريخ والأخبار. وتحريك النّفوس إلى الالتفات إليها بصياغة جديدة، وهو ما شجّعه على الإقدام على نشر فصوله على هامش السيرة:

«ولعلّي رأيت في نشرها شيئاً من الخير، فهي تردّ على النّاس أطرافاً من الأدب القديم، قد أفلتت منهم. وامتنعت عليهم، فليس يقرأها منهم، إلا أولئك الذين أتيحت لهم ثقافة واسعة عميقة في الأدب العربيّ القديم. وإنّك لتلتمس الذين يقرأون ما كتب القدماء في السيرة، وحديث العرب قبل الإسلام، فلا تكاد تظفر بهم».

وطه حسين، يلتمس العذر لهذا العزوف، وقد أدرك مأتاه، وهو ما دفعه لطيّ هذه المسافة المطوّحة بعيداً بين أبناء العروبة والإسلام، ومصادرهم التاريخيّة، ومحاولة تقريب هذه المصادر والموارد من الشباب المتعطّش، المنقطع عن منابعه الأولى، المنبتّ عن جذوره، المجتثّ من أرضه، وإن بدا أنّه يقف عليها برجليه.

«وأين هذا القارىء الذي يطمئن إلى قراءة الأسانيد المطوّلة، والأخبار التي يلتوي بها الاستطراد، وتجور بها لغتها القديمة الغريبة عن سبيل الفهم السهل. والذوق الهيّن، الذي لا يكلّف مشقّة ولا عناء!».

«فإذا استطاع هذا الكتاب أن يحبّب إلى الشّباب قراءة كتب السيرة خاصّة، وكتب الأدب العربيّ القديم عامّة، والتماس المتاع الفنّي في صحفها الخصبة. فأنا سعيد حقّاً. موفّق حقاً، لأحب الأشياء إليّ. وآثرها عندي».

ولم يخب ظنّ طه حسين بموقع كتابه (على هامش السيرة) من قلوب الشباب المعاصر، وانتشاره بين قرّاء العربيّة، وتوالي طبعاته بغير انقطاع منذ

ما يزيد على ستّين عاماً، حتى تجاوزت الثلاثين طبعة في بعض أجزائه، ولم تقلّ عن العشرين في أجزائه الأخرى.

وإنّك لتعجب لظاهرة لافتة! أنَّ هذه الكتب الثلاثة لهيكل وطه حسين والعقّاد، قد أثارت في أوّل العهد بصدورها من النقد والتجريح والتشهير، وخاصّة من علماء الدّين، ورجال الأزهر الشريف، ما أثار فضول النّفوس للاطلاع عليها. ومزيد العناية بها. والإقبال على اقتنائها. فكان هذا الموقف منها، طالع يمن عليها، حتى إذا انجلت سورة العداوة للجديد، لمجرّد أنه جديد، وذهب الزبد جفاء، بقيت الكتب عارية بحقائقها، قابلة للوفاء لها، أو الردّ عليها. وهو هدف آخر استهدفه طه حسين من وراء قراءة الشباب لكتابه:

«ثمّ إذا استطاع هذا الكتاب أن يلقي في نفوس الشباب، أنّ القديم لا ينبغي أن يهجر لأنّه قديم، وأنّ الجديد لا ينبغي أن يطلب لأنّه جديد. وإنّما يهجر القديم إذا برىء من النفع، وخلا من الفائدة، فإن كان نافعاً مفيداً فليس النّاس أقلّ حاجة إليه منهم إلى الجديد. فأنا سعيد موفّق لبعض ما أريد».

وتلك هي المعادلة الصعبة، على مرّ التّاريخ، في مجالات الحياة كلها. وفيما له علاقة بمقوّمات الإنسان روحياً وعقلياً وفكريّاً. على وجه خاصّ. أن تقنع المحافظين بصياغة جديدة لأصالتهم، لا تتخطّى أسلوب العرض بما يلائم روح العصر، وتشدّ اليافعين إلى منابعهم الأولى، وإن ندّت بأسلوبها القديم، المجافي لروح العصر.

وفي الحلقة الوسطى لطرفي المعادلة، ينجح بعض الكتّاب في فرض أنفسهم على الطرفين بما أوتوا من قدرة على الصياغة الملائمة، والأسلوب المقنع. لا بالأفكار التي قد تخطىء وتصيب، وإنّما بالمنهج الحديث في طرحها، والانجذاب إليه لمناقشتها، واستخراج الحقائق المطمورة في تراكم السنين، ومتاهات التأليف الموسوعي، وطرحها للعرض والطلب. والأخذ والردّ، ونفض الغبار عنها، وتجليتها من جديد، آسرة لأعين القرّاء، مثيرة لفضول النقد العقلي، المكوّن لطبيعة الإنسان.

وذلك ما نجح فيه، أمثال (هيكل) و(حسين) و(العقّاد) فيما كتبوه عن السيرة النبويّة. مع اختلاف بيّن في منهج الطرح بين الثلاثة. ففي الوقت الذي اعتمد فيه هيكل العقل، والعقل وحده في (حياة محمد) ولو على حساب المعجزات، والآيات الكريمة التي نصّت عليها. لم يستبعد (حسين) في (هامش السيرة) تلك الأخبار والأحاديث التي لا يرتاح لها المحدثون، الذين يكبرون العقل، ولا يثقون إلا به.

«وأحبّ أن يعلم هؤلاء أنّ العقل ليس كلّ شيء، وأنّ للنّاس ملكات أخرى، ليست أقلّ حاجة إلى الغذاء والرّضا. من العقل».

ووقف (العقّاد) موقف تقدير لعبقريّة محمد ﷺ وجلاه في إطار من العظمة البشريّة التي يشهد لها المسلم وغير المسلم. وهو لا يدّعي لصفحاته في (عبقريّة محمد)[1] أنها سيرة جديدة للمصطفى عليه الصلاة والسلام، ولكنّها فصول تجلية لجوانب العظمة فيه:

«فليس الكتاب سيرة نبويّة جديدة، تضاف إلى السير العربيّة والإفرنجيّة، التي حفلت بها (المكتبة المحمديّة) حتى الآن، لأنّنا لم نقصد وقائع السيرة لذاتها في هذه الصفحات. إنّما الكتاب، تقدير «لعبقرية محمد» بالمقدار الذي يدين به كل إنسان. ولا يدين به المسلم وكفى. وبالحقّ الذي يثبت له الحبّ في قلب كل إنسان. وليس في قلب كلّ مسلم، وكفى».

جاد المولى و(محمد ﷺ المثل الكامل)

في نفس الفترة من بداية الثلاثينات صدرت كتب أخرى في (السيرة النبويّة) في ثوب جديد من الصياغة في الأسلوب، ومنهج أجدّ في المحاور والفصول، الذي لا يعتمد التسلسل التّاريخي للوقائع، ولا الترابط الزمني للأحداث. ولا منهج المذكرات اليوميّة لحياة الرّسول ﷺ. أو الشهريّة لغزواته وسراياه، ذلك المنهج الذي درجت عليه كتب السير القديمة.

كتاب (محمد ﷺ المثل الكامل) يندرج في هذا التوجّه الجديد لكتابة السيرة، فهو يسلّط الأضواء على جوانب العظمة في خير البريّة، ويقدّمه

---

(١) (عبقرية محمد) العقاد، مقدّمة الطبعة الأولى.

المثل الكامل للبشريّة جمعاء، والقدواة المثلى لصياغة الشخصيّة الإنسانيّة السويّة، التي لا يمكن أن تتجلّى إلا في إطار الإسلام «صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة» و«إنّ الدين عند الله الإسلام».

ويعتبر (محمد ﷺ المثل الكامل) أسبق الكتب التي تمّ ذكرها في الظهور، فسرعان ما نفذت طبعته الأولى وصدرت طبعته الثانية سنة ١٩٣٢، قبل بدء (هيكل) نشر فصوله في (السياسة).

وممّا جاء في مقدمّة الطبعة الثانية:[١].

«وبعد. فلما طبع كتاب (محمد ﷺ المثل الكامل) طبعته الأولى، أقبل النّاس على اقتنائه، حتى نفد ما طبع منه، في أقلّ ممّا قدّر له. وقد كان من حسن توفيق الله تعالى، وجميل رعايته، أن تناولته يد طائفة كبيرة من جملة علماء الإسلام في سائر الأقطار العربيّة، فقرأوه قراءة تهذيب وتمحيص. ونظروا في أبوابه نظرة بحث وتدقيق. ثمّ كتبوا لنا بما عنّ لهم من آراء موفّقة، ومدح، لا نراه إلا حسن ظنّ منهم».

و(محمد أحمد جاد المولى) مؤلّف الكتاب، صاحب مؤلفات أخرى في نطاق (المكتبة المحمّدية) منها: (انشقاق القمر معجزة سيّد البشر). و(دستور الأفراد والأمم في سنن سيد العرب والعجم). و(الخلق الكامل).

والوظائف التي تقلّب فيها (جاد المولى)[٢] مدرّساً للغة العربيّة في مصر وفي جامعة اكسفورد في بريطانيا، فمفتّشاً في وزارة المعارف، فمراقباً لمجمع اللغة العربيّة، كان لها الأثر البيّن فيما اتّسم به أسلوبه من عراقة المعني، ورشاقة المبنى. وعمق الأصالة، وبعد الدلالة. ولطف الإشارة، ووضوح العبارة، وكل ذلك يتمثل في كتابه (المثل الكامل). وهو ما يفتقده القارىء في أسلوب (هيكل) الملفوف بغلالة فلسفية، ومجاهدة عقليّة، ومجادلة منطقيّة، تجعل استيعاب أفكاره، وبلورة مواقفه من الصعوبة بمكان، إلا على الدارس المتمرّس، والباحث المتخصّص.

---

(١) (محمد ﷺ المثل الكامل)، الطبعة الثانية. مطبعة دار الكتب المصريّة، القاهرة ١٣٥١ هـ ١٩٣٢.

(٢) (محمد أحمد جاد المولى: ١٨٨٣ ـ ١٩٤٤) الأعلام للزركلي، الجزء (٦).

محمد رضا وكتابه (محمد رسول الله ﷺ).

صدر الكتاب سنة ١٩٣٤، والكتاب استخلاص لسيرة الرسول ﷺ من مراجعها الأولى. بالنّسق ذاته الذي درجت عليه. في التسلسل التاريخي للأحداث والوقائع. مع إضافات متناثرة في الرّد على بعض المستشرقين، في قضايا، دأب الاستشراق على افتعالها مطاعن في الرسالة المحمّديّة، من بينها قضيّة تعدّد الزوجات، ومكانة المرأة في الإسلام. وبلورة ملامح من شخصية الرّسول ﷺ في نهاية الكتاب، وطائفة مختارة من الأحاديث النّبويّة، وجدول بتواريخ الحوادث المشهورة في السيرة النبويّة.

وفي إهداء الكتاب قال المؤلف[١]:

«هذه يا رسول الله، سيرتك الطاهرة العاطرة. أرجو أن تنال عطفك، وتحظى برضاك، وإنّي لم أرد غير وجه الله الكريم، والتبرّك برسوله الأمين، وخدمة المسلمين أجمعين».

وفي خاتمة الكتاب، لم يخل دعاء المؤلّف من الغاية التي استهدفتها الكتب الحديثة في السيرة، فاتحة وخاتمة، من إعادة الثقة إلى طلاّب العلم، والشباب المسلم. بنبيّهم الكريم، والتماس القدوة في سيرته العطرة. بعد أن حجبت ظلمات الجهل، وعصور الانحطاط، وحملات التشويه هذه السيرة عن أبناء المسلمين:

«والله أسأل، أن يوفّقنا إلى ما فيه رضاه، ويهدينا سواء السبيل. وينفع بهذا الكتاب طلاّب العلم، وأن يصلح به النّفوس. ويهدي الأمم الإسلاميّة إلى الاقتداء بسيّد الخلق، والعمل بسنّته. حتّى يعيدوا مجدهم. ويرفعوا قدرهم. اللهم آمين».

ولـ (محمد رضا) أمين مكتبة جامعة القاهرة، والمدرّس بمدرسة الجمعية الخيريّة الإسلاميّة كتب أخرى في الخلفاء الراشدين، وفي التربية والأخلاق[٢].

---

(١) (محمد رسول الله ﷺ)، دار الكتب العلمية، بيروت، بدون تاريخ.

(٢) (محمد رضا: ... ١٩٥٠). الأعلام للزركلي، الجزء ٦.

عبد العزيز الثعالبي والسيرة النبويّة

لم أرد بالعرض السّابق لبعض الكتب الحديثة في السيرة، الحصر، وإنّما التمثيل. والتركيز على تلك الكتب التي صدرت متزامنة مع المخطوطة التي أنجزها الثعالبي في بغداد، والتي هي مرجع هذا الكتاب، فالثعالبي لم يكتب السيرة سنة ١٩٣٨، سنة صدور الطبعة الأولى لـ (معجز محمد ﷺ) في حياته، وقبل وفاته بستّة أعوام، وإنّما كتب السيرة، قبل ذلك بعشر سنوات على أقلّ تقدير. وهذا التحقيق الزمني له دلالة كبرى في التأريخ لبداية التأليف الحديث في السيرة النبويّة.

فإذا كان الدّكتور (هيكل) بدأ التفكير في التأليف عن (حياة محمد) بدافع من نشاط حركة التبشير في مصر شتاء سنة ١٩٣٣، كما صرّح، أو بمناسبة عرضه لكتاب (ديرمنجم) (حياة محمد) كما هو الواقع على صفحات (السياسة) الأسبوعيّة بدءاً من فبراير ١٩٣٣. والمسافة بين الدافعين ليست بعيدة. ثمّ استعار نفس العنوان لكتابه الذي صدر بعد ذلك.

وإذا كان كل من كتاب (محمد المثل الكامل) و(محمد رسول الله) و(على هامش السّيرة) قد صدر في فترة لا تتجاوز سنة ١٩٣٤. باستثناء (عبقريّة محمد) الذي صدر متأخّراً ثلاثين سنة عن العزم على إنجازه.

إذا كان الإطار الزمني لهذه البدايات لصياغة السيرة النّبويّة بأسلوب معاصر، لا يتعدّى كما هو واضح أوائل الثلاثينات، فأين يقع الثعالبي من هؤلاء الرّواد، وقد أنجز السيرة تخطيطاً في أواخر العشرينات، وإن تأخّرت نشراً إلى أواخر الثلاثينات؟

ما من شكّ في أنّه في الموقع الرائد، تفكيراً. والموقف الأسبق، زمناً. والمقام الأوّل إنجازاً. ويبقى للإجتهاد مجال واسع في مستوى التأليف بين هؤلاء الروّاد، التأليف المتأرجح بين إعادة الصياغة للكتب القديمة في السيرة، لتقريبها من القارىء المعاصر. وبين الطرح الفلسفي العقلي الحديث لهذه السيرة، لاستثارة العقل المعاصر للغوص في أسرارها، وفهم أبعادها، طريقاً للإيمان العقلاني، وليس الإيمان الإتّباعي. ولسنا ندّعي الأفضليّة في ذلك للثعالبي، ولكنّ ريادته، لا تخلو من نفحات الجدّة،

ولمسات المعاصرة، وتركيز الأضواء على مواطن الاتّعاظ والعبرة في حياة الرسول ﷺ بمواقف المحنة والابتلاء في الحياة المعاصرة. أمّا ريادته الزمنيّة، وهي المعنيّة بالدّرجة الأولى في هذا العرض، فقد تبيّن في ضوء الأرقام السنويّة، أنّها غير مسبوقة. ويبقى السؤال:

ما الذي أخّر نشر المخطوطة عشر سنوات، بعد إنجازها؟!

إنّ الفترة الممتدّة بين شهر يوليو ١٩٢٣ ويوليو ١٩٣٧، وتعدّ أربعة عشر عاماً. وهي فترة المنفى للثعالبي خارج وطنه تونس، وإن قضاها معزّزاً بين إخوته أبناء العروبة والإسلام في أرجاء الوطن العربي.

هذه الفترة، تعتبر من أقسى المراحل في حياة الثعالبي، التي لم تعرف طعم الاستقرار مع أنّ بقيّة مراحل حياته من قبل ومن بعد، لم تكن أقلّ قسوة، ولا أوفر رحمة، فقد كانت سلسلة مترابطة الحلقات، من القهر الاستعماري، محاكمات مفتعلة، وسجناً مضنياً، لتعقبه البراءة. وصراعاً مع التخلف والرجعيّة، وإكراهاً على مغادرة الوطن والأهل والأحبّة. وسياحة ضاربة، ورحلة قاسية في أرض الله الواسعة، لاهثاً وراء ظلّ الإسلام في الهند والصين. عاملاً على الوفاق العربي في فترة من الاحتدام بين الأخوة والأشقّاء في بلاد العرب، متنقّلاً بين العواصم العربيّة، التماساً لدعم الثورات المنتفضة هنا وهناك في وجه الاستعمار الغربي. في (الدروز والغوطة) في سوريا. في (الريف) في المغرب، في (القدس) في فلسطين[١].

فالثعالبي في فترة الأربعة عشر عاماً، كان الرحّالة، لا يستقرّ له قرار، والزعيم الذي لا يغيب وجهه عن مؤتمر. ومصلح ذات البين في حلّه وترحاله، والصحافي الذي والي نشر أبحاثه في كبريات الصحف العربيّة.

---

(١) عمل الثعالبي على دعم ثورة الريف، أيام كان في تونس، وجمع لها التبرّعات من خلال الحزب الحرّ الدستوري، وعمل على دعم الثورة في سوريا، وهو يتنقّل بين البلاد العربيّة، ويلتقي بالزعماء العرب بعد توجّهه إلى المشرق، وله مراسلات تاريخيّة تتعلّق بهذا الدّعم، وتولّى تنسيق جمع التبرّعات للقضيّة الفلسطينيّة وهو مقيم في القاهرة بعد مغادرة العراق.

وتوالي هي نشر أخباره وتنقّلاته. وهو بعد ذلك، الرّحالة الكاتب. لم يطأ أرضاً عربيّة، إلا ودوّن يومياته فيها، أو أرضاً إسلاميّة، أو للإسلام فيها وجود. إلا وكان قلمه ظله فيها، يسجّل ليلاً، ما يراه نهاراً.

وفي الأربعة عشر عاماً في ديار الغربة والإغتراب، بعيداً عن الزوجة والولد. كان الثعالبي محاضراً في (جامعة آل البيت) في بغداد بدعوة خاصة من فيصل ملك العراق.

كتبت جريدة (الشورى) القاهريّة. سنة ١٩٢٧ ما يلي عن الثعالبي وهو في رحلته الثانية إلى الهند:[١].

«الذي نعلمه من رسالة وردتنا من بغداد، بالبريد الطيّار، منذ أسبوع، أن أكبر مقام في العراق طلب إليه: (الثعالبي) الرجوع لرعاية جامعة بغداد، وأن رئيس الجامعة أبرق إلى سعادته بذلك أيضاً. ولعلّه يستقرّ مدّة غير قصيرة في بغداد، فإن صحّ ذلك، فإنّنا نهنّي القطر الشقيق، بأكبر مصلح إسلامي في هذا العصر».

نشر الخبر متأخّراً في جريدة (الشورى) فقد استقرّ الثعالبي في بغداد منذ سنة ١٩٢٦ محاضراً للفلسفة الإسلاميّة وحكمة التشريع في (جامعة آل البيت) وناشراً محاضراته في مجلتها (الجامعة). بدءاً من العدد الأوّل. السنة الأولى (٣٠ شعبان ١٣٤٤/ ١٥ آذار ١٩٢٦).

ولعلّها الفترة التي عرف فيها الزعيم الضارب في أرض الله. نفحة من الاستقرار النسبي براتب شهري مقدّر، ووظيفة علميّة عالية، تستجيب لقدراته، ومقام معلوم في ملك البلاد. وحظوة مرموقة في علية القوم. وبين أدبائها ومفكّريها.

ولكن، ما كان للثعالبي أن يستقرّ، ولا للإستعمار الانجليزي الحاكم بأمره في أرض الرافدين. ولا للمعتمد البريطاني الملك الفعليّ للبلاد، أن

---

(١) جريدة الشورى العدد (١١٨) ٨ شعبان ١٣٤٥/ ١٠ فبراير ١٩٢٧ تحت عنوان (الأستاذ الثعالبي، سفره من الهند).

يترك للثعالبي طعم الهدوء والسكينة. والثعالبي مقضّ مضاجع المستعمرين، مشرقاً ومغرباً.

أغلقت (جامعة آل البيت) بأمر ودسيسة من المعتمد البريطاني، وملك البلاد معترض على إغلاقها، ولم يجد فيصل، صديق الثعالبي مندوحة من أن يحفظ للرجل كرامته، ويرتب له في القاهرة وظيفة تابعة لبغداد، فبعثه مراقباً للبعثات العلميّة العراقيّة في مصر. وهكذا انطوت صفحة الثعالبي في بغداد، بعد سنوات خمس، حافلة بالعطاء الفكري، والفيض القلمي، والحضور الاجتماعي. ومع قرب رحيل الثعالبي من العراق، خاضت الصحف المصريّة في خلفيات هذا الرحيل فكتبت (الشورى) منافحة عنه. وهي سجلّ أمجاده ومحافله في المشرق:[1].

«إنّ الأستاذ الثعالبي، قد لقي، ولا يزال يلقى من الشعب العراقي، ومن جلالة مليكه على الأخصّ، كل رعاية وإجلال، بل إنّنا لم نسمع أنّ أحداً من نزلاء العراق، أجمع الكلّ على احترامه وتقديره. كما أجمعوا على تقدير الأستاذ واحترامه. فقد طالما كان رسولاً سلام بين كبراء العراق، كلّما جدّ الجدّ، وقامت الأزمات الداخليّة بين الأحزاب المحليّة».

والفترة القاهريّة للثعالبي، الممتدّة من مغادرته بغداد سنة ١٩٣٠، حتى مغادرته القاهرة، عائداً إلى تونس سنة ١٩٣٧، لم تكن هي الأخرى فترة استقرار، فالثعالبي بفطرته عدوّ الخمول والخمود، حليف الحركة والتنقّل، بالرغم مما وهبه الله من بسطة في الجسم، علاوة على بسطته في العلم. ونسبة الفترة إلى القاهرة، نسبة نسبية، فقد قام في هذه الفترة بثلاث رحلات إلى الهند في نطاق مهمّة للأزهر، تجد هوى في نفس الثعالبي الذي زار الهند قبل ذلك مرّتين وهي فتح باب الإسلام للمنبوذين في الهند. وفي هذه الفترة، لم تغب القضيّة الفلسطينيّة عن جهود الثعالبي، ينسّق هذه الجهود مع الحاج أمين الحسيني، مفتي القدس، حتى أصبح الثعالبي محور القضيّة الفلسطينيّة في القاهرة، ينسّق وسائل الدّعم المادّي لها في الأوساط

---

(١) جريدة (الشورى) العدد (٢٣٢) محرم ١٣٤٨/يوليو ١٩٢٩، تحت عنوان: (الأستاذ الثعالبي).

المصريّة، والدعاية لها في الصحافة القاهريّة. وناهيك بوقفته المشهودة من أجل انعقاد المؤتمر الإسلامي في القدس سنة ١٩٣١[١].

«وكان أثره البليغ في توجيه دفّة المؤتمر مع السيد الحسيني ورياض الصلح، من أقوى أسباب نجاحه».

والفقرة لـ (محمد بهجت الأثري) العلاّمة العراقي، الذي حضر المؤتمر.

وهل تخلّت هموم تونس عن الثعالبي، أو تخلّى هو عنها، وهو يطوّح في المنافي والعواصم! ولا الأوفياء لإرثه النضالي في تونس، وزعامته لحركتها الوطنيّة، تخلوا عنه، فالعلاقات متواصلة، والمراسلات بين غدوّ ورواح، واللقاءات الشخصيّة لا تنقطع، ويكفي الثعالبي أنّه حامل القضيّة التونسيّة إلى الرأي العام العربي الإسلامي. وكانت قبله نسياً منسيّاً مع جارتيها الجزائر والمغرب.

وفوق كلّ ما ذكر، فإنّ الثعالبي في القاهرة في الثلاثينات كان مع نخبة من زعماء العرب. داعية الوحدة العربيّة. والمبشّر بالجامعة العربيّة، والواقف وراء تأسيس مجلّة (الرابطة العربيّة). وكان الثعالبي المنتدى والملتقى للزعامات، التي رست بها موجة الاضطهاد في القاهرة، أمثال عبدالرحمن شهنيدر بطل الثورة السوريّة، وسلطان باشا الأطرش، بطل الدّروز، ومحمد الخضر حسين، وإبراهيم اطفيش، رفيقاه في النضال السياسي ضدّ الاستعمار. وزعامات مصرية رائدة للعروبة فيها، أمثال علي سرور الزنكلوني، وأحمد شفيق باشا شيخ العروبة، ومنصور فهمي، وعبدالرحمن عزّام، أوّل أمين عام للجامعة العربيّة[٢].

---

(١) (عبد العزيز الثعالبي، رائد الحريّة والنهضة الإسلاميّة) أنور الجندي.

(٢) على صفحات مجلة (الرابطة العربية) التفت أقلام هؤلاء الدعاة للوحدة العربيّة وعلى غلاف هذه المجلة، نشرت أوّل خريطة للوطن العربي التي تضمّنها شعار (الجامعة العربيّة) بعد تأسيسها، والرابطة العربيّة هي التي طرحت استفتاء عن تأسيس امبراطورية عربيّة، وجّهته إلى أنحاء الوطن العربي، وكان الثعالبي أوّل المساهمين بتصوّره عن هذا الموضوع. وقد نشرت المجلّة أجوبة الثعالبي تحت =

فإذا كانت الصفة الغالبة للثعالبي في بغداد، صفة المحاضر في جامعة آل البيت، المؤلّف في الفلسفة الإسلاميّة وحكمة التشريع، الناشر لما ألف في مجلّة (الجامعة)، فإنّ الصفة الغالبة له في القاهرة، صفة الداعية للوحدة العربية، المبشّر بإمبراطوريتها على صفحات (الرابطة العربيّة).

ونصل إلى المرحلة الأخيرة من حياة الثعالبي وهو في تونس، الممتدّة بين عودته إليها في صيف ١٩٣٧، حتّى وفاته في شتاء ١٩٤٤. وتأتي هذه المرحلة، وكأنّها مجمع الهموم والآلام، ومصبّ الأوجاع والأسقام، المتحدّرة من الرحلة الطويلة المضنية للثعالبي من يوم إصداره (سبيل الرشاد) سنة ١٨٩٥[١] إلى أن لقي ربّه، قريباً من السبعين في عمره.

عاد الثعالبي إلى تونس أملاً لوحدة الحركة الوطنيّة المتناحرة، فكان التّناحر أقوى من الأمل، والشقاق أمضى من الوفاق، فضاعت الجهود المقعدة أدراج الرياح بالرغم مما أعطاها من جميل الصبر، ووهن العظم، ووطأة الشيخوخة. ولم يرحمه كل ذلك من استهدافه للاغتيال[٢]، وإن لم

= عنوان (الامبراطورية العربية التي نبشّر بها).
مجلة (الرابطة العربيّة) عدد (٨)، ١٥ يوليو ١٩٣٦.

(١) أصدر (محمد عبدالعزيز الثعالبي) جريدته (سبيل الرّشاد) في ٢٩ جمادي الثانية سنة ١٣١٣ هـ، ١٦ ديسمبر ١٨٩٥ (جريدة، علميّة، أدبيّة، سياسية، تاريخيّة) لكنّ لم يصدر منها إلا (١١) عدداً في سنة تقريباً، بعد تعثّر، بسبب مضايقات من السلطة الفرنسيّة، ومن رجال الدين، وتوقّفت في ٢٦ جمادي الأولى ١٣١٤/١ نوفمبر ١٩٩٦.
انظر: (عبد العزير الثعالبي) الدكتور صالح الخرفي، دار الغرب الإسلامي ١٩٩٦.

(٢) أشار الثعالبي في خاتمة (الكلمة الحاسمة) التي كانت نهاية محاولاته اليائسة في رأب الصدع في أسرة الحزب الحرّ الدستوري، قديمه وجديده، بغد عودته من المشرق، إلى حادثة محاولة الاغتيال فقال:
«كنت أودّ، أن أختم هذا البيان بكلمة حاسمة عن عصابة الديوان السياسي، التي حرّضت على قتلي ببلد (ماطر). ولكن، لما وقع منها ما وقع ضدّي، رأيت من الكرامة أن أمسك عنها، وأتركها للأمّة، التي أصبح واجباً عليها، تلقاء كرامتها، التي مسّت في شخصي، ومنزلتي منها، وجهادها المقدّس، الذي اضطلعت بحمل =

يسلم من مرافقيه من وقع صريعاً ضحيّة هذه المؤامرة.

وفي هذا الجوّ الصّاخب، والمعترك المتلاحم، كان الثعالبي يتحامل على نفسه، وعلي مبرّرات الخلود إلى السكينة والعزلة، ليحاضر عن (حياة محمّد) مساء كلّ جمعة في نادي حزبه (حزب الدستور) وينشر في جريدة (تونس)[١].

= لوائه، طيلة هذه السنين. فهي صاحبة القول الفصل، والحكم النزيه العادل، على الذين نكبوها في سياستها، وطعنوها في سمعتها، وضحّوا بمصلحتها العليا، في سبيل شهواتهم الدنيئة. وليس أنجع في مثل هذه المواقف، من حكم الشعوب نفسها، علي المارقين منها، والعاقين لها. وحسبنا الله، ونعم الوكيل. نعم المولى ونعم النصير.

(٣٠ سبتمبر ١٩٣٧).

انظر: عبدالعزيز الثعالبي، د. صالح الخرفي.

(١) للثعالبي رسالة، معبّرة، ومؤثّرة، عن شعوره بالوحدة، ومعاناته بالعزلة، بعثها إلى الحبيب شلبي عندما غادر تونس إلى سوسة في زيارة عائلية، صيف ١٩٣٨، فأطال المدّة. فشقّ ذلك على الثعالبي، وهو يفتقد زائره الوحيد في وحدته، ويتحسّر على عهده بالمشرق، أيّام لا يجد فرصة للخلوّ بنفسه، في غمرة الملتفين حوله. كتب يقول:

«أكتب إليك، وفي القلب لوعة لفراقك، وفي النفس فراغ أحدثه بعدك، فقد كنت لي خير مواس في هذه الغربة المضنية، التي طوّحت بي في وطني. وكان منزلي، أينما سرت في عالم الله مأهولاً بالعلماء والمفكرين، كالروض زاهراً بمختلف الألوان. وما كنت أشكو بثّي من شيء، شكاتي من اتّصال زياراتهم في الليل والنهار. واستغراقهم لأوقاتي، دون أن يتركوا فتراً منها، أخلو فيه بنفسي. فكنت متبرّماً بهذه الحال، أفرّ منها إلى مثلها، متنقلاً مع كواكب الأسحار، فوق متون البحار، علني أحد تلك الخلوة، أناجي فيها نفسي في فجوة من النّاس.

وإذا بتلك الحال التي تبرّمت منها، لا تتحوّل، وإذا بها لا تفارقني. ولم أشعر بأنّها الحياة، إلا بعيد رجوعي إلى تونس. ورأيت القوم أزهد ما يكونون فيّ. فوجدتني بينهم في فراغ لا مكاء فيه. لا يصل بشيء من أسباب الحياة. وقد كنت مغموراً فيها، وسط عالم النّاس. اللهمّ، إلاّ إذا استثنيت تلك الساعات القلائل، التي كنت تلمّ بي فيها مع طائر الغروب، يستوفزه المبيت على الأيكة، فأجد من فيض عقلك وأدبك، ما يعيد إليّ نصيبي من الحظ المجدود. وما كنت أدرك =

ولكنّ الرصاصات إن أخطأت الثعالبي، فلم يخطئه الشلل النصفي الذي لازمه حتى أنفاسه الأخيرة، ومن لطف الله، وبعض الشرّ أهون من بعض، أنّ الشلل كان في الجانب الأيسر، لتبقى للثعالبي فرصة الحركة بالجانب الأيمن، كاتباً ومؤلّفاً، تلك الصفة الملازمة له حتى النّفس الأخير:

«أمّا سؤالك الثاني عن صحّتي، فهو المشكل الذي لا أدري كيف أجيبك عنه. سوى وصف ما أنا عليه: لا أشعر بشيء إلا في حالين، إذا آويت إلى فراشي، أشعر بانحطاط في أعصابي، وإذا مشيت قليلاً، أشعر بضغط في القلب، ويعتريني دوار.

وأمّا إذا خلوت إلى كتبي وقلمي، فإنني لا أشعر بشيء ممّا أعانيه، وربما كنت أفضّل أن أبقى بينهما إلى أن أتمّ هذه المرحلة المتعبة من حياتي، مرحلة الآلام والأسقام. والظاهر من قرائن الأحوال، أني لم أخلق لأعيش في هذا البلد، إلا بمقدار ما أنيطت عنّي فيه تمائمي».

«فالعلّة التي أصابتني، فشلّت يدي ورجلي، وأثقلت لساني، لكنّها لم تمسّ جذوة التفكير مني، وسلامة الإدراك والتمييز»[1].

بعد هذه الجولة مع الثعالبي في رحلته التي لا يقرّ لها قرار. هل يبقى السؤال مطروحاً؟ لماذا لم ينشر الثعالبي مخطوطته عن السيرة؟ أم يتحوّل السّؤال إلى هذه الصيغة: كيف استطاع الثعالبي أصلاً أن يؤلّف (السيرة) و(الرحلة) و(الفلسفة الإسلاميّة) و(حكمة التشريع) وغيرها من المخطوطات التي لم تر النّور إلا بعد خمسين سنة من وفاته. وكثيرها لم ير النّور بعد!

= لذاذة تلك الساعات، المسرعة سرعة البرق الخاطف، إلا حين طواها عنّي بعدك. فأحسست بالفراغ الذي تركته في نفسي، وقد كنت تملؤه بروائع الحياة. فأدركت أنّك بالغت في حرماني، وأسرفت في القطيعة. وكنت أنتظر منك خيراً من هذا، في هذا البلد، البائس، الفقير في شعوره، وعاطفته، وعقله».

(1) مذكّرات بخط اليد، وهذه المذكرة بتاريخ ٧ ديسمبر ١٩٤١، وللحبيب مذكرة أخرى بتاريخ ديسمبر ١٩٤٠، تشير إلى تغيّر حال الشيخ بعد إصابته بالشّلل. الأمر الذي يدلّ على أن الشلل أصاب الثعالبي قبل هذه الفترة، ومعناه أنّه بعد عودته من المشرق، صيف ١٩٣٧، لم يعش سليماً غير سنتين أو ثلاث.

إنّ نعمة الاستقرار، ووفرة ذات اليد، ووسائل الطباعة والنشر المتاحة لـ (هيكل) و(حسين) و(العقاد) وغيرهم، لم تكن متاحة، ولا جزء منها للثعالبي، طريد الاستعمارين الفرنسي والإنجليزي، وسجينهما في آن واحد. فقد تحالف عليه العدوّان، وعلى مطاردته في مواطن نفوذهما في المغرب والمشرق. كما كان الحال بالنسبة لزعماء الثورة على المستعمر، والساسة الدعاة إلى التحرّر من ربقته، أمثال الخطابي وشهبندر وأرسلان، والباروني[1].

ومع ذلك، تبقى للسؤال وللردّ عليه مبرّرات.

ما كاد الثعالبي ينجز السيرة في بغداد سنة ١٩٢٩ حتى طوّحت به الأسفار من جديد كما ذكرنا، وفي القاهرة تابع، من غير شك، فصول (هيكل) في (السياسة) عن (حياة محمد) وحضر مع وجوه القوم حفل التكريم المشهود الذي أقيم لهيكل في فندق (الكونتيننتال) احتفاء وتنويهاً بصدور كتابه. ولعلّ هذا المشهد الباهر من الأسباب التي زادت في شعور الإحباط عند الثعالبي، فزهّدته فيما كتب، وهو يرى الوسائل تخونه، قلّة في ذات اليد، وضيقاً في الوقت لمراجعة ما كتب، وتسليمه للنّشر. وهكذا وضع المخطوطة جانباً، منغمساً في قضايا سياسية عاصفة، ورحلات طويلة شاقة، وتقديم رجل وتأخير أخرى في العودة النهائية إلى وطنه تونس.

وعصفت العواصف بالثعالبي في تونس، وأعياه الصلح، وأضناه

---

(١) نشرت جريدة (الشورى) تحت عنوان (الأستاذ الباروني) ما يلي:
«لا يزال الأستاذ الباروني الجليل، الزعيم الطرابلسي المعروف، في مملكة مسقط، وقد علمنا، أنّه يودّ سكنى الإسكندريّة، ليأتي إليها بعائلته الموجودة بطرابلس الغرب، وأنجاله من الأستانة.
ولكن انجلترا، تمنعه من دخول أيّة أرض تحكمها، أو تتسلّط عليها، وكذلك فرنسا وإيطاليا. وهكذا نجد زعماء الشرق، كالأمير شكيب أرسلان، والثعالبي، والباروني، لا يجدون في الممالك الإسلامية واحدة يستطيعون العيش فيها بسلام».
(الشورى)، العدد (٨٢) ٢٢ مايو ١٩٢٦.

الجهد، وأقعده المرض. ولكن عاوده الحنين إلى (حياة محمد) فحاضر تحت هذا العنوان، وكأنّه يستعيد حفاوة القاهرة بالعنوان في شخص هيكل(١).

ويبدو لي، أنّه لولا الحاح من محبّيه في تونس، ومن الشباب الذي كان نصب عينيه في كلّ ما كتب، أملاً في صياغته من جديد في ضوء سيرة نبيّه ﷺ لبقيت السيرة مخطوطة، ولم يصدر بعضها في (معجز محمد رسول الله ﷺ).

وتحت وطأة هذا الإلحاح، أدخل الثعالبي على المخطوطة بعض اللمسات في الإخراج، فقسّمها فصولاً، تقسيماً غير مبرّر، فقد لا يتجاوز الفصل نصف الصفحة، والصفحة الواحدة. ودخلت الفصول على العناوين العادية في المخطوطة من غير تعليل، وتسلسلت حتى الفصل: (السادس والأربعون) خاتمة (معجز محمّد) المطبوع سنة ١٩٣٨ وهي نهاية لا تمثّل إلا نصف المخطوطة، كما أشير إليها في هذا الكتاب. يقول الثعالبي في المقدّمة:(٢).

«ولما وفقني الله إلى تدوينه، وتبويبه وتقسيمه، سمّيته (معجز محمد رسول الله) وبدا لي أن أعجّل بطبعه ونشره، إجابة للرّغبات الملحّة التي تقدّمت إليّ من أساطين الشباب، ونبهاء الطلاّب، حرصاً على تعميم فوائده، واستعراضاً لفرائده، وجمعاً لشوارده، وقيداً لأوابده».

ثمّ يؤكّد الثعالبي، أن إقدامه على النشر، لم يخل من إحجام، لولا مبرّرات للإقدام أوكد، واعتماد على الله يبعث على المضيّ في طريق مرضاته:

«لهذا وأمثاله، أقدمت بعد الإحجام على إخراج هذا الموجز، معتمداً في قبوله على الله. ومن اعتمد عليه كفاه. ووقاه عثرة القلم، وزلّة القدم».

ولكنّ الثعالبي لم يكمل مراجعة السيرة، ولعلّ معاناته القاسية، لا من

---

(١) انظر الهوامش السابقة.

(٢) (معجز محمد رسول الله) الطبعة الأولى، مطبعة الإرادة، تونس ١٩٣٨.

الأوجاع والآلام والشّلل النصفي، فقد لمسناه لا يجد الرّاحة منهما، إلا في القرطاس والقلم، وكأنّه لا يشتكي ألماً. وإنّما هي معاناة أخرى في تصحيح (معجز محمد) وتصويب أخطائه، ولقد كانت معاناة كافية لإقناعه بصرف النظر عن النشر، وتركيزه على التأليف، وسيأتي بعد ذلك، طال الزمن أو قصر، من يتولّى مهمّة النشر.

هذه شكواه، المرّة لابنه وصفيّه (محمد الحبيب شلبي) مما لاقاه في تصحيح (معجز محمد):[1].

«فارقتني يا «حبيبي» وقد تركتني، أشغل من ذات النحيين بالكتاب، عانيا بإصلاح ما أفسده الطبّاع من عباراته، وإذا بي، بعد تجليده، اضطّر إلى تدارك أخطاء المجلّد، في ترتيبه وتنسيقه، وهكذا ضاعت نفائس أوقاتي، بين إصلاح ما أفسده الطبّاع، وتعديل جربزة (غشّ) المجلّد. فقد أكرهني سوء عملهما، وإن شئت، فقل، غشهما، على إعادة فحص النسخ وتعقّبها ورقة ورقة. لتدارك ما حدث فيها من خلل. وفي ذلك من المشقّة والاستغراق، ما يصرفني عن الاشتغال بأيّ عمل آخر. ناهيك بمجهود يقوم به الفرد لإصلاح ما أفسده الآخرون من عمله، الذي ائتمنهم عليه، وآجرهم على إتمامه وإتقانه، فأخلّوا بواجبهم، ولم يؤدّوا الأمانة حقّها. فرأيتني تلقاء ذلك، مجبوراً على تلافي ما أفسدوه. ومضت طوال الأيام، وأنا منهم بين مجهود مضن، وأسى موجع».

وأغرب من حديث الأمرين وأعجب، أنّ النسخ التي حصل في تجليدها خلل، أعيدها إلى المجلّد، بعد تنبيهه إليه. فإذا به يتسلّمها، ثم يعيدها (بعد أن يغيّر غلافها) دون أن يلتفت إلى إزالة الخلل الذي أعدتها به. ولمّا أعود إلى تفحّصها أرجعها إليه. وربّما تكرّر ذلك مراراً. هكذا دواليك. ولست أدري، ولا المنجّم يدري، متى ينتهي بيننا هذا الدّور المغيض المحنق، الذي إن دلّ على شيء، فإنّه يدلّ على تأصّل الغشّ وتمكّنه في عمّالنا، وهم موئل الرجاء المحزون لهذا الوطن المنكوب».

---

(١) من رسالة للشيخ إلى الحبيب شلبي في سوسة. أشّر عليها شلبي بخطّه: هذه الرسالة أرسلها إليّ صديقي الثعالبي في صائفة ١٩٣٨.

والطبعة التي صدرت في حياة الثعالبي، رغم هذه المعاناة القاسية في المراجعة والتصحيح، طبعة مليئة بالأخطاء (٢٣١ خطأ في ٢٥٦ صفحة) باهتة الإخراج، متداخلة الصفحات. وقد تولّى الثعالبي بنفسه ومن بيته، فضلاً عمّا سبق، توزيع نسخ الكتاب، واستخلاص أثمانها أقساطاً، في الفترة الممتدّة من سبتمبر ١٩٣٨ إلى فبراير ١٩٤٠، في ضوء قائمة بخط يده، تحمل عنوان: (أسماء الذين تسلّموا نسخاً من كتابي، معجز محمد رسول الله).

وهكذا انتقل الثعالبي إلى رحمة الله، وكتابه في السيرة، صيغتان، صيغة بالفصول وهي التي صدرت في حياته، وأعيد نشرها فيما بعد. وصيغة بغيرها، تتماشى مع مخطوطة بغداد، وهي التي صدرت في الجزء الثاني، اعتماداً على نسخة ثانية للمخطوطة، أو للجزء الذي لم ينشر منها في حياة الثعالبي.

والثعالبي كثير التحسّب لصروف الدّهر وتقلباته، وقد عانى منه ما يكفي، لذلك كان كثيراً ما يعمد إلى استنساخ مؤلّفاته على أكثر من نسخة، مستعيناً ببعض الكتبة المقرّبين منه، المدركين لمكانته العلميّة، كما كان يفعل القدماء زمن الورّاقين والخطّاطين، ولهذا تعدّدت النسخ بغير خطّه، وتوثقت بمراجعاته وإضافاته وتصويباته الخطية كما لاحظنا ذلك في القصاصة المثبّتة على صورة مخطوطة تونس. فكان هذا التعدّد من أسباب بقاء هذا الإرث الفكري الزاخر للثعالبي، رغم استهداف محوه، والقضاء عليه قضاء مبرماً[١].

---

(١) أشار الثعالبي في إحدى رسائله إلى الحبيب شلبي في ٢٢ أغسطس ١٩٤٠ إلى مسألة الاستنساخ هذه فقال: «أرجو إن واتتك المصادفة بلقاء السيّد الصادق سيالة، أن تسأله عمّا تمّ في استنساخ الجزء الأوّل من تاريخ إفريقية؟ فقد طال العهد به. والحاجة إلى النسخة أكيدة، لإضافة مباحث خطرت لي في هذه الأثناء».

ملامح الحداثة في مخطوطة الثعالبي

أمّا وقد أمكننا أن نحدّد الموقع الزمني لمخطوطة بغداد من التأليف الحديث في السيرة النبويّة الشريفة، فهل يمكننا أن نحدد بعض ملامح هذه المخطوطة صياغة وأسلوباً؟

كما سبقت الإشارة، كان همّ الثعالبي، وهو يخوض غمار إصلاح المجتمع من خلال نضاله السياسي، هو إصلاح هذا المجتمع بالرجوع به إلى منابعه الأولى التي ابتعدت عنه، تحت تأثير الانحطاط الداخلي، والتسلّط الخارجي. والثعالبي عانى من أقطاب الجمود الفكري، معاناته من ظلم المستعمر الأجنبي، فقد دخل السجن بتسلّط من الاثنين معاً، المتحالفين عليه، وكانت الشكاوي ضدّه ترفع من (شيخ الإسلام) و(شيخ المدينة) لتصبّ في دار الإقامة العامّة الفرنسيّة[1].

فاتجه الثعالبي، محاضراً وخطيباً وكاتباً ومؤلّفاً إلى إعادة طرح الصفحات المشرقة للإسلام والعروبة، طرحاً معاصراً أمام المستمعين له، والقارئين لإنتاجه. وأدرك مبكّراً ما أدركه (طه حسين) فيما بعد، استحالة قدرة الشباب على استخلاص العبرة التاريخيّة من هذه المطوّلات

---

(١) من أسباب توقّف جريدة الثعالبي (سبيل الرشاد) شكوى من شيخ الإسلام (أحمد ابن الخوجة) وكان الثعالبي اعترض في الجريدة على إحدى فتاويه، وإن لم يصرّح باسمه، فكتب ابن الخوجة رسالة إلى الكاتب العام بالإقامة الفرنسيّة (روا) وكان واسع النفوذ، ومرجع السلطة.
«أمّا بعد الدّعاء لكم بالسعادة الأبديّة، فننهي إلى جنابكم، أنّ هناك إنسان يقال له عبد العزيز الثعالبي، أحدث «جرنالا» أسماه (سبيل الرّشاد) تجرأ فيه على مقام (المشيخة الإسلامية) بجهله المظلم، وخطابه الفاحش، وتنزيل كلام العلماء في غير محلّه.
وإذا كان العبد الضعيف، رئيس الديانة الإسلاميّة، تجوسر على فتواي بالجهل! فكيف لغيري من أهل الشرع، فنرغب منكم، أيها الصادق الحازم، المبادرة لتعطيل هذه الجريدة، والانتصاف من صاحبها، لينزجر هو وأمثاله عن أمثال هاته التصوّرات الصادرة عن غير إدراك».
وكانت هذه الشكوى سبب مصادرة (سبيل الرشاد) وتعطيلها.

والموسوعات، المثقلة بالاستطرادات، والمرهقة بالعنعنة التي عرفتها كتب الأحاديث، وتعدّد الرّواية للواقعة الواحدة، وحشد الأشعار، أصيلة ودخيلة على نسق السّرد التّاريخي، إضافة إلى لغة من التأليف قديمة، لا تخطئها الغرابة في اللفظ، ولا التعقيد في التعبير.

فأعاد الثعالبي صياغة السيرة بقلمه صياغة كاملة، وجمع أطرافها المتناثرة في محاور محدّدة، وركّز على موطن العبرة من الحادثة التاريخيّة في ضوء الواقع المعاصر، ومنهج السيرة في بناء الشخصيّة، وانتشالها من ظلام الجاهليّة إلى نور الإسلام، وهو يتمثّل جاهلية معاصرة تحيط بالمسلم، وتحاصره، فأحبّ أن يتداركه بنصّ موثوق به، قريب منه، في سيرة نبيّه ﷺ. فقال في مقدّمة (معجز محمد)[1].

«وقد سلكت في تخريج فصوله، وإثبات فروعه وأصوله، على ما صحّ عندي من الرّواية، وتبيّنته من الدراية. سالكاً في النقل مسلك الثقات المتقدّمين، معتمداً في التخريج طريقة النقاد المعاصرين، ليكون وسطاً بين المذهبين، وجامعاً لما تفرّق بين الموردين. وهو كما رأيت، عمل شاقّ، لا يقدم عليه إلا من كان مدركاً تبعة النقص الفاضح، والفراغ الواضح في حياتنا العلميّة، ومقوّماتنا الاجتماعيّة، وما ذلك بالشيء اليسير في جانب ثقافتنا العامّة، من الناحيتين الدينيّة والسياسية».

وإضافة إلى هذه الفقرة الموحية، لمنهج الثعالبي في صياغة السيرة، فإنك تلمس لفقراته وفصوله، نفساً معاصراً في هذه المداخل التي يمهّد بها، أو الخواتم التي يذيّل بها، والعناوين التي يتخيرها. وكأنّه يصبّ العبرة في قالب من الواقع المعاصر الماثل، فأنت تقرأ هذه الفقرة في المدخل للدّور الثالث للإسلام، يغمرك إحساس جارف بلفظة: (تحرير المستضعفين) في العنوان، وتغشاك قشعريرة نابعة من عمق المأساة التي يتخبّط فيها العالم العربي، تحت نير التسلّط الأجنبي[2]:

---

(١) (معجز محمد رسول الله) المقدّمة.

(٢) وعنوانه لإحدى الفقرات: (حملة رسول الله ﷺ على العرب المستدجنين للروم).

«لمّا تحرّرت الأمّة العربيّة من نير التقاليد الزائفة، ووحّد الإسلام بين قبائلها، وآرائها المختلفة في الحجاز، وأقام لها الرسول من أوساطها دولتها العتيدة. لم يبق في سبيلها مانع من بسطها السلطان، ومزاحمتها للدّول القويّة على التفوّق، وإدارة دفة السياسة والسيادة العالميّة.

ولتحقيق هذه الغاية، كانت المبادرة واجبة لإنقاذ العرب القابعين تحت نير السلطتين الفارسية والروميّة في شرق وغرب بلاد العرب».

ويصادفك هذا النفس في غير عنوان في الكتاب:

- حملة رسول الله ﷺ على العرب المستدجنين للروم.
- دور التغلب ومناجزة الأمم وتحرير المستضعفين.
- عقوبة الجاسوس القتل.
- قرار مجلس شوري الإسلام.
- التدابير العسكرية للتجهيز والنّفير.
- عقد مجلس الشورى العسكري.
- نظام الاستخبار العسكري.
- ذكاء المخبرين السرّيين.

والثعالبي وهو يعيد صياغة السيرة النبويّة بنبض معاصر، ويغمس ريشة قلمه في وضع عربيّ محتدم، متّقد الجبهات في أواخر العشرينات، لا تتمتّع فيه دولة عربيّة واحدة بسيادتها كاملة، ولا بإرادتها حرّة، وتتصدّر هذا الوضع البئيس، قضيّة فلسطين، ونذر المؤامرة عليها تتجمّع، وقوى العصف بها تتحالف، والثعالبي يحمل همّ فلسطين بين جوانحه، وينتفض حميّته لها في مواقفه، ويعيش في قلب فلسطين جسماً وروحاً، يستعيد في الواقع المرير محنة الإسلام مع اليهود، فرصد هذه المحنة في السيرة رصداً شاملاً، وأعطاها أكثر من وقفة فاحصة، وأبدى وأعاد في التماس العبرة فيها، في وفاء الرّسول للقوم، وغدرهم به، وإيمانه بنبيّهم، وكفرهم بما جاء مكتوباً عنه ﷺ في التوراة، الأمر الذي يقود إلى الدلالة القاطعة، والقناعة الرّاسخة، بأنّ العداوة بينهم والإسلام عداوة تاريخيّة، لا يرجى لها شفاء:

«لتجدن أكثر النّاس عداوة للذين آمنوا اليهود».

وقد أضفى الثعالبي على السيرة قداسة ومهابة بأن استمدّ عناوين فقراتها من الأقوال المأثورة عن صاحبها عليه الصلاة والسلام في معالجة الوقائع التي تعرّضت له في حياته الشريفة. فغالباً ما تنتهي الفقرة بنقطتين، يليها قول الرسول ﷺ عنواناً للفقرة اللاحقة، والفهرس الذي حصر هذه الأقوال المأثورة في الكتاب يبرهن عن مدى غزارتها وشيوعها في السيرة.

والسيرة من قبل ومن بعد، رصد ذكيّ لأسباب نزول الآيات الكريمة، مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالحدث، وقلّما خلت واقعة في السيرة من آية كريمة تظلّلها، ووحي أمين يوثّقها، فلست تقرأ كتاباً في السيرة فحسب، وإنّما هو إلى جانب ذلك، معجم في أسباب نزول الآيات، فيما يقرب من مائتين وخمسين موضعاً، في خمس وستّين سورة من الذكر الحكيم.

وليست تلك وحدها محاسن هذه الصيغة الثعالبيّة للسيرة العطرة، فكل قارىء لها، قادر على استكشاف مكامن الروعة في ثناياها، واستلهام العبرة في زواياها، واستنارة الطريق في ضوء إشعاها الهادي إلى سواء السبيل.

وإنّ لأسلوب الثعالبي، قدرة على العودة بك أربعة عشر قرناً، ليضعك في موقع الأحداث من بعثة الرسول، وظهور الإسلام، تعيشها، وتواكب خطوات الرسول فيها. وترهف السمع لأقواله الكريمة، وتلتمس القدوة في أفعاله العظيمة.. لتعود إلى موقعك المعاصر بشحنة روحية، ومباركة سماوية. وقد نفحتك السيرة العطرة بعثاً جديداً.

وحسب الثعالبي أن يكون قد وفّق، بفضل من الله، إلى طيّ هذه المسافة المطوّحة بين الشباب المسلم وتعاليم دينه وسنّة نبيّه، وسدّ ذلك الفراغ في المكتبة المحمّديّة أمام الأمّة الإسلاميّة:

«بعد أن أجهدها الطلب، وفاتها الأرب، وهي لا تجد لبغيتها مورداً، ولا لما ترومه مساعداً. اللهمّ إلا واحداً من كتابين اثنين، لا ثالث لهما:

كتاب أروبي[1] لا يتحاشى مؤلّفه عن الغمز واللمز والهمز في صاحب الرّسالة العظمى، مما ينفثه يراعه في روع قارئيه، من وسوسة الحيرة، وفتنة الشك، تحت ستار البحث العلمي، هذا إن أنصف، ولم يتعسّف، وقليل ما هم.

وكتاب عربيّ[2] أشبه بمنجم من التبر، إلا أنّه غير معدّن، ولا مسبوك، والطريق إليه وعر، لا معبّد ولا مسلوك، مرتّب على نسق قديم. وأسلوب غير سليم، لم يتناوله مقصّ المشذّب، ولا تمحيص الناقد المهذّب، يتعثّر الذهن في مساق عبارته، ويرتبك الفهم في مورد إشارته، ففترت الهمّة عن قراءة الكتابين. وبسبب ذلك، قلّت الرّغبة في الاطلاع على حياة إمام المرسلين ﷺ»[3].

وهذه الفقرة للثعالبي من مقدّمة (معجز محمد رسول الله ﷺ تؤكّد من جديد ما سبق أن بيّنّاه بأن المكتبة المحمّديّة، والثعالبي يضع مخطوطته هذه، ويقصد المكتبة الحديثة المعاصرة، كانت خالية، شاغرة، إلا من

---

(١) الطبعة الجديدة لـ (معجز محمد رسول الله) كانت بتقديم ومراجعة، دكتور محمد اليعلاوي. وقد أشار في المقدّمة إلى افتراض كتاب (DERMENGHEM) لما يعنيه الثعالبي بـ (كتاب أروبي). ولا أرى غير ذلك. فالكتاب أخذ شهرة واسعة في العالم العربي، واهتمّت به الصحافة العربيّة، وقد عرّبه عادل زعيتر فيما بعد.

(٢) ويذهب دكتور اليعلاوي إلى أنّ الثعالبي لعلّه يقصد بـ (كتاب عربي) كتاب محمد حسين هيكل (حياة محمد). وقد سبقت الإشارة إلى ترجيح ذلك. وإلى أنّ الثعالبي، كان حاضراً حفل التكريم الذي أقيم لهيكل.

(٣) تملّكتني الحيرة في المقارنة بين هذا الحكم من الثعالبي على كتاب هيكل، وهو لا يعني غيره، وبين الرواج الواسع الذي لقيه، ويلقاه هذا الكتاب حتّى اليوم. وتذاكرت ذات يوم مع أستاذي الدكتور شوقي ضيف، رئيس مجمع اللغة العربيّة في القاهرة، في هذا الموضوع. وأحسست بعدم إنصاف من الثعالبي لهيكل في حكمه هذا على كتابه. وقال الدكتور ضيف، إن أسلوب هيكل ممتع، ولكنّه ملفوف بغلالة فلسفيّة عقليّة. وأخبرني أنّه أهدى نسخة من (حياة محمد) لأحد أحفاده، فأعاده إليه بعد أسبوع. وقال له: إنه لم يفهم منه شيئاً. ولا أظنّ الثعالبي يقصد غير هذا. فهو يريد تقريب السيرة النبويّة من الشباب، وليس تقليبها بالأسلوب الذي يرضى الخاصّة.

كتابين: أوروبي. ولا نخال يقصد غير كتاب (حياة محمد) لـ (ديرمنجم)، وعربي. وما من شك، يقصد كتاب (هيكل). الذي عاصر نشر فصوله في (السياسة) وحضر حفل تكريمه. ولم يشر إلى كتاب (جاد المولى) ولا كتاب (محمد رضا) فهما لم يلقيا من الرواج والشهرة والسيرورة، ما لقيه الأوّلان.

ولست أدري! لم يلمّح الثعالبي ولا يصرّح! لعلّ من أسباب ذلك هذه الحفاوة البالغة بكتابين يراهما غير جديرين بها. لدسائس مبطّنة في كتاب مستشرق، لم يسلم من سوء النيّة، وإن اتّسم بحسنها في نظر الكثيرين. ولمنهج، مسلكه وعر، في كتاب عربيّ، يكلّ الذهن دون بلوغ المقصد منه.

على أنّ الثعالبي، وقد رجّحنا أن يكون تلميحه هذا منصبّاً على كتاب هيكل. قد ناقض بقوله: (مرتب على أسلوب قديم، ونسق غير سليم) مقولة هيكل بأن الحداثة العلميّة، هي السمة الأولى لكتابه، وأنه الرائد في مسلكها: [(١)].

«بل لعلّي أكون أدنى إلى الحقّ، إذا ذكرت أني بدأت هذا البحث في العربيّة على الطريقة العلميّة الحديثة، وأن ما بذلت في هذه السبيل من جهود، لا يخرج هذا الكتاب عن أنّه بداءة البحث من ناحية علمية إسلامية في هذا الموضوع الجليل».

وما من شكّ في أن للثعالبي هو الآخر ريادته، لا الزمنيّة وقد أوضحنا موقعها، وإنّما المنهجية، فسبقه في أوائل هذا القرن إلى تناول السيرة، تلخيصاً، وتهذيباً وصياغة، هو ما انتهت إليه جهود الباحثين في السيرة في أواخر القرن. فتنوّعت العناوين التي تتصدر كتب السيرة، تحمل في تنوّعها المراوحة بين المحافظة على النّصّ القديم، مع استخلاصه من شوائبه،

---

(١) ردّ الشيخ المراغي على هيكل في هذه الدّعوى. وقال في المقدّمة:
«وأما أن هذه الطريقة حديثة، فهذا ما يعتذر عنه، وقد ساير الدكتور غيره من العلماء في هذا. ذلك لأنّها طريقة القرآن، كما اعترف هو، ولأنها طريقة علماء سلف المسلمين».

ودراسة السيرة دراسة موضوعيّة جديدة، مما يندرج في:

المكتبة المحمّدية المعاصرة:

عبد السلام هارون وتهذيب سيرة ابن هشام

في سنة ١٩٧٦ صدرت الطبعة الأولى لهذا (التهذيب) وفي عشر سنوات بلغت طبعاته العشرين[١]. ويلتقي (هارون) و(الثعالبي) في منهج التهذيب والاختصار للسير المطوّلة، واستخلاص النصّ المرتبط بالسيرة ارتباطاً وثيقاً، واستبعاد الاستطرادات التي تكتنفه، والتركيز على الواقعة في حياة الرّسول. والاستغناء عما استتبعته من الأشعار والأقوال. والأعراض عن العنعنة في مستهل النصّ، إلا ما يتّصل بابن إسحاق أو ابن هشام، عند (هارون) وما يتّصل بهما وبغيرهما عند (الثعالبي) الذي وسّع دائرة مصادره.

لكنّ الثعالبي، أعاد صياغة النّص، واحتفظ هارون بالنّص الحرفي للسيرة الهشامية، وذاك فارق بيّن بينهما. الأوّل أجال يراعه في صلب النص، وبعثه بعثاً جديداً. والثاني كان حارساً أميناً على النصّ، لم يجرؤ على مسّه، وإنّما على استخلاصه. فقال[٢]:

«فحاولت في هذا (التهذيب) أن استخلص لباب هذا التأليف لأقدّمه إلى القارىء في ثوب جديد، يستسيغ النظر فيه، ولا تنقطع به السبل في تلاوته، مع الحرص التّامّ على نصّ الكتاب. فإنّي لم أبدّل حرفاً واحداً من نصّ الكتاب، لأنّي راعيت فيه أمانة الأداء. وراعيت باطراد، أن أنسب إلى ابن هشام، ما هو له، بأن أنصّ على ذلك في صدر كلامه».

---

(١) قال عبد السلام هارون في المقدّمة:
«فلقي هذا الكتاب من القبول في مصر وفي أنحاء العالم العربي والإسلامي، ما ارتفعت به عدد طبعاته إلى ما فوق العشرين، بين طبعة شرعية أذنت فيها للناشر بحق الطبع. وبين طبعات مزيّفة لم آذن للنّاشر فيها. بل اختلسها اختلاساً».

(٢) (تهذيب سيرة ابن هشام) عبد السلام هارون. مكتبة السنّة، الطبعة السادسة. ١٤٠٩هـ ١٩٨٩م.

و(الثعالبي) و(هارون) يلتقيان في السيرة، منطلقاً وغاية، منطلق الإدراك الواعي، بأنّ هذه المطوّلات في السيرة النبويّة، لم تعد ممّا يستسيغه الذوق المعاصر في القراءة والمطالعة، مع الحاجة الماسة إلى توثيق الصلة بمضمونها في نفوس الشباب، والإحساس المرير، بضيق الصدر، وعزوف النفس عند هؤلاء الشباب، في تناولهم للسيرة من مظانها القديمة، وهي معاناة عاشها (عبد السلام هارون) شاباً مع سيرة (ابن هشام) فكانت الدافع له لهذا (التهذيب).

«وقد كنت في صدر الشباب، أحاول المرّة بعد الأخرى، أن أقرا هذا الكتاب الجليل من مبتدئه إلى منتهاه، فكان يصدّني عن ذلك، ما كنت أجده في ذلك التأليف من اضطراب واستطراد، يكدّ الذهن ويجلب السآمة. فلا أقرأ منه إلا أجزاء متناثرة».

ذلك هو المنطلق، فما الغاية؟

عبّر عنها الثعالبي في صدر (معجز محمد) بـ(رغبتي)[1] وقال سنة ١٩٣٨:

«ينقص المسلمين في مكتباتهم الخاصة، وجود كتاب قيّم، سهل الفهم، قريب المأخذ. يطالعون فيه حياة نبيّهم، على نسق حديث، يجمع بين اللذّة الروحيّة، والمتاع العقلي، فيه هداية الله، وعبرة التاريخ، بأسلوب واضح اللفظ، ظاهر المعنى بحيث يتمثّل لقارئيه، كأنّهم عاصروه ﷺ».

وهي، الغاية ذاتها، عند عبد السلام هارون:

«وأمّا بعد، فإنّ التهذيب ضرب من التيسير، لمن لم تتح له قراءة الأصل، ووصلة صالحة، تصل بين شباب اليوم، وتراثهم القديم الكريم.

ويحسبك، أنّك تستطيع أن تقرأ هذا الكتاب في أيّام معدودات، فتظفر منه بالخير العاجل الكثير. وأنت إذا قرأت الأصل، ولست بمطيقه. اقتضاك هذا من الوقت أشهراً معدودات».

---

(١) قدّم الشيخ الثعالبي لـ(معجز محمّد) بمقدّمتين الأولى بعنوان (فاتحة الكتاب)، والثانية بعنوان (رغبتي).

والغاية، وأن أتّحدت، لكن الطريق إليها، مختلفة، وشاقة. والمنهج في وجهتها على اجتهاد متفاوت، هو عند الثعالبي، صياغة حديثة. فيها من وضوح اللفظ، وقرب المأخذ، ومتعة العقل، وصولاً إلى اللذة الرّوحيّة، ولكنّها عند (هارون) جهد في التصنيف، وانتقاء في التأليف، ووعي بالتشذيب، وتيسير بالتهذيب.

فأنت تقرأ في (سيرة) الثعالبي، روح عبد العزيز في الصياغة، وتلمس في (سيرة) ابن هشام، عقل عبد السلام في التهذيب.

جمال بدران والسيرة النبويّة للطبري

السيرة، كما هو واضح من العنوان، للطبري، في موسوعة (تاريخ الأمم والملوك). كما هي لابن هشام عند عبد السلام هارون، غير أنّ الجهد في غاية التفاوت بين الاثنين، ففي الوقت الذي أضفى عبد السلام على السيرة، من علمه الواسع، بصيرة في الانتقاء، وذخيرة في التحقيق والتعليق، فخرج النصّ الهشامي في ضوء جهوده، واضح الملامح، مشرق المأخذ، قريب التناول، دون إشارة منه ـ تواضعاً ـ على غلاف الكتاب إلى لفظة (تحقيق). حرص عليها (بدران) دون أن يشفعها بجهد حقيقي، وبالرغم من أنّه حدّد في مقدّمة الكتاب منهجاً للعمل، وعدّد له سبعة أمور، فإنّه لم يكن وفيّاً لهذا المنهج، بل كان متناقضاً معه أحياناً، باستثناء تخليص نصّ الطبري من الأسانيد، والعنعنات، والتكرار. وتوثيق السور والآيات، وهي موثقة أصلاً في الطبعات التي سبقته. وخلت صفحات الكتاب من أيّ جهد في التعليق أو التحقيق. بل خلت من الهوامش، إلا نادراً[1].

وبالعكس من ذلك تماماً. فإنّ (بدران) سطا على جهود (محمد أبو

---

(١) الكتاب يقع في (٤٠٠) صفحة، خالية من أيّ جهد علمي في الهامش، إلا في صفحات معدودات وبهوامش باهتة، باستثناء تعرضه لقصة (زينب) أم المؤمنين، رضي الله عنها. (السيرة النبوية لابن جرير الطبري). تحقيق جمال حمدان. الدار المصرية اللبنانية. الطبعة الأولى ١٤١٤هـ ١٩٩٤م.

الفضل إبراهيم) في تحقيقه الرائع لتاريخ الطبري، واختلسها من الهوامش، وأقحمها في صلب النصّ، وتركه مشوّهاً، لا هو بالنّص الطبري السليم. ولا بالنصّ المحقّق الأمين! بل إنّ بعض الأخطاء الواردة في طبعة (أبي الفضل) كرّرها (بدران) ولم يتنبّه لها. كقوله (ذكر رسول الله ﷺ وأسبابه) والصحيح (أنسابه). كما هو واضح.

وفي الوقت الذي يلتزم فيه (بدران) بالنّص الحرفي للعناوين الرئيسيّة للطبري، يخذله في العناوين الفرعية. فقد اكتفى في ذكر نسب رسول الله ﷺ بابن عبد المطلب وابن هشام، وأسقط بقيّة السلسلة حتى عدنان!

ومن مظاهر التناقض والاضطراب، أنّه جاء في المقدّمة، «لذلك فإنّني وضعت نصب عينيّ عدّة أمور في إعادة قراءة تاريخ الأنبياء والسيرة النبويّة».

والكتاب، لم يتعرّض أصلاً لتاريخ الأنبياء، وإنّما تعرّض لأصحاب الكهف، ويونس بن متّى، وإرسال الله رسله الثلاثة؛ الوارد ذكرهم في قوله تعالى:

«واضرب لهم مثلاً أصحاب القرية، إذ جاءها المرسلون، إذ أرسلنا إليهم اثنين، فكذّبوهما، فعززنا بثالث. فقالوا: إنّا إليكم مرسلون»؛

وهي عناوين واردة في تاريخ الطبري. لكنّ المحقق ينتقل منها مباشرة، متخطياً ١٥٠ صفحة، إلى ذكر مولد رسول الله ﷺ فتتساءل عن المبرّر في إقحامها في الكتاب دون غيرها، مع إغفال ذكرها في الفهرس؟! فلا تجد ردّاً يشفيك، إلا أنّ هذه العناوين واردة في بداية الجزء الثاني من تاريخ الأمم والملوك، الجزء الذي تقع ضمنه السيرة النبويّة، حتى ذكر خروج رسل رسول الله إلى الملوك.

فهل يكون هذا الإقحام المبتور في صدر الكتاب، تبريراً لذكر الأنبياء في مقدّمته مع إغفالهم في الفهرس!

وملاحظة أخرى، تنمّ عن عدم الأمانة لنصّ الطبري، بل وتشويهه، والزيادة عليه، والانتقاص منه. فعند تعرّض المحقق! للآية الكريمة: «فساهم فكان المدحضين» في قصّة يونس عليه السلام. أضاف بعد الآية

مباشرة ما يلي: (فساهم أي فقارع. ومن المسهومين. أي من المغلوبين) وهي غير واردة في نصّ الطبري بتاتاً. والطبري ذكر المساهمة ثلاث مرّات، والمحقّق اختصر الثانية، وقفز إلى الثالثة.

ذاك نموذج، وفي الصفحات الأولى من الكتاب، فأين التحقيق؟!

إنّه اقتطاع عشوائي لبعض من الجزء الثاني، وبعض من الجزء الثالث من تاريخ الطبري، وادخالهما في المطبعة بدعوى التحقيق!

صالح الشامي والسيرة النبويّة

السيرة النبويّة، تربية أمّة، وبناء دولة، ذاك هو مدخل المؤلّف، إلى نفس جديد في كتابة السيرة، والإحاطة بهذه السيرة الثريّة المباركة، من كلّ جوانبها المبدعة، تغذية للرّوح وتصحيحاً للعقيدة، وتزكية للنّفس، وتربية للذات، وترويضاً للصبر. كلّ ذلك، والدعوة المحمّدية في مهدها بمكّة، ثم الهجرة، إلى بناء الدّولة في المدينة، اجتماعياً، واقتصادياً، وسياسياً، وعسكريّاً.

فمكّة، مهد بناء الذات المسلمة في حضن الدّعوة الجديدة. والمدينة، مهجر الدّعوة لبناء الدّولة.

في الكتاب جهد صادق، ومنهج رائد، في سبيل التماس الملامح المشرقة للرسالة المحمديّة، وبلورتها في أبواب وفصول: وصبّها في فروع وأصول. تتنّوع لتتوحّد، وتتباين لتتساند، لتضعك في النهاية أمام صورة متكاملة، لعبقريّة الإسلام في البناء المتكامل للإنسان وللدّولة معاً.

فالسيرة بهذا المنهج، تحرّرت من الإطار التقليدي المتوارث، أعواماً بعثية في مكة، وسنوات هجرية في المدينة تعاقبت فيها الأحداث، مرتبطة بالسنوات، فالسنة لم تعد المدخل، وإنّما الوقائع أصبحت المحور[1].

«وإنّي، إذ أسهم بهذا البحث في هذا الميدان، فإنّه لن يكون بحثاً في السيرة التقليديّة، التي تعمد الغزوات أساساً لها. كما أنّه لن يكون بحثاً في الشمائل التي تعتمد صفاته ﷺ وأخلاقه أساساً للبحث.

---

(١) (السيرة النبويّة، تربية أمة وبناء دولة) صالح أحمد الشامي، المكتب الإسلامي، الطبعة الأولى ١٤١٢ هـ ١٩٩٢ م.

وإنّما أحاول رصد حركة الدّعوة في السيرة، هذه الحركة التي ربّيت بها أمّة، وقامت عليها دولة.

وهي محاولة جديدة ـ كما أحسب ـ في بابها، بذلت جهدي في سبيل استكمال خطوطها العريضة. ومع ذلك، فإنّي أشعر بتقصيري، ولعلّ مما يشفع لي، أنها خطوة على الطريق، لعلّ الله يهيىء لها من يتابعها، أو يتيح لي في الأجل، فأتدارك ما فات».

وإنصافاً للتّاريخ، وللرّوّاد فيه، فإن (جاد المولى) قد نحا هذا النحو قبل ستّين عاماً. في أوائل الثلاثينات في كتابه (محمد ﷺ المثل الكامل)، غير أنّه ركّز على بناء الفرد خلقياً بهدي من السيرة النبويّة. وفي ضوء الآية الكريمة ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾. في الوقت الذي اتّجه فيه (الشامي) إلى بناء الأمة والدّولة معاً. وبصورة أشمل.

جعفر ماجد و(محمد النبيّ الإنسان)

وفي تونس، ظهر مؤخراً (محمد النبيّ الإنسان)[١] للشاعر الدكتور جعفر ماجد، وهو الكتاب الذي فاز بجائزة وزارة الشؤون الثقافية لسنة ١٩٩١.

وقد تساءل المؤلف في مستهل مقدمته للكتاب:

لماذا كتاب آخر عن النبيّ ﷺ؟ فأجاب:

«هذا السؤال، لا بد أن يخطر ببال كثير من الناس. وقد ألقاه عليَّ بعض الأصدقاء. ويمكن أن يكون قد ألقى على من سبقني إلى الكتابة في السيرة النبوية، وهم كثيرون، بسبب غزارة أدبهم، وتقارب تجاربهم. لا سيما في العصر الحديث. إلا أنّ هذه التجارب في رأيي، لم يكرر بعضها بعضا. لأن السيرة النبوية، غنية، ثرية. وكل كتابة في هذا الباب، قد استجابت لحاجات عصرها، وأدت وظيفتها في حينها».

ويلتقي الدكتور (ماجد) في تأليفه هذا. غاية، مع من سبقه في هذا الدرب، تلك الغاية التي تحاول أن تضع الشباب المسلم المعاصر على

---

(١) منشورات (رحاب ـ المعرفة). تونس ط٢ ١٩٩٤.

مقربة واعية بعظمة الرسولﷺ. مؤمنة بالأسوة الحسنة في خلقه العظيم. مسترشدة بهديه القويم للبشرية، كلما طوحت بها المذاهب، وندت بها الأهواء. وتأليت الأحقاد على الإسلام، ورسوله الأمين. وتلك حال الشباب المسلم في عصرنا هذا:

«ولكن لابدّ، في غمرة هذه الضجة الكبيرة حول الإسلام عامة، والنبي خاصة، من اللجوء إلى أسلوب آخر، ييسر الاتصال بالشباب المسلم، الذي تتجاذبه التيارات وتتقاذفه الأهواء، وهو في حيرة من أمره، ليرى في شخص نبيه، دون تطرف أو تهويل؛ أنموذج المسلم المثالي، في حياته الخاصة والعامة، التي كانت حياة يسَّرية، بلا خوارق، إلا صفات عظيمة تبقى، على عظمتها، في حالة الإمكان لأن النبيّ بشر وإنسان».

وكتاب (محمد النبي الإنسان) اضافة جديدة للمكتبة المحمدية المعاصرة، ونفس جديدة في الطرح والتناول. يجمع بين الأسلوب القصصي الروائي، والحوار العقلي، والشاعرية الشفافة، وليس الكتاب (سيرة) وإنما ومضات من السيرة.

جهود التحقيق في مخطوطة الثعالبي

أوّل شعور تملّكني، ونظري يقع على المخطوطة للمرّة الأولى، شعور مزيج من البشرى بالعثور عليها، والإشفاق من إنقاذها، فقد كانت سيئة الحال، وإن وصلت سليمة المآل، صفحاتها غير منقوصة، ولكنها متآكلة الهوامش بفعل الرطوبة. وهي في وضع مسودّة أولى، كثيرة التشطيب، متداخلة الفقرات، جمّة الإحالات برموز وأسهم، استنّها الشيخ لنفسه، يضع الرّمز في صلب النصّ، ويضع مثله في موقع الإحالة، أو على القصاصة المضافة، وقل أن خلت صفحة من المخطوطة من هذه الإشارات والرّموز.

وللشيخ طبيعة في الكتابة، تلحظها في كل ما ترك من إرث في أوراقه. وهو استهلاك الصفحة إلى آخر نفس في أطرافها، حتى إذا أراد أن يضيف أو يعلّق، تداخلت السطور في بعضها، وربّما أضاف على قصاصات مرهفة الورق، سيئة الحبر. فتتغير الحروف بفعل الزمن، ويكلّ النظر في تبيّن أصولها. والصفحة المشحونة حتّى أطرافها، ضحيّة لأوّل عادية من الزمن

على هذه الأطراف، تآكلا وتحوّلا، على أن العهد بها ليس ببعيد، إذا قيس بمخطوطات ضاربة في القدم.

والشيخ، بعد ذلك، إن لم يكن رديء الخطّ، فهو من غير شك ليس جميله، ولا واضحه، لا هو بالخط المغربي البيّن، ولا الشرقيّ المعهود، ثمّ هو دقيق الكتابة، مرهف الحروف، مرصوص الفقرات. تنمّ عمّا أنعم الله عليه من حدّة في النظر، وإن استعمل النظّارات. ولم يخطئه النظر السليم حتّى آخر حياته.

وما كنت أتصوّر لي قدرة على إنقاذ المخطوطة من هذا الوضع المبهم، إلى وضع سليم، مقروء، قابل للنّقلة إلى الحرف المطبوع، فأنا المدرك لما في نظري من ضعف، وما في النفس البشريّة من وهن الصبر. فصمّمت على الاستعانة بمن له خبرة بالخطوط، يهيّء لي النّص للمراجعة والتحقيق. ولكن ما لبثت أن استخرت الله، أن يمنحني القوّة، ويثبّت الإرادة، ويسدّد النظر، ولا يحرمني أجر كتابة سيرة نبيّه المصطفى بخط يدي. متيمّناً بقول الثعالبي، وهو صاحب الفضل في هذه السيرة.

«أما بعد. فقد خرت الله تعالى، في عمل نافع مبرور، ادّخره في صحيفتي ليوم النشور. ينتفع به المؤمنون، ويسترشد به الحائرون، فخار لي سبحانه وتعالى، أن أجمع هذا الموجز من السيرة الطاهرة النبويّة، على صاحبها أتمّ الصلاة، وأزكى التحيّة».

فصحوت فجر يوم الاثنين ٢١ شعبان ١٤١٥ هـ ٢٣ جانفي ١٩٩٥ م. وقد انفتحت، بتوفيق من الله، النّفس للمخطوطة، واشتدّ الشوق للسيرة العطرة، فلازمتها شهراً كاملاً، بأيامه ولياليه، بقية شعبان، حتى العشر الأواخر من الشهر الكريم. أصحو عليها، وأغمض عنها. وما في النظر من ضعف، وما في النّفس من وهن، حتّى أكملتها في خمسمائة صفحة، عشيّة يوم الخميس ٢٣ رمضان ١٤١٥ هـ ٢٣ فيفري ١٩٩٥. له الحمد في الأولى والآخرة.

وألزمت نفسي بعدم الرّجوع إلى المطبوع من (معجز محمد) إلا بعد استكمال نقل المخطوطة نقلاً كاملاً، وإرجاء ذلك إلى مرحلة التحقيق والتعليق، وقد بذلت قصارى الجهد في استكمال نواقصها، مما توفّر لديّ

من مصادر السيرة، واستيضاح ما أبهم عليّ من غير مرجع، ولم أستوف ذلك كلّه، فقد بقيت فقرات من المخطوطة شاغرة، دللت عليها بنقاط، وأشرت إليها في الهامش، وإن كانت، والحمد لله، قليلة.

وقد رمزت إلى طبعة (الإرادة) بحرف (أ) ومخطوطة بغداد بحرف (ب) ومخطوطة تونس بحرف (ت) وطبعة (دار الغرب الإسلامي) بحرف (غ).

ثمّ إنّ الشيخ، كثيراً ما يدرج شروحه وتعاليقه في صلب النّص، لا في هامشه، ويضعه بين هلالين، فما ورد في النّص من ذلك فهو للمؤلّف، وما ورد في الهوامش، حرصت على التنصيص عليه، إن كان للمؤلّف أو المحقق، دفعاً للالتباس.

ولم يضع الشيخ للمخطوطة أبواباً أو فصولاً، كما فعل فيما طبع من (معجز محمد) في حياته. باستثناء التنصيص على الدّور الثالث للإسلام، (دور التغلّب ومناجزة الأمم وتحرير المستضعفين)، ولم يلتفت إلى الدّورين الأوّل والثاني، وأغفل ذكرهما، فهما في الكتاب من وضعي، اجتهاداً، أرجو ألا يخطئه الصواب. وكذلك العناوين المحوريّة الكبرى المؤطرة في هذه الطبعة، هي من إضافة المحقّق، وليست في المخطوطة، أردت بها. إبراز ملامح للسيرة العطرة، في بعض الفترات الحاسمة من مسيرتها المباركة.

أمّا العنوان، فلم يكن للمخطوطة عنوان، وأوّل عنوان على الصفحة الأولى منها، كان (البعثة المحمّدية) وكان من المعقول جعله عنواناً للكتاب، وقد حدّثتني النفس بذلك. لولا أنني وجدت هذا العنوان ينصبّ على الفقرة التي تليه، لا على الكتاب بكامله، ووجدت الشيخ، رحمه الله، كثيراً ما يردّد صيغة (الرّسالة المحمّديّة) في معرض الدّعوة إلى دراستها، والتأليف فيها، كما مرّ في فقرة التقديم لمعجز محمد ﷺ فهي الاسم الجامع للسيّرة النبويّة، المستمدّ من صفة النبوّة والرسالة، المنوّه به في القرآن الكريم «وما أرسلناك إلاّ رحمة للعالمين».

وأردت أن أكون وفيّاً للمخطوطة، وقد تركها الشيخ بلا عنوان، وتحمّلت مسؤوليّة وضع عنوان لها. ولم أكرّر فيها عنوان (معجز محمد)

الذي اختاره لطبعة (الإرادة) فتلك طبعة أخرى، شقت طريقها، وتفاوتت صيغتها، رحل الثعالبي قبل أن يستكملها، واستكملت بعد رحيله. ولكنّها تبقى ناقصة بالنّسبة لهذه النسخة، فيها فراغ بين الجزأين الأوّل والثاني، ونقص في خاتمة السيرة، وقد أشرت إلى ذلك في موضعه.

* * *

دعاء. والأجر لمن قال: (آمين)

أسأل الله عز وجلّ، أن يجعل هذه الطبعة الجديدة، لسيرة نبيّه المصطفى، زيادة خير وبركة، في وفرة القارئين لها، والمؤتسين بها، وأن يدرجها في قوله، عزّ من قائل: «وفي ذلك فليتنافس المتنافسون» وأن يشمل الخطأ والنّسيان بتجاوزه الكريم، وعفوه العظيم. فإنّه الرحمن الرحيم. فإن أخطأ الجهد، فقد خلصت النيّة، وإن عزّ القصد، فمن عظمة خير البريّة.

اللهم. إنّه جهد خالص لوجهك، الذي أشرقت له الظلمات. ومحبّة في نبيّك، سيّد الكائنات. فما وقفتُ في سيرته على موطن للعبرة، إلا وامتزجت فيه النظرة بالعبرة. وإنه لجهد، الفضل الأسبق فيه، للثعالبي تأليفاً، وللحبيب شلبي صيانة وحفظاً. والرجاء من كرمك الواسع، أن تجعل من هذا التحقيق، تكملة لفضل سابق، وتقدمة لاستدراك لاحق، استرشاداً بآيتك الكريمة «وما أوتيتم من العلم إلاّ قليلاً».

إلهي. والقلب ينبض بسرّ وحدانيتك، والعين ترفّ بنور آياتك، واليد تخطّ سيرة صفوة أنبيائك. أتوجّه، بقلب خاشع، ولسان ضارع، إلى نفحة من آيتك الكريمة: «يثبّت الله الذين آمنوا بالقول الثّابت في الحياة الدنيا، وفي الآخرة».

وتكرّم. إلهي، على دعاء المؤلّف بالاستجابة، كما أكرمته في إنجاز السيرة بالاستخارة. وأشملنا بالاثنين معاً. في احتساب هذا الجهد في العمل النافع المبرور، وادخاره لنا في الصحف يوم النشور.

وأختم هذا المدخل بما افتتح به الثعالبي مقدّمته لـ (معجز محمد ﷺ):

﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾.

صالح الخرفي

الجمعة، غرّة صفر الخير، ١٤١٨ هـ يونيو/ حزيران ١٩٩٧ م

٨ نهج الفاضل بن عاشور

المنزه الخامس ـ تونس

البعثة المحمدية

الصفحة الأولى من مخطوط بغداد بخط المؤلف سنة (١٩٢٩)

الصفحة الأخيرة من مخطوطة بغداد

وتحمل رقم (٢١٥)

١٧٢

[illegible]

غزوة أحد

الفصل السابع والأربعون

تزعم قريش الثأر من رسول الله صلى الله عليه وسلم

لم يهدأ لقريش بال، ولم يهنأ لهم طعم بعد ما أصابهم في واقعة بدر من الكسر، ومقتل أشرافهم وكبرائهم وما زالوا يسعون في المطالبة بالثأر حتى مشى عبد الله بن ربيعة، وعكرمة بن أبي جهل، وصفوان بن أمية، ورجال آخرون من أشرافهم إلى أبي سفيان بن حرب، وإلى كل من كانت له تجارة في العير التي كانت سببا في وقعة بدر، وكانت أموالها موقوفة في دار الندوة لم توزع على أربابها، فقالوا لهم إن محمدا أوتركم وقتل رجالكم وخياركم ولم تدركوا ثأركم، فأعينونا بهذا المال على حربه لعلنا ندرك منه ثارا عمن أصاب منا، وقد طابت نفوسنا أن تجهز بربح هذا العير جيشا إليه.

فأجابهم أبو سفيان إلى ذلك عن نفسه وعن بني عبد مناف، ثم أجابهم الآخرون، فسلموا الربح بعد أن استلموا رؤوس أموالهم، وكانت خمسين ألف دينار، وفي ذلك نزلت الآية: "إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله، فسينفقونها، ثم تكون عليهم حسرة، ثم يغلبون".

تجهزت قريش بعد أن دعت أحلافها من قبائل كنانة، وتهامة الراغبين في طاعتهم. ودعا صفوان بن أمية [illegible] فامتنع أبو عزة، وقال: إن محمدا أنعم علي فلا أريد [illegible] ولك إن رجعت أن أغنيك، وإن أصبت أن أجعل [illegible] به حتى أغراه وأقنعه، فخرج أبو عزة ومعه مسافع [illegible] يجرضانهم ويدعوانهم إلى حرب رسول الله [illegible] كان يقذف بحربة له قذف الحبشة فلما يخطئ بها،

تابع صحيفة ١٧٦ علامة

خرج أبو سفيان بن حرب وهو قائد الناس ومعه امرأته هند بنت عتبة، وعكرمة بن أبي جهل بأم حكيم بنت الحارث بن ربيعة(؟)، والحارث بن هشام ابن المغيرة بفاطمة بنت الوليد بن المغيرة، وصفوان بن أمية ببرزة بنت مسعود بن عمرو بن عمير الثقفية، وعمرو بن العاص بريطة بنت منبه بن الحجاج، وطلحة بن أبي طلحة عبد الله بن عبد العزى بن عثمان بسلافة بنت سعد [illegible] وكلاب، وخرجت خناس بنت مالك بن المضرب إحدى نساء بني مالك مع ابنها أبي عزيز بن عمير أم مصعب بن عمير، وخرجت عمرة بنت علقمة إحدى نساء بني الحارث بن عبد مناة بن كنانة.

[illegible] الأحابيش، ومن خاف من بني كنانة، وأهل تهامة [illegible] راية [illegible] بن الجوزي، ساروا بالقيان والدفوف [illegible] الجملة خمس عشرة امرأة يبكين قتلى بدر، ويحرضن

وكانت هند كلما مرت بوحشي أو مر بها تحرضه وتقول له: ويها أبا دسمة اشف واشتف.

[illegible] يعتذر عما لحقه يوم بدر، وأبى أن يساعدهم بشيء [illegible] عليه قريش مع رجل استأجره من بني غفار [illegible] ثم كتاب العباس إلى رسول الله وهو يومئذ بقباء يخبره

الفصل السابع والأربعون

على صفحة من مخطوطة تونس التي اعتمدت عليها الطبعة الأولى سنة ١٩٣٨

وأصدرتها (دار الغرب الإسلامي) في طبعة ثانية سنة ١٩٨٤

والفصل السادس والأربعون هو نهاية الطبعة الأولى

المخطوطة ليست بخط المؤلف وإنما تعقَّبها بملاحظاته وإضافاته بخطه

مثل القصاصة الملحقة بهذه الصفحة بعلامة وبخط الشيخ

تقدمة وفاء ومحبة لنابغة
الشباب التونسي الوقور السيد
الحبيب شلبي من أبيه
عبد العزيز

معجز محمد رسول الله

« ان المجتمع الاسلامي هو نسيج »
« الرسالة المحمدية، فاروني ماذا »
« صنع غيرها من الرسالات »
عبد العزيز الثعالبي

الجزء الثاني

لمؤلفه:
عبد العزيز الثعالبي

الطبعة الاولى

١٣٥٧ — ١٩٣٨

مطبعة الارادة - تونس

الطبعة الأولى من (معجز محمّد رسول الله ﷺ)

وعلى النسخة إهداء بخط اليد من المؤلف نصه:

«تقدمة وفاء ومحبة لنابغة الشباب التونسي، الوقور السيّد الحبيب شلبي من أبيه عبد العزيز الثعالبي»

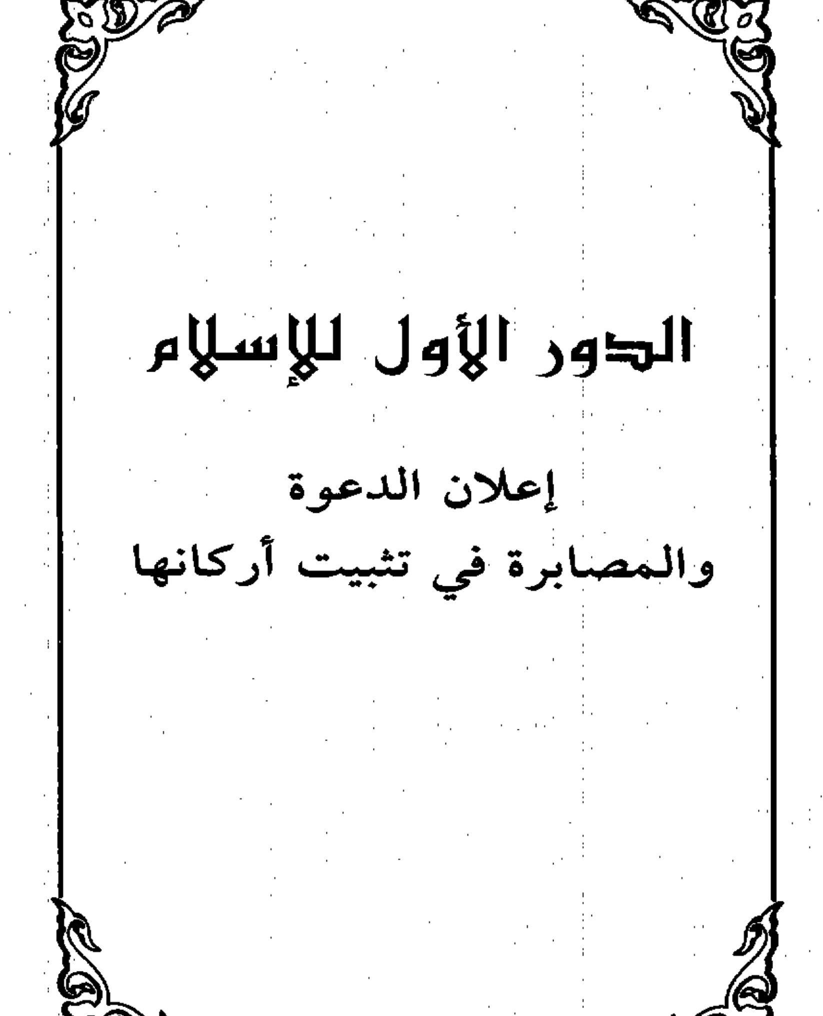
بسم الله الرحمن الرحيم

الإهـــداء

إلى الشباب المسلم المعاصر
في مواجهة الجاهلية المعاصرة

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾

صدق الله العظيم



الدور الأول للإسلام

إعلان الدعوة
والمصابرة في تثبيت أركانها

بسم الله الرحمن الرحيم

البعثة المحمدية

روى ابن إسحاق: لمّا بلغ رسول الله ﷺ أربعين سنة بعثه الله رحمة للعالمين وكافة للناس أجمعين.

وعن أنس بن مالك أنه بعث على رأس الأربعين. وهو القول المشهور بين الجمهور من أهل العلم بالأثر. وضعّف العلماء روايات الزيادة، فإن من الرواة من قال بزيادة يوم، ومن قال بزيادة عشرة أيام. ومن قال بزيادة سنتين. وهي روايات شاذة، وأكثر منها شذوذاً، زيادة ثلاث سنين وخمس سنين.

عموم البعثة المحمدية للناس كافة

روى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ قام عام تبوك من الليل يصلي، فاجتمع رجال من أصحابه، يحرسونه. أي: ينتظرون فراغه من الصلاة، حتى إذا صلى، وانصرف إليهم، بشرهم فقال لهم:

«لقد أعطيت الليلة خمساً ما أعطيهن أحد من قبلي. أما أولهن: فأرسلت إلى الناس كلهم عامة[1]» أي: من في زمنه وغيرهم إلى آخر ما يأتي. وبعثه لجميع الخلق ثابت التواتر، وهو مفيد للقطع.

---

(١) ثانياً: ونصرت بالرعب.
ثالثاً: وأحلت لي الغنائم.
رابعاً: وجعلت لي الأرض مسجداً وترابها طهوراً.
لم تتضمن مخطوط (ب) خامساً. وربما تآكلت الصفحة فيه. ووردت في طبعة (غ) في صلب النص: خامساً وبعثت لجميع الخلق وفيه تكرار لـ(أولاً) وإن استبعد الهامش ذلك. ولكن (خامساً) في (صحيح البخاري): وأعطيت الشفاعة. مع اختلاف في الصيغة. وتقديم وتأخير. المحقق.

ولا ينافي عموم البعثة قوله تعالى:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾ لأنه لا يدل على اقتصار رسالته عليهم، بل على كونه تكلم بلغتهم أولا، ثم يبلغ الشاهد الغائب ويحصل الإفهام لغير أهل تلك اللغة من الأعاجم الذين أرسل إليهم بالتراجم. فهو النبي المرسل إلى الكافة، وإن كان هو وكتابه عربيين، بدليل قوله تعالى: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾.

الدّعوة إلى الإسلام

كانت الدعوة في مبدأ البعثة خفية، فقد كان رسول الله ﷺ يدعو الناس إلى الله سراً. واتبعه ناس عامتهم ضعفاء من الرجال والنساء. وقد أجمع رواة السيرة النبوية على أن:

أول الناس إيماناً بالرسول ﷺ على الإطلاق: خديجة رضي الله عنها. وقال ابن الأثير: لم يتقدمها إلى الإسلام رجل ولا امرأة. وقال ابن إسحاق: إنها أول من آمن بالله ورسوله، وصدقت بكل ما جاء به عن الله تعالى. وكان ﷺ لا يسمع شيئاً يكرهه من قومه إلا فرّجه الله عنه بها، إذا أخبرها به.

الثاني: علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فقد جاء في الأثر: أن النبي ﷺ لما زوجه ابنته فاطمة، قال لها: زوجتك سيداً في الدنيا والآخرة، وإنه لأول أصحابي إسلاماً. أسلم وهو لم يبلغ الحلم، وكان ابن ثمان، وهو في كفالة الرسول، يطعمه ويسقيه ويقوم بأمره. وسبب ذلك أنه نزل قحط بمكة، وكان أبو طالب كثير العيال، وقريش في ضنك وشدّة. فقال النّبي ﷺ لعمّه العبّاس: إنّ أخاك أبا طالب كثير العيال، فانطلق بنا إليه فلنخفف من عياله، تأخذ واحداً وأنا آخذ واحداً. فجاءا إليه وقالا: نريد أن نخفف عنك من عيالك حتى ينكشف عن الناس ما هم فيه. فقال لهما أبو طالب: إذا تركتما لي (عقيلاً) و(طالباً)، فاصنعا ما شئتما. فأخذ الرسول ﷺ (علياً) وأخذ العباس (جعفراً)، وتركا له عقيلاً وطالباً. وبقي علي مع النبي ﷺ إلى أن بلغ مبلغ الرجال. وكان رضي الله عنه أصغر إخوته جميعاً.

وذكر المؤرخون في سبب إسلامه، أنه دخل على النبي ﷺ ومعه خديجة،

وهما يصليان سراً فقال لهما: ما هذا؟ فقال له الرسول: هذا دين الله الذي اصطفاه لنفسه، وبعث به رسله، فأدعوك إلى الله وحده لا شريك له وإلى عبادته، وإلى الكفر باللات والعزى. فقال علي: هذا أمر لم أسمع به من قبل اليوم، ولست بقاض أمراً حتى آتي أبا طالب، وأحدثه بما رأيت وما سمعت منك.

ويقول رواة السيرة: أن النبي ﷺ لما سمع قول علي، كره أن يفشي عليه سره قبل أن يستعلن أمره. فقال له: إذا لم تسلم فاكتم هذا. فمكث ليلته إلى أن ألان الله قلبه إلى الإسلام فأصبح غادياً إلى رسول الله ﷺ فأسلم على يديه.

وفي كتاب (أسد الغابة): أن أبا طالب رأى النبي وعلياً يصليان بنخلة وكان (علي) على يمينه، فقال لابنه جعفر: صل جناح ابن عمك، فوقف على يساره وصلى معهما. وكان إسلام جعفر عقب إسلام علي بقليل.

ثم إنّ أبا طالب سأل النبي فقال: ما هذا يا بن أخي! الذي أراك تدين به؟ فقال: هذا دين الله ودين ملائكته ورسله ودين أبينا إبراهيم. بعثني به الله رسولاً إلى العباد، وأنت أحق من بذلت له النصيحة، ودعوته إلى الهدى، وأحق من أجابني إلى الله تعالى، وأعانني عليه. قال أبو طالب: إني لا أستطيع أن أفارق دين آبائي، وما كانوا عليه. وفي رواية أخرى، أنه قال له: ما بالذي تقول من بأس، ولكن لا أريد أن تعلوني استي؟ ومن كلماته المأثورة في حق الرسول ﷺ قوله: إني لأعلم ما يقوله ابن أخي حق، ولولا أني أخاف أن تعيرني نساء قريش لاتبعته.

ونقل عن عفيف الكندي، وكان تاجراً قال: قدمت إلى مكة حاجاً، وأتيت العباس بن عبد المطلب أبتاع منه بعض التجارة، وكان لي صديقاً يختلف إلى اليمن، يشتري العطر ويبيعه أيام الموسم. فبينما أنا عنده بمنى إذا رجل مجتمع «أي: بلغ أشده» خرج من خباء قريب منه فنظر إلى الشمس، فلما رآها مالت توضأ، ثم قام يصلي إلى الكعبة. ثم خرج غلام مراهق فتوضأ ثم قام إلى جنبه يصلي. ثم جاءت امرأة من ذلك الخباء فقامت خلفهما. ثم ركع الرجل وركع الغلام وركعت المرأة، ثم خر الرجل ساجداً

وخر الغلام وخرت المرأة. فقلت: ويحك يا عباس ما هذا؟ فقال: هذا دين محمد بن عبد الله أخي، يزعم أن الله بعثه رسولاً، وهذا ابن أخي علي بن أبي طالب وهذه امرأته خديجة.

الثالث: زيد بن حارثة بن شرحبيل:

مولى رسول الله ﷺ. وهبته له خديجة لما تزوجها، وكان من بني عبد وداس، من عند أخواله طي، حين خرجت به أمه لتزيره أهلها، فأصابته خيل، فباعوه فاشتراه حكيم بن حزام لعمّته خديجة بأربعمئة درهم، وقيل ستمئة درهم. فأعتقه ﷺ وتبناه قبل الوحي. وقيل: اشتراه النبي بسبعمئة درهم ثم أعتقه، ولما قدم عمه وأبوه في فدائه، قالا لرسول لله ﷺ: جئناك في ولدنا عندك فامنن علينا وأحسن فداءه. فقال: أدعوه فخيروه فإنّ اختاركم فهو لكم بغير فداء، وإن اختارني فوالله ما أنا بالذي أختار على الذي اختارني فداء، فقالوا: زدتنا على النصف وأحسنت. فدعاه فقال: تعرف هؤلاء؟ فقال: نعم أبي وعمي. فقال له رسول الله ﷺ: قد رأيت صحبتي لك فاخترني أو اخترهما؟ فقال زيد: ما أنا بالذي أختار عليك، أنت مني مكان الأب والعم. فقالا: ويحك يا زيد! تختار العبودية على الحرية؟ وعلى أبيك وعمك وأهل بيتك؟ فقال: نعم. ما أنا بالذي أختار عليه أحداً. فلما رأى منه رسول الله ﷺ أخرجه إلى الحجر، محل جلوس قريش فقال: إن زيداً ابني، أرثه ويرثني. فطابت نفس أبيه وعمه بذلك، فانصرفا.

وفي رواية (ابن عبد البر) أنه حين تبناه رسول الله ﷺ كان سنه ثماني سنين. طاف به على حلق قريش يقول: هذا ابني وارثاً وموروثاً. ويشهدهم على ذلك.

وكان التبني مشروعاً في الجاهلية، وهو يحصل عندهم بقول الرجل لمتبنيه: دمي دمك، وهمي همك، وثأري ثأرك، وحربي حربك، وسلمي سلمك. ترثني وأرثك، وتطلب بي وأطلب بك، وتعقل عني وأعقل عنك. وعندهم نصيب الحليف من ميراث حليفه السدس.

الرابع: أبو بكر الصديق.

كان صديق النبي ﷺ، يكثر غشيانه في منزله ومحادثته. وكان سمع شهادة ورقة بن نوفل في حق النبي فذهب إليه بصحبته. أما سبب إسلام أبي بكر، فقد كان في بعض الأيام مع حكيم بن حزام إذ جاءت مولاة حكيم وقالت له: إن عمتك خديجة تزعم في هذا اليوم أن زوجها نبي مرسل، مثل موسى. فانسل أبو بكر حتى أتى رسول الله ﷺ فسأله عن خبره؟ فقص عليه قصة الوحي فصدقه. وقال: صدقت بأبي وأمي، وأهل الصدق أنت.

أنا أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله. وقد سماه يومئذ (الصديق). وفي رواية أخرى: أنه سماه بذلك صبيحة يوم الإسراء لما صدّقه، وكذبته قريش. وبه جاءت الآية: ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ﴾ فالذي جاء بالصدق رسول الله ﷺ والذي صدق به، أبو بكر.

فلمّا سمعت خديجة مقالة أبي بكر خرجت إليه وعليها خمار أحمر فقالت: الحمد لله الذي هداك يابن أبي قحافة، وكان اسمه: عبد الكعبة. ولما أسلم سماه رسول الله ﷺ عبد الله، وهو أول من غير رسول الله اسمه. ولحسن وجهه لقّبه (عتيق) لأنه عتق من الذّم والعيب. فإن النبي لما نظر إليه بعد إسلامه، قال: هذا عتيق من النار. وقيل: لقبته بذلك أمه، لأنه كان لا يعيش لها ولد. فلما ولدته استقبلت به الكعبة وقالت: اللهم هذا عتيقك من الموت، فهبه لي.

وكان أبو بكر قبل إسلامه صدراً معظماً في قريش، ومعدوداً من أصحاب الأموال، وكرم الأخلاق، وأحد رؤساء قريش، ومحط مشورتهم. وكان مكرماً سخياً، محباً في قومه، حسن المجالسة، وأعلم الناس بأنساب العرب، فقد نقل عن جبير بن مطعم الذي بلغ النهاية في معرفة الأنساب، أنه قال: إنما أخذت (هذا العلم) من أبي بكر لا سيما أنساب قريش. فإنه كان أعلم منها بأنسابها، وبما كان فيها من مفاخر وشر. وكان لا يذكر مساويهم. فمن ثم كان محبباً إليهم. وكان عقيل بن أبي طالب، أعلم قريش بأنسابها بعد أبي بكر. وقد أخذ عنه هذا العلم، فقد كان يجلس إليه بالمسجد النبوي، يأخذ عنه علم الأنساب، وأيام العرب ووقائعهم.

وكان أبو بكر معدوداً عند أهل مكة من خيارهم، ويستعينون به فيما يأتيهم. وله بمكة ضيافات لا يفعلها غيره، وكان رسول الله ﷺ يقول: ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت عنده كبرة، «أي: وقفة وتأخر وتردد» إلا ما كان من أبي بكر. وفي رواية أخرى: ما كلمت أحداً في الإسلام إلا أبى عليّ، وراجعني في الكلام، إلا ابن أبي قحافة فإني لم أكلمه في شيء إلا قبله واستقام عليه.

وكان الصحابة يرونه أسدّ منهم رأياً، وأكملهم عقلاً. وفيه وفي عمر، نزلت آية الشورى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾.

وقد كان أبو بكر من النبي بمنزلة الوزير من الأمير، فكان يشاوره ويأخذ برأيه في أموره كلها. وقد جاء في الأثر عنهﷺ: إن الله تعالى أيدني بأربعة وزراء، منهم اثنان من أهل الأرض، أبي بكر وعمر. وفي حديث آخر: «إن الله يكره أن يخطأ أبو بكر».

ولما أسلم أبو بكر وحسن إسلامه، دعا إلى الله تعالى ورسوله من وثق به من قومه، فأسلم بدعائه نفر من قريش، كان لإسلامهم الأثر المعلوم في انتشار الدعوة الإسلامية ليس في جزيرة العرب وحدها بل في العالم. منهم:

عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس. ولما بلغ إسلامه عمه الحكم بن أبي العاص بن أمية، والد مروان، أخذه فأوثقه كتافاً وقال: ترغب عن ملة آبائك إلى دين محمد؟ والله، لا أحلك أبداً، حتى تدع ما أنت عليه. فقال عثمان: لا أدعه أبداً، ولا أفارقه. فلما رأى الحكم صلابته في الحق، تركه. وقيل: عذبه بالحرق ليرجع، فما رجع.

ومنهم:

الزبير بن العوام، وكان عمره ثماني سنين، وقيل: اثنتي عشرة سنة، وقيل: ستّ عشرة سنة. ومما يرجح القول الأول، ما نقله بعض الثقات: أن علياً والزبير وطلحة وسعد بن أبي وقاص، ولدوا في عام واحد. وفي رواية صحيحة: أن علياً بن أبي طالب، والزبير بن العوام، أسلما وهما أبناء ثماني سنين.

ومنهم:

عبد الرحمن بن عوف، وكان اسمه في الجاهلية (عبد عمر) وقيل: (عبد الكعبة) وقيل: عبد الحارث، فسماه رسول الله ﷺ عبد الرحمن، وكان صديقاً لأمية بن خلف فقال له يوماً: أرغبت عن اسم سماك به أبواك! فقال: نعم. فقال: إني لا أعرف الرحمن، ولكن أسميك بعبد الإله، فكان بعد ذلك يناديه به.

وذكروا في سبب إسلام عبد الرحمن بن عوف رواية عن لسانه قال: سافرت إلى اليمن غير مرة، وكنت إذا قدمت نزلت على عسكلان بن عواكف الحميري، فكان يسألني: هل ظهر فيكم رجل له نبأ وله ذكر؟ هل خالف أحد منكم عليكم في دينكم؟ فأقول: لا. حتى كانت السنة التي بعث فيها رسول الله ﷺ فقدمت اليمن فنزلت عليه وأخبرته بظهوره فحبّب إلي أن أتبعه، فاتبعته، وكان ﷺ وصفه بالصادق الصالح[1]...... وقال له مرة: أنت أمين في أهل الأرض، أمين في أهل السماء.

ومنهم:

سعد بن أبي وقاص، فقد دعاه أبو بكر، وقال الرواة: لم يبعد، وأتى النبي ﷺ فسأله عن أمره؟ فأخبره، فأسلم. وكان عمره تسع عشرة سنة. وهو من بني زهرة. وفيما ذكره (السهيلي): أنه عم آمنة بنت وهب، أم النبي ﷺ وقالوا: أن أمه كرهت إسلامه، وكان باراً بها فقالت: ألست تزعم أن الله يأمرك بصلة الرحم وبر الوالدين؟ قال: نعم. فقالت: والله لا أكلت طعاماً ولا شربت شراباً حتى تكفر بما جاء به محمد، وتمسي (أسافاً) و(نائلة).

وتركت الطعام والشراب. فكانوا يمسكونها ويفتحون فاها، ثم يلقون فيه الطعام والشراب فأنزل الله في حقه الآية:

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ﴾.

---

(١) غير واضحة في الأصل.

وفي رواية أخرى: أنها مكثت يوماً وليلة لا تأكل، فأصبحت وقد خمدت. ثم مكثت يوماً وليلة لا تأكل ولا تشرب. فقال لها سعد: والله يا أماه لو كان لك مئة نفس تخرج نفساً نفساً، ما تركت دين هذا النبي. فكلي إن شئت أو لا تأكلي. فلما رأت أن مقاطعتها للأكل غير مجدية عنها، أكلت. ولما جاء وجدها على بابها تصيح: ألا أعوان يعينوني عليه من عشيرتي أو عشيرته فأحبسه في بيت وأطبق عليه بابه حتى يموت، أو يدع هذا الدين المحدث. فرجع من حيث أتى وقال: لا أعود إليها ولا أقرب منزلها. فهجرها حيناً ثم أرسلت إليه: أن عد إلى منزلك ولا تستضيفن فيلزمنا عار. فرجع إلى منزله، فمرة تلقاه بالبشر ومرة بالشر تعيّره بأخيه عامر. وتقول: هو البر، لا يفارق دينه ولا يكون تابعاً. فلما أسلم عامر لقي منها ما لم يلق أحد من الصياح والأذى، حتى هاجر إلى الحبشة.

وقال سعد: جئت والناس مجتمعون على أمي، وعلى أخي عامر فقلت: ما شأن الناس؟ فقالوا: هذه أمك قد أخذت أخاك عامر وهي تعطي عهداً، لا يظلها نخل، ولا تأكل طعاماً، ولا تشرب شراباً حتّى يدع صبأته. فقلت لها: أماه لا تستظلين ولا تأكلين حتى تتبوئي مقعدك من النار.

ومنهم:

طلحة بن عبد الله التميمي ويقال له: (الفياض والجواد) جاء به أبو بكر إلى رسول الله حين استجاب له، فأسلم. ولما بلغ خبرهما نوفل بن العدوية وكان يدعى أسد قريش، فأخذهما فشدهما في حبل واحد. ولم يمنعهما بنو تميم. ولشدة ابن العدوية وقوّة شكيمته، كان رسول الله ﷺ يقول: اللهم اكفنا شر ابن العدوية.

وثبت أن أبا بكر رضي الله عنه أسلم على يده خمسة من العشرة المبشّرين بالجنة وهم: عثمان والزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وطلحة بن عبد الله. وزاد بعضهم سادساً وهو: أبو عبيدة بن الجراح.

وكانت صناعة كل من أبي بكر وعثمان وعبد الرحمن بن عوف وطلحة[1] بزازاً وكان الزبير بزازاً وكان سعد بن أبي وقاص نبالاً يصنع النبل.

وأمّا أول من أسلم من النساء بعد خديجة: أمّ أيمن الحبشية وأم الفضل، زوج العباس عم النبي، وأسماء بنت أبي بكر، وفاطمة بنت الخطاب، أخت عمر بن الخطاب.

وبعد هؤلاء دخل الناس في الإسلام أرسالاً من الرجال والنساء، وكان السابقون منهم:

عبد الله بن مسعود، وهو يعرف بأمه، وهي أم عبد. كان قصيراً جدّاً. طوله نحو ذراع، خفيف اللحم. وكان رسول الله ﷺ يكرمه ويدنيه ولا يحجبه. وكان يمشي أمام النبي ومعه ويستره إذا اغتسل، ويوقظه إذا نام، ويلبسه نعليه إذا قام. فإذا جلس أدخلهما في ذراعيه. وكان مشهوراً بين الصحابة بأنه صاحب سرّ رسول الله ﷺ. وقد قال في حقه: رضيت لأمتي ما رضي لها ابن أم عبد، وسخطت لها ما سخط لها ابن أم عبد.

ومنهم أبو ذر الغفاري، واسمه جندب بن جنادة، وسبب إسلامه ما حدث به قال: صليت لله قبل أن ألقى النبي ثلاث سنين، أتوجه حيث يوجهني ربي. فبلغنا أن رجلاً خرج بمكة يزعم أنه نبي فقلت لأخي أنيس: انطلق إلى هذا الرجل فكلمه وائتني بخبره. فلما جاء أنيس قلت له: ما عندك؟ فقال: والله رأيت رجلاً يأمر بخير وينهى عن الشر. وفي رواية:

---

(١) وهو غير طلحة بن عبد الله التميمي الذي نزل فيه قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾ فقد قال: لئن مات محمد رسول الله لأتزوجن عائشة. وفي لفظ آخر: يتزوج محمد بنات عمنا ويحجبهن عنا، لئن مات لأتزوجن عائشة من بعده، فنزلت بسبب ذلك الآية.

وأنا أقول في هذه القصة ما قاله السيوطي: فقد كنا في وقفة شديدة من إسناد هذا الخبر إلى طلحة بن عبد الله أحد العشرة وهو أجل مقاماً وأعلى قدراً من أن يصدر عنه ذلك حتى رأينا نسبته، فعلمنا أنه رجل آخر شارك الصحابي المعروف في اسمه واسم أبيه فحصل الاشتباه. (المؤلف).

رأيتك على دينه، يزعم أن الله أرسله، ورأيته يأمر بمكارم الأخلاق. قلت: فما يقول الناس فيه؟ قال: يقولون شاعر كاهن، ساحر. والله إنه لصادق، وإنهم لكاذبون. فقلت: اكفني حتى أذهب فأنظر قال: نعم وكن على حذر من أهل مكة. فحملت جراباً وعصا ثم أقبلت حتى أتيت مكة فجعلت لا أعرفه، وأكره أن أسأل عنه. فمكثت في المسجد ثلاثين ليلة ويوماً. وما كان لي طعام إلا ماء زمزم. فسمنت وما وجدت على بطني سخنة جوع. ففي ليلة لم يطف بالبيت أحد، وإذا رسول الله ﷺ وصاحبه جاءا فطافا بالبيت، ثم صلى رسول الله ﷺ فلما قضى صلاته أتيته فقلت: السلام عليك يا رسول الله. أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله. فرأيت الاستبشار في وجهه، ثم قال: من الرجل؟ قلت: من غفار قال: متى كنت؟ قلت: من ثلاثين ليلة ويوم هنا. قال: فمن كان يطعمك؟ قلت: ما كان لي طعام إلا ماء زمزم فسمنت، فقال: مبارك. إنها طعام طعم وشفاء سقم.

وجاء أن أول من حيا رسول الله ﷺ بتحية الإسلام: السلام عليك، هو أبو ذر، وأول من بايعه ألا تأخذه في الله لومة لائم، وعلى أن يقول الحق ولو كان مرّاً. هو أبو ذر. وقد قال في حقه رسول الله ﷺ: ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء أصدق من أبي ذر.

وفي رواية: أن أبا ذر لقي رسول الله ﷺ بدلالة علي بن أبي طالب. فإنه لما لقيه في مكة قال له: ما أقدمك هذه البلدة؟ فقال له أبو ذر: إن كتمت علي أخبرتك. وفي رواية: إن أعطيتني عهداً وميثاقاً أخبرتك، ففعل. قال: فأرشدني وأوصلني إلى رسول الله ﷺ وأسلمت.

وفي كتاب (الإمتاع) أن علياً استضاف أبا ذر ثلاث أيام لا يسأله عن شيء وهو لا يجيبه. وفي الثالث فقال له: ما أمرك؟ وما أقدمك هذه البلدة؟ قال: إن كتمت علي أخبرتك قال: فإنّي أفعل.

قال: بلغنا أنه خرج هنا رجل، يزعم أنه نبي، فأرسلت أخي يكلمه، فرجع ولم يشفني من الخبر، فأردت أن ألقاه فقال له: قد رشدت. هذا وجهي إليه فاتبعني، ادخل حيث أدخل، فإن رأيت أحداً أخافه عليك ملت

إلى الحائط كأني أصلح نعلي. وفي رواية أخرى: كأنّي أريق الماء، فامش أنت. قال أبو ذر: فمضى ومضيت حتى دخل ودخلت معه إلى النبي ﷺ فقلت: اعرض علي الإسلام فعرضه علي، فأسلمت مكاني. ثم قال له رسول الله ﷺ: اكتم هذا الأمر، وارجع إلى قومك وأخبرهم يأتوني. فإذا بلغك ظهورنا فأقبل. فقال: والذي بعثك بالحق لأصرخن بهذا بين ظهرانيهم. فلما اجتمعت قريش بالمسجد ناديت بأعلى صوتي: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله. فقالوا: قوموا إلى هذا الصابىء، فمال علي أهل الوادي بكل مدرة وعظم، حتى خررت مغشياً علي. فأكب علي العباس ثم قال: ويلكم ألستم تعلمون أنه من غفار؟ وأن طريق تجارتكم عليهم؟ فجلوا عني. قال: فجئت زمزم فغسلت عني الدّماء. فلما أصبحت الغداة رجعت لمثل ذلك فصنع بي مثلما صنع. وأدركني العباس مرة أخرى وكان منه كالأمس فخرجت وأتيت أنيساً فقال: ما صنعت؟ فقلت: قد أسلمت وصدقت. فقال: مالي رغبة عن دينك فإني قد أسلمت وصدقت. فأتينا أمّنا، فقالت: مالي رغبة عن دينكما فإني أسلمت وصدقت، ثم أتينا قومنا غفاراً فأسلم نصفهم وقال نصفهم: إذا قدم رسول الله المدينة أسلمنا، فلما جاء المدينة أسلم نصفهم الثاني.

منهم خالد بن سعيد بن العاص، وهو أول من أسلم من إخوته، وقالت ابنته أم خالد: أول من أسلم أبي، أي من إخوته. وقيل في سبب إسلامه: أنه رأى في النوم النار ورأى من فظاعتها وأهوالها أمراً عظيماً، ورأى أنه على شفيرها، وأن أباه يريد أن يلقيه فيها. ورأى رسول الله ﷺ آخذاً بحجزته[1] يمنعه من الوقوع فيها، فقام وقال: أحلف بالله إن هذه لرؤيا حق وعلم، إنّ نجاته من النار تكون على يد رسول الله ﷺ. فأتى أبا بكر فذكر له ذلك فقال له: أريد بك خيراً هذا رسول الله فاتبعه، فأتاه فقال: يا محمد ما تدعو؟ قال: أدعو إلى الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وتخلع ما أنت عليه من عبادة حجر لا يسمع ولا يبصر، ولا يضر ولا ينفع.

---

(١) الحجزة: بضمّ الحاء معقد الإزار، ومن السراويل: موضع التكّة.

فأسلم خالد، ولما علم أبوه به، أعلمه سعيد بن أحجية بذلك، وكان من عظماء قريش. أرسل في طلبه فانتهره وضربه بمقرعة كانت في يده حتّى كسرها على رأسه ثم قال: اتبعت محمداً وأنت ترى خلافه لقومه، وما جاء به من عيب آلهتهم، وعيب من مضى من آبائهم؟! فقال: والله تبعته على ما جاء به. فغضب أبوه وقال: اذهب يا لكع. والله لأمنعنك القوت. قال: إن منعتني فإنّ الله يرزقني ما أعيش به. عند ذلك أخرجه، وقال لبنيه: لا يكلمه أحد منكم إلا صنعت به مثل ذلك، فانصرف خالد إلى رسول الله ﷺ فكان يلزمه ويعيش معه. حتى خرج أصحاب رسول الله ﷺ إلى الحبشة في الهجرة الثانية، فكان خالد أول من هاجر إليها.

ولما مرض سعيد، نذر: لئن رفعني الله من مرضي هذا، لا يعبد إله ابن أبي كبشة[1] بمكة أبداً فدعا عليه خالد: اللهم لا ترفعه. فتوفي في مرضه.

وذكر علي بن برهان الدين الجلبي، أن خالد هو أول من كتب: بسم الله الرحمن الرحيم:

ومنهم:

عمرو بن سعيد بن العاص، وهو أخو خالد، أسلم: وقيل في سبب إسلامه إنه رأى نوراً خرج من زمزم أضاءت له منه نخل المدينة، حتى رأى البسر فيها. فقص رؤياه على معبر[2] فقال له: هذه بئر بني عبد المطلب وهذا النور منهم يكون. فأسلم وأسلم من إخوته: أبان والحكم، وسمى رسول الله الأخير: عبد الله.

ومنهم:

---

(١) كان المشركون يقولون للنبي ﷺ: ابن أبي كبشة، شبهوه بأبي كبشة، رجل من خزاعة، خالف قريشاً في عبادة الأصنام، أو هي كنية وهب بن عبد مناف، جدّه ﷺ من قبل أمّه، لأنه كان ينزع إليه من الشبه، أو كنية زوج حليمة السعدية، أو كنية عمّ ولدها. المحقق.

(٢) معبر: مفسّر الرؤيا. قال تعالى: ﴿إن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾ الآية (٤٣) سورة (يوسف) عليه السلام.

صهيب وعمار بن ياسر. كان أبو صهيب عاملاً لكسرى، أغارت الروم عليهم فسبت صهيباً وهو غلام صغير، فنشأ في الروم حتى كبر. ثم ابتاعه جماعة من العرب، وجاؤوا به إلى سوق عكاظ فابتاعه منهم عبد الله بن جدعان من مكة. فلما بعث رسول الله مر صهيب على دار رسول الله، فرأى عمار بن ياسر فقال له عمار: أين تريد يا صهيب؟ قال: أريد أن أدخل إلى محمد، وأسمع كلامه وما يدعو إليه. قال عمار: وأنا أريد ذلك. فدخلا على رسول الله ﷺ فأمرهم بالجلوس فجلسا وعرض عليهما الإسلام وقرأ عليهما نصيباً من القرآن فآمنا به. ثم مكثا عنده يومهما ذلك. حتى إذا أمسيا خرجا متخفيين. فدخل عمار على أبويه فسألاه أين كان؟ فأخبرهما خبره وعرض عليهما الإسلام، وقرأ عليهما ما حفظ من القرآن، فأسلما على يده. وكان الرسول يسميه (الطيب المطيب).

ومنهم:

حصين والد عمران. كان معظماً محترماً عند قريش. وذكر في سبب إسلامه أن قريشاً جاءت إليه وقالوا له: كلم لنا هذا الرجل، فإنه يذكر آلهتنا ويسبها فجاؤوا معه حتى جلسوا قريباً من باب النبي ﷺ ودخل حصين فلما رآه قال: أوسعوا للشيخ. وكان ولده عمران حاضراً في الصحابة فقال حصين: ما هذا الذي بلغنا عنك؟ إنك تشتم آلهتنا وتذكرها بسوء فقال: يا حصين كم تعبد من إله؟ قال: سبعة في الأرض وواحد في السماء. فقال: فإذا أصابك الضر، لمن تدعو؟ قال: الذي في السماء. قال: فإذا أهلك المال فمن تدعو؟ قال: الذي في السماء. قال: فيستجيب لك وحده، وتشرك معه أرضيه في الشرك. أسلم يا حصين تسلم. فأسلم. فقام إليه ولده عمران فقبل رأسه ويديه ورجليه. فبكى ﷺ، وقال: بكيت من صنع عمران. دخل حصين وهو كافر، فلم يقم إليه، ولم يلتفت ناحيته، فلما أسلم، وفّى حقه، فدخلني من ذلك الرقة. ولما أراد حصين الخروج، قال رسول الله ﷺ لأصحابه: شيعوه إلى منزله. فلمّا بلغ إلى عتبة الباب، رأته قريش، قالوا: قد صبأ. وتفرقوا عنه.

إعلان الدّعوة الإسلامية

لا خلاف بين رواة السيرة المحمدية، أن الدعوة الإسلامية لبثت مدة خفية. ولكن الخلاف في تحديد المدة. فمنهم من قال: ثلاث سنين. ومنهم من قال: أربع، ووقع الإعلان في الخامسة. فقد كان من أسلم إذا أراد الصلاة يذهب إلى بعض الشعاب يستخفي بصلاته من المشركين. والسبب في ذلك: أن سعد بن أبي وقاص ذهب يصلي مع بعض الصحابة في شعب من شعاب مكة، إذ ظهر عليه نفر من المشركين وهم يصلون، فناكروهم وعابوا عليهم ما يصنعون، حتى قاتلوهم. فضرب سعد بن أبي وقاص رجلاً منهم بلحي[1] بعير فشجه، وهو أول دم أهريق في الذياد عن الإسلام. وبعد هذه الواقعة صار النبي ﷺ يصلي مع أصحابه خفية ويدعو إلى الإسلام سراً في دار الأرقم وهي عند الصفا. وكان عددهم يومئذ تسعة وثلاثين، واستمر على ذلك إلى أن نزل قوله تعالى: ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾.

والمعنى: أظهر ما تؤمر به من الشرائع، وادع إلى الله تعالى، ولا تبال بالمشركين. ونزل أيضاً قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ۝٢١٤ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

ولما نزل: ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾ اشتد ذلك على النبي ﷺ وضاق به ذرعاً، فمكث شهراً أو نحوه جالساً في بيته. حتى ظن عماته أنه مريض، فدخلن عليه عائدات. فقال لهن ﷺ: ما اشتكيت شيئاً، لكن الله أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين، فأريد أن أجمع بني عبد المطلب فأدعوهم إلى الله تعالى. قلن: فادعهم ولا تجعل عبد العزى فيهم «يعنين: عمه أبا لهب»[2] فإنه غير مجيبك إلى ما تدعوهم إليه. وخرجن من عنده، فلما أصبح بعثوا إلى بني عبد المطلب فحضروا، وكان فيهم أبو لهب، فلما أخبرهم بما أنزل

---

(١) اللحي: منبت اللحية من الرجل، وعظم الفك من الحيوان.

(٢) والسبب في كنيته بهذه الكنية: جمال وجهه ونضارة لونه. كأن وجهه وجبينه ووجنتيه لهب النار. (المؤلف)

عليه، أسمعه ما يكره فإنه قال: تباً لك ألهذا جمعتنا؟! وأخذ حجراً ليرميه به.

وجاء في (الإمتاع): أن أبا لهب ظن أنه ﷺ يريد أن ينزع عما يكرهون إلى ما يحبون فقال له: هؤلاء عمومتك وبنو عمومتك، فتكلم بما تريد. واترك الصبأة، واعلم أنه ليس لقومك بالعرب طاقة، وأن أحق من أخذك وحسبك، أسرتك وبنو أبيك إن أقمت على أمرك، فهو أيسر عليك من أن تثب عليك بطون قريش، وتمدها العرب. فما رأيت يا بن أخي أحداً قط، جاء بني أبيه وقومه بشر ما جئتهم به، ثم افترقوا بلا طائل.

وعقب هذا الاجتماع، نزل قوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾.

ولمّا سمع أبو لهب بذلك، قال: إن كان ما يقوله محمد حقاً؟! افتديت منه بمالي وولدي. فنزل بعد ذلك: ﴿ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾.

وفي رواية الصحيحين: أنه دعا قريشاً فاجتمعوا، فخص وعم. فقال: يا بني كعب بن لؤي، أنقذوا أنفسكم من النار. يا بني مرة بن كعب، أنقذوا أنفسكم من النار. يا بني هاشم! أنقذوا أنفسكم من النار. يا بني عبد مناف! أنقذوا أنفسكم من النار. يا بني زهرة! أنقذوا أنفسكم من النار. يا بني عبد المطلب! أنقذوا أنفسكم من النار. يا فاطمة! أنقذي نفسك من النار. يا صفية عمة محمد! أنقذي نفسك من النار، فإني لا أملك لكم من الله شيئاً.

وفي رواية: لا أملك لكم في الدنيا منفعة، ولا من الآخرة نصيباً، إلا أن تقولوا: لا إله إلا الله غير أن لكم رحماً سأبلّها ببلالها «أي: أصلها» وفي الحديث: «بلّوا أرحامكم ولو بالسلام»[1].

---

(١) وفي صحيح البخاري: باب (تبل الرحم ببلالها): «سمعت النبي ﷺ ولكن لهم رحم أبلّها ببلالها» الحديث رقم (٥٦٤٤) الجزء الخامس، صفحة (٢٢٣٣). الدكتور مصطفى ديب البغا. دار اليمامة، ودار ابن كثير. دمشق. الطبعة الرابعة (١٩٩٠). المحقق.

ثم مكث ﷺ أياماً ثم جمعهم ثانياً وخطبهم، فقال:

«إن الرائد لا يكذب أهله. والله لو كذبت الناس جميعاً ما كذبتكم، ولو غررت الناس جميعاً ما غررتكم. والله الذي لا إله إلا هو إني لرسول الله إليكم خاصة، وإلى الناس كافة. والله لتموتن كما تنامون، ولتبعثن كما تستيقظون، ولتحاسبن بما تعملون، ولتجزون بالإحسان إحساناً وبالسوء سوءاً. وإنها لجنة أبداً، ولنار أبداً. والله يا بني عبد المطلب! ما أعلم شاباً جاء قومه بأفضل مما جئتكم به، إنّي قد جئتكم بأمر الدنيا والآخرة.

فتكلم معه القوم كلاماً ليناً، غير أبي لهب، فإنه قال: يا بني عبد المطلب! هذه والله السوأة. خذوا على يديه قبل أن يأخذ على يديه غيركم، فإن أسلمتموه حينئذ ذللتم، وإن منعتموه قتلتم. فقالت له أخته صفية: أي أخي! أيحسن لك خذلان ابن أخيك؟ فوالله ما زال العلماء يخبرون أنه يخرج من ضئضىء[1] عبد المطلب نبي، فهو هو. فردّ عليها أبو لهب، فقال: هذا هو والله الباطل والأماني وكلام النساء في الحجال. إذا قامت بطون قريش وقامت معها العرب، فما قوتنا بهم؟ فوالله ما نحن عندهم إلا أكلة رأس.

قال أبو طالب: والله لنمعنه ما بقينا.

ثم دعا النبي ﷺ جميع قريش وهو قائم على الصفا وقال: إن أخبرتكم أن خيلاً تخرج من سنح «أصل» وفي رواية: من سفح هذا الجبل، تريد أن تغير عليكم. آنتم تكذبوني؟

قالوا: ما جربنا عليك كذباً.

فقال: يا معشر قريش! أنقذوا أنفسكم من النار، فإنّي لا أغني عنكم من الله شيئاً. إني لكم نذير مبين بين يدي عذاب شديد. إنما مثلي ومثلكم كرجل رأى العدو فانطلق يريد أهله، فخشي أن يسبقوه إلى أهله، فجعل يهتف: يا صباحاه! يا صباحاه! أتيتم أتيتم!

---

(١) الضئضىء: الأصل والمعدن وكثرة النسل. المحقق.

ولما نزل قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ جمع بني عبد المطلب في دار أبي طالب وهم أربعون. وفي (الإمتاع) خمسة وأربعون رجلاً وامرأتان. وصنع لهم عليّ طعاماً من رجل شاة، ومد من البر، وصاع من لبن. وقدمت لهم الجفنة وقال: كلوا باسم الله. فأكلوا حتى شبعوا، وشربوا حتى نهلوا. فلما أراد ﷺ أن يتكلم، بدره أبو لهب بالكلام فقال: لقد سحركم صاحبكم سحراً عظيماً. فتفرقوا ولم يتكلم رسول الله ﷺ. فلما كان الغد قال: يا عليّ! عد لنا بمثل ما صنعت بالأمس من الطعام والشراب.

قال علي: ففعلت. ثم جمعتهم له، فأكلوا حتى شبعوا وشربوا حتى نهلوا. ثم قال لهم:

يا بني عبد المطلب إنّ الله قد بعثني إلى الخلق كافة، وبعثني إليكم خاصة. فقال: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ وأنا أدعوكم إلى كلمتين خفيفتين في اللسان، ثقيلتين في الميزان: شهادة أن لا إله إلا الله، وأنّي رسول الله. فمن يجيبني إلى هذا الأمر ويؤازرني على القيام به؟ قال عليّ: أنا يا رسول الله! وأنا أحدثهم سناً. وسكت القوم.

وصار كفّار قريش معتادين نشر الدّعوة الإسلامية، فكان ﷺ إذا مر عليهم في مجالسهم يشيرون إليه ويقولون: إن غلام بني عبد المطلب ليكلّم من السماء. وكان ذلك دأبهم.

لما أعلنت الدّعوة الإسلامية، وعاب رسول الله ﷺ آلهتهم، وسفه عقولهم، وضلل آباءهم. فأول مشادة حصلت بينه وبينهم، أنه مر عليهم يوماً وهم في المسجد الحرام يسجدون للأصنام. فقال: يا معشر قريش! والله لقد خالفتم ملة أبيكم إبراهيم فقالوا: إنا نعبد الأصنام حباً لله، لقربنا إليه. فأنزل الله عليه آية[1]:

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾.

---

(١) سورة (آل عمران) الآية (٣١). المحقق.

فتناكروه وأجمعوا خلافه وعداوته، وجاؤوا إلى أبي طالب وقالوا له: إن ابن أخيك قد سب آلهتنا وعاب ديننا وسفه أحلامنا. ينسبنا إلى قلّة العقل. وضلل آباءنا. فإمّا أن تكفه عنّا، وإمّا أن تخلي بيننا وبينه، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه. فقال لهم أبو طالب قولاً رقيقاً، وردهم رداً جميلاً. فانصرفوا عنه.

مؤامـرة قريش ضـد النبي ﷺ

قال كتاب السيرة: مضى رسول الله في أمره يدعو إلى الدين، ثم شرى الأمر «تزايد» وتباعد الرجال، وتضاغنوا، وأكثرت قريش ذكر رسول الله ﷺ بينها. وتذامروا عليه «تآمروا» وحث بعضهم بعضاً على حربه وعداوته ومقاطعته. ولما اشتد أمره عليهم، مشوا مرة ثانية إلى أبي طالب فقالوا له: إن لك فينا سناً وشرفاً ومنزلة، وإنا قد طلبنا منك أن تنهى ابن أخيك، فلم تنهه عنّا، وإنا، والله! لا نصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا وعيب آلهتنا حتى تكفه عنا، أو ننازله وإياك في ذلك حتى يهلك أحد الفريقين. فعظم على أبي طالب فراق قومه وعداوتهم، ولم تطب نفسه ليخذل رسول الله ﷺ فقال:

يا بن أخي! إن قومك قد جاؤوني، فقالوا لي كيت وكيت، فأبق علي وعلى نفسك، ولا تحمّلني من الأمر ما لا أطيق.

فظنّ رسول الله ﷺ أن عمه خاذله، وأنه ضعف عن نصرته فقال له: يا عم! والله لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري، على أن أترك هذا الأمر، حتى يظهره الله تعالى، أو أهلك فيه، ما تركته.

ثمّ استعبر رسول الله ﷺ فبكى. ثم قام. فلما ولى، ناداه أبو طالب فقال: أقبل يا بن أخي فأقبل عليه فقال: اذهب يا بن أخي، فقل ما أحببت، فوالله لا أسلمك أبداً.

فلمّا عرفت قريش أن أبا طالب قد أبى خذلان رسول الله ﷺ، مشوا إليه بعمارة بن الوليد بن المغيرة فقالوا له: يا أبا طالب هذا عمارة بن الوليد بن

المغيرة أنهد[1] «أشدّ» فتى في قريش وأجمله، فخذه لك ولداً، وأسلم إلينا ابن أخيك هذا؛ الذي خالف دينك ودين آبائك، وفرق قومك، وسفه أحلامهم فنقتله، فإنما هو رجل برجل.

فقال لهم أبو طالب: والله لبئس ما تسومونني، أتعطوني ابنكم أغذوه لكم، وأعطيكم ابني تقتلونه؟! هذا والله لا يكون أبداً. أرأيتم ناقة تحنّ إلى غير فصيلها[2]؟ قال المطعم بن عدي: والله يا أبا طالب! لقد أنصفك قومك، وجهدوا على التخلص مما تكره، فما أراك تريد أن تقبل منهم شيئاً. فقال له أبو طالب: والله ما أنصفوني، ولكن قد أجمعت خذلاني، ومظاهرة القوم علي، فاصنع ما بدا لك.

ولما أبى أبو طالب قبول ما أرادوه، واشتد الأمر، ورأى من قريش ما رأى من عنادهم، دعا بني هاشم وبني عبد المطلب إلى ما هو عليه، من منع رسول الله ﷺ والقيام دونه، فأجابوه إلى ذلك جميعاً، غير أبي لهب.

وتوالى الأذى من قريش على رسول الله ﷺ وعلى من أسلم معه. ومن ذلك ما حدث به العباس عمه رضي الله عنه قال: كنت في المسجد فأقبل أبو جهل فقال: لله علي إن رأيت محمداً ساجداً أن أطأ عنقه. فخرجت إلى رسول الله ﷺ فأخبرته بقول أبي جهل. فخرج غضبان حتى دخل المسجد، فعجل أن يدخل من الباب فاقتحم من الحائط وقرأ: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ﴾ حتى بلغ إلى قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ﴾ ثم إلى آخر السورة فسجد، فقال رجل لأبي جهل: يا أبا الحكم هذا محمد قد سجد. فأقبل إليه، ثم نكص راجعاً، فقيل له في ذلك، فقال أبو جهل: ألا ترون ما أرى؟! لقد سد أفق السماء علي.

وروى آخرون: أن أبا جهل بن هشام قال يوماً لقريش: يا معشر قريش! إن محمداً قد أتى إلى ما ترون من عيب دينكم وشتم آلهتكم وتسفيه أحلامكم

---

(١) (أنهد) من نهد الرجل: نهض، ولعدوّه: صمد. ومنه (النهد) لبروزه. القاموس المحيط. المحقق.

(٢) (الفصيل): ولد الناقة، إذا فصل عن أمّه. القاموس المحيط. المحقق.

وسب آبائكم. إني أعاهد الله لأجلسن له غداً بحجر، لا أطيق حمله، فإذا سجد في صلاته رضخت به رأسه، فأسلموني عند ذلك أم امنعوني، فليصنع بي بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم، قالوا: امض لما تريد، والله لا نسلمك لشيء أبداً. فأصبح أبو جهل وقد أخذ حجراً كما وصفنا، ثم جلس لرسول الله ﷺ ينتظره. وغدا رسول الله ﷺ إلى الصلاة، وكان يصلي في الركن اليماني، والحجر الأسود، ويجعل الكعبة بينه وبين الشام. وقريش كانوا جلوساً في أنديتهم، ينتظرون ما أبو جهل فاعل فلما سجد رسول الله ﷺ احتمل أبو جهل الحجر ثم أقبل نحوه، حتى إذا دنا منه رجع منهزماً، ممتقعاً لونه، «مصفراً» من الفزع وقد يبست يداه على حجره، حتى قذفه من يده، بعد أن عالجوا فكه منها فلم يستطيعوا، فقامت إليه رجال من قريش وقالوا: مالك يا أبا الحكم؟ قال: قمت إليه لأفعل ما قلت لكم البارحة، فلما دنوت منه عرض لي فحل من الإبل، والله ما رأيت مثله قط، هم بي أن يأكلني، فرجعت عن رمي الحجر. وفي رواية أخرى: قال أبو جهل: رأيت بيني وبينه كخندق من نار. ولا مانع أن يكون رأى بعين واهمته الأمرين معاً.

وقال العلماء: نزلت آية:

﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِيٓ أَعْنَـٰقِهِمْ أَغْلَـٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ[1] ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَـٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾[2].

في أبي جهل لما حمل الحجر، وأراد أن يرضخ به رأس رسول الله ﷺ، ولما رفعه أثبتت يداه إلى عنقه، ولزق الحجر بيده. فلما عاد إلى أصحابه أخبرهم، فلم يفكوا الحجر من يده إلا بعد تعب شديد.

وعن الحكم بن مروان، أبي العاص بن الحكم أن ابنته قالت له: ما رأيت

---

(١) ﴿مقمحون﴾: رافعون رؤوسهم لضيق الأغلال في أعناقهم. معجم ألفاظ القرآن الكريم. مجمع اللغة العربية. القاهرة. الجزء (٢) ١٤١٠/ ١٩٩٠.

(٢) سورة (يس) الآيتان: (٨ ـ ٩).

قوما أسوأ رأياً وأعجز بأمر محمد منكم يا بني أمية. فقال لها: لا تلومينا يا بنيّة، فقد أجمعنا ليلة على اغتياله، فلما رأيناه يصلي ليلاً، جئنا خلفه فسمعنا صوتاً ظننا أنه ما بقي بتهامة جبل إلا تفتت علينا «أي: يقع عليهم» فما غفلنا حتى قضى صلاته ورجع إلى أهله. ثم تواعدنا ليلة أخرى، فلما جاء نهضنا إليه، فرأينا كأن الصفا والمروة التصقتا، إحداهما على الأخرى، فحالت بيننا وبينه.

وقالوا في سبب نزول الآية[1]:

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩﴾.

نزلت في حق أبي جهل. فإنه أتى النبي، لما انصرف من صلاته، وقال: إنك لتعلم ما بمكة ناد أكثر منّي. فأنزل الله الآية.

ولما نزلت سورة ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ﴾ جاءت امرأته أم جميل واسمها (أروى) بنت حرب أخت أبي سفيان بن حرب، ولها ولولة، وفي يدها فهر[2] «حجر يملأ الكف فيه طول يدق به في الهاوون»[3] إلى النبي، وكان معه أبو بكر وعمر كما في (الإمتاع). فلما وقفت رأت أبا بكر وقالت: أين صاحبك؟ وهو جالس ولم تره. قال: وما تصنعين به؟ قالت: بلغني أنه هجاني، والله لو وجدته لضربته بهذا الفهر، فقال عمر: ويحك إنه ليس بشاعر. فقالت: إني لا أكلمك يا بن الخطاب. ثم أقبلت على أبي بكر وقالت: والثواقب «أي: النجوم» إنه لشاعر، وإني لشاعرة. أي: لأهجونه

---

(١) الآيات: (٩ ـ ١٩) من سورة العلق. ورد في (صفوة البيان لمعاني القرآن) للشيخ حسنين محمد مخلوف: «نهى أبو جهل النبي ﷺ عن الصلاة في المسجد الحرام: فلما رآه يصلّي فيه، قال: ألم أنهك عن هذا؟ ألم أنهك عن هذا! فانتهره النبي ﷺ. فقال أبو جهل: أتهددني، وأنا أكثر أهل الوادي نادياً!. المحقق.

(٢) الفهر: بالكسر. الحجر، قدر ما يدق به الجوز، أو ما يملأ الكف. القاموس المحيط.

(٣) الهاوون: أو الهاون: الذي يدق فيه. ويسمّى (المهراس).

كما هجاني، وانصرفت. وقيل: إنها لما أقبلت كانت تقول:

مذمماً أبينا، ودينه قلينا، وأمره عصينا. فقالت لأبي بكر: أين الذي هجاني وهجا زوجي؟! والله لئن رأيته لأضربن أنثييه[1] بهذين الفهرين فقال أبو بكر: ما هجاك ولا هجا زوجك. قالت: والله ما أنت بكذاب، وإن الناس ليقولون ذلك. ثم ولت ذاهبة. وفي كتاب (الدر المنثور) أنها أتت رسول الله ﷺ وهو جالس في الملأ، فقالت: يا محمد! علام تهجوني؟ قال: إني والله ما هجوتك، ما هجاك إلا الله. قالت: رأيتني أحمل حطباً؟ ورأيت في جيدي حبلاً من مسد؟ وقال المفسرون: المراد بالحطب النميمة[2] وقد يقال: فلان يحطب، أي: ينمّ. وقد كانت تفعل ذلك. والمراد بالحبل: الجزاء المرتب على جرمها. يقصد: التنفير من هذه المعصية. وقيل: إنها كانت تجمع الشوك والحسك وتطرحه في طريقه ﷺ. ولا مانع في الجمع بين ذلك.

ولما نزلت هذه السورة، قال أبو لهب لابنه عتبة: رأسي من رأسك حرام إن لم تفارق رقية ابنة محمد. وفارقها وكان تزوجها ولم يدخل بها. وكان أخوه عتيبة بالتصغير متزوجاً أختها أم كلثوم ولم يدخل بها. فقال حين أراد الذهاب إلى الشام: لآتين محمداً فلأوذينه في ربه. فأتاه فقال: يا محمد إني كافر بالنجم إذا هوى والذي دنا فتدلى، ثم بصق في وجه النبي ﷺ ورد عليه ابنته وطلقها، فدعا عليه فهلك.

ومن أشد ما آذى به المشركون رسول الله ﷺ ما رواه عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ في المسجد وهو يصلي، وقد نحر جزور[3]، وقد بقي فرثه في كرشه. فقال أبو جهل: ألا رجل يقدم إلى هذا القذر يلقيه على محمد؟ وفي رواية: أيكم يأخذ سلى[4] جزور بني فلان،

---

(١) الأنثيان: الخصيتان.

(٢) الحطب: أحطب، وحطب، وحاطب ليل: مخلط في كلامه. القاموس.

(٣) الجزور: البعير، أو خاصّ بالناقة المجزورة. القاموس.

(٤) السلى: بالألف المقصورة: جلدة فيها الولد من الناس والمواشي، وقيل: (المشيمة) بالنسبة للولد من الناس. وقيل في المثل: انقطع السلى في البطن. كبلغ السكين =

ذبحت من يومين أو ثلاثة، فيضعه بين كتفيه إذا سجد؟ فقام أحد المشركين وهو (عقبة بن أبي معيط) وجاء بذلك الفرث فألقاه على النبي ﷺ وهو ساجد، فاستضحكوا، وجعل بعضهم يميل على بعض من شدة الضحك. وقال ابن مسعود: فهبنا أن نلقيه عنه ﷺ وقال: لو كانت عندي منعة لطرحته عن ظهر رسول الله ﷺ حتى جاءت فاطمة وألقته عنه وكان ساجداً، ولما ألقته عنه، أقبلت عليهم تشتمهم. فدعا عليهم بالهلاك وكانوا: أبو جهل، وعتبة بن ربيعة، وعقبة بن أبي معيط، وأمية بن خلف، وزاد بعضهم: شيبة بن أبي ربيعة، وعمارة بن الوليد، فهلكهم الله جميعاً.

ومن مساءاتهم: ما حكاه عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يطوف بالبيت، ويده في يد أبي بكر وفي الحجر[1] ثلاثة نفر جلوس: عقبة بن أبي معيط، وأبو جهل بن هشام، وأمية بن خلف. فمر رسول لله ﷺ فلما حاذاهم أسمعوه بعض ما يكره، فعرف ذلك من وجه النبي ﷺ. فدنوت منه حتى وسطته، فكان ﷺ بيني وبين أبي بكر. وأدخل أصابعه في أصابعي وطفنا جميعاً، فلما حاذاهم قال أبو جهل: والله لا نصالحك، ما بلّ بحر صوفة وأنت تنهى أن نعبد ما كان يعبد آباؤنا. فقال رسول الله ﷺ: أنا ذلك. ثم مشى عنهم. فصنعوا به في الشوط الثالث مثل ذلك، حتى كان الشوط الرابع فقاموا له ﷺ، ووثب أبو جهل يريد أن يأخذ بمجامع ثوبه ﷺ، فدفعت في صدره فوقع على عجزه، ودفع أبو بكر أمية بن خلف، ودفع رسول الله عقبة بن أبي معيط. ثم انفرجوا عن رسول الله ﷺ وهو واقف. ثم قال: أما والله لا تنتهون! حتى يحل بكم عقابه عاجلاً. قال عثمان رضي الله عنه: فوالله ما منهم رجل إلا وقد أخذته الرعدة. فجعل رسول الله ﷺ يقول: بئس القوم أنتم لنبيكم. ثم انصرف إلى بيته وتبعناه حتى إلى بابه. ثم أقبل علينا بوجهه فقال: أبشروا فإن الله عز وجل مظهر

= العظم. القاموس.

(١) الحجر: بكسر الحاء: ما حواه الحطيم المدار بالكعبة، شرّفها الله، من جهة الشمال. القاموس.

دينه، ومتم كلمته، وناصر نبيه. إن هؤلاء الذين ترون مما يذبح الله على أيديكم عاجلاً. ثم انصرفنا إلى بيوتنا. فوالله لقد ذبحهم الله بأيدينا يوم بدر.

وفي رواية: أن عقبة بن أبي معيط وطىء على رقبته الشريفة ﷺ وهو ساجد حتّى كادت عيناه تبرزان.

فقد جاء عقبة الحجر فوجده ﷺ يصلي فيه، فوضع ثوبه على عنقه وخنقه خنقاً شديداً، فأقبل أبو بكر رضي الله عنه حتى أخذ بمنكبه، ودفعه عن رسول الله ﷺ وقال:

﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ﴾(١).

وفي البخاري عن عروة بن الزبير قال: قلت لعبد الله بن عمرو بن العاص: أخبرني بأشد ما صنع المشركون برسول الله ﷺ؟ قال: بينا رسول الله بفناء الكعبة، أقبل عقبة بن أبي معيط فأخذ بمنكب رسول الله ﷺ، ولوى ثوبه في عنقه فخنقه خنقاً شديداً، فأقبل أبو بكر رضي الله عنه فأخذ بمنكبيه ودفعه عن رسول الله ﷺ.

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: ما رأيت قريشاً أصابت من عداوة أحد، ما أصابت من عداوة رسول الله ﷺ. ولقد حضرتهم يوماً وقد اجتمع ساداتهم وكبراؤهم في الحجر، فذكروا رسول الله ﷺ. فقالوا: ما صبرنا لأمر كصبرنا لأمر هذا الرجل، ولقد سفه أحلامنا، وشتم آباءنا، وعاب ديننا، وفرق جماعتنا، وسب آلهتنا. لقد صبرنا منه على أمر عظيم.

فبينما هم كذلك، إذ طلع عليهم رسول الله ﷺ فأقبل يمشي، حتى استلم الركن، ثم مر طائفاً بالبيت، فلما مر بهم لمزوه ببعض القول، فوقف عليهم وقال: أتسمعون يا معشر قريش؟ أما والذي نفس محمد بيده! لقد جئتكم بالذبح، فارتعبوا لكلمته، وما بقي رجل منهم إلا كأنما على رأسه طائر واقع. فصاروا يقولون: يا أبا القاسم! انصرف. فوالله ما كنت جهولاً، فانصرف رسول الله ﷺ. فلما كان الغد اجتمعوا في الحجر وأنا معهم، فقال

---

(١) سورة غافر الآية: (٢٨).

بعضهم لبعض: ذكرتم ما بلغ منكم، وما بلغكم عنه، حتى إذا ناداكم بما تكرهون تركتموه. فبينما هم كذلك إذ طلع عليهم رسول الله ﷺ فتواثبوا إليه وثبة رجل واحد، وأحاطوا به وهم يقولون: أنت الذي تقول كذا وكذا؟ يعنون: عيب آلهتهم ودينهم. فقال: نعم أنا الذي أقول ذلك. فأخذ رجل منهم بمجمع ردائه ﷺ فقام أبو بكر دونه، وهو يبكي ويقول: أتقتلون رجلاً أن يقول ربيّ الله! فأطلقه الرجل. ووقعت الهيبة في قلوبهم، فانصرفوا عنه. فذلك أشد ما رأيتهم نالوا من رسول الله ﷺ. وفي رواية: أنهم بعد أن كفوا عن رسول الله، أقبلوا على أبي بكر يضربونه. قالت بنته أسماء: فرجع إلينا فجعل لا يمس شيئاً من غدائره[١] إلا أجابه وهو يقول: تباركت يا ذا الجلال والإكرام[٢].

وكان بجواره ﷺ جماعة، منهم أبو لهب، والحكم بن أبي العاص بن أمية، والد مروان وعقبة بن أبي معيط. فكانوا يطرحون عليه ﷺ الأذى، فإذا طرحوه عليه أخذه وخرج به ووقف على بابه ويقول: يا بني عبد مناف! أي جوار هذا؟ ثم يلقيه في الطريق.

ومن أشد النكايات بالإسلام ما وقع لأبي بكر رضي الله عنه من الأذية. فقد كان رسول الله ﷺ يختلي هو ومن أسلم من الصحابة في دار الأرقم يعبدون الله فيها سراً، وكانوا ثمانية وثلاثين رجلاً. فألح أبو بكر على رسول الله في الظهور، أي: بالخروج إلى المسجد فقال: أي أبا بكر! إنا قليل. فلم يزل به يقنعه حتى خرج ومن معه من الصحابة إلى المسجد، وقام أبو بكر في الناس خطيباً ورسول الله جالس، ودعا إلى الله ورسوله. وهو أول خطيب دعا إلى الله تعالى.

---

(١) الغديرة: الذؤابة. الجمع: غدائر.

(٢) ورد في (سيرة ابن هشام) عن هذه الواقعة، مايلي: قال ابن إسحاق: وحدّثني بعض آل أم كلثوم بنت أبي بكر أنها قالت: لقد رجع أبو بكر يومئذ: وقد صدعوا فرق رأسه، مما جذبوه بلحيته، وكان رجلاً كثير الشعر. الجزء (١) صفحة (٢٩٠). (دار إحياء التراث العربي) بيروت ١٤١٣هـ ١٩٩٣م.

فثار المشركون على أبي بكر وعلى المسلمين يضربونهم، فضربوهم ضرباً شديداً، ووطىء أبو بكر بالأرجل، وضرب ضرباً شديداً. وكان عتبة بن ربيعة يضربه بنعلين مخصوفتين «مطبقتين»، ويحرفهما إلى وجهه حتى صار لا يعرف أنفه من وجهه. فجاءت بنو تميم يتعادون، فأجلت المشركين عن أبي بكر، وحملوه في ثوب إلى أن أدخلوه منزله، وهم لا يشكون في موته. ثم عادوا فدخلوا إلى المسجد فقالوا: والله لئن مات أبو بكر لنقتلن به عتبة، ثم رجعوا إلى أبي بكر مع أبيه أبي قحافة، يكلمونه فلا يجيب. حتى إذا كان آخر النهار تكلم وقال: ما فعل رسول الله ﷺ؟ فعذلوه، فصار يكرر ذلك. فقالت أمه: والله ما لي علم بصاحبك. فقال: اذهبي إلى أم جميلة بنت الخطاب أخت عمر، وكانت ممن أسلم، وتخفي إسلامها. فاسأليها عنه. فخرجت إليها وقالت لها: إن أبا بكر يسأل عن محمد بن عبد الله؟ فقالت: لا أعرف محمداً ولا أبا بكر. قالت لها: تريدين أن أخرج معك؟ قالت: نعم فخرجت معها إلى أن جاءت أبا بكر، فوجدته صريعاً. فصاحت وقالت: إن قوماً فعلوا هذا منك لأهل حيف، وإنّي لأرجو أن ينتقم الله منهم. فقال لها أبو بكر: ما فعل رسول الله ﷺ؟ فقالت له: هذه أمك تسمع. قال: فلا عين عليكم منها «أي: لا تفشي سرك» قالت: سالم. فقال: أين هو؟ قالت: في دار الأرقم. فقال: والله لا أذوق طعاماً ولا أشرب شراباً أو آتي رسول الله ﷺ. قالت أمه: فأمهلناه حتى إذا هدأت الرجل وسكن الناس، فخرجنا به يتكىء علي، حتى دخل على رسول الله ﷺ، فرق له رقة شديدة، وأكب عليه يقبله، وأكب عليه المسلمون كذلك. فقال: بأبي أنت وأمّي يا رسول الله ما بي من بأس إلاّ ما نال الناس من وجهي. وهذه أمي برّة بولدها، فعسى الله أن ينقذها بك من النار. فدعا لها رسول الله ﷺ، ودعاها إلى الإسلام، فأسلمت.

وممن أوذوا من الصحابة: عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، فقد اجتمع الصحابة يوماً، فقال أحدهم: والله ما سمعت قريش القرآن جهراً إلا من رسول الله ﷺ فمن فيكم يسمعهم؟ قال عبد الله بن مسعود: أنا. فقالوا: نخشى عليك منهم، إنما نريد رجلاً له عشيرة يمنعونه من القوم. فقال:

دعوني فإن الله يمنعني منهم. ثم إنه قام عند المقام، عند الشمس، وقريش في أنديتهم، رافعاً صوته فقال:

بسم الله الرحمن الرحيم «الرحمن علم القرآن» واستمر فيها، فتأملته قريش وقالوا: ما بال ابن أم عبد؟ فقال بعضهم: يتلو بعض ما جاء به محمد، ثم قاموا إليه يضربون وجهه، وهو مستمر في قراءته حتى قرأ غالب السورة. ثم انصرف إلى أصحابه، وقد أدمت قريش وجهه. فقال له أصحابه: هذا الذي خشينا عليك منه. فقال: والله ما رأيت أعداء الله أهون علي مثل اليوم. ولو شئتم لأتيتهم بمثلها غداً قالوا: لا. قد أسمعتهم ما يكرهون.

ومن إذايتهم له ﷺ، أنهم كانوا إذا قرأ القرآن تقف له جماعة عن يمينه، وجماعة عن يساره، ويصفقون ويصفرون، ويخلطون عليه بإلقاء الأشعار، كما حكى القرآن ذلك عنه:

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾[1].

حتى كان من أراد منهم سماع القرآن أتى خفية، واسترق السمع، خوفاً من قريش.

وممن فتنوه عن دينه، ولم يرتد عنه: بلال الحبشي رضي الله عنه. وكان مملوكاً لأمية بن خلف، وكان مولده بمكّة. أسلم وكتم إسلامه. وكان يبصق على الأصنام حول الكعبة. ويقول جاره. . . .[2] فشعرت به قريش فشكوه إلى مولاه فمكنهم من تعذيبه. فكانوا يجعلون في عنقه حبلاً ثم يدفعونه إلى الصبيان يلعبون به، ويطوفون به في شعاب مكة، وهو يقول: أحد أحد. إشارة إلى التوحيد، وعدم الإشراك بالله، وقد أثر الحبل في عنقه. وكان أمية، إذا حميت الظهيرة، يخرج بلالاً بعد أن يجيعه ويعطشه يوماً وليلة، فيطرحه على ظهره في الرمضاء على الرمل إذا اشتدت حرارته، بحيث لو وضعت عليه

(١) أخطأ الشيخ رحمه الله في الآية، وهي من سورة (فصلت) الآية (٢٦).
(٢) غير واضح في الأصل.

قطعة لحم لنضجت. ثم يأمر بالصخرة العظيمة توضع على صدره، ثم يقول له: لا تزال هكذا حتى تموت، أو تكفر بمحمد، وتعبد اللات والعزى. ويمزج مرارة العذاب بحلاوة الإيمان فيقول: أحد أحد. وقيل: مر عليه ورقة بن نوفل، وهو يعذب ولسانه يكرر: أحد أحد. فقال: نعم أحد أحد. والله يا بلال. ثم أتى إلى أمية وقال: والله لئن قتلتموه على هذا، لأتخذنه حناناً «أي: لأجعلن قبره منسكاً ومسترحماً» ومر به أبو بكر رضي الله عنه، وهو ملقى على ظهره في الرمضاء وعلى صدره تلك الصخرة. فقال لأمية بن خلف: ألا تتقي الله تعالى في هذا المسكين؟ حتى متى تعذبه؟ قال: أنت أفسدته فأنقذه، فساومه فيه أبو بكر. وفي (الإمتاع) رواية عن سعيد بن المسيب: أن أمية قال لأصحابه، لما ساومه أبو بكر في بلال: لألعبن بأبي بكر لعبة ما لعبها أحد بأحد. وقال له: أعطني عبدك قسطاس، فقال أبو بكر: إن فعلت تفعل؟ قال: نعم قد فعلت. فتضاحك أمية وقال: لا والله حتى تعطيني معه امرأته. فقال أبو بكر: إن فعلت تفعل؟ قال أمية: نعم. قال أبو بكر قد فعلت. فتضاحك أمية وقال: لا والله حتى تعطيني ابنته مع امرأته قال أبو بكر: إن فعلت تفعل؟ قال: نعم. قال: قد فعلت ذلك فتضاحك وقال: لا والله. حتى تزيدني معه مئتي دينار. فقال أبو بكر: أنت رجل لا تستحي[1] من الكذب. قال أمية: لا واللات والعزى! لئن أعطيتني لأفعلن. فقال أبو بكر: هي لك أيضاً. فأخذه.

---

(١) هناك روايات أخرى في شراء بلال، ذكرها أصحاب السير، منها: أن أبا بكر هو الذي عرض قسطاس غلامه إذ قال له: عندي غلام أسود أجلد منه وأقوى. على دينك، أعطيكه به. قال: قبلت. قال: هو لك. فأعطاه أبو بكر غلامه وأخذ بلال. وفي رواية: اشتراه ببعض أواق من الذهب، قيل: بخمس، وقيل: بسبع. وفي أخرى: ببردة وعشرة أواق من فضة. وفي رواية: برطل من ذهب.
وفي رواية: أن سيد بلال قال لأبي بكر: لو أبيت إلا بأوقية لبعناكه. فقال أبو بكر: لو طلبت مئة أوقية لأخذته بها. وقيل: إن النبي لقي أبا بكر فقال: لو كان عندنا مال اشتريت بلالاً، فانطلق العباس فاشتراه، فبعث به إلى أبي بكر لتمليكه إياه. فأعتقه. (المؤلف).

فقال له بلال: إن كنت اشتريتني لنفسك فأمسكني، وإن كنت إنما اشتريتني لله عز وجل فدعني لله. فأعتقه. فقالت قريش: لم يفعل أبو بكر ذلك ببلال إلا ليد كانت له عنده يكافئه بها، فأنزل الله في حقه:

﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ﴾» فوصفه فيها بالأتقى، ووصف أمية بن خلف بالأشقى، ووصف أبا سفيان بالبخل. فقال: ﴿ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ﴾ لأنّه كان عاتب أبا بكر في إنعامه وإعتاقه. فقال له: أضعت مالك، والله لا تصيبه أبداً[1].

واشترى أبو بكر جماعة آخرين كانوا يعذبون في الله. منهم حمامة أم بلال ومنهم: عامر بن فهيرة، كان لرجل من بني تميم من ذوي قرابة أبي بكر، وهو الطفيل. كان يعذب حتى ينقطع ولا يدري ما يقول. فاشتراه وأعتقه. ومنهم: أبو فكيهة كان عبداً لصفوان بن أمية، أسلم حين أسلم بلال. فأخذه أمية أبو صفوان وأخرجه نصف النهار في شدّة الحر مقيداً إلى الرمضاء فوضع على بطنه صخرة، فخرج لسانه، وأخو أمية يقول له: زده عذاباً حتى يأتي محمد فيخلصه بسحره. فاشتراه أبو بكر بماله وأعتقه. ومنهم: (زنّيرة) «وهي الحصاة الصغيرة» وهي امرأة آمنت بالله. فعذبت حتى عميت. قال لها يوماً أبو جهل: إن اللات والعزى فعلا بك ما ترين. فقالت له: كلا والله! لا تملك اللات والعزى نفعاً ولا ضراً. هذا أمر من ربي. فاشتراها أبو بكر وأعتقها وكذا بنتها (أم عنيس) وهي أمة لبني زهرة كان يعذبها الأسود بن

---

(١) يذهب الشيخ الطاهر بن عاشور في (التحرير والتنوير) إلى أن سورة (الليل) مكية في قول الجمهور، وقيل: مدنية، وقيل: بعضها مدني. وأنها نزلت في (أبي الدحداح الأنصاري) في نخلة، كان يأكل أيتام من ثمرها، وكانت لرجل من المنافقين، فمنعهم من تمرها، فاشتراها (أبو الدحداح) بنخيل، وجعلها لهم.

ولكن الشيخ في تفسير: ﴿**فأما من أعطى**﴾ قال: إن هذا نزل بسبب أن أبا بكر اشترى بلالاً من أميّة بن خلف. وأمّا الشيخ حسنين محمد مخلوف في (صفوة البيان) في تفسير ﴿**ولسوف يرضى**﴾ قال: وعد من الله لأبي بكر بنيل جميع ما يبتغيه على أكمل الوجوه وأجملها. والله أعلم. (المحقق).

عبد يغوث، فاشتراها أبو بكر وأعتقها. ومنهم (النهدية) وابنتها، وكانتا للوليد بن المغيرة. ومنهم (لطيفة) أخت عامر بن فهيرة، كانت جارية لعمر بن الخطاب. أسلمت قبله، فعذبها واستمر يضربها حتى مل، ثم قال لها: إني أعتذر لك، فإني لم أتركك حتى مللت. فقالت له: كذلك يعذبك ربك إن لم تسلم. فاشتراها منه أبو بكر وأعتقها. ومنهم (لبينة) جارية بني المؤمل بن حبيب، اشتراها منهم وأعتقها.

وهناك طائفة فتنت عن دينها، فصبرت على الفتنة، منهم: خباب بن الأرت (بالمثناة) فإنه سبي في الجاهلية، فاشترته أم أنمار، وكان حداداً يألفه ﷺ ويأتيه. فلما أسلم، وأخبرت مولاته بذلك، صارت تأخذ الحديدة وقد أحمتها بالنّار، فتضعها على رأسه. وحكى عن نفسه قال: لقد رأيتني يوماً وقد أوقدوا لي ناراً وضعوها على ظهره، فما أطفاها إلاّ ودكه. وفي (البخاري) عن خباب قال: أتيت رسول الله ﷺ وهو متوسد برده في ظل الكعبة، ولقد لقينا معاشر المسلمين من المشركين شدة شديدة، فقلت: يا رسول الله! ألا تدعو الله لنا؟ فقعد ﷺ محمراً وجهه، فقال: إنه كان من قبلكم ليمشط أحدهم بأمشاط الحديد، ما دون عظمه من لحم وعصب، ما يصرفه ذلك عن دينه، ويوضع المنشار على فرق رأس أحدهم فيشق، ما يصرفه ذلك عن دينه. وليظهرن الله تعالى هذا الأمر، حتى يصير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، لا يخاف إلا الله، والذئب على غنمه.

ومن المفتونين الثابتين، عمار بن ياسر. وكان مع أبويه عبيداً لأبي حذيفة ابن المغيرة، عم أبي جهل، ثم عبداً لأبي جهل. وكان الأخير يعذبه بالنّار. وقد كشف عمار مرة عن ظهره فإذا هو قد برص، أي: صار أثر النار فيه أبيض كالبرص، فقد جعل أبو جهل لعمار درعاً من حديد يلبسه إياه في اليوم الصائف. وفيه نزل قوله تعالى:

﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾[1].

---

(١) مفتتح سورة (العنكبوت). وذكر الشيخ (مخلوف) في (صفوة البيان)، أنها نزلت في =

ولما اشتد الأمر عليه قال لرسول الله ﷺ: لقد بلغ منّي العذاب كل مبلغ؟ فقال له الرسول: صبراً يا أبا اليقظان!

ومنهم ياسر أبو عمار وزوجته سمية أم عمار وأخوه عبد الله. كانوا أيضاً مثل عمار يعذبون في الله، فمر بهم النبي ﷺ فقال لهم: يا آل ياسر! صبراً يا آل ياسر اللهم اغفر لآل ياسر. فمات ياسر في العذاب. وطعن أبو جهل سمية في قلبها بعد أن قال لها: آمنت بمحمد لأنك عشقتيه....[1] فماتت. وهي أول شهيدة في الإسلام قتلت صبراً.

ومنهم أبو بكر الصديق رضي الله عنه. روت عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: لما ابتلي المسلمون بأذى المشركين، وحصروا بني هاشم والمطلب في شعب أبي طالب. وأذن ﷺ لأصحابه في الهجرة إلى الحبشة، وهي الهجرة الثانية. خرج أبو بكر فيمن خرج مهاجراً إلى أرض الحبشة، حتى إذا بلغ برك الغماد، «موضع بأقاصي هجر» وقيل: وراء مكة بخمسة أميال. لقيه ابن الدغنّة[2] واسمه الحارث، وهو سيد الغارة «قبيلة مشهورة» كان يضرب بها المثل في قوة الرمي، ومن ثم قيل لهم: رماة الحدق. والغارة: أكمة سوداء نزلوا عندها فسموا بها. فقال له: أين تريد يا أبا بكر؟ قال أبو بكر: أخرجني قومي، فأريد أن أسيح في الأرض فأعبد ربي. قال ابن الدغنة: فإن مثلك يا أبا بكر لا يخرج من بلده، إنك تكسب المعدوم وتصل الرحم، وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق، وأنا لك جار، فارجع واعبد ربك في بلدك. فرجع مع ابن الدغنة، فطاف ابن الدغنة بأشراف قريش، وقال لهم: إن أبا بكر لا يخرج مثله. أتخرجون رجلاً يكسب

= أناس من الصحابة، قد جزعوا، أو جزع أهلهم من أذى المشركين لهم. (المحقق).

(١) غير واضح في الأصل. واكتفى (ابن هشام) في (السيرة النبوية) بالقول: «فأمّا أمه، فقتلوها، وهي تأبى إلا الإسلام» الجزء (١) صفحة (٣٢٠).

(٢) المحققون لسيرة (ابن هشام) طبعة (دار إحياء التراث العربي) ذكروا في الهامش أن اسمه (مالك) وورد في النصّ أنه «أخو بني الحارث بن عبد مناة بن كنانة، وهو يومئذ سيد الأحابيش».

المعدوم، ويصل الرحم، ويحمل الكل، ويقري الضيف، ويعين على نوائب الحق، وهو في جواري. فلم تكذب قريش بجوار ابن الدغنة. وقالوا لابن الدغنة: مر أبا بكر فليعبد ربه في داره، وليصل فيها، وليقرأ ما شاء، ولا يؤذنا بذلك، ولا يستعلن به، فإنا نخشى أن يفتن نساءنا وأبناءنا. فقال ابن الدغنة ذلك لأبي بكر، فمكث أبو بكر يعبد ربه في داره، ولا يستعلن بصلاته، ولا يقرأ في غير داره. ثم ابتنى مسجداً بفناء داره، فكان يصلي فيه، ويقرأ القرآن. وكان رجلاً بكاء لا يملك دموعه إذا قرأ القرآن، فكانت نساء قريش يزدحمن عليه، فأفزع ذلك كثيراً من أشرافهم، فأرسلوا إلى ابن الدغنة، فقدم عليهم، فقالوا: إنا أجرنا أبا بكر بجوارك على أن يعبد ربه في داره، فقد جاوز ذلك، فابتنى مسجداً بفناء داره، فأعلن بالصلاة والقراءة، وإنا قد خشينا أن يفتن نساءنا وأبناءنا بهذا، فإن أحب أن يقتصر على أن يعبد ربه في داره فعل، وإن رأى أن يعلن بذلك، فاسأله أن يرد إليك ذمتك، فإنا قد كرهنا أن نخفرك ونبطل عهدك. وأتى ابن الدغنة إلى أبي بكر فقال: لقد علمت الذي قد عقدت لك عليه فإما أن تقتصر على ذلك، وإما أن ترجع إليّ ذمتي، فإني لا أحب أن تسمع العرب أني أخفرت في رجل عقدت له. فقال له أبو بكر: إني رددت عليك جوارك، وأرضى بجوار الله تعالى.

ولما رد جوار ابن الدغنة لقيه بعض سفهاء قريش وهو عابر إلى الكعبة فحثا على رأسه تراباً، فمر عليه بعض كبراء المشركين من قريش، فقال له أبو بكر: أما ترى ما صنع هذا السفيه؟ فقال له: أنت فعلت بنفسك. فجعل أبو بكر يقول: رب ما أحلمك! يكررها ثلاثاً.

محاولة استغواء قريش للنبي ﷺ وصده عن نشر الدعوة الإسلامية

لما رأت قريش المسلمين يزيدون ويكثرون، اجتمع أشرافهم من كل قبيلة في ناديهم بمكة، يتذاكرون في أمر محمد، وقالوا: ابعثوا إليه حتى تعذروا فيه، فقالوا: انظروا أعلمكم بالسحر والكهانة والشعر، فليأت هذا الرجل الذي مزق جماعتنا وشتت أمرنا وعاب ديننا، فليكلمه، ولننظر ماذا يريد،

وليعرض عليه أموراً، لعله يقبل بعضها، فنعطيه إياها، ويكف عنّا. فأجمع أمرهم على عتبة بن ربيعة، وكان سيداً مطاعاً في قريش. فقام عتبة حتى جلس إلى الرسول ﷺ وهو جالس في المسجد وحده. فقال: يا بن أخي! إنك منا حيث قد علمت من البسطة في العشيرة، والمكان في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم، فرقت به جماعتهم، وسفهت به أحلامهم، وعبت به آلهتهم ودينهم، وكفرت به من مضى من آبائهم. وزاد بعضهم: أنت خير أم عبد الله، أنت خير أم عبد المطلب، إن كنت تزعم أنك خير منهم، فقل يسمع لقولك، لقد أفضحتنا في العرب، حتى طار فيهم: أن في قريش ساحراً، وأن في قريش كاهناً، ما تريد إلا أن يقوم بعضنا لبعض بالسيوف، حتى نتفانى؟! فاسمع مني، أعرض عليك أموراً تنظر فيها، لعلك تقبل منها بعضها. فقال رسول الله ﷺ: قل يا أبا الوليد! أسمع. فقال: يا بن أخي! إن كنت إنما تريد بما جئت به في هذا الأمر مالاً، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً. وإن كنت تريد شرفاً، سودناك علينا، حتى لا نقطع أمراً دونك. وإن كنت تريد ملكاً، ملكناك علينا. وإن كان هذا الذي يأتيك رئياً[١] من الجن تراه، لا تستطيع ردّه عن نفسك! طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا، حتى نبرئك منه. فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يُداوى.

ولما فرغ عتبة، ورسول الله ﷺ يسمعه، قال: لقد فرغت يا أبا الوليد؟ قال: نعم قال: فاسمع مني. فقال:

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوۡمٍ يَعۡلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ﴾ ثم مضى رسول الله ﷺ في قراءتها وقد أنصت له عتبة، وألقى يديه خلف ظهره، معتمداً عليهما، يسمع منه، حتى انتهى إلى قوله تعالى: ﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَقُلۡ أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةً مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾[٢].

---

(١) الرئيّ: جنيّ يرى فيحب. القاموس.
(٢) الآية (١٣) من سورة (فصلت).

فأمسك عتبة على فيه ﷺ وناشده الرحم، أن يكف عن ذلك. فاستمر النبي في قراءة السورة إلى السجدة فيها فسجد[1]. ثم قال لأبي الوليد: لقد سمعت ما سمعت، فأنت وذاك.

فقام عتبة إلى أصحابه، ولما رأوه مقبلاً قال بعضهم لبعض يحلف: لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به. فلما جلس إليهم قالوا له: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: ورائي أني سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة. يا معشر قريش! أطيعوني، فاجعلوها لي، خلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه، فاعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ. فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم، وعزه عزكم، وكنتم أسعد الناس به.

فقالت له قريش: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه؟ قال: هذا رأيي فيه، فاصنعوا ما بدا لكم. وقيل: لما سأله أبو جهل عما تكلم به مع النبي؟ فقال: والله الذي نصبها مبنية، أي: «الكعبة» ما فهمت شيئاً مما قال، غير أنه: أنذركم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود. فأمسكت فيه[2] فأنشدته الرحم أن يكف. وقد علمت أن محمداً إذا قال شيئاً لم يكذب. فخفت أن ينزل عليكم العذاب. فقال له من حضر: ويلك! يكلمك الرجل بالعربية لا تدري ما قال! قال: والله ما سمعت مثله! فقالوا: والله سحرك يا أبا الوليد. قال: هذا رأيي فيه فاصنعوا ما بدا لكم.

وفي (الينبوع): أن الوليد بن المغيرة، أتى منزل أبي طالب في أربعين رجلاً من سادات قريش، منهم الأسود بن زمعة، وأمية بن خلف، والعاص بن وائل، وعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو سفيان، والنضر بن الحارث، وأبو جهل، وسألوه أن يحضر لهم رسول الله ﷺ ويأمرهم بإشكائهم

---

(١) الآية (٣٧): ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾.

(٢) هكذا وردت. والصحيح (فاه). ولا يقصد حرف الجرّ بدليل الفقرة السابقة.

ما يشكون منه، «أي: أن يزيل شكواهم منه»[1] ويجيبهم إلى أمر فيه الألفة والإصلاح. فأحضروه، فقال له عمه أبو طالب:

يا بن أخي! هؤلاء الملأ من قومك، فأشكهم وتألفهم. فعاتبوا النبي على تسفيه أحلامهم وأحلام آبائهم وعيب آلهتهم قالوا: يا محمد إنا بعثنا إليك لنكلمك، فإنا والله لا نعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك. لقد شتمت الآباء، وعيبت الدين، وسببت الآلهة، وسفهت الأحلام، وفرقت الجماعة. ولم يبق أمر قبيح إلا أتيته فيما بيننا وبينك، فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت إنما تطلب الشرف فينا فنحن نسودك ونشرفك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك تابعاً من الجن قد غلب عليك بذلنا أموالنا في طبك.

فقال لهم ﷺ: ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم، ولا الشرف فيكم، ولا الملك عليكم. ولكن الله بعثني إليكم رسولاً، وأنزل علي كتاباً، وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً، فبلغتكم رسالات ربي، ونصحت لكم. فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه علي، أصبر لأمر الله تعالى، حتى يحكم الله بيني وبينكم.

وروي عن ابن عباس: أن عتبة بن ربيعة، قال للنبي في ملأ من قريش: إن كان ما بك الباء[2] فاختر أي نساء قريش، فنزوجك عشراً. وقالوا له: أرجع إلى ديننا، واعبد آلهتنا، واترك ما أنت عليه. ونحن نتكفل لك بكل ما تحتاج إليه في دنياك وآخرتك.

وقالوا له: إن لم تفعل، فإنا نعرض عليك خصلة واحدة، ولك فيها صلاح. قال: وما هي؟ قال عتبة: تعبد آلهتنا، اللات والعزى، سنة، ونعبد إلهك سنة، فنشترك نحن وأنت في الأمر. فإن كان الذي تعبد خيراً مما نعبد،

---

(١) في القاموس: أشكى فلاناً من فلان: أخذ له منه ما يرضيه، وأزال شكايته.
(٢) (الباءة والباء): النكاح.

كنت أخذت منه بحظك، وإن كان الذي نعبده خيراً مما تعبد، كنا قد أخذنا منه بحظنا.

فقال لهم النبي ﷺ: أنظروني حتى أنظر ما يأتي من ربي. فنزل عليه الوحي بآية:

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۝١ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝٣ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾.

ونزل عليه أيضاً:

﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ۝٦٤ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ۝٦٥ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾[1].

تحدّي قريش للنبيّ ﷺ

ولمّا أعيا أمره ﷺ الكفار قالوا له: ائت بقرآن آخر ليس فيه ما يغيضنا، فنتبعك، أو بدله بأن تجعل مكان آية عذاب، آية رحمة، وتسقط ذكر الآلهة، وذم عبادتها. فنزل قوله تعالى جواباً لهم:

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[2].

وجلس بعد ذلك رسول الله ﷺ مجلساً لقريش، حضره ناس من وجوههم منهم أبو جهل بن هشام وعتبة بن ربيعة، وأمية بن خلف، والوليد بن المغيرة. فقال لهم: أليس حسناً ما جئت به؟ فقالوا: بلى والله. وفي رواية أخرى قال لهم: هل ترون بما أقول بأساً؟ فقالوا: لا يا رسول الله. فجاء عبد الله بن أم مكتوم، ابن خال خديجة. وهو ممن أسلم بمكة قديماً، فصار

---

(١) سورة (الزمر) الآيات: ٦٤ ـ ٦٦.

(٢) سورة (يونس) الآية: ١٥.

يقول: يا رسول الله علمني مما علمك الله، وأكثر عليه من السؤال وكان ﷺ مشغولاً بأولئك القوم. وقد رأى منهم مؤانسة، وطمع في إسلامهم. فشق ذلك عليه، فأعرض عن ابن أم مكتوم، ولم يكلمه، وقيل: أشار إلى قائده بأن يكفه عنه، حتى يفرغ من كلامه. فكفه القائد، فدفعه ابن أم مكتوم فعبس ﷺ وأعرض عنه. وأقبل على قريش. فنزل عليه آية[1]:

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ۝٤ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴾.

فكان بعد ذلك إذا جاءه ابن أم مكتوم يقول ﷺ: مرحباً بمن عاتبني فيه ربي. ويبسط له رداءه.

وسألت قريش النبي ﷺ قالوا: سل ربك، يسير عنا هذه الجبال التي قد ضيقت علينا، ويبسط بلادنا، وليخرق فيها أنهاراً كأنهار الشام والعراق، وليبعث لنا من مضى من آبائنا، وليكن فيمن يبعث لنا قصي بن كلاب، فإنه كان شيخ صدق، فنسأله عما تقول، أحق هو أم باطل؟ فإن صنعت ما سألناك وصدقوك صدقناك، وعرفنا منزلتك من الله، وأنه بعثك إلينا رسولاً، كما تقول.

فقال لهم رسول الله ﷺ: ما بهذا بعثت لكم، إنما جئتكم من الله بما بعثني به. ومنهم من قال: سل ربك يبعث بعدك ملكاً، يصدقك فيما تقول، ويراجعنا عنك.

وفي رواية أخرى: لم لا ينزل الله علينا الملائكة، فتخبرنا بأن الله أرسلك؟ أو نرى ربنا، فيخبرنا بأنه أرسلك، فنؤمن حينئذ بك؟ وقال آخر: لن نؤمن لك يا محمد، حتى تأتي بالله والملائكة قبيلاً، وأسأله أن يجعل لك جناناً وقصوراً وكنوزاً من ذهب وفضة، يغنيك بها عما نراك تبتغي، فإنك تقوم بالأسواق، وتلتمس المعاش كما نلتمسه، فلا بدّ أن تتميز عنا حتّى نعرف

---

(١) سورة (عبس) الآيات: ١ ـ ١٠.

فضلك ومنزلتك من ربك، إن كنت رسولاً. وقال آخرون: إنّ محمداً يأكل الطعام كما نحن نأكل، ويمشي في الأسواق ويلتمس المعاش كما نلتمس نحن، فلا يجوز أن يمتاز علينا بالنبوة.

فقال عليه الصلاة والسلام: ما أنا بالذي يسأل ربه هذا؟ فأنزل عليه آية:

﴿ وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ﴾[1].

وقالوا أيضاً: الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً منا. فأنزل الله تعالى:

﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ ﴾[2].

وقالوا أيضاً: إن كنت صادقاً، فسل ربك أن يسقط السماء علينا كسفاً كما زعمت، وقد بلغنا إنما يعلمك رجل باليمامة يقال له: الرحمن، وإنا لن نؤمن بالرحمن أبداً. وقد عنوا بالرحمن: كاهناً لليهود باليمامة. فرد الله عليهم بأن الرحمن، المعلم له، هو الله.

﴿ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴾[3].

وقال له ابن عمته عاتكة، واسمه عبد الله بن عتاب، قبل إسلامه، بعد أن رجع آسفاً على ما فاته من هداية قومه: يا محمد! قد عرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبل، ثم سألوك أموراً ليعرفوا بها منزلتك من الله كما تقول، ويصدقوك ويتبعوك، فلم تفعل، ثم سألوك أن تعجل بعض ما تخوفهم به من العذاب، فلم تفعل. والله لن نؤمن بك، حتى تتخذ إلى السماء سلماً، ثم ترقى فيه، وأنا أنظر إليك حتى تأتيها، ثم تأتي بصك معه أربعة ملائكة، يشهدون أنك كما تقول. وأيم الله! إنك لو فعلت ذلك ما ظننت أني أصدقك. فأنزل الله تعالى عليه الآيات الشارحة لهذه المقالات كلها، في سورة الإسراء[4] وقد خيره فيها بين أن يعطيه جميع ما سألوه، وإنهم إن

---

(١) سورة (الفرقان): الآية ٧.

(٢) سورة (يونس) الآية: ٢.

(٣) سورة (الرعد) الآية: ٣٠ كتبها الشيخ رحمه الله: قل هو الرحمان ربي، خطأ.

(٤) سورة (الإسراء) الآيات من (٩٠ إلى ٩٣).

كفروا بعد ذلك استأصلهم بالعذاب، كما فعل بالأمم المنقرضة. وبين أن يفتح لهم باب الرحمة والتوبة لعلهم يثوبون إلى الحق ويرجعون إلى تصديق نبيهم. فاختار الثاني؛ لأنه ﷺ كان يعلم أنهم لا يريدون الهداية بل التحدي والعناد.

وقد أجمع العلماء على أن قريش لم يسألوا ما سألوا من تلك الآيات إلا تعنتا واستهزاء، لا على سبيل الاسترشاد، ودفع الشك، بدليل ارتيابهم في القرآن، مع إكبارهم له. وقد قالوا فيه: إنه لسحر يؤثر «أي: يأخذه عن مثله» وقالوا عنه أيضاً: إن هو إلا قول البشر. يعنون به (أبا اليسر) وهو عبد لبني الحضرمي كان النبي يجالسه.

أمّا السبب الحقيقي الذي صدف بقريش عن الإيمان، فهو بيّن من كلمة قالها أبو جهل في ذلك وهي: تزاحمنا نحن وبنو عبد المطلب الشرف، حتى صرنا كفرسي رهان قالوا: منا نبي يوحي إليه. والله لا نرضى به، ولا نتبعه أبداً، إلا أن يأتينا وحي كما يأتيه. فنزل قوله تعالى:

﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾[1].

ونجده أيضاً واضحاً في كلمة الوليد بن المغيرة، حيث قال: أينزل القرآن على محمد وأترك أنا؟! وأنا كبير قريش وسيدها! ويترك أبو مسعود الثقفي، سيد ثقيف، ونحن عظماء القريتين، مكة والطائف؟ فأنزل الله آية:

﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾[2].

ولما يئست قريش من استهواء النبي ﷺ، وإرجاعه عن دعوته إلى الله تعالى، بعثوا النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط، إلى أحبار اليهود بالمدينة يستفتونهم رأيهم في أمر محمد، وهم أهل كتاب.

فخرجا حتى قدما المدينة، وسألا أحبار اليهود، وقالا لهم: أتيناكم لأمر حدث فينا، منا غلام يتيم حقير، يقول قولاً عظيماً، يزعم أنه رسول الله.

---

(١) سورة (الأنعام) الآية: ١٢٤.

(٢) سورة (الزخرف) الآية: ٣١ كتبها الشيخ رحمه الله: من أهل القريتين. خطأ.

وفي رواية: رسول الرحمن. قالوا: صفا لنا صفته، فوصفاه لهم. قالوا: فمن يشيعه منكم؟ قالوا: سفلتنا. فضحك حبر منهم وقال: هذا النبي الذي نجد نعته، ونجد قومه أشد الناس له عداوة.

بداية ظهور التأثير المحمدي في المشركين من أعدائه

ذكر أصحاب السيرة قالوا: بينما رسول الله ﷺ جالس في المسجد ومن معه من الصحابة، إذا رجل من زبيد يطوف على حلق قريش حلقة بعد أخرى، وهو يقول: يا معشر قريش كيف تدخل عليكم المارة أو يجلب إليكم جلب، أو يحل بساحتكم تاجر، وأنتم تظلمون من دخل عليكم في حرمكم؟

حتّى انتهى إلى رسول الله ﷺ في أصحابه، فقال له رسول الله ﷺ: ومن ظلمك؟ فذكر أنه قدم بثلاثة جمال، خيرة إبله فسامه بها أبو جهل ثلث أثمانها، ثم لم يسمه بها لأجله سائم. قال: فأكسد علي سلعتي فظلمني. فقال له رسول الله ﷺ: وأين أجمالك؟ قال: هذه هي بالجزورة. فقام إليها ﷺ وقام أصحابه معه، فنظروا إلى الجمال فرأوها حساناً، فساوم النبي صاحبها حتى ألحقه برضاه، وأخذها منه. فباع جملين منها بالثمن، وأفضل بعيراً باعه، وأعطى أرامل بني عبد المطلب ثمنه. وجرى ذلك وأبو جهل جالس في ناحية من السوق، ولم يتكلم، ثم أقبل إليه رسول الله ﷺ فقال له: إياك يا عمرو أن تعود لمثل ما صنعت بهذا الرجل؟ فترى مني ما تكره، فجعل يقول: لا أعود يا محمد، لا أعود يا محمد!

ولما انصرف رسول الله ﷺ أقبل على أبي جهل، أمية بن خلف ومن معه من القوم فقالوا له: نراك ذللت في يد محمد! فإما أن تكون أردت أن تتبعه، وإما رعب دخلك منه. فقال لهم: لا أتبعه أبداً. إن الذي رأيتم مني لما رأيته، رأيت معه رجالاً عن يمينه، ورجالاً عن شماله معهم رماح يشرعونها إليّ لو خالفت لأتوا على نفسي.

وكان أيضاً أبو جهل وصيّاً على يتيم، فأكل ماله، وطرده، فاستغاث

اليتيم بالنبي ﷺ على أبي جهل، فمشى معه إليه، ورد عليه ماله. فقيل له في ذلك فقال: خفت من حربة عن يمينه وحربة عن شماله، لو امتنعت أن أعطيه لطعنت.

حديث المستهزئين برسول الله ﷺ ومساءتهم إليه

الاستهزاء ضرب من الدفع المحنق، والمقاومة السلبية العنيفة، يمارسها في الغالب المتكبرون للنكاية بخصومهم. وقد يكون من أفتك الأسلحة في المقاتل الأدبية. وهو أشد ما كان يكافح به قريش النبي ﷺ في بدء الدعوة الإسلامية. وكان المستهزؤون جماعة من النبلاء»[1] منهم:

أبو جهل، واسمه عمرو بن هشام، وكنيته: أبو الحكم.

وهو عمرو بن هشام المخزومي، كان من أشد المستهزئين بالنبي، يحرضه على ذلك ناس من قريش، فمن ذلك أنه ابتاع من رجل يقال له (الإيراشي) نسبة إلى راشة[2] «من خثعم» جمالاً فمطله بأثمانها، فدلته قريش على النبي لينصفه من أبي جهل، استهزاء به ﷺ، لعلمهم بأنه لا قدرة له عليه. وذلك لما وقف على ناديهم، فقال:

يا معشر قريش من يعينني منكم على أبي الحكم بن هشام؟ فإني غريب، وابن سبيل، وقد غلبني على حقي. فقالوا له: أترى ذلك الرجل؟ يعنون به: محمداً اذهب إليه فهو يعينك عليه. فجاء الرجل لرسول الله ﷺ، فذكر له حاله مع أبي جهل، وقال: قد سألت هؤلاء القوم عن رجل يأخذ لي بحقي

---

(١) يقصد الشيخ بـ (النبلاء) هنا: أشراف قريش؛ لأنّ مظاهر الاستهزاء التي سيعدّدها فيما بعد، لا يمكن أن تلتقي مع النّبل في شيء. وإنّما المستهزؤون كانوا من علية القوم، وكبرائهم، وإن بعدوا عن مكارم الأخلاق المتعارف عليها حتّى في الجاهلية. المحقق.

(٢) (الإيراشي). هكذا أوردها الشيخ رحمه الله. والصحيح (الإراشي) كما وردت في (سيرة ابن إسحاق) و(سيرة ابن هشام) نسبة إلى (إراش) أو (إراشة) بطن من خثعم، لا (راشة). المحقق.

منه، فأشاروا إليك، فخذ حقي منه، يرحمك الله.

فخرج النبي مع الرجل إلى أبي جهل، وضرب عليه بابه، فقال: من هذا؟ قال: محمد، فخرج إليه أبو جهل، وقد امتقع لونه، فقال له: أعط هذا حقه. قال: نعم لا تبرح حتى أعطيه له. فدفعه إليه، ثم أقبل الرجل حتى وقف على ذلك المجلس فقال: جزى الله محمداً خيراً، فقد والله أخذ لي حقي. وكانوا أرسلوا رجلاً ممن كان معهم خلف النبي، وقالوا له: انظر ماذا يصنع؟ ولما عاد سألوه قال: رأيت عجباً والله! ما هو إلا أن ضرب عليه بابه فخرج إليه وما معه روحه. فقال له محمد: أعط هذا حقه. فقال: نعم لا تبرح حتى أخرج إليه حقه. فخرج به إليه، فأعطاه إياه.

وكان من استهزاء أبي جهل بالنبي أنه يسير خلفه يخلج[1] بأنفه وفمه، يسخر منه ويضحك الناس. فاطلع عليه رسول الله مرة يفعل ذلك فقال له: كن كذلك. فكان يخلج إلى أن مات.

وحادث مرة قريش فقال: يزعم محمد: أن جنود الله الذين يقذفونكم في النار، ويحبسونكم فيها، تسعة عشر، وأنتم أكثر الناس عدداً، أفيعجز كل مئة رجل منكم عن واحد منهم؟ فأجابه أحد صناديدهم على معنى السخرية: أنا أكفيك سبعة عشر منهم واكفوني أنتم اثنين. فأنزل الله في ذلك الآية[2]:

﴿ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴾.

---

(١) (خلج): جذب، وغمز، وانتزع، وحرّك. القاموس.

(٢) سورة (المدثر) الآية: ٣١ وقد وقف الشيخ رحمه الله في الآية في (فتنة) فرأيت تكملتها. وشرحها بقوله: ﴿تبكيتاً لهم﴾ والأصح أن (الفتنة) في الآية بمعنى (الابتلاء والاختبار). وقد وردت اللفظة بهذا المعنى في (١٤) سورة من القرآن الكريم. المحقق.

ومن استهزائه قوله لقريش: يخوّفنا محمد بشجرة الزقوم يزعم أنها شجرة في النار، والنار تأكل الشجر، إنما الزقوم: التمر والزبد. وفي رواية ثانية: العجوة تشرب بالزبد[1]. هاتوا تمراً وزبداً وتزقموا! فأنزل الله تعالى:

﴿ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ۝ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ۝ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِي فِي ٱلْبُطُونِ ۝ كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ ﴾[2].

وقال مرة ساخراً: لتتركن يا محمد سب آلهتنا، أو لنسبن إلهك الذي تعبده. فنزل عند ذلك قوله تعالى:

﴿ وَلَا تَسُبُّوا ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا ٱللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾[3].

فأمسك رسول الله ﷺ عن سب آلهتهم، واكتفى بالدعوة.

ومنهم:

أمية وأبي، ابنا خلف. وكانا على شر ما عليه أحد، ممن آذى رسول الله وكذبه. جاءه أبي بعظم فخذ ميتة في يده، وقال: زعمت أن ربك يحيي هذا العظم! قل له: يحيه. فنزلت:

﴿ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۝ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾[4].

ومنهم:

أبو لهب. كان من جملة استهزائه به، أنه يأتي بالأقذار ويطرحها على بابه ﷺ حتى مر به يوماً أخوه حمزة، فرآه يفعل ذلك فأخذها وطرحها على رأسه، فجعل أبو لهب ينفض رأسه ويقول لأخيه: لأنت صابىء أحمق.

ومنهم:

---

(١) الأصح: تؤكل بالزبد.

(٢) سورة (الدخان) الآيات: من ٤٣ إلى ٤٦.

(٣) سورة (الأنعام) الآية: ١٠٨.

(٤) سورة (يس) الآيتان: ٧٨ و٧٩.

أبو قيس بن الفاكهة بن المغيرة، وكان يؤذي رسول الله ويعين أبا جهل على أذاه.

ومنهم:

مالك بن الطلاطلة بن عمر بن غسان، وكان من المستهزئين السفهاء. ومنهم ركانة بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب، وكان شديد العداوة والاستهزاء. وهناك آخرون من المستهزئين لم نذكرهم، لأنهم أسلموا بعد ذلك.

ومنهم:

عقبة بن أبي معيط، كان أيضاً يفعل مثل أبي لهب، يلقي الأقذار على بابه ﷺ حتّى قال في حقهما: كنت بين شر جارين، أبي لهب وعقبة بن أبي معيط، كانا ليأتيان بالفروث[1] فيطرحانها على بابي.

ومن استهزائه أنه دعا النبي ﷺ إلى طعامه في جملة من أشراف قريش، لما قدم من سفر، فلما قرّب إليهم الطعام، أبى رسول الله ﷺ أن يأكل منه. فقال: ما أنا بآكل طعامك، حتى تشهد أن لا إله إلا الله. فقال عقبة: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أنك رسول الله. فأكل منه ﷺ وانصرف الناس. وكان عقبة صديقاً لأبي بن خلف فأخبر الناس أبياً بمقالة عقبة. فأتى إليه، وقال: يا عقبة! صبأت؟! قال: والله ما صبأت، ولكن رجل شريف دخل منزلي، فأبى أن يأكل طعامي إلا أن أشهد له بما أراد، فاستحييت أن يخرج من بيتي ولم يطعم، فشهدت له، فطعم. والشهادة ليست عن نفسي. فقال له أبي: وجهي ووجهك حرام، إن لقيت محمداً فلم تطأه، وتبزق في وجهه، وتلطم عينيه. فقال عقبة: لك ذلك. ولما لقي النبي ﷺ، فعل به ذلك. وفي قول للضحاك: أن البزاق لم يصل إلى وجهه الشريف ﷺ.

ومنهم:

---

(١) (الفروث) جمع (فرث): بقايا الطعام من الكرش. ومنه قوله تعالى في الآية (٦٦) من سورة (النحل): ﴿نسقيكم مما في بطونه من بين فرث ودم، لبناً﴾. المحقق.

الحكم بن العاص، كان يقلد أبا جهل في استهزائه بالنبي، فقد كان رسول الله عثر ذات يوم في مكة والحكم خلفه، يخلج بفمه وأنفه يسخر منه، فالتفت إليه، فرآه على تلك الحالة، فقال له: كن كما أنت. فكان.

وكان يقول قبل مبعثه ﷺ: إن جاءنا نذير لنكونن أهدى من إحدى الأمم. ولما جاءه أنكره. وقد نزلت فيه عدّة آيات مكية في رد أقواله ومطاعنه[1] ومنها قوله تعالى:

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴾.

ومنهم:

النضر بن الحارث بن علقمة بن كلدة بن عبد مناف. كان أشد قريش في تكذيب النبي والأذى لأصحابه، وكان ينظر في كتب الفرس واليهود والنصارى، ويخالط كهنة الأديان. ذكر عنه أصحاب السير: أنه ذهب إلى الحيرة، واشترى منها قصص الأعاجم. قدم بها مكة لمعارضة الرسول ﷺ وتحديه. فكان ﷺ إذا جلس مجلساً، يحدث الناس ويحذرهم ما أصاب قبلهم من الأمم من نقمة الله تعالى، خلفه في مجلسه، ويقول لقريش: هلموا إلي، فإني والله أحسن حديثاً من محمد. ويقول: ما حديث محمد إلا أساطير الأولين عن عاد وثمود. ثم يحدثهم عن ملوك فارس. وكان يعلم أحاديثهم ويقول: سأنزل عليكم مثل ما أنزل الله! وفيه نزل قوله تعالى:

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾[2].

«نزلت فيه لا في غيره بدليل تاليها»:

---

(١) سورة (فاطر) الآية: (٤٢) اكتفى الشيخ بالإشارة ولم يستشهد بالآية، فأضفتها.

(٢) سورة (لقمان) الآية: ٦ والآية: ٧. وانظر الآية (٩٣) من سورة الأنعام: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ ﴾.

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾.

ومنهم:

زهير بن أمية، أخو أم سلمة لأبيها. وكان يظهر تكذيب رسول الله. ويردّ ما جاء به، ويطعن فيه. وهو ممن أعان على تمزيق الصحيفة.

ومنهم:

منبر ونبيه ابنا الحجاج السهميان. كانا ممن يؤذون الرسول، وإذا لقياه في طريق، يقولون له ساخرين: أما وجد الله من يبعثه غيرك، إن هاهنا من هو أسنّ منك، وأيسر حالاً. فإن كنت صادقاً فائتنا بملك يشهد لك، ويكون معك. وكانا يقولان عنه: هذا معلم مجنون، يعلمه أهل الكتاب ما يأتي به.

ومنهم:

العاص بن وائل السهمي، والد عمرو. كان يقول: غرّ محمد نفسه وأصحابه، أن وعدهم: يحيون بعد الموت! والله! ما يهلكنا إلا الدهر، ومرور الأيّام والأحداث. ومما نقل من استهزائه. ما صنعه بخباب بن الأرت وكان قيناً بمكة يعمل السيوف، فابتاع منها العاص، فجاءه خباب يتقاضى ثمنها، فقال له: لا أعطيك حتى تكفر بمحمد. فقال: لا أكفر بمحمد حتى يميتك الله ثمّ يبعثك. فقال: ذرني إذن حتى أموت، ثم أبعث. أليس يزعم محمد «وأنت على دينه» أن في الجنة ما يبتغي أهلها من ذهب وفضة أو ثياب أو خدم أو ولد؟ قال خباب: بلى. قال: فأنظرني إلى يوم القيامة حتّى أرجع إلى تلك الدار، فأقضيك هناك حقك. ووالله! لا تكونن أنت وصاحبك آثر عند الله منّي. ولا أعظم حظاً في ذلك. فأنزل الله في حقه آية:

﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴾[1].

(١) سورة (مريم) الآيات: من ٧٧ ـ ٨٠.

ومنهم:

مطعم بن عدي بن نوفل، وكان ممن يؤذي رسول الله ﷺ ويشتمه، ويسمعه ما يكره، ويكذبه ويبهته[1].

ومنهم:

الحارث بن قيس بن عدي بن سعد السهمي، ويلقب بابن عطيلة، أمه. ويقال له: ابن عطيل، ينسب إلى أمه وهو من أشراف قريش.

وكانت إليه الحكومة، والأموال، التي تجعل للآلهة. كان استهزاؤه بالرسول الاختلاج مثل ما نقلنا عن أبي جهل والحكم بن العاص. وكان يقول: غر محمد أصحابه، ووعدهم أن يحيوا بعد الموت. والله ما يهلكنا إلا الدهر. وكان يأخذ حجراً يعبده، فإذا رأى أحسن منه، ترك الأول وعبد الثاني. وفيه نزلت الآية:

﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَـٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[2].

ومنهم:

الأسود بن عبد يغوث، وهو ابن خال النبي ﷺ كان إذا رأى المسلمين، قال لأصحابه في سخرية واستهزاء معرضاً برثاثتهم: قد جاءكم ملوك الأرض الذين يرثون كسرى وقيصر. زراية بما كانوا عليه من التقشف، وخشونة العيش بسبب الفقر. وكان الأسود يتهكم بالرسول، ويقول: من كلمت اليوم يا محمد من السماء؟!

ومنهم:

الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى بن قصي. كان هو وأصحابه يتعرّضون للنبي ﷺ وإذا رأوه يتغامزون. وإذا رأوا رسول الله وأصحابه،

---

(١) يبهته: بهته: قال عليه ما لم يفعله. (اللسان).

(٢) سورة (الجاثية) الآية: ٢٣.

يقولون: قد جاءكم ملوك الأرض، ومن يغلب على كنوز كسرى وقيصر. ويصفرون لهم.

ومنهم:

الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم. وهو والد خالد بن الوليد «سيف الله المسلول» عم أبي جهل. كان من أعاظم قريش وفي سعة من العيش، ومكنة من السيادة. يطعم الحاج أيام منى حسياً[1]، وينهى أن توقد نار لأجل طعام غير ناره. وينفق على الحاج نفقة واسعة. وكانت الأعراب تثني عليه. وله بساتين ممتدة من مكة إلى الطائف، ومنها بستان لا ينقطع نفعه شتاء ولا صيفاً. لكنه لما أظهر عداوته للنبي ﷺ أصابته الجوائح والآفات في أمواله حتى ذهبت كلها، ولم يبق له في أيام الحج ذكر. وهو من فصحاء قريش المعدودين، والمقدم فيهم. وكان يسمّى (ريحانة قريش) ويقال له: (الوحيد في الشرف) نظراً لما له من السؤدد، والجاه، والرئاسة. وقد جمع قريشاً على عداوة رسول الله. قال: إن الناس يأتونكم أيام الحج فيسألونكم عن محمد؟ فتختلف أقوالكم فيه: هذا يقول: ساحر. وهذا يقول: كاهن. وهذا يقول: شاعر. وهذا يقول: مجنون. وليس يشبه واحداً مما تقولون. والأصلح أن تقولوا عنه: ساحر؛ لأنه يفرق بين المرء وزوجه وأخيه. فوافقوه على ذلك. وكان ذلك من أشدّ مطاعنهم فيه.

كان ﷺ يحزن كثيراً لما يصيبه من استهزاء المستهزئين، وكان أشدّهم عليه: العاص بن وائل، والحارث بن عطيلة، والأسود بن عبد يغوث، وعمه الأسود بن عبد المطلب، وأنكاهم: الوليد بن المغيرة. وفي هؤلاء الخمسة نزل قوله تعالى[2]:

﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿٩٥﴾ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾.

---

(١) حسياً: من (الحساء) طبيخ يتخذ من دقيق وماء ودهن. (اللسان).
(٢) سورة (الحجر) الآيات: ٩٥ و٩٦.

الهجـرة الأولـى إلى الحبشـــة

لما اشتدّ بلاء المشركين على الصحابة، وتوالت عليهم الفتن والأرزاء، مع عدم قدرتهم على الكفاح، ومنع الأذى عن نفوسهم. أمرهم رسول الله ﷺ أن يتفرّقوا في الأرض، حتى يخفّ عنهم بعض ما نزل بهم، ووعدهم بأن الله سيجمعهم بعد ذلك. قالوا: إلى أين نذهب يا رسول الله؟ قال الرواة: قال: إلى هاهنا «وأشار بيده إلى أرض الحبشة»، وفي رواية ثانية: قال لهم: اخرجوا إلى جهة أرض الحبشة، فإن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد، وهي أرض صدق، حتى يجعل الله لكم مخرجاً مما أنتم فيه.

فهاجر إليها ناس ذوو عدد، مخافة الفتنة. وكانوا ثمانية عشر نسمة رجالاً ونساء. فرّوا إلى الله تعالى بدينهم. منهم من هاجر بأهله، ومنهم من هاجر بمفرده. أما أوّل من هاجر بأهله، فأولهم عثمان بن عفان رضي الله عنه، ومعه زوجته رقية بنت النبيّ ﷺ ومعها حاضنته أم أيمن، وهي بركة الحبشية. وأبو سلمة ومعه زوجته أم سلمة، وأبو حذيفة وامرأته سهلة بنت سهيل. وأبو سريرة، أخو أبي سلمة لأمّه برّة بنت عبد المطلب. عمّة رسول الله ﷺ ومعه امرأته أم كلثوم. وعامر بن ربيعة، ومعه زوجه ليلى بنت أبي حثيمة[1]. وهي تصوّر لنا الحالة النفسية للعرب في مكة حين سفرهم. قالت:

كان عمر بن الخطاب من أشدّ الناس علينا في إسلامنا، فلما ركبت بعيراً، أريد التوجه إلى أرض الحبشة، إذا أنا به، فقال لي: إلى أين يا أم عبد الله فقلت: قد آذيتمونا في ديننا، نذهب في أرض الله حيث لا نؤذى. فقال: صحبكم الله. ثمّ ذهب فجاء زوجي عامر فأخبرته بما رأيت من رقة عمر. فقال: ترجين أن يسلم عمر؟ والله لا يسلم حتّى يسلم حمار الخطاب!

---

(١) وردت في (سيرة ابن هشام) باسم: «ليلى بنت أبي حثمة بن حذافة» لا بصيغة التصغير. المحقق. وفي طبعة (غ) باسم: «ليلى بنت أبي خيثمة بن غانم». وكذلك في طبعة (١٩٣٨).

وسبب استبعاد إسلامه: ما كان يرى من قسوته وشدته على أهل الإسلام.
أما من هاجر بمفرده، فقد اختلف فيمن هو أولهم؟ فقيل: حاطب بن أبي عمرو، وقيل: سليط بن عمرو. ثم تلاهما الباقون: عبد الرحمن بن عوف، وعثمان بن مظعون، وسهيل بن وهب، والزبير بن العوّام، وعبد الله بن مسعود.

وكانت إمارتهم كما جزم به ابن المحدث في كتاب السيرة، لعثمان بن مظعون خلافاً للإمام الزهري. فخرجوا من مكة متسللين، منهم الراكب، ومنهم الماشي، في رجب السنة الخامسة من البعثة النبوية، والسنة الثالثة من إظهار الدعوة، حتى انتهوا إلى البحر، فوفق الله تعالى لهم سفينتين للتجار، حملوهم فيها. كما في (المواهب اللدنية) بنصف دينار. فخرجت قريش في أثرهم إلى البحر، فلما لم يجدوهم عادوا على أثرهم. وواصل المهاجرون سيرهم إلى الحبشة، فنزلوا بخير دار عند خير جار، ومكثوا هناك بقية رجب وشعبان وشهر رمضان، وبقي النّبي في قلة من الصحابة بمكة، فكف عنه قومه، وتركوا التعرّض له، فجلس خالياً.

ونقل رواة السير: أنه تمنّى في هذه الأثناء أن ينزل عليه، ما يقارب بينه وبين قومه، حرصاً على إسلامهم وهدايتهم، فكان يقاربهم ويقاربونه ويدنو منهم، ويدنون منه. حتى كان شهر رمضان، فجلس فيه يوماً مجلساً في ناد حول الكعبة، كان فيه جملة من المشركين، منهم: الوليد بن المغيرة، وسعيد بن أبي العاص، وأمية بنت خلف، وعتبة بن ربيعة، وأبو لهب، فقرأ عليه سورة (النجم) حتى إذا بلغ موضع السجدة[١] سجد ﷺ فسجد معه المسلمون والمشركون جميعاً. فالمسلمون سجدوا اقتداء بنبيّهم، والمشركون تأثرا ببلاغة السورة، لأنها سحرتهم وفتنتهم، ومما زاد في تأثرهم، ذكر آلهتهم: اللات والعزّى، ومناة، بلا طعن ولا تشهير.

أمّا إسناد ذلك إلى ما اختلقه بعض الزنادقة، وأجراه على لسان الرسول،

---

(١) السجدة في آخر السورة في غير رواية (ورش عن الإمام نافع).

من قولهم: (تلك الغرانيق العلى، وإن شفاعتهن لترتجى) فهو محض افتراء على الرسول، أجمع على تكذيبه أعلام الملّة المحمدية، ومن جملتهم القاضي البيضاوي. وأنكرها القاضي عياض، فقال: هذا الحديث لم يخرجه أحد من أهل الصحّة، ولا رواه ثقة بسند سليم متصل، وإنما أولع به المفسرون، والمؤرخون، المولعون بكل غريب. وقال البيهقي: رواة هذه القصة، كلهم مطعون فيهم. وقال الإمام النووي: وأما ما يرويه الأخباريون والمفسرون، أن سبب سجود المشركين مع رسول الله ﷺ ما حدث على لسانه من الثناء على آلهتهم، فباطل، لا يصح منه شيء، لا من جهة النقل ولا من جهة العقل؛ لأن مدح إله غير الله كفر. ولا يصح نسبة ذلك إلى الرسول، وإلا يلزم ذلك عدم الوثوق بالوحي. وقال الفخر الرازي: هذه القصة باطلة، موضوعة، لا يجوز القول بها وما ينطق «الرسول» عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحي.

وقد فشا أمر تلك السجدة في الناس، وطار في الآفاق، حتى بلغ أرض الحبشة. ونقل إلى المهاجرين: أن عظماء أهل مكة أسلموا، واصطلحوا مع الرسول، ولم يبق نزاع معهم، فظنوا صحة ذلك، وقالوا: إذا أسلم هؤلاء؛ عشائرنا أحبّ إلينا، فعادوا راجعين إلى مكّة في شوال السنة.

ولمّا كانوا دون أمّ القرى بساعة، لقوا ركباً، فسألوهم عن قريش، فقالوا: ذكر محمد آلهتهم بخير، فتابعه الملأ، ثم عاد لشتم آلهتهم، فعادوا له بالشّر، فتركناهم على ذلك. فأقرّ القوم في الرجوع إلى الحبشة، ثم قالوا: قد بلغنا مكة، فندخل فننظر ما فيه قريش، ثم نرجع. فدخلوا مكة، بعضهم مستخفياً، وأكثرهم بجوار. فممّن دخل بجوار: عثمان بن مظعون، وكان في جوار الوليد بن المغيرة. ولما رأى ما لقيه المسلمون من الشدّة قال: والله! إن غدوي ورواحي آمناً، وأصحابي وأهل ديني، يلقون من الأذى من الله ما لا يصيبني! لنقص كبير. فمشى إلى الوليد، فقال: يا أبا عبد شمس! وفت ذمّتك، وقد رددت إليك جوارك. قال له: يا بن أخي لعله آذاك أحد من قومي، وأنت في ذمّتي؟ فأكفيك ذلك. قال: لا. والله! ما اعترضني من أحد، ولا آذاني، ولكن أرضى بجوار الله عز وجلّ، وأريد ألا أستجير بغيره. قال: انطلق إلى المسجد، فاردد إلي جواري علانية. فانطلقا حتّى أتيا

المسجد، فقال الوليد: هذا عثمان قد جاء يردّ عليّ جواري. فقال عثمان: صدق، وجدته وفياً، كريم الجوار ولكن لا أستجير بغير الله، عزّ وجلّ. قد رددت عليه جواره. فقال الوليد: أشهدكم، أنّي بريء من جواره إلا أن يشاء. ثم انصرف عثمان، فوجد لبيد بن ربيعة بن مالك في مجلس من قريش، ينشدهم قبل إسلامه:

ألا كل شيء، ما خلا الله باطل

فقال له: صدقت. ثم قال لبيد:

وكل نعيم، لا محالة، زائل.

فقال عثمان، كذبت، فإن نعيم الجنة لا يزول. فصاح لبيد: يا معشر قريش! ما كان يؤذى جليسكم، حتى حدث هذا فيكم؟! فقال رجل من القوم: هذا سفيه، ومن سفاهته فارق ديننا، فلا تجدنّ في نفسك من قوله؟ فردّ عليه عثمان. فقام ذلك الرجل يلطم عينه، والوليد بن المغيرة قريب، يرى ما بلغ من عثمان فقال: يا بن أخي! أما عينك، فكانت عما أصابها لغنية، ولقد كنت في ذمة منيعة، فخرجت منها، وكنت عن الذي لقيت غنيّاً. فقال عثمان: بل كنت إلى الذي لقيته فقيراً. والله! إن عيني الصحيحة، التي لم تلطم لفقيرة إلى مثل ما أصاب أختها في الله عز وجلّ، ولي فيمن هو أحبّ إلي منكم أسوة، وإنّي في جوار من هو أعزّ منك.

وممّن دخل أيضاً بجوار: أبو سلمة بن عبد الأسد، ابن عمة النبي. فإنه دخل في جوار خاله أبي طالب. ولما أجاره، مشى إليه رجال من بني مخزوم. فقالوا: يا أبا طالب! منعت من ابن أخيك، فمالك ولصاحبنا، تمنعه منّا؟ فقال: هو ابن أختي، استجار بي. وأنا، إن لم أمنع ابن أختي، لم أمنع ابن أخي «يقصد الرسول ﷺ» فقام أبو لهب على أولئك المعترضين، وقال: يا معشر قريش! لا تزالون تعارضون هذا الشيخ في جواره من قومه. والله! لتنتهنّ، أو لأقومنّ معه في كلّ مقام، يقوم فيه، حتى يبلغ ما أراد. قالوا: بل ننصرف عما تكره يا أبا عتبة! حذراً من إغضابه؛ لأنه كان يناصرهم على رسول الله ﷺ.

ويقول الرواة: إن أبا طالب، كان يتوقع حين سمعه، يقول ذلك، أن يقوم معه في شأنه مع رسول الله ﷺ.

إسـلام حمـزة عـمّ الرسول

ومما وقع لرسول الله ﷺ من الأذية، ما كان سبباً لإسلام عمه حمزة ـ رضي الله عنه. وذلك أن أبا جهل مرّ برسول الله ﷺ عند الصفا. وقيل: عند الحجون، فآذاه وشتمه، ونال منه ما يكرهه. وقيل: أنه صبّ التّراب على رأسه. وقيل: ألقى عليه فرثاً، ورطن برجله على عاتقه، فلم يكلمه رسول الله ﷺ. وكانت مولاة لعبد الله بن جدعان في مسكن لها تسمع ذلك، وتبصره. ثم انصرف أبو جهل إلى نادي قريش فجلس معهم. فلم يلبث حمزة، أن أقبل متوشحاً بسيفه، راجعاً من قنصه. وكان من عادته إذا رجع من قنصه، لا يدخل إلى أهله، إلا بعد أن يطوف بالبيت. فمر على تلك المولاة فأخبرته الخبر. فقالت: يا أبا عمارة! لو رأيت ما لقي ابن أخيك محمد آنفاً من أبي الحكم بن هشام «تعني به أبا جهل» فإنه وجده ها هنا جالساً، فآذاه وسبه. وبلغ فيه ما يكره، ثم انصرف عنه محمد، ولم يكلمه. والمعروف أن المخبرة له بهذا الخبر، هي مولاة أخت صفيّة، فقال لها حمزة: أنت رأيت هذا الذي تقولين؟! قالت: نعم. فاحتمل حمزة الغضب، ودخل المسجد، فرأى أبا جهل جالساً في القوم، فأقبل نحوه، حتى إذا قام على رأسه، رفع القوس، وضربه به، فشجّه شجة منكرة... ثم قال: أتشتمه وأنا على دينه؟! فصار أبو جهل يتضرّع إليه، ويقول: سفه عقولنا، سبّ آلهتنا، وخالف آباءنا. قال حمزة: ومن أسفه منكم؟ تعبدون الحجارة من دون الله. أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله، فقامت رجال من بني مخزوم، عشيرة أبي جهل، إلى حمزة لينصروا أبا جهل. فقالوا: ما نراك إلا صبأت! فقال حمزة: وما يمنعني؟ وقد استبان لي منه أنه رسول الله، وأن الذي يقوله حق. والله لا أنزع، فامنعوني إن كنتم صادقين. فقال لهم أبو جهل: دعوا أبا عمارة، «وكان يكنى به، وبولده يعلى» فإني والله لقد أسمعت ابن أخيه شيئاً قبيحاً.

وبمناسبة هذه الواقعة نزل فيه وفي أبي جهل قوله تعالى[1]:

﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾ «يعني حمزة».
﴿كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ «يعني أبا جهل».

ولمّا رجع حمزة إلى بيته، حدثته نفسه بالارتداد، فقالت: أنت سيّد قريش، اتبعت هذا الصابىء، وتركت دين آبائك، الموت خير لك مما صنعت. ثم أدركته الهداية، فتراجع وقال: اللهم إن كان رشداً، فاجعل تصديقه في قلبي، وإلا فاجعل لي مما وقعت فيه مخرجاً. فبات بليلته، ثمّ لم يلبث بمثلها من وسوسة النفس، حتى أصبح، فغدا إلى رسول الله ﷺ فقال: يا بن أخي! إني قد وقعت في أمر، لا أعرف المخرج منه. وإقامة مثلي على ما لا أدري، أرشد هو أم غيّ شديد! فأقبل عليه رسول الله، فذكره، ووعظه، وخوفه وبشره، فألقى بذلك في قلبه الإيمان، فآمن. وقال: أشهد أنك لصادق، فأظهر يا بن أخي دينك. وسرّ رسول الله ﷺ بإسلام حمزة سروراً كبيراً؛ لأنه كان أعزّ فتى في قريش، وأشدّهم شكيمة، وأعظمهم شهامة. ولما عرفت قريش أن رسول الله قد عزّ بحمزة، كفوا عن بعض ما كانوا ينالون منه، وأقبلوا على بعض أصحابه من المستضعفين بالأذية. لا سيما، الذين لا ناصر لهم منهم، فإن كلّ قبيلة، غدت على من أسلم منها، تعذبه، وتفتنه على دينه بالحبس والضرب والجوع والعطش، وغير ذلك. حتى إن الواحد منهم ما يقدر أن يستوي جالساً، من شدّة الضرب الذي كان يصيبه. وكان أبو جهل هو الذي يحرضهم على ذلك.

ومّما ذكروه من تهديده، أنه كان إذا بلغه أن رجلاً أسلم، فإن كان له شرف ومنعة، جاء إليه ووبخه وقال له: ليغلبن رأيك، وليضعفن شرفك. وإن كان تاجراً، قال: والله لتكسدنّ تجارتك، ويهلك مالك. وإن كان ضعيفاً، أغرى به. حتى أثر في البعض منهم، وفتنهم في دينهم. فعادوا إلى الشرك. منهم الحرث بن ربيعة بن الأسود، وأبو قيس بن الوليد بن المغيرة،

---

(١) سورة (الأنعام) الآية ١٢٢.

وعلي بن أمية بن خلف، والعاصي بن منبه بن الحجاج،وهؤلاء قتلوا كلهم يوم بدر.

سبب إيمان عمر بن الخطاب بالرسالة

لمّا ثارت قريش ضدّ النبي ﷺ وأنكروا عليه شتم آلهتهم، وتسفيه أحلامهم، وأمضهم قوله: إن من مضى من أسلافهم في النار. نذر أبو جهل لمن يقتله، مئة ناقة حمراء ومثلها سوداء، وألف أوقية من فضة، وكذا كذا من الذهب، وكذا كذا نافجة من المسلك، وكذا كذا ثوباً، وغير ذلك. ولما سمع عمر بن الخطاب ذلك، قال: أنا لها. فقالوا: أنت لها يا عمر! وتعاهد معهم على ذلك. ثم تقلد سيفه، وتنكب كنانته، وجعل يتعرّض لرسول الله ﷺ حتى يقتله.

ومّما حكاه في ذلك عن نفسه، قال: خرجت أتعرّض لرسول الله ﷺ فوجدته قد سبقني إلى المسجد، فقمت خلفه، فاستفتح بسورة (الحاقة) فجعلت أتعجّب من تأليف القرآن، فقلت: هذا والله شاعر، كما قالت قريش. فقرأ:

﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴾.

قال: قلت كاهن، علم ما في نفسي. فقرأ:

﴿ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾.

إلى آخر السورة ـ فوقع ذلك من قلبي كل موقع.

وروى صاحب السيرة الهشامية عن عمر: قال: جئت المسجد، أريد أن أطوف بالكعبة فإذا رسول الله، قائم يصلّي. وكان إذا صلّى استقبل الشام، وجعل الكعبة بينه وبين الشام. فكان مصلاه بين الركن الأسود والركن اليماني، فقلت حين رأيته: لو أني استمعت لمحمّد الليلة، حتى أسمع ما يقول. فقلت «في نفسي» لئن دنوت منه أستمع لأروعنّه عنه، فجئت من قبل الحجر، فدخلت تحت ثياب الكعبة، فجعلت أمشي رويداً رويداً، ورسول الله قائم يصلّي فقرأ (الرحمن)، حتى قمت في مستقبله، ما بيني وبينه

إلاّ ثياب الكعبة. فلما سمعت القرآن، رقّ قلبي، فلم أزل قائماً في مكاني ذلك، حتّى قضى رسول الله صلاته، ثمّ انصرف. فتبعته، فلما سمع حسي عرفني، وظن إنما تبعته لأزويه[١] فنهمني[٢] أي (زجرني). وفي رواية قال: يا عمر! ما تدعني لا ليلاً ولا نهاراً. فخشيت أن يدعو عليّ، فانصرفت.

وفي كتاب السيرة الحلبية، رواية عن عمر قال: كنت من أشد الناس على رسول الله ﷺ فبينا أنا في يوم حار شديد، في بعض طرق مكة، إذ لقيني نعيم بن عبد الله، الذي لقبه الرسول بالنحام[٣] لحسن صوته وكان يكتم إسلامه خوفاً من قومه» فقال: أين تذهب يا بن الخطاب؟ فقلت: أريد هذا الصابىء الذي فرق أمر قريش، وسفه أحلامها، وسبّ آلهتها، فأقتله. فقال له نعيم: والله لقد غرتك نفسك، أترى بني عبد مناف تاركيك تمشي على وجه الأرض؟ وقد قتلت محمّداً، أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم؟ قلت: وأي أهل بيتي؟ قال: ختنك «زوج أختك» وابن عمك سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، وأختك، قد أسلما. فتركه عمر، وسار إلى منزل أخته. وكانت عاتكة أخت سعيد تحت عمر.

وكان رسول الله ﷺ يجمع ـ صدر الإسلام ـ الرجل والرجلين إذا أسلما، عند الرجل به قوة، يكونان معه، يصيبان من طعامه وشرابه. وقد ضمّ إلى زوج أخت عمر رجلين، أحدهما خباب بن الإرت، وكان خباب يعلّمهما القرآن. ولما دق عمر عليهم الباب، تغيّب خباب، وكانت بيده صحيفة، فيها سورة طه، فقرأها عليهم، وترك الصحيفة، ولما دخل عمر، قال لأخته: ما هذه الهيتمة[٤] التي سمعت؟ قالت له: ما سمعت شيئاً، غير

---

(١) لأزويه: لأحاصره وأطبق عليه. من (زويت الشيء، جمعته وقبضته). (اللسان).

(٢) نهمني: زجرني. كما فسّر الشيخ وأنهم ينهم. نهيماً: صوت كأنّه زفير. (اللسان).

(٣) النحام: وجاء في (اللسان): «وفي الحديث: دخلت الجنة، فسمعت نحمة من (نعيم). والنحيم: صوت يخرج من الجوف». مادة (نحم).

(٤) لعل الأصح (الهتلمة): الكلام الخفيّ. وهتلم الرجلان: تكلما بكلام يسرّانه عن غيرهما. ولم ترد بصيغة (الهيتمة) في اللسان. أو هي (الهينمة) كما وردت في طبعة =

حديث تحدثنا به بيننا. قال: بلى، والله لقد أخبرت أنكما بايعتما محمداً على دينه! وبطش بزوج أخته فألقاه إلى الأرض، وجلس على صدره، وأخذ بلحيته، فقامت إليه أخته لتكفه عن زوجها، فضربها فشجّها، فلمّا رأت الدم، قالت: يا بن الخطاب! أتضربني، على أن أوحد الله تعالى؟ لقد أسلمت رغم أنفك، فاصنع ما أنت صانع. فلما رأى ما بأخته، وما صنع بزوجها، ندم. وقال لأخته: أعطني هذه الصحيفة أنظر ما هذا الذي جاء به محمد. وكان عمر قارئاً كاتباً. قالت: أخشاك عليها. فحلف ليردنها إليها، إذا قرأها. فقالت له: يا أخي! إن هذا كتاب لا يمسّه إلا المطهّرون. فذهب ليغتسل، فخرج إليها خباب، وقال: أتدفعين كتاب الله تعالى إلى عمر وهو كافر؟ قالت: نعم، إنّي أرجو أن يهدي الله أخي.

ورجع خباب إلى محلّه، ودخل عمر، فأعطته الصحيفة، وبلغ إلى قوله تعالى:

﴿ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴾[1].

قال: ما أحسن هذا الكلام، وأكرمه! ولما انتهى إلى قوله تعالى:

﴿ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ ﴾[2].

قال: ينبغي لمن يقول هذا، ألا يعبد معه غيره، فلما سمع ذلك خباب، خرج إليه. فقال: يا عمر! إني لأرجو أن يكون الله تعالى، قد خصك بدعوة نبيّه، فإني سمعته أمس، وهو يقول: اللهم أيّد الإسلام بأحد العمرين. وهما: أنت وأبو جهل. فالله، الله، يا عمر!

= (١٩٣٨) وفي طبعة (غ) وتعني: الصوت الخفي. وكذلك وردت في (ابن هشام).

(١) سورة (طه) الآية: ١٦.

(٢) سورة (طه) الآية: ١٤. لعلّ ذلك كان قبل الترتيب النهائي للآيات، لأن السياق يقتضي من مفهوم: «ولما انتهى إلى قوله تعالى» أن تسبق الثانية الأولى. ولم ترد بهذا الترتيب في (سيرة ابن هشام) وإنما جاء فيها: «فأعطته الصحيفة وفيها (طه) فقرأها. فلما قرأ منها صدراً». والله أعلم. المحقق.

فقال له عمر: دلّني يا خبّاب على محمّد حتى أتيه فأسلم. فدلّ عليه خباب. وقال: هو في بيت عند الأرقم، أسفل الصفا، فاذهب إليه.

إسلام عمر رضي الله عنه

خرج[١] عمر من بيت أخته إلى دار الأرقم، محلّ الاجتماع السرّي للنبي وأصحابه، فلما قرع الباب. قال بلال: من هذا؟ قلت: ابن الخطاب. فما اجترأ أحد أن يفتح لي الباب، لما عرفوه من شدّتي على رسول الله ﷺ ولما أخبر رسول الله بي، قال: افتحوا له، فإن يرد الله به خيراً يهده. ففتحوا لي. وكان الذي خرج للقائه بالإذن من رسول الله ﷺ: عمه حمزة بن عبد المطلب، «وكان أسلم قبل عمر بثلاثة أشهر» وكان مع حمزة اثنان، فمشيت، وهما آخذان بعضديّ، حتى دنوت من رسول الله ﷺ فقال: أرسلوه، فأرسلوني، فجلست بين يديه، فأخذ بمجامع قميصي، فجذبني إليه، وقال: أسلم يا بن الخطاب! اللهم اهده. فاستجاب الله دعاءه. ونطق بالشهادتين، فكبّر المسلمون الذين بدار الأرقم، تكبيرة سمعت بطرف مكة، فضرب رسول الله بيده الشريفة صدر عمر، ثلاث مرّات. وهو يقول: اللهم أخرج ما في صدر عمر من غلّ، وأبدله إيماناً.

أسدم عمر، يوم أسلم، وهو ابن ستّ وعشرين سنة.

قال عمر: وأحببت أن يظهر إسلامي، وأن يصيبني ما يصيب من أسلم من الضر والإهانة، فذهبت إلى خالي، وهو أبو جهل، فدققت عليه الباب، فخرج إليّ مرحّباً، فقال: ما جاء بك؟ قلت: جئت أبشّرك ببشارة. فقال: وما هي يا بن أختي! فقلت: إنّي قد آمنت بالله وبرسوله محمد ﷺ وصدّقت ما جاء به، فضرب الباب في وجهي، وقال: قبحك الله، وقبّح ما جئت به.

قال عمر: وجئت رجلاً من عظماء قريش، وأعلمته أني صبأت. فقال: أتحبّ أن يعلم إسلامك؟ قلت: نعم. قال: إذا جلس قريش في الحجر

---

(١) أشار الشيخ في زاوية الصفحة وقال: يذكر بعد الهجرة الثانية للحبشة. ولكنه في طبعة (الإرادة) سنة (١٩٣٨) جعله قبل الهجرة.

واجتمعوا، فأت جميل بن معمر، فقل له، فيما بينك وبينه: قد صبأت.

فلما اجتمع الناس في الحجر، جئت الرجل، فدنوت منه، وأخبرته، فرفع صوته بأعلاه، فقال: ألا إن عمر بن الخطاب قد صبأ. فقلت: كذبت. ولكن أسلمت، فقام إليّ النّاس فما زالوا يضربونني، وأضربهم، حتّى قام خالي على الحجر، فأشار بكمه، وقال: ألا إني أجرت ابن أختي. فتكشف الناس عنّي. فصرت بعد ذلك أرى الواحد من المسلمين يضرب، وأنا لا أضرب، فقلت: ما هذا شيء، حتّى يصيبني ما يصيب المسلمين، فأمهلت حتى جلس الناس في الحجر، وصلت إلى خالي، وقلت له: جوارك عليك ردّ. فقال: لا تفعل يا بن أختي! فقلت: بل هو ذاك. فما زلت أضرب وأضرب، حتى أعزّ الله الإسلام.

ولما تفرقوا، اجتمعوا عند باب دار عمر، وهم يصيحون: صبأ عمر. وبينما هم كذلك، إذ جاء شيخ عليه حلّة حيرة[1] وقميص موشى، وهو العاص بن وائل، فوقف على عمر. فقال: ما بك؟ فقال عمر: زعم قومك سيقتلونني إن أسلمت. قال له: أمنت لا سبيل إليك. فخرج العاص، فلقي الناس، قد سال بهم الوادي. فقال: ويلكم! أين تريدون؟ قالوا: نريد عمر بن الخطاب الذي صبأ. قال: فمه رجل اختار لنفسه أمراً، فأنا له جار فانفرجوا عنه، كأنهم ثوب كشط. وذكروا أن عتبة بن ربيعة وثب عليه، فألقاه عمر إلى الأرض، وبرك عليه، وجعل يضربه، وأدخل أصبعين في عينيه، فجعل عتبة يصيح، وصار لا يدنو منه أحد، بشراسيفه[2]، وأطراف أضلاعه، حتّى تركه.

وقيل لعمر رضي الله عنه: ما سبب تسمية النبي لك بـ (الفاروق)؟ قال: لما أسلمت، والنبي وأصحابه مختفون (في دار الأرقم) قلت: يا رسول الله! ألسنا على الحق إن متنا وإن حيينا؟ قال: بلى. والذي نفسي بيده، إنكم على

---

(١) حبرة: ضرب من البرود اليمانية. اللسان.

(٢) شرا سيفه: الشراسيف أطراف أضلاع الصدر التي تشرف على البطن. اللسان، وقد شرحها الشيخ في طبعة (١٩٣٨) بنفس المعنى.

الحق، إن متم وإن حييتم. فقلت: ففيم الاختفاء؟ والذي بعثك بالحق، ما بقي مجلس كنت أجلس فيه بالكفر، إلا أظهرت فيه الإسلام، غير هائب ولا خائف. والذي بعثك بالحق! لنخرجنّ، فخرجنا في صفين، حمزة في أحدهما، وأنا في الآخر، كديد ككديد الطحين. «الكديد: التراب الناعم، إذا وطيء ثار غباره» حتى دخلنا المسجد، فنظرت قريش إلي وإلى حمزة، فأصابتهم كآبة، لم يصبهم مثلها. فطاف ﷺ بالبيت، وصلّى معنا. ثمّ رجع ومن معه إلى دار الأرقم. فسمّاني رسول الله يومئذ «الفاروق» فرّق الله بي، بين الحق والباطل، وكانوا لا يقدرون على الصلاة عند الكعبة، ولا يجهرون بالقرآن. وعن ابن مسعود، قال: والله لقد رأيتنا، وما نستطيع أن نصلّي على الكعبة ظاهرين، آمنين، حتى أسلم عمر، فقاتلهم، حتى تركونا، فصلينا، وجهرنا بالقراءة. وكنا قبل ذلك لا نقرأ إلا سرّاً. وعن حبيب، قال: لما أسلم عمر، صلينا حول البيت صفاً. وفي كلام ابن الأثير: مكث رسول الله ﷺ مستخفياً في دار الأرقم، ومن معه من المسلمين إلى أن أكملوا أربعين بعمر بن الخطاب، وعند ذلك، خرجوا وأعلنت الدعوة.

الهجرة الثانية إلى الحبشة

أمر[1] النبي ﷺ من بقي من المسلمين بمكة، أن يهاجروا إلى الحبشة، فخرج منها، نحو الخمسين، فارّين بدينهم من ظلم واضطهاد قريش. منهم:

جعفر بن أبي طالب، ومعه زوجه أسماء بنت عميس، والسكران وزوجه سومرة بنت زمعة. وعبد الله بن جحش، وامرأته أم حبيبة بنت أبي سفيان. والمقداد بن الأسود، وعبد الله بن مسعود.

ولما وقعت هذه الهجرة، نمي خبرها إلى من في اليمن من المسلمين، بأن النبي مهاجر مع الصحابة إلى أرض الحبشة، فلم يتريّثوا اللحاق بهم، وكانوا في نحو الخمسين رجلاً. منهم: أبو موسى الأشعري رضي الله عنه. فركبوا في

---

(١) أشار الشيخ بجانب العنوان بما يلي: (يجعل في الترتيب قبل المؤامرة) ويعني العنوان اللاحق. المحقق.

سفينة واحدة، أوصلتهم إلى الحبشة، فالتقوا هناك بجعفر وأصحابه، فانضموا إليهم، فكانت عدّتهم جميعاً (١٠١). (٨٣) رجلاً، و(١٨) امرأة.

وقد قصّ علينا جعفر، رضي الله عنه، طرفاً من أحوالهم في الحبشة قال:

لمّا نزلنا أرض الحبشة. أمنا على ديننا، وعبدنا الله تعالى، لا نؤذى، ولا نسمع شيئا نكرهه. فلما بلغ ذلك قريشاً، ائتمروا بنا، وقرّروا أن يرسلوا خلفنا في سفارة رجلين جلدين، وأن يهدوا النجاشي وبطارقته، هدايا كثيرة، مما يستظرف من متاع مكّة. وكان أعجب ما يخرج منها الأدم «الجلد» فاختاروا لهذه السفارة: عمرو بن العاص، وعمارة بن الوليد بن المغيرة، وأرسلوا إلى النجاشي أدماً كثيراً، وفرساً، وجبّة ديباج، ولم يتركوا من بطانته ولا بطارقته أحداً إلا أهدوا له هدية، ليعاونهما على ما جاءا بصدده، وهو: تسليمنا إليهما، قبل أن يكلمنا أحد. وهاك نصّ الخطاب الذي ألقياه على النجاشي:

أيها الملك! إنه قد صبأ إلى بلدك منا، غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينك، وجاؤوا بدين مبتدع، لا نعرفه نحن ولا أنتم، جاءهم به رجل كذّاب، خرج فينا، يزعم أنه رسول الله. ولم يتبعه منا إلا السفهاء. وقد بعثنا إليك فيهم، أشراف قومهم من آبائهم، وأعمامهم، وعشائرهم، ليردّوهم إليهم، فهم أعلم بما عابوا عليهم.

فقال البطارقة: صدقوا أيها الملك، قومهم أعلم بهم، فأسلمهم لهما ليردّاهم إلى بلادهم وقومهم. فأنكر عليهم النجاشي قولهم، وقال: لا أسلمهم، ولا يكاد[1] قوم يجاورونني ونزلوا بلادي، واختاروني على من سواي، حتى أدعوهم، فأسألهم عما يقول هذان من أمرهم، فإن كان كما يقولون، سلمتهم إليهما، وإلا منعتهم منهما، وأحسنت جوارهم، ما جاوروني.

ثمّ أرسل خلفنا ودعانا، فلما دخلنا عليه سلّمنا، فقال من حضر من

---

(١) يكاد: من الكيد، مبني على المجهول.

البطانة: ما لكم لا تسجدون للملك؟ قلنا: نحن لا نسجد إلا لله عزّ وجلّ.

فقال النجاشي: ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم، ولم تدخلوا في ديني ولا دين أحد من الملل؟

فقلنا: أيها الملك! كنا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القويّ منّا الضعيف، حتى بعث الله لنا رسولاً من أنفسنا، كما بعث الرسل من قبلنا، وذلك الرسول منّا. نعرف نسبه، وصدقه، وأمانته، وعفافه، فدعانا إلى الله تعالى لنوحّده ونعبده، ونخلع ما كان يعبد آباؤنا من دونه، من الحجارة، والأوثان. وأمرنا أن نعبد الله تعالى وحده. وأمرنا بالصلاة، ركعتين بالغداة وركعتين بالعشي، والزكاة، وصيام ثلاثة أيام من كلّ شهر[1] وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الأرحام، وحق الجوار، والكف عن المحارم، والفساد. ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنة. فصدّقناه، وآمنا به، واتبعناه، على ما جاء به. فعدا علينا قومنا، ليردّونا إلى عبادة الأصنام، واستحلال الخبائث. فلما قهرونا، وظلمونا، وضيقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلادك، واخترناك على من سواك، ورجوناك ألا نظلم عندك.

فقال النجاشي لجعفر: هل عندك مما جاء به شيء؟

قلت: نعم.

قال: فاقرأه.

قال البغوي في روايته عن جعفر: قرأ سورة (العنكبوت) و(الروم).

ولما استزاده، قرأ عليه: سورة (الكهف) وفي رواية ثانية قرأ (كهيعص) سورة (مريم).

فقال النجاشي: هذا والله الذي جاء به موسى.

---

(١) لم تكن الصلوات الخمس، وصيام رمضان، قد فرضا بعد. المحقق.

قال جعفر للنجاشي: سلهما، أعبيد نحن أم أحرار؟ فإن كنّا عبيداً، أبقنا من أربابنا، رددنا إليهم.

فقال عمرو: بل هم أحرار.

فقال جعفر: سلهما: هل أهرقنا دماً بغير حق؟ فيقتص منّا؟ هل أخذنا أموال الناس بغير حق؟ فعلينا قضاؤها.

فقال عمرو: لا.

فقال النجاشي للمسلمين: انزلوا حيث شئتم بأرضي، آمنين بها. وأمر لهم بما يصلحهم من الرزق وقال:

من نظر إلى هؤلاء الرهط نظرة تؤذيهم، فقد عصاني. ثم التفت إليهم، وقال: من سبكم، قالها ثلاثاً، غرم أربع دراهم. ثمّ ضعّفها، كما في بعض الروايات.

ثمّ أمر بردّ الهديّة التي حملت إليه وقال للسفيرين: انطلقا إلى سبيلكما، فوالله لا أرسلهم إليكما أبداً، ولو أعطيتموني ديراً ـ جبلاً ـ من ذهب.

وبقي هؤلاء المهاجرون في كنف الحبشة، حتى قدموا على النبي، عند فتح خيبر ولم يتخلف منهم إلا عبيد الله بن جحش، فإنه تنصّر، وبقي هناك.

مؤامرة قريش على قتل الرسول ﷺ ومناشدة بني هاشم وبني المطلب لأجله

لما رأت قريش الإسلام يفشو ويزيد، وأن النبي قوي أمره، بإسلام حمزة وعمر بن الخطاب، وعاد عمرو بن العاص بالفشل من عند النجاشي، فاجتمعوا في السنة السادسة من البعثة في خيف[1] بني كنانة بالأبطح، وهو المحصّب بأعلى مكة، وقرروا فيما بينهم: قتل رسول الله، لما أحدثه بينهم من الفساد. وأنهوا ذلك إلى قرابتهم، وأفهموهم، أن بقتل محمد يريحونهم

---

(١) الخيف: جاء في (معجم البلدان): خيف بني كنانة هو المحصّب. وهو بطحاء مكة. وقال الحازمي: خيف بني كنانة بمنى، نزله رسول الله ﷺ. المحقق.

ويريحون أنفسهم. يقتله رجل من قريش، ويعطونهم بدله دية مضاعفة.

ولما أبوا عليهم ذلك، أجمع رأيهم على: منابذة بني هاشم، وبني المطلب، وإخراجهم من مكّة إلى شعب أبي طالب، والتضييق عليهم بمنع حضور الأسواق، ولا يبيعونهم، ولا يبتاعون منهم، ولا يناكحونهم، ولا يقبلوا لهم صلحاً أبداً، ولا تأخذهم بهم رأفة، حتى يسلّموا محمد للقتل. وكتبوا بذلك عهداً في صحيفة علقوها في الكعبة، توكيداً لمبدأ الاتفاق على أنفسهم.

ولما رأى أبو طالب تألّب قريش عليهم، جمع قرابته بني هاشم والمطلب، مؤمنهم وكافرهم، وأمرهم أن يدخلوا برسول الله الشعب، ويمنعوه، وانخذل عنهم أبو لهب، وبنو عميهم: عبد شمس، ونوفل. وذلك في محرم السنة السابعة من البعثة، ولم تطل المدّة، حتى أجهدهم الحصار، وأعيتهم المقاطعة، فأكلوا الخبط[1] وأوراق الشجر.

وقد حكى لنا (السهيلي) نموذجاً مما كان يجري في المقاطعة. قال:

كانوا إذا أقدمت العير مكة بالأرزاق، فيأتي أحدهم السوق ليشتري شيئاً من الطعام يقتاته، فيقوم أبو لهب فيقول: يا معشر التّجار! غالوا على أصحاب محمد، حتى لا يدركوا شيئاً معكم، فقد علمتم مالي، ووفاء ذمّتي. فيزيدون عليهم في السلع أضعافاً، حتى إنه ليرجع أحدهم إلى أهله وأطفاله، وهم يتّضورون ويتضاغون[2] من الجوع، وليس في يده شيء يعللهم به، وبعد الانصراف يغدون على أبي لهب، فيعوّضهم ما خسروه[3].

ولما اشتدّت الضائقة على المسلمين، أمر رسول الله ﷺ من كان منهم بمكّة أن يخرجوا إلى الحبشة مهاجرين، فكانت الهجرة الثانية، كما سبق.

ومكث بنو هاشم في الشعب ثلاث سنين، وقيل: سنتين، في أشدّ ما يكون من البلاء وضيق العيش. وولد عبد الله بن عباس في الشعب.

---

(١) الخبط: ورق العضاه من الطلح.
(٢) يتضاغون: يتصايحون ويبكون.
(٣) يقصد التجّار.

ولا يقدر أحد أن يوصل إليهم طعاماً، ولا أدماً. حتى إن أبا جهل، لقي حكيم بن حزام، ومعه غلام، يحمل قمحاً، يريد عمّته خديجة زوج النّبي ﷺ وهي معه في الشعب، فتعلق به: أتذهب بالطعام إلى بني هاشم؟ والله لا تذهب أنت وطعامك، حتى أفضحك بمكّة. فقال له أبو البختري بن هشام بن مالك: ماله؟ فقال أبو جهل: يحمل الطعام لبني هاشم! فقال أبو البختري: طعام لعمّته كان عنده، أتمنعه أن يأتيها؟ خلّ سبيل الرجل. فأبى أبو جهل، حتى نال أحدهما من صاحبه، فأخذ أبو البختري لحي[1] بعير فضربه به فشجّه، ووطئه وطأ كدوداً[2]. ولما علم بذلك هاشم بن عمرو بن الحارث العامري، أرسل لهم ثلاثة أجمال موقورة[3] طعاماً، ففشا ذلك بين قريش، فمشوا إليه حين أصبح، وكلموه في ذلك. فقال: إني غير عائد لشيء خالفكم. ثم أدخل ثانياً جملاً، وقيل: جملين، فعلمت به قريش فقاطعته القول، وهمت به، فقال أبو سفيان بن حرب: دعوه، وصل رحمه، أما إنّي أحلف لو فعلنا مثل ما فعل، لكان أحسن منّا.

وكان أبو طالب في كلّ ليلة، يأمر رسول الله ﷺ أن يأتي فراشه، ويضطجع به، فإذا نام النّاس، أقامه، وأمر أحد بنيه أو غيرهم من إخوته أو بني عمه أن يضطجع مكانه، خوفاً عليه أن يغتاله أحد ممن يريد به السوء.

ولمّا طال أمر المقاطعة، وقريش لا تزداد إلا إصراراً عليها، اجتمع فئة في الحجون[4] ليلاً، واشتوروا عليها، فاتفقوا على نقضها، وتمزيق العهد، وصورة ذلك: أن هشام بن عمرو بن الحارث، مشى إلى زهير بن أمية بن

---

(١) لحي اللحيان: حائطا الفم. وهما العظمان اللذان فيهما الأسنان في الإنسان والدابة. (اللسان).

(٢) كدوداً: شديداً.

(٣) موقورة: مثقلة. من الوقر.

(٤) الحجون: موضع بمكة من ناحية البيت، وفيه مقبرة مكة، وبها دفنت أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها. قال الشاعر:

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا   أنيس، ولم يسمر بمكة سامر

عاتكة بنت عبد المطلب. فقال له: يا زهير! أرضيت أن تأكل الطعام، وتلبس الثياب، وأخوالك كما قد علمت؟! لا يباعون، ولا يبتاعون. فقال: ويلك يا هشام! فماذا أصنع؟ إنما أنا رجل واحد. والله لو كان معي رجل واحد، لقمت لأنقضها الساعة؟ قال: وجدت رجلاً. قال: من هو؟ قال: أنا. فقال زهير: أبغنا رجلاً ثالثاً، فذهب إلى المطعم بن عدي. فقال له: يا مطعم! أرضيت أن هلك بطنان من بني عبد مناف: بني هاشم وبني عبد المطلب، وأنت شاهد على ذلك؟ فقال له: ويحك! ماذا أصنع؟ إنما أنا رجل واحد. قال: قد وجدت ثانياً. قال: من هو؟ قلت: أنا قال: أبغنا ثالثاً. قلت: وجدته. قال: من هو؟ قلت: زهير بن أمية. قال: أبغنا رابعاً. فذهبت إلى أبي البختري بن هشام. فقلت له نحوما قلت لمطعم. فقال: وهل معين على هذا الأمر؟ قلت: نعم. قال: من هو؟ قلت: زهير بن أمية، والمطعم بن عدي، وأنا معك. قال: أبغنا خامساً. فذهبت إلى زمعة بن الأسود، فكلمته، فقال: وهل من أحد يعين على ذلك؟ فسميت له القوم. فعقدنا العزم على الاجتماع ليلاً في الحجون. فاجتمعنا، وأجمعنا أمرنا، وتعاهدنا على القيام في نقض الصحيفة. فقال زهير: أنا أبدؤكم فأكون أوّل من يتكلّم. فلما أصبحنا، غدونا إلى أندية قريش وغدا زهير، وعليه حلّة، فطاف بالبيت، ثم أقبل على الناس فقال:

يا أهل مكّة! أنأكل الطعام، ونلبس الثياب، وبنو هاشم والمطلب هلكى؟! لا يباعون ولا يبتاع منهم! والله! لا أقعد حتى نشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة. فقال أبو جهل: كذبت، والله لا تشق. قال زمعة بن الأسود: أنت والله! أكذب، ما رضينا كتابتها حين كتبت. قال أبو البختري: صدق زمعة. قال المطعم: صدقتما، وكذب من قال غير ذلك. فبرأ إلى الله تعالى منها، ومما كتب فيها. وقال هشام بن عمرو نحواً من ذلك.

فقال أبو جهل: هذا أمر قضي بليل. فقام المطعم بن عدي إلى الصحيفة، فشقها.

وقام هؤلاء الخمسة ومعهم جماعة، وتقلدوا الأسلحة، ثم خرجوا إلى بني

هاشم، وبني المطلب، فأمروهم بالرجوع إلى مساكنهم بمكة، ففعلوا، ورجعوا إليها. وبذلك ختمت هذه المحنة العظيمة.

وفاة أبي طالب
عم النبي ﷺ وكافله وحاميه

لمّا مرض أبو طالب بعد خروجه من الشعب، ببضع أيّام، وثقل مرضه، وبلغ قريش، قال بعضهم لبعض: إن حمزة وعمر، قد أسلما. وفشا أمر محمد في قبائل قريش كلّها. فانطلقوا بنا إلى أبي طالب، فليأخذ لنا على ابن أخيه، وليعطه منّا، فإنا والله ما نأمن أن يبتزونا أمرنا، أو نقتل محمداً، فتعيّرنا العرب. ويقولون: تركوه حتّى مات عمّه، فتناولوه. فمشى إليه أشرافهم: «عتبة وشيبة أبناء ربيعة» و«أبو جهل» و«أميّة بن خلف»، و«أبو سفيان» وأرسلوا رجلاً يدعى المطلب إلى أبي طالب، يستأذنه عليهم. فقال:

هؤلاء شيخة قومك، وسرواتهم، يستأذنون عليك؟ فأذن لهم أبو طالب.

ولما دخلوا عليه، قالوا: يا أبا طالب! أنت كبيرنا وسيّدنا، وقد حضرك ما ترى، وتخوفنا عليك. وقد علمت الذي بيننا وبين ابن أخيك، فادعه، وخذ له منّا، وخذ لنا منه، لينكف عنّا، وننكف عنه، وليدعنا ودينا، وندعه ودينه.

فبعث أبو طالب، يدعو رسول الله ﷺ ولما أقبل «وكان بين أبي طالب وبين القوم فرجة، تسع الجالس، فخشي أبو جهل أن يجلس فيها الرسول، فيكون أعلى منه. فوثب أبو جهل، وجلس فيها» لم يجد مجلساً قرب أبي طالب، فجلس عند الباب، فقال أبو طالب لرسول الله ﷺ:

يا بن أخي! هذه شيخة قومك وسرواتهم، وقد اجتمعوا لك، ليعطوك وليأخذوا منك، وقد سألوك النصف[1]، فأعط سادات قومك ما سألوك: أن

---

(١) النصف: الإنصاف.

تكف عن شتم آلهتهم، ويدعوك وإلهك.

فأجاب رسول الله ﷺ: أرأيتم ان أعطيتكم ما سألتم، هل تعطوني كلمة واحدة، تملكون بها العرب، وتدين لكم بها العجم؟!

فقال أبو جهل: نعم وآتيك عشر كلمات، فما هي؟

قال: تقولون: لا إله إلا الله، وتخلعون ما تعبدون من دونه.

فصفق قريش بأيديهم، «كناية عن الاستنكاف» ثم قالوا:

يا محمد! أتريد أن تجعل الآلهة إلهاً واحداً؟ إن أمرك لعجيب!

أيسع لحاجاتنا جميعاً إله واحد؟ سلنا غير هذه الكلمة.

قال أبو طالب: قل يا بن أخي! هل من كلمة غيرها؟ فإنّ قومك قد كرهوها.

قال: يا عمّ! ما أنا بالذي يقول غيرها. ثم استرسل فقال:

والله! لو جئتموني بالشمس، حتّى تضعوها في يدي، ما سألتكم غيرها.

ثم قال الحاضرون، بعضهم لبعض: والله! ما هذا الرجل بمعطيكم شيئاً مما تريدون، فانطلقوا، وامضوا على دين آبائكم، حتى يحكم الله بينكم وبينه.

ثم قالوا:

والله! لتكفنّ عن سبّ آلهتنا، أو لنسبّنّ إلهك الذي أمرك بهذا. ثمّ تفرّقوا.

وفي هذه الواقعة نزلت سورة ﴿صٓۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾.

قال أبو طالب: والله! يا بن أخي! ما رأيتك سألتهم شحطاً «أمراً بعيداً» فطمع رسول الله بهذا القول في إسلامه، فجعل يقول:

أي عم! فأنت فقلها أستحلّ لك بها الشفاعة يوم القيامة. فقال له:

والله يابن أخي! لولا مخافة السبّة عليك وعلى بني أبيك من بعدي، وأن تظنّ قريش أني قلتها جزعاً من الموت، لأقررت بها عينك، لما أرى من شدّة وجدك، ولكنّي أموت على ملّة الأشياخ: عبد المطلب، وهاشم، وعبد مناف.

فأنزل الله على رسوله: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾[1].

وروى مقاتل: أن أبا طالب لمّا أدركته الوفاة، قال:

يا معشر بني هاشم! أطيعوا محمداً، وصدّقوه، تفلحوا، وترشدوا.

وقد ذهب بعض العلماء إلى استحسان عدم دخول أبي طالب في الإسلام، كما في كتاب (الهدى) فقد قال:

إنّ من الحكمة بقاؤه على دين قومه، لما في ذلك من المصالح التي تبدو لمن تأملها. كذا أقرباؤه وبنو عمه. ولو أسلم أبو طالب، وبادر أقرباؤه وبنو عمّه، لقيل: قوم أرادوا الفخر برجل منهم، وتعصّبوا له، فلما بادر إليه الأباعد، وقاتلوا على حبّه من كان منهم، حتى إن الشخص منهم، يقتل أباه وأخاه، علم أن ذلك، إنما هو بصيرة صادقة، ويقين ثابت.

وفي صحيح ابن حبّان، عن علي رضي الله عنه، قال: لما مات أبو طالب أتيت رسول الله ﷺ فقلت: إنّ عمّك الشيخ قد مات. قال: اذهب، فواره، وفي رواية أخرى عن علي أيضاً، قال: لما أخبرت النبي ﷺ بموت أبي طالب، بكى، فقال: اذهب، فاغسله، وكفنه، وواره. غفر الله له ورحمه.

وصيّة أبي طالب لقريش

روى الطبراني: أن أبا طالب لمّا حضرته الوفاة، جمع إليه وجهاء من قريش، فأوصاهم، وكان من وصيته قوله:

«يا معشر قريش! أنتم صفوة الله من خلقه، وقلب العرب، فيكم المطاع، وفيكم المقدّم الشجاع، والواسع الباع. لم تتركوا للعرب في المآثر نصيباً إلا أحرزتموه، ولا شرفاً إلا أدركتموه، فلكم بذلك على الناس الفضيلة، ولهم به إليكم الوسيلة. أوصيكم بتعظيم هذه البنيّة «الكعبة» فإن فيها مرضاة

---

(١) سورة (القصص) الآية: ٥٦. بدأها الشيخ رحمه الله (لا تهدي). وأغفل: (إنّك).

للرب، وقواماً للمعاش. صلوا أرحامكم، ولا تقطعوها، فإن في صلة الرحم منسأة في الأجل «فسحة» وزيادة في العدد. واتركوا البغي والعقوق، فبهما هلكت القرون قبلكم. أجيبوا الداعي، وأعطوا السائل، فإن فيهما شرف الحياة والممات. وعليكم بصدق الحديث، وأداء الأمانة، فإن فيهما محبة في الخاص، ومكرمة في العام.

وإنّي أوصيكم بمحمد خيراً، فإنه الأمين في قريش، وهو الصدّيق في العرب، وهو الجامع لكلّ ما أوصيكم به. وقد جاء بأمر قبله الجنان، وأنكره اللسان، مخافة الشنآن.

وأيم الله! كأني أنظر إلى صعاليك العرب، وأهل البر في الأطراف، والمستضعفين من الناس، قد أجابوا دعوته، وصدقوا كلمته. وعظموا أمره. فخاض بهم غمرات الموت، فصارت رؤوس قريش وصناديدها أذناباً، ودورها خراباً، وضعفاؤها أرباباً، وإذا أعظمهم عليه، أحوجهم إليه، وأبعدهم منه، أحظاهم عنده، وقد محضته العرب ودادها، وأعطته قيادها.

دونكم يا معشر قريش! كونوا له ولاة، ولحزبه حماة. والله لا يسأله أحد منكم سبيله، إلا رشده، ولا يأخذ أحد بيديه إلا سعده».

تكالب قريش على رسول الله ﷺ بعد موت أبي طالب

لمّا مات أبو طالب، اتسع المجال لأعداء النبي من قريش للنيل منه، فقد نالوا منه من الأذى ما لم يكن لهم مطمع فيه في حياة أبي طالب. فمن ذلك: أن بعض سفهائهم نثر على رأس النبي التراب، وهو يمشي، تحقيراً له ﷺ فدخل بيته والتراب على رأسه فقامت إليه فاطمة تزيله وتبكيه، ورسول الله، يهوّن عليها، ويسلّيها، ويقول لها في جذل: لا تبكي، لا تبكي، يا بنيّة، فإن الله مانع أباك.

كان ﷺ يقول: ما نالت قريش مني شيئاً أكرهه حتّى مات أبو طالب. وقال مرّة، وقد تهجّم عليه قريش، يخاطب أبا طالب: ما أسرع ما وجدت فقدك!

ولما بلغ أبا لهب ذلك، قام بنصرة رسول الله أياماً، وقال له: يا محمد!

امض لما أردت، وما كنت صانعاً، إذا كان أبو طالب حيّاً، فاصنعه. لا واللات والعزى، لا يوصل إليك حتى أموت. واتفق أن ابن العطيلة «أحد المستهزئين الذين تقدّم ذكرهم» سبّ النبي ﷺ فأقبل عليه أبو لهب، ونال منه، فولّى وهو يصيح: يا معشر قريش! صبأ أبو عتبة «لقب أبي لهب». فأقبلت قريش على أبي لهب، وقالوا له: فارقت دين عبد المطلب؟ فقال: ما فارقت، ولكن أمنع ابن أخي أن يضام حتى يمضي لما يريد. قالوا: قد أحسنت، وأجملت، ووصلت الرحم. فمكث رسول الله ﷺ على ذلك أياماً، لا يتعرض إليه أحد من قريش، وهابوا أبا لهب، إلى أن جاء أبو جهل وعقبة بن أبي معيط بدسيسة خبيثة، نفّرت أبا لهب من ابن أخيه، فقد قالا له: هل أخبرك ابن أخيك: أين مدخل أبيك؟ يزعم أنه في النار. فذهب إلى رسول الله ﷺ فسأله: يا محمد! أين مدخل عبد المطلب؟ فأجابه: مع قومه. فخرج أبو لهب إلى أبي جهل وعقبة فقال: قد سألته فقال: مع قومه. فقالا: يزعم أنه في النّار. فعاد وسأله: أيدخل عبد المطلب النّار؟ فقال ﷺ: نعم، ومن مات على مثل ما مات عليه عبد المطلب، دخل النّار.

فقال أبو لهب: لا برحت لك عدوّاً، وأنت تزعم أن عبد المطلب في النار، فاشتد عليه من تلك الساعة هو وقريش.

وفاة خديجة رضي الله عنها

ماتت خديجة، أم المؤمنين، رضي الله عنها، في شهر رمضان السنة العاشرة من النبوّة بعد وفاة أبي طالب بأيّام قلائل. ولها من العمر (٦٥) سنة، ودفنت بالحجون. وكانت مدّة زواجها بالنبي، خمساً وعشرين سنة على الصحيح. ولم تكن النكبة فيها، أقل من النكبة في أبي طالب. وقد لزم بيته بعد وفاتها، وأقل الخروج. وسمّى ذلك العام (عام الحزن).

ورود ضماد الأزدي على رسول الله ﷺ

كان ضماد من أزد شنوءة، وكان راقياً[1] يرقى من لمسة الجنّ، وقد سمع

(١) راقياً: الراقي: المتعوذ، ينفث في عوذته لدفع شرّ.

ما كان يذيعه سفهاء قريش على النبي ﷺ أن به جنّة. فقال: أرى هذا الرجل، لعل الله يشفيه على يدي. فقدم مكة، فأتى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد! إني أرقى من الرّيح «كناية عن الجن» فإنّ الله يشفي على يدي، فهل لك؟ فكان جواب رسول لله ﷺ مفحماً، فقد أعرض عن سؤاله، وأجابه بما كان يدعو إليه، قال:

إنّ الحمد لله، نحمده ونتقيه، من يهدي الله، فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له. وأن محمداً عبده ورسوله.

فقال ضماد: أعد عليّ كلماتك، ولم يزل يستعيدها، وهو ﷺ يكررها عليه ثلاث مرّات. فقال: لقد سمعت قول الكهنة، وقول السحرة، وقول الشعراء، فما سمعت مثل كلماتك. امدد يدك أبايعك على الإسلام. فبايعه. فقال له رسول الله ﷺ: وعلى قومك؟ فقال ضماد: وعلى قومي. فسُقط، بإسلامه، في أيدي المشركين.

ولكن إسلام أمثال هؤلاء، لم يدرأ عن النبي ﷺ عدوان قريش، وبالأخصّ، بعد وفاة عمّه أبي طالب، فقد نالت منه قريش ما لم تكن نالته منه في حياته كما تقدّم.

ذهاب رسول الله ﷺ إلى الطائف وعرض دعوته عليهم وردهم إيّاه

لمّا مات أبو طالب ونالت قريش من النبي ﷺ ما لم تكن نالته منه في حياته، كما قدمناه، خرج إلى الطائف وهو مشوش مكروب مما لقيه من قريش وقرابته، خصوصاً عمه أبي لهب وزوجته أم جميل، من السب والشتم والتكذيب.

وحكى علي بن طالب كرم الله وجهه ما كان يلاقيه رسول الله ﷺ في تلك الأثناء قال: لقد رأيت قريش آخذة برسول الله ﷺ يتجاذبونه ويقولون له: أنت الذي جعل الآلهة إلهاً واحداً؟ قال علي: فوالله مادنا منا أحد إلا أبو بكر، فصار يضرب هذا ويدفع هذا وهو يقول: أتقتلون رجلاً أن يقول

ربي الله. ! وقد شق ذلك على رسول الله ﷺ، فعول على الالتجاء إلى الطائف، عسى أن يجد من يؤازره في ثقيف.

فكان مخرجه من مكة السنة العاشرة من البعثة، ومعه مولاه: زيد بن حارثة. وفي الإمتاع: كانوا أخواله. فلما انتهى إلى الطائف عمد إلى سادات ثقيف وأشرافهم، وكانوا إخوة ثلاثة، أحدهم عبد ياليل، واسمه كنانة، وعبد كلال، واسمه مسعود، وحبيب. وهم أولاد عمرو بن عمير عوف الثقفي، وجلس إليهم وكلمهم فيما جاء به من نصرته على الإسلام، والقيام معه على من خالفه من قومه. فرد عليه أحدهم، وهو يمرط ثياب الكعبة «أي: ينتفها ويقطعها» فقال: ما وجد الله أحداً يرسله غيرك؟ وقال له آخر: والله لا أكلمك أبداً لئن كنت رسول الله كما تقول، لأنت أعظم خطراً وقدراً؟ من أن أرد عليك الكلام، ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغي لي أن أكلمك.

فأقام رسول الله ﷺ عندهم أربعين يوماً، لم يدع أحداً من أشرافهم إلاّ دعاه، وجاء إليه وكلمه، فلم يجبه أحد فيما كان يدعوهم إليه.

ثمّ تنكروا له، وقال له عبد ياليل وإخوته: اخرج من بلدنا، والحق بمنجاتك من الأرض. ولما خرج أغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون، وتجمهر من حوله الناس، وقعدوا له صفين في طريقه. فلما مر ﷺ بين الصفين، جعلوا يرمونه بالحجارة، بحيث لا يرفع رجليه إلا أردوهما حتى أدموهما واختضبت نعلاه. وكان إذا أزلفته الحجارة «وجد لها ألماً» قعد إلى الأرض، فيأخذون بعضديه فيقيمونه، فإذا مشى رجموه وهم يضحكون. وكان زيد بن حارثة يقيه بنفسه، حتى لقد شج رأسه شجاً حياً، فلما خلص منهم، ورجلاه تسيلان دماً، عمد إلى حائط لعتبة وشيبة ابني ربيعة «والحائط البستان» فاستظل فيه وهو مكروب موجع، ولما رأوه دخل الحائط رجعوا عنه، وأخذ يناجي ربه، ويفزع إليه، وهو يقول:

«اللهم! إني أشكو إليك ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس.

يا أرحم الراحمين! أنت ربّ المستضعفين، وأنت ربي. إلى من تكلني؟ إن لم يكن بك على غضب فلا أبالي[1]».

وكان بالحائط عدواه، ابنا ربيعة، وقد رأيا ما لقي من سفهاء أهل الطائف، فلما نظر إليهما رسول الله ﷺ كره مكانهما لما يعلم من عداوتهما. لكنهما بدورهما. . . .[2] ما فعله به أولئك السفهاء، فدعيا غلاماً لهما نصرانياً يقال له: (عداس)[3] فقالا: خذ قطفاً من العنب فضعه في هذا الطبق ثم اذهب به إلى ذلك الرجل، فقل له، يأكل منه. ثم أقبل به حتى وضعه بين يدي رسول الله ﷺ ثم قال له: كل. فلما وضع في يده الشريفة قال: بسم الله. فنظر عداس في وجهه وقال: والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد. فقال رسول الله ﷺ: من أي البلاد أنت؟ وما دينك يا عداس؟ قال: نصراني من أهل نينوى. فقال له رسول الله ﷺ: من مدينة الرجل الصالح يونس بن متى؟ ثم علمه ووعظه. ولما سمع عداس وعظه، أكب على رسول الله ﷺ يقبل رأسه ويديه وقدميه. فقال أحد الأخوين للآخر: قد أفسد عليك غلامك. فلما جاءهما عداس قال له مولاه: ويلك! مالك تقبل رأس هذا الرجل، ويديه، وقدميه؟ قال له عداس: يا سيدي ما في الأرض شيء خير من هذا. لقد أعلمني بأمر، لا يعلمه إلا نبي. وفي رواية: هذا رجل صالح، أخبرني بشيء عرفته. فضحكا به وقالا: لا يفتنك عن نصرانيتك! فإنه رجل خداع، ودينك خير من دينه.

---

(١) ورد النص في المخطوطة مبتوراً بهذه الصيغة، ولكن الشيخ استكمله في طبعة (إ). وتتمته: إلى بعيد يتجهمني، أو إلى عدوّ ملكته أمري. إن لم يكن بك علي غضب، فلن أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي. أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت به الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة. من أن ينزل بي غضبك، أو يحلّ عليّ سخطك. لك العتبى حتى ترضى. لا حول ولا قوة إلا بك.

(٢) غير واضح في الأصل.

(٣) وهو غير عداس النصراني الذي ذهبت إليه خديجة لما نزل عليه ﷺ الوحي.

وصف الرسول لهـذه الواقعة
لعائشـة أم المؤمنين رضي الله عنهـا

في الصحيح، عن عائشة رضي الله عنها، أنها سألت رسول الله ﷺ: هل أتى عليك يوم أشد من يوم أحد؟ قال: لقد لقيت من قومك، وكان أشد ما لقيت يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على عبد ياليل بن كلال فلم يجبني إلى ما أردت. فانطلقت وأنا مهموم على وجهي فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب «وهو ميقات أهل نجد الحجاز أو اليمن بينه وبين مكة يوم» فإذا أنا بالسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل، فنادى فقال: قد سمع قول قومك لك، وما ردوا عليك به، وقد بعثت إليك بملك الجبال فتأمره بما شئت فيهم. فناداه ملك الجبال وقال له: إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين[١] «وهماأبو قبيس وقعيقعان» فقال النبي ﷺ: استأن بهم، لعل الله يخرج من أصلابهم من يعبد الله تعالى، ولا يشرك به شيئاً. ثم انصرف.

وفي سيرة الحافظ الدمياطي قال: لما انصرف رسول الله ﷺ من الطائف راجعاً إلى مكّة، ونزل نخلة، قام يصلي من الليل، فصرف إليه نفر من الجن، فاستمعوا له وهو يقرأ[٢]:

﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ رواية ابن مسعود. ولم يشعر بهم رسول الله ﷺ حتّى نزل عليه:

﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴾[٣].

وأقام بنخلة أياماً.

---

(١) الأخشبان: قال صاحب القاموس: جبلا مكة: أبو قبيس، والأحمر، وجبلا منى.

(٢) الآيات من سورة (العلق) الآيات: (١ ـ ٥) لم يستكملها الشيخ، وأتممتها. المحقق.

(٣) سورة (الأحقاف) الآية: ٢٩.

فلمّا أراد الدخول إلى مكة قال له زيد بن حارثة: كيف تدخل على قريش وقد أخرجوك تستنصر فلم تنصر؟! فقال: يا زيد! إن الله جاعل لما ترى فرجاً ومخرجاً. وإن الله ناصر دينه، ومظهر نبيه. فسار ﷺ إلى حراء، ثم بعث إلى الأخنس بن شريق ليجيره فقال: أنا حليف والحليف لا يجير، فبعث ﷺ إلى سهيل، فقال: إن بني عامر لا تجير على بني كعب. فبعث إلى المطعم بن عدي فقبل جواره وقال له: قل له، فليأت. ثم تسلح المطعم بن عدي بأولاده وكانوا ستة أو سبعة، وخرجوا حتّى أتوا المسجد، فقام المطعم على راحلته فنادى:

يا معشر قريش! إني قد أجرت محمداً. فلا يؤذه أحد منكم.

ثم بعث إلى رسول الله ﷺ أن ادخل مكة، فدخل المسجد وطاف بالبيت، وصلى عنده. ثم انصرف إلى منزله، والمطعم بن عدي وولده يطيفون به. وبات عند المطعم في تلك الليلة، فلما أصبح خرج هو وبنوه في أسلحتهم فقالوا لرسول الله: طف. واحتبوا[1] بحمائل سيوفهم في المطاف مدة طوافه، وبينما هم كذلك إذ أقبل عليهم أبو سفيان، وقال لمطعم: أمجير أنت أم تابع؟ فقال: مجير، فقال: إذن لا تخفر، قد أجرنا من أجرت. فجلس معه حتى قضى رسول الله ﷺ طوافه.

تحذير قريش ضيوف مكة وزوارها من لقاء محمد

قدم الطفيل بن عمرو الدوسي مكة، وكان شريفاً في قومه شاعراً نبيلاً. فمشى إليه رجال من قريش فقالوا: إنك قدمت بلادنا وهذا الرجل بين أظهرنا قد أعضل[2] أمره بنا «اشتدّ» وفرق جماعتنا، وشتت أمرنا، وإنما قوله كالسحر: يفرق بين المرء وأخيه، وبين الرجل وزوجته. وإنا نخشى عليك وعلى قومك ما دخل علينا، فلا تكلمه، ولا تسمع منه. قال الطفيل:

فوالله ما زالوا بي حتى أجمعت، وعزمت على ألا أسمع منه شيئاً

(١) احتبوا: احتبى بالثوب: اشتمل، أو جمع بين ظهره وساقيه بعمامة. القاموس.
(٢) أعضل: اشتد واستعصى، ومنه: الداء العضال.

ولا أكلمه، حتى حشوت في أذني حين عدوت إلى المسجد كرسفاً «أي: قطناً» خوفاً من أن يبلغني شيء من قوله. فغدوت إلى المسجد فإذا رسول الله قائم يصلي عند الكعبة، فقمت قريباً منه فأبى الله إلا أن أسمع بعض قوله، فسمعت كلاماً حسناً، فقلت في نفسي: أنا ما يخفى علي الحسن من القبيح، فما يمنعني من أن أسمع من هذا الرجل ما يقول. فإن كان الذي يأتي به حسناً قبلت، وإن كان قبيحاً تركت. فمكثت حتى انصرف إلى بيته، فأتيت وقلت: يا محمد إن قومك قالوا لي: كذا وكذا حتى سددت أذني بكرسف، لا أسمع قولك، فاعرض عليّ أمرك.

فعرض عليه ﷺ الإسلام، وتلا عليه سورة (الإخلاص) وغيرها من الآيات فقال: والله ما سمعت قط قولاً أحسن من هذا، ولا أمراً أعدل منه. فأسلمت. فقلت: يا نبي الله! إني امرؤ مطاع في قومي، وأنا أرجع إليهم فأدعوهم إلى الإسلام. فادع الله أن يكون لي عوناً عليهم. فدعا لي وقال: اللهم اجعل له آية.

ولمّا عدت إلى قومي أقبل علي أبي فقلت له: إليك عني يا أبت! لست مني ولست منك. فقال: لم يا بني؟ قلت: قد أسلمت وتابعت دين محمد فقال: أي بني ديني دينك. فأسلم. ثم أتت صاحبتي[1] فذكرت لها مثل ذلك فأسلمت. ثم دعوت (دوساً) إلى الإسلام فأبطؤوا علي. ثم جئت رسول الله ﷺ فقلت: قد غلبتني دوس. وفي رواية: قد غلبني على دوس الزنادقة، فادع الله عليهم. فقال: اللهم اهد دوساً، وأت بهم.

فقال الطفيل: فرجعت ولم أزل أرضى قومي، أدعوهم إلى الإسلام.

حتّى هاجرا النبي ﷺ إلى المدينة، ومضى بدر وأحد والخندق، فأسلموا

---

(١) الصاحبة: الزوجة. وليست بالمفهوم الشائع في عصرنا. وبمفهوم الزوجة جاءت في القرآن الكريم: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾. (الأنعام) الآية: (١٠١) وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ۝ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ﴾ (عبس) الآيات (٣٣ ـ ٣٦).

وقد قدمت عليه ﷺ بمن أسلم من قومي وهو بخيبر. وكانوا ثمانين بيتاً من دوس، ومنهم أبو هريرة.

الإسراء بالنبي ﷺ

لا خلاف بين المسلمين في وقوع الإسراء به ﷺ بنص القرآن، ولكن الاختلاف هل وقع مع يقظة أو مناماً؟ ومن المقطوع به أنه وقع بعد البعثة واختلفوا في ليلته على أقوال[1].

وقد اختار منها الحافظ عبد الغني المقدسي أنها وقعت لسبع وعشرين ليلة خلت من رجب. وعليه عمل الناس في كافة الأقطار الإسلامية إلى اليوم. واختلف في السنة كما اختلف أيضاً في اليوم والشهر. فقد قيل: قبل الهجرة بسنتين، وقيل: بثلاث سنين. وقد جزم ابن حزم بأنه كان قبل الهجرة بسنة، وادعى فيه الإجماع. وقع بعد رجوعه من الطائف.

وعن أم هانىء بنت أبي طالب واسمها (فاختة)[2] أنه ﷺ نام ليلة أسرى به في بيتها قالت: ما أسرى برسول الله ﷺ إلا وهو في بيته نائم عندي تلك الليلة. «وبيتها كان في شعب: أبي طالب» فصلى العشاء الأخيرة ثم نام ونمنا. فلما كان قبل الفجر أهبّنا[3] رسول الله ﷺ «أقامنا» من نومنا. فلما صلى الصبح قال: يا أم هانىء! لقد صليت معك العشاء الآخرة كما رأيت بهذا الوادي. ثم جئت بيت المقدس، فصليت فيه. ثم صليت صلاة الغداة معكم الآن، كما ترين. قال: فأتاني جبريل عليه السلام، فذهب إلى باب المسجد فإذا بالبراق[4] وهو فوق الحمار ودون البغل طويل الأذنين، وكان

---

(١) قيل: سبع عشرة، وقيل: سبع وعشرون خلت من شهر ربيع الأول، وقيل: ليلة تسع وعشرين خلت من رمضان، وقيل: ليلة سبع وعشرين خلت من ربيع الآخر، وقيل: شوال، وقيل: في ذي الحجة. المؤلف.

(٢) يذكرها (ابن هشام) في سيرته باسم (هند) رواية عن (ابن إسحاق) وقال: إنها أم هانىء بنت أبي طالب.

(٣) أهبّنا: أيقظنا.

(٤) (البراق): سمي بذلك لشدة بريقه، وقيل: لسرعته. فهو كالبرق. وقيل: لأنه كان=

مسرجاً ملجماً. فركبته، فكان يضع حافره مدّ بصري، إذا أخذ في هبوط طالت يداه، وقصرت رجلاه، وإذا أخذ في صعود طالت رجلاه وقصرت يداه، وكانت لها جناحان تحفز بهما رجليها[١].

فلما دنوت منه، اشمأز ومنع ظهره أن يركب. فقال جبريل: اسكت فما ركبك أحد أكرم على الله من محمد. فاستحيت حتى ارفضت عرقاً، ثم قرت، حتى ركبها رسول الله ﷺ[٢].

قال: ثم سرت، وجبريل لا يفارقني إلى أن انتهيت إلى بيت المقدس. فأوثقته بالحلقة التي بباب المسجد اليماني[٣] فنشر لي رهط من الأنبياء، فيهم إبراهيم وموسى وعيسى. وصلى بهم ركعتين وقال ﷺ: واستويت على ظهر البراق فما كان بأسرع من أن أشرف على مكة.

وفي (زين القصص): أن الإسراء استغرق ثلاث ساعات. وقال الإمام السبكي: كان في لحظة.

وبعد أن أخبر رسول الله ﷺ أم هانيء بهذه القصّة، قال: أنا أريد أن أخرج إلى قريش فأخبرهم بما رأيت. قالت أم هانيء: فعلقت رداءه وقلت: أنشدك الله يا بن عم! أن تحدث بهذا قريشاً فيكذبك من صدقك. وفي رواية أخرى: إني أذكرك الله عز وجل، إنك تأتي قوماً يكذبونك وينكرون مقالتك، فأخاف أن يسطوا بك. فضرب بيده الشريفة على ردائه، فانتزعه من يدي،

= ذا لونين أبيض وأسود. ويقال: شاة برقاء إذا كان خلال صوفها الأبيض طاقات سوداء. وجاء في الحديث: أبرقوا فإن دم عفراء عند الله أزكى من دم سوداوين. أي: ضحوا بالبرقاء وهي العفراء. وفي الصحاح: الأعفر: الأبيض وليس بالشديد البياض. وشاة عفراء: يعلو بياضها حمرة، ولغلبة بياض شعرها على سواده قيل: أبيض. ولعل البراق كان شعره أبيض داخله طاقات سود أو حمر. المؤلف.

(١) الحفز: الشد والإعجال. المؤلف.

(٢) استعمل الشيخ التذكير والتأنيث بالنسبة للبراق.

(٣) وهو مكان حائط مبكى اليهود اليوم الذي وقعت من أجله ثورة أغسطس الماضي. المؤلف. وهذا التعليق من المؤلف يشير إلى زمن كتابة المخطوطة. المحقق.

فخرج، فقلت لجاريتي نبعة «وكانت حبشية»: اتبعيه، وانظري ماذا يقول. فلما رجعت أخبرتني أن رسول الله ﷺ انتهى إلى نفر من قريش في (الحطيم)[1] فيهم: مجيره المطعم بن عدي، وأبو جهل بن هشام، والوليد بن المغيرة، فقعد قريباً منهم. فمر به أبو جهل فجاء وجلس إليه فقال على معنى الاستهزاء: هل كان من شيء؟ قال: نعم أسري بي الليلة. قال: إلى أين؟ قال: إلى بيت المقدس. قال: ثم أصبحت بين ظهرانينا؟ قال: نعم. فلم ير أن يكذبه، مخافة أن يجحده الحديث إن دعا قومه إليه. قال: أرأيت إن دعوت قومك أتحدثهم ما حدثتني؟ قال: نعم.

فصاح في القوم: يا معشر بني كعب بن لؤي! فانفضت إليه المجالس، وجاؤوا حتى جلسوا اليهما. فقال: حدث قومك بما حدثتني به. فقال رسول الله ﷺ: إني أسري بي الليلة. قالوا: إلى أين؟ قال: إلى بيت المقدس. فنشر لي رهط من الأنبياء منهم: إبراهيم وموسى وعيسى، وصليت بهم، وكلمتهم.

فقال أبو جهل كالمستهزىء: صفهم لي. فجعل يصفهم واحداً واحداً. فضج القوم، وأعظموا ذلك، وصار بعضهم يصفق، وبعضهم يضع يده على رأسه تعجباً. فقال المطعم بن عدي: إن أمرك قبل اليوم كان أمراً «يسيراً» غير قولك اليوم. وأنا أشهد أنك كاذب. نحن نضرب أكباد الإبل إلى بيت المقدس، مصعداً أشهراً، ومنحدراً أشهراً. أتزعم أنك أتيته في ليلة واحدة؟ واللات والعزى لا أصدقك، وما كان هذا الذي تقول قط!.

وذكر الرواة، أنه حين حدث رسول الله قريش بالمعراج، ارتد أناس من ضعفاء الإيمان، كانوا أسلموا من قبل. ولما نقل ذلك إلى أبي بكر قال: أوقد قال ذلك؟ قالوا: نعم. قال: لقد صدق. قالوا: تصدقه أنه ذهب إلى بيت المقدس وجاء قبل أن يصبح؟!

قال: نعم إني أصدقه فيما هو أبعد من ذلك. أصدقه في خبر السماء في

---

(١) (الحطيم): هو ما بين باب الكعبة والحجر الأسود. المؤلف.

غدوة وروحه. أي: أن الخبر ليأتيه من السماء إلى الأرض في ساعة واحدة من ليل أو نهار، فأصدقه.

وبعد أن اجتمع أبو بكر برسول الله ﷺ، وبلغته مقالة المطعم، لقيه وقال له: بئس ما قلت يا مطعم لابن أخيك، جبهته «استقبلته» بالمكروه وكذبته، وأنا أشهد أنه صادق.

وقد افتتن الناس بحديث الإسراء، وقالت قريش في ذلك: صدق الوليد فيما قال، أي: بأن الرسول ساحر. وفيها نزلت الآية:

﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾[1].

فرض الصلوات الخمس

وفي ليلة الإسراء فرضت الصلاة، خمسون في اليوم والليلة. ولما أتى رسول الله ﷺ موسى عليه السلام سأله: ما فرض ربك عليك؟ قال: خمسين صلاة. قال: ارجع إلى ربك، فاسأله التخفيف، فإن أمتك لا تطيق ذلك.

وفي (البخاري): أن أمتك لا تستطيع خمسين صلاة كل يوم، وإني والله! قد جربت الناس قبلك، وعالجت بني إسرائيل أشدّ المعالجة، فإنه فرض عليهم صلاتين فما قاموا بهما: ركعتان في الغداة وركعتان بالعشي. فرجعت إلى ربّي، فقلت: يا ربّي! خفف عن أمّتي. فحط عنها خمساً، فرجعت إلى موسى فقلت: حط عني خمساً. قال: إن أمتك لا تطيق، فارجع إلى ربّك، واسأله التخفيف.

قال: فلم أزل أرجع، بين ربي تبارك وتعالى وبين موسى، حتى قال تعالى: يا محمّد إنهن خمس صلوات في كل يوم وليلة، لكل صلاة عشر، فذلك خمسون صلاة. ومن هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة، فإن عملها كتبت له عشراً. ومن هم بسيئة فلم يعملها كتبت له حسنة، فإن عملها كتبت له سيئة واحدة.

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٦٠.

وفي رواية البخاري ومسلم: أنه وضع عنه عشر صلوات إلى أن أمر بخمس صلوات[1].

الظهر

سميت بالظهر، لأنها أول صلاة ظهرت. وقيل: لأنها فعلت عند قيام الظهيرة «شدّة الحر» ففي بعض الروايات: أنه لما زالت الشمس، نودي في مكة: الصلاة جامعة: ففزع الصحابة لذلك، واجتمعوا، فصلّى بهم رسول الله ﷺ الظهر، أربع ركعات لا يقرأ فيهن علانية. ورسول الله ﷺ بين يدي الناس والناس يقتدون به، فصلاها أربعاً.

العصر

ولما صار ظل كل شيء مثله، صلى ركعات العصر. وكان يسر القراءة، ويعلن التكبير كما فعل في صلاة الظهر.

المغرب

ولما غابت الشمس صلى بهم رسول الله ﷺ المغرب ثلاث ركعات، يقرأ في الركعتين الأولين علانية، وفي الثالثة يسر القراءة.

العشاء

وصلّى ﷺ العشاء حين غاب الشفق الأحمر أربعاً. جهر بالقراءة في الركعتين الأولين، وأسر القراءة في الركعتين التاليتين.

صلاة الصبح

وصلى بهم الغداة في اليوم الثاني حين طلع الفجر، ركعتان أعلن فيهما

---

(١) أحال الشيخ رحمه الله الفقرات التالية المتعلقة بالصلوات الخمس برقم هامشي، واستهلها بصلاة الجمعة. فرأيت من الأنسب إدراجها في صلب النص والبدء بالصلوات المكتوبة وإلحاق (صلاة الجمعة) بـ(صلاة الحضر والسفر) و(صلاة الخوف) فيما يلي.

القراءة. وسئل ابن عباس رضي الله عنه: هل من دليل على تعيين الأوقات الخمس في كتاب الله؟ قال: نعم. وتلا قوله تعالى:

﴿ فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ۝١٧ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴾[1].

وعن ابن عبّاس: إنّ التسبيح في القرآن: صلاة.

صلاة الجمعـــة

ذهب المؤرخون إلى أن أول من سمى يوم العروبة: يوم الجمعة، كعب بن لؤي. وأن رسول الله ﷺ أرسل إلى مسلمي المدينة أن يصلوها في ذلك اليوم، ولم يسمه بيوم الجمعة بل اقتصر على قوله: اليوم الذي يليه اليوم الذي تجهر فيه اليهود بالزبور بسبتهم. كما هو وارد في أغلب الروايات. ونقل السهيلي عن ابن عباس، أنه سمى ذلك اليوم بيوم الجمعة رسول الله ﷺ، كما شهد به كتابه إلى مصعب بن عمير، عامله المذكور في المدينة. قال:

أمّا بعد، فانظر اليوم الذي يليه اليوم الذي تجهر فيه اليهود بالزبور وبسبتهم، فاجمعوا نساءكم وأبناءكم، فإذا مال النهار عن شطره عند الزوال من يوم الجمعة، فتقربوا إلى الله تعالى فيه بركعتين. وهذا هو الأصل في فرض هذه الصلاة[2].

صلاة الحضر والسفر

عن عائشة رضي الله عنها: فرضت صلاة الحضر والسفر ركعتان في

---

(١) سورة (الروم) الآيتان: ١٧ ـ ١٨.

(٢) من المؤكد أن تسمية اليوم عند العرب سبقت نزول السورة (الجمعة) وهي مدنية، والآية (٩) منها التي تنص باسم اليوم: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾.
وقد أفاض الشيخ الطاهر بن عاشور رحمه الله في (تفسير التحرير والتنوير) في تاريخ فرض صلاة الجمعة، وفي تسمية الأيام واستعرض مختلف الأقوال والروايات. لمن أراد التوسع، يراجع الجزء (٢٨) في التفسير الصفحات: ٢١٩ ـ ٢٣٠.

الصبح والظهر والعصر والمغرب والعشاء. فلما أقام ﷺ بالمدينة شهراً أو عشرة أيام من الهجرة، زيد في صلاة الحضر ركعتان ركعتان، وتركت صلاة الصبح بلا زيادة على الأصل، لطول القراءة فيها إذ المطلوب فيها طوال المفصّل، وزيدت في صلاة المغرب ركعة واحدة، فصارت ثلاثاً، لأنها وتر النهار.

فأقرت صلاة السفر لم يزد فيها شيء غير ركعة المغرب للسبب الآنف. وقال الحافظ ابن حجر: المراد بقول عائشة رضي الله عنها: فأقرت صلاة السفر اعتبار ما آل إليه الأمر من التخفيف، لأنه لما استقر فرض الصلاة الرباعية خفف منها في السفر. واستقر ذلك بعد قدومه المدينة بشهر أو أربعين يوماً. ونزلت آية القصر[١] في ربيع الأوّل من السنة الثانية من الهجرة، إلا أنها استمرت منذ فرضت.

والقول المشهور: أن الصلوات الخمس فرضت ليلة المعراج أربعاً، إلا المغرب ففرضت ثلاثاً وإلا الصبح ففرضت ركعتين وإلا صلاة الجمعة ففرضت ركعتين، ثم قصرت الأربع في السفر. وهذا يوافق ظاهر القرآن وكلام الجمهور من العلماء.

والتخفيف، أي التقصير، رخصة فقد سأل قوم من بني النجّار ﷺ فقالوا: إنا نضرب في الأرض، فكيف نصلّي؟ فأنزل الله عز وجل: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾[٢].

صلاة الخوف

كان النبي ﷺ في بعض غزواته يصلي الظهر، ولما أبصر المشركون المسلمين يصلون. قال قائلهم: لقد أمكنكم محمد وأصحابه من ظهورهم، هلا شددتم

---

(١) يشير إلى الآية اللاحقة.

(٢) سورة (النساء) الآية: ١٠١.

عليه؟ فقالوا: إن لهم أخرى مثلها في أثرها. فأنزل الله عز وجلّ بين الصلاتين آية صلاة الخوف:

﴿إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ إلى قوله: ﴿عَذَابًا مُّهِينًا﴾.

وصلاة الخوف ركعة، فإن الإمام يحرم بالجميع، ويسجد معه صف أول، ويحرس الصف الثاني. فإذا قام الساجدون في الركعة الأولى حرسوا الصف الثاني، وأتم الصف الثاني الركعة الثانية مع الإمام[١].

وتشريع التشهد، والصلاة على النبي في الصلاة كانا متأخرين عن فرض الصلاة. فعن عبد الله بن مسعود قال: كنا نقول قبل أن يفرض علينا التشهد: السلام على الله، السلام على جبريل، السلام على ميكائيل، السلام على فلان، أي: من الملائكة، فقال رسول الله ﷺ: لا تقولوا السلام على الله، فإن الله هو السلام.

وقال بعض الصحابة: كيف نصلي عليك؟ إذا نحن صلينا عليك في صلاتنا؟ فقال: قولوا: اللهم صل على محمد... الخ.

النشاط العظيم الذي قام به رسول الله ﷺ في نشر الدّعوة الإسلامية

قدمنا أنه ﷺ أخفى رسالته ثلاث سنين، كان يدرب فيها أنصاره في دار الأرقم، ويمرنهم على المجاهدة في سبيل الحق، والثبات في وجوه خصوم الدين الإلهي، وأنصار الباطل.

وفي السنة الرابعة أعلن أمره كما قدمنا، وانقطع للدعوة الإسلامية عشر

---

(١) الآية الكريمة أكثر تفصيلاً وأوفر بياناً لصلاة الخوف. قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾. (سورة النساء الآية: ١٠٢).

سنين كاملة، يوافي ﷺ الموسم كل عام، يتبع منازل الحجاج بمنى وعرفات، ويقف مواقفهم، ويتعرف إلى القبائل قبيلة قبيلة، ويسأل عن مواطنهم، ويستطلع كنه آرائهم، ويشهد الأسواق: عكاظ، مجنة[1]، ذو المجاز. وكان العرب إذا حجّت تقيم بعكاظ شهر شوال، ثم تجيء إلى سوق مجنة، تقيم فيه عشرين يوماً ثم تجيء سوق ذي المجاز، فتقيم به إلى أيّام الحج.

يدعوهم ﷺ إلى أمرين: إلى الإسلام، وإلى أن يمنعوه حتى يبلغ رسالة ربه، ويقول: ألا رجل يعرض علي قومه؟ فإن قريشاً قد منعوني أن أبلغ كلام ربي.

وعن بعض الصحابة قال: رأيت رسول الله ﷺ قبل أن يهاجر إلى المدينة يطوف على الناس في منازلهم بمنى. يقول: أيها الناس! إن الله يأمركم أن تعبدوه، ولا تشركوا به شيئاً.

وكان وراءه رجل يقول: يا أيها الناس! إن هذا يأمركم أن تتركوا دين آبائكم، فسألت عنه فقيل: أبو لهب.

مكافحة أبي لهب لصاحب الرسالة ومعارضته في نشر الديانة الإسلامية

وعن أبي طارق قال: رأيت رسول الله ﷺ بسوق ذي المجاز، يعرض نفسه على قبائل العرب، يقول:

«يا أيها الناس! قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا، فسألت عنه، فقيل: غلام عبد المطلب. وخلفه رجل له غديرتان «ذؤابتان» يرجمه بالحجارة حتى أدمى كعبه، يقول: يا أيها الناس لا تسمعوا منه، فإنّه كذاب.

فقلت: ومن الرجل الذي يرجمه؟ فقيل: عمه عبد العزى، أبو لهب.

وفي السيرة الشامية: كان يقف ﷺ في منازل القبائل من العرب بمنى

---

(١) (مجنة). قال الأصمعي: وكانت مجنّة بمرّ الظهران، قرب جبل يقال له الأصفر، وهو بأسفل مكة.

فيقول: يا بني فلان! إنيّ رسول الله إليكم، يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وأن تخلعوا ما تعبدون من دونه من هذه الأنداد، وأن تؤمنوا بي وتصدقوني، وتمنعوني، حتى أبيّن عن الله عز وجل ما بعثني به. وخلفه رجل أحول وضيء، له غديرتان، عليه حلة عدنية، فإذا فرغ رسول الله ﷺ من قوله، قال ذلك الرجل للقوم يخاطبهم:

يا بني فلان! إن هذا الرجل إنما يدعوكم إلى أن تسلخوا اللات والعزى من أعناقكم، إلى ما جاء به من البدعة والضلالة، فلا تطيعوه، ولا تسمعوا منه. وكان هذا الرجل عمه عبد العزى.

وذكر ابن إسحاق: أن رسول الله ﷺ عرض نفسه على بطن من كندة وكلب، يقال لهم: بنو عبد الله. فقال لهم: إنّ الله قد أحسن اسم أبيكم، وأحب الأسماء إلى الله عز وجلّ عبد الله، وعبد الرحمن. ثم عرض دعوته عليهم، فلم يقبلوها.

يطلبون مقابل إسلامهم أن يكون لهم الأمر من بعده

وعرض الأمر على بني حنيفة وبني عامر بن صعصعة، فقال له رجل منهم: أرأيت إن نحن بايعناك على أمرك ثم أظفرك الله على من خالفك، أيكون لنا الأمر من بعدك؟ فقال: الأمر لله، يضعه حيث يشاء.

فقال الرجل: نهدف[1] نحورنا للعرب دونك؟ فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا؟ لا حاجة لنا بأمرك. وأبوا عليه. فلما رجعت بنو عامر إلى منازلهم، وكان فيهم شيخ طاعن في السن، لا يقدر أن يوافي معهم الموسم. فسألهم عما كان في موسمهم. فقالوا: جاءنا فتى من قريش، أحد أبناء عبد المطلب، يزعم أنه نبي، يدعونا إلى أن نمنعه ونقوم معه ونخرج به الى بلادنا، فوضع الشيخ يده على رأسه. ثم قال: يا بني عامر هل لها من تلاف؟ «تدارك» هل

---

(١) (الهدف): نجعلها هدفاً، أو نستقبل بها العرب حماية لك.

لها من مطلب؟ والذي نفسي بيده! ما يدعي أحد النبوة من بني إسماعيل قط، وهو كاذب. وإنها لحق، وإن رأيكم غاب عنكم.

أسرتك وعشيرتك أعلم بك

وذكر الواقدي أنه ﷺ أتى بني عبس وبني سليم وغسان وبني محارب، وفزارة، وبني نضر، ومرة، وعذرة، والحضارمة. فيردون عليه أقبح الرد ويقولون: أسرتك وعشيرتك أعلم بك. ولم يكن أحد من العرب أقبح رداً من بني حنيفة، وهم أهل اليمامة وثقيف.

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنه: لقي جماعة من شيبان بن ثعلبة، وكان معه أبو بكر وعلي رضي الله عنهما. سألهم أبو بكر: من القوم؟ فقالوا: من شيبان بن ثعلبة. فالتفت أبو بكر إلى رسول الله ﷺ فقال: بأبي أنت وأمي، هؤلاء غرر «سادة» في قومهم، وفيهم: مفروق بن عمرو، وهانيء بن قبيصة، ومثنى بن حارثة، والنعمان بن شريك. وكان مفروق بن عمرو قد غلبهم جمالاً ولساناً. وكان أذنى القوم مجلساً من أبي بكر. وبعد الاستئناس والتعارف، قال لهم أبو بكر: أوقد بلغكم أن رسول الله ﷺ في قريش هو هذا؟ فقال مفروق: بلغنا ذلك. فإلام تدعو يا أخا قريش؟ فقدم رسول الله ﷺ فقال: أدعو إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأني رسول الله، وإلى أن تؤووني وتنصروني، فإن قريشاً قد تظاهرت على أمر الله، وكذبت رسوله، واستغنت بالباطل عن الحق، والله هو الغني الحميد.

قال مفروق: وإلام تدعو أيضاً يا أخا قريش؟ فقال رسول الله ﷺ:

﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[1].

---

(١) سورة (الأنعام) الآية: ١٥١.

قال مفروق: ما هذا من كلام أهل الأرض! ولو كان من كلامهم عرفناه. ثم قال: وإلام تدعو أيضاً يا أخا قريش؟

فتلا رسول الله ﷺ: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴾[1].

فقال مفروق: دعوت، والله إلى مكارم الأخلاق، ومحاسن الأعمال. ولقد أفك قوم كذبوك، وظاهروا عليك.

وكان مفروق أراد أن يتركه في الكلام، فأتى ابن قبيصة فقال: هذا ابن قبيصة شيخنا وصاحب ديننا، فقال هانيء: قد سمعنا مقالتك يا أخا قريش، وإني أرى، أنَّ تركنا ديننا، واتّباعنا إيّاك على دينك بمجلس جلسته إلينا، ليس له أول ولا آخر، لزلة في الرأي، وقلة نظر في العاقبة. وإنما تكون الزلة مع العجلة. ومن ورائنا قوم، نكره أن نعقد عليهم عقداً دون مشورتهم، ولكن نرجع وترجع، وننظر وتنظر.

وكان أحب أن يشركه في الكلام المثنى بن حارثة، فقال: هذا المثنى بن حارثة، شيخنا وصاحب ديننا. فقال المثنى: قد سمعنا مقالتك يا أخا قريش، والجواب هو جواب هانيء بن قبيصة في تركنا ديننا، واتباعنا دينك بمجلس جلسته إلينا، ليس له أول ولا آخر. وإن أحببت أن نؤويك، وننصرك مما يلي مياه العرب دون مايلي أنهار كسرى، فعلنا. فإنا إنما نزلنا على عهد أخذه علينا كسرى، ألا نحدث حدثاً، ولا نؤوي محدثاً. وإني أرى هذا الأمر الذي تدعو إليه، هو مما يكرهه الملوك.

دين الله لا ينصره
إلا من أحاط بـه من جميع جوانبـه

فقال رسول الله ﷺ: ما أسأتم الردّ إذ أفصحتم بالصدق، وإن دين الله عز وجل لن ينصره إلا من أحاط به من جميع جوانبه. أرأيتم إن لم تلبثوا إلاّ

---

(١) سورة (النحل) الآية: ٩٠.

قليلاً، حتى يورثكم الله أرضهم وأموالهم، ويغرسكم نساءهم تسبحون الله وتقدسونه.

قال النعمان بن شريك: اللهم لك ذاك، فتلا رسول الله ﷺ:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴾[1].

يريد أن يسود العرب على فارس

وقدمت بكر بن وائل مكة للحج، فقال ﷺ لأبي بكر: ائتهم فاعرضني عليهم. فأتاهم يعرضه فقال: كيف العدد فيكم؟ قالوا: كثير مثل الثرى. قال: كيف المنعة؟ قالوا: لا منعة، جارنا فارس، لا نمنع منهم ولا نجير عليهم. فقال: فتجعلون الله عليكم، إن هو أبقاكم حتى تنزلوا منازلهم وتنكحوا نساءهم، وتستعبدوا أبناءهم. أن تسبحوا الله ثلاثاً وثلاثين، وتحمدونه ثلاثاً وثلاثين، وتكبرونه ثلاثاً وثلاثين. قالوا: ومن أنت؟ قال: رسول الله. ثم مر بهم أبو لهب فقالوا له: هل تعرف هذا الرجل قال: نعم فأخبروه بما دعاهم إليه، وأنه زعم أنه رسول الله. فقال لهم: لا ترفعوا بقوله رأساً، فإنه مجنون يهذي من أم رأسه. فقالوا: قد رأينا ذلك حيث ذكر من أمر فارس ما ذكر.

وفي بعض الروايات: أنهم لم يجيبوه ولم يرفضوه، بل أرجوه إلى أن يجيء شيخهم حارثة. فلما أقبل قال له: إن بيننا وبينك من الفرس حرباً، فإذا فرغنا مما بيننا وبينهم، عدنا فنظرنا فيما تقول.

أترون رجلاً يصلحنا وقد أفسد قومه؟!

ولا زال رسول الله ﷺ يعرض نفسه على القبائل في كل موسم، يقول: لا أكره أحداً على شيء، من رضي الذي أدعوه إليه من قبل فذلك، ومن كره لم أكرهه، إنما أريد منعي من القتل حتى أبلغ رسالات ربي. فلم يقبله أحد

(١) سورة (الأحزاب) الآيات: ٤٥ ـ ٤٧.

من تلك القبائل ويقولون: قوم الرجل أعلم به. أترون رجلاً يصلحنا وقد أفسد قومه؟!

بدء نجاح الدّعوة

لما أراد الله إظهار رسالته، ورفع شأن العرب، وإعلاء كلمتهم، ألهم رسوله ﷺ الخروج في الموسم، فخرج في رجب يعرض نفسه على قبائل العرب، كما كان يصنع في كل موسم. فبينما هو في عقبة الجمر[١] إذ لقي بها رهطاً من الخزرج؟ «والخزرج: الريح الباردة، وقيل: هي الجنوب خاصة» وكانوا ستة نفر، وقيل: ثمانية. وقد اختلف في ذكر أسمائهم؛ لذلك أعرضنا عن إثباتهم[٢].

فقال لهم رسول الله ﷺ: من أنتم؟ قالوا: نفر من الخزرج. فقال: أمن موالي اليهود؟ «أي: حلفاء يهود المدينة، قريظة والنضير، لأنهم تحالفوا معهم على التناصر والتعاضد على من سواهم وأن يأمن بعضهم من بعض».

قالوا: نعم.

قال: أفلا تجلسون أكلمكم؟

قالوا: بلى.

فجلسوا معه ﷺ، وكانوا يحلقون رؤوسهم، فجلس إليهم ودعاهم إلى الله عز وجل وعرض عليهم الإسلام، وقد شاهدوا عليه من أمارات الصدق والجد ما جعلهم يقتنعون بما دعاهم إليه. فقال بعضهم لبعض: إنه للنبي الذي يوعدكم به يهود. وكانوا إذا وقع بينهم وبين العرب شيء من الشر، قالوا لهم: سيبعث نبي قد أظل زمانه، نتبعه، نقتلكم معه قتلة عاد وإرم.

---

(١) وهي على يسار الطريق لقاصد منى من مكة. وبها الآن مسجد صغير. المؤلف.

(٢) ولكن الشيخ في طبعة (إ) سمّاهم: أبو أسامة، أسعد بن زرارة، عوف بن الحارث ومعاذ أخوه، أبناء عفراء. رافع بن مالك، ابن سعد، قطب بن عامر، عقبة بن عامر، جابر بن عبد الله. رضي الله عنهم جميعاً. المحقّق.

فلما عرض عليهم الإسلام أجابوا إليه وصدقوه، وقالوا لرسول الله ﷺ: إنا تركنا قومنا يعنون الأوس والخزرج بينهم من العداوة والشر ما بينهم. ودام ذلك نحو مئة وعشرين سنة، فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك.

كانت «بعاث»[1] أول يوم من أيامنا، اقتتلنا به، ونحن كذلك لا يكون لنا عليك اجتماع حتى نرجع إلى قومنا ندعوهم إلى ما دعوتنا، لعل الله أن يصلح ذات بيننا. فإن اجتمعت كلمتهم عليك واتبعوك، فلا أحد أعز منك.

أمّا سبب هذه العداوة فقد كان من تقاليدهم ألا يقتل الأصيل بالحليف، فقد قتل سويد بن الصلت الأوسي ذياداً، والد المجذر بن ذياد، وهو حليف للخزرج. فأرادوا أن يقتلوا سويداً فيه، فأبى عليهم الأوس ذلك، لأنه عزيز لديهم. وكانوا يسمونه الكامل لشرفه ونسبه وشعره وجلده. وهو ابن خالة عبد المطلب، وأمه أخت سلمى أم عبد المطلب. كان قدم مكة حاجاً ومعتمراً.

فتصدّى له رسول الله ﷺ حين سمع به، لأنه كان لا يسمع بقادم من العرب قدم إلى مكة، له اسم وشرف، إلا تصدى له، ودعاه إلى الله تعالى. فدعا سويداً إلى الله عز وجل وإلى الإسلام، فقال له سويد: لعل الذي معك مثل الذي معي. فقال له رسول الله ﷺ: وما الذي معك؟ قال: حكمة لقمان. فقال رسول الله ﷺ: اعرضها علي، فعرضها عليه. فقال رسول الله ﷺ: إن هذا الكلام حسن، والذي معي أفضل. هذا قرآن أنزله الله عليّ، هو هدى ونور. فتلا عليه رسول الله ﷺ القرآن، ودعاه إلى الإسلام، فلم يبعد منه، وقال: إن هذا القول حسن، ثم انصرف. وقدم

---

(١) (بعاث) اسم مكان قريب من المدينة على بعد ليلتين منها عند بني قريظة ويقال: إنه كان حصل فيه قتال قبل قدومه ﷺ المدينة بخمس سنين: بين الأوس والخزرج، وكان سيد الأوس ورئيسهم حضير والد أسيد، وبه قتل مع من قتل من قومه، وكان النصر فيهم أولاً للخزرج ثم صار للأوس. المؤلف.

المدينة فلم يلبث أن قتله الخزرج. فكان ذلك سبب الحرب بين الأوس والخزرج ببعاث، فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة، أسلم الحارث بن سويد والمجذر بن زياد[1].

فجعل الحارث بن سويد يطلب مجذراً، يقتله بأبيه، فلم يقدر عليه حتى كانت وقعة أحد، قدر عليه فقتله غيلة.

وممن قتل في حرب بعاث شخص يقال له: إياس بن معاذ، قدم مكّة هو وشخص يقال له: أبو الحيسر أنس بن رافع، مع جماعة من قومهم، يلتمسون الحلف من قريش، على قومهم الخزرج. فأتاهم رسول الله ﷺ فجلس إليهم فقال: هل لكم خير مما جئتم له؟ قالوا وما ذاك؟ قال: أنا رسول الله بعثني للعباد، أدعوهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، وأنزل علي الكتاب. ثم ذكر لهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن. فقال إياس بن معاذ وكان صغيراً: أي والله خير مما جئنا إليه؟ فأخذ أبو الحيسر حفنة من تراب، فضرب بها وجه إياس ونهره وقال له: دعنا منك. لقد جئنا لغير هذا. فسكت إياس، وقام رسول الله ﷺ عنهم. ثم انصرف أولئك الرهط من الخزرج راجعين إلى بلادهم.

وفي رواية: أنهم لما آمنوا به ﷺ وصدقوه. قالوا له: إنا نشير عليك أن تمكث على رسلك حتى نرجع إلى قومنا، فنذكرهم شأنك وندعوهم إلى الله عز وجلّ ورسوله، لعل الله يصلح ذات بينهم، ونواعدك الموسم من العام المقبل. فرضي بذلك رسول الله ﷺ.

ولم تحصل من هؤلاء الستة أو الثمانية نفر، مبايعة. وهذه الواقعة تعتبر بداية الإسلام للأنصار. وربما سماها بعضهم العقبة الأولى، فلما كان العام المقبل قدم من الأوس والخزرج اثنا عشر رجلاً، عشرة من الخزرج، واثنان من الأوس. وقيل: كانوا أحد عشر رجلاً. منهم خمسة من الستة أو الثمانية الذين اجتمعوا به ﷺ عند العقبة أولاً. فاجتمع بهم ﷺ عند العقبة أيضاً.

---

(١) ذكره الشيخ رحمه بالصيغتين: ذياد وزياد. وهو في سيرة (ابن هشام) بالزاي.

فعاهدهم ﷺ وسميت المعاهدة مبايعة، تشبيها بالمعارضة المالية. نصها على ما نقله ابن إسحاق:

«أبايعكم على أن تمنعوني ما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم. وزاد بعضهم: والسمع والطاعة في العسر واليسر، والمنشط والمكره، وألا ننازع الأمر أهله، وأن نقول الحق حيث كنا، لا نخاف في الله لومة لائم».

فبايعوه على ذلك على أن يرحل إليهم وأصحابه.

ولما انصرف المبايعون، راجعين إلى المدينة، بعث معهم رسول الله ﷺ عمرو بن أم مكتوم «ابن خال أم المؤمنين خديجة، وقيل: اسمه عبد الله» يصلّي بمن أسلم، ويعلّمهم القرآن، ويدعو من لم يسلم.

ولما كثر المسلمون بالمدينة، بعثوا إلى رسول الله ﷺ معاذ بن عفراء، ورافع بن مالك رضي الله عنهما، أن ابعث إلينا رجلاً من قبلك، يفقهنا، ويدعو النّاس بكتاب، فبعث اليهم مصعب بن عمير، ولما جاء مصعب، تخلف ابن أم مكتوم، ونزل مصعب على أبي أمامة، أسعد بن زرارة، رضي الله عنه دون بقيّة رفقته. وكان سالم مولى أبي حذيفة يؤم المهاجرين قبل أن يقدم رسول الله ﷺ وكان مصعب يؤم الأوس والخزرج. وقد جمع بهم أول جمعة في الإسلام، قبل قدومه ﷺ المدينة، وقبل نزول سورة الجمعة الآمرة بها، وهي سورة مدنية.

أول جمعة صلاها المسلمون

وحكى ابن إسحاق أن أول من جمع الناس لصلاة الجمعة في الإسلام: أبو أمامة أسعد بن زرارة، وكانوا أربعين رجلاً. وروى كعب بن مالك أنه جمعهم في نقيع[1] الخضمان محل مأكل الماشية، وهو اسم لقرية من قرى المدينة. وخطبهم وصلّى بهم مصعب بن عمير وهو صاحب الولاية، وإن كان

---

(١) (نقيع) اختلف الرواة، هل هو بالنون، أو بالباء (بقيع) وفي (معجم البلدان): (الخضمات) لا (الخضمان). وجاء فيه: «وفي رواية ابن إسحاق مرفوعاً إلى أبي أمامة، أن أول جمعة جمعت بالمدينة في بقيع يقال له (بقيع الخضمات).

بعض رواة السيرة يعللونه بكراهية الأوس والخزرج، أن يؤمهم البعض منهم.

إسلام سعد بن معاذ سيد الأوس

ومن جملة من هدى الله على يد مصعب سعد بن معاذ وابن عمه أسيد بن حضير، فقد حكى لنا ابن إسحاق أن أسعد بن زرارة خرج بمصعب إلى حائط من حوائط بني ظفر، فجلسا فيه، واجتمع إليهما رجال ممن أسلم وسعد بن معاذ وأسيد بن حضير «وهما سيدا قومهما بني عبد الأشهل»، وكلاهما كان على دين قومه، وسبب حضورهما، أن سعد قال لأسيد: لا أبالك! انطلق إلى هذين الرجلين اللذين أتيا دارينا «تثنية دار» ليسفّها ضعفاءنا، فازجرهما «انههما». وفي رواية أخرى: أنه قال له: ائت أسعد بن زرارة، فازجره عنا فليكف ما نكره، فإنّه بلغني أنه قد جاد بهذا الرجل الغريب، يسفّه سباءنا[1] وضعفاءنا، فإنّه لولا أسعد بن زرارة مني حيث علمت لكفيتك ذلك، وهو ابن خالته. فأخذ أسيد بن حضير حربته، ثم أقبل إليهما، فلما رآه أسعد بن زرارة، قال لمصعب بن عمير: هذا سيد قومه قد جاءك، فاصدق الله فيه. فقال مصعب: إن يجلس هذا كلمته. فوقف عليهما متشمتاً. قال: ما جاء بكما إلينا تسفّهان صعفاءنا، اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة! فقال له مصعب: أو تجلس فتسمع، فإن رضيت أمراً قبلته، وإن كرهته كفّ عنك ما تكره. قال: أنصفت، ثم ركّز حربته وجلس إليهما، فكلمه مصعب بالإسلام، وقرأ عليه القرآن، فقال: ما أحسن هذا وأجمله! كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين؟ فقال له: تغتسل وتتطهر، وتغسل ثوبك، ثم تشهد شهادة الحق، ثم تصلي، فقام واغتسل وطهر ثوبه وشهد شهادة الحق، وأسلم. ثم قال لهما: إن ورائي رجلاً إن اتبعكما، لم يتخلف عنه أحد من قومه، وهم جلوس في ناديهم، فلما نظر إليه سعد مقبلاً قال: أحلف بالله لقد جاءكم أسيد بن حضير بغير الوجه

---

(١) (سباءنا): عبيدنا. من السبي. المحقق.

الذي ذهب به من عندكم، فلما وقف على النادي قال له سعد: ما فعلت؟ قال: كلمت الرجلين، فوالله ما رأيت بهما بأساً، وقد نهيتهما، فقالا: نفعل ما أحببت. وقد حدثت أن بني حارثة، خرجوا إلى أسعد بن زرارة ليقتلوه، وذلك أنهم عرفوا أنه ابن خالتك «ليحقروك» فقام سعد مغضباً مبادراً، فأخذ الحربة من يده، وقال: والله ما أراك أغنيت شيئاً! ثم خرج إليهما. ولما أقبل سعد، قال أسعد لمصعب: لقد جاءك والله سيد من ورائه قومه، إن اتبعك لا يتخلف عنك منهم اثنان، فلما رآهما سعد مطمئنين، عرف سعد أن أسيداً إنما أراد منه أن يسمع منهما، فوقف عليهما متشمّتاً، ثم قال لأسعد بن زرارة: يا أبا أمامة! لولا ما بيني وبينك من القرابة، ما رمت مني هذا، هذا يغشانا في دارنا بما نكره؟ فقال له مصعب: أو تقعد فتسمع؟ فإن رضيت أمراً قبلته، وإن كرهت عزلنا عنك ما تكره. فقال سعد: أنصفت، ثم ركز الحربة وجلس، فعرض عليه الإسلام والقرآن، فقال لهما: كيف تصنعون إذا أنتم أسلمتم، ودخلتم في هذا الدين؟ فقال: تغتسل وتتطهر، وتطهّر ثوبك، ثم تشهد شهادة الحق، ثم تصلّي. فقام سعد من حينه، فاغتسل وطهّر ثوبه، ثم شهد شهادة الحق وصلى. ثم أخذ حربته فأقبل عائداً إلى نادي قومه، ومعهم أسيد بن حضير، فلما رآه القوم مقبلاً، قالوا: نحلف بالله لقد رجع سعد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم. فلما وقف عليهم قال: يا بني عبد الأشهل! كيف تعلمون من أمري فيكم؟ قالوا: سيدنا وأفضلنا رأياً، وأيمننا وأبركنا نقيبة وأمراً. قال: فإن كلام رجالكم ونسائكم علي حرام، حتى تؤمنوا بالله ورسوله. قال: فوالله ما أمسى في قبيلة بني الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلماً ومسلمة، فأسلموا كلهم، ولم يتأخر منهم إلا الأصبحي، وهو عمرو بن ثابت. فإنه أسلم يوم أحد، واستشهد في يوم واحد، وكان إسلام بني عبد الأشهل بعد العقبة الأولى وقبل العقبة الثانية.

ثمّ رجع مصعب إلى دار أسعد بن زرارة، فأقام عنده يدعو الناس إلى الإسلام حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلا فيها رجال ونساء مسلمون، إلاّ ما كان من سكان عوالي المدينة من ناحية نجد، وهم جماعة من الأوس بن حارثة فإنهم لم يسلموا. والسبب في ذلك أنه كان فيهم أبو قيس وهو صيفي بن

الأسلت، وكان شاعراً لهم يسمعون منه ويطيعونه، وكان قوالاً بالحق، معظماً، ترهّب في الجاهلية، ولبس المسوح، وكان يغتسل من الجنابة، واتخذ بيتاً له مسجداً، وقال: أعبد إله إبراهيم، لا يدخل فيه حائض ولا جنب، فاتبعوه، ولم يزالوا على ذلك، حتى هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة، فأراد الإسلام، فلقيه عبد الله بن أبي بن سلول، فكلمه بما أغضبه ونفّره عن الإسلام، وقال أبو قيس: لا أتبعه إلا آخر الناس، ثم إن مصعب بن عمير رجع إلى مكة مع من خرج من المسلمين من الأنصار إلى الموسم مع حجاج قومهم من المشركين حتى قدموا مكة، وأخبروا النبي بمن أسلم، فسر بذلك.

استقبال البراء بن معرور مكة في صلاته

وعن كعب بن مالك، قال: خرجنا في حجاج قومنا من المشركين ومعنا البراء بن معرور سيدنا وكبيرنا، فلما خرجنا من المدينة. قال البراء لنا: قد رأيت رأياً ما أدري أتوافقونني عليه، أم لا؟ قلنا: وما ذلك؟ قال: رأيت أن لا أدع هذه البنيّة، «الكعبة» مني بظهر وأن أصلي إليها، قال: قلنا والله ما بلغنا أن النبي ﷺ يصلّي إلا إلى الشام، ، يعنون بذلك «بيت المقدس» وما نريد أن نخالفه، قال: إني أصلي إليها. فقلنا له: لكننا لا نفعل، فكنا إذا حضرت الصلاة، صلينا إلى الشام، واستدبرنا الكعبة، وصلى إلى الكعبة مستدبراً الشام، حتى قدمنا مكة وقد عبنا عليه ذلك، وأبى إلاّ الإقامة على ما هو عليه، ولما وصلنا إلى مكة قال: يا بن أخي انطلق بنا إلى رسول الله ﷺ حتى أسأله عما صنعته في سفري هذا، فإنه والله لقد وقع في نفسي منه شيء لما رأيت من خلافكم إياي فيه. وخرجنا نسأل عن رسول الله ﷺ وكنا لا نعرفه لأنا لم نره قبل ذلك، فلقينا رجلاً من أهل مكة فسألناه عنه. فقال: أتعرفانه؟ قلنا: لا. قال: فهل تعرفان العباس بن عبد المطّلب عمه؟ وكنا نعرف العباس، كان لا يزال يقدم علينا تاجراً. قال: فإذا دخلتما المسجد فإذا هو الرجل الجالس مع العباس، فدخلنا المسجد، فإذا العباس جالس، ورسول الله ﷺ معه، فسلمنا حين جلسنا إليه، فقال رسول الله ﷺ: هل تعرف هذين الرجلين يا أبا الفضل؟ قال: نعم، هذا البراء بن معرور سيد

قومه. وهذا كعب بن مالك. قال كعب: فوالله ما أنسى قول رسول الله ﷺ: الشاعر؟ قال: نعم. قال له البراء بن معرور: يا رسول الله! إني خرجت في سفري هذا، وقد هداني الله بالإسلام فرأيت ألا أجعل هذه البنيّة مني بظهر. فصليت إليها، وخالفني أصحابي في ذلك. حتى وقع في نفسي منه شيء، فماذا ترى؟ قال: قد كنت على قبلة لو صبرت عليها، فرجع البراء إلى استقبال بيت المقدس، ولم يأمره بإعادة ما صلاّه.

قال كعب: ثم خرجنا إلى الحج وواعدنا رسول الله ﷺ العقبة، أي: يوافوه من الشعب الأيمن إذا انحدروا من منى أسفل العقبة، حيث مسجد البيعة وأمرهم لا ينبّهوا نائماً، ولا ينتظروا غائباً، وذلك في ليلة اليوم الذي هو يوم النفر الأول. قال: فلما فرغنا من الحج، وكانت الليلة التي واعدنا رسول الله ﷺ لها، وكنا نكتم من معنا من قومنا من المشركين أمرنا، وكان من جملة من معنا من المشركين أبو جابر عبيد الله بن عمرو بن حرام، سيّد من ساداتنا، فكلمناه، وقلنا: يا جابر إنك سيّد من ساداتنا، وشريف من أشرافنا، نرغب بك عمّا أنت فيه، ثم دعوناه إلى الإسلام، فأسلم، وأخبرناه بميعاد رسول الله ﷺ فشهد معنا العقبة. فمكثنا تلك الليلة مع قومنا في رحالنا حتى إذا مضى ثلث الليل، خرجنا من رحالنا لميعاد رسول الله ﷺ أي: بعد هدأة، يتسلل الرجل والرجلان تسلل القطا مستخفين، حتى إذا بالشعب عند العقبة، ونحن ثلاث وسبعون رجلاً، وامرأتان «نسيبة» أم عمار من بني النجار. وكانت تشهد الحرب مع رسول الله ﷺ هي وزوجها وابناها حبيب وعبد الله رضي الله عنهم «اكتنفه مسيلمة الكذاب في حربه، وصار يعذبه ويقول: أتشهد أن محمداً رسول الله، فيقول: نعم. ثم يقول، وتشهد أني رسول الله، فيقول: لا. فيقطع عضواً من أعضائه، وكذا حتى فنيت أعضاؤه ومات» و«أم منيع» وكانوا خمساً وسبعين نفساً وفي رواية ابن مسعود (٧٣) منهم أحد عشر رجلاً من الأوس، قال: فما زلنا ننتظر حتى جاءنا رسول الله ﷺ معه عمه العباس بن عبد المطلب، وهو يومئذ على دين قومه، إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ويتوثق له.

خطاب العباس عم الرسول على وفدي الأوس والخزرج

وكان معهما علي وأبو بكر، فأوقفا علياً على فم الشعب عيناً لهما، وأوقفا أبا بكر على ممر الطريق الآخر عيناً، فلما جلسوا كان العباس أول من تكلم، فقال: يا معشر الخزرج على معنى التغليب، وهو يخاطب الحيين:

إنّ محمّداً منا حيث قد علمتم، وقد منعناه من قومنا ممّن هم على مثل رأينا، فهو في عز من قومه، ومنعة في بلده، وقد أبى إلا الانحياز إليكم، واللحوق بكم، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه، ومانعوه ممن خالفه، فأنتم وما تحملتم من ذلك. وإن كنتم ترون أنكم مسلموه، وخاذلوه بعد الخروج به إليكم، فمن الآن فدعوه، فإنه في عزّ ومنعة من قومه وبلده.

المداولة في شروط البيعة لرسول الله مع رؤساء الأوس والخزرج

فقال البراء بن معرور: إنا والله لو كان في أنفسنا غير ما ننطق به لقلناه، ولكنا نريد الوفاء والصدق، وبذل مهج أنفسنا دون رسول الله ﷺ. فقال العباس: أبى محمداً، الناس كلهم غيركم. فإن كنتم أهل قوة وجلد وبصر بالحرب واستقلال بعداوة العرب قاطبة، ترميكم عن قوس واحدة، فروا رأيكم وائتمروا بينكم، ولا تفترقوا إلا عن ملأ منكم وإجماع، فإن أحسن الحديث أصدقه.

ولمّا سكت العباس قالوا: لقد سمعنا مقالتك، فتكلم يا رسول الله! فخذ لنفسك ولربك ما أحببت. ثم تكلم رسول الله ﷺ فتلا القرآن، ودعا إلى الله عز وجل، ورغب في الإسلام ثم قال: أشترط لربي عز وجل: أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، ولنفسي أن تبايعوني على السمع والطاعة في النشاط والكسل، والنفقة في العسر واليسر، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن تقولوا في الله، لا تخافوا في الله لومة لائم، وعلى أن تنصروني

فتمنعوني إذا قدمت عليكم، مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم، ولكم الجنة.

فأخذ البراء بن معرور بيده ﷺ ثم قال: نعم والذي بعثك بالحق لنمنعك مما نمنع به أزرنا «يكنون بالإزار عن النساء» وأنفسنا، فنحن والله أهل الحرب، وأهل الحلقة «السلاح» ورثناها كابراً عن كابر. وبينا البراء يكلّم رسول الله، قال أبو الهيثم بن التيهان نقبله على مصيبة المال وقتل الأشراف؟ قال العباس: اخفوا جرسكم يريد أصواتكم فإن علينا عيوناً، ثم استمرّ أبو الهيثم فقال: يا رسول الله إن بيننا وبين الرجال «يعني: اليهود» حبالاً «عهوداً» وإنا قاطعوها، فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك، ثمّ أظهرك الله، أن ترجع إلى قومك وتدعنا، فتبسم رسول الله ثم قال: بل الدم الدم، والهدم الهدم. «أي: دمي دمكم، تطلبون بدمي وأطلب بدمكم» والمعنى: إذا أهدرتم الدم أهدرته، وذمتي ذمتكم، ورحلتي مع رحلتكم، أنا منكم وأنتم مني، أحارب من حاربتم، وأسالم من سالمتم.

عند ذلك، قال العباس: عليكم بما ذكرتم، ذمة الله مع ذمتكم، وعهد الله مع عهدكم في هذا الشهر الحرام، والبلد الحرام، يد الله فوق أيديكم، لتجدّن في نصرته، ولتشدّن من أزره. قالوا جميعاً: نعم. قال العباس: اللهم إنك سامع شاهد، وإن ابن أخي قد استرعاهم ذمّته واستحفظهم نفسه، اللهم كن لابن أخي عليهم شهيداً، ثم قال رسول الله ﷺ: أخرجوا إلي منكم اثني عشر نقيباً يكونون على قومهم بما فيهم، فأخرجوا تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس، وهم:

سعد بن عبادة، وسعد بن زرارة، وسعد بن الربيع، وسعد بن أبي خيثمة، والمنذر بن عمرو، وعبد الله بن رواحة، والبراء بن معرور، وأبو الهيثم بن التيهان، وأسيد بن حضير، وعبد الله بن عمرو بن حرام، وعبادة بن الصامت، ورافع بن مالك.

كل واحد على قبيلة، فقال لهم رسول الله ﷺ: أنتم كفلاء على غيركم، ككفالة الحواريين لعيسى ابن مريم، وأنا كفيل على قومي «المهاجرين».

ولما تكلم الأنصار مع بعضهم في الموضوع، تكلم العباس بن عبادة بن نخلة، فقال: يا معشر الخزرج! هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل؟ إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس. فقال أسعد بن زرارة «وهو أصغرهم سناً» فشد العقد بيد النبي ﷺ وقال: رويداً يا أهل يثرب! إنا لن نضرب إليه أكباد الإبل، إلا ونحن نعلم أنه رسول الله ﷺ وإن إخراجه[1] . . العرب كافة، فخذوه، وأجركم على الله تعالى. وما أنتم تخافون من أنفسكم خيفة فذروه، فهو عذركم عند الله عزّ وجلّ.

ثمّ توافقوا على ذلك، وقالوا: يا رسول الله، ما لنا بذلك إن نحن قضينا؟ قال: رضوان الله والجنة. قالوا: رضينا، ابسط يدك، فبسط يده فبايعوه، وأول من بايع ﷺ البراء بن معرور، ثم بايعه الباقون. «وبايعته المرأتان من غير مصافحة».

نصوص البيعة

قال أبو الهيثم: أبايعك يا رسول الله على ما بايع عليه الاثنا عشر نقيباً من بني إسرائيل، موسى بن عمران عليه السلام.

وقال عبد الله بن رواحة: أبايعك يا رسول الله على ما بايع عليه الاثنا عشر من الحواريين عيسى بن مريم عليه السلام.

وقال أسعد بن زرارة: أبايع الله عز وجل يا رسول الله! فأبايعك على أن أتمّ عهدي بوفائي، وأصدق قولي وفعلي في نصرك.

وقال النعمان بن حارثة: أبايع الله عز وجل يا رسول الله! وأبايعك على

---

(١) في أصل المخطوط سطر متكامل في آخر الصفحة لم أتبينه ولم أجد له تكملة في سيرة ابن هشام). ولكنه في طبعة (إ) كما يلي: «وإن إخراجه اليوم، مفارقة لجميع العرب، وقتل خياركم، وأن تعطكم السيوف. فأما أنتم قوم تصبرون عليها إذا سكتم، فقتل خياركم، ومفارقة العرب كافة» وفي (تعطكم السيوف) خطأ. والصحيح: (تعضّكم) وتكرر الخطأ في طبعة (غ).

الإقدام في أمر الله عز وجلّ، لا أرأف فيه القريب والبعيد.

قال عبادة بن الصامت: أبايعك يا رسول الله على ألا تأخذني في الله لومة لائم. وقال سعد بن الربيع: أبايع الله، وأبايعك يا رسول الله على ألا أعصي لكما أمراً، ولا أكذبكما حديثاً.

وكانت بيعة الباقين، على حرب الأسود والأحمر: العرب والعجم. فلما انتهت هذه البيعة، وهي بيعة العقبة الثانية، قال رسول الله للمبايعين: انفضوا إلى رحالكم، فانفضوا إليها.

إنذار المشركين بعقد البيعة

وبعد ذلك سمع صوت قيس بن العجاج يصيح، ويقول من رأس الجبل: يا معشر قريش! هذه بنو الأوس، والخزرج، تحالف على قتالكم، ففزع الأنصار عند ذلك، فقال لهم رسول الله: لا يروعكم هذا الصوت، وليس يسمعه أحد مما تخافون.

ثم نما الحديث، وسمع المشركون من قريش بذلك، فجاء أجلّتهم وأشرافهم، حتى دخلوا شعب الأنصار فقالوا: يا معشر الأوس والخزرج! بلغنا أنكم جئتم إلى صاحبنا هذا لتخرجوه من بين أظهرنا. وتبايعوه على حربنا. والله ما من حي أيقظ إلينا، أن تشب الحرب بيننا وبينه منكم، فصار مشركو الأوس والخزرج، يحلفون لهم ما كان من هذا شيء، وما علمناه، حتى إن أبي بن سلول جعل يقول: هذا باطل، وما كان هذا. وما كان قومي ليفتئتوا علي بمثل هذا، لو كنت بيثرب ما صنع هذا قومي حتى يؤامروني. وصدّقوا ما قاله.

القبض على سعد بن عبادة سيد الخزرج وتخليصه

ونفر الناس من منى، وبحثت قريش عن خبر الأنصار فوجدوه حقاً، فلما تحققوا الخبر اقتفوا آثارهم، فلم يدركوا إلا سعد بن عبادة والمنذر بن عمرو، فأما سعد فأمسك وعذب في الله، وأما المنذر فأفلت ثم أنقذ الله سعداً من أيدي المشركين، وقد نقل عنه في ذلك قال:

لما ظفر بي المشركون، ربطوا يدي في عنقي، فلا زالوا يلطمونني على وجهي، ويجذبونني بجمّة[1] حتى أدخلوني مكة، فأومأ إلى رجل، وهو أبو البختري بن هشام، وقال: ويحك، ما بينك وبين أحد من قريش جوار ولا عهد؟ قال: بلى ، قد كنت لجبير بن مطعم أجيره، تجارة. وأمنعه ممّن أراد ظلمه ببلادي، وللحارث بن حرب بن أمية، فقال: ويحك فاهتف باسم الرجلين، ففعلت، فخرج أبو البختري إليهما، فوجدهما في المسجد، فقال لهما: إن رجلاً من الخزرج يضرب بالأبطح يهتف باسمكما، فقالا: من هو؟ قال: إنه يقول سعد بن عبادة فجاءا فخلصاني من أيديهم.

فلما قدم الأنصار المدينة، أظهروا الإسلام إظهار كلياً، وتجاهروا به، ولما علمت قريش بذلك، وتحققت أن النبي استند إلى قوم أهل حرب وتحمّل، ضيّقوا على المسلمين بمكة، ونالوا منهم ما لم يكونوا ينالونه من قبل، وشددوا عليهم، وصار المسلمون بين مفتون في دينه وبين معذب في أيدي المشركين، وبين مشرّد في البلاد، فشكوا أمرهم إلى الرسول ﷺ واستأذنوه في الهجرة، فمكث أياماً لا يأذن لهم.

المؤاخاة بين المهاجرين قبل الهجرة

وأمر بالمؤاخاة بينهم على الحق، والمؤاساة، فإنه آخى بين أبي بكر وعمر، وآخى بين حمزة وزيد بن حارثة، وبين عثمان وعبد الرحمن بن عوف، وبين الزبير وعبد الله بن مسعود، وبين عبادة بن حارثة وبلال، وبين مصعب بن عمير وسعد بن أبي وقاص، وبين أبي عبيدة بن[2] الجراح، وسالم مولى أبي حذيفة، وعبيد بن زيد وطلحة بن عبد الله، وبين علي ونفسه. آخى ﷺ بين الأعلى والأدنى ليرتفق الأدنى بالأعلى، وليستعين الأعلى بالأدنى.

---

(١) أضاف الشيخ في طبعة (إ): وكان له شعر كثيف.

(٢) تآكل في أصل المخطوط. استكملته من طبعة (إ). المحقق.

الإذن بالهجرة إلـى المدينـة

لما استأذن المسلمون رسول الله في الهجرة، مكث أياماً لا يأذن لهم، ثم قال لهم يوماً: أريت دار هجرتكم، سبخة ذات نخل، بين لابتين، وأمسك. ثم خرج إليهم مسروراً، فقال: قد أخبرت بدار هجرتكم، وهي (يثرب) فأذن لهم، وقال: من أراد أن يخرج، فليخرج إليها، فخرجوا إليها أرسالاً «متتابعين».

وكان أول من هاجر منهم إلى المدينة: أبو سلمة، عبد الله بن عبد الأسد المخزومي، ولما عزم على الرحيل، رحل بعيره وحمل عليه أم سلمة، وابنها سلمة في حجرها، وخرج يقود البعير، فرآه رجال من قوم أم سلمة، فقاموا إليه، ثم نزعوا خطام البعير منه، فجاء رجال من قوم أبي سلمة، وقالوا: إن ابننا معها، إذا نزعتموها من صاحبنا، ننزع ولدنا منها، ثم تجاذبوه حتى خلعوا يده، وأخذه قوم أبيه، ففرقوا بينها وبين زوجها وولدها، فكانت تخرج كل غداة بالأبطح، فتبكي حتى المساء مدّة سنة. فمرّ بها رجل من بني عمّها، فرأى ما بها فرحمها، وقال لقومها: أما ترحمون هذه المسكينة؟ فرقتم بينها وبين ولدها! فقالوا لها: الحقي بزوجك. فلما بلغ ذلك قوم أبي سلمة، ردوا عليها ولدها، فارتحلت بعيراً، وجعلت ولدها في حجرها، وخرجت تريد المدينة، وما معها أحد من خلق الله، حتى إذا كانت بالنعيم لقيها عثمان بن طلحة صاحب مفتاح الكعبة وكان مشركاً. فتبعها إلى المدينة: حتى إذا وافى على قباء، قال إن هذا زوجك هنا، ثم انصرف. وهي أول ضعينة دخلت من المهاجرين المدينة. ثم قدمها عامر بن ربيعة، ومعه امرأته ليلى بنت أبي حثمة، ثم جاء عمار، وبلال، وسعد ثم قدم أصحاب رسول الله أرسالاً، فنزلوا على الأنصار في دورهم، فآووهم وواسوهم، ثم قدم عمر بن الخطاب، وعباس بن أبي ربيعة في عشرين راكباً. وكان هشام بن العاص وعد عمر بن الخطاب أن يهاجر معه، وقال: تجدني أو أجدك عند محل كذا، وتفطن لهشام قومه، فحبسوه عن الهجرة.

لا يرغم الله إلا هــذه المعاطس

وعن علي بن أبي طالب قال: ما علمت أحداً من المهاجرين هاجر إلا مختفياً، غير عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فإنه لما همّ بالهجرة، تقلد سيفه، وتنكب قوسه، وانتضى في يديه أسهماً واختصر غمزته «وهي الحربة الصغيرة» علقها عند خاصرته، ومضى قبل الكعبة، والملأ من قريش بفنائها، فطاف بالبيت سبعاً، ثم أتى المقام فصلى ركعتين، ثم وقف على الحلق واحدة واحدة، فقال: شاهت الوجوه، لا يرغم الله إلا هذه المعاطس. من أراد أن تثكله أمه، أو يؤتّم ولده، أو ترمّل زوجته، فليلقني وراء هذا الوادي. قال علي: فما تبعه أحد. ثم مضى لوجهه.

ردّ المهـاجرين وتعذيب قريش لهـم

وممن أسلم وهاجر إلى المدينة، ورسول الله لم يزل بمكة: عياش بن أبي ربيعة، أخو أبي جهل، والحارث ابني هاشم لأمهما، وابن عمهما، وهو أصغر ولد أمها، فتتبعه أخواه المذكوران إلى المدينة، وأخبراه أن أمه قد نذرت ألا تغسل رأسها، ولا يمسّه طيب ولا مشط، ولا تستظلّ من شمس، ولا تأكل ولا تشرب، ولا تدخل مسكناً حتى يرجع إليها وقالا له: وأنت أحبّ ولد أمك إليها، وأنت في دين منه برّ الوالدين، فارجع إلى مكة، فاعبد ربّك فيها كما تعبده بالمدينة. فرقت نفسه، وصدّقهما، وأخذ عليهما المواثيق، ألا يغشياه بسوء، وقد نصحه عمر فلم ينتصح، فإنه قال له: إنهما لا يريدان إلا فتنتك عن دينك، فاحذرهما. والله لو آذى أمك القمّل امتشطت، ولو اشتد عليها حرّ مكة لاستظلت، فقال عياش: أبرّ أمّي، ولي مال هناك آخذه، فقال عمر: خذ نصف مالي، ولا تذهب معهما، فأبى إلا ذلك، فقال له عمر: فحيث صمّمت، فخذ ناقتي هذه فإنها نجيبة ذلول، فالزم ظهرها، فإن رابك منهما ريب فانج عليها. فأبى النجاء، وأخذ الناقة، وخرج راجعاً معهما إلى مكة، فلما كانا ببعض الطريق، قال له أبو جهل: يا أخي! لقد استخلصت بعيري هذا، أفلا تعقبني على ناقتك هذه؟ قال: بلى. فأناخ وأناخ أخواه، فلما استووا بالأرض ، عدوا عليه، وأوثقاه كتافاً،

ودخلا به مكة نهاراً موثقاً، وقالا وهما يخاطبان الناس: يا أهل مكة! هكذا فافعلوا بسفهائكم كما فعلنا بسفيهنا. وحبسوه مع هشام بن العاص، وقد منع وحبس عن الهجرة. وحلفت أمه لا يحل عنه، حتى يرجع عن دينه، فبقي محبوساً حتى فتحت مكة، وقيل: فتن وهو ضعيف، بدليل أن رسول الله لما كان بالمدينة مكث أربعين صباحاً يقنت في الركعة الأخيرة، وكان يقول في قنوته:

«اللهم أنج الوليد بن الوليد، وعياش بن أبي ربيعة، وهشام بن العاص، والمستضعفين من المؤمنين بمكة، الذين لا يستطيعون حيلة، ولا يهتدون سبيلاً».

أمّا الوليد فإنه أسر ببدر، ثم افتداه أخواه خالد وهشام، أبناء الوليد بن المغيرة، وذهبا به إلى مكة فأسلم هناك، وأراد الهجرة فحبساه، وقيل له: هلا أسلمت فتفدى؟ قال: كرهت أن يظن أني جزعت. ثم نجا، وصار إلى المدينة، ثم عاد إليها وخلّص عياشاً وهشاماً، وجاء بهما إلى المدينة، فسرّ بذلك رسول الله ﷺ وشكر صنيعه.

وممّن هاجر قبل النبي، سالم مولى أبي حذيفة، وكان يؤم المهاجرين في المدينة، وفيهم عمر بن الخطاب، لأنه كان أكثر الصحابة أخذاً للقرآن، فكان عمر يثني عليه كثيراً، حتى قال عند الوصية: لو كان سالم مولى أبي حذيفة حياً، ما جعلتها شورى، وقد قتل يوم اليمامة وأرسل عمر لمعتقته بميراثه، فأبت أن تقبله، فجعله في بيت المال.

ومن المهاجرين: صهيب الرومي[1]، فإنه تواعد مع رسول الله ﷺ أن

---

(١) ذكر ابن كثير في تاريخه: أن الروم أغارت على بلاد صهيب على (دجلة) وقيل على «الفرات» فأسرته وهو صغير، ثم اشتراه منهم بنو كلب، فحملوه إلى مكة، فابتاعه عبد الله بن جدعان، فأعتقه، وأقام بمكة حيناً، وقد أسلم يوم أسلم عمار بن ياسر، وكان في لسانه عجمة، ودعابة ظريفة، رآه النبي ﷺ يأكل قثاء ورطباً، وهو أرمد في إحدى عينيه. فقال له: تأكل رطباً وأنت أرمد؟ فقال: إنما أكل من ناحية عيني الصحيحة! فضحك النبي من قوله. (المؤلف).

يكون معه في الهجرة، فلمّا أراد الخروج، أرسل إليه أبا بكر مرّتين أو ثلاثاً، فوجده يصلّي، فكره أن يقطع عليه صلاته، ولما همّ أن يلحق به صدّه فتيان من قريش، وقالوا له: جئتنا فقيراً، حقيراً، صعلوكاً، فكثر مالك عندنا، وتريد أن تخرج بمالك ونفسك! لا يكون ذلك أبداً.

وذكر أبو نعيم في (الحلبية)، رواية عن سعيد بن المسيّب قال: أقبل صهيب مهاجراً نحو النبي، وقد أخذ سيفه وكنانته وقوسه، فاتبعه نفر من قريش، فنزل عن راحلته، وانتثل ما في كنانته، ثم قال: يا معشر قريش، قد علمتم أني من أرماكم، وأيم الله لا تصلون إلى كنانتي حتى أرمي بكل سهم في كنانتي، ثم أضرب بسيفي ما بقي في يدي منه شيء، ثم افعلوا ما شئتم، وإن شئتم دللتكم على مالي بمكة، وخليتم سبيلي، قالوا: نعم. فقال: احفروا تحت داري فإن تحتها الأواقي، فتركوه، وفي رواية: أن المشركين لما لحقوا به أخذوه وعذّبوه، فقال لهم: إني شيخ كبير، لا يضركم أمنكم كنت، أم من غيركم، فهل لكم أن تأخذوا مالي، وتذروني وديني، وتتركوا لي راحلة ونفقة؟! ففعلوا.

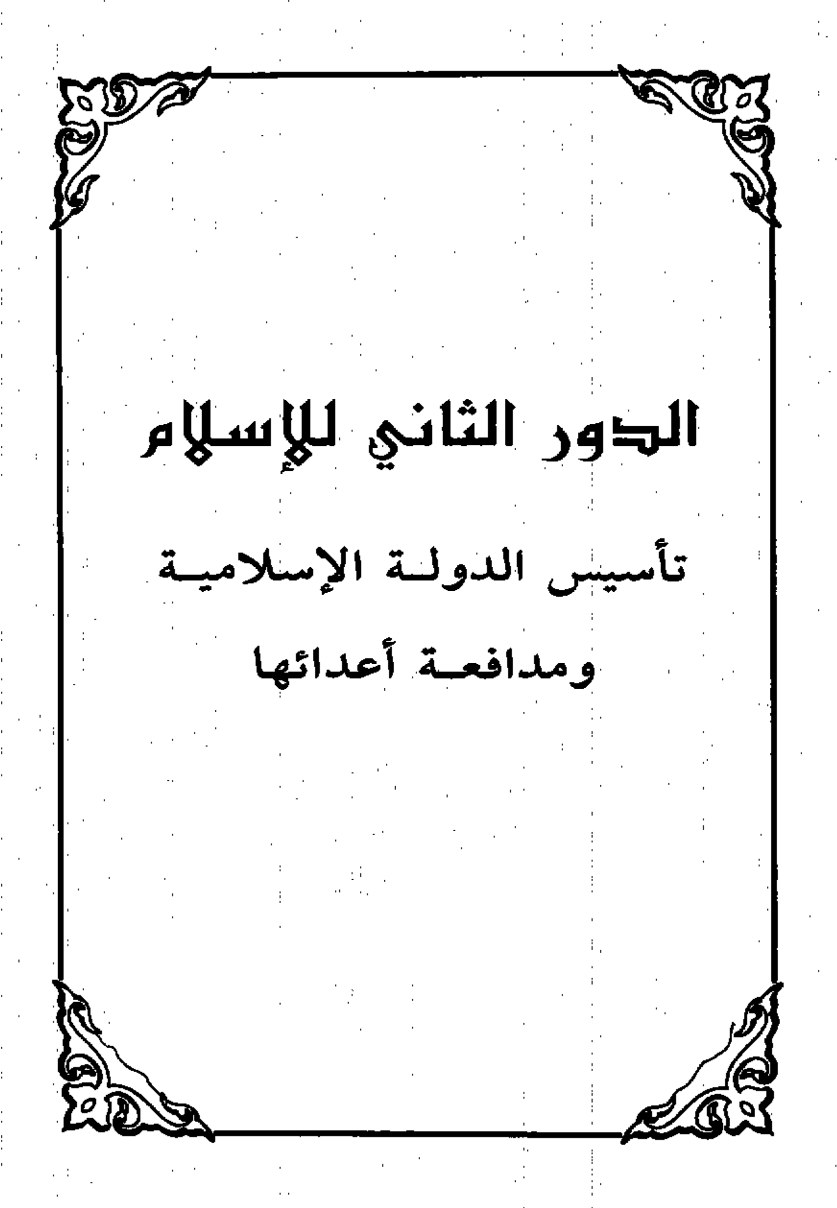
وفي حقّه نزل قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾[1].

ولما قدم على رسول الله وهو بقباء لم يتحوّل، فلما رآه قال: يا أبا يحيى! ربح البيع، ثلاثاً، وفي رواية: فتلقاه أبو بكر وعمر ورجال، فقال له أبو بكر: ربح بيعك أبا يحيى! فقال: وبيعك.

* * *

---

(١) سورة (البقرة) الآية: (٢٠٧).



الدور الثاني للإسلام

تأسيس الدولة الإسلامية

ومدافعة أعدائها

الهجرة النبوية

لما أذن رسول الله أصحابه بالهجرة، هاجر أكثرهم، ولم يتخلف معه إلا علي بن أبي طالب وأبو بكر، وكان أبو بكر كثيراً ما يستأذن رسول الله في الهجرة، فيقول له: لا تعجل، لعل الله أن يجعل لك صاحباً، فيطمع أبو بكر أن يكون هو، فحبس أبو بكر نفسه، ليصحب رسول الله ﷺ وعلف راحلتين، عنده، ورفا الخيطان، فكان مدة علفهما شهران ونصف، وقد اشتراهما بثمانمئة درهم.

فما رأت قريش أنه صار لرسول الله أنصار وأصحاب من غيرهم، ورأوا خروج من أسلم منهم إليهم، وأصابوا منعة، خافوا أن يخرج رسول الله ﷺ ويجمع على حربهم، فاجتمعوا في (دار الندوة) يتشاورون فيما يصنعون في أمره، وقد سموا ذلك اليوم (يوم الرحمة) لأنه اجتمع فيه أشراف قريش: بنو عبد شمس، وبنو نوفل، وبنو عبد الدار، وبنو أسد، وبنو مخزوم، وبنو سهم، وبنو جمح، وغيرهم مما لا يعد من قريش، ولم يتخلف من أهل الرأي والحجا أحد.

لو حبستموه ليخرجنّ أمره من وراء الباب الذي أغلقتم

وعند المشورة، قال بعضهم لبعض: إنّ هذا الرجل «أي محمد» قد كان من أمره ما قد رأيتم، وإنا والله لا نأمنه على الوثوب علينا، ممن قد اتبعه من غيرنا. أجمعوا فيه رأياً.

فقال أبو البختري بن هشام: احبسوه في الحديد وأغلقوا عليه باباً، ثم تربصوا به ما أصاب أشباهه من الشعراء، حتى يصيبه ما أصابهم من هذا الموت. فقال قائل: ما هذا لكم برأي! والله لو حبستموه كما تقولون، ليخرجنّ أمره من وراء الباب الذي أغلقتم دونه إلى أصحابه، فلا تشكوا أن يثبوا عليكم، فينتزعوه من أيديكم، ثم يكاثرونكم حتى يغلبوكم على أمركم.

ما هذا برأي فانظروا رأياً غيره. فقال الأسود بن ربيعة بن عمير: نخرجه من بين أظهرنا، فننفيه من بلادنا، فإذا خرج عنّا، فوالله ما نبالي أين ذهب. فقال صاحب الرأي المتقدم: والله ما هذا برأي! ألم تروا حديثه، وحلاوة منطقه، وغلبته على قلوب الرجال؟ والله لو فعلتم ذلك، ما أمنتم أن يحل على حي من العرب يتغلب بذلك عليهم من قوله وحديثه، حتى يبايعوه، ثم يسير به إليكم، حتى يطأكم بهم، فيأخذوا أمركم من أيديكم، ثم يفعل بكم ما أراد، دبّروا فيه رأياً غير هذا.

ينبغي أن يتفرّق دمه في القبائل لا يطالب بثأره أحد

فقال أبو جهل بن هشام: والله إن لي فيه لرأياً، ما أراكم وقعتم عليه بعد، قالوا: وما هو يا أبا الحكم؟ قال: الرأي أن تأخذوا من كل قبيلة شاباً، جلداً، قوياً، حسيباً في قومه، نسيباً وسطاً، ثم يُعطى كل فتى منهم سيفاً صارماً، ثم يغدون إليه، فيضربونه ضربة رجل واحد فيقتلونه، فنستريح منه، فإنهم إذا فعلوا ذلك، تفرق دمه في القبائل جميعاً، فلم تقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعاً، فيرضون منّا بالعقل «الدية» فعقلنا لهم. فقال المعارض المتقدم: القول ما قال هذا الرجل، وهو الرأي ولا رأي غيره، فتفرّق القوم على ذلك، ثم نقل الخبر للنبي ﷺ فأجمع ألا يبيت هذه الليلة في فراشه، ونزل عليه في ذلك قوله تعالى:

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾(١).

فلمّا مضى الثلث الأول من الليل، اجتمعوا على باب رسول الله ﷺ يرصدونه حتى ينام، فيثبوا عليه، وكانوا مئة، وأحدقوا ببابه ﷺ وعليهم السلاح، يرصدون طلوع الفجر ليقتلوه ظاهراً، فيذهب دمه لمشاهدة بني هاشم قاتله من جميع القبائل فلا يتم لهم أخذ ثأره، فلما علم رسول الله مكانهم، وما يكون منهم، قال لعلي بن أبي طالب: نم على فراشي، واتشح

---

(١) سورة الأنفال الآية: (٣٠).

بردائي هذا الحضرمي. وقد كان شهد فيه العيدين، وطوله أربعة أذرع وعرضه ذراعان وشبر. أما لونه فبيّن في قول جابر: كان رسول الله ﷺ يلبس رداء أحمر في العيدين والجمعة.

وبيّت ﷺ الخروج، ولم يعلم أحد بخروجه، غير علي وأبي بكر رضي الله عنهما، وكان في جملة الذين يبيتونه: الحكم بن أبي العاص، وعقبة بن أبي معيط، والنضر بن الحارث، وأمية بن خلف، وزمعة بن الأسود، وأبو لهب، وأبو جهل، فكان هذا يحدثهم وهم على باب رسول الله ﷺ فيقول: إن محمداً يزعم إن تابعتموه على أمره، كنتم ملوك العرب والعجم، ثم بعثتم بعد موتكم، فجعلت لكم جنان كجنان الأردن، وإن لم تفعلوا كان فيكم ذبح، ثم بعثتم بعد موتكم فجعلت لكم نار تحترقون فيها. وفي رواية أنه تركهم وتسور حائط المنزل، وذهب إلى منزل أبي بكر. وقد روت لنا ذلك مارية، خادمة النبي ﷺ، وتكنى أم الرباب قالت: إنها طأطأت لرسول الله ﷺ حتى صعد الحائط، ليلة فرّ من المشركين، فبقي في منزل أبي بكر إلى الليلة المقبلة، ثم خرج هو وأبو بكر إلى جبل ثور، أما المبيتون من قريش فجعلوا يطلعون، فيرون علياً نائماً على الفراش، مسجى ببرد رسول الله ﷺ فيقولون: هذا والله محمد نائماً، عليه برده، فلم يزالوا كذلك حتّى أصبحوا، فبادروا إليه، يحسبونه رسول الله ﷺ فلما رأوا علياً، سقط في أيديهم، فقالوا: أين صاحبك؟ قال: لا أدري، فأنزل الله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾[1].

وروت لنا عائشة عن: كيفية خروج النبي إلى بيت أبي بكر رواية مخالفة للأولى قالت: بينما نحن جلوس يوماً في بيت أبي بكر الصديق في نحو الظهيرة «وقت الزوال» قالت أسماء: يا أبت هذا رسول الله ﷺ متقنعاً في ساعة لم يكن يأتينا فيها، فقال: فداك أبي وأمي! والله ما جاء به في هذه الساعة إلا أمر. فجاء رسول الله فاستأذن فأذن له فدخل، فتنحى له أبو بكر

---

(١) سورة (الطور) الآية: (٣٠).

عن سريره، وجلس عليه رسول الله، فقال النبي لأبي بكر: أخرج من عندك، قال أبو بكر: إنما هي أهلك. فقال له رسول الله ﷺ: قد أذن لي في الخروج، فبكى أبو بكر سروراً، وقالت عائشة: فرأيت أبا بكر يبكي، وما كنت أحسب أن أحداً يبكي من الفرح حتى رأيت أبا بكر يبكي من ذلك. فقال أبو بكر: فخذ بأبي أنت وأمي، يا رسول الله، إحدى راحلتي هاتين، فإني أعددتهما للخروج. قال رسول الله ﷺ: بل بالثمن، ولا بد أن يكون في عرض النبي للثمن سرّ، لم أقف عليه، وإلا فإن أبا بكر أنفق جزءاً كبيراً من ماله على الرسول، فعن عائشة، قالت: أنفق أبو بكر على رسول الله أربعين ألف درهم، وفي رواية أخرى: ديناراً. وفي رواية عن النبي ﷺ: ما أحد أمن علي في صحبته، وذات يده من أبي بكر، وما نفعني مال ما نفعني مال أبي بكر. وفي رواية الترمذي، عن علي بن أبي طالب قال: قال رسول الله ﷺ: رحم الله أبا بكر، زوجني ابنته، وحملني إلى دار الهجرة، وصحبني في الغار، وأعتق بلالاً من ماله.

وهذه الناقة التي وهبها له أبو بكر هي (الفضول) قالت عائشة: ولما أراد الخروج جهزناهما من الجهاز ما يحتاج إليه في السفر، ووضعنا لهما سفرة وزاداً في حزامهما، وكان في السفرة شاة مطبوخة، فقطعت أسماء بنت أبي بكر قطعة من نطاقها، فربطت به على فم الجراب، وأبقت الأخرى نطاقاً لها «هذا هو السبب في تسميتها بذات النطاقين» وقد استأجر رسول الله وأبو بكر رجلاً من بني الديل، اسمه عبد الله بن أريقط ويقال: ابن أرقط أو أرقد، اسم أحد، ليدلهما على الطريق إلى المدينة، وكان على دين قريش، فدفعا إليه راحلتيهما، وواعداه على جبل ثور بعد ثلاث ليال. وعن ابن سعد: لما خرج رسول الله ﷺ من بيته إلى بيت أبي بكر، فكان فيه إلى الليل، ثم خرج هو وأبو بكر يمشي مرة أمام النبي، ومرة خلفه، ومرة عن يمينه، ومرة عن شماله، فسأله رسول الله ﷺ عن ذلك. فقال: أذكر الرصد فأكون أمامك، وأذكر الطلب فأكون خلفك، ومرة عن يمينك، ومرة عن يسارك، لا آمن عليك.

وفي (الدر المنثور) أن النبي مشى ليلته على أطراف أصابعه الشريفة لئلا

يظهر أثر رجله على الأرض، حتى حفيتا، فلما رآهما أبو بكر قد حفيتا حمله على كاهليه، وجعل يشتد به حتى أتى على فم الغار فأنزله، وقال: نظرت إلى قدمي النبي في الغار، وقد تفطّرتا دماً، من شدّة ما ناله من الجهد.

وقبل خروجه ﷺ، أمر علياً أن يتخلف بعده، حتى يؤدي عنه الودائع التي كانت عنده للناس، وقد ذكر أصحاب السير: أنه لم يكن بمكة أحد عنده شيء يخشى عليه إلا وضعه عنده ﷺ لما يعلمون من أمانته، وفي كتاب (الفصول) أنه أوصاه علناً بحفظ ذمّته، وأداء أمانته، وأمره أن يبتاع رواحل للفواطم، فاطمة ابنته، وفاطمة بنت الزبير بن عبد المطلب، وفاطمة بنت حمزة، وفاطمة بنت عتبة، ولمن هاجر معهنّ من بني هاشم، وضعفاء المؤمنين.

في الغار

ولما انتهيا إلى فم الغار، قال أبو بكر للنبي ﷺ: والذي بعثك بالحق! لا تدخل حتى أدخله قبلك، فإن كان فيه شيء نزل بي قبلك، فدخل رضي الله عنه، وجعل يلتمس بيده كلما رأى حجراً، قطع من ثوبه وسدّه، حتّى لم يبق من ثوبه شيء، وبقي حجر واحد، وكان فيه حيّة ولدغت أبا بكر، ولما دخل رسول الله الغار، وضع رأسه في حجر أبي بكر، ونام، ويقول رواة السيرة: بينما كان رسول الله كذلك لدغت الحية أبا بكر، فسقطت دموعه على رسول الله ﷺ من شدّة الألم. قال: ما لك يا أبا بكر؟ قال: لدغت فداك أبي وأمي. فرقاه فذهب ما كان يجده من الألم.

التفتيش عن رسول الله ﷺ

أمّا المشركون، فإنهم لما فقدوا رسول الله ﷺ شقّ عليهم ذلك، وخافوا العاقبة، وطلبوه بمكة، أعلاها وأسفلها، وبعثوا القافة يقفون أثره، فوجدوا الأثر ذاهباً إلى جبل أبي ثور، فتبعوه، وأقبل فتيان قريش من كل بطن بعصيهم وسيوفهم، ولما كانوا على أربعين ذراعاً من الغار، تقدم القائف، وقال: والله ما جاز مطلوبكم من الغار فتعجل بعضهم ينظر فيه، فلم ير

ـ على ما حققه رواة السيرة النبوية ـ إلا حمامتين وحشيتين، ورداء العنكبوت، فقال: ليس فيه أحد. وجاء من يقول: ادخلوا الغار، فقال له أمية بن خلف: وما أرابكم من الغار، إن عليه لعنكبوتاً، كان قبل ميلاد محمد، ثم جاء قبالة فم الغار، فبال، فقال أبو بكر: إنه يرانا. فقال رسول الله: لو كان يرانا ما فعل هذا. ثم قال أبو جهل: أما والله إني لأحسب محمد قريباً يرانا، ولكن بعض سحره، قد أخذ على أبصارنا. فانصرفوا. وبينما قريش يبحثون عن النبي، ولا يهتدون إليه، وهو بين أيديهم كان أبو بكر يبكي، ورسول الله يسلّيه، فيقول له: والله ما على نفسي أبكي، ولكن مخافة أن أرى فيك ما أكره، فيقول له رسول الله ﷺ باطمئنانه المعهود وثقته بربه: لا تحزن إنّ الله معنا.

وفي رواية عن أبي بكر قال: قلت للنبي، ونحن في الغار: لو أن أحداً منهم نظر إلى قدميه لأبصرنا. قال: ما ظنك باثنين، الله ثالثهما؟

عرض الجائزة لمن يدل على رسول الله أو يأتي به إلى قريش

ولما أيست قريش من العثور عليهما، أرسلوا لأهل السواحل، أن من أسر أو قتل أحدهما، كان له مئة ناقة، وقيل: إن أبا جهل، أمر منادياً أن ينادي في أعلى مكة وأسفلها، من جاء بمحمد، أو دل عليه، فله مئة بعير، فحفظه الله منهم، ومكث رسول الله وصاحبه بالغار ثلاث ليال يبيت عندهما عبد الله بن أبي بكر، وهو غلام، فينقل لهما ما يقال عنهما في مكة، يأتيهما حين يختلط الظلام، ويدلج من عندهما بفجر، فيصبح مع قريش كبائت في بيته، فلا يسمع أمراً يكادان به، إلا وعاه، ويخبرهما به، وكان عامر بن فهيرة مولى لأبي بكر، يروح عليهما .... غنم[1] «أي قطعة» من غنم أبي بكر، فكان يرعاها حيث تذهب ساعة من العشاء، ويغدو بها عليهما ثم يجلس، وإذا خرج عبد الله بن أبي بكر من عندهما، تبع عامر بن فهيرة أثره بالغنم

(١) صاغها الشيخ في طبعة (إ) بقوله: «بقطيع من غنم» وهي غير واضحة في المخطوطة.

حتى يعفو أثر قدميه، يفعل ذلك كل ليلة من تلك الليالي الثلاث بإرشاد من أبي بكر. وكانت أسماء بنت أبي بكر تأتيهما إذا أمنت بما يصلحهما من الطعام. وعن أسماء قالت: إن أبا بكر أرسل ابنه عبد الله فحمل ماله، وكان خمسة آلاف درهم، وكان حين أسلم أربعين ألف دينار، وفي رواية أنس: أنفقها كلها على النبي ﷺ قالت أسماء: دخل علينا جدي أبو قحافة وكان قد ذهب بصره حين سمع خبر سفره. فقال: والله إني لأراه قد فجعكم بماله مع نفسه، فقلت: كلا يا أبت! إنه ترك لنا خيراً كثيراً. فأخذت أحجاراً فوضعتها في كوة في البيت، كان أبو بكر يضع فيها ماله، ثم وضعت عليها ثوباً، وأخذت بيده، فقلت له: ضع يدك على هذا المال، فوضع يده عليه، فقال: لا بأس إن كان ترك لكم هذا، ففيه بلاغ لكم، ولما ذكرت هذه القصة، قالت: لا والله، ما ترك لنا شيئاً، ولكن أردت أن أسكن قلب الشيخ.

فلمّا كان بعد الثلاث، أمر رسول الله أسماء أن تأتي علياً، وتخبره بموضعهما، وتقول له أن يأتيهما بالدليل والرواحل، فجاء بهما إلى أسفل الجبل ليلاً، فلما سمع رسول الله رغاء الإبل خرج من الغار هو وأبو بكر وركبا، وانطلق معهما عامر بن فهيرة يخدمهما.

ولما بلغ حمزة بن جندب، وكان مريضاً خروجه ﷺ قال: لا عذر لي في مقامي بعده في مكة، فأمر أهله فخرجوا به، فلما وصل إلى التنعيم مات، ودفن هناك، ثم أنزل الله في حقه:

﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾(١).

في طريق المدينة

خرج النبي من مخبئه في غار ثور وركب، وركب معه أبو بكر، ومعهما عامر بن فهيرة وأخذ بهم الدليل على طريق الساحل، وأشار النبي إلى أبي بكر إذا سأله سائل أن يجيبه عنه، فكان إذا سأله أحد عنه، يقول أبو بكر: يهديني

---

(١) سورة (النساء) الآية: (١٠٠).

الطريق، ولما بلغ ﷺ الحجر، اشتاق إلى مكّة، فأنزل الله تعالى عليه مطمئناً له:

﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾[1] «إلى مكة».

وعن سراقة قال: بينما أنا جالس في مجلس من مجالس قومي بني مدلج في قديد قرب رابغ، أقبل رجل منهم فقال: يا سراقة! إني رأيت أسودة، أي أشخاصاً بالسواحل، أراه محمداً وأصحابه، قال سراقة: فعرفت أنهم هم، فقلت: إنهم ليسوا بهم، ولكنك رأيت فلاناً وفلاناً انطلقوا بأعيننا «بمعرفتنا» يطلبون ضالة لهم. فلبثت في المجلس ساعة، ثم قمت إلى منزلي، فأمرت جاريتي أن تخرج فرسي خفية إلى بطن الوادي، وتحبسها علي، وأحضرت رمحي، وخرجت به من ظهر البيت. فخططت بزجه في الأرض «الزج: الحديدة التي تكون في أسفل الرمح» وخفضت عاليه وجعلت أسفله في الأرض لئلا يراه أحد، «فعل ذلك ليفوز بالجعل المتقدم ذكره وحده، ولا يشركه فيه أحد من قومه بخروجه معه لقتلهما أو أسرهما». ثم انطلقت فلبست لأمتي، وجعلت أجر الرمح، حتى أتيت فرسي، وكان يقال لها (العود) فركبتها وبالغت في إجرائها، حتى دنوت منهم، فعثرت بي، فوقعت لمنخريها، ثم قامت تحمحم، فخررت عنها، فقمت فأهويت بيدي على كنانتي، فاستخرجت الأزلام أستقسم بها، أضرّهم أم لا؟ فخرج الذي أكره، وهو عدم إضرارهم، فركبت فرسي وعصيت الأزلام، وما زالت تقرب بي، حتى سمعت قراءة رسول الله، وهو لا يلتفت، وأبو بكر يكثر الالتفات، فساخت يدا فرسي في الأرض حتى بلغتا الركبتين. وكانت الأرض صلدة، فخررت عنها، ثم زجرتها، فنهضت، فلم تكد تخرج يديها، واستوت قائمة، فاستقسمت مرة ثانية، فخرج أيضاً الذي أكره فناديتهم بالأمان، وقلت: انظروني، ولا يأتيكم مني شيء تكرهونه، وقلت: أنا سراقة بن مالك، أنا لكم نافع غير ضار، وإني لا أدري لعل الحي فزعوا لركوبي، إن بلغهم ذلك، وأنا راجع، رادهم عنكم، فقال رسول الله لأبي بكر: قل له: ما تبتغي؟ فأخبرتهم بما يريد الناس منهم، فقلت: إن قومك جعلوا فيك الدية، مئة

---

(١) سورة (القصص) الآية: (٨٥).

ناقة، لمن قتلك أو أسرك، ثم عرضت عليهما الزاد والمتاع، فقال لهما: خذا هذا السهم من كنانتي، وغنمي وإبلي محل كذا وكذا، فخذا منهما ما شئتما، فقالا: اكفنا نفسك، فقلت: كفيتكماها.

سراقة يطلب من رسول الله التزاماً كتابياً برعايته وإكرامه

وسأل سراقة أن يكتب له النبي كتاباً، ففي (السبعيات) قال سراقة: يا محمد إني لأعلم أنه سيظهر أمرك في العالم، وتملك رقاب الناس، فعاهدني أني إذا أتيتك يوم ملكك، فأكرمني، فأمر أبا بكر فكتب لي كتاباً في رقعة من أدم. فعاد سراقة وصار يرد عنهم الطلب، لا يلقى أحداً إلا ردّه، قال سراقة: خرجت وأنا أحب الناس في تحصيلهما، ورجعت وأنا أحب الناس ألا يعلم بهما أحد، فكان يقول لمن يطلبهما: سرت الطريق فلم أر أحداً[1].

وعن أبي بكر الصديق قال: سرنا ليلتنا كلها حتى أصبحنا، وقام قائم الظهيرة، وخلا الطريق فلا يرى فيه أحد، فوقعنا على صخرة طويلة لها ظل، فنزلنا عندها، فأتيت الصخرة، فسوّيت بيدي مكاناً، ينام فيه رسول الله ﷺ في ظلها، ثم بسطت له فروة معي، ثم قلت: يا رسول الله! نم وأنا أتجسس وأتعرّف من تخافه، فنام ﷺ وإذا براع يقبل بغنمه إلى الصخرة، يريد منها الذي أردناه، وهو الظل، فلقيته، وقلت: لمن أنت يا غلام؟ فقال الرجل: من أهل مكة، فسماه فعرفته، فقلت: هل في غنمك من لبن؟ قال: نعم. قلت: أتحتلب لي؟ قال: نعم. فأخذ شاة يحلب لي في قعب معه. فأتيت النبي ﷺ وكرهت أن أوقظه من نومه، فوقفت حتى استيقظ، فصببت على

---

(١) أسلم سراقة بالجعرانة. قال: لما فرغ رسول الله من حنين والطائف خرجت ومعي الكتاب لألقاه، فلقيته بالجعرانة، فدخلت في كتيبة من خيل الأنصار، فجعلوا يقرعونني بالرماح. ويقولون: إليك، ماذا تريد؟ فدنوت من رسول الله ﷺ وهو على ناقته، فرفعت يدي بالكتاب ثم قلت: يا رسول الله! هذا كتابي، وأنا سراقة، فقال: يوم وفاء وبرّ. ادنه، فدنوت، وأسلمت. المؤلف.

اللبن من الماء حتى برد أسفله، فقلت: يا رسول الله! اشرب من هذا اللبن، فشرب، ثم قال: ألم يأن للرحيل؟ قلت: بلى. فارتحلنا بعدما زالت الشمس.

رسول الله في ضيافة أم معبد الخزاعية بقديد

واجتازوا في طريقهم بأم معبد، واسمها عاتكة، وكان منزلها بقديد من الطرف الذي يلي المدينة، ومنزل سراقة بالطرف الثاني الذي يلي مكة، وبينهما مسافة متسعة، وكانت أم معبد امرأة برزة[1] جلدة، تختبىء بفناء بيتها، وتطعم وتسقي الوافدين عليها، وهي لا تعرفهم، وسألوها لحماً وتمراً يشترونه، فقالت: والله لو كان عندنا شيء، ما أعوزناكم للشراء، لأنهم كانوا مجدبين. فقال لها رسول الله: يا أم معبد! هل عندك من لبن؟ قالت: لا والله، فرأى شاة، خلَّفها الجهد عن الغنم، لم تطق اللحاق بها، لما بها من الهزال. قال: هل بها من لبن؟ قالت: هي أجهد من ذلك. قال: أتأذنين في حلابها؟ قالت: والله ما ضرع من فحل قط! فشأنك بها، إن رأيت منها حلباً فاحلبها، فدعا بها، فمسح ظهرها بيده، وقال: اللهم بارك لنا في شاتنا، فدرت واجترت، ثم دعا بإناء يربّ «يروي» الرهط، فحلب فيها ثجاً «بقوة» حتى علته الثمالة، فسقاها فشربت حتى رويت، وسقى أصحابه، رووا علاً بعد نهل، ثم شرب ﷺ فكان آخرهم شرباً، وقال: ساقي القوم آخرهم. شرب، ثم حلب فيه، وغادره عندها. وذبحت لهم أم معبد شاة، وأطعمتهم منها، ووضعت لهم في سفرتهم منها ما وسعت تلك السفرة. وفي كلام (ابن الجوزي) أن أم معبد أسلمت وكذلك زوجها أسلم، وأسلم أخوها حبيش بن الأصفر.

أما قريش، فقد أشكل عليهم أمر محمد، ولا يعلمون أين توجّه؟ وعن أسماء، قالت: لما خرج رسول الله ﷺ إلى المدينة، أتانا نفر من قريش، فيهم أبو جهل، وقفوا على الباب، فخرجت إليهم، فقالوا: أين أبوك؟ قلت:

---

(١) (برزة) يقول صاحب (القاموس) عنها: امرأة برزة: بارزة المحاسن، أو متجاهرة، كهلة، جليلة، تبرز للقوم، يجلسون إليها، يتحدّثون، وهي عفيفة. المحقق.

لا أدري. فرفع أبو جهل يده، فلطم خدي لطمة، خرج منها قرطي، ثم انصرفوا. فمضت ثلاث ليال، وهم لا يدرون أين توجّه؟

خرج يتعقّب الرسول فلما لقيه أسلم

وفي (الإمتاع) أنه ﷺلقي في هذا الوجه بريدة بن الخصيب الأسلمي، في ركب من قومه، خرج في طلب رسول الله ﷺ لما بلغه ما جعلته قريش لمن يأتيهم به، وكان في سبعين من أهل بيته، وقيل: ثمانين. فلما رآه ﷺ قال له: من أنت؟ قال: بريدة بن الخصيب. قال: ممن أنت؟ قال: من أسلم من بني سهم، ثم قال بريدة بدوره للنبي ﷺ: من أنت ؟ قال: أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب رسول الله، وجعل يدعوه إلى الإسلام حتى أقنعه، فأسلم بريدة وأسلم من معه، وصلوا خلفه تلك الليلة صلاة العشاء الآخرة، ثم قال بريدة: يا رسول الله! لا تدخل المدينة، إلا ومعك لواء، ثم حل عمامته، وشدها في رمح، ثم مشى بين يديه.

ولما سمع المسلمون بالمدينة بخروج رسول الله ﷺ من مكة، كانوا يغدون كل غداة إلى الحرة، ينتظرونه حتى يردّهم حر الظهيرة، فانقلبوا يوماً بعد أن طال انتظارهم، واحترقتهم الشمس، وإذا رجل من اليهود، صعد على محل مرتفع من آطامهم لأمر ينظر إليه، فبصر برسول الله ﷺ وأصحابه مبيضين، وكانوا التقوا بالزبير في ركب تجار المسلمين، قافلين من الشام، فكسا الزبير رسول الله ﷺ وأبا بكر ثياباً بيضاء. فلما رآهم ذلك اليهودي، يزول بهم السراب، لم يتمالك نفسه أن صرخ بأعلى صوته:

يا معشر العرب! هذا جدّكم الذي تنتظرون؟

يا معشر العرب! هذا جدكم الذي تنتظرون، فثار المسلمون إلى السلاح، وكانوا زهاء خمسمئة، فساروا إلى ظهر الحرة، فالتقوا بالنبي وصاحبه في ظل نخلة هناك. فقالوا: اركبا، آمنين. مطاعين، فعدل بهم ذات اليمين، حتى نزل قباء، في دار بني عمرو بن عوف، وذلك في يوم الإثنين لاثنتي عشرة ليلة، خلت من شهر ربيع الأول، ونزل ضيفاً على كلثوم بن الهدم، شيخ بني عمرو بن عوف «وهم بطن من الأوس» وكان يومئذ مشركاً ثم أسلم.

وكان رسول الله ﷺ يجلس للناس ويتحدث إليهم في بيت سعد بن خيثمة، لأنه كان أعزب «وكان منزله يسمى منزل العزاب» مكث ﷺ في قباء ثلاث عشرة ليلة.

وهو المنقول عن البخاري، وعن صحيح مسلم، أربعة عشر يوماً، وعن ابن عقبة: اثنتين وعشرين ليلة، وأسس في قباء المسجد الذي أسس على تقوى من الله، كما نزلت فيه الآية، وكان محله مربداً، يجفف فيه التمر لكلثوم بن الهدم، وهو أول مسجد بني لعموم المسلمين، وسبب بنائه في السيرة الهشامية: أن عمار بن ياسر، لما نزل رسول الله ﷺ بقباء قال: ما لرسول الله بدّ من أن يجعل له مكاناً، يستظل به إذا استيقظ، ويصلي فيه، فجمع حجارة فبنى مسجد قباء، وهو أول مسجد صلى فيه رسول الله ﷺ بأصحابه جماعة ظاهرين.

ثمّ تحول إلى المدينة، ونزل علي بن أبي طالب، لما قدم المدينة على كلثوم أيضاً. فقد تخلف في مكة ثلاث ليال، يؤدي الودائع التي كانت عند رسول الله ﷺ فإنه لما توجه ﷺ إلى المدينة، قام علي رضي الله عنه بالأبطح، ينادي: من كان له عند رسول الله ﷺ وديعة، فليأت تؤدى إليه أمانته، فلما أدى ذلك، ورد عليه إذن رسول الله بالشخوص إليه، فابتاع ركائب، وقدم المدينة ومعه الفواطم، وأم أيمن، وولدها أسامة وجماعة من ضعفاء المؤمنين، وأم كلثوم بنته وسودة زوجته، ولما خرج من مكة، كان يسير بالليل، ويكمن بالنهار، حتى تفطرت قدماه، ولما وصل اعتنقه النبي، وبكى لما بقدميه من الورم.

وروت لنا الشموس بنت النعمان، قالت: نظرت إلى رسول الله حين قدم، ونزل وأسس مسجد قباء، فرأيته يأخذ الحجر، أو الصخرة حتى يصهره «يتعبه» فيأتي الرجل من أصحابه فيقول: يا رسول الله! بأبي أنت وأمي، تعطيني أكفك. فيقول: لا. خذ مثله. حتى أسسه. (الطبراني). وجاء أنه ﷺ لما أراد بناءه، قال: يا أهل قباء! ائتوني بأحجار من الحرة،

فجمعت عنده أحجار كثيرة، فخط القبلة، وأخذ حجراً فوضعه، ثم شرع الصحابة في البناء.

مشروعية الاستنجاء بالماء والتطهير

جاء في (الكشاف) أن رسول الله ﷺ أقبل على مسجد قباء، ومعه المهاجرون، فإذا الأنصار جلوس، فقال: أمؤمنون أنتم؟ فسكت القوم، ثم أعادها. فقال عمر: يا رسول الله! إنهم لمؤمنون، وأنا منهم، فقال عليه الصلاة والسلام: أتؤمنون بالقضاء؟ قالوا: نعم. قال: وتصبرون على البلاء؟ قالوا: نعم. قال: أتشكرون على الرخاء؟ قالوا: نعم. قال: مؤمنون ورب الكعبة. فجلس، وقال: يا معشر الأنصار! إنّ الله أثنى عليكم. فما الذي تتبعون عند الوضوء وعند الغائط؟ فقالوا: يا رسول الله، كان لنا جيران من اليهود، فكانوا يغسلون من الغائط فغسلناها كما غسلوا، وفي رواية: كنا نستنجي بالماء في الجاهلية. وفي رواية: نستنجي من البول والغائط، ولا ننام الليل كله على الجنابة. قال: هو ذلك فعليكموه.

وأول من استنجى بالماء بعد الإسلام: عويمر بن ساعدة، وهو من أهل قباء، وقد قال في حقه رسول الله ﷺ: نعم العبد من عباد الله. ويروي بعض رواة السيرة النبوية، أن الاستنجاء بالماء لم يكن معروفاً في غير أهل قباء في الجاهلية. وفي أهلها نزل قوله تعالى:

﴿ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴾[1].

دعوها، فإنها مأمورة، فقد أمرت بقرية تأكل القرى

وبعد إقامته ﷺ المدة المذكورة بقباء، ركب راحلته الجدعاء «المقطوعة الأنف» أو مقطوعة الأذن. وقيل: القصواء «المقطوع طرف أذنها» وخرج من قباء، وسار الناس معه، ما بين راجل وراكب، وكانوا يتنازعون زمام الناقة،

---

(١) تتمة الآية (١٠٨) من سورة (التوبة): ﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴾.

حرصاً على كرامة رسول الله ﷺ، وتعظيماً له.

فقالت له بنو عمر بن عوف: يا رسول الله! أخرجت ملالاً لنا؟ أم تريد داراً خيراً من دارنا؟ قال لهم: إني أمرت بقرية تأكل القرى، فخلوا سبيلها، وقد أدركته صلاة الجمعة في بني سلام بن عوف: فصلاها في بطن الوادي بمن معه من المسلمين، وكانوا مئة. ثم ركب راحلته متوجهاً إلى المدينة، وقد أرخى زمامها، لم يحركه، وهي تنظر يميناً وشمالاً، ولما مرّ ببني سالم سأله عتبان بن مالك، ونوفل بن عبد الله بن مالك، وعبادة بن الصامت، فقالوا: يا رسول الله! أقم عندنا في العدد والعزة والمنعة والثروة، ونحن أصحاب الحدائق والدرك، كان الرجل من العرب يدخل هذه البحيرة، خائفاً، ملتجئاً إلينا فيأمن. فقال لهم خيراً، وهو يبتسم: بارك الله عليكم، دعوا الناقة فإنها مأمورة. فسارت حتى وردت دار «محلة» بني بياضة، والمراد القبيلة، ومنهم زياد بن لبيد، وفروة بن عمرو، وسألته مثل ما سألته القبائل فأجابهم بمثل ما أجابهم، فانطلقت حتى وردت دار بني ساعدة، ومنهم سعد بن عبادة والمنذر بن عمرو، وأبو دجانة، فسألوه بمثل ذلك، فأجابهم عين الجواب، فانطلقت حتى مرت بدار عدي بن النجار، وهم أخواله وأخوال جده عبد المطلب، فسألوه أن ينزل عندهم، وقالوا: نحن أخوالك، هلم إلى العدة، والمنعة مع القرابة، لا تجاوزنا إلى غيرنا، ليس أحد من قومنا أولى بك منّا. فأجابهم: دعوها، فإنّها مأمورة. فانطلقت تخندق دور المدينة، حتى بركت في محل من محلات بني النجار، بين دار بني مالك بني النجار، وبين دار أبي أيوب الأنصاري، وهو محل المسجد النبوي الآن.

حفاوة المدينة باستقبال رسول الله ﷺ

وقد احتفت المدينة بمقدمه الميمون حفاوة فائقة، وسرى بهجرته السرور إلى القلوب. وقد حكى لنا أنس بن مالك شيئاً من ذلك، قال: لما كان اليوم الذي دخل فيه رسول الله ﷺ المدينة، أضاء منها كل شيء، وصعدت ذوات الخدور على الأجاجير «السطوح» يتغنين بقولهن:

طلـــع البـــدر علينـــا ... مـــن ثنيـــات الـــوداع

وجـــب الشكـــر علينـــا مـــا دعـــا لله داعِ
أيهـــا المبعـــوث فينـــا جئـــت بـــالأمـــر المطـــاعِ

وروى غيره، قال: اجتمع الخدم والصبيان أمامه ﷺ يرفعون أصواتهم بالتكبير والتبشير بمقدمه الشريف، يقولون: الله أكبر، جاء رسول الله، جاء محمد، والحبشة تسير أمامه، تلعب بحرابها.

ولما نزل ﷺ بالمكان المذكور قال:

«ربّ! أنزلني منزلاً مباركاً، وأنت خير المنزلين» قالها أربع مرات. وأخذه الحال الذي كان يأخذه عند الوحي، ثم سري عنه. وقال: هذا إن شاء الله يكون المنزل، فتقدم إليه أبو أيوب الأنصاري «واسمه خالد بن زيد النجار الأنصاري الخزرجي» وقال: ائذن لي أن أنقل رحلك، فأذن له، واحتمل أبو أيوب رحله، فوضعه في بيته. وجاء أسعد بن زرارة، فأخذ بزمام راحلته فكانت عنده. وقال أبو أيوب لما قدم رسول الله المدينة: اقترعت الأنصار أيهم يأويه فقرعتهم «ومراده أهل تلك المحلة».

سماع رسول الله الأغاني والنقر بالدفوف

ولما استراح، خرجت عليه جويريات من بني النجار بالدفوف يقلن:

نحن جوار، من بني النجار يـا حبـذا (محمـداً) مـن جـار

فخرج إليهم رسول الله ﷺ وقال: أتحببنني؟ قلن: نعم، يا رسول الله! فقال: الله يعلم أن قلبي يحبكن. قال ذلك ثلاثاً. وعن ابن عباس مرفوعاً: أن أصحاب النبي ﷺ جلسوا سماطين، وجاءت جارية يقال لها سيرين معها مزهر، تختلف به بين القوم، وهي تغنيهم وتقول:

هـــل علـــيّ، ويحكـــم إن لهـــوت مـــن حـــرج؟

فتبسم النبي ﷺ وقال: لا حرج، إن شاء الله تعالى. ومن دلائل جواز السماع، وإباحة الدق على آلات الطرب، ما ذكرته عائشة أم المؤمنين، قالت: دخل علي رسول الله ﷺ وعندي جاريتان من جواري الأنصار، يغنيان، وفي رواية: يضربان بدفين، فاضطجع ﷺ على الفراش، وحوّل

وجهه. ودخل أبو بكر، فانتهرني، فأقبل عليه رسول الله فقال: دعها. وفي رواية: قال أبو بكر: بمزمارة الشيطان في بيت رسول الله؟ قال ذلك مرتين وانتهرني، وكان ﷺ متغشياً بثوبه، فكشف النبي عن وجهه الشريف، فقال: دعها يا أبا بكر، فإنها أيام عيد. لأن تلك كانت أيام مِنَى.

وفي حديث أبي هريرة: أن النبي خرج في بعض مغازيه، فلما انصرف، جاءت جارية سوداء، فقالت: يا رسول الله! إني كنت نذرت إن ردك الله سالماً، أن أضرب بين يديك بالدف، فقال لها: إن كنت نذرت فاضربي، فجعلت تضرب، ودخل أبو بكر وهي تضرب. ثم دخل عمر، فألقت الدف تحتها وقعدت عليه، فقال النبي: إن الشيطان ليفرق منك يا عمر. إني كنت جالساً وهي تضرب، ودخل أبو بكر وهي تضرب، فلما دخلت أنت، ألقت الدف! وإذا كان الشيطان يخاف منك، فما بالك بامرأة ضعيفة؟!

نزول رسول الله دار أبي أيوب الأنصاري

ونزل رسول الله ﷺ على أبي أيوب الأنصاري، وقال: المرء مع رحله، فقال أبو أيوب: داري هذه، وقد حططنا رحلك فيها، فقال له رسول الله ﷺ. اذهب وهيىء لنا مقيلاً، فذهب يهيىء ذلك. ثم جاء فقال: يا نبي الله، قد هيأت مقيلاً، فقم على بركة الله تعالى. ونزل معه ﷺ زيد بن حارثة. ثم أجاب في الليل دعوة بني النجار أخوال جده عبد المطلب. ولما أصبح عاد إلى منزل أبي أيوب، ومكث ﷺ ضيفاً فيه، إلى أن بني المسجد وبعض مساكنه، وقد استغرق ذلك سنة كاملة، من ربيع الأول إلى شهر صفر من السنة المقبلة.

ولما نزل النبي بيت أبي أيوب الأنصاري، وأقبل المهاجرون على المدينة فتنافس الأنصار فيهم، وأنزلوهم في بيوتهم حتى اقترعوا فيهم بالسهام، فما نزل أحد من المهاجرين على أحد من الأنصار إلا قرعة بينهم، وأقام المهاجرون خير مقام في دور الأنصار، واستمتعوا بأموالهم.

اتخاذ المسجد النبوي بالمدينة

أمّا المسجد، فكان مربداً لسهل وسهيل. وقد حكت لنا أم زيد بن ثابت كيف أنشىء: كان قبل أن يقدم رسول الله ﷺ المدينة جداراً، فجدارين، عليه سقف، وقبلته إلى بيت المقدس، بناه أسعد بن زرارة. وكان يصلي فيه بأصحابه، ويجمع فيه الجمع، قبل قدوم رسول الله ﷺ. ولما قدم سأل أسعد بن زرارة أن يبيعه تلك البقعة التي كان من جملتها ذلك المسجد، ليجعلها مسجداً، فإنها كانت في يده ليتيمين في حجره، من بني مالك بن النجار. فابتاع الأرض كلها بعشرة دنانير أداها من مال أبي بكر.

ثم أمر باتخاذ اللبن، فاتخذ، وبنى المسجد. وجاء أنه عند الشروع في البناء وضع لبنته، ثم دعا أبا بكر، فوضع لبنته بجانب لبنته. ثم دعا عمر فوضع لبنته بجانب لبنة أبي بكر. ثم قال للناس: ضعوا الحجارة، فوضعوا حجارتهم إلى قريب من ثلاثة أذرع. وبنى باللبن، وجعل عضادتيه «جانبي الباب» بالحجارة، وسقفه بالجريد، وجعلت عمده، وفي رواية: سواريه، من جذوع النخل. وطول جداره قامة. وقد اشترك في بناء المسجد المسلمون من المهاجرين والأنصار.

ولما تمّ بناء المسجد، مكث ﷺ يصلي فيه، وكانت قبلته إلى بيت المقدس، خمسة أشهر. ثم تحولت القبلة إلى الكعبة. ولما حولت القبلة أمر ﷺ بسد الباب الذي كان في آخر المسجد.

ولما كثر المسلمون قالوا: لنزيد في المسجد. فاشترى عثمان أرضاً بجانبه لبعض الأنصار بعشرة آلاف درهم، ثم باعها للنبي ﷺ بقصر في الجنة. فأمر بإدخالها في المسجد، بعد فتح خيبر. وزاد فيه عثمان أيام خلافته زيادة كبيرة، وبنى جداره بالحجارة المنقوشة، وجعل عمده من حجارة منقوشة، وسقفه بالساج.

وأرسل ﷺ وهو لم يزل في بيت أبي أيوب، زيد من حارثة، وأبا رافع إلى مكة وأعطاهما خمسمئة درهم وبعيرين، ليأتيا بأهله[1]. والخمسمئة أخذها من

---

(١) سبقت الإشارة إلى هجرة أهل رسول الله ﷺ مع علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ ولعلها رواية أخرى. المحقق.

أبي بكر ليشتريا بها ما يحتاجان إليه. فاشترى بها زيد ثلاثة أبعرة، وأرسل أبو بكر معهما عبد الله بن الأريقط دليلاً. فقدما بفاطمة وأم كلثوم، بنتيه ﷺ وسودة زوجته، وأم أيمن حاضنته، زوج زيد بن حارثة. وأم أسامة. وخرج معهم عبد الله بن أبي بكر ومعه عيال أبي بكر، فيهم زوجته، أم رومان وعائشة وأختها أسماء، وزوج الزبير، وهي حامل بابنها عبد الله بن الزبير، فولدته لما نزلت بقباء، ثم أتت به رسول الله ﷺ فحنكه[1] بتمرة.

وجعل بنو النجار يتناوبون في حمل الطعام إليه ﷺ مقامه في منزل أبي أيوب، وهو تسعة أشهر. وأول طعام جيء به إليه: قصعة أم زيد بن ثابت. فعن زيد بن ثابت قال: أول هدية دخلت على رسول الله ﷺ في بيت أبي أيوب قصعة أرسلتني بها أمي. فيها ثريد خبز، بر بسمن ولبن، فوضعتها بين يديه وقلت: يا رسول الله أرسلت بهذه القصعة أمي. فقال: بارك الله فيها. ودعا أصحابه فأكلوا. قال زيد: فلم أرم الباب حتى جاءت قصعة سعد بن عبادة، ثريد وعراق لحم «عظم عليه لحم» وصارت تأتي إليه كل ليلة جفنتان، جفنة سعد بن عبادة، وجفنة أسعد بن زرارة. وكانت جفنة سعد بن عبادة بعد ذلك تدور معه ﷺ في بيوت أزواجه. وكانت جفنة سعد بن عبادة من ثريد عليه[2]. وكان وهو في بيت أبي أيوب يأتي إليه الطعام من غير من ذكرنا فقد جاء في كتب السيرة: ما كان من ليلة إلا وعلى باب رسول الله ﷺ الثلاثة والأربعة، يحملون الطعام، يتناوبون. حتى تحول رسول الله من منزل أبي أيوب إلى المنزل الذي بناه. وكانت مدّة ذلك تسعة أشهر.

بناء الصفة لإقامة الفقراء من المهاجرين

لما كثر المهاجرون بالمدينة، ولم يكن لهم زاد ولا مأوى. أنزلهم رسول الله ﷺ المسجد. وجعل لهم فيه مكاناً مظللاً، يسمى (الصفة)[3]. وفي وقت

---

(١) (حنك) الصبيّ: مضغ له تمراً أو غيره، وسلكه بحنكه.

(٢) لم يكمل. أو يقصد: من ثريد عليه شيء آخر.

(٣) (الصفة) لغة. كما جاء في اللسان: الصفّة من البنيان: شبه البهو الواسع، الطويل السمك.

العشاء كان يفرقهم على أصحابه، ويتعشى مع طائفة منهم. وكان يجالسهم ويأنس بهم. وإذا جاءت العتمة يوقدون فيه سعف النخل. فلما قدم تميم الداري المدينة، صحب معه قناديل وحبالاً وزيتاً، وعلق تلك القناديل بسواري المسجد، وأوقدت، فقال رسول الله ﷺ: نورت مسجدنا نور الله عليك. وقد زاد عمر بن الخطاب في عدد القناديل، لما جمع الناس على أبي ابن كعب في صلاة التراويح. فلم رآها علي تزهر قال: نورت مسجدنا، نور الله قبرك يا بن الخطاب.

بيوت أزواج النبي

وحكى لنا عبد الله بن زيد الهذلي عن بيوت أزواج النبي ﷺ قال: رأيتها حين هدمها عمر بن عبد العزيز، بأمر الوليد بن عبد الملك، بعد موتهن جميعاً. وقال آخر: حضرت كتاب الوليد بن عبد الملك يقرأ بإدخال تلك البيوت في المسجد، فما رأيت أكثر باكياً من ذلك اليوم. وكانت تسعة. أربعة منها مبنية باللبن وسقفها من جريد النخل، مطين بالطين، ولها حجز من جريد. غير بيت أم سلمة فإنها جعلت حجرتها من بناء. وكانت تلك الحجر التي من الجريد مغشاة من الخارج بمسوح الشعر، وخمسة أبيات من جريد مطينة، لا حجر بها. على أبوابها ستور من مسوح الشعر. وهي التي يقال لها (البلانس) ذرع الستر ثلاثة أذرع. وقال السهيلي: كانت مساكنه ﷺ مبنية من جريد، عليه طين، وبعضها بحجارة موضوعة، وسقوفها كانت من جريد، مربوطة بخشب من عرعر. وعن الحسن البصري قال: كنت وأنا مراهق أدخل بيوت أزواج النبي في خلافة عثمان، فأتناول سقفها بيدي «ولد الحسن البصري لسنتين بقيتا من خلافة عمر بن الخطاب، وكان ابناً لمولاة لأم سلمة، زوج النبي، اسمها خيرة. وكانت أم سلمة تخرجه للصحابة يباركونه، وكان والده من جملة السبي الذي سباه خالد بن الوليد في خلافة الصديق من الفرس».

وذكر (الواقدي) عن بيوت أزواج النبي ﷺ: أن أصلها منازل لحارثة بن النعمان قرب المسجد وحوله. فكلما أخذ رسول الله ﷺ امرأة، تحول له

حارثة عن منزل، حتى صارت منازله كلها لرسول الله.

ومات عثمان بن مظعون وهو أخو رسول الله ﷺ من الرضاعة، فأمر رسول الله أن يرش قبره بالماء، ووضع حجراً عند رأس القبر. قال: أتعلم به قبر أخي، وأدفن إليه من مات من أهلي. وقد دفن ولده إبراهيم عند رجليه.

الوداعة بين المهاجرين والأنصار وبين اليهود

وبعد أن استقرّ الأمر في المدينة للنبي ﷺ، كتب كتاباً بين المهاجرين والأنصار، وادع فيه اليهود، يهود قينقاع، وبني قريظة، وبني النضير، على ترك الحرب والأذى. لا يحاربهم ولا يؤذيهم، ولا يعينون عليه أحداً، وأنه إن دهمه بها عدو ينصرونه. وقد أقرهم في ذلك على دينهم وأموالهم.

المؤاخاة الثانية بين المهاجرين والأنصار

جمع النبي ﷺ المهاجرين والأنصار في دار أنس بن مالك، وهي دار أبي طلحة، زوج أم أنس، واسمه زيد بن سهل. وكان ذلك في الشهر السادس بعد الهجرة. آخاهم على الحق والمؤاساة والتوارث بعد الموت، دون ذوي الأرحام. فقال: تآخوا في الله أخوين أخوين.

وعن زيد بن أبي أوفى قال: دخلت على رسول الله ﷺ في مسجد المدينة، فجعل يقول: وأين فلان بن فلان؟ فلم يزل يتفقدهم ويبعث إليهم حتى اجتمعوا عنده، وكانوا خمسين من المهاجرين وخمسين من الأنصار فقال: إني محدثكم بحديث، فاحفظوه وعوه، وحدثوا به من بعدكم : إن الله اصطفى من خلقه خلقاً ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ﴾[1] وإني أصطفي منكم من أحب أن أصطفيه، وأؤاخي بينكم كما آخى الله تعالى بين ملائكته.

وآخى بين أبي بكر وخارجة بن زيد «وكان صهراً لأبي بكر أنكح ابنته أبا بكر» وبين عمر وعتبان بن مالك، وبين أبي رويم الخثعمي وبين بلال، وبين أسيد بن حضير وبين زيد بن حارثة، «وكان زيد من أحسن الناس صوتاً

---

(١) سورة (الحج) الآية: (٧٥).

بالقرآن، وكان من العقلاء وأهل الرأي» وآخى بين أبي عبيدة وبين سعد بن معاذ، وآخى بين عبد الرحمن بن عوف وبين سعد بن الربيع، وآخى بين جعفر بن أبي طالب (وهو غائب في الحبشة) وبين معاذ بن جبل، وآخى بين أبي ذر الغفاري والمنذر بن عمرو، وبين حذيفة بن اليمان وعمار بن ياسر، وبين مصعب بن عمير وأبي أيوب الأنصاري، وآخى بين سلمان الفارسي وأبي الدرداء. وهكذا جمعهم اثنين اثنين، حتى أخى بينهم جميعاً.

يقاسمه أمواله ويزوجه إحدى زوجاته

وعلينا أن نستدل على تمكن آصرة هذه الأخوة، بما فعله سعد بن الربيع مع مؤاخيه عبد الرحمن بن عوف. فقد قال سعد لعبد الرحمن: إني من أكثر الأنصار مالاً، فأنا مقاسمك، وعندي امرأتان، فأنا مطلق إحداهما لك، فإذا انقضت عدتها فتزوجها. فتزوجها فقال له: بارك الله لك في أهلك ومالك. وهكذا فعل الأنصار مع من آخوهم من المهاجرين. حتى قال المهاجرون: يا رسول الله! ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم، أحسن مؤاساة في قليل، ولا أحسن بذلاً في كثير. كفونا المؤونة، وأشركونا في المهنة، حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله! قال: لا، ما أثنيتم عليهم، ودعوتم لهم.

التوريث بالمؤاخاة

ثم لا يزال المهاجرون والأنصار يتوارثون بذلك الإخاء دون القرابات إلى أن أنزل قوله تعالى في واقعة بدر:

﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾[1].

والمراد: أن القرابة أولى ببعضها في الإرث، فنسخت هذه الآية حكم التآخي المؤقت؛ لأن الغاية منه: كفالة المعدم، وذهاب وحشة الغربة. وشد أزر المسلمين بعضهم ببعض. فلما عز الإسلام بكثرة الداخلين فيه، وتكاثر

---

(١) سوزة (الأحزاب) الآية: (٦).

ذوو القرابات، ورجع كل إنسان إلى بنيه وذوي رحمه، بطل نظام التآخي، وصار العمل بنظام الأسرة والقرابة.

ولإقرار نظام الأسرة وتثبيته نزل قوله تعالى: ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ ﴾[1].

فأصبح يقال: زيد بن حارثة، مكان زيد بن محمد. والمقداد بن عمرو، مكان ابن الأسود «الذي تبناه في الجاهلية» ومن لم يعرف أبوه، رد إلى مواليه.

كيف شرع الأذان والإقامة للصلاة؟

كان المسلمون يتجمعون للصلاة لتحيّن أوقاتها من غير دعوة. وكان ﷺ يصلي بغير أذان منذ فرضت الصلاة بمكة إلى أن هاجر إلى المدينة. وقد صحح العلماء أن الأذان لم يشرع إلا بعد الهجرة، وأنه لم يؤذن قبلها لا بلال ولا غيره. واختلف في وقت مشروعيته، هل في السنة الأولى أم الثانية من الهجرة؟

فقد ائتمر ﷺ هو وأصحابه، وتشاوروا كيف يجمع الناس للصلاة؟ فقيل له: انصب راية عند حضور الصلاة، فإذا رآها الناس، أعلم بعضهم بعضاً. فلم يعجبه ذلك. وذكر له أن يستعمل البوق الذي كان يستعمله اليهود، «ويسمونه الشبور» وهو القرن الذي يدعون به لصلاتهم، يجتمعون لها عند سماع صوته. فكرهه رسول الله ﷺ. فذكر له الناقوس الذي يدعى به النصارى لصلاتهم. فقال: هو من أمر النصارى. فقالوا: نرفع ناراً. فإذا رآها الناس أقبلوا إلى الصلاة. فقال: ذلك للمجوس. وعن ابن عمر قال لهم: أولا تبعثون رجلاً ينادي بالصلاة؟! ففعلوا ذلك. وكان المنادي هو بلال، ولفظه الذي ينادي به: الصلاة جامعة.

وفي حديث: أنه قال ﷺ: لقد هممت أن أبعث رجالاً ينادون الناس

---

(١) سورة (الأحزاب) الآية: (٥).

بحين الصلاة في وقتها، وقد هممت أن آمر رجالاً تقوم على الآطام، ينادون المسلمين بحين الصلاة.

وقيل: ائتمر رسول الله ﷺ هو وأصحابه بالناقوس، واتفقوا عليه، فبعث ليضرب به المسلمون، فنام عبد الله بن زيد بن عبد ربه، فرأى الأذان والإقامة في منامه. وإليك ما قصه علينا في ذلك قال:

«لما أمر رسول الله ﷺ بالناقوس، فطاف بي ـ وأنا نائم ـ رجل، وذلك الرجل عليه ثوبان أخضران، يحمل ناقوساً في يده. فقلت: يا عبد الله أتبيع الناقوس؟ قال: وما تصنع به؟ فقلت: ندعو به إلى الصلاة. قال: أفلا أدلك على ما هو خير لك من ذلك؟ فقلت: بلى. قال: تقول: الله أكبر الله أكبر. أشهد أن لا إله إلا الله. أشهد أن لا إله إلا الله. أشهد أن محمّداً رسول الله. أشهد أن محمداً رسول الله. حي على الصلاة. حي على الفلاح. قد قامت الصلاة. قد قامت الصلاة. الله أكبر. الله أكبر. لا إله إلا الله.

فأذن، ثم قعد قعدة، ثم قام فقال مثلها، إلا أنه يقول: قد قامت الصلاة، قد قامت الصلاة. «فكان ذلك للتفرقة بين الأذان والإقامة» قال عبد الله: فلما أصبحت أتيت رسول الله ﷺ فأخبرته بما رأيت، فقال رسول الله ﷺ: إنها لرؤيا حق، إن شاء الله تعالى، فقم مع بلال، فألق عليه ما رأيت، فليؤذن به، فإنه أشد صوتاً منك. فقال لبلال: قم فانظر ما أمرك به عبد الله بن زيد فافعله. فجعلت ألقيه عليه ويؤذن به ـ وقيل: إنه ثبت بالوحي لا بمجرد رؤيا عبد الله ـ وقد حفظه.

زيادة: «الصلاة خير من النوم» في أذان الصبح

وقد زاد بلال بعد الحيعلات في أذان الصبح: الصلاة خير من النوم، مرتين، فأقرها ﷺ. والسبب في ذلك أنه دعاه ذات غداة إلى الفجر، فقيل له: إن رسول الله نائم. فصرخ بأعلى صوته: الصلاة خير من النوم، مرتين. وهو ما يسميه الفقهاء بالتثويب. وقد صح في الأحاديث أنه ﷺ لقن ذلك لأبي محذورة. قال له وهو يلقنه الأذان: فإن كانت صلاة الصبح قلت:

الصلاة خير من النوم. وذلك عند منصرفه ﷺ من حنين وذلك بعد أن أقر بلالاً عليه.

ونقل عن ابن عمر، وعن علي بن الحسين: أنهما كانا يقولان في أذانهما بعد الحيعلتين: حي على خير العمل. وعليه جرى الشيعة، في أيام دولة بني بويه في المشرق، والعبيديين في إفريقية في أذانهما. فلما أديل منهما في أيام السلجوقيين وابن باديس منعت هذه الزيادة، وأعيد في أذان الصبح: الصلاة خير من النوم «أمر السلاجقة بذلك في سنة ٤٤٨» وورد الترجيع في أذان أبي محذورة قال: قلت: يا رسول الله علمني سنة الأذان. قال: فمسح مقدم رأسي وقال: تقول: أشهد أن لا إله إلا الله. أشهد أن محمداً رسول الله تخفض بها صوتك. ثم ترفع صوتك بالشهادة، أشهد أن لا إله إلا الله. أشهد أن لا إله إلاّ الله أشهد أن محمداً رسول الله. وكان أبو محذورة يشفع الإقامة كالأذان، يكرر ألفاظها فيقول: الله أكبر الله أكبر. أشهد أن لا إله إلاّ الله. أشهد أن لا إله إلا الله. أشهد أن محمداً رسول الله أشهد أن محمداً رسول الله. حي على الصلاة حي على الصلاة. حي على الفلاح حي على الفلاح. قد قامت الصلاة قد قامت الصلاة. الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله. لقنه ﷺ ذلك. وقد كان بلال يشفع الأذان ويوتر الإقامة، ولا يرجع الأذان. وعليه عمل أهل المدينة. قيل: ولم يصح عنه ﷺ إفراد الإقامة البتة.

والتحقيق: أن إفراد الإقامة صحيح، وتثنيتها صحيح بلا ريب. وكلا الروايتين عن عبد الله بن زيد. فمن أخذ بأذان بلال إقامته لم يستحب الترجيع في الأذان، واستحب إفراد الإقامة، إلا لفظها فإنه يثنى. وأبو حنيفة أخذ بأذان بلال وبإقامة أبي محذورة، فلم يستحب الترجيع واستحب تثنية ألفاظ الإقامة. وأخذ مالك بما عليه عمل أهل المدينة من الاقتصار في التكبير على مرتين في الأذان، وعلى كلمة الإقامة مرة واحدة. وأخذ الشافعي بأذان أبي محذورة وإقامة بلال فاستحب الترجيع في الأذان والإفراد في الإقامة، إلا لفظها.

وأثبت الإمام أبو داود أن تثنية الأذان، وإفراد الإقامة، مذهب أكثر أهل الأمصار. وجرى به العمل في الحرمين، والحجاز، والشام، واليمن، وديار

مصر، ونواحي المغرب. إلا في مساجد مصر التي تغلب صلاة الأروام بها، فإن الإقامة فيها تثنى كالأذان.

وقد تناظر أبو يوسف والشافعي في المدينة بين يدي مالك والرشيد في الأذان والإقامة، فأمر الشافعي بإحضار أولاد بلال، وأولاد سائر مؤذني رسول الله ﷺ. وقال لهم: كيف تلقيتم الأذان والإقامة عن آبائكم؟ فقالوا: الأذان مثنى مثنى، والإقامة فرادى. هكذا تلقينا من آبائنا، وآباؤنا من أسلافنا إلى زمن رسول الله ﷺ.

أذان الجمعة

أمّا أذان الجمعة المشروع، فقد كان أذاناً واحداً. كان يفعل بين يديه ﷺ إذا صعد المنبر وجلس عليه، كما يرشد إليه حديث البخاري عن السائب بن زيد قال: كان التأذين يوم الجمعة، حين يجلس الإمام على المنبر في عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر، رضي الله تعالى عنهما. ولما كثر المسلمون، أمر عثمان في السنة الرابعة والعشرين من الهجرة بالنداء على الزوال يوم الجمعة، ليسمع الناس فيأتوا إلى المسجد. وورد أن أول من أحدثه بمكة: الحجاج بن يوسف. أما التذكير الذي قبل الأذان الأول، الذي هو التسبيح، فقد أحدث بعد السبعمئة في مصر، زمن الملك الناصر محمد بن قلاوون. وأول ما أحدثه التصلية على النبي على الكيفية المعروفة الآن، بعد إتمام الأذان على المنارة، في غير ممالك شمال إفريقية، زمن السلطان المنصور حاجي بن الأشرف، شعبان بن حسن بن محمد بن قلاوون، بأمر المحتسب نجم الدين الطنبدي، في أواخر القرن الثامن. واستمر ذلك إلى الآن، لكن في غير أذان الصبح الثاني، وغير أذان الجمعة أول الوقت. أما أذان الصبح الثاني وأذان الجمعة المذكور، فتقدم الصلاة والسلام عليه على الأذان فيهما. حدث ذلك في زمن صلاح الدين بن أيوب. وقد استنبط ذلك من حديث مسلم: «إذا سمعتم المؤذن، فقولوا مثل ما يقول، ثم صلوا علي». وقيس بذلك الإقامة. فالأذان والإقامة من المواطن التي يستحب فيها الصلاة والسلام على النبي، لقوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ أي: بذكر اسمه مقروناً مع اسم الله في

الشهادتين، والأذان، والإقامة، والتشهد في الصلاة، وغير ذلك.

التسبيح بالأسحار على المآذن

أما التسبيح بالأسحار على المآذن، فأول ما حدث كان بمصر. أمر به الصحابي مسلمة بن مخلد، وكان والياً عليها من قبل معاوية بن أبي سفيان. فإنه اعتكف في جامع عمرو بن العاص فسمع أصوات النواقيس عالية، فشكا ذلك إلى شرحبيل بن عامر، عريف المؤذنين بالجامع. ففعل ذلك من نصف الليل إلى قريب الفجر. ثم جرى العمل بذلك في جميع الأقطار الإسلامية من غير استثناء.

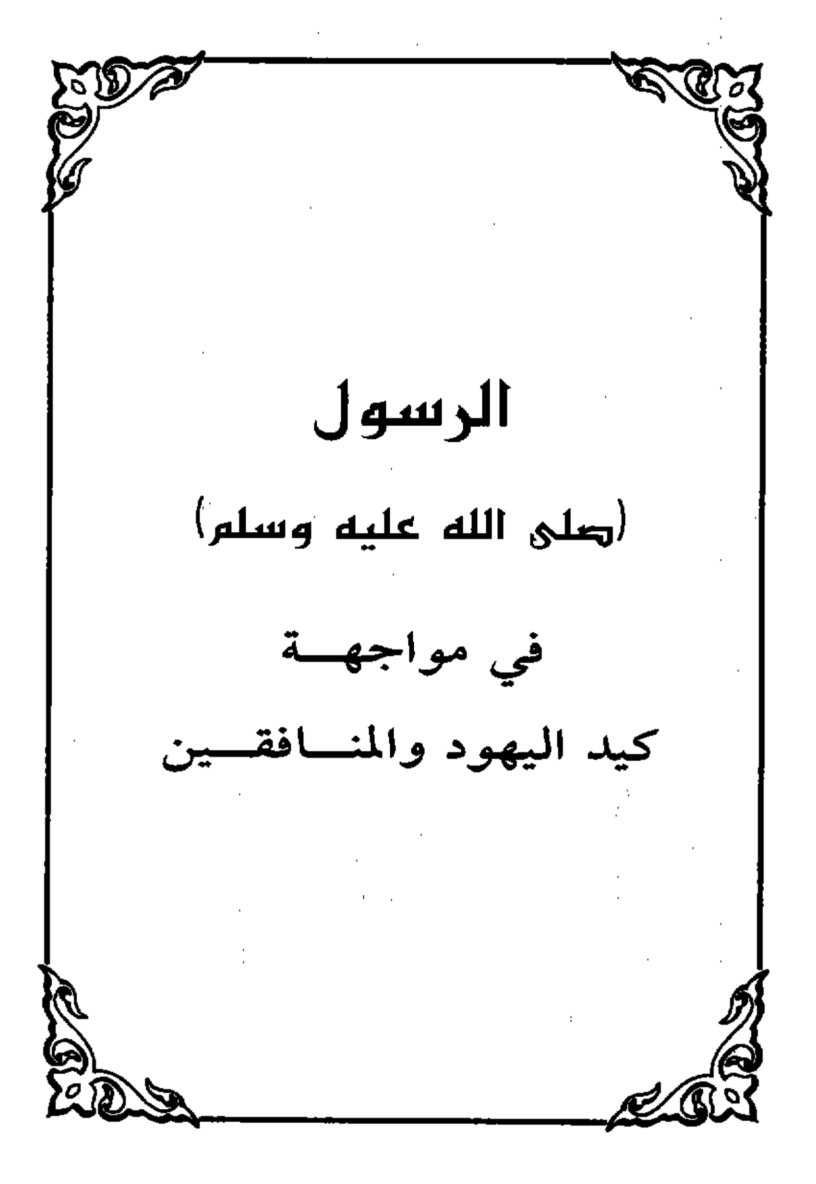
ومن مؤسساته أيضاً: إقامة المنابر للتأذين داخل المساجد. فلما ولي أحمد بن طولون رتب لها جماعة، يكبرون فيها ويسبحون ويحمدون.

إعلان العقيدة الأشعرية فوق المآذن

وفي ولاية صلاح الدين يوسف بن أيوب، حمل الناس على اعتقاد مذهب الإمام الأشعري، والخروج عما كان نشره الفواطم[1] من عقائد الشيعة وتقاليد الباطنية. وأمر المؤذنين أن يعلنوا وقت التسبيح قراءة العقيدة المرشدة، المؤلفة على منهاج الإمام الأشعري في العقيدة، وهي مؤلفة في الثلاث ورقات، فقضى بذلك على مذاهب الشيعة، ونشر مذهب السنة. وذلك بالمواظبة على قراءتها في كل ليلة.

* * *

(١) هكذا وردت. والمقصود بها: (الفاطميون). المحقق.



الرسول

(صلى الله عليه وسلم)

في مواجهــة

كيد اليهود والمنــافقــين

شغب اليهود وتعريضهم بالمسلمين

وأول ما بدا من شغب اليهود وتعريضهم بالإسلام: أنهم كانوا إذا سمعوا الأذان. وقام المسلمون إلى الصلاة قالوا: قاموا لا قاموا وصلوا لا صلوا. على طريق الاستهزاء والسخرية. وفيهم نزل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا﴾[١].

مقاومة اليهود للنبي وإظهار كيدهم للإسلام

لم يكد يستقر النبي والمهاجرون من الصحابة في المدينة، وكثر الواردون عليه لسماع الدعوة الإسلامية، حتى كثر عليها الطلب وغلت الأسعار في المدينة، فاتخذ اليهود من ذلك وسيلة للإرجاف والتقول، لإثارة العرب عليه، بإحداث خلل في الحالة الاقتصادية ومعاكسة القدر لهم، بنقص الأموال والتمر. فردّ الله مزاعمهم بنزول: ﴿**قل كل من عند الله**﴾[٢].

فنزل قوله تعالى في حقهم: ﴿قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾[٣].

وعن صفية أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: كنت أحب ولد أبي إليه، واسم أبيها حيي بن أخطب، وإلى عمي أبي ياسر. وكانا من أكبر اليهود، وأعظمهم. فلما قدم رسول الله المدينة غدوا إليه، ثم جاءا من العشي. فسمعت عمي يقول لأبي: أهو هو؟ قال: نعم والله. قال: أتعرفه وتثبته؟ قال: نعم. قال: فما في نفسك منه؟ قال: عداوته والله! ما بقيت.

وفي رواية أخرى عنها قالت: إن عمي أبا ياسر، حين قدم رسول الله ﷺ ذهب إليه، وسمع منه، وحادثه، ثم رجع إلى قومه فقال:

«يا قوم! أطيعوني. فإن الله قد جاءكم بالذي كنتم تنتظرونه، فاتبعوه ولا

---

(١) سورة (المائدة) الآية: (٥٨).

(٢) تآكل في نهاية الصفحة.

(٣) سورة (آل عمران) الآية: (١١٨).

تخالفوه» ثم انطلق أبي إلى رسول الله ﷺ يتعلم علمه، ولما رجع إلى قومه قال لهم: أتيت من عند رجل، والله لا أزال له عدواً. فقال له أخوه أبو ياسر يا بن أمي. أطعني في هذا الأمر، واعصني فيما شئت بعد، لا تهلك. فقال: والله لا نطيعك. ثم وافق أخاه الآخر حيياً، فكانا أشد اليهود عداوة للرسول ﷺ، جاهداً في رد الناس عن الإسلام، بما استطاعا. فأنزل الله في حقهما:

﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ﴾[1].

تعريض اليهود بالقرآن ونسبة الفقر إلى الله تعالى

ولما نزل قوله تعالى: ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾[2] قالوا: يستقرضنا ربنا؟! وإنما يستقرض الفقير الغني. فأنزل الله منذراً آية: ﴿ لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ ﴾[3] الآية. وقيل: نزلت في (منجاص) فإن رسول الله أرسل أبا بكر إلى منجاص بن عازور، وكان منفرداً بالعلم على يهود بني قينقاع «بعد إسلام عبد الله بن سلام» بكتاب يأمرهم فيه بالإسلام، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وأن يقرضوا الله قرضاً حسناً. فلما قرأ منجاص الكتاب، قال: أقد احتاج ربكم نُسْده؟! وفي رواية: أتزعم أن ربنا يستقرضنا أموالنا؟ وما يستقرض إلا الفقير من الغني. فإن كان حقاً ما تقول، فإن الله جل وعلا إذاً لفقير ونحن أغنياء. فضربه أبو بكر، وقال: لقد هممت، وما منعني أن أضربه بالسيف إلا أن رسول الله ﷺ لما دفع إلي الكتاب قال لي: لا تعنت على شيء حتى ترجع إلي. فجاء منجاص الى النبي ﷺ وشكا أبا بكر. فقال ﷺ: ما حملك

---

(١) سوة (البقرة) الآية: (١٠٩).

(٢) سورة (الحديد) الآية: (١١).

(٣) سورة (آل عمران) الآية: (١٨١).

على ما صنعت؟ قال: قال قولاً عظيماً زعم أن الله فقير، وهم أغنياء، فغضبت لله تعالى. وقال منجاص: والله ما قلت هذا. فنزلت الآية تصديقاً لقول أبي بكر.

إثارة اليهود للفتنة بين المسلمين

ومن اليهود الحريصين على رد العرب عن الإسلام: شاس بن عيسى[1]. كان شديد الطعن على المسلمين، عظيم الحسد لهم. مر يوماً على الأنصار الأوس والخزرج وهم مجتمعون يتحدثون، فغاظه ما رأى من ألفتهم بعد ما كان بينهم من العداوة، فقال: لقد اجتمع بنو قيلة[2] والله ما لنا معهم إذا اجتمعوا من قرار. فأمر فتى من اليهود فقال: اعمد اليهم، واجلس معهم، ثم اذكر يوم بعاث (يوم الحرب الذي كان بين الأوس والخزرج) وأنشدهم ما كانوا يتقاولون به من الأشعار. ففعل. فتكلم القوم عند ذلك، فقال أحد الحيين: قال شاعرنا كذا. وقال الآخر: قال شاعرنا كذا. وتنازعوا وتواعدوا على المقاتلة. فنادى هؤلاء : يا للأوس! ونادى هؤلاء: يا للخزرج! ثم خرجوا، وقد أخذوا السلاح، واصطفوا للقتال. فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين، حتى جاءهم فقال: يا معشر المسلمين! الله. الله. اتقوا الله. يا للخزرج يا للأوس! وأنا بين أظهركم؟ بعد أن هداكم الله إلى الإسلام، وقطع به عنكم أمر الجاهلية، واستنقذكم به من الكفر، وألف به بينكم. وقرأ بين الصفوف:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ﴾[3].

---

(١) لعله (شأس بن قيس) وليس (ابن عيسى) كما ذكره الشيخ. ولم أجد في (سيرة ابن هشام) إلا اثنين باسم (شأس) أحدهم (ابن عدي) والآخر (ابن قيس). فلعله سهو من الشيخ رحمه الله. وهذه القصة رواها (ابن هشام) عن (ابن إسحاق) أن صاحب القصة هو (شأس بن قيس). انظر (السيرة) الجزء (٢) صفحة (٥٥٥). المحقق.

(٢) (قيلة بنت كاهل) أمّ قديمة لقبيلتي الأوس والخزرج. المحقق.

(٣) سورة(آل عمران) الآية: (١٠٠).

فألقوا السلاح وعرفوا أنها نزعة شيطانية، وكيد من عدوهم، فبكوا. وعانق الرجال من الأوس الرجال من الخزرج ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ.
وفي شاس والواقعة التي أحدثها نزل قوله تعالى:

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾[1].

إخبار اليهود العرب بظهور النبي ولما ظهر كفروا به

وعن ابن عباس: أن اليهود كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج، قبل مبعث رسول الله ﷺ يقولون لهم: سيبعث نبي صفته كيت وكيت نقتلكم معه قتل عاد وثمود. ولما بعث رسول الله ﷺ وسبق الأنصار إلى الإيمان به، قال لهم معاذ بن جبل وبشر بن البراء: «يا معشر اليهود اتقوا الله وأسلموا، فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد، ونحن أهل شرك وكفر. وتخبرونا أنه مبعوث، وتصفونه لنا بصفته. فأجابهما سلام بن مشكم، وهو من عظماء يهود بني النضير: ما جاءنا شيء نعرفه، ما هو الذي كنا نذكره لكم. عند ذلك أنزل الله تعالى آية:

﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[2].

وقال رسول الله لمالك بن الصيف، وهو من رؤساء اليهود، وكان يعرض به: سألتك بالذي أنزل التوراة على موسى، هل تجد فيها أن الله يبغض الحبر السمين؟ فأنت الحبر السّمين. فضحك القوم، فغضب والتفت إلى عمر رضي الله عنه وقال: ما أنزل الله على بشر من شيء. فقالت له اليهود: ما هذا الذي بلغنا عنك؟! فقال: إنه أغضبني. فنزعوه بسبب هذه الكلمة من الرئاسة، وجعلوا مكانه كعب بن الأشرف. وفي مالك نزل قوله تعالى:

---

(١) سورة(آل عمران) الآية: (٩٩).
(٢) سورة (البقرة) الآية: (٨٩).

﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ﴾[1].

ومما لا ريب فيه أن يهود المدينة، من بني قريظة وبني النضير وغيرهم، كانوا إذا قاتلوا من بينهم من مشركي العرب، من أسد وغطفان وجهينة وعذرة، قبل مبعثه ﷺ يقولون: اللهم إنا نستنصرك بحق النبي الذي وعدت أنك باعثه في آخر الزمان، إلا نصرتنا عليهم. ولما انتقل رسول الله إلى المدينة، جعل اليهود يتحدونه، ويعجزونه بأسئلتهم، لا للهداية ولكن ليلبسوا الحق بالباطل. ومن جملة أسئلتهم أنهم سألوه عن الروح. فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: كنت أمشي مع النبي ﷺ في حرث المدينة، يتوكأ على عسيب[2] إذ مر بنفر من اليهود. فقال بعضهم لبعض: لا تسألوه لئلا يسمعكم ما تكرهون. فقاموا إليه فقالوا: يا أبا القاسم! ما الروح؟ فسكت، قال ابن مسعود: فظننت أنه ﷺ يوحى إليه. وكان سؤالهم تعجيزاً وتغليظاً. فنزل الوحي بجواب مجمل: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[3].

قالوا: أوتينا علماً كثيراً، أوتينا التوراة، ومن أوتي التوراة، فقد أوتي خيراً كثيراً.

وفي الكشاف: أنهم قالوا: نحن مخصوصون بهذا الخطاب؟ أم أنت معنا فيه؟ قال: نحن وأنتم لم نؤت من العلم إلا قليلاً. فقالوا: ما أعجب شأنك! ساعة تقول: ومن أوتي الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً. وساعة تقول هذا: «ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام، والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله».

---

(١) سورة (الأنعام) الآية: (٩١).
(٢) العسيب: جريدة النخل، مستقيمة دقيقة، يكشط خوصها، والذي لم ينبت عليه الخوص من السعف.
(٣) سورة (الإسراء) الآية: (٨٥).

وسألوه عن الساعة فنزل قوله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴾[1].

وجاء يهوديان إلى رسول الله ﷺ فسألا عن معنى قوله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ﴾[2]، فأجابهما ﷺ: ولا تشركوا بالله شيئاً، ولا تزنوا، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق، ولا تسرقوا، ولا تسحروا، ولا تمشوا ببريء إلى سلطان، ولا تأكلوا الربا، ولا تقذفوا محصنة. وعليكم يا يهود خاصة ألا تعتدوا في السبت. فقالا: نشهد أنك نبي. قال: ما يمنعكما أن تسلما؟ فقالا: نخاف إن أسلمنا أن تقتلنا اليهود[3].

---

(١) سورة (النازعات) الآيات: (٤٢ ـ ٤٤).

(٢) سورة (الإسراء) الآية: (١٠١).

(٣) لم يشر الشيخ، رحمه الله، إلى مصدر هذه الواقعة، فإني لم أعثر عليها في سيرة ابن هشام، وهي تلخيص وتهذيب لسيرة ابن إسحاق. وقد غطت أخبار اليهود والمنافقين والنصارى فيها، قريباً من ثمانين صفحة، اشتملت على كل الوقائع التي ذكرها الشيخ فيما سبق، أو فيما يلحق.

فإنّ المفسرين، اتفقوا على أن الآيات التسع الواردة في الآية الكريمة: إنما هي: العصا، واليد، والطوفان، والجراد، والقمّل، والضفادع، والدم، والجدب، والنقص من الثمرات.

وما أورده الشيخ أقرب إلى الوصايا والشرائع، منه إلى الآيات المعجزات.

وتعدّدت أراء المفسرين في تعداد الآيات التسع، ومن بينهم من قال إنها: ١) ـ اللثغة التي كانت في لسان موسى ـ ٢) ـ عصا موسى ـ ٣) ـ فلق البحر ـ ٤) ـ انبجاس الماء من الحجر ـ ٥) ـ فتق الجبل ـ ٦) ـ الأخذ بالسنين ـ ٧) ـ نقص الثمرات ـ ٨) ـ الطمس ـ ٩) ـ المنّ والسلوى.

والآيات التسع المؤيدة لموسى عليه السلام، تجملها الآيات الكريمة الآتية: الآية (٣٢) من سورة القصص: ﴿ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ ﴾ والآية (١٣٠) من سورة الأعراف: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾.

والآية (١٣٣) من سورة الأعراف: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ صدق الله العظيم. =

وسألوه عن خلق السموات والأرض، والمدة التي ما بينهما. فأجابهم بأن ابتداء الخلق كان في يوم الأحد، ثم أخذ يعدد لهم ما خلق الله في أيام الأسبوع، إلى يوم الجمعة. قالوا: ثم ماذا يا محمد؟ قال: ثم استوى على العرش. قالوا: قد أصبت لو تممت؟ ثم استراح. لأنهم يعتقدون أن الله بعد أن أتم خلق الكائنات، استراح في يوم السبت. فأنزل الله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴾(١).

وقدم حبران من الشام إلى المدينة فلما رأياه قالا له: أنت محمد؟ قال: نعم. قالا: نسألك مسألة إن أخبرتنا بها آمنا بك، فقال: اسألاني. فقالا: أخبرنا عن أعظم الشهادة في كتاب الله تعالى. فنزلت عليه آية:

﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ

= بعد كتابة ما تقدّم من هذا التعليق، اهتديت إلى نص هذه الرواية في تفسير (الشيخ عبد الرحمن الثعالبي) جد المؤلف، وهو (الجواهر الحسان في تفسير القرآن) وتكاد تكون الرواية بنصّها، باستثناء أن الثعالبي الجدّ ذكر «ولا تفرّوا يوم الزحف» ولم يذكر «ولا تزنوا» والثعالبي الحفيد فعل العكس.
غير أن الثعالبي المفسّر في (الجواهر الحسان) قال في تفسير الآية: اتفق المتأوّلون والرواة، أن الآيات الخمس التي في سورة الأعراف هي من هذه التسع. وهي: الطوفان، والجراد، والقمّل، والضفادع. والدم. واختلفوا في الأربع. وفي هذا الاتفاق نظر.
ثم سرد قصّة اليهوديين مع النبي ﷺ.
فهل استقى المؤلف (عبد العزيز الثعالبي) القصّة من جدّه المفسر (عبد الرحمن الثعالبي)؟ للتوسّع يمكن الاستئناس بالتفاسير الآتية، وبغيرها:
- الجواهر الحسان في تفسير القرآن. تحقيق الدكتور عمار الطالبي.
- (تفسير التحرير والتنوير) تأليف الطاهر بن عاشور.
- (صفوة البيان لمعاني القرآن) تأليف حسنين محمد مخلوف.
- (في رحاب القرآن) تفسير سورة (الإسراء) تأليف إبراهيم بن عمر بيّوض.

(١) سورة (ق) الآيتان: (٣٨ـ٣٩).

﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١٨ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾[1].

ولما تلاها عليهما آمنا به، وأسلما، وحسن إسلامهما.

كيف أسلم عبد الله بن سلام؟

قال: بلغني مقدم النبي ﷺ، وأنا في قباء، جاء رجل أخبر بقدومه، وأنا في رأس نخلة فيها، وعمتي تحتي جالسة. فلما سمعت بقدوم رسول الله كبرت، فقالت لي عمتي: لو كنت سمعت لموسى بن عمران ما زدت. فقلت لها: أي عمة! فوالله هو أخو موسى بن عمران، وعلى دينه. بعث بما بعث به. قالت: يا بن أخي! أهو النبي الذي كنا نخبر أنه يبعث مع نفس الساعة؟ فقلت لها: نعم. قال ابن سلام: وكنت عرفته من قبل[2] فكنت مسراً ذلك، ساكتاً عليه، حتى قدم المدينة.

كيف أسلم عبد الله بن سلام ونفعه للمسلمين؟

وهناك يهود أسلموا، وكان في إسلامهم نفع للإسلام، منهم عبد الله بن سلام. وكان اسمه الحصين، ولما أسلم سماه رسول الله: عبد الله. وكان من سلالة يوسف الصديق. وكان من يهود بني قينقاع جاء إلى النبي ﷺ لما دخل دار أبي أيوب. قال: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة انجفل «أسرع» إليه الناس، فكنت ممن أتى إليه، فلما رأيت وجهه، عرفت أنه وجه غير كذاب، لأن

---

(١) سورة (آل عمران) الآيتان: (١٨ ـ ١٩).

(٢) في تاريخ الشام لابن عساكر: أن ابن سلام اجتمع بالنبي ﷺ قبل الهجرة، فقال له النبي: أنت ابن سلام عالم يثرب؟ قال: نعم. فسأله: هل ذكرته التوراة؟ فقال: انسب ربّك. فتوقف. ثم ألهمه الله سورة (الإخلاص) فقرأها. فقال ابن سلاّم: أشهد أنك رسول الله، وأن الله مظهرك، ومظهر دينك على الأديان. وهذه الرواية تدلّ على أنه أسلم في مكة وكتم إسلامه. وعلى هذه الصورة، يكون كل ما قاله في صفة النبي، والثناء عليه، في دار أبي أيوب، كان القصد منه: إقامة الحجة على اليهود، لا إثبات إسلامه؛ لأنه أسلم من قبل في مكة. المؤلف.

صورته وهيئته وسمته ﷺ تدل العقلاء على صدقه. وأنه لا يقول الكذب. وأول كلمة سمعتها منه قوله عليه الصلاة والسلام: «يا أيها الناس أفشوا السلام، وصلوا الأرحام، وأطعموا الطعام، وصلوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام» فلما سمع قوله ﷺ أسلم. وقال: أشهد أنك رسول الله حقاً، وأنك جئت بحق. وقال بعد أن أسلم: رجعت إلى أهل بيتي فأمرتهم فأسلموا، وكتمت إسلامي عن اليهود. ثم جئته ﷺ وكان في بيت أبي أيوب، وقلت له: قد علمت اليهود أني سيدهم، وابن سيدهم، وأعلمهم وابن أعلمهم. فأخبرني يا رسول الله قبل أن يدخلوا عليك، فادعهم واسألهم عني قبل أن يعلموا أني أسلمت، فإنهم قوم بهت يواجهون الإنسان بالباطل. وأعظم قومي عضيهة «كذباً» وأنهم إن يعلموا أني أسلمت، قالوا ما ليس فيّ. وخذ عليهم ميثاقاً أني إذا اتبعتك، وآمنت بكتابك، أن يؤمنوا بك وبكتابك. فأرسل رسول الله إليهم فدخلوا عليه. فقال لهم:

يا معشر يهود! ويلكم اتقوا الله الذي لا إله إلا هو. إنكم لتعلمون أنّي رسول الله حقاً، وأني جئتكم بحق. أسلموا تسلموا. قالوا: ما نعلم. فأعاد عليهم الدعوة ثلاثاً، وهم يجيبونه كذلك. قال: فأي رجل فيكم ابن سلام؟ قالوا: ذاك سيدنا وابن سيدنا، وأعلمنا وابن أعلمنا. قال: أفرأيتم إن شهد أني رسول الله، وآمن بالكتاب الذي أنزل علي، تؤمنون بي؟ قالوا: نعم. فدعاه فقال: يا بن سلام اخرج عليهم، فخرج عليهم. فقال: يا عبد الله بن سلام، أما تعلم أني رسول الله؟ تجدوني عندكم مكتوباً في التوراة والإنجيل. أخذ الله ميثاقكم أن تؤمنوا بي، وأن تتبعوني، من أدركني منكم؟ قال ابن سلام: بلى يا معشر يهود ويلكم! اتقوا الله. والله الذي لا إله إلا هو. إنكم لتعلمون أنه رسول الله حقاً، وإنه جاء بالحق، تجدونه مكتوباً عندكم بالتوراة، اسمه وصفته. قالوا: كذبت. أنت شرنا وابن شرنا. قال ابن سلام: هذا الذي كنت أخاف يا رسول الله. ألم أخبرك أنهم قوم بهت؟! أهل غدر وكذب وفجور، فأخرجهم رسول الله ﷺ وأظهرت إسلامي. وأنزل الله يومئذ في حقه آية:

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ

﴿وَٱسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1].

إسلام ميمون بن يامين

وممن أسلم من اليهود، وحسن إسلامه: ميمون بن يامين. وكان رأس اليهود. وقد فعل مع اليهود مثلما فعل عبد الله بن سلام، فإنه جاء إلى رسول الله ﷺ بعد أن أسلم فقال: ابعث إلى اليهود واعرض عليهم الإسلام، واجعلني حكماً، فإنهم يرجعون إلي. فأدخله داخلاً وأرسل إليهم فجاؤوه ﷺ فقال لهم: اختاروا رجلاً حكماً، يكون بيني وبينكم. قالوا: قد رضينا ميمون بن يامين. فقال: اخرج إليهم. فلما خرج قال: أشهد أنه لرسول الله. فتبرؤوا منه، ولم يقبلوا حكمه.

وقد أجمع كتاب السيرة على أنه لم يسلم من رؤساء اليهود وعلمائهم، إلا عبد الله ن سلام، وميمون بن يامين. وزاد السهيلي: عبد الله بن صوريا[2].

احتجاج اليهود على النبي بإباحته أكل لحوم الإبل

قالوا: زعمت أنك أولى منا بإبراهيم، وأنك على ملته، وأنت تأكل الإبل، وتشرب لبنها. وكان ذلك محرماً في دين الله، من لدن نوح إلى إبراهيم. وقد انتهى علم ذلك إلينا، كما في التوراة فنحن أولى بإبراهيم منك. ونزل القرآن مبيناً بأن حرمتها ليس منصوصاً عليها في دين الله، وإنما إسرائيل «يعقوب» هو الذي حرمها على نفسه. قال تعالى:

﴿۞ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[3].

---

(١) سورة (الأحقاف) الآية: (١٠).

(٢) هو عبد الله بن صوريا الأعور.

(٣) سورة (آل عمران) الآية: (٩٣).

إصلاح القرآن لتقاليد اليهود التي أحدثوها في جزيرة العرب

كانت المرأة منهم إذا حاضت لم يؤاكلوها، ولم يشاربوها، إلى أن تطهر. وكانت تلاقي من ذلك تعباً شديداً. وكان العرب أيضاً في الجاهلية يفعلون مثل ذلك. لم يؤاكلوها، ولم يشاربوها، ولم يساكنوها في بيت. وحكى الواحدي عن المجوس أيضاً: أنهم يفعلون كذلك. ولما سئل رسول الله ﷺ عن ذلك، بادر إلى إزالة هذه العادة المنكرة بنظام صحي، وإنساني معقول، سأله أعرابي في ذلك فقال: يا رسول الله إن البرد شديد، والثياب قليلة. فإن آثرتهنّ بالثياب هلك سائر أهل البيت. وإن استأثر بها هلك الحيّض. فأنزل الله تعالى في ذلك حكماً مصلحاً لهذه العادة: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾[1].

وقال ﷺ: اصنعوا معهن كل شيء إلا النكاح. وجاء في رواية أخرى عنه ﷺ: إنما أمرتم أن تعتزلوا مجامعتهن إذا حضن ولم يأمركم بإخراجهن من البيوت. فلما بلغ ذلك اليهود قالوا: ما يريد هذا الرجل من أمرنا شيئاً إلا خالفنا فيه. فجاء أسيد بن حضير وعباد بن بشر إلى رسول الله ﷺ وقالا: إن اليهود قالت كذا وكذا، فهلا نجامعهن؟ فتغير عند ذلك وجه رسول الله ﷺ. قال بعض الصحابة: حتى ظنناه قد وجد «غضب» عليهما، فلما خرجا استقبلتهما هدية من لبن إلى النبي، فأرسل في إثرهما، فسقاهما، فعرفنا أنه لم يجد عليهما.

تحريض اليهود من أسلم من الأنصار على ترك النفقة على المهاجرين

وكانوا يسعون لدى من أسلم من الأنصار على ألا ينفقوا على المسلمين

---

(١) سورة (البقرة) الآية: (٢٢٢).

من المهاجرين، ويقولون: إنكم إن أنفقتم أموالكم على هؤلاء تفقدونها ونخشى عليكم أن تصابوا بالفقر. فأنزل الله في ذلك: ﴿ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ وَيَكۡتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا﴾[1].

إيذاء اليهود بلحن القول النبي ﷺ

كان اليهود إذا كلموا النبي قالوا: راعنا سمعك، واسمع غير مسمع. ويضحكون فيما بينهم. وكان ذلك بلسانهم السيىء القبيح. فلما سمع المسلمون منهم ذلك ظنوها من قبيل التعظيم فصاروا يقولون ذلك للنبي حتّى فطن لذلك سعد بن معاذ فقد سمعهم يخاطبون النبي بذلك وهم يتضاحكون. فقال لهم : لئن سمعنا من رجل منكم هذا بعد هذا المجلس لأضربنّ عنقه. فأنزل الله في ذلك آية: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرۡنَا وَٱسۡمَعُواْۗ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾[2].

تهكم اليهود بالنبي ﷺ

وقد بلغ من سخافة تهكمهم، وتعريضهم بالشرائع: أن أقبل جماعة منهم على النبي ﷺ بأطفالهم فقالوا له: يا محمد هل على أولادنا هؤلاء من ذنب؟ قال: لا. فقالوا: والذي يحلف به، ما نحن إلا كهيئتهم ما من ذنب نعمله بالليل إلا كفر عنا بالنهار. وما من ذنب نعمله بالنهار إلا كفر عنّا بالليل. فأنزل الله في تفنيد زعمهم: ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَلَا يُظۡلَمُونَ فَتِيلًا﴾[3].

---

(١) سورة (النساء) الآية: (٣٧).

(٢) سورة (البقرة) الآية: (١٠٤).

(٣) سورة (النساء) الآية: (٤٩).

سعيهم في افتتان النبي

اتفق جماعة من أحبار اليهود، وفيهم ابن صوريا «قيل: سلامة» وشاس بن قيس، وكعب بن أسيد. وقالوا: نذهب إلى محمد فنخدعه ونفتنه. فجاؤوا إليه ﷺ فقالوا: يا محمد! قد عرفت أنا أحبار اليهود وأشرافهم، وإن اتبعناك اتبعك كلّ اليهود. فبيننا وبين قوم منا خصومة فنخاصمهم إليك، فتقضي لنا عليهم، فنؤمن بك. فأبى عليهم ذلك، وقال: الحق أحق أن يتبع. فنزل في ذلك آية: ﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾[1].

المنافقون وكيدهم للإسلام

أحصى كتاب السيرة عدد المنافقين، فكانوا ثلاثمئة. وكانوا على أشكال من النفاق يظهرون الإسلام، ويخفون الكفر، وينالون من النبي ﷺ بهذه الواسطة ما لا يناله أشد الأعداء ضراوة. وكان من أظهرهم:

الجلاس بن سويد بن الصامت

قال في حق النبي ﷺ: إن كان هذا الرجل صادقاً، لنحن شر من الحمير. فسمعها ربيبه عمير بن سعد، وكانت أمه تحته فتربى يتيماً في حجره. وكان جلاس يكفله ويحسن إليه. قالها ليلة وكان مستلقياً على فراشه. فقال له عمير: يا جلاس إنك لأحب الناس وأحسنهم عندي يداً، ولقد قلت مقالة لئن رفعتها عليك لأفضحنك، ولئن صممت عليها ليهلكن علي ديني. وللأولى أيسر علي من الأخرى. فمشى إلى رسول الله ﷺ فذكر له مقالة جلاس. فأرسل رسول الله إلى جلاس فحلف بالله لقد كذب علي عمير، وما قلت ما ذكر. قال عمير: بلى والله لقد قلته فتب إلى الله، ولولا أن ينزل القرآن، فيجعلني معك ما قلته. فاستحلف النبي الجلاس عند المنبر فحلف أنه ما قال، فاستحلف عمير فحلف وقال: قد قال، وقال: اللهم أنزل على

(١) سورة (المائدة) الآية: (٤٩).

نبيك تكذيب الكاذب وتصديق الصادق. فقال النبي ﷺ: آمين. فنزل قوله تعالى: ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ فَإِن يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾[1]

ومنهم:

نبتل بن الحارث

الجاسوس. فقد كان يجلس إليه النبي ﷺ، ثم هو ينقل حديثه للمنافقين وهم يذيعونه فيفسدون عليه بذلك تدبيره. وقال في حقه رسول الله ﷺ: من أحب أن ينظر إلى الشيطان فلينظر إلى نبتل بن الحارث. وهو الذي قال في حق رسول الله: إنما محمد أذن، من حدثه بشيء صدقه. فوصل إلى رسول الله، أنه يجلس إليك رجل صفته كذا وكذا، نقال للحديث الذي تحدث به، كبده أغلظ من كبد الحمار، ينقل حديثك للمنافقين فاحذره، فنزل في حقه: ﴿ وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ ﴾[2].

ومنهم:

عبد الله بن أبي بن سلول

وهو معروف برأس المنافقين. ولاشتهاره بالنفاق، لم يُعدّ في الصحابة. وكان من أعظم أشراف أهل المدينة. وكانوا قبل مجيء النبي ﷺ المدينة، قد نظموا له الخرز، ليتوجوه ثم يملكوه عليهم. ولم يبق لإحضار تاجه إلا خرزة واحدة، كانت عند شمعون اليهودي. فلما جاءهم رسول الله ﷺ انصرف عنه قومه إلى الإسلام، فضغن «أضمر» العداوة لأنه رأى أن رسول الله قد سلبه

---

(١) سورة (التوبة) الآية: (٧٤).

(٢) سورة (التوبة) الآية: (٦١).

ملكاً عظيماً. فلما رأى قومه قد أبوا إلّا الإسلام دخل فيه معهم كارها، مصراً على النفاق. وقد كانت له إماء يكرههن على البغاء، ويأخذ أجورهن. وفي حقه نزل قوله تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾(١)

وقد بلغ من نفاقه أنه نزل في حقه أيضاً قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾(٢).

وذكروا في سبب نزول هذه الآية: أن عبد الله بن أبي وأصحابه خرجوا ذات يوم، فاستقبله قوم من أصحاب رسول لله ﷺ فيهم أبو بكر وعمر وعلي رضي الله تعالى عنهم. فقال عبد الله: انظروا كيف أرد هؤلاء السفهاء عنكم. فأخذ بيد أبي بكر فقال: مرحباً بالصديق، سيد بني تميم، وشيخ الإسلام، وثاني رسول الله في الغار، والباذل نفسه وماله لرسول الله ﷺ. ثم أخذ بيد عمر فقال: مرحباً بسيد بني عدي، الفاروق، القوي في دين الله، الباذل نفسه وماله لرسول الله ﷺ. ثم أخذ بيد علي فقال: مرحباً بابن عم رسول الله ﷺ، وختنه، سيد بني هاشم، ما خلا رسول الله ﷺ. ولما أرادوا الانصراف، قال له علي: اتّق الله يا عبد الله ولا تنافق؛ فإن المنافقين شر خليقة الله. فقال له عبد الله: مهلاً يا أبا الحسن إلي تقول هذا؟ والله إن إيماننا كإيمانكم، وتصديقنا كتصديقكم. ولما ذهب أصحاب رسول الله، التفت إلى أصحابه وقال: كيف رأيتموني فعلت؟ فأثنوا عليه، وفي ذلك نزلت الآية.

زواج رسول الله ﷺ بعائشة رضي الله عنها

وفي السنة الأولى من الهجرة أعرس رسول الله ﷺ بعائشة رضي الله عنها. قيل: بعد سبعة أشهر، وقيل: بعد ثمانية أشهر من مقدمه ﷺ. وفي (المواهب اللدنية) كان ذلك في السنة الثانية، في شوال، على رأس ثمانية عشر شهراً. وعن عائشة قالت: لما وصلت المدينة وعكت. كانت إصابتها

(١) سورة النور الآية: (٣٣).

(٢) سورة (البقرة) الآية: (١٤).

بالحمى. وذكر البراء رضي الله عنه قال: دخلت مع أبي بكر الصديق على أهله، فإذا عائشة ابنته مضطجعة، قد أصابتها الحمّى. فرأيت أباها يقبل خدها ويقول: كيف أنت يا بنية؟. وفي كتاب (الاستيعاب) عن عائشة: لما شفيت من مرضها قالت: إن أبا بكر رضي الله عنه قال: يا رسول الله! ما يمنعك أن تبني بأهلك؟ قال: الصداق. فأعطاه أبو بكر اثنتي عشرة أوقية ونشاً[1] فبعث بها إلينا. وبنى بي رسول الله ﷺ. أتتني أمي، وأنا لفي أرجوحة مع صواحب لي، فصرخت بي، فأتيتها ما أدري ما تريد مني وأخذت بيدي، حتّى وقفت بي على باب الدار، وأنا أنهج حتى سكن بعض نفسي. ثمّ أخذت شيئاً من ماء فمسحت به وجهي ورأسي. ثم أدخلتني الدار «وكانت بالمنخ»[2] فإذا نسوة من الأنصار في البيت، فقلن: على الخير والبركة، وعلى خير طائر. فأسلمتني إليهن، وأصلحن من شأني. فلم يرعني إلا رسول الله ﷺ جنبي، فأسلمتني إليه، فأجلستني في حجره، وأنا ابنة تسع سنين. ثم قالت: هؤلاء أهلك بارك الله لك فيهنّ، وبارك لهم فيك. فوثب الرجال والنساء فخرجوا. وبنى بي رسول الله في بيتنا.

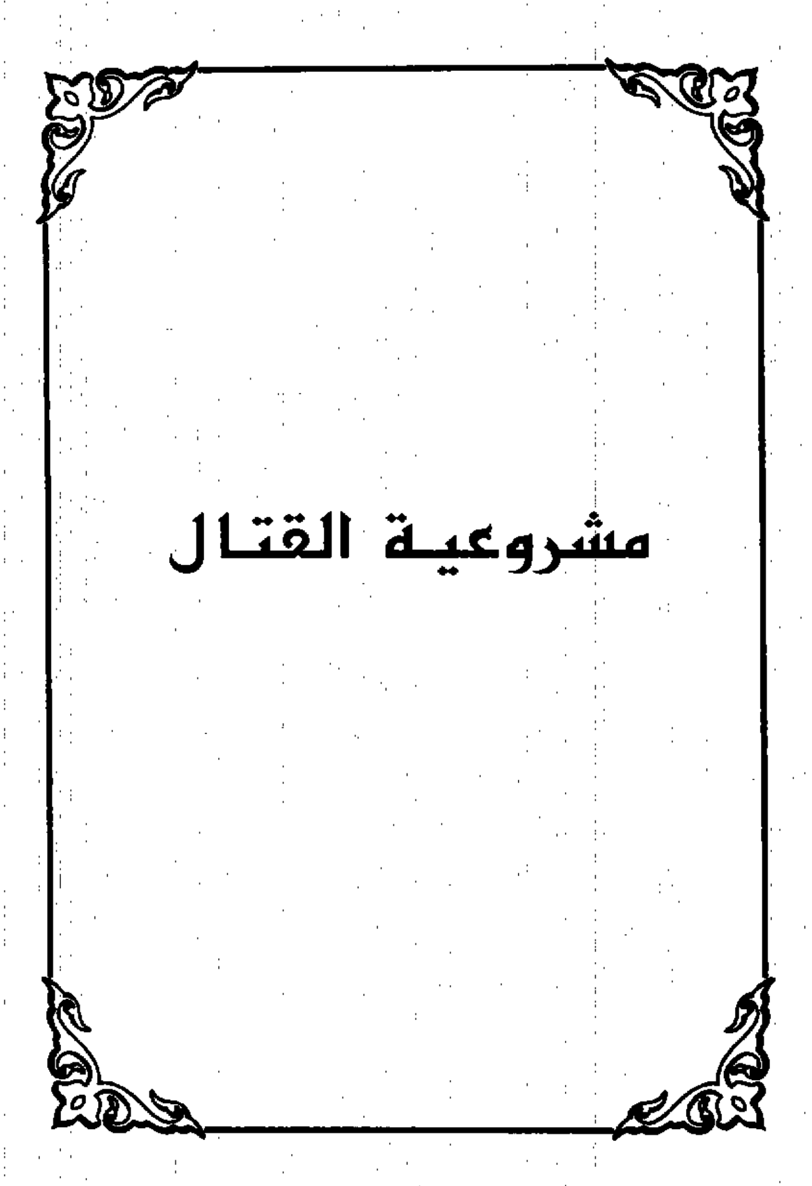
وقد ذكر أصحاب السيرة، أنه بنى بعائشة ولعبتها معها. ونقل عنها أنها كانت تلعب بالبنات أي (اللعب) عند رسول الله ﷺ وكانت تأتيها جويريات يلعبن معها بذلك. وربما كان رسول الله ﷺ يسيّرهن إليها ليلعبن معها. قالت: وقدم رسول الله من غزوة، فهبت ريح فكشفت ناحية من ستر على صفة في البيت عن بنات لي. فقال: ما هذا يا عائشة؟ قلت: بناتي. ورأى بينهن فرساً له جناحان. قال: جناحان؟ قلت: أما سمعت أن لسليمان خيلاً لها أجنحة؟ فضحك ﷺ حتى بدت نواجذه «وما أضحكه إلا سذاجة عائشة في نقلها لهذه الخرافة».

* * *

---

(١) (النش): نصف أوقية، وعشرون درهماً. ودهن منشوش: مربب بالطيب. القاموس.

(٢) الصحيح (بالسنح) موضع بعوالي المدينة، كان به بيت أبي بكر رضي الله عنه. المحقق.



مشروعية القتال

مشروعيّة القتال لتأمين الدعوة وحماية النفس

مكث ﷺ بضع عشرة سنة ينذر قومه ويبشرهم بالدعوة إلى الإسلام، صابراً على شدة إذاية أعداء الإسلام من العرب بمكة والمدينة له ولأصحابه، عملاً بنيف وسبعين آية كانت تأمره بالتبليغ بلا قتال. من بينها آية: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾[1].

فكان يأتيه أصحابه بمكة ما بين مضروب ومشجوج[2]، يشكون من جفاء قومهم، ويطلبون أن يؤذن لهم بالدفاع عن أنفسهم. فيقول لهم ﷺ: اصبروا إلى أن يأذن الله لكم. وكان يريد حقن دماء قومه، وجمع كلمتهم بالحسنى، فلا يزدادون بذلك إلا نفوراً واستكباراً وإذاية. ولما استقر أمره بعد الهجرة إلى المدينة، وكثر المسلمون، وعلا شأنهم، وتضاعف تمسكهم بدينهم الجديد، وآثروا أخوتهم الجديدة عن أواصرهم القديمة التي نبذوها، وقلوها بالرغم مما كان فيها من أبوة وأخوة وقرابة. وتأصلت الخصومة بين الفريقين، ولم يعد لها مفزع إلا السيف، وأصر المشركون على كفرهم وعنادهم.

أذن الله لنبيه أن يدافع عن نفسه، ويقاتل بالمسلمين من قاتله من الكفار واليهود. وإنك لتجد الأسباب الموجبة في مشروعية هذا القتال مبينة في آية:

﴿أذن للذين يقاتلون﴾ «أي: المؤمنين» «أن يقاتلوا» بأنهم ظلموا، «أي: بسبب الاعتداء عليهم بالظلم» ﴿وإن الله على نصرهم لقدير﴾.

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾[3].

شرع لهم الدفاع، بهذه الآية، عن أنفسهم بعد أن كان محذوراً عليهم بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ

---

(١) سورة (النحل) الآيتان: (١٢٧ ـ ١٢٨).
(٢) (الشج): سيلان الدم. القاموس.
(٣) سورة (الحج) الآية: (٣٩).

﴿عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾[1].

غير أنه لما شدد الكفار في التنكيل بالمسلمين، لم يطيقوا صبراً. وذلك بأن جماعة منهم عبد الرحمن بن عوف، والمقداد بن الأسود، وقدامة بن مظعون، وسعد بن أبي وقاص. وكانوا ممن يلقون أذى كثيراً بمكة، خاطبوا الرسول ﷺ في ذلك وقالوا: يا رسول الله كنا في عزة ومنعة، ونحن مشركون، فلما آمنا صرنا أذلة؟ فأذن لنا في قتال هؤلاء. فيقول لهم: كفوا أيديكم عنهم، فإني لم أومر بقتالهم. فلما هاجر ﷺ إلى المدينة وكثر المسلمون، وخاف المشركون واليهود عاقبة أمرهم، وجعلوا يتآمرون عليهم، شرع له الدفاع في صفر من السنة الثانية بآية: ﴿فَإِن قَـٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ﴾[2].

ولا يخفى أن الأمر في هذه الآية للإباحة، لا للوجوب وصيغة أفعل، كما لا يخفى، تأتي لها.

واستمرّ العمل بذلك، إلى أن رمت العرب قاطبة المسلمين عن قوس، وتعرضوا لقتالهم من كل جانب، بحيث كانوا لا يبيتون إلا في السلاح. ولا يصبحون إلا فيه. ويقولون: ترى نعيش حتى نبيت مطمئنين؟ لا نخاف إلا الله عز وجل. ولما كاد يبلغ اليأس قلوبهم وعدهم الله وعداً صادقاً، ليستخلفنهم في الأرض، تثبيتاً لهم على إيمانهم، في آية: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ

---

(١) سورة (النساء) الآية: (٧٧).

(٢) من الآية: (١٩١) من سورة البقرة، وواضح أن الآية تخص القتال في المسجد الحرام ﴿وَلَا تُقَـٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَـٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ﴾ وقد ذهب الشيخ ابن عاشور في (التحرير والتنوير) إلى مدلول الإباحة في الآية، فقال: وقد دلّت الآية بالنصّ على إباحة قتل المحارب إذا حارب في الحرم، أو استولى عليه. الجزء (٢) صفحة (٢٠٤) إنما الآية التي تتماشى مع مشروعية الجهاد التي يعالجها النصّ، هي الآية (١٩٠)، ﴿وَقَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ وصدر الآية: (١٩١) ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾. وعن أبي بكر الصديق، رضي الله عنه: «أوّل آية نزلت في الأمر بالقتال: قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟﴾». المحقق.

﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾[١].

فقويت قلوبهم، وتشجعت نفوسهم، ورسخ يقينهم، ووثقوا بوعد الله. ولما قويت شوكتهم، واشتد بأسهم، أبيح لهم أن يعلنوا الحرب على أعدائهم لإعزاز دينهم، وحماية وطنهم، ولكن في غير الأشهر الحرم وهي: رجب، ذو القعدة، وذو الحجة، ومحرم، بآية: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾[٢].

ولمّا فتحت مكة، ودانت أغلب بلاد العرب بالطاعة إلى الإسلام، أمر الله نبيه بتطهير بقية البلاد العربية من الشرك بآية: ﴿وَقَـٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً﴾[٣] أي: جميعاً في أي زمن من قاتل ومن لم يقاتل.

ويتلخص من ذلك: أن الله شرع أولاً: التبليغ والإنذار في مكة بلا كفاح، وأمره بمقابلة أعداء الدعوة بالصبر، والإعراض عن كل ما يصدر، عنهم من الإيذاء، وبعد الهجرة أذن له بالدفاع دون الابتداء. ثم أمر بالابتداء في غير الأشهر الحرم. ثم استقر الأمر بالابتداء دون قيد، لمطلق تأمين الدّعوة. وكانت مناوراته ﷺ موجهة لقريش، فخرج مراراً يتعرض إبلهم من المسير إلى الشام، ويضايقهم في التجارة حتى ينزلوا على حكمه، ويؤمنهم.

طبيعي أن يتابع الرسول خطة المناورة ضد أعداء دعوته، وخصوم دينه، وقد أصبح صاحب الأمر والنهي في المدينة، وصارت طرق المواصلات بين مكة والشام تحت سيطرته ونفوذه. ولا بدع إذا رأيناه يوجه عنايته لإرهاب قريش وإضعافهم حتى ينزلوا على حكمه، ويقيم شأن العرب.

فإنه لم يكد يستقر في المدينة بسبعة أشهر، حتى بدأ بإخراج سراياه يشنون الغارة على عير قريش، وينزلون القبائل على حكمه، إما بالمناجزة وإما

---

(١) سورة (النور) الآية : (٥٥).
(٢) سورة (التوبة) الآية: (٥).
(٣) سورة (التوبة) الآية: (٣٦).

بالصلح، حتى دانت له جزيرة العرب. ولم ينتدب لهذه السرايا أحداً من الأنصار، بل أبقاهم حتى غزا بهم (بدراً) وهو معهم لأنهم شرطوا عليه: أن يمنعوه في دارهم، ولم يذكر لهم وقت البيعة، أنهم يخرجون معه لمناوأة عدوه، حتى جاءهم الأمر بالتدريج، ورضاً بذلك من تلقاء أنفسهم، فقاتلوا معه خارج المدينة كما سيأتي.

سريّة حمزة بن عبد المطلب إلى العيص

السرية الأولى:

تألفت هذه السرية من ثلاثين رجلاً من المهاجرين، أرسلها رسول الله ﷺ في الشهر السابع للهجرة، تحت قيادة عمه حمزة بن عبد المطلب، تتعرض عيراً لقريش، قافلة من الشام إلى مكة، كان عليها أبو جهل معه ثلاثمئة راكب. فالتقى الطرفان على ساحل البحر الأحمر من ناحية العيص، ولما تصافوا للقتال، أقبل مجدي بن عمرو الجهني، وكان مصالحاً للفريقين، فحجز بينهما، فتحاجزوا بلا قتال. فكان في هذا الصلح، نظراً لقلة عدد المسلمين، وكثرة المشركين، ستر للحال، وحفظ للشرف. ولما بلغ خبر ذلك إلى رسول الله ﷺ قال في مجدي: «إنه ميمون النقيبة، رشيد الأمر».

سرية عبيدة بن الحارث بن المطلب إلى بطن رابغ

السرية الثانية:

خرجت هذه السرية من المدينة على رأس الشهر الثامن من الهجرة في ستين رجلاً من المهاجرين تتعرض عيراً لقريش، عليها مكرز بن حفص، وعكرمة بن أبي جهل، معهم مئتا رجل. رماهم سعد بن أبي وقاص بما في كنانته، وكان فيها عشرون سهماً، ما فيها سهم إلا ويجرح إنساناً، أو دابة.

مطاردته ﷺ عيراً لقريش وخروجه إلى العشيرة واتفاقه مع بني رديح وبني ضمرة

وبها بدأ البخاري ذكر المغازي. كما في رواية زيد بن أسلم، قال: أول

غزوة غزاها معه زيد. وحينئذ لا إشكال في الترتيب. كانت في جمادى الآخرة السنة الثانية، كما في (الإمتاع) وسيرة (الدمياطي) خرج في خمسين ومئة، وفيها في مئتين من المهاجرين خاصة، يريد عيراً لقريش متوجهة للشام. وقد جمعت قريش فيها جميع أموالها، لم يبق في مكة لا قرشي ولا قرشية له مثقال فصاعداً، إلا بعث به في تلك العير. ويقدرون ما تحمله من الأموال بخمسين ألف دينار، وألف بعير. وكان أبو سفيان قائدها ومعه سبعة وعشرون رجلاً، منهم مخرمة بن نوفل، وعمرو بن العاص، وهي العير التي خرج لها حين رجعت من الشام، وحصلت بسببها واقعة بدر الكبرى. ولما خرج في هذه الغزوة من المدينة، استخلف عليها أبا سلمة بن عبد الله المخزومي، وحمل لواءه الأبيض عمه حمزة. وكانوا يتعاقبون على ثلاثين بعيراً. وسار حتى بلغ العشيرة، وهي لبني رديح، فوجدوا العير قد مضت قبل ذلك بأيام. ووادع فيها قبل رجوعه بني رديح حلفاء بني ضمرة، وكتب بينه وبينهم كتاباً، وهو مثل الكتاب الذي وادع فيه بني ضمرة، ورجع ولم يلق حرباً.

حملته ﷺ إلى سقوان لتأديب كرز بن جابر الفهري الذي أغار على سرح المدينة

ويقال لهذه الحملة غزوة بدر الأولى. لما قدم رسول الله ﷺ من حركته إلى العشيرة، لم يقم بالمدينة إلا ليالي، لم تبلغ العشرة، حتى خرج خلف كرز بن جابر الفهري، وكان من رؤساء المشركين. وقد أغار قبل إسلامه على سرح المدينة من النعم والمواشي، فخرج في طلبه حتى بلغ وادي سقوان من ناحية بدر، وكان قد استعمل على المدينة زيد بن حارثة، وجعل لواءه الأبيض لعلي بن أبي طالب. وفاته ﷺ كرز، ولم يدركه. ثم عاد ولم يلق كيداً. فانصرف المشركون دون مقاومة، وفر منهم إلى رسول الله، المقداد بن عمر وعتبة بن غزوان، وكانا مسلمين يخفيان إسلامهما، خرجا مع القافلة، ليرائيا المشركين، وهما يريدان اللحاق برسول الله ﷺ.

سريّة سعد بن أبي وقاص

السريّة الثالثة:

أوفد ﷺ هذه السرية في ذي القعدة، على رأس تسعة أشهر من الهجرة. وكانت مؤلفة من عشرين رجلاً من المهاجرين بقيادة سعد بن أبي وقاص. أوفدها إلى الخوار «وهو واد في الحجاز، يصب في الجحفة». وفي اليوم الخامس صبحوهم في الخوار، فوجدوا العير قد مرت بالأمس، فرجعوا وقد فاتتهم. ولم يلقوا كيداً.

خروجه ﷺ إلى ودان
واتفاقه مع بني ضمرة من كنانة

السرية الرابعة[1]:

مكث ﷺ بالمدينة إلى منتهى السنة الأولى من الهجرة، فخرج في سبعين رجلاً على رأس اثني عشر شهراً من مقدمه المدينة. وكانت رايته البيضاء لعمه حمزة، واستعمل على المدينة سعد بن عبادة، وكان يريد أن يضايق عيراً لقريش، ويكثر على بني ضمرة. وضمرة بن بكر بن عبد مناة بن كنانة بن خزيمة. ولما بلغ ودان قرية كبيرة بينها وبين الأبواء ستة أميال أو ثمانية، وهي في طريق مكة إلى المدينة أتت العير، ولقي بني ضمرة فعقدوا معه صلحاً، على أنهم لا يغزونه ولا يكثرون عليه جمعاً، ولا يعينون عليه عدواً، وإن لهم النصر على من رامهم بسوء، وأنه إذا دعاهم لنصر أجابوه. عقد معه ذلك سيدهم مخشي بن عمرو الضمري، وكتب لهم ﷺ في ذلك كتاباً نصه:

«بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من محمد رسول الله لبني ضمرة. فإنهم آمنون على أموالهم وأنفسهم، وإن لهم النصرة على من رامهم بسوء،

---

(١) عدّها الشيخ (سرية) وهي أوّل غزوة غزاها عليه الصلاة والسلام، كما جاء في (سيرة ابن هشام).

إلا أن يحاربوا في دين الله، وإن النبي إذا دعاهم لنصره أجابوه، عليهم بذلك ذمة الله، وذمة رسوله﴾.

ثمّ كرّ راجعاً إلى المدينة، وكانت غيبته خمس عشرة ليلة.

مطاردته ﷺ لقريش في بواط

وفي شهر ربيع الأوّل من السنة المذكورة خرج في مئتين من أصحابه من المهاجرين خاصة، وكان حامل لوائه سعد بن أبي قاص، وعين سعد بن معاذ على المدينة. وكان يريد مطاردة عير لقريش فيها مئة رجل على رأسهم أمية بن خلف، وألفان وخمسمئة بعير، حتى بلغ بواط وهو جبل الينبع وكان لجهينة من ناحية رضوى. ولما فاتته العير رجع إلى المدينة[1].

سرية أمير المؤمنين عبد الله بن أبي جحش الأسدي إلى نخلة لاستكشاف أحوال قريش

السرية الخامسة:

وهو أحد السابقين إلى الإسلام، الذي لقبه رسول الله بأمير المؤمنين، ولم يلقب به غيره. وكانت هذه السرية في رجب، على رأس سبعة عشر شهراً من الهجرة. وكان معه ثمانية من المهاجرين، وقيل: اثنا عشر. وكانت وجهتهم إلى نخلة، وهو موضع على ليلة من مكة، في طريق الطائف. وكان يتعقب كل اثنين منهم بعيراً. كتب إليه ﷺ كتاباً مختوماً، وأمره ألا ينظر إليه حتى يسير يومين من المدينة، ثم ينظر فيه، فيمضي لما أمره به، وأمره ألا يستكره من أصحابه أحداً.

فلما سار يومين فتح الكتاب فإذا فيه:

«إذا نظرت في كتابي هذا، فامض حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف، فترصد بها قريشاً، وتعلم لنا من أخبارهم».

---

(١) هذه الغزوة، أدرجها الشيخ، رحمه الله، في موضع آخر من المخطوط، وأشار بنقلها إلى هذا الموقع. المحقق.

ثم قال لأصحابه: نهاني رسول الله أن أستكره منكم أحداً، فأبى أن يتخلف منهم أحد. وسلك طريق الحجاز، حتى إذا كان بنجران، أضل سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان بعيرهما الذي كانا يتعقبان[1] عليه فتخلفا في طلبه. ومضى عبد الله وأصحابه في تنفيذ أمر رسول الله حتى نزلوا بنخلة، يترصدون قريشاً. فمرت بهم عير لهم، تحمل زبيباً وجلوداً وتجارة لقريش، فيها عمرو بن الحضرمي، وعثمان ونوفل ابنا عبد الله المخزومي، والحكم بن كيسان فنزلوا قربهم فهابوهم، فكلمهم عبد الله بن جحش بما يزيل رعبهم.

فحلق بعض أصحابه رأسهم، وأشرف عليهم، فلما رأوهم يحلقون أمنوا، وقالوا: عمار «معتمرين» لا بأس منهم، فقيدوا ركائبهم وسرحوها، وصنعوا طعاماً. فتشاور المسلمون في أمرهم وقالوا: نحن في آخر يوم من رجب، أو في أول يوم من شعبان. شكوا في اليوم، أهو من الشهر الحرام أم لا؟ فإن قتلناهم هتكنا حرمة الشهر الحرام، وإن تركناهم دخلوا مكة، فامتنعوا منا. ثم شجّعوا أنفسهم عليه، وأجمعوا على قتل من قدروا عليه منهم. فقتلوا عبد لله بن الحضرمي، رماه عبد الله بن واقد بسهم فقتله. واستأسروا عثمان بن عبد لله المخزومي، والحكم بن كيسان وهرب نوفل بن عبد الله المخزومي، وغنم المسلمون ما معهم.

فقال عبد الله بن جحش: إن رسول الله خمس ما غنمتم، قبل أن يفرض الخمس. وكانت أول غنيمة وأول خمس في الإسلام، وأقبل عبد الله وأصحابه بالعير والأسرى إلى المدينة.

ولما مثلوا بين يدي رسول الله قال لهم: ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام. فسقط في أيدي القوم، وظنوا أنهم هلكوا، وعنفهم إخوانهم بما صنعوا.

---

(١) كثيراً، ما يستعمل الشيخ، رحمه الله، لفظة (التعقّب) بمعنى (التعاقب) المقصود به: التناوب ركوباً على البعير الواحد. والتعقب يعني التتبع: ولا يصح التعقّب عليه، وإنما التعاقب. ومنه تعاقب الليل والنهار. انظر (القاموس). المحقق.

وتكلمت قريش في ذلك قالوا: إن محمداً سفك الدم، وأخذ المال في الشهر الحرام، وأرجفت اليهود بذلك، واستخرجوا من كلمات: «عمرو بن الحضرمي قتله واقد» معاني تتفاءل بها على رسول الله. قالوا: عمرو «عمرت الحرب» وواقد: «وقدت الحرب» وبعثت قريش تعير لرسول الله بفعل أصحاب السرية. وكثر اللغط بذلك، ونزلت الآية: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾[1].

فكانت الآية تأييداً لعمل السرية، وناسخة لحكم الجاهلية الذي يمنع القتل في الأشهر الحرم.

وبعثت قريش إلى رسول الله في فك الأسيرين: عثمان بن عبد الله المخزومي، والحكم بن كيسان، فقال: لا نفديكم بهما حتى يقدم صاحبانا سعد بن أبي وقاص، وعتبة بن غزوان المتخلفين في طلب بعيرهما. فإن قتلا، نقتل بهما صاحبيكم. فقدم سعد وعتبة بعدها بأيام. فأما الحكم بن كيسان فأسلم، وأقام عند رسول الله، حتى قتل شهيداً في واقعة بئر معونة. وأما عثمان فقد عاد إلى مكة إلى أن مات فيها على ملّة قريش.

تحويـل القبلــة

وفي هذا الشهر، أي: رجب، حولت القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة. وهو نصف السنة الثانية من الهجرة. والجمهور على أن التحويل كان في النصف من شعبان. وقد قيل: إنه عليه الصلاة والسلام صلى إلى بيت المقدس سبعة عشر شهرا، وصلى في مسجده إليها بعد إتمامه خمسة أشهر. والأكثرون على أن تحويلها كان في صلاة الظهر. صلى نصفه الأول لبيت المقدس، ونصفه الثاني للكعبة.

أمّا السر في تحويلها، فقد كان يعجبه ﷺ أن تكون قبلته الكعبة، لا سيما

---

(١) سورة (البقرة) الآية: (٢١٧).

وقد بلغه أن اليهود يريدون أن يستغلوا هذا الاستقبال، لإظهار تفوق دينهم على الإسلام، فقد كانوا يقولون: يخالفنا محمد، ويتبع قبلتنا. ويذيعون بين المسلمين، بأننا لو لم نكن على هدى ما صليتم لقبلتنا، فاقتديتم بنا فيها. فأحب أن يستقبل الكعبة كراهية لموافقة اليهود، ولقول كبار قريش للمسلمين: لم تقولون نحن على ملة إبراهيم، وأنتم تتركون قبلته، وتصلون إلى قبلة اليهود؟

وقد ذكر رواة السيرة واقعة التحويل. قالوا: خرج رسول الله ﷺ زائراً أم بشر بن البراء بن معرور في بني سلمة، فصنعن له طعاماً، وحانت صلاة الظهر فصلى رسول الله ﷺ بأصحابه في مسجد هناك، فاستدار رسول الله ﷺ إلى الكعبة، فاستدار النساء مكان الرجال والرجال مكان النساء، أي: تحول من مقدم المسجد إلى مؤخره؛ لأن من استقبل الكعبة في المدينة يلزم أن يستدبر بيت المقدس، كما أن من يستقبل بيت المقدس، يستدير الكعبة. ولو دار ﷺ مكانه، لم يكن خلفه مكان يسع الصفوف.

فخرج عباد بن بشر، وكان صلى مع رسول الله ﷺ ومر على قوم من الأنصار، يصلون العصر وهم راكعون. فقال: أشهد بالله لقد صليت مع رسول الله ﷺ قبل البيت «الكعبة» ثم بلغ أهل قباء ذلك، وهو في صلاة الصبح في اليوم الثاني، وهم ركوع، وقد ركعوا ركعة فنادى مناد: ألا إن القبلة قد حولت إلى الكعبة، فتحولوا إليها.

وفي رواية البخاري: بينما الناس بقباء في صلاة الصبح إذ جاءهم آت فقال: إن رسول الله ﷺ قد أنزل عليه الليلة قرآن، وقد أمر أن يستقبل الكعبة، فاستقبلوها. فاستداروا إلى الكعبة. ويقال: إن المبلغ لهم: عباد بن بشر أيضاً. فيكون عباد أتى بني حارثة أولاً في صلاة العصر، ثم توجه إلى أهل قباء فأعلمهم بذلك في وقت الصبح. والآية التي نزلت في ذلك هي قوله تعالى: ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَيَعْلَمُونَ

﴿أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾[1].

وعن رافع بن خديج قال: أتانا آت ونحن نصلي في بني عبد الأشهل فقال: إن رسول الله قد أمر أن يوجه إلى الكعبة، فدار أمامنا إلى الكعبة، ودرنا معه.

احتجاج اليهود على تحويل القبلة

ولما حولت القبلة، اجتمع قوم من كبار اليهود، وجاؤوا إليه ﷺ وقالوا له: يا محمد ما ولاك عن قبلتك التي كنت عليها؟! وأنت تزعم أنك على ملة إبراهيم ودينه، وما كنت عليه قبلة إبراهيم، ارجع إلى قبلتك التي كنت عليها، نتبعك ونصدقك. وهم إنما يريدون بذلك فتنته، ليعلم الناس أنه في حيرة من أمره. ثم أخذوا يدسون للمسلمين ويفتنونهم في دينهم، ويقولون لهم: ما صرفكم عن قبلة موسى ويعقوب وقبلة الأنبياء؟ والله ما أنتم إلا قوم تفتنون! وفي ذلك نزل قوله تعالى رداً عليهم: ﴿۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾؟[2].

وأما قوله تعالى: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾[3] فقد ذكر بعض الصحابة السبب في نزولها قالوا: كنا في سفر في ليلة مظلمة، فلم ندر أين القبلة؟ فصلى كل منا على حياله، فلما أصبحنا ذكرنا ذلك لرسول الله ﷺ فنزلت الآية.

ولما حولت القبلة إلى الكعبة، أتى رسول الله ﷺ مسجد قباء فقدم جدار المسجد موضعه الآن. وقالت الصحابة: يا رسول الله! لقد ذهب منا قوم قبل التحول، ومنهم رجال ماتوا، وهم عشرون، ثمانية عشر من أهل مكة، واثنان من الأنصار، وهم البراء بن معرور، وأسعد بن زرارة. فلم ندر

---

(١) سورة (البقرة) الآية: (١٤٤).
(٢) سورة (البقرة) الآية: (١٤٢).
(٣) سورة (البقرة) الآية: (١١٥).

ما نقول فيهم. فأنزل الله تعالى في ذلك الآية: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾[1].

وذكر رواة السيرة أن رسول الله ﷺ يتحرى القبلتين في صلاته، لما كان بمكة، يجعل الكعبة بينه وبين بيت المقدس، فلم يتبين للناس توجهه إلى بيت المقدس، حتى خرج من مكة فإنه استدبر الكعبة، واستقبل بيت المقدس.

وكان استقباله لبيت المقدس ليستألف أهل الكتاب، لأنه كان ابتداء الأمر، يحب أن يتألف أهل الكتاب، فيما لم ينه عنه. ولما لقي من اليهود ما يلقاه الحق من الباطل بعد الهجرة إلى المدينة، أحب مخالفتهم، إلى أن أمره الله بتحويل القبلة، فحولها، وخالفهم، فكبر ذلك على اليهود.

التكاليف التي فرضها الله على المسلمين في السنة الثانية

فرض الله في شهر شعبان السنة الثانية من الهجرة بعد تحويل القبلة من التكاليف على المسلمين: صوم رمضان، وزكاة الفطر، وتقديم الأضاحي.

فرض صوم شهر رمضان

روي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: فرض صيام شهر رمضان بعدما صرفت القبلة إلى الكعبة بشهر. وكان ﷺ قبل فرض شهر رمضان، يصوم هو وأصحابه ثلاثة أيام من كل شهر، وهي الأيام البيض: الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر من كل شهر قمري. ونقل عن ابن عباس رضي الله عنهما. كان رسول الله ﷺ لا يفطر الأيام البيض في حضر ولا سفر، وكان يحث على صيامها. وصام أيضاً يوم عاشوراء. وعن البخاري، عن ابن عمر رضي الله عنهما: صام النبي عاشوراء، فلما فرض رمضان ترك صوم عاشوراء. وفي رواية الترمذي عن عائشة قالت: كان عاشوراء يوماً تصومه قريش في الجاهلية، وكان رسول الله ﷺ يصومه موافقة

---

(١) سورة (البقرة) الآية: (١٤٣).

لهم، ولم يأمر أحداً من أصحابه بصيامه، فلما قدم المدينة وكانت اليهود تصومه[(١)] أيضاً وتعظمه. فسألهم عن ذلك؟ فقالوا: يوم عظيم صامه موسى، فنحن نصومه لصيامه. فقال رسول الله ﷺ: نحن أحق بموسى منكم. فصامه وأمر بصيامه. أخرجه البخاري ومسلم. فلما فرض رمضان كان صيامه هو الفريضة، وترك عاشوراء فمن شاء صامه ومن شاء تركه.

فرض الله عز وجل صيام شهر رمضان على رسوله وأمته، وخيرهم بين الصيام أو الإطعام عن كل يوم مسكيناً، بقوله ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ﴾[(٢)] من الأصحاء المقيمين ﴿فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ «زاد على طعام المسكين» ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ﴾. وقال تعالى: ﴿وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ «من الفطر، والإطعام» فكان من شاء صام ومن شاء أطعم. وقد قدر الإطعام عن كل يوم مداً، ورخص فيه للمريض والمسافر، إذا كان له بحيث تحصل له المشقة،

---

(١) ليس المراد باليوم الذي تصومه اليهود: يوم عاشر المحرم على إطلاقه، لأن السنة عند اليهود شمسية لا قمرية فيوم عاشوراء الذي كان عندهم وافق يوم عاشوراء عاشر المحرم من تلك السنة القمرية. وقد يتفقان فيه بعد كل ثلاث وثلاثين سنة. المؤلف.

(٢) فسّر الشيخ، رحمه الله، (الإطاقة) في الآية بمعنى الاستطاعة، والقدرة العفوية، فقال: «من الأصحاء المقيمين» مع أن أغلب المفسرين ذهبوا إلى أن المقصود: «الطاقة مع المشقة» كما أن (الوسع) القدرة على الشيء مع السهولة.

وقد أفاض الشيخ (مخلوف) في (صفوة البيان) في عرض آراء المفسّرين في معنى (يطيقونه) ونقل عن (الراغب): «الطاقة اسم لمقدار ما يمكن للإنسان أن يفعله بمشقة، وذلك تشبيه للطوق المحيط بالشيء. ومنه: «ولا تحمّلنا ما لا طاقة لنا به» أي: ما يصعب علينا مزاولته». وفي اللغة: الطاقة: أقصى الغاية.

وقد ذكر الشيخ (مخلوف) عن سلمة بن الأكوع «لما نزلت هذه الآية، كان من شاء منّا صام، ومن شاء أفطر، ويفتدي» حتى نزلت الآية بعدها، فنسختها: «فمن شهد منكم الشهر فليصمه».

وهذا يؤيد ما ذهب إليه (الثعالبي) في الخيار، أول الأمر، ثم الوجوب، إلا في حالة الإطاقة مع الشدّة والمشقّة.

الفطر. ثم القضاء في حال الصحة والإقامة فقال: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ أي: فعلى من أفطر، صيام عدة ما أفطر من أيام أخر، وكانوا يأكلون ويشربون، ويختلطون بنسائهم اختلاطاً جنسياً، ما لم يناموا بعد الغروب، أو يدخل وقت العشاء الآخرة. فإذا ناموا ودخل وقت العشاء الآخرة، امتنع عليهم ذلك، إلى الليلة القابلة. ثم نسخ ذلك، وأحل الأكل والشرب والاختلاط الجنسي إلى طلوع الفجر، ولو بعد النوم ودخول وقت العشاء الآخرة بقوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾[1] ثم قال: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾.

وقد فهم من ذلك بعض الصحابة الخيط على حقيقته، فصار يجعل عند وسادته حبلاً أبيض وحبلاً أسود. ولكن قيد الفجر يشعر بأن المراد بالخيطين: بياض النهار من سواد الليل.

وقد ذكر العلماء في سبب نزول هذه الآية: أن عمر بن الخطاب، نام مع أهله بعدما صلى العشاء. فلما اغتسل أخذ يبكي، ويلوم نفسه، فأتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله! أعتذر إلى الله وإليك من نفسي، هذه الخاطئة، فقد سولت لي نفسي مجامعة أهلي. فقام رجال فاعترفوا بمثله. فنزلت الآية.

وذكر أيضاً لرسول الله أن بعض أصحابه، سقط مغشياً عليه بسبب الصوم، فسأله ﷺ عن ذلك، فأخبر أنه أهل حرث، وأنه جاء لينظر ما تعمله له زوجته ليتعشى به، فغلبته عينه فنام، فلم يستيقظ إلا بعد الغروب، فلم يتناول شيئاً. فأنزل الله تعالى الآية لرفع الحرج عن المكلفين، فأباح الاستمتاع والأكل والشرب في الليل، من المغرب إلى الفجر.

مشروعية فرض زكاة الفطر وصلاة العيدين والأضحية

فرضت زكاة الفطر قبل العيد بيومين. وكان ﷺ يخطب قبل العيد بيومين، يعلم الناس زكاة الفطر، فيأمر بإخراج تلك الزكاة قبل الخروج إلى

---

(١) سورة البقرة، الآية: (١٨٧).

صلاة العيد؛ لأن تشريعها تأخر عن مشروعية صلاة عيد الأضحى. وكان فرض زكاة الفطر قبل فرض زكاة الأموال. فكان رسول الله ﷺ يرسل منادياً ينادي في الأسواق والأزقة والمحلات: ألا إن صدقة الفطر واجبة. ويأمر بإخراجها عن الصغير والكبير، والحر والعبد، والذكر والأنثى: صاع من تمر، أو صاع من شعير، أو صاع من زبيب أو صاع من بر. فكان يصلي العيدين قبل الخطبة بلا أذان ولا إقامة. وكانت تحمل (العنزلة)[1] بين يديه فإذا وصل المصلي، نصبت تجاهه «وهي عصا قدر نصف الرمح في أسفلها زج من حديد كانت للزبير، قدم بها من الحبشة أخذها منه ﷺ، وكان يصلي إليها». وقد نفل بها الزبير، عبيدة بن معيط بن العاص[2]». وكان ﷺ إذا رجع من صلاة عيد الفطر وخطبته، يقسم زكاة الفطر بين المساكين. وإذا فرغ من صلاة عيد الأضحى وخطبته يؤتى له بكبشين وهو قائم في مصلاه، فيذبح أحدهما بيده. ويقول: هذا عن أمتي جميعاً، من شهد لك بالتوحيد، وشهد لي بالبلاغ. وعن أبي سعيد الخدري، رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ ذبح كبشاً أقرن بالمصلي، بعد أن قال: بسم الله. الله أكبر. وقال : هذا عني وعن من لم يضح من أمتي. ويذبح الآخر ويقول : هذا عن محمد وآل محمد فيأكل هو وأهله منهما، ويطعم المساكين، ولم يترك الأضحية قط .

الخطبة والمنبر

وكان ﷺ يخطب في مسجده يوم الجمعة، قبل أن يوضع له المنبر، يخطب ويسند ظهره إلى أسطوانة من جذوع النخل، عند مصلاه في الحائط القبلي. فلما كثر الناس، قالوا له: لو اتخذت شيئاً تقوم عليه إذا خطبت، يراك الناس وتسمعهم خطبتك. فقال: ابنوا لي منبراً.

---

(١) (العنزلة) هكذا كتبها الشيخ. والصحيح (العنزة) رميح بين العصا والرمح، فيه زجّ. القاموس.

(٢) الفقرة التالية متناقضة مع أمره عليه الصلاة والسلام: بإخراج زكاة الفطر قبل الخروج إلى صلاة العيد. فمن أين جاء بها الشيخ؟!. المحقق.

وفي سيرة الحافظ الدمياطي قالوا: كان رسول الله ﷺ يوم الجمعة يخطب إلى جذع في المسجد قائماً. فقال: إن القيام شق علي. فقال له أحد الصحابة: ألا أعمل لك منبراً؟ كما رأيت تصنعه النصارى بالشام في كنائسهم لأساقفتهم، تسمى بالمرقاة، يصعدون عليها عند تذكيرهم. فتشاور رسول الله ﷺ في ذلك مع المسلمين، فرأوا أن يتخذوه. فقال العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه: لي غلام يقال له كلاب، أعلم الناس بالنجارة. فقال رسول الله ﷺ: مره أن يعمله. فأرسله إلى أكمة بالغابة، فقطعها، ثم عمل منها درجتين ومقعداً. ثم أقبل كلاب، ثم جاء به فوضعه موضعه. وقد صنع في السنة الثامنة من الهجرة.

وبقي المنبر أيام الخلفاء الراشدين، على ما كان عليه أيام رسول الله ﷺ. غير أن عثمان كساه قيطية[1] ولما ولي معاوية الخلافة، كساه قيطية أخرى. ثم كتب إلى مروان بن الحكم، عامله على المدينة أن يرفع ذلك المنبر عن الأرض. فدعا بالنجار، وفعل ست درجات، ورفع ذلك المنبر عليها، فصارت تسع درجات. ثم تهافت المنبر على طوال الزمن، فعمل بعض خلفاء بني العباس منبراً، واتخذ من أعواد المنبر النّبوي أمشاط يتبرك بها، فاحترق هذا المنبر المجدد في حريق المسجد، فبعث المظفر ملك اليمن منبراً بدله. ثم إن الملك الظاهر أبي برس[2] أرسل من مصر منبراً، فرفع منبر صاحب اليمن، ووضع منبر الملك الظاهر فمكث سنتين وثلاثين ومئة سنة، فبدا فيه أكل الأرضة، فأرسل الظاهر برقوق منبراً آخر، ورفع منبر الملك الظاهر بيبرس، ووضع منبر الملك الظاهر برقوق، ومكث أربعاً وعشرين سنة. ثم إن السلطان المؤيد، لما بني مدرسة بالقاهرة، التي يقال لها (المؤيدية)، عمل له أهل الشام منبراً وأرسلوا به إليه، ليجعله في مدرسته، فوجد أهل مصر قد صنعوا له منبراً. فسير المؤيد منبر أهل الشام إلى المدينة، فمكث سبعاً وستين سنة، ثم أحرق في الحريق الواقع في المسجد النبوي، ثاني مرة. ثم جعل

---

(١) لعلها بالواو وليس الياء (قوطية) وفي القاموس (القوطة): الحلّة الكبيرة.

(٢) المؤرخون يكتبونه: (بيبرس)، كما فعل المؤلف في الفقرة اللاحقة.

موضعه منبر مبني بالآجر، مطلى بالنورة[1] فمكث إحدى وعشرين سنة. ثم جعل موضعه المنبر الرخام الموجود الآن.

فرض الزكاة في الأموال

سئل الإمام سراج الدين البلقيني: هل علمت السنة التي فرضت فيها زكاة المال؟ فقال: لم يتعرض الحفاظ، ولا أصحاب السيرة للسنة التي فرضت فيها زكاة المال. والتحقيق أن زكاة المال فرضت بعد زكاة الفطر، في السنة الثانية من الهجرة.

مطاردته ﷺ عيراً لقريش قافلة من الشام
ووقوع حرب بدر الكبرى

ويقال لها (بدر العظمى) و(يوم الفرقان) وقدمنا أن العير التي خرج رسول الله في طلبها حتى بلغ العشيرة وجدها سبقته بأيام. ولم يزل مترقباً قفولها من الشام، فلما وافته الأخبار بذلك، ندب المسلمين إليها، وقال: هذه عير قريش، فاخرجوا إليها، وخذوها. وكان قصده إضعاف قريش، وتضييق الحصار عليها، حتى تثوب إلى أمر الله. فأجاب الدعوة أناس، وثقل آخرون، لظنهم أن رسول الله لن يلقى حرباً، مثلما وقع في الغزوات الأولى، ولم يهتم بها رسول الله ﷺ. وإنما قال: من كان ما يركبه حاضراً فليركب معنا. ولم ينتظر من كان مركبه غائباً عنه، فخرج رسول الله بمن معه إلى (بدر).

ولما دنا أبو سفيان بالعير من أرض الحجاز، أرسل يتحسس الأخبار، فبلغه أن رسول الله ﷺ قد استنفر أصحابه للعير، ويروى أنه لقي رجلاً أخبره أنه ﷺ قد كان عرض لعيره حين صدوره، وأنه تركه مقيماً ينتظر رجوعه. فخاف أبو سفيان خوفاً شديداً، فاستأجر ضمضم بن عمرو الغفاري بعشرين مثقالاً، على أن يأتي مكة، وأن يجدع بعيره، وأن يحول رحله، ويشق

---

(١) (النورة): الهناء. أو القطران، يطلى به. القاموس.

قميصه، من قبله ومن دبره، إذا دخل مكة، ويستنفر قريش، ويخبرهم أن محمداً قد عرض لعيرهم هو وأصحابه. فخرج ضمضم سريعاً إلى مكة.

إذاعة السر

وقبل مقدمه بثلاث ليال، ذاع في مكة أن عاتكة بنت عبد المطلب، عمة النبي ﷺ رأت رؤيا أفزعتها، قصتها على أخيها العباس، وذلك أنها رأت راكباً أقبل على بعير له، حتى وقف بالأبطح، بين المحصب وبين مكة، ثم صرخ بأعلى صوته: ألا فانفروا يا آل غدر «أصحاب الغدر» وعدم الوفاء، إلى مصارعكم في ثلاث. واجتمعت عليه الناس، ثم دخل المسجد، والناس يتبعونه فبينما هم حوله. انتصب به بعيره على ظهر الكعبة، ثم صرخ بمثلها. ثم مثل به بعيره على رأس أبي قبيس، فصرخ بمثلها. ثم أخذ صخرة فأرسلها، فأقبلت تهوي، حتى إذا كانت بأسفل الجبل ارفضت «تكسرت» فما بقي بيت من بيوت مكة ولا دار إلا ودخلها منها فلقة.

وكان حدث بها «الرؤيا» العباس الوليد بن عتبة، فذكرها الوليد لأبيه عتبة، فتحدث بها إلى قريش، فطار ذكرها. قال العباس: فغدوت لأطوف بالبيت، وكان أبو جهل في رهط من قومه قعوداً، يتحدثون برؤيا عاتكة. فلما رآني، قال: يا أبا الفضل إذا فرغت من طوافك، فأقبل إلينا. فلما فرغت أقبلت، حتى جلست معهم. فقال أبو جهل: يا بني عبد المطلب! متى حدثت فيكم هذه النبتة؟! قال، قلت: وما ذاك؟ قال: الرؤيا التي رأت عاتكة! فقلت: وما رأت؟ قال: يا بني عبد المطلب! أما رضيتم أن تستنبأ رجالكم حتى تستنبأ نساؤكم! وحكى له مضمون الرؤيا. ثم قال: فسنتربص بكم هذه الثلاث. فإن يك حقاً ما تقول فيكون. وإن تمضي الثلاث، ولم يكن من ذلك شيء، نكتب عليكم كتاباً، أنكم أكذب بيت في العرب. قال العباس: فوالله ما كان مني، إلا أن جحدت ذلك، وأنكرت أن تكون رأت شيئاً.

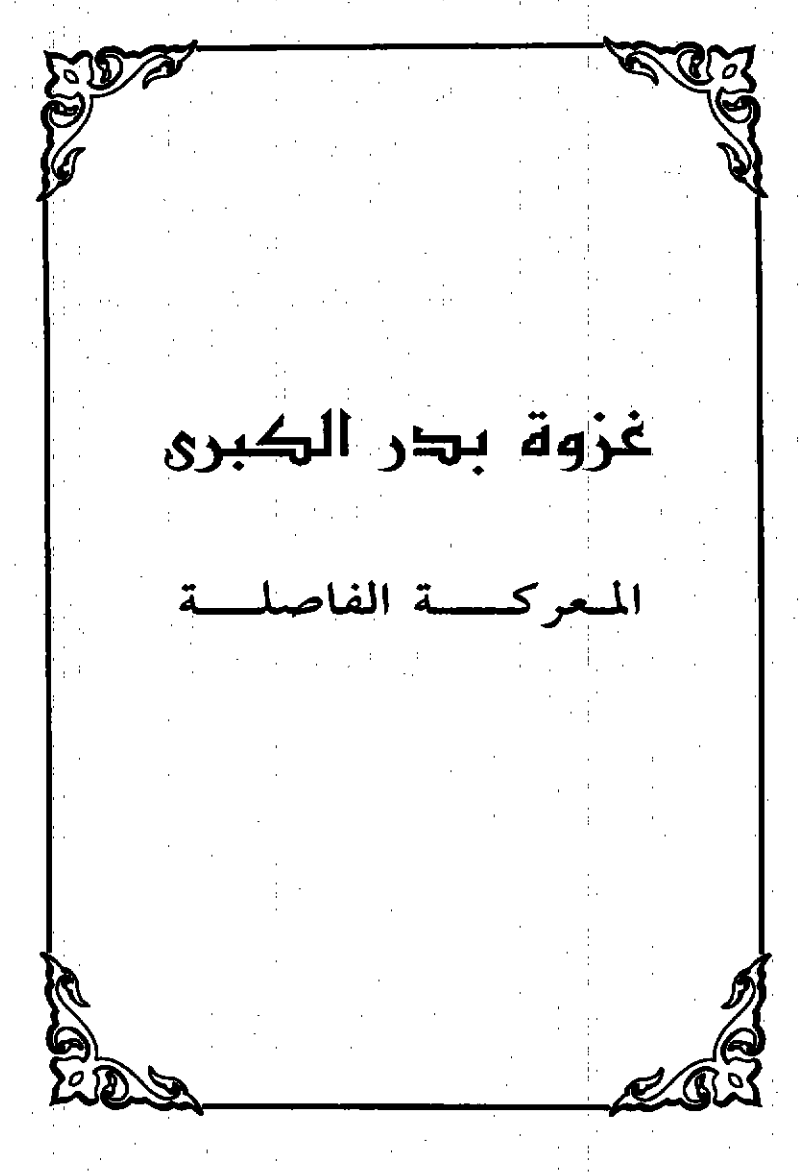
وفي رواية: أعاد إليه شتيمته. فقال: إن الكذب فيك، وفي أهل بيتك. فقال له من حضرهما: ما كنت يا أبا الفضل جهولاً ولا خرفاً. فسكت.

تعنيف نساء بني هاشم للعباس على إذاعة السر

ويقول أصحاب السير: إن العباس لقي من أخته عاتكة أذى شديداً، حين أفشى حديثها. قال العباس: فلما أمسيت، لم تبق امرأة من بني عبد المطلب إلا أتتني تقول: أقررتم لهذا العاجز الخبيث، أن يقع في رجالكم، ثم قد تناول النساء، وأنت تسمع، ثم لم تكن عندك غيرة لشيء مما سمعت! فقلت لهن: وأيم الله لأعرضن له، وإن عاد قاتلته. وغدوت في اليوم الثالث من رؤيا عاتكة، وأنا مغضب، أرى أني قد فاتني منه أمر، أحب أن أدركه منه. فدخلت المسجد فرأيته، وإني لأمشي نحوه. أتعرضه ليعود إلى بعض ما قال، فأوقع به. إذ هو قد خرج نحو باب المسجد يشتد «يعدو» فقلت في نفسي: ماله؟ أكل هذا فرق مني؟ فإذا هو يسمع ما لم أسمع، سمع صوت ضمضم بن عمرو الغفاري، وهو يصرخ ببطن الوادي واقفاً على بعيره، قد جدع أنفه وأذنيه، وحول رحله وشق قميصه. وهو يقول: يا معشر قريش اللطيمة.[1] «المعنى: أدركوا العير التي تحمل الطيب والبر» أموالكم مع أبي سفيان، قد عرض لها محمد في أصحابه، لا أرى أن تدركوها، وإن أصابها محمد، لئن تفلحوا أبداً. الغوث. الغوث.

* * *

(١) (اللطيمة) في القاموس: المسك، أو السوق التي يباع بها، أو العير التي تحمله.



غزوة بدر الكبرى

المعركـــــة الفاصلـــــة

هيجان قريش وتحريض بعضهم بعضاً

على قتال رسول الله

قال العباس: فشغلني عن أبي جهل، وشغله عني ما جاء من الأمر، فتجهز الناس سراعاً، وفزعوا أشد الفزع، وأشفقوا على أنفسهم من رؤيا عاتكة. ويروى أنهم قالوا: أيظن محمد وأصحابه «أن تكون كعير ابن الحضرمي» والله ليعلمن غير ذلك! فكانوا بين رجلين إما خارج، وإمّا باعث مكانه رجلاً. وأعان قويهم ضعيفهم، وقام أشراف قريش يحرضون الناس على الخروج.

وقال سهيل بن عمرو، وهو يحرض قريش على الخروج لقتال الرسول: يا آل غالب! أتاركون محمداً، والصبيان من أهل يثرب، يأخذون أموالكم؟ من أراد مالاً فهذا مالي، ومن أراد قوتاً فهذا قوتي. فخرجت قريش ولم يتخلف من أشرافها إلا أبو لهب، خوفاً من رؤيا عاتكة. فإنه كان يقول: «رؤيا عاتكة كأخذ بيد» وبعث مكانه العاص بن هشام بن المغيرة، استأجره بأربعة آلاف درهم. كانت له عليه ديناً «يقال إن ذلك الدين كان رباً. وقد جاء فيه: وكان لاطه بأربعة آلاف درهم» قال أبو عبيد: «سمى الربا (لياطاً) لأنه ملصق بالبيع وليس ببيع» وأراد أمية بن خلف القعود، وكان شيخاً جسيماً ثقيلاً. فجاء إليه، وهو جالس مع قومه، عقبة بن أبي معيط بمجمرة يحملها حتى وضعها بين يديه ثم قال: يا أبا علي! استجمر، فإنما أنت من النساء. فقال له: قبحك الله، وقبح ما جئت به. ثم أتاه أبو جهل فقال: يا أبا صفوان! إنك متى يراك الناس قد تخلفت، وأنت سيد أهل الوادي، تخلفوا معك، فسر يوماً أو يومين فتجهز مع الناس. وقد علل بعض الرواة تخلفه بسبب آخر قالوا: إن سعد بن معاذ[1] «أتى مكة معتمراً» فنزل عليه

---

(١) تآكل في السطر الأخير من الصفحة (٦٦) من المخطوط. واكتفى (ابن هشام) رواية عن (ابن إسحاق) بالقول: بعداً قبحك الله، وقبح ما جئت به: «ثم تجهز فخرج مع الناس» الجزء (٢) صفحة (٦١٠).

لأن أمية كان ينزل على سعد بالمدينة، إذا ذهب إلى الشام في تجارته. فقال سعد لأمية: انظر لي ساعة خلوة، لعلي أن أطوف بالبيت. فقال أمية لسعد: انتظر حتى إذا انتصف النهار وغفلت الناس، انطلقت فطفت. فخرج للطواف قريباً نصف النهار، ومعه أمية قريباً فبينما سعد يطوف، إذ أتاه أبو جهل، فقال: من هذا الذي يطوف ؟ فقال له سعد بن معاذ: أنا سعد. فقال له أبو جهل: أتطوف بالكعبة آمناً وقد آويتم محمداً وأصحابه؟ وزعمتم أنكم تنصرونهم وتعينونهم. أما والله لولا أنك مع أبي صفوان، ما رجعت إلى أهلك سالماً، فتلاحيا وسعد يرفع صوته بقوله: أما والله إن منعتني هذا لأمنعن ما أشد عليك منه، طريقك إلى المدينة. فصار أمية يقول لسعد: لا ترفع صوتك على أبي الحكم، فإنه سيد أهل الوادي، وجعل يسكت سعداً. فقال سعد لأمية: إليك عني، فإني سمعت محمداً يقول: إنه قاتلك قال: إياي؟ قال: نعم. قال: بمكة؟ قال: لا أدري قال: والله ما كذب محمد. فرجع إلى امرأته فقال: ما تعلمين ما قال أخي اليثربي «يعني: سعد بن معاذ» قالت: وما ذاك؟ قال: زعم أنه سمع محمداً يقول: إنه قاتلي. قالت: فوالله ما يكذب محمد.

فلما جاء الصريخ، وأراد الخروج قالت له امرأته: ما علمت ما قال أخوك اليثربي؟ قال: فإني إذن لا أخرج. فلما صمم على عدم الخروج قيل له ما تقدم[1]. فخرج ناوياً أن يرجع عنهم.

وجاء في كتاب (الإمتاع) أن أمية بن خلف، وعقبة، وشيبة بن ربيعة، وزمعة بن الأسود، وحكيم بن حزام، استقسموا بالأزلام، فخرج لهم القدح الناهي، فأجمعوا على المقام. فجاءهم أبو جهل وأزعجهم وأعانهم على ذلك عقبة بن أبي معيط، والنضر بن الحارث. ويقال: إن عداساً قال لسيديه عتبة وشيبة ابني ربيعة: بأبي وأمي أنتما والله، ما تساقان إلا لمصارعكما. فأرادا عدم الخروج. فلم يزل بهما أبو جهل، حتى خرجا عازمين على العود عن الجيش.

---

(١) وبهذا تكون هذه القصة قبل واقعة (المجمرة) من عقبة بن أبي معيط.

ولما فرغت قريش من جهازها، وكان ذلك في ثلاثة أيام، وأجمعوا السير. وكانوا خمسين وتسعمئة وقيل: كانوا ألفاً. وقادوا مئة فرس، عليها مئة درع، سوى دروع المشاة. قال ابن إسحاق يصف تجهيزهم: خرجوا على الصعب والذلول، معهم القيان «جمع قينة» يضربن الدفوف يغنين بهجاء المسلمين.

أمان سراقة بن مالك المدلجي لقريش من ثار كنانة عليهم

عند خروجهم، ذكروا ما بينهم وبين كنانة من الحرب والدماء وقالوا: نخشى أن يأتونا من خلفنا. وذلك أن قريشاً قتلت شخصاً من كنانة، فمر شاب وضيء من قريش بكنانة في طلب ضالة له، فلما رآه سيدهم عامر بن الخلوج قال له: من أنت يا غلام؟ فانتسب له. فلما ولى، قال عامر لقومه: أما لكم في قريش من دم؟ قالوا: بلى، فأغراهم به فقتلوه. ثم قالت كنانة لقريش: رجل برجل. فرضيت قريش بذلك. ثم إن أخ المقتول ظفر بعامر بن الخلوج، بمر الظهران، فعلاه بالسيف حتى قتله. ثم خاط بطنه بسيفه، ثم جاء وعلقه بأستار الكعبة من الليل. فلما أصبحت قريش رأوا سيف عامر، عرفوه وعرفوا قاتله. وكاد ذلك يثنيهم عن الخروج. فظهر لهم سراقة بن مالك المدلجي وكان من أشراف بني كنانة، وقال لهم: أنا لكم جار من أن تأتيكم كنانة من خلفكم بشيء تكرهونه. فخرجوا سراعاً. وفيه نزل قوله تعالى:

﴿ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ ﴾[1].

---

(١) سورة (الأنفال) الآية: (٤٨) بداية الآية: ﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ ﴾ الآية. وجاء في (التحرير والتنوير): «فلقيهم في سيرهم سراقة بن مالك، في جند معه راية وقال لهم: لا غالب لكم اليوم، وأني مجيركم من كنانة. فلما تقابل الجيشان، نكص سراقة بمن معه، فقال =

تهيؤ رسول الله لحرب قريش

لندع قريشاً يسيرون نحو بدر للدفاع عن اللطيمة. ولنعد إلى رسول الله ﷺ فقد تركناه يجمع أصحابه، يتعرّض بهم للقافلة. ولما خرج من المدينة ضرب عسكره ببئر أبي عتبة، وهي على ميل من المدينة. وأمر أصحابه أن يستقوا منها، وشرب من مائها. ثم أمر أن يعدّ المسلمون، فعدّوا. فعرض أصحابه، ورد من استصغر منهم، وكان ممن ردّه: أسامة بن زيد، ورافع بن خديج، والبراء بن عازب، وأسيد بن ظهير، وزيد بن أرم، وزيد بن ثابت، وعمير بن أبي وقاص. وهذا لما بكى أجازه. وخرج في خمسة وثلاثمئة منهم أربعة وستون من المهاجرين، والباقون كلهم من الأنصار. وخلف عثمان على ابنته رقية في المدينة، وكانت مريضة. وقيل: خلفه لأنه كان مريضاً بالجدري، وكان أبو أمامة بن ثعلبة الأنصاري أجمع الخروج إلى بدر، وكانت أمه مريضة، فأمره بالمقام عليها. واستعمل أبا لبابة والياً على المدينة، ورده من الروحاء وهي قرية على ليلتين من المدينة، واستعمل ابن أم مكتوم على الصلاة بالناس، في المدينة، وخلف عاصم بن عدي على أهل قباء وأهل العالية، للنظر في أمور بلغته عن أهل مسجد الضرار، وبعث ﷺ طلحة بن عبيد الله، وسعيد بن زيد، يتحسسان خبر العدو، وسلم لواءه الأبيض إلى مصعب بن عمير. كما في رواية ابن قتيبة. ولم يذكر غيرها. وفي (الإمتاع) أنه عقد ثلاثة ألوية، لواء يحمله مصعب بن عمير، ورايتان سوداوان، إحداهما مع علي، والأخرى مع رجل من الأنصار: (الحباب بن المنذر) ولبس ﷺ درعه (ذات الفضول) وتقلد سيفه العضب[1] وسار بجيشه وعسكر في

= له الحارث بن هشام: إلى أين؟ أتخذلنا في هذه الحال! فقال: إني أرى ما لا ترون» الجزء (١٠) صفحة (٣٥). المحقق.

(١) في القاموس: (العضباء) لقب ناقة النبي ﷺ والعضباء: الناقة المشقوقة الأذن. ولم تكن ناقة النبي كذلك. و(العضب) من أسماء (السيف) ومن صفاته، أي: القاطع. المحقق.

بيت السقيا، وهي عين بينها وبين المدينة مسيرة يومين، كان يستقي له منها الماء خادمه رباح[١] «وجاء أن رباحاً كان يستقي له من بئر (غرص) مرة ومن (بيت السقيا) مرة».

ولما فصل من بيت السقيا قال: لا يصحبنا إلا من كان على ديننا. وكان فيهم حبيب بن سياف، وهو ذو بأس ونجدة، لم يكن أسلم، ولكنه خرج نجدة لقومه من الخزرج، ففرح به المسلمون، وكرهه رسول الله وقال له: ارجع، فأنا لا أستعين بمشرك، وتكررت من حبيب المراجعة لرسول الله. وفي الثالثة قال له: أتؤمن بالله ورسوله؟ قال: نعم. فأسلم، وقاتل قتالاً شديداً.

إيجاب الإفطار في سفر الطاعة

ولما سار رسول الله ﷺ، وكان سيره في رمضان، صام يوماً أو يومين. ثم أمر الجيش بالإفطار، فلم يفطروا، ثم أمر مناديه أن ينادي: يا معشر العصاة! إني مفطر، فأفطروا. فأفطروا. وكانت الإبل التي معهم سبعين بعيراً، فاعتقبوها كل ثلاثة يعتقبون بعيراً إلا ما كان من حمزة وزيد بن حارثة، وأبي كبشة وأنسية[٢] مولى رسول الله ﷺ فإن هؤلاء الأربعة يعتقبون بعيراً. وكان رسول الله وأبو لبابة وعلي، يعتقبون بعيراً. ولما رد أبا لبابة للمدينة من الروحاء، قام مقامه مرشده. وكان أبو بكر وعمر وعبد الرحمن بن عوف يعتقبون بعيراً. وكان رفاعة وخلاد ابنا رافع،

---

(١) هذا الترقيم في الأصل من المؤلف، ولكنه لم يردفه بهامش. وكثيراً ما يفعل ذلك. على أمل التعليق فيما بعد. ولكنه لا يعود إلى الموضوع مرّة أخرى، أو أن ما ورد بين هلالين هو التعليق المراد؟ المحقق.

(٢) (أنسية) هكذا وردت في المخطوطة وفي طبعة (إ) ولكنها صححت في طبعة (غ) والصحيح (أنسة) مولى رسول الله ﷺ كما ورد في سيرة ابن هشام. ويكنى (أبا مسرح) بالسين وقيل بالشين. شهد بدراً والمشاهد كلها مع رسول ﷺ ﷺ ومات في خلافة أبي بكر. و(أبو كبشة) مولى رسول الله أيضاً. وقيل: أصله من فارس. واسمه سليم. وشهد بدراً والمشاهد كلها مع الرسول، ومات في خلافة عمر في اليوم الذي ولد فيه عروة بن الزبير. المحقق.

وعبيد بن يزيد الأنصاري يعتقبون بعيراً. وفي الإمتاع: كانوا يتعاقبون الإبل الاثنان والثلاثة والأربعة. وأمر رسول الله ﷺ بالأجراس أن تقطع من أعناق الإبل، لئلا تنبه العدو. ولما بلغ الروحاء بعد أن رد أبا لبابة، أمر بإحصاء من معه، فإذا هم ثلاثة عشر وثلاثمئة. ففرح رسول الله ﷺ بهذه الزيادة. وكان في الجيش خمسة أفراس فرسان له ﷺ، وفرس لمرشده يقال له: (السبيل) وفرس للمقداد بن الأسود. ويقال له سبحة[1] وفرس للزبير، ويقال له: (اليعسوب). ولما بلغوا في طريقهم إلى عرق الظبية، لقوا رجلاً من الأعراب، فسألوه عن العدو، فلم يجدوا عنده خبراً. فقال له الناس: سلم على رسول الله. قال: أفيكم رسول لله؟ قالوا: نعم. فسلم عليه. قال: إن كنت رسول الله فأخبرني بما في بطن ناقتي هذه؟ فقال سلامة بن سلامة بن وقش: لا تسل رسول لله. أقبل علي أخبرك. ولما دنا منه، قال له مداعباً نزوت عليها، ففي بطنها منك سخلة[2]؟ فقال له رسول الله: مه، أفحشت على الرجل. فتركوه.

أيهما أحب إليكم العير أم النفير؟

ولما نزلوا بوادي ذفران، وهو قريب من الصفراء، أتاه الخبر عن سير قريش ليمنعوا عيرهم. فاستشار النبي أصحابه، وأخبرهم الخبر: إن القوم قد خرجوا من مكة على كل صعب وذلول مسرعين، فماذا تقولون: العير أحب إليكم، أم النفير؟

فقالت طائفة منهم: بلى يا رسول الله! العير أحب إلينا من قتال العدو. وفي رواية قالوا: هلا ذكرت لنا القتال حتى نتأهب له؟ إنا خرجنا للعير. فعند ذلك تغير وجه رسول الله. وعن أبي أيوب رضي الله عنه: كان هذا التغير سبباً في نزول الآية:

---

(١) (السبحة): فرس للنبي ﷺ وآخر لجعفر بن أبي طالب، وأضاف صاحب (القاموس): وآخر لآخر ولعلّه فرس المقداد بن الأسود المذكور. المحقق.

(٢) (السخلة): ولد الشاة.

﴿ كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ﴾[١].

فقام عند ذلك أبو بكر فقال، وأحسن. ثم عمر فقال، وأجاد. ثم تلاهما المقداد فقال: يا رسول الله امض لما أمرك الله، فنحن معك والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى «اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون» بل تقول: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون. ما دامت منا عين تطرف. فوالله الذي بعثك بالحق نبياً! لو سرت بنا إلى برك الضماد (مدينة بالحبشة)[٢] لجالدنا بالسيوف معك من دونه، حتى نبلغه.

قال ابن مسعود: فرأيت وجه رسول الله ﷺ يشرق لذلك، وسر. وفي الكشاف: فضحك. فقال: خيراً. وسكت. ثم قال: أشيروا عليّ أيها الناس؟ ففهمت الأنصار أنه يعنيهم، وذلك لأنهم أكثرهم عدداً. وإنما كرر رسول الله ﷺ الاستشارة في ذلك المجلس، ليعرف حال الأنصار وفكرتهم. فإنه تخوف، ألا تكون ترى عليها نصرته إلا ممن داهمه بالمدينة من عدوه. وأنه ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو خارج بلادهم، عملاً بظاهر عهدهم له حين بايعوه عند العقبة، فقد قالوا: إنا برءاء من ذمامك، حتى تصل إلى دارنا، فإذا وصلت إليها فأنت في ذمتنا، نمنعك بما نمنع به أبناءنا ونساءنا. ومن ثم قال له سعد بن معاذ سيد الأوس: «وكان لحق به بعد أن رجع من مكة» لعلك تريدنا، معاشر الأنصار، يا رسول الله؟! فقال: أجل. قال: فقد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثقنا، ولعلك يا رسول الله، تخشى أن تكون الأنصار، ترى عليها ألا ينصروك إلا في ديارهم. وإني أقول عن الأنصار وأجيب عنهم: فاظعن حيث شئت، وصل حبل من شئت، واقطع حبل من شئت، وسالم من شئت، وعاد من شئت، وخذ من أموالنا ما شئت، وما أخذت منا كان أحب إلينا مما تركت، وما أمرت فيه من أمر فأمرنا تبع لأمرك، فامض يا رسول الله

---

(١) سورة (الأنفال) الآية: (٥).

(٢) (برك الضماد) في القاموس: موضع باليمن، أو وراء مكة بخمس ليال، أو أقصى معمور الأرض. المحقق.

لما أردت، فنحن معك. والذي بعثك بالحق! لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا، وإنا لصبر في الحرب، صدق في اللقاء، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك. فسر بنا على بركة الله تعالى، فنحن عن يمينك وشمالك، وبين يديك، ومن خلفك.

فسر النبي لذلك، وأشرق وجهه بقول سعد، ونشطه ذلك. ثم قال لأصحابه: سيروا وأبشروا. فإن الله تعالى قد وعدني إحدى الطائفتين. فوالله لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم، فعلموا أنهم ملاقون القتال، وأن العير لا تحصل لهم. ثم ارتحل رسول الله ﷺ من دفران[1] حتى نزل قريباً من بدر.

خروجه ﷺ للاستطلاع

فركب ﷺ هو وأبو بكر، وقيل غيره. حتى وقفا على شيخ من العرب يقال له سفيان، فسأله ﷺ عن قريش؟ وعن محمد وأصحابه، وما بلغه عنهم فقال الشيخ: لا أخبركما حتى تخبراني من أنتما؟ فقال له رسول الله: إذا أخبرتنا عما سألناك أخبرناك عما سألت. فقال الشيخ: ذاك بذاك؟ قال له ﷺ: نعم. قال: قد بلغني أن محمداً وأصحابه، خرجوا يوم كذا وكذا. فإن كان صدق الذي أخبرني به، فهم اليوم بمكان كذا وكذا، للمكان الذي نزل به رسول الله ﷺ وأصحابه. وبلغني أن قريشاً خرجوا يوم كذا وكذا. فإن كان الذي أخبروني به صدق، فهم اليوم بمكان كذا وكذا. للمكان الذي نزلت به قريش. فلما فرغ من خبره. قال: من أنتما؟ فقال له رسول الله: نحن من ماء. ثم انصرفا عنه.

إرسال الكشافة

ولما أمسى ﷺ، بعث علياً بن أبي طالب، والزبير بن العوام، وسعد بن

(١) (دفران) والصحيح (ذفران) وجاء في (معجم البلدان) واد قرب وادي الصفراء. والذفر: كل ريح ذكيّة من طيب أو نتن. المحقق.

أبي وقاص، في نفر من أصحابه إلى بدر، يلتمسون الخبر وأصابوا راوية[1] لقريش. وهم ثلاثة أغيلمة: بشر، غلام عبيدة بن سعيد بن العاص، وغلام منبه بن الحجاج، وأبو راجح، غلام أمية بن خلف. فأتوا بهم لرسول الله وهو قائم يصلي. فقالوا: لمن أنتم؟ وظنوا أنهم لأبي سفيان فقالوا: نحن سقاة لقريش، بعثونا نسقيهم من الماء. فضربوهم، فلما أوجعوهم ضرباً قالوا: نحن لبني سفيان[2]. فلما فرغ رسول الله من صلاته قال: إذا صدقوكم ضربتموهم، وإذا كذبوكم تركتموهم. صدقوا والله، إنهم لقريش. أخبروني عن قريش قالوا: هم وراء هذا الكثيب الذي يرى بالعدوة القصوى، جانب الوادي المرتفع. فقال لهم رسول الله: كم القوم؟ فقالوا: هم والله كثير عددهم، شديد بأسهم. قال: ما عدتهم؟ قالوا: لا ندري. وجهدهم رسول الله أن يخبروه كم هم؟ فأبوا فقال: كم تنحرون من الجزر كل يوم؟ قالوا: يوما تسعاً، ويوما عشراً. فقال ﷺ: القوم بين التسعمئة والألف. لكل جزور مئة. ثم سألهم: فمن فيهم من أشراف قريش؟ قالوا: عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو البختري بن هشام، وحكيم بن حزام، ونوفل بن خويلد، والحارث بن عامر بن نوفل، وطعمة بن عدي بن نوفل، والنضر بن الحارث، وزمعة بن الأسود، وأبو جهل بن هشام وأمية بن خلف، ومنبه بن الحجاج، وسهيل بن عمرو، والعامري، وعمرو بن عبد ود.

وأقبل رسول الله ﷺ على الناس، فقال: هذه مكة، قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها. وكان مسير قريش عشر ليال، حتى بلغوا الجحفة. وهي قرية بقرب رابغ. نزلوا بها عشاء. وفي (الإمتاع) أنهم ردوا القيان منها.

وكان مع قريش رجل من بني المطلب بن عبد مناف، يقال له: جهم بن الصلت، فوضع رأسه ثم أغفى، ثم قام فزعاً، فقال لأصحابه: هل رأيتم الفارس الذي وقع علي؟ فقالوا: لا، قال: قد وقف علي فارس، فقال: قتل أبو جهل وعتبة وشيبة وزمعة وأبو البختري وأمية بن خلف، وفلان وفلان.

---

(١) (الراوية): الزادة فيها الماء. والبغل، والبعير، والحمار، يستقى عليه. القاموس.

(٢) هكذا في الأصل. ولعل الصواب: لأبي.

وعد رجالاً من أشراف قريش، ممن قتل يوم بدر، وقال: أسر سهيل بن عمرو وفلان وفلان، وعد رجالاً ممن أسر. قال: ثم رأيت ذلك الفارس، ضرب في لبة بعيره[1]، ثم أرسله في العسكر: فما من خباء من أخبية العسكر إلا أصابه من دمه. فقال له أصحابه: إنه لعب بك الشيطان. ولما شاعت هذه الرؤيا في العسكر، وبلغت أبا جهل، قال: قد جئتم بكذب بني عبد المطلب مع كذب بني هاشم. سيرون إذاً من يقتل نحن، أو محمد وأصحابه؟!

ومضى رجلان من الصحابة، قبل وصوله ﷺ، وقبل وصول قريش إلى بدر، فنزلا قريباً منه عند تل هناك، ثم أخذا يستقيان، وشخص على الماء، وإذا جاريتان يتلازمان، وتمسك إحداهما الأخرى على الماء، والملزومة تقول لصاحبتها: إنما يأتي العير غداً أو بعد غد فأعمل لهم، وأقضيك الذي لك. فقال ذلك الرجل الذي على الماء: صدقت. ثم خلص بينهما. والصحابيان يسمعان، وجلسا على بعيرهما ثم انطلقا حتى أتيا رسول الله فأخبراه بما سمعا. ثم إن أبا سفيان تقدم العير حذراً، حتى ورد الماء، فلقي ذلك الرجل، فقال له: هل أحسست أحداً؟ قال: ما رأيت أحداً أنكره. إلا أني قد رأيت راكبين قد أناخا إلى هذا التل، ثم استقيا في شن لهما، ثم انطلقا. فأتى أبو سفيان مناخهما فأخذ من أبعار بعيرهما، ففتته، فإذا فيه النوى. فقال: والله علائف يثرب. فرجع إلى أصحابه سريعاً، فصوب عيره عن الطريق، وترك بدراً يساراً. وانطلق حتى أسرع. فلما علم أنه قد أحرز عيره، أسرع إلى قريش، وقد بلغه مجيئهم، وكانوا حينئذ بالجحفة: إنكم إنما خرجتم لتمنعوا عيركم ورجالكم وأموالكم، وقد نجاها الله تعالى، فارجعوا فقال أبو جهل: والله لا نرجع حتى نحضر بدراً فنقيم عليه ثلاثة أيام، فلا بد أن ننحر الجزر، ونطعم الطعام، ونسقي الخمر، وتعزف علينا القيان، وتسمع بنا العرب، وبمسيرنا، وجمعنا. فلا يزالون يهابوننا أبداً بعدها.

---

(١) (الفارس) جاء في (اللسان) إذا كان الفارس راكباً على غير فرس، قلت: فارس على جمل أو فارس على بغل، أو برذون. المحقق.

رجوع بني زهرة عن قتال النبي

ولما أرسل أبو سفيان، يقول لقريش ما تقدم. ورد عليه أبو جهل بما ذكر، قال: إن هذا بغي، والبغي منقصة وشؤم. عند ذلك رجع منهم بنو زهرة، وكانوا نحو المئة، وكان قائدهم الأخنس بن شريق. فقد قال لقومه: يا بني زهرة! قد نجى الله أموالكم، وخلص لكم صاحبكم، مخرمة بن نوفل، وإنما نفرتم لتمنعوه وماله، واجعلوا بي حميتها وارجعوا، فإنه لا حاجة لكم بأن تخرجوا في غير منفعة. لا ما يقول هذا«يعني: أبا جهل». وقال لأبي جهل وقد خالفه: أترى محمداً يكذب؟ فقال: إذا كانت في عبد المطلب السقاية، والرفادة، والمشورة، ثم تكون فيهم النبوة، فأي شيء يكون لنا؟ فانخنس[1] الأخنس، ورجع بنو زهرة. وأراد بنو هاشم الرجوع، فاشتد عليهم أبو جهل وقال: لا تفارقنا هذه العصابة حتى نرجع. ثم لم يزالوا سائرين حتى نزلوا بالعدوة القصوى، قريباً من الماء، ونزل رسول الله بالصحابة بعيداً عن الماء. بينهم وبين الماء رحلة. فظمىء المسلمون، وأصابهم ضيق شديد، وأجنب غالبهم، وقد دخلتهم الأنفة. وقالوا: نحن على الحق، وفينا رسول الله، وقد غلبنا المشركون على الماء، ونحن عطاش، ونصلي مجنبين؟ وما ينتظر أعداؤنا، إلا أن يقطع العطش رقابنا، ويذهب قوانا، فيحكموا فينا السيف كيف شاؤوا. وكان الوادي دهساً «ليناً» كثير التراب، تسيخ فيه الأقدام، فبعث الله السماء، فأطفأت الغبار، ولبدت الأرض «شدتها» فاغتسلوا وشربوا، وملؤوا الأسقية، وسقوا الركائب، وطابت نفوسهم. وفي ذلك نزلت الآية: ﴿ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ ﴾ «وسوسته» ﴿ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴾[2].

وأصاب قريشاً منها ما لم يقدروا على أن يرتحلوا من مكانهم ويصلوا إلى الماء، فكان هذا المطر نعمة وقوة للمسلمين، وبلاء ونقمة على المشركين.

---

(١) «انخنس»: تأخر.

(٢) سورة الأنفال الآية: (١) وبدايتها: ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ... ﴾.

وعن علي، قال: أصابنا من الليل طمس من مطر، فانطلقنا تحت الشجر والجحف، نستظل تحتها من المطر. وبات رسول الله يدعو ربه. وقال: ما كان فينا تلك الليلة قائم، إلا رسول الله ﷺ يصلي تحت شجرة، ويكثر في سجوده. حتى أصبح وأصاب المسلمين نعاس، فلما أن طلع الفجر، نادى ﷺ: الصلاة عباد الله! فجاء الناس من تحت الشجر والحجف، فصلى بنا رسول الله ﷺ وحرض على القتال، في خطبة خطبها في ذلك . فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه: أمّا بعد؛ فإني أحثكم على ما حثكم الله عليه، وإن الصبر في مواطن البأس، مما يفرج الله تعالى به الهم، وينجي به من الغم.

إشارة الحباب بن المنذر في اختيار موقع المعسكر وعمل الرسول بها

ثمّ خرج رسول الله ، فبادر قريشاً إلى الماء، فسبقهم عليه، حتى جاء أدنى ماء من بدر. فنزل به ﷺ فقال له الحباب بن منذر: يا رسول الله! أرأيت هذا المنزل، أمنزل أنزلكه الله تعالى، ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه؟ أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ قال: بل هو الرأي والحرب والمكيدة. قال: يا رسول الله! إن هذا ليس بمنزل، فانهض بالناس حتى تأتي ماء أدنى من ماء القوم، يعني: قريشاً. قال الحباب: فإني أعرف غزارة مائه وكثرته، بحيث لا ينزح فننزله، ثم نغوّر ما عداه من القلب[1]، وهي الآبار الغير مبنية، ثم نبني عليها حوضاً فنملؤه ماء، فنشرب، ولا يشربون؛ لأن القلب كلها حينئذ تصير خلف ذلك القليب. فقال رسول الله ﷺ: لقد أشرت بالرأي. ثم نهض ونهض معه المسلمون، حتى أتوا أدنى ماء من القوم، فنزلوا عليه. ثم أمر ﷺ بالقلب فغورت، وبنى حوضاً على القليب الذي نزل به فملأه ماء ثم قذفوا فيه الآنية. ومن يومئذ قيل للحباب (ذو الرأي) بحيث كان القليب خلف ظهورهم لقطع أطماعهم من الماء. وقال سعد بن معاذ: ألا نبني لك عريشاً يا نبي الله؟ «وهو شيء كالخيمة من جريد يستظل به»

---

(١) مفردها (قليب) كما سيأتي.

تكون فيه، ونعد عندك ركائبك، ثم نلقى عدونا؛ فإن أعزنا الله تعالى، وأظهرنا على عدونا، كان ذلك ما أحببنا، وإن كانت الأخرى، جلست على ركائبك فلحقت بمن وراءنا. فقد تخلف عنك أقوام يا نبي الله! ما نحن بأشد لك حباً منهم، ولا أطوع لك منهم، لهم رغبة في الجهاد. ولو ظنوا أنك تلقى حرباً، ما تخلفوا عنك. فأثنى عليه رسول الله، ودعا له بخير وقال: أو يقضي الله خيراً من ذلك يا سعد، وهو نصرهم وظهورهم على عدوهم. ثم بنى سعد ذلك العريش لرسول الله فوق تل مشرف على المعركة.

وصف عمير بن وهب الجمحي عساكر رسول الله

فلما كان الصباح أقبلت قريش من الكثيب، والصحابة ماكثون في أماكنهم. ولما رأى رسول الله قريشاً، قد أقبلت في الدروع الساترة، والجموع الوافرة، والأسلحة الشاكية. قال: اللهم! هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وعجبها وفخرها، تجادلك وتخالف أمرك، وتكذب رسولك، فأنجز نصرك الذي وعدتني. ولما اطمأنت قريش، أرسلوا عمير بن وهب الجمحي فقالوا: أحزر لنا أصحاب محمد. فأقبل بفرسه حول عسكر الرسول، واستجال بفرسه ثم رجع إليهم. وقال: ثلاثمئة رجل يزيدون قليلاً، أو ينقصون قليلاً، لكن أمهلوني حتى أنظر للقوم كميناً أو مدداً. فذهب في الوادي حتى أبعد فلم ير شيئاً ثم رجع إليهم، وقال: ما رأيت شيئاً، ولكني قد رأيت يا معشر قريش! البلايا «وهي النوق تبرك على قبر صاحبها فلا تعلف ولا تسقى حتى تموت» تحمل المنايا. ألا ترونهم خرساً لا يتكلمون: يتلمضون تلمض الأفاعي! لا يريدن أن ينقلبوا إلى أهليهم. زرق العيون، كالحصى تحت الحجف[1] «وصف للأنصار» قوم ليس لهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم. والله! ما نرى أن نقتل منهم رجلاً حتى يقتل رجلاً منكم، فإذا أصابوا منكم أعدادهم، فما خير العيش بعد ذلك!

---

(١) (الحجف): التروس. مفردها: الحجفة.

نصيحة حكيم بن حزام قريشاً
بالرجوع عن حرب الرسول

فلما سمع حكيم بن حزام ذلك، مشى في الناس، فأتى عتبة بن ربيعة فقال: يا أبا الوليد! إنك كبير قريش، وسيدها المطاع، هل لك إلى أن لا تزال تذكر فيها بخير إلى آخر الدهر؟! قال: وما ذاك يا حكيم؟ قال: ترجع بالناس . فقام عتبة خطيباً فقال: يا معشر قريش! إنكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمداً وأصحابه شيئاً. والله لئن أصبتموه لا يزال رجل ينظر في وجه رجل يكره النظر إليه، قتل ابن عمه، وابن خاله، ورجلاً من عشيرته. فارجعوا، وخلوا بين محمد وبين سائر العرب. يا قوم! اعصبوها اليوم برأسي «اجعلوا عارها متعلقاً بي» «وقولوا: جبن عتبة. وأنتم تعلمون أني لست بأجبنكم».

فقال له حكيم: الرأي عندي، تجير بين الناس، وتحمل دم حليفك عمرو بن الحضرمي؛ الذي قتله واقد بن عبد الله، في سرية عبد الله بن جحش إلى نخلة «وهو أول قتيل قتله المسلمون» وتحمل ما أصاب محمد من تلك العير الذي غنمه عبد الله بن جحش، فإنهم لا يطلبون منه إلا ذاك . فقال عتبة: نعم، قد فعلت، هو حليفي، فعلي عقله، وما أصيب من المال، ونعم ما قلت، ونعم ما دعوت إليه.

عتبة بن ربيعة ينهى قريش عن القتال

وركب عتبة جملاً له، وصار يجيله في صفوف قريش يقول: يا قوم! أطيعوني، فإنكم لا تطلبون غير دم ابن الحضرمي، وما أخذ من العير وقد تحملت ذلك. يا معشر قريش! أنشدكم الله في هذه الوجوه التي تضيء ضياء المصابيح «يعني: وجوه قريش» أن تجعلوها أنداداً لهذه الوجوه التي كأنها عيون الحيات «يعني: الأنصار».

ولما رأى رسول الله عتبة على جمل أحمر قال: إن يكن في أحد من القوم خير،

فعند صاحب الجمل الأحمر، إن يطيعوه يرتدوا. ولما أبصره يجيل جمله في صفوف قريش قال: يا علي! ناد حمزة، وكان أقربهم إلى المشركين. فقال له: من صاحب الجمل الأحمر؟ وماذا يقول لهم؟ فقال: هو عتبة بن ربيعة، ينهى عن القتال. وقال عتبة لحكيم بن حزام: انطلق لابن الحنظلية «يعني: أبا جهل».

والله لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد

قال حكيم: فانطلقت حتى جئت أبا جهل، فوجدته قد سلّ درعاً له من جرابها. فقلت: له يا أبا الحكم! إن عتبة أرسلني إليك بكذا وكذا. قال: انتفخ والله سحره «رئته» وهي كلمة تقال للجبان. ولما تواجه مع عتبة قال: أنت تقول هذا؟ والله لو غيرك قاله لأعضضته[1] وأن قد ملئت رئتك رعباً؟ والله! لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد. وقال لحكيم: ما بعتبة ما قال. ولكنه قد رأى محمداً وأصحابه أكلة جزور «كناية عن القلة» وفيه ابنه أبو حذيفة، «وكان ممن أسلم قديماً» فقد تخوفكم عليه. فغضب عتبة، وسب أبا جهل، وقال: سيعلم أينا أفسد لقومه.

رسول الله يحذر قريشاً ويدعوهم أن يرجعوا عن الحرب

وقبل نشوب الحرب، بعث رسول الله عمر بن الخطاب إلى قريش يقول: ارجعوا، فإنه أن يلي هذا الأمر مني غيركم، أحب إلي من أن تكون مني. فقال حكيم بن حزام: قد عرض نصفاً[2]، فاقبلوه، فوالله لا تنصرون عليه، بعدما عرض من النصف. فقال أبو جهل: والله لا نرجع بعد أن مكننا الله منهم. ثم بعث أبو جهل إلى عامر بن الحضرمي، أخي المقتول عمرو، وقال: هذا حليفك عتبة يريد أن يرجع بالناس، ويخذلهم عن القتال، وقد تحمل دية أخيك من ماله، يزعم أنك قابلها. ألا تستحي أن تقبل الدية من مال عتبة؟

---

(١) (أعضضته) سيفي: ضربته به.

(٢) من (الإنصاف). أي: أصدقهم النصيحة.

وقد رأيت ثأرك بعينك! فقم فاذكر مقتل أخيك . وكان عامر كأخيه المقتول، من حلفاء عتبة. فقام عامر وكشف ثيابه، وحثا التراب على عورته. ثم صرخ: واعمراه، واعمراه! فثارت النفوس.

ثمّ إنّ عتبة بن ربيعة التمس بيضة «خودة» ليدخلها في رأسه، فما وجد في الجيش بيضة تسع رأسه، لعظمها. فاعتجر على رأسه ببرد له «تعمم» ولم يجعل تحت لحيته من العمامة شيئاً. وخرج بين أخيه شيبة، وابنه الوليد، حتى فصل من الصف ، ودعا للمبارزة، فخرج إليه ثلاثة فتية من الأنصار، إخوة أشقاء، هم: معوذ، ومعاذ، وعوف، بنو عفراء. فسألوهم: من أنتم ؟ قالوا: نحن رهط من الأنصار. قالوا: مالنا بكم من حاجة!.

أخرجوا إلينا بني عمّنا

إنما نريد قومنا، أخرجوا إلينا من بني عمّنا. فأمرهم ﷺ بالرجوع فرجعوا إلى مصافهم، وقال لهم خيراً. وعند ذلك نادى مناديهم: يا محمد! أخرج إلينا أكفاءنا من قومنا. فقال النبي: قم يا عبيدة بن الحارث. قم يا حمزة. قم يا علي . وفي رواية: قوموا يا بني هاشم! فقاتلوا بحقكم الذي بعث به نبيكم، إذ جاؤوا بباطلهم ليطفؤوا نور الله. ثم دعا الثلاثة بأسمائهم إلى القيام. فلما قاموا ودنوا، قالوا لهم: من أنتم؟ لأنهم كانوا ملبسين لا يعرفون من السلاح. فتسمّى كل واحد باسمه قالوا: نعم أنتم أكفاء كرام. فبارز عبيدة بن الحارث وكان أسن القوم، أسن من النبي بعشر سنين، عتبة بن ربيعة. وبارز حمزة شيبة. وبارز علي الوليد. فأما حمزة فلم يمهل أن قتل شيبة، وأما علي فلم يمهل أن قتل الوليد، واختلف عبيدة وعتبة سيفيهما بضربتين، كلاهما أثبت صاحبه[1] وكر حمزة وعلي بأسيافهما على عتبة، فدفعاه واحتملا صاحبهما، فجراه إلى أصحابه. وأضجعوه إلى جانب موقفه،

---

(١) (أثبت صاحبه): ضربه ضربة قاتلة لا حراك بعدها. وفسّر بعضهم قوله تعالى ﴿ليثبتوك﴾ ليجرحوك جراحة لا سلامة بعدها. وفي (الجواهر الحسان) للثعالبي: ليوثقوك. المحقق.

فأفرشه رسول الله ﷺ قدمه الشريفة، فوضع خده عليها. وقال له رسول الله ﷺ: أشهد أنك شهيد، بعد أن قال له عبيدة: ألست شهيداً؟ يا رسول الله! فتوفي في الصفراء، ودفن بها عند مرجع المسلمين الى المدينة.

يقيده رسول الله من نفسه

ثم تزاحم الناس، ودنا بعضهم من بعض. وقد كان عدل رسول الله ﷺ صفوف أصحابه بقدح[1] في يده لا نصل له ولا ريش، فمر بسواد بن هشام بن غزية، حليف بني النجار، وهو خارج من الصف فطعنه ﷺ في بطنه بالقدح. قال: استو يا سواد. فقال: يا رسول الله! أوجعتني. وقد بعثك الله بالحق والعدل، فأقدني[2] من نفسك.

فكشف رسول الله ﷺ عن بطنه، وقال: استقد، فاعتنقه، فقبل بطنه الشريف، فقال: ما حملك على هذا يا سواد؟ فقال: يا رسول الله! حضر ما ترى، فأردت أن يكون آخر العهد بك، أن يلمس جلدي جلدك. فدعا له رسول الله بخير.

تعليمات رسول الله للجيش

ولما عدل ﷺ الصفوف قال لهم:

إن دنا القوم منكم فانضحوهم عنكم بالنبل، واستبقوا نبلكم لا ترموهم على بعد، فإنّ الرمي مع البعد غالباً يخطىء، فيضيع النبل بلا فائدة. وقال لهم لا تسلوا السيوف حتى يغشوكم، وخطبهم خطبة، حثهم فيها على الجهاد، وعلى المصابرة فيه، منها:

«وإن الصبر في مواطن البأس، مما يفرج الله عز وجل به الهم، وينجي به من الغم» ثم رجع ﷺ إلى العريش، ودخله ومعه أبو بكر ليس معه غيره. ووقف سعد بن معاذ على باب العريش متوشحاً بسيفه مع نفر من الأنصار،

---

(١) (القدح): السهم قبل أن يراش وينصل.

(٢) من (القود): القصاص.

يحرسون رسول الله ﷺ من كثرة العدو، والجنائب مهيأة له إن احتاج إليها.

ولما اصطف الناس للقتال، رمى قطبة بن عامر حجراً بين الصفين، وقال: لا أفر إلا إن فر هذا الحجر. وكان أول من خرج من المسلمين مهجع مولى عمر بن الخطاب، فقتله عامر بن الحضرمي بسهم أرسله إليه. ومن بعده حارثة بن سراقة. وجاء، أن أبا جهل وأصحابه قالوا حين قتل عتبة وشيبة والوليد: لنا العزى ولا عزى لكم. ونادى منادي رسول الله ﷺ: مولانا ولا مولى لكم، قتلانا في الجنة، وقتلاكم في النار. وفي البخاري، عن ابن عباس: أن رسول الله قال: «وهو في قبة أي: العريش يوم بدر» اللهم! إن تهلك هذه العصابة، ظهر الشرك، ولا يقوم لك دين. وما زال يدعو ربه، ماداً يديه، مستقبلاً القبلة، حتى سقط رداؤه عن منكبه، فأخذ أبو بكر رداءه وألقاه على منكبه، وقال: يا نبي الله! كفاك تناشد ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك.

رجوع سراقة ومعه كنانة عن الحرب

بينما كان سراقة ويده في يد الحارث بن هشام، أخي أبي جهل، فانتزعها من يد الحارث ثم نكص على عقبيه، وتبعه جنده من بني كنانة. فقال الحارث: يا سراقة! أتزعم أنك لنا جار؟ فقال: إني بريء منكم أني أرى ما لا ترون، إني أخاف الله، والله شديد العقاب[1]. وتشبث الحارث بن هشام فيه يستبقيه في ميدان القتال، فلم يستطع فقال: إلى أين؟ والله! لا أرى إلا خفافيش يثرب. ولم يزل كذلك حتى ضربه في صدره فسقط. عند ذلك قال أبو جهل: يا معشر الناس! لايهمكم خذلان سراقة، فإنه كان على ميعاد من محمد، ولا يهمنكم قتل عتبة وشيبة والوليد، فإنهم قد عجلوا. واللات والعزى! لا نرجع حتى نقرن محمداً وأصحابه بالحبال، لا تقتلوهم بل خذوهم باليد.

---

(١) وهذه إشارة إلى سبب نزول الآية: (٤٨) من سورة (الأنفال). المحقق.

قذف التمرات من يده فقاتل حتى قتل

ولما علا النقع، خرج رسول الله ﷺ من العريش إلى الناس، يحرضهم، وهو يقول: والذي نفس محمد بيده! لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل، صابراً محتسباً، مقبلاً غير مدبر، إلا أدخله الله الجنة. فقال عمر بن الحمام: بخ بخ! وكان بيده تمرات يأكلها، ما بيني وبين أن: أدخل الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء؟ فقذف التمرات من يده، وأخذ سيفه، وقاتل القوم حتى قتل. وقاتل في ذلك اليوم معبد بن وهب زوج هريرة بنت زمعة، أخت سودة بنت زمعة أم المؤمنين رضي الله عنها بسيفين. وقال رسول الله لأصحابه: شدوا شدوا. فكانت الهزيمة.

وذكر ابن سعد: أنه لما انهزم المشركون، رؤي رسول الله ﷺ في إثرهم، مصلت السيف، يتلو هذه الآية:

﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ۝ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴾[1].

ثم قال ﷺ: من قتل قتيلاً فله سلبه، ومن أسر أسيراً فهو له.

فلما وضع القوم أيديهم يأسرون، نظر رسول الله إلى سعد، فوجد في وجهه الكراهية لما يصنع القوم، فقال له رسول الله: مالك تكره مايصنع القوم؟ قال: أجل والله يا رسول الله! كانت أول وقعة أوقعها الله بأهل الشرك، فكان الإثخان في القتل والمبالغة فيه، أحب إلي من استبقاء الرجال.

نهي الرسول عن قتل بني هاشم

وقال رسول الله ﷺ لأصحابه: إنكم قد عرفتم أن رجالاً من بني هاشم وغيرهم، قد أخرجوا إكراهاً، لا حاجة لهم بقتالنا. فمن لقي منكم أحداً منهم فلا يقتله. وذكر أبا البختري بن هشام، فقال: من لقي أبا البختري فلا يقتله؛ لأنه كان ممن قام في نقض صحيفة قريش. ونص على العباس بن عبد المطلب. فقال حذيفة وهو ممن أسلم، وهو، ابن عتبة، وعمه شيبة، وأخوه

---

(١) سورة (القمر) الآية: (٤٥).

الوليد، وهم أول من قتل من كفار قريش مبارزة، وعشيرته بنو عبد شمس، قتل منهم جماعة: أيقتل أبناؤنا وآباؤنا وإخواننا وعشيرتنا، ويترك العباس ؟! لئن لقيته لألجمنّه السيف. فبلغت مقالته رسول الله ﷺ، فقال لعمر: يا أبا حفص! أيضرب وجه عم رسول الله بالسيف؟ فقال عمر: يا رسول الله دعني أضرب عنق حذيفة، فوالله لقد نافق. فلم يوافق رسول الله ﷺ. ولقي المجذر رضي الله عنه أبا البختري، فقال له: إن رسول الله ﷺ قد نهانا عن قتلك . فقال: وزميلي؟ وكان له زميل خرج معه من مكة يقال له: جنادة بن حليمة. فقال له المجذر: لا والله! ما نحن بتاركي زميلك. ما أمرنا رسول الله ﷺ إلا بك وحدك. قال: لا والله. إذن لأموتن أنا وهو جميعاً، لا تتحدث عني نساء مكة أني تركت زميلي يقتل، حرصاً على الحياة. فقتله المجذر بعد أن قاتله، ثم أتى رسول الله، فقال: والذي بعثك بالحق! لقد جهدت عليه أن يستأسر فآتيك به، فأبى إلا أن يقاتلني فقتلته.

أبو بكر لا يصدف عن قتل ابنه في سبيل الله

وممن خرج من المشركين في واقعة بدر: عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق رضي الله عنهما. وكان اسمه قبل الإسلام عبد الكعبة، فسماه رسول الله عبد الرحمن. وكان من شجعان قريش ورماتهم المعدودين، وهو أكبر ولد أبيه. وقال لأبيه: لقد أهدفت لي يوم بدر مراراً، فصدفت عنك. فقال أبو بكر: لو هدفت لي لم أصدف. وقد دعاه يوم البراز، فقام إليه أبو بكر ليبارزه، فمنعه رسول الله من الخروج. وقال: متعنا بنفسك يا أبا بكر! أما علمت أنك عندي بمنزل سمعي وبصري. ونقل أن الصديق قال لولده عبد الرحمن يوم بدر وهو مع المشركين: أين مالي؟ يا خبيث! فرد عليه بكلام يفهم منه أنه لم يبق منه إلا عدة الحرب، وفرس سريعة الجري، وجنان يقاتل عليها شيوخ الضلال. فأبى أبو بكر إلا أن يخرج إليه، فنزلت الآية:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ

﴿...اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾[1].

وقيل: إن الآية مدنية، ولم تنزل في هذه الواقعة. قاله ابن ظفر في الينبوع.

أبو عبيدة يقتل أباه في الحرب

وفي واقعة بدر، قتل أبو عبيدة بن الجراح والده، وكان مشركاً قصده ليقتله، فولى عنه أبو عبيدة، لينكف عنه، فلم ينكف فرجع عليه، وقتله. وفي حقه نزلت الآية:

﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾[2].

المرتدون يسقطون في الميدان صرعى

ويوجد كثيرون ممن أسلموا في مكة، وفتنهم أقاربهم، فارتدوا عن الإسلام وهم: الحارث بن ربيعة، وأبو قيس بن الفاكه، وأبو قيس بن الوليد، والعاص بن منبه، وعلي بن أمية بن خلف. أسلموا بمكة. فلما هاجر رسول الله إلى المدينة، حبستهم آباؤهم وعشيرتهم بمكة، وفتنوهم، ثم ساروا مع قومهم إلى بدر، فأصيبوا جميعاً، وفيهم نزلت الآية:

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾[3].

بلال يقتل أمية بن خلف

وحكى لنا عبد الرحمن بن عوف: عن قتل أمية بن خلف وابنه علي، قال: لقيت أمية بن خلف يوم بدر، وكان صديقاً لي في الجاهلية ومعه ابنه

---

(١) سورة (الأنفال) الآية: (٢٤).

(٢) سورة (المجادلة) الآية: (٢٢).

(٣) سورة (النساء) الآية: (٩٧).

علي آخذ بيده، وكان معي درع استلبتها، فلما رآني أمية ناداني، قال: هل لك فيّ؟ فأنا خير لك من هذه الأدرع التي معك، قلت: نعم. فطرحت الأدرع من يدي وأخذت بيده وبيد ابنه علي، وهو يقول: ما رأيت كاليوم قط. ثم قال لي: من الرجل منكم، المعلم بريشة نعامة في صدره؟ قلت: ذلك حمزة بن عبد المطلب. قال: ذلك الذي فعل بنا الأفاعيل. ثم خرجت أمشي بهما، فوالله إني لأقودهما، إذ رآهما بلال معي، وكان هو الذي يعذبه على ترك الإسلام. فقال بلال رأس الكفر أمية بن خلف: لا نجوت إن نجا. فقلت: أي بلال! أفبأسيريّ تفعل ذلك بهما؟ قال: لا نجوت إن نجا. وكررت، وكرر ذلك، ثم صرخ بأعلى صوته: يا أنصار الله! رأس الكفر أمية بن خلف، لا نجوت إن نجا. وكرر ذلك، فأحاطوا بنا، فأصلت بلال السيف من غمده، فضرب رجل ابنه، فوقع، وصاح صيحة ما سمعت مثلها قط. قال: فخشيت أن يلحقونا. فخلفت لهم علياً لأشغلهم به. فقتلوه. قتله عمار بن ياسر، وحبيب بن أساف، ثم أتونا حتى لحقوا بنا، وكان أمية رجلاً ثقيلاً فقلت: ابرك. ولما برك ألقيت نفسي عليه لأمنعه، فتخللوه بالسيوف من تحتي، حتى قتلوه. قتله معاذ بن عفراء، وخارجة بن زيد، وحبيب بن أساف. وكان عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه يقول: يرحم الله بلال، ذهبت أدرعي، وفجعني بأسيري.

شجاعة معاذ بن عمرو بن الجموح

وأمر رسول الله ﷺ أن يلتمس أبو جهل في القتلى، وكان مقتله كما رواه أصحاب السيرة عن معاذ بن عمرو بن الجمرح رأيت أبا جهل قد أحاطوا به وهم يقولون: أبو الحكم، لا يخلص إليه. فلما سمعتها عمدت نحوه، وحملت عليه فضربته ضربة أطنت[1] قدمه بنصف ساقه، فوالله ما شبهتها حين طاحت إلا بالنواة، تطيح من تحت كسر اليابس من الرطب، وضربني ابنه عكرمة على عاتقي، فطرح يدي فتعلقت بجلدة من جسمي، وأجهضني

(١) (أطنّ) ساقه: قطعها.

القتال «شغلني» فلقد قاتلت عامة يومي، وإني لأستحسها خلفي. فلما آذتني، وضعت عليها قدمي، ثم تمطيت عليها حتى طرحتها. ثم قاتل حتى قتل.

وجاء في مغازي ابن عقبة، التي قال عنها مالك بن أنس: أصح المغازي، أن رسول الله وقف على القتلى، والتمس أبا جهل، فلم يجده حتى عرف ذلك في وجهه. ثم قال: اللهم لا تعجزني فرعون هذه الأمّة فسعى له الرجال يبحثون عنه. وفي الصحيحين، عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ من ينظر لنا ما صنع أبو جهل. فانطلق ابن مسعود فوجده قد ضربه معوذ بن عفراء، بعد أن قطع رجله معاذ بن عمرو بن الجموح، حتى برك. قال: فرأيته بآخر رمق، فعرفته، فوضعت رجلي على عنقه. ثم قلت له: أخزاك الله! قال: وبم أخزاني؟! ربما على رجل قتلتموه. وفي رواية: من رجل قتلتموه؟ وجاء أنه قال: يعرض بالأنصار لقد ارتقيت يا رويعي الغنم مرتقى صعباً، أخبرني عن الدبرة[1] «النصرة والظفر» اليوم، لنا أو علينا؟ قلت: لله ولرسوله. فأخذت بلحيته، ووضعت رجلي على رقبته وضربته بسيفي، فلم يغن شيئاً، فبصق في وجهي. وقال: خذ سيفي واحتز به رأسي من عرشي «العرش عرق في أصل الرقبة» ليكون أنهى للرقبة، ففعلت كذلك. ثم جئت به لرسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله! هذا رأس عدوك أبو جهل. وروى الطبراني، قال: الله «بنصب الجلالة»[2] قتلت أبا جهل؟ قلت: نعم. ثم ألقيت رأسه بين يدي رسول الله ﷺ فحمد الله تعالى . فقال: الله أكبر، الله أكبر. الحمد لله الذي صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده. وروى ابن مسعود قال: خرج يمشي معي حتى قام على جثة أبي جهل، فقال: الحمد لله الذي أخزاك. هذا كان فرعون هذه الأمة، ورأس قاعدة الكفر. ونفلني سيفه، وكان قصيراً عريضاً. ومع قصره كان أقصر من سيف ابن مسعود.

---

(١) (الدبرة): العاقبة، والهزيمة في القتال.

(٢) بنصب (لفظ الجلالة)، تعجباً.

وفي البخاري: قاتل أبي جهل معاذ بن عمرو بن الجموح، ومعوذ ابني عفراء. الأول أثخنه، والثاني جرحه. وفي الإمتاع: أنه قال ﷺ: يرحم الله ابني عفراء، فإنهما قد اشتركا في قتل فرعون هذه الأمّة، ورأس أئمة الكفر. «جاء في كتاب النور عن الإمام النوري، أن معاذ ومعوذاً ابني عفراء فالأول ابنها من عمر بن الجموح، والثاني من الحارث، كلاهما تزوجها.

وقد كان الزبير رضي الله عنه قاتل يوم بدر قتالاً شديداً، حتى كان الرجل يدخل يده في الجراح في ظهره وعاتقه.

وكان شعار الأنصار، الذي يتعارفون به في القتال، إذا اعتكر الليل، وحم القتال: أحد أحد، وشعار المهاجرين: يا منصور أمت.

وانكسر في هذه المقاتلة سيف عكاشة بن محصن، وهو يقاتل به، فأعطاه رسول الله ﷺ جذلاً[1] «أصلاً» وقال له: قاتل بهذا يا عكاشة. وكان سيفاً طويل القامة، شديد المتن، أبيض الحديد. فقاتل به رضي الله عنه حتى فتح الله على المسلمين. وكان ذلك السيف يسمى العون، وشهد به عكاشة المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ. ثم لم يزل متوارثاً عند آله، وهو خير أثر لديهم.

وانكسر أيضاً سيف مسلمة بن أسلم فأعطاه ﷺ غيره، كان في يده وقال له: اضرب به فإذا هو سيف جيّد. فلم يزل عنده.

---

(١) (الجذل): أصل كل شجرة، حين يذهب رأسها. هكذا ورد في المخطوطة، وقد تمّ تصحيحه في طبعة (إ) بما يلي: «فناوله رسول الله ﷺ (نصلاً)» أي: سيفاً. المحقق.

صيغة (ابن هشام) أوضح مما ذكره (الثعالبي). قال ابن هشام رواية عن ابن إسحاق: «فأتى رسول الله ﷺ فأعطاه جذلاً من حطب، فقال: قاتل بهذا يا عكاشة، فلما أخذه من رسول الله ﷺ هزه، فعاد سيفاً طويل القامة، شديد المتن، أبيض الحديدة، فقاتل به حتى فتح الله على المسلمين. وكان ذلك السيف يسمى (العون) ثم لم يزل عنده يشهد به المشاهد مع رسول الله ﷺ حتى قتل في الردة وهو عنده، قتله طلحة بن خويلد الأسدي». المحقق.

الأمور بمواراة القتل

ولما انتهت المعركة أمر رسول الله بالقتلى أن ينقلوا من مصارعهم، وأن يطرحوا في القليب، فطرحوا فيه، إلا أمية بن خلف، انتفخ في درعه فملأه، فذهبوا ليحركوه فتزايل، فأقروه، وألقوا عليه ما غيبه من التراب والحجارة. وفي سنن الدارقطني: كان من سننه ﷺ في مغازيه إذا مر بجثة إنسان أمر بدفنه، لا يسأل عنه مؤمناً كان أو كافراً. ولكن لكثرة قتلى بدر من المشركين لم يأمر بدفنهم، بل كان الأمر بجرهم إلى القليب أيسر. وكان الحافر له رجل من بني النجار. ولما ألقي عتبة والد أبي حذيفة في القليب، تغير وجه أبي حذيفة، ففطن له رسول الله فقال له: لعلك دخلك من شأن أبيك شيء فقال: لا، ولكن كنت أعرف من أبي رأياً وحلماً وفضلاً، فكنت أرجو أن يهديه الله للإسلام، فلما رأيت ما مات عليه، أحزنني ذلك.

خطاب رسول الله على قبول المشركين

وعن أنس بن مالك كما ورد في الصحيحين: كان ﷺ إذا ظهر على قوم، أقام بالعرصة[1] ثلاث ليال، فلما كان اليوم الثالث أمر براحلته فشد عليها رحلها. ثم مشى واتبعه أصحابه، حتى قام على شفة القليب، وجعل يقول وهو ينادي المشركين من قتلى قريش بأسمائهم، فقال:

يا عتبة بن ربيعة، يا شيبة بن ربيعة، ويا أمية بن خلف، ويا أبا جهل بن هشام، هل وجدتم ما وعد الله ورسوله حقاً؟ فإني وجدت ما وعدني الله حقاً، بئس عشيرة النبي كنتم، كذبتموني وصدقني الناس وأخرجتموني وآواني الناس، وقاتلتموني ونصرني الناس.

إرسال البشائر إلى المدينة بالنصر والظفر

وبعث ﷺ عبد الله بن رواحة بشيراً لأهل العالية، وهو محل على بعد أميال من المدينة، وزيد بن حارثة بشيراً لأهل السافلة مبشرين بما فتح الله

---

(١) (العرصة): كل بقعة بين الدور واسعة ليس فيها بناء. وكل متّسع من الأرض.

على رسوله والمسلمين. فلما وصل عبد الله بن رواحة العالية، جعل ينادي أهلها: يا معشر الأنصار! أبشروا بسلامة رسول الله، وقتل المشركين، وأسرهم. ونادى زيد بن حارثة في أهل السافلة بمثل ذلك. ويقولون: قتل فلان وفلان، وأسر فلان وفلان، من أشراف قريش، فكان كعب بن الأشرف يكذبهما، ويقول: إن كان محمداً قتل هؤلاء القوم، فبطن الأرض خير من ظهرها.

وجاء رجل من المنافقين لأبي لبابة رضي الله عنه، لما بلغه الخبر وقال له: قد تفرق أصحابكم تفرقاً لا يجتمعون بعده أبداً، قتل محمد وأغلب أصحابه. وهذه ناقة عليها زيد بن حارثة لا يدري ما يقول من الرعب. قال أسامة: فجئت حتى خلوت بأبي لبابة، وسألته عما أسر إليه المنافق؟ فأخبرني به فقلت: أحق ما تقول؟ قال: أي والله! يا بني! فقويت نفسي، ورجعت إلى ذلك المنافق فقلت: أنت المرجف برسول الله ﷺ، لنقدفنك إليه إذا قدم فيضرب عنقك، فقال: إنما هو شيء سمعته من الناس يقولونه. وكان ذلك قبل أن يجتمع بأبيه زيد، ويقف على الخبر. ثم أقبل رسول الله راجعا إلى المدينة. فلما خرج رسول الله من مضيق الصفراء، أحضر الغنائم. وكانت مئة وخمسين من الإبل، وعشرة أفراس، ومتاعاً وسلاحاً، وأنطاعاً[1] وثياب، وأدماً كثيراً كان مع المشركين. ونادى منادي رسول الله ﷺ: من قتل قتيلاً فله سلبه، ومن أسر أسيراً فهو له. وقسم ما بقي بعد إخراج الأسلاب والأسرى على المسلمين بالسوية. واختلف يومئذ في المستحق فقد ادعى من جمع الغنائم أنه أحق بها، وادعى ذلك من كان يحرس رسول الله في العريش. وادعتها جماعة خرجت في أثر العدو عند انهزامه، وادعتها جماعة أحدقوا برسول الله عند انهزام العدو في العريش، خوفاً أن يصيبوا منه غرة، زيادة ممن كانوا به مع سعد بن معاذ.

أحكام قسمة الفيء والغنائم

أنزل الله في واقعة بدر سورة الأنفال، وقد أنهت كل خلاف:

---

(١) (الأنطاع) جمع (نطع): بساط من الأديم الجلد.

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾[1].

والنفل يطلق على الغنيمة، كما هنا، وسميت أنفالاً لأنها زيادة في الأموال. وكذلك الفيء المذكور في سورة الحشر، التي نزلت في غزوة بني النضير، يطلق على الغنيمة. وسمي فيئاً لأن الشارع أفاءه على المؤمنين، رده من الكفار.

وكان أهل الفيء، وهم المقاتلون بمعزل من أهل الصدقة، وأهل الصفة، وهم القصر والضعفاء، وكان يعطى الصدقة اليتيم والمسكين فإذا بلغ اليتيم نقل إلى الفيء، وأخرج من الصدقة، فنزع الشارع هذا الحق من أيديهم، فجعله إلى رسول الله ﷺ خاصة، ليس لأحد من المقاتلة شيء، بسبب خلافهم على مستحقه. ثم نسخ هذا الحكم بآية:

﴿ ۞ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾[2].

والأربع أخماس للمقاتلين (الجند).

فكان الخمس يخمس خمسة أخماس، واحد له ﷺ، يفعل فيه ما أحب. والأربعة الباقية للأصناف الأربعة المذكورة في الآية: ذوي القربى، واليتامى، والمساكين، وابن السبيل، والأربعة الأخماس الباقية من الأصل، تكون لأصناف المقاتلة وحدهم. وقد فعل ذلك عبد الله بن جحش في قسمة غنائم سريته بنخلة، فجعل خمسها لله، والأربعة الباقية للجيش، فأقره رسول الله على ذلك، وبه نزلت الآية.

---

(١) سورة (الأنفال) الآية: (١) وتكملة الآية: ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾.

(٢) سورة (الأنفال) الآية: (٤١).

وأول من أكل مال الغنائم كما في الصحيحين، في واقعة بدر بآية: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا﴾[1].

وقسمت غنائم بدر على القاعدة الآنفة، لم يتميز، في القسمة أحد الراجل مع الراجل والفارس مع الفارس، وقد فضل الفارس على الراجل في ذلك اليوم.

وقد عارض سعد بن أبي وقاص في هذه القسمة، فقال لرسول الله ﷺ: أتعطي فارس القوم «أراد به شجاع» الذي يغيظهم، مثل ما تعطي الضعيف؟ فأجابه ﷺ: ثكلتك أمك! وهل تنصرون إلا بضعفائكم!؟ وقد أسهم لمن لم يحضر، وتخلف بعذر كعثمان بن عفان؛ فإنه خلفه لأجل تمريض زوجته، رقية، وأبي لبابة لأنه خلفه على أهل المدينة، وعاصم بن عدي، لأنه خلفه على أهل قباء والعالية ولمن أرسله لكشف أمر العدو، ويتحسس خبره، وهما: طلحة بن عبد الله وسعيد بن زيد فلم يجيئا إلا وقد انفض القتال، والحارث بن حاطب «أمره بأمر في بني عمرو بن عوف» وخوات بن جبير، والحارث بن الصمة، وقد كسر كل منهما بالزحف، وأسهم لأربعة عشر رجلاً، قتلوا ببدر.

وتنفل ﷺ زيادة على سهمه، سيفه ذا الفقار. وقد اختلف في هل كان لمنبه بن الحجاج أو لعمه نبيه. وتنفل أيضاً جمل أبي جهل وكان «مهرياً» وما كان يأخذه ﷺ قبل قسمة الغنيمة، وكان مع الجيش، يقال له «الصفيّة» عبداً كان أو أمة، أو دابة أو سيفاً أو درعاً. وفي الإمتاع رواية عن محمد بن أبي بكر، كان لرسول الله ﷺ صفي من الغنم، حضر أو غاب.

وكان في الجاهلية يقال للذي يأخذه الرئيس إذا غزا بالجيش: المرباع، وهو ربع الغنيمة، ولم يسمع مرباع إلا في الربع، دون غيره من الخمس وما بعده. والصفايا أشياء كان يصطفيها الرئيس لنفسه من خيار ما يغنم.

والنشيطة، وهي ما أصابه الجيش في طريقه قبل أن يصل إلى مقصده،

---

(١) سورة (الأنفال) الآية: (٦٩).

والنقيعة، وهي البعير الذي ينحره الرئيس قبل القسمة فيطعمه الناس. وقد أبطل الإسلام النشيطة والنقيعة.

عقاب الأسرى المحرضين على الإسلام

قتل النضر

جاء في كتاب الإمتاع: لما كان النبي ﷺ بالصفراء، نظر إلى النضر بن الحارث وهو بين الأسرى، فقال النضر للأسير الذي بجانبه: إن محمداً قاتلي، فإنه نظر إلي بعينين فيهما الموت. فقال له: والله ما هذا منك إلا رعب. فقال النضر لمصعب بن عمير: أنت أقرب من هذا إلي رحماً، فكلم صاحبك أن يجعلني كرجل من المأسورين أصحابي، هو والله قاتلي. فقال مصعب: إنك تقول في كتاب الله كذا وكذا، وتقول في نبيه كذا وكذا، وكنت تعذب أصحابه.

وكان الذي أسر النضر: المقداد بن الأسود، فلما أمر رسول الله بقتله قال المقداد أسيري، فقال له : كان يقول في كتاب الله ما يقول فقتل. وقد رثته أخته، وقيل: ابنته، بمرثية في منتهى الجودة منها قولها:

أمحمد، ولأنت ظنء نجيبة في قومها، والفحل فحل معرق
ما كان ضرك لو مننت، وربما منَّ الفتى، وهو المغيظ المحنق

وحين سمع ذلك رسول الله، رثى لها، وقال: لو بلغني قولها قبل قتله، قبلت شفاعتها ومننت عليه، وكان له أخ اسمه النضر، كان أسنى المهاجرين، وقيل: كان من مسلمة الفتح، وربما يدل له، أنه أمر له رسول الله ﷺ بمئة بعير من غنائم حنين، فجاء رجل يبشره بذلك فقال: لا آخذها. فإني أحسب أن رسول الله لم يعطني ذلك إلا تألّفاً على الإسلام، وما أحب أن أرتشي، فقيل له: إنها عطية، فقبلها. وأعطى المبشر بها عشرة أبعرة.

صلب عقبة بن أبي معيط

وأمر ﷺ بصلب عقبة بن أبي معيط بعرق الظبية، وهي شجرة يستظل بها. قال: من للصبية يا محمد؟ قال: النار. ثم نادى: يا معشر قريش! مالي

أقتل من بينكم صبراً؟ وأنا واحد منكم. فقال: كفرك، وفجورك، وعتوك على الله ورسوله. وذكره بزاقه في وجهه في مكة، كما تقدم. وهو أول كافر صلب في الإسلام.

فدى الأسرى وفكاكهم

ثم سار رسول الله ﷺ حتى قدم المدينة، قبل وصول الأسرى بيوم، فخرج المسلمون للقائه وتهنئته بما فتح الله عليه، فتلاقوا معه بالروحاء. وقال لهم سلمة بن سلامة بن وقش: ما الذي تهنؤونا به، فوالله! إن لقينا إلا عجائز، صلعاً، كالبدن المعقولة[1] فنحرناها. فتبسم ﷺ وقال: أولئك الملأ من قريش. ولما أشرف على المدينة تلقته الولائد بالدفوف يقلن: طلع البدر علينا. الخ...

وتلقاه أسيد بن حضير، فقال: الحمد لله الذي أظفرك، وأقر عينك. ولما قدمت الأسارى، فرقهم بين الصحابة، وقال: استوصوا بهم خيراً.

وقع الكسرة في مكة

حمل مصاب قريش في بدر إلى مكة: ابن عبد عمرو، فقال للقوم: قتل عتبة وشيبة وأبو الحكم: وأمية وفلان وفلان، إلى أن أتي على من قتل من أشراف قريش. وذكر من أسر منهم بأسمائهم.

فقال صفوان بن أمية، وكان يلقب بسيد البطحاء، وكان من أفصح قريش لساناً. وكان جالساً في الحجر، والله ما يعقل هذا ما يقول! سلوه عني؟ قالوا: ما فعل صفوان؟ فقال: هو ذاك الجالس في الحجر، وقد رأيت أباه وأخاه حين قتلا.

إسلام العباس عم النبي وزوجه أم الفضل

قال أبو رافع، مولى رسول الله: كنت غلاماً للعباس بن عبد المطلب، ثم وهبه العباس له. كان العباس رضي الله عنه أسلم وأسلمت زوجته أم

---

(١) (البدن المعقولة) الإبل المقيّدة. والبدنة تطلق على الإبل والبقر، ذكراً أو أنثى.

الفضل، وهي أول امرأة أسلمت بعد خديجة، وهي أم أولاده عبد الله وعبيد الله، وعبد الرحمن، والفضل، ونضر، ومعبد، وأم حبيب، وأسلمت أنا. وكنا نكتم الإسلام، لأن العباس كان يكره خلاف قومه، لأنه كان ذا مال كثير، وأكثره متفرق فيهم. وهو لم يظهر إسلامه إلا يوم الفتح. والغالب على الظن: أنه كان يوافي النبي بأخبار قريش، فوفوده من هذه الجهة كان مفيداً للقيام بالحركة الإسلامية. وقال أبو رافع: فلما جاء الخبر من مصاب قريش ببدر. سرنا ذلك فوالله إني لجالس، إذ أقبل أبو لهب يجرر رجليه بشر، حتى جلس عندنا، فبينما هو جالس، إذ قدم أبو سفيان بن الحارث وكان مع قريش في بدر فقال: هلم إلي، عندك الخبر؟ فقال: والله ما هو إلا لقينا القوم فمنحناهم أكتافنا فيقتلوننا كيف شاؤوا، ويأسروننا كيف أرادوا. وأيم الله! ما لمت الناس. لقينا رجالاً بيضاً، على خيل بلق. والله ما يقوم لها شيء. فقال أبو رافع: فقلت والله تلك الملائكة، فرفع أبو لهب يده فضرب وجهي ضربة شديدة، وثاورته[1] فاحتملني، وضرب بي الأرض، ثم برك علي، يضربني فقامت أم الفضل بعمود وضربته في رأسه، فشجته شجة منكرة. وقالت: استضعفته أن غاب سيده العباس! فولى ذليلاً. فوالله ما عاش صحيحاً، قبل أن يرمي بالعدسة إلا سبع ليال. وهي بثرة خبيثة من جنس الطاعون، مات بها.

فلما ظهر خبر مقتلة بدر، ناحت قريش على قتلاها شهراً، وجز النساء شعورهنّ، فكن يأتين بفرس الرجل أو راحلته، وتستر بالستور، ويجتمع الناس حولها، ويسرن بها في الأزقة، وينحن ميتهن من حولها. وأشير عليهن بترك ذلك لئلا يبلغ خبرهن محمداً وأصحابه فيشمتوا بكم، وقرروا ألاّ يبكوا على قتلاهم، حتى يأخذوا بثأرهم.

ومن جملة الذين أصيبوا في الولد في بدر: الأسود بن زمعة بن عبد الله. وكان من المستهزئين أصيب في ثلاثة من أولاده: زمعة وأخيه عقيل وولده الحارث. وكان يحب أن يبكي عليهم، وقد ذهب بصره، حتى إذا سمع

---

(١) (ثاوره) مثاورة: واثبه.

صوت بكاء في الليل قال لغلامه: انظر هل أحل النحب؟ هل بكت قريش قتلاهم؟ لعلي أبكي، فإن جوفي قد احترق. وأنشد وهو يعرض بأبي سفيان:

أتبكي أن يضل لها بعير! ويمنعها من النوم السعود
فلا تبكي على بكر، ولكن على بدر، تغاصرت[1] الجدود
ألا قد ساد بعدهم رجال ولولا يوم بدر. لم يسودوا

عقد مجلس الشورى العسكري للنظر في أمر أسرى أهل بدر السبعين

وبعد مصرع النضر، وعقبة بن أبي معيط، عقد النبي مجلساً من كبار المهاجرين، حضره أبو بكر وعمر وعلي وعبد الله بن جحش، وابن رواحة. وتداولوا فيما هو الأصلح من الأمرين: القتل أم الفداء؟ فقال أبو بكر: يا رسول الله! أهلك وقومك، هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان. قد أعطاك الله الظفر، ونصرك عليهم. الرأي أن تستبقيهم وتأخذ الفداء منهم، فيكون ما أخذنا منهم قوة لنا. فقال رسول الله: ما تقول يا بن الخطاب؟ قال: يا رسول الله! قد كذبوك وأخرجوك وقاتلوك، ما أرى ما رأى أبو بكر، ولكن أرى أن تمكنني من فلان «نسيب لعمر» فاضرب عنقه. وتمكن علياً من أخيه عقيل، فيضرب عنقه. وتمكن حمزة من أخيه العباس فيضرب عنقه، حتّى يعلم أنه ليس في قلوبنا مودّة للمشركين، ما أرى أن تكون لك أسرى، فاضرب أعناقهم، هؤلاء صناديدهم وأئمتهم وقادتهم.

وقال ابن رواحة: انظروا وادياً كثير الحطب فأضرمه عليهم ناراً، وكان العباس قريباً منه يسمعه فقال: ثكلتك رحمك.

فقام رسول الله ودخل البيت ولم يقل رأياً، فقال بعض الناس: يأخذ

---

(١) كتبها الشيخ، رحمه الله، بالصاد، ولعلّ الصحيح بالسين، من «تغسر الأمر: التبس واختلط. والغزل: التوى. وجاء في سيرة (ابن هشام): وكان رسول الله ﷺ فيما بلغني ـ قد دعا عليه، لما كان يبلغه من أذاه واستهزائه. فقال: اللهم أعم بصره، وأثكله ولده» الجزء (٢) صفحة (٤٠٩).

برأي أبي بكر. وقال آخرون: يأخذ برأي ابن رواحة، ولم يقل أحد، أنه يأخذ برأي عمر. ثم خرج فقال: إن الله ليليّن قلوب أقوام فيه حتّى تكون ألين من اللين. وإن الله ليشدن قلوب أقوام فيه حتّى تكون أشدّ من الحجارة. مثلك يا أبا بكر في الملائكة مثل ميكائيل، ينزل بالرحمة. ومثلك في الأنبياء، مثل إبراهيم، حيث يقول: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1] ومثلك يا أبا بكر مثل عيسى ابن مريم إذ قال: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[2].

ومثلك يا عمر في الملائكة مثل جبريل، نزل بالشدّة والبأس والنقمة على أعداء الله تعالى . ومثلك في الأنبياء مثل نوح إذ قال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾[3] ومثلك يا عمر مثل موسى، إذ قال: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾[4] ثم التفت إلى أبي بكر وعمر.

وقال لهما: لو اتفقتما لما خالفتكما، فلا يفلتن منهم أحد إلا بفداء أو ضرب عنق.

وفيما نقله الإمام أحمد: أن رسول الله قال لأهل الشورى في أسرى بدر: إن الله قد أمكنكم منهم. قال: فقام عمر فقال: يا رسول الله! اضرب أعناقهم، فأعرض عنه. ثم عاد فقال مثل ذلك. فقام عمر فقال: يا رسول الله! اضرب أعناقهم فأعرض عنه رسول الله. ثم عاد فقال للناس مثل ذلك، فقام أبو بكر فقال: يا رسول الله! نرى أن تعفو عنهم، وأن تقبل منهم الفداء قال: فذهب عن وجه رسول الله ما كان فيه من الغم، فعفا عنهم، وقبل الفداء. فلما كان الغد، غدا عمر إلى رسول الله، فإذا هو وأبو بكر يبكيان. فقال لرسول الله: ما يبكيكما أنت وصاحبك؟ فإن وجدت بكاء بكيت، وإلا

---

(١) سورة (إبراهيم) الآية: (٣٦).
(٢) سورة (المائدة) الآية: (١١٨).
(٣) سورة (نوح) الآية: (٢٦).
(٤) سورة (يونس) الآية: (٨٨).

تباكيت لبكائكما. فقال رسول الله: إن كاد ليجيئنا في خلاف ابن الخطاب عذاب عظيم، لو نزل عذاب، ما أفلت منه إلا ابن الخطاب.

وفي رواية مسلم والترمذي عن ابن عباس، أنه ﷺ قال لعمر بن الخطاب: أبكي للذي عرض عليّ من أخذهم الفداء. لقد عرض علي عقابهم أدنى من هذه الشجرة «شجرة قريبة منه ﷺ» وأنزل الله تعالى:

﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَـٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[١].

والقرآن صريح في أن الإشارة بأخذ الفداء، غير الأصلح من الأمرين والأصلح القتل حتى تكف قريش عن الشغب في حق الرسول وإغراء العرب على المسلمين.

فـداء المشركيـن

ولما علمت قريش بتقرير الفداء، تواصلوا على أن يعجلوا في طلب أسراهم، لئلا يتغالى المسلمون في طلب الفداء.

وقد كان أسبقهم إليه المطلب بن أبي وداعة السمني، «واسمه الحارث» فإنه قدم المدينة خفية من أهل مكة، وفدى أباه أبا وداعة بأربعة آلاف درهم. وقد كان رسول الله لما رآه بين الأسرى قال: إن له بمكة ابناً كيساً، تاجراً ذا مال، وكأنكم به قد جاء في طلب فداء أبيه، وهو أول أسير فدى.

ولما عاد الحارث أبو وداعة مع ابنه المطلب إلى مكة، بعثت قريش فداء الأسارى. وكان الفداء فيهم على قدر أموالهم، وكان من أربعة آلاف إلى ثلاثة آلاف درهم، ومن ألفين إلى ألف. ومن لم يكن معه فداء وهو يحسن الكتابة، دفع إليه رسول الله عشرة غلمان من أغلمة المدينة يعلمهم الكتابة، فإذا تعلموا كان ذلك فداءه.

---

(١) سورة (الأنفال) الآية: (٦٧).

وقدم المدينة جبير بن مطعم، وهو مشرك يسأل النبي في فكاك أسارى بدر، فقال له: لو كان الشيخ أبوك حياً فأتانا فيهم لشفعناه، فقد كان أجار النبي لما قدم من الطائف، وأحد الخمسة الذين سعوا في نقض الصحيفة.

وكان في الأسرى أبو العاص بن الربيع، زوج زينب رضي الله عنها وأبو ولدها علي، الذي أردفه ﷺ خلفه يوم فتح مكة، وكان مراهقاً. وأبو بنتها أمامة، التي كان يحملها ﷺ في الصلاة ويحبها حباً شديداً. وتزوجها علي بعد موت خالتها فاطمة، بوصية منها. زوجه منها الزّبير. وأبو العاص بن هالة بنت خويلد، أخت خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها.

فبعثت زينب في فداء زوجها أبي العاص قلادة لها، كانت أمها خديجة أدخلتها بها عليه، حين بنى بها. جاء بها أخوه عمرو بن الربيع. فلما رأى رسول الله تلك القلادة، رق لها رقة شديدة. وقال للصحابة: إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها، وتردوا عليها قلادتها، فافعلوا. قالوا: نعم يا رسول الله! فأطلقوه، وردوا عليها القلادة. وشرط عليه رسول الله ﷺ أن يخلي سبيل زينب تهاجر إلى المدينة. وكان كفار قريش مشوا إليه في تطليقها، كما طلق ولدا أبي لهب بنتي النبي رقية وأم كلثوم قبل الدخول بهما، كما تقدم. وقالوا له: نزوجك أي امرأة من قريش شئت. فأبى ذلك وقال: والله ما أفارق صاحبتي، وما أحب أن لي بها امرأة من قريش. فشكر له رسول الله ذلك، وأثنى عليه.

فلما وصل أبو العاص مكة، أمرها باللحوق بأبيها، فخرجت. وكان رسول الله ﷺ أرسل زيد بن حارثة ورجلاً من الأنصار يصحبانها. قال لهما: تكونان بمحل كذا، قريباً من مكة، حتى تمر بكما زينب فتصحبانها إلى المدينة. وذلك بعد شهرين من بدر. وكان ﷺ يقول: زينب أفضل بناتي، أصيبت بي.

وكان في الأسارى عمرو بن أبي سفيان بن حرب، أخو معاوية، أسره علي بن أبي طالب. فقيل لأبي سفيان: افدِ عمرو ابنك، قال: دعوه في أيديهم، يمسكونه ما بدا لهم، ولا يجمعوا علي قومي ومالي، قتلوا حنظلة:

«وهو شقيق أم حبيبة أم المؤمنين» وأفدى عمرو أخاه، واستمر على ذلك حتى وفد على مكة سعد بن النعمان معتمراً فعدا عليه أبو سفيان يحميه بابنه عمرو، وقال: لست أطلقه إلا إذا أطلقوا ابني.

فمضى بنو عمرو بن عوف إلى رسول الله ﷺ وأخبروه خبر سعد بن النعمان، وسألوه أن يعطيهم عمرو بن أبي سفيان، فيفتدون به صاحبهم ففعل ذلك رسول الله فبعثوا به إلى أبي سفيان، فخلى سبيل سعد. ولم يذكر عمرو هذا فيمن أسلم من الأسرى، لا قبل فتح مكة، ولا بعدها، والظاهر أنه هلك قبل الفتح.

وكان في الأسرى: سهيل بن عمرو العامري. وهو من أشراف قريش وخطبائها المعدودين. وقال عمر، على ضرب من الدعابة لرسول الله ﷺ: أعني أنزع ثنيتي[1] سهيل بن عمرو، يدلع[2] لسانه، فلا يقوم عليك خطيباً في موطن أبداً، فقال له رسول الله: لا أمثل به فيمثل الله بي. وعسى أن يقوم مقاماً لا تذمه.

وقدم مكرز بن حفص في فداء سهيل: فلما ذكر قدراً أرضاهم. قالوا له: هات. فقال: اجعلوا رجلي مكان رجله، وخلوا سبيله حتى يبعث إليكم بفدائه. فخلوا سبيل سهيل، وحبسوا مكرزاً.

وكان في الأسارى الوليد بن الوليد، أخو خالد بن الوليد. افتكه أخواه، هشام وخالد، فلما افتدى أسلم، فعاتبوه في ذلك، فقال: كرهت أن يظن بي أني جزعت من الأسر. ولما أسلم أراد الهجرة، فحبسه أخواه. وكان النبي يدعو له في القنوت، ثم أفلت من أيديهم ولحق بالنبي ﷺ في عمرة القضاء.

عمير يقاول صفوان على قتل محمد فيعود مسلماً

وكان في الأسارى: السائب «وهو الأب الخامس للإمام محمد بن إدريس الشافعي» وكان صاحب راية بني هاشم في ذلك اليوم، وهي العقاب،

---

(١) (الثنية): الأضراس الأربع التي في مقدم الفم، ثنتان من فوق، وثنتان من أسفل.
(٢) (دلع): لسانه: خرج وتدلى.

وكانت لأبي سفيان، ولغيبته في العير، حملها السائب لشرفه، وفدى نفسه.

وكان في الأسارى: وهب بن عمير، أسره رفاعة بن رافع. وكان أبوه عمير شيطاناً من شياطين قريش، وكان ممن يؤذي رسول الله وأصحابه بمكة. فجلس يوماً مع صفوان بن أمية في الحجر، فتذاكروا أصحاب القليب، ومصائبهم، فقال صفوان: ما في العيش والله خير بعدهم. فقال عمير: والله صدقت، أما والله لولا دين عليّ ليس له عندي قضاء، وعيال أخشى عليهم الضيعة بعدي، كنت آتي محمداً حتى أقتله، فإن لي فيهم علة: ابني أسير في أيديهم. فاغتنمها صفوان وقال له: عليّ دينك، أنا أقضيه عنك، وعيالك مع عيالي، أواسيهم ما بقوا. قال عمير: فاكتم عني شأني وشأنك. قال: أفعل. ثم إن عميراً أخذ سيفه، وشحذه، وسمَّه، ثم انطلق حتى قدم المدينة، بينما عمر بن الخطاب في نفر من المسلمين يتحدثون عن يوم بدر، إذ نظر إلى عمير حين أناخ راحلته على باب المسجد، متوشحاً سيفه. فقال: هذا عدو الله، عمير بن وهب، جاء متوشحاً سيفه. قال ﷺ: أدخله علي. فأقبل عمر حتى أخذ بحمالة سيفه في عنقه، وقال لرجال من الأنصار كانوا معه: ادخلوا على رسول الله فاجلسوا عنده، فإن هذا الخبيث غير مأمون. ثم دخل به على رسول الله، فلما رآه، وعمر آخذ بحمالة سيفه في عنقه، قال: أرسله يا عمر! ادن يا عمير. فدنا ثم سلم بتحية الجاهلية: انعموا صباحاً. فقال له رسول الله ﷺ: ما جاء بك يا عمير؟ قال: جئت لهذا الأسير الذي في أيديكم «يعني: ولده وهباً» فأحسنوا فيه، فقال: ما بال السيف؟ قال: قبحها الله من سيوف، وهل أغنت عنا شيئاً؟ قال ﷺ : أصدقني بالذي جئت له. قال: ما جئت إلا لذلك. قال النبي : بل قعدت أنت وصفوان بن أمية في الحجر، فذكرتما أصحاب القليب من قريش، ثم قلت: لولا دين علي وعيالي، لخرجت حتى أقتل محمداً، فتحمل لك صفوان بدينك وعيالك، على أن تقتلني له، والله حائل بينك وبين ذلك. قال عمير: أشهد أنك رسول الله، قد كنا نكذبك بما تأتي به من خبر السماء، وما ينزل عليك من الوحي، وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان. فوالله إني لأعلم ما أتاك به إلا الله تعالى، فالحمد لله الذي هداني إلى الإسلام، وساقني هذا المساق. ثم

تشهَّد، فقال ﷺ: فقهوا أخاكم في دينه، وأقرؤوه القرآن، وأطلقوا أسيره. ففعلوا ذلك. ثم قال: يا رسول الله! إني كنت جاهداً على إطفاء نور الله، شديد الأذى لمن كان على دين الله، فأنا أحب أن تأذن لي فأقدم مكة، فأدعوهم إلى الله، وإلى الإسلام لعل الله يهديهم، وإلا آذيتهم في دينهم، كما كنت أوذي أصحابك في دينهم. فأذن له ﷺ في الرجوع، فلحق بمكة، وأسلم ولده وهب.

وكان صفوان حيث خرج عمير يقول: أبشروا بوقعة تأتيكم الآن، تنسيكم وقعة بدر، وكان صفوان يسأل عنه الركبان، حتى قدم راكب فأخبروه عن إسلامه، فحلف ألا يكلمه أبداً، وألا ينفعه بنفع أبداً.

ولما رجع عمير لم يبدأ بصفوان، بل بدأ ببيته، وأظهر الإسلام، ودعا إليه. فبلغ ذلك صفوان فقال: قد عرفت، حيث لم يبدأ بي قبل منزله، أنه قد نكس وصبأ. ثم إن عميراً وقف على صفوان وناداه: أنت سيد من ساداتنا؟ رأيت الذي كنا عليه من عبادة الحجر، والذبح أهذا دين؟ ثم نطق بالشهادتين، فلم يجبه صفوان بكلمة.

وكان في الأسارى: أبو عزيز بن عمير، شقيق مصعب بن عمير قال: مر بي مصعب، فقال للذي أسرني: شدّيدك به، فإن أمه ذات متاع، لعلها تفديه منك. فقلت له: يا أخي! هذه وصايتك بي! فسكت. فبعثت أمه في فدائه أربعة آلاف درهم، ففدته بها.

وكان في الأسارى: العباس بن عبد المطلب، وقد شدوا وثاقه. فإنه لم يأخذه ﷺ نوم فقيل: ما سهرك يا رسول الله؟ قال: لأنين العباس. فقام رجل وأرخى وثاقه. وفعل ذلك بالأسارى كلهم. والذي أسره أبو اليسر، كعب بن عمرو، وكان دميماً صغير الجثة، والعباس جسيماً طويلاً. فقيل للعباس: لو أخذته بكفك لوسعته كفك. فقال: ما هو أن لقيته فظهر في عيني كالخندمة «وهو جبل من أجبل مكة»، وأبو اليسر هو الذي انتزع راية المشركين، وكانت إلى أبي عزيز بن عمير يوم بدر.

وفي رواية: أن العباس سئل: كيف أسرك؟ قال: والله! إن هذا

ما أسرني، أسرني رجل أبلج، من أحسن الناس وجهاً، على فرس أبلق، ما أراه في القوم. فقال كعب: والله! أنا الذي أسرته يا رسول الله! فقال: اسكت، فقد أيدك الله.

وقد روي أن رسول الله قال له: افتد نفسك يا عباس، وابن أخيك عقيل بن أبي طالب، ونوفل بن الحارث بن عبد المطلب، وحليفك عتبة بن عمرو. ففدى نفسه بمئة أوقية، وكل واحد بأربعين أوقية. وقال للنبي ﷺ: تركتني فقير قريش ما بقيت. فقال له ﷺ: فأين المال الذي دفعته لأم الفضل؟ «زوجة العباس» وقلت لها: إن أصبت فهذا لابني الفضل، وعبد الله، وغثم. وفي رواية ابن قتيبة: فللفضل كذا، ولعبد الله كذا، ولغثم كذا. فقال: أشهد أن الذي تقوله قد كان، وما أطلع عليه إلا الله.

ومّما يؤيد ما قدمنا من إسلام العباس، أنه قال: عليّ لم يأخذ منّي الفداء، وكنا مسلمين، ولكن القوم استكرهوني، فقال له النبي: أعلم بما تقول، ولكن ظاهر أمرك أنك كنت علينا.

وجاء، أن العباس لما خرج إلى بدر، خرج ومعه عشرون أوقية من ذهب، ليطعم بها المشركين، فأخذت منه في الحرب. فكلم النبي في أن تحسب من فدائه، فأبى وقال: أما شيء، خرجت تستعين به علينا، فلا نتركه لك[1].

لم ينم الرسول خوفاً على عمه العباس من القتل

وجاء في الروايات الموثوقة: أن العباس لما أسر تواعدت طائفة من الأنصار على قتله، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال لعمر: لم أنم الليلة من أجل عمي العباس، زعمت الأنصار أنهم قاتلوه. فأتى عمر الأنصار فقال لهم: أرسلوا العباس. فقالوا: والله لا نرسله. فقال لهم عمر: فإن كان رسول الله ﷺ رضي؟ فقالوا: إن كان رضي فخذه. فأخذه عمر.

---

(١) وفي رواية: أن النبي قال لابن عمه: أفد نفسك يا نوفل. قال: مالي شيء أفدي به نفسي. قال: أفد نفسك من مالك الذي بجدة. قال: أشهد لله أن لي مالاً بجدة. وفدى نفسه، ولم يفده العباس.

ولم يظهر العباس إسلامه على وجه التحقيق، إلا يوم فتح مكة. وقد كان يكتب للنبي وهو بمكة يستأذنه في الهجرة لما ثبتت الدعوة الإسلامية، وأقبل عليها العرب. فكان يرد إليه ﷺ: أقم مكانك الذي أنت فيه، فإن الله عز وجل يختم بك الهجرة، كما ختم بي النبوة.

وقد لاحظ رسول الله من ذلك الانتفاع بمركز عمه في مكة، فقد كان رئيساً في قريش، وإليه سقاية الحاج، وعمارة المسجد الحرام، وتأديب المستهترين فيه، الذين يتشبهون بالنساء، أو يتكلمون بالهجر، فإن قريش اجتمعت وتعاقدت على تسليم ذلك للعباس، وكانوا كلهم عوناً له في ذلك.

وعن الواقدي، قال: أقبل المسلمون على العباس، يوم بدر، يعيرونه بكفره بالله، وقطيعته الرحم. وأغلظ له عليّ القول. فقال العباس: ما لكم تذكرون مساوئنا ولا تذكرون محاسننا؟ فقال له عليّ: ألكم محاسن؟ قال: نعم، إنا لنعمر المسجد الحرام، ونحمي الكعبة، ونسقي الحاج، ونفك العاني. فنزلت الآية:

﴿ ۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾[1].

الذين من عليهم رسول الله بدون فداء

وقد منّ رسول الله ﷺ على نفر من الأسارى، وأطلقهم بدون فداء، ومنهم: أبو عزة عمرو الجمحي الشاعر.

وكان ممن يؤذي رسول الله والمسلمين بشعره، ويكثر هجوهم. ولما خرجت قريش إلى بدر، خرج معهم. ولما مثل بين يدي رسول الله وهو أسير، قال: يا رسول الله! إني فقير، وذو عيال، وحاجة قد عرفتها، فامنن علي، فإن لي خمس بنات ليس لهنّ شيء، فتصدق بي عليهن. ففعل وأعتقه بعد أن أخذ عليه ألا يظاهر أحداً. لكنه لما وصل إلى مكة قال: سحرت محمداً، حتى إذا كان يوم أحد خرج مع المشركين، يحرض على قتال الرسول

---

(١) سورة (التوبة) الآية: (١٩).

بشعره، (ولم أعثر على شيء منه) فأسر، وقتل صبراً.

ومنهم: أبو العاص.

ومنهم: وهب بن عمير.

وكان لأهل بدر امتياز على جميع الصحابة الذين لم يشهدوها، فقد كان ﷺ يكرم أهل بدر ويقدمهم على غيرهم. ومن ذلك أن جماعة من أهل بدر جاؤوا إلى رسول الله ﷺ وهو جالس في صفة ضيقة، معه جماعة من أصحابه، فوقفوا بعد أن سلموا ليفسح لهم القوم، فلم يفعلوا، فشق قيامهم على النبي ﷺ فقال لمن لم يكن من أهل بدر من الجالسين: قم يا فلان، قم يا فلان. بعدد الواقفين. ولما فعلوا عرف رسول الله الكراهية في وجوههم، فقال: رحم الله رجلاً يفسح لأخيه فنزلت الآية:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾[١].

فجعلوا يقومون لهم بعد ذلك من تلقاء أنفسهم.

نكاح علي لفاطمة

لما بلغت فاطمة الزهراء رضي الله عنها سن الخامسة عشر، خطبها أبو بكر ثم عمر، فقال لكل: أنتظر بها القضاء. فجاء أبو بكر إلى علي يأمره أن يخطبها. قال علي: فنبهاني إلى أمر كنت عنه غافلاً. فجئته ﷺ فقلت: تزوجني فاطمة؟ فسألها رأيها وقال: أي بنية إن ابن عمك عليا قد خطبك. وكان سنه يومئذ إحدى وعشرين سنة. فماذا تقولين؟ فبكت ثم قالت: كأنك يا أبت! إنما ادخرتني لفقير قريش. فقال ﷺ: والذي بعثني بالحق! ما تكلمت في هذا، حتى أذن الله لي فيه. فقالت فاطمة: رضيت بما رضي

---

(١) سورة (المجادلة) الآية: (١١).

الله ورسوله. ولما رضيت قال لعلي: أعندك شيء؟ قال: فرسي وبدني[١] «أي: درعي» قال: أما فرسك فلا بد لك منها، وأما بدنك فبعها. فبعتها من عثمان بأربعمئة وثمانين درهماً. ثم ردّها علي. فجئته ﷺ بها فوضعت المال في حجره، فقبض منه قبضة. فقال: أي بلال! ابتغ لنا بها طيباً. وكان العقد في رمضان، والبناء بها في ذي الحجة. وقيل: بنى بها بعد أن عقد عليها بسبعة أشهر ونصف. ولما تم العقد، دعا ﷺ بطبق بسر فوضع بين يديه، ثم قال للحاضرين: انتهبوا. ولما كانت ليلة الدخول أولم عليها بكبش من عند سعد، وآصع[٢] من ذرة من عند جماعة من الأنصار.

وليلة البناء، حضر رسول الله ﷺ وباركهما، فقال: اللهم بارك فيهما، وبارك عليهما، وبارك لهما في شملهما. وتلا: قل هو الله أحد، والمعوذتين. ثم قال: ادخل بأهلك باسم الله والبركة. وكان فراشه إهاب جلد كبش، ووسادة من جلد. وكان لهما قطيفة، إذا جعلاها بالطول انكشفت ظهورهما وإذا جعلاها بالعرض انكشفت رؤوسهما. ثم مكث رسول الله ﷺ ثلاثة أيام، لا يدخل على فاطمة. وفي اليوم الرابع دخل عليهما في غداة باردة، وهما في تلك القطيفة، فقال لهما: كما أنتما؟ وجلس عند رأسهما. وقالت في بعض الأيام فاطمة لأبيها: يا رسول الله ما لنا فراش إلا جلد كبش ننام عليه بالليل، ونعلف عليه ناضحنا[٣] بالنهار فقال: يا بنية! اصبري، فإن موسى بن عمران أقام مع امرأته عشر سنين، ليس لهم فراش إلا عباءة قطوانية[٤] «نسبة إلى قطوان موضع بالكوفة» وعن علي: لم يكن لي خادم غيرها.

ولما استأذن بنو هاشم بن المغيرة في أن ينكحوا علي بن أبي طالب ابنتهم جورية بنت أبي لهب، رد عليهم ﷺ قال: لا آذن، ثم لا آذن، ثم لا آذن،

---

(١) (البدن): الدرع القصيرة.

(٢) الصحيح (الصاع) إذا أريد المفرد. وأما الجمع المرجح هنا، فهو إما: أصوع، وأصؤع، وأصواع. وصوع. بالضم. ولم أجد (آصع). المحقق.

(٣) لعل (المقصود) بـ (الناضح) ما يدر لبناً من شاه أو ماعز.

(٤) (قطوان): محركة. موضع بالكوفة، منه الأكسية. (القاموس).

إلا أن يريد ابن أبي طالب أن يطلق ابنتي، وينكح ابنتهم، فإنما هي بضعة مني، يريبني ما أرابها، ويؤذيني ما أذاها. فترك علي بن أبي طالب نكاحها.

شروع اليهود في مناورة المسلمين

لما انتصر المسلمون في واقعة بدر انتصاراً مبيناً، شق ذلك على اليهود، وأظهروا البغي والحسد، وهالهم الأمر في المستقبل. فأخذوا يكيدون للمسلمين، ويوغرون صدورهم، لإبقاء جذوة الفتنة بين المسلمين والمنافقين من أحلافهم من الخزرج، اغتراراً بحلفائهم الذين كانوا، يمنونهم الباطل، واعتداداً بأموالهم وأسلحتهم.

وقد كان ﷺ لما نزل المدينة، عاهد مدنهم، مدينة مدينة. عاهد بني قينقاع، وبني قريظة، وبني النضير، ألا يحاربوه ولا يظاهروا عليه عدواً، وألا يكونون له ولا عليه.

وأول من غدر به منهم: بنو قينقاع. كانت منازلهم بطحان، مما يلي عوالي المدينة، وذلك أن امرأة مسلمة، كانت زوجة لأنصاري من البدو، وقدمت بجلب لها فباعته بسوق بني قينقاع، وجلست إلى صائغ منهم، فجعل جماعة من اليهود يتحرشون بها، ويعبثون بكرامتها، وهم يراودونها على كشف وجهها، وهي تأبى. فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى طرف ظهرها، خله بشوكة، وهي لا تشعر بذلك، فلما قامت انكشفت سوأتها، فضحكوا منها فصاحت بهم. فوثب رجل من المسلمين على الصائغ، فقتله، وتجمهر اليهود، وشدوا على المسلم، فقتلوه. فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود، فغضب المسلمون على بني قينقاع، وقدموا المدينة يشكونهم إلى رسول الله. فقال ﷺ: ما على هذا أقررناهم! وقد خانوا ما عاهدونا عليه. وقد كان من حلفائهم: عبادة بن الصامت وعبد الله بن أبي بن سلول، فتبرأ الأول من حلفهم وقال: أتولى الله ورسوله، وأتبرأ من حلف هؤلاء اليهود. وتشبث به عبد الله بن أبي، وأبى أن يتبرأ منهم. فنزلت الآية ناهية عن توليهم:

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[1].

إلى قوله تعالى: ﴿ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾[2].

إنذار رسول الله اليهود وتحذيرهم عاقبة بغيهم

فدعا رسول الله اليهود، وجمعهم، ولما اجتمعوا قال لهم: يا معشر يهود! احذروا من الله أن ينزل بكم مثل ما أنزل بقريش من النقمة ببدر، وأسلموا خير لكم. قد عرفتم أني مرسل في كتابكم، وعهد الله إليكم.

اغترار اليهود بأنفسهم واعتدادهم بقوتهم

قالوا: يا محمد! إنك ترى قومك؟ لا يغرنك أنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب، فأصبت منهم فرصة. إنا والله لو حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس، وأنك لم تقاتل مثلنا. فرد عليهم رسول الله رداً مفحماً فنزلت بذلك الآية:

﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾[3] فلم يزدهم ذلك إلا صلفاً وعتواً، ولم يتمهلوا حتى أخذوا يستعدون للحرب، ويدبرون المكائد. فلم يبق لرسول الله بد من قطع العلاقة معهم، وإعلامهم أنهم الخاطئون. فنزلت الآية:

﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ﴾[4].

فبدل أن يركنوا إلى المسالمة والصلح، شرعوا يستعدون للكفاح، فلم يجد

---

(١) سورة (المائدة) الآية: (٥١).

(٢) سورة (المائدة) الآية: (٥٦).

(٣) سورة (آل عمران) الآية: (١٢).

(٤) سورة (الأنفال) الآية: (٥٨) تتمة الآية: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴾.

رسول الله بدأً من حربهم، فتجهز لهم، وخرج في طلبهم.

خروج رسول الله لحرب بني قينقاع

خرج إليهم رسول الله في جنوده، وكان لواؤه الأبيض بيد عمه حمزة بن عبد المطلب، واستخلف على المدينة أبا لبابة. وحاصرهم خمس عشرة ليلة أشد الحصار. وكان خروجه في نصف شوال، واستمر إلى أن هل هلال ذي العقدة الحرام، فقذف الله في قلوبهم الرعب، وأنه لا طاقة لهم بحرب المسلمين وقد كانوا أربعمئة حاسر، وثلاثمئة دارع. وبعد أن أعياهم الحصار، أرسلوا إلى رسول الله، أن يخلي سبيلهم، وأن يجلوا من المدينة، لهم نساؤهم وذريتهم، وله ﷺ الأسلاب والحلقة «السلاح» وقد خمست أموالهم، مع كونها فيئاً له ﷺ لأنها لم تحصل بقتال، ولا جولاً عنها قبل التقاء الصفين، فكان له ﷺ الخمس، ولأصحابه الأربعة الباقية.

تنفيل بني هاشم في قسمة الغنائم واعتراض عثمان على ذلك

وجعل سهم ذوي القربى من بني هاشم وبنات بني هاشم، وبني وبنات المطلب، دون بني أخويهما: عبد شمس ونوفل. مع أن الأربعة أولاد عبد مناف. ولما فعل ذلك جاءه جبير بن مطعم، من بني نوفل وعثمان بن عفان، من بني عبد شمس فقالا: يا رسول الله! هؤلاء إخواننا من بني هاشم لا ننكر فضلهم، لمكانك الذي وضعك الله منهم. أرأيت إخواننا من بني المطلب؟ أعطيتهم وتركتنا، وإنما قرابتنا وقرابتهم واحدة، ونحن ندلي إليك بنسب واحد، ودرجة واحدة، فبم فضلتهم علينا؟

فقال رسول الله: إنما بنو هاشم وبنو المطلب شيء واحد هكذا. وشبك بين أصابعه. إنهم لم يفارقونا في جاهلية ولا في إسلام. وهو يشير بهذا القول إلى صحيفة قريش، التي كتبوها ضد بني هاشم والمطلب؛ لأنهم هم الذين قاسوا دونه، ودخلوا الشعب معه.

ولما نزل بنو قينقاع من حصونهم، أمر رسول الله أن يكتّفوا، فكلمه فيهم عبد الله بن أبي بن سلول، وألح عليه فقال: يا محمد! أحسن في موالي.

فأعرض عنه ولم يجبه. فأدخل يده في جيب درع رسول الله من خلفه، وتلك الدرع هي (ذات الفضول). فقال له رسول الله: ويحك! أرسلني. وغضب عليه، حتى لاحت على وجهه حمرة الغضب. ثم قال: ويحك أرسلني. فقال: والله لا أرسلك، حتى تحسن في موالي، فإنهم عترتي[1]، وأنا امرؤ أخشى الدوائر. فقال ﷺ: خلوهم. وقال: خذهم، لا بارك الله لك فيهم. وأمر أن يجلو من المدينة، ووكل بإجلائهم عبادة بن الصامت، وأمهلهم ثلاثة أيام. فجلوا.

ولما حان الأجل سألوا عبادة: أن يمد لهم فوق الأجل، فأبى. وأجلاهم فساروا إلى أذرعات[2]. وقبل إخراجهم جاء ابن أبي إلى منزل رسول الله، يسأله في إقرارهم، فحجب عنه. فأراد الدخول، فدفعه بعض الصحابة، فصدم وجهه الحائط فشجه، فانصرف مغضباً.

وبعد إجلائهم وجد المسلمون في منازلهم سلاحاً كثيراً، وأخذ رسول الله منه ثلاث قسي، قوساً يدعى (الكتوم)[3] «أي: إذا رمي به لا يسمع له صوت» وقوس يدعى (الروحاء) وقوس يدعى (البيضاء). وأخذ درعين. درعاً يقال له (السقوية) والأخرى يقال لها (فضة). وثلاثة أرماح، وثلاث أسياف.

مقتل أبي عفك اليهودي

كان أبو عفك من شيوخ اليهود بلغ على ما يقول الرواة، من السن عشرين ومئة. يجاهر بعداوته لرسول الله ﷺ، ويحرض الناس على قتاله، ويجرّؤهم عليه. ويقول فيه الشعر المقذع. فقال ﷺ في مجلس من الصحابة: من لي بهذا الخبيث؟ فقال سالم بن عمير: أنا يا رسول الله! علي نذر أن أقتله، أو أموت

---

(١) (العترة): نسل الرجل، ورهطه، وعشيرته الأدنون ممن مضى وعبر.

(٢) (أذرعات): مدينة بالشام.

(٣) وهو ما يقابله في عصرنا: المسدس كاتم الصوت. والخدع الحربية، تتطور مع تطور الزمن، ولكنها تظل واحدة في منطلقها. المحقق.

دونه. فخرج إليه في شوال السنة قبيل خروجه ﷺ إلى حرب بني قينقاع بأيام فكان يطلب له غرة، حتى ظفر به في ليلة صائفة. وكان أبو عفك نائماً، بفناء منزله، فأقبل إليه، ووضع سيفه على كبده ثم اعتمد عليه حتى خرج من ظهره، وخش في الفراش، فصاح أبو عفك من وقع الطعنة، فاختفى سالم، فثار إليه أناس ممن كانوا على شاكلته في التحريض، والنفاق، فأدخلوه منزله. فمات. ورجع سالم إلى رسول الله، وأخبره بالواقعة.

الانتقام من كعب بن الأشرف وأسباب ذلك

قال ابن إسحاق: إن كعب بن الأشرف كان مع اليهود بالحلف، وأبوه كان عربياً من بني نبهان، أصاب دماً في الجاهلية، فأتى المدينة فحالف بني النضير. فشرف فيهم، وتزوج عقيلة بنت أبي الحقيق. فولدت له كعباً، وكان طويلاً جسيماً، بطناً وهامة. وهو شاعر مجيد، ساد يهود الحجاز بكثرة ماله. فكان يعطي أحبار اليهود ويصلهم. فلما قدم رسول الله المدينة جاء أحبار اليهود من بني قينقاع وبني قريظة إلى كعب بن الأشرف، ليأخذوا صلة على عادتهم. فقال لهم: ما عندكم من أمر هذا الرجل؟ «يعني: محمداً» فقالوا: هو الذي كنا ننتظره، ما أنكرنا من نعوته شيئاً. فقال لهم: قد حرمتم كثيراً من الخير، ارجعوا إلى أهليكم، فإن الحقوق في مالي كثير. فرجعوا عنه خائبين. ثم رجعوا إليه وقالوا: إنا عجلناك فيما أخبرناك به أولاً، ولما استنبأنا علماءنا غلطنا. وليس هو المنتظر، فرضي عنهم ووصلهم، وجعل لكل من تابعهم من الأحبار شيئاً من ماله.

وكان يهجو رسول الله ﷺ في أشعاره، ويحرض اليهود والكفار عليه، ويدفعهم إلى قتاله والتأليب عليه.

سلوك رسول الله السلمي لما قدم المدينة

كان رسول الله يتبع حين قدم المدينة، مسلك اللين والمسالمة، فيألف الناس على الحق، ويصبر على الأذى امتثالاً لما في آية:

﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾[1].

لأنه ﷺ ورد المدينة، وأهلها أخلاط مجتمعون، من قبائل شتى، مختلفة أحوالهم وعقائدهم. فأراد استصلاحهم بجمعهم على كلمة الإسلام.

ورغم ذلك، فقد كان المشركون واليهود يؤذون المسلمين أشد الإيذاء، فصبروا على ذلك، امتثالاً لما جاء في الكتاب العزيز. وكان كعب بن الأشرف أجرأهم، وأكثرهم إيذاء لرسول الله وللمسلمين. وكان قد عاهد النبي ألا يعين عليه أحداً، فنقض العهد، وخرق الذمة.

ولما وردت البشائر بانكسار المشركين يوم بدر، وقتل من قتل، وأسر من أسر، قال كعب: أحق هذا! ترون أن محمداً قتل هؤلاء الذين يسمى هذان الرجلان؟ فهؤلاء أشراف العرب، وملوك الناس. والله لئن كان محمداً أصاب هؤلاء القوم، لبطن الأرض خير من ظهرها.

فلما أيقن الخبر، ورأى الأسرى مقرنين[2] كبت وذلّ وخرج إلى قريش يبكي على قتلاهم، ويحرض على قتال رسول الله. فنزل مكة على المطلب بن أبي وداعة السهمي، وعنده زوجته عاتكة بنت أسيد بن أبي العيص، فأنزلته وأكرمته. فجعل يحرض على النبي ﷺ، وينشد الأشعار، فبلغ النبي ذلك، فدعا حساناً، فهجا المطلب وزوجته. فلما بلغ عاتكة زوجة المطلب، ألقت رجل كعب[3] بن الأشرف وقالت: ما لنا ولهذا اليهودي؟ فخرج من بيتها، وصار يتجول من قوم إلى قوم يفعل مثل ما فعل عند عاتكة. ويبلغ خبره النبي فيذكره لحسان فيهجوه. فيفعلون معه ما فعلت عاتكة. إلى أن رجع إلى المدينة، فكان يتغزل ببنات المسلمين ويشبب بهن، ويذكرهن بسوء، فنهاه رسول الله عن ذلك مراراً، فأبى أن ينتهي.

---

(١) سورة (آل عمران) الآية: (١٨٦) بدايتها: لتبلون في أموالكم وأنفسكم.
(٢) (مقرنين): مشدود بعضهم إلى بعض بقرن: بحبل. (معجم ألفاظ القرآن الكريم).
(٣) (ألقت رجله): طردته من بيتها.

وقد وصل إلى رسول الله ﷺ، لما كان كعب بمكة، أنه حالف قريشاً عند أستار الكعبة على قتال المسلمين، وأنه كان يهجو رسول الله، وكل من آمن به، ويمتدح كل من يعاديهم، ويحرض عليهم. وقد سأله أبو سفيان وكثيرون من المشركين: أيهما أحب إليك؟ أديننا أم دين محمد بن عبد الله وأصحابه؟ وأيهما أهدى في رأيك، وأقرب إلى الحق؟ فقال: أنتم أهدى سبيلاً، وأفضل. فنزلت الآية:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا﴾[١].

وقد نزلت في حقه خمس آيات في كتاب الله.

وعن ابن عباس: أنه لما قدم كعب مكة قالت له قريش: ألا ترى لهذا المتصبر المنبز[٢] من قومه يزعم أنه خير منا، ونحن أهل الحجيج، وأهل السدانة، وأهل السقاية؟ قال: أنتم خير. فنزلت الآية:

﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾[٣].

وقال أيضاً: كان الذين حزبوا الأحزاب من قريش وغطفان وبني قريظة هم: حيي بن أخطب، وسلام بن أبي الحقيق، وأبو رافع والربيع وعمارة، وهوذة. فلما قدموا مكة قالت قريش: هؤلاء أحبار اليهود، وأهل العلم بالكتب الأولى، فسلوهم أدينكم خير، أم دين محمد؟ فسألوهم فقالوا: دينكم خير، وأنتم أهدى منه، وممن اتبعه.

ومن الدلائل على عداوة كعب بن الأشرف وخبثه، أنه صنع وليمة وواطأ

---

(١) سورة (النساء): الآية (٥١) و(الجبت) كل ما عبد من دون الله. واستعمل في الصنم، والساحر، وكذلك الطاغوت. ويطلق هذا الأخير على كل دعوة إلى باطل أو ضلالة.

(٢) (المنبز) من (النبز) المعيَّر من قومه. ويقصد بالطبع: كفار قريش.

(٣) (الأبتر): المنقطع عن الخير، أو المنقطع عنه الخير، فهو حقير ذليل، سورة (الكوثر) الآية: (٣).

جماعة من اليهود، أنه يدعو رسول الله إلى الوليمة، فإذا حضر فتكوا به. ثم دعاه، فجاء ﷺ هو وبعض أصحابه، ولما علم بما أضمره، وبعد أن جالسه، قام في خفاء. ولما افتقدوه، لم يجدوه. فتفرقوا.

عند ذلك قال رسول الله: من ينتدب لقتل كعب بن الأشرف؟ فقد استعلن بعداوتنا وهجائنا، وخرج إلى المشركين بمكة، يجمعهم على قتالنا. قال محمد بن مسلمة الرومي: أنا أتكفل لك يا رسول الله! قال: فافعل، إن كنت فاعلاً، ولا تعجل حتى تشاور سعداً. فشاوره، فقال: توجه إليه، واشك إليه الحاجة، وسله أن يسلفكم طعاماً. فمكث محمد ثلاثاً، لا يأكل ولا يشرب، إلا ما تعلق به نفسه. فذكر ذلك لرسول الله، فدعاه فسأله: لم تركت الطعام والشراب؟ قال: قلت قولاً لا أدري هل أفي لك به أم لا؟ قال: إنما عليك الجهد.

ثم إن محمد بن مسلمة أتى أبا نائلة، وعباد بن بشر، والحارث بن أوس، وأبا عيسى بن جبير، فأخبرهم بما وعد به رسول الله من قتله، فأجابوه وقالوا: كلنا نقتله. ثم أتوا رسول الله. وقالوا: لا بد لنا أن نقول قولاً غير مطابق للواقع، يسر كعباً، نتوصل به إلى التمكن من قتله. قال: قولوا ما بدا لكم، فأنتم في حل من ذلك.

فجاء محمد بن مسلمة كعب بن الأشرف، فقال: إن هذا الرجل «يعني رسول الله» قد سألنا صدقة، ونحن لا نجد ما نأكل، وإني قد أتيتك أستلفك. قال كعب: وأيضاً والله لتمكننه؟ قال: إنا اتبعناه فلا نحب أن ندعه، حتى ننظر إلى أي شيء يصير شأنه. وقد أردنا أن تسلفنا وسقا أو وسقين. فقال: أرهنوني. قالوا: أي شيء تريد؟ قال: أرهنوني نساءكم. قالوا: وكيف نرهنك نساءنا وأنت أجمل العرب؟ ولا نأمنك عليهن، وأي امرأة تمتنع منك لجمالك؟ قال: فارهنوني أبناءكم. قالوا: وكيف نرهنك أبناءنا. فيسب أحدهم فيقال: أرهن بوسق أو بوسقين، هذا عار علينا، ولكن نرهنك اللأمة «السلاح» مع علمك بحاجتنا إليه. قال: نعم فواعده أن يأتيه.

وجاءه أيضاً أبو نائلة، وقال له: ويحك يا بن الأشرف! إني قد جئتك لحاجة، أريد أن أذكرها لك فاكتم عني. قال: افعل. قال: كان قدوم هذا الرجل علينا بلاء من البلاء، عادتنا العرب، ورمتنا عن قوس واحدة، وقطعت عنا السبل، حتى جاع العيال، وجهدت الأنفس، وأصبحنا قد جهدنا وجهد عيالنا. فقال كعب: أنا ابن الأشرف. أما والله! لقد كنت أخبرك يا بن سلامة أن الأمر سيصير إلى ما أقول. فقال: إني أردت أن تبيعنا طعاماً، ونرهنك ونوثق لك، وتحسن في ذلك. وإن معي أصحاباً على مثل رأيي. وقد أردت أن آتيك بهم فتبيعهم وتحسن إليهم، ونرهنك من الحلقة ما فيه وفاء. فقال: إن الحلقة لوفاء. وكان أبو نائلة أخا كعب من الرضاع، ومحمد بن مسلمة ابن أخيه من الرضاع. فجاءه محمد بن مسلمة، أبو نائلة، ومعهما عباد بن بشر، والحارث بن أوس بن معاذ، وأبو عيسى بن جبر. وكلهم من الأوس. ولما فارقوا النبي، مشى معهم إلى بقيع الغرقد، ثم وجههم وقال: انطلقوا على اسم الله. ثم رجع إلى بيته ﷺ وكان ذلك بالليل، وكانت ليلة مقمرة، فأقبلوا حتى انتهوا إلى حصنه، وكان حديث عهد بعرس، فناداه أبو نائلة، ثم بقية أصحابه، فعرفهم فوثب في ملحفة، فأخذته امرأته في ناحية، وقالت: إنك امرؤ تحارب، وإن أصحاب الحروب لا ينزلون في مثل هذه الساعة. قال لها: إنه أبو نائلة، لو وجدني نائماً ما أيقظني. فقالت: والله! إني لأعرف في صوته الشر، وكأن صوته يقطر منه الدم. قال: إنما هو أخي محمد بن مسلمة، ورضيعي أبو نائلة. إن الكريم لو دعي إلى طعنة بليل لأجاب فنزل، فتحدث معهم ساعة، وتحدثوا معه. ثم قالوا له: هل لك يا بن الأشرف! أن تمشي إلى شعب العجوز، «اسم موضع» نتحدث به بقية ليلتنا؟ فقال: إن شئتم. فخرجوا يتماشون فمشوا ساعة. ثم إن أبا نائلة أدخل يده في باطن رأسه، ثم شمّ يده، فقال: ما رأيت كالليلة طيباً أعطر، ثم مشى ساعة ثم عاد لمثلها، حتى اطمأن. ثم مشى ساعة، وعاد لمثلها، وأمسكه من شعره وقال: اضربوا عدوّ الله.

وفي البخاري: أن ابن مسلمة، قال لأصحابه: إذا ما جاء كعب فإني قائل

بشعره[1] «آخذ به» فإذا رأيتموني استمكنت من رأسه، فاضربوه. فنزل إليهم متوشحاً، وهو ينفخ منه ريح الطيب. فقال ابن مسلمة: ما رأيت كاليوم طيباً. فقال: عندي أعطر نساء العرب وأجملهن. فقال: أتأذن لي أن أشم رأسك؟ قال: نعم. فشمه، ثم أشم أصحابه ثم قال: أتأذن لي؟ قال: نعم. فلما تمكن محمد من إمساكه، ضربوه بأسيافهم. وقد صاح كعب صيحة منكرة، وصاحت امرأته: يا آل قريظة والنضير! مرتين.

وقال محمد بن مسلمة: فوضعت سيفي في ثنيته ثم تحاملت عليه حتى بلغت عانته. فوقع على الأرض، فجزوا رأسه، واحتملوه في مخلاة كانت معهم. ولما سمعت اليهود، لم يبق حصن إلا أوقدت عليه نار، واجتمعت اليهود من كل ناحية. فأخذوا على غير الطريق، ففلتوهم. فلما بلغوا بقيع الغرقد كبروا. وقام ﷺ في تلك الليلة يصلي، فلما سمع تكبيرهم كبر، وعرف أنهم قتلوه. ثم انتهوا إليه فأخبروه بمقتل كعب بن الأشرف. فقال: أفلحت الوجوه. وقالوا: وجهك يا رسول الله! ورموا برأسه بين يديه.

وقد خافت اليهود بعد مقتل كعب، فليس بالمدينة يهودي إلا وهو يخاف على نفسه. فلما أصبح ﷺ قال: من ظفرتم به من رجال اليهود فاقتلوه، فخافت اليهود، ولم يطلع من عظمائهم أحد، فخافوا أن يبيتوا كما بيّت كعب، فأتوا رسول الله فقالوا: قتل سيدنا كعب بن الأشرف غيلة. فذكرهم صنيعه وما كان يحرض عليه، ويؤذي المسلمين، فخافوا، وسكتوا. ثم دعاهم إلى أن يكتبوا بينهم وبينه صلحاً. فكان ذلك الكتاب مع علي.

وذكر القاضي عياض: أن كعب بن الأشرف، لم يقتل غدراً. وإنما يكون الغدر بعد أمان موجود. وكعب قد نقض عهده مع رسول الله ﷺ، ولم يؤمنه محمد بن مسلمة ورفقته، لكنه استأنس بهم، فتمكنوا منه من غير عهد.

---

(١) من القاموس: (قال به) غلب به. والقوم بفلان قتلوه. وقال: يجيء بمعنى تكلم وضرب وغلب ومات ومال واستراح وأقبل، ويعبر بها عن التهيؤ للأفعال.

سريّة عبد الله بن عتيك لقتل

أبي رافع عبد الله سلام بن أبي الحقيق اليهودي(١)

لما قتلت الأوس كعب بن الأشرف في عداوته لرسول الله ﷺ بعد إذائه وتحريضه، استأذنته الخزرج في قتل سلام بن أبي الحقيق، وهو بخيبر. وكان الأوس والخزرج يتسابقان في ولائهما لرسول الله ﷺ. ويتصاولان على ذلك بينهما تصاول العجلين. فكان كل منهما يدفع عنه ﷺ ويتفاخر بذلك لا يصنع الأوس شيئاً فيه غناء، إلا قالت الخزرج، والله لا يذهبون بهذه فضلاً علينا عند رسول الله، وإذا فعلت الخزرج: شيئاً، قالت الأوس مثل ذلك.

ولما رصدت الأوس كعب بن الأشرف في عداوته لرسول الله ﷺ قالت الخزرج: والله لا يذهبون بهذه فضلاً علينا أبداً. من رجل في العداوة لرسول لله كابن الأشرف؟ فذكروا سلام بن أبي الحقيق، فقد كان من الذين

---

(١) لم يعرف بين يهود المدينة، وأحبارهم خاصة، من اسمه (عبد الله) إلا نادراً وما كانوا يسمون بذلك، وإنما هو اسم إسلامي. وهذا سهو من الشيخ رحمه الله. وحتى العرب المشركون في الجاهلية، ما كانوا ينسبون العبودية إلى الله في الجاهلية، وإنما كانوا ينسبونها إلى الآلهة والأصنام. فيقال عبد اللات، وعبد العزى. أو إلى البيت الحرام. وأبو بكر الصديق رضي الله عنه، كان اسمه قبل إسلامه (عبد الكعبة) فلما أسلم، سماه الرسول ﷺ (عبد الله). وهو أول من غير رسول الله ﷺ اسمه في الإسلام. وقد سبقت الإشارة إلى ذلك في صدر الكتاب.
وربما التبس الأمر على الشيخ بـ(عبد الله بن سلام) الذي أسلم من أحبار اليهود. وقصة إسلامه مشهورة. وهذا نفسه لم يكن اسمه (عبد الله) وإنما (الحصين بن سلام بن الحارث) وإنما سماه الرسول ﷺ بذلك بعد إسلامه، وهو من بني قينقاع.
و(ابن أبي الحقيق) الذي نحن بصدده، إنما اسمه الكامل: (أبو رافع الأعور، سلام ابن أبي الحقيق).
وانفرد باسم (عبد الله) بين أحبار اليهود، ولم يسلم: (عبد الله بن صوريا الأعور) ولم يكن بالحجاز في زمانه أحد أعلم بالتوراة منه. (المحقق).

حزبوا الأحزاب يوم الخندق، وأعانوا المشركين بالمال. فاستأذنوه في قتله، فأذن لهم في ذلك. ونهاهم أن يقتلوا وليداً ولا امرأة. فاختاروا من بينهم خمسة وهم:

عبد الله بن عتيك، وعبد الله بن أنيس، وأبو قتادة. واسمه الحارث بن ربعي، والأسود بن خزاعي، ومسعود بن منان الأسلمي، حليف بني سلمة، وهم بطن من الخزرج. وقلد رئاستهم لعتيك. فخرجوا في رمضان سنة ست. ولما وصلوا إلى خيبر كمنوا، فلما هدأت الرجل من الحركة، جاؤوا إلى منزله، وكان في حصن مرتفع، فلما دنوا منه وقد أظلم الليل، وراح الناس بسرحهم قال عبد الله بن عتيك لرفقائه: اجلسوا مكانكم، فإني منطلق ومتلطف للبواب، لعلي أدخل الحصن. فأقبل حتّى دنا من الباب، ثم تقنع بثوبه ليخفي شخصه كي لا يعرف، كأنه يقضي حاجته، وقد دخل الناس، وكانوا فقدوا حماراً لهم، فخرجوا بقبس يطلبونه. فكان ذلك سبب تقنع عبد الله بن عتيك بثوبه، وجلوسه كأنه يقضي حاجته مخافة أن يعرف. فناداه البواب: يا هذا! إن كنت تريد أن تدخل فادخل، فإني أريد أن أغلق الباب. قال ذلك وهو يظنه من أهل الحصن. قال ابن عتيك: فدخلت ثم اختبأت في مربط حمار عند باب الحصن، فلما دخل الناس أغلق الباب، ثم علق الأقاليد[1] «المفاتيح» على وتد في كوة. فقمت إلى الأقاليد فأخذتها، ففتحت الباب. وكان أبو رافع يسمر الناس عنده. فتعشوا عند أبي رافع، وتحدثوا حتى ذهبت ساعة من الليل، وكان في غرفة عالية له، إليها عجلة من خشب. فلما ذهب عنه أهل سمره، صعدت إليه، فجعلت كلما فتحت باباً أغلق عليّ من داخل، وقلت: إن القوم إن نذروا به، لم يخلصوا إليه حتى أقتله. فانتهيت إليه، فإذا هو وسط عياله في بيت مظلم، قد طفيء[2] سراجه لا أدري أين هو؟ وكان عبد الله بن عتيك يتكلم باليهودية، فإذا تكلم مع أبي رافع ظنه أنه من قومه، فلا يفزع منه، فاستفتح باب غرفته فرأته امرأته.

---

(١) مفرده (الأقليد): المفتاح، كالمقلاد.

(٢) الصحيح: قد طفأ سراجه، بمعنى: انطفأ.

فقالت: من أنت؟ قال: جئت أبا رافع بهدية، ففتحت له. وقالت: ذاك صاحبك. فلما رأت السلاح بيده أرادت أن تصيح، فأشار إليها بالسيف فسكتت. قال: فقلت: أبا رافع! لأعرف موضعه. فقال: من هذا؟ فأهويت نحو الصوت فضربته ضربة وأنا دهش، فما أغنت شيئاً، ولم أقتله. وصاح أبو رافع، فخرجت من البيت وكنت غير بعيد. فقالت امرأته: يا أبا رافع! هذا صوت عبد الله بن عتيك. قال: ثكلتك أمك، وأين عبد الله بن عتيك؟ قال: ثم دخلت عليه كأني أغيثه وغيّرت صوتي، فقلت: ما هذا الصوت يا أبا رافع؟ قال: لأمك الويل! إن رجلاً في البيت ضربني قبل بالسيف، فضربته ضربة أثخنته ولم أقتله. فصاح وقام أهله وصاحت امرأته، ثم وضعت ظبة[1] السيف في بطنه حتى دخل في ظهره، وسمعت صوت العظم فعرفت أني قد قتلته، فجعلت أفتح الأبواب باباً باباً، حتى انتهيت إلى درجة فوضعت رجلي وأنا أرى أني قد انتهيت إلى الأرض، فوقعت، وكانت الليلة مقمرة، فانكسرت ساقي فعصبتها بعمامة، ثم خرجت وكمنت في موضع وأوقدت اليهود النيران، وذهبوا في كل وجه، يطلبون قاتل أبي رافع حتى إذا أيسوا مني رجعوا إليه. وجلست كامناً وقلت: لا أخرج الليلة حتى أعلم أقتلته؟ فلما صاح الديك صعد الناعي على السور فقال: أنعي أبا رافع تاجر الحجاز. فانطلقت إلى أصحابي فقلت: النجاة، أسرعوا فقد قتلت أبا رافع. فعاد أربعة فيهم أبو عتيك إلى المدينة، وتخلف عنهم الأسود الخزاعي لينظر في الأمر. قال: ذهبت إلى الحصن حتى دخلت في الناس فوجدت امرأته، ورجالاً من اليهود حوله، وفي يدها المصباح تنظر في وجهه وتحدثهم وتقول: أما والله لقد سمعت صوت ابن عتيك بهذه البلاد. ثم نظرت في وجهه فقالت: فاض وإله يهود! فنزلت وأدركت أصحابي. وأما عبد الله بن عتيك لما تمادى في المشي أحس بالألم، فحملوه حتى أتى رسول الله وهو على المنبر. ولما رآنا قال: أفلحت الوجوه. وكان مقتل أبي رافع خطباً كبيراً على اليهود[2].

---

(١) (الظبة): حد السيف. أو طرفه المسنون.

(٢) إلى هنا انتهت طبعة (الإرادة) من (معجز محمد رسول الله) في سنة ١٣٥٧/١٩٣٨ =

سريـة عبد الله بن رواحة الخزرجي

إلى أسير بن رزام اليهودي بخيبر

لما قتل أبو رافع سلاّم بن أبي الحقيق، أمّرت يهود خيبر عليها أسيراً، ولما تم له الأمر، افتتح حكمه بمناوأة رسول الله ﷺ. فقال: والله ما سار محمد إلى أحد من اليهود، ولا بعث أحداً من أصحابه إلا أصاب منهم ما أراد. ولكني أصنع ما لم يصنع أصحابه. فقالوا: وما عسيت أن تصنع؟ قال: أسير في غطفان فأجمعهم، ونسير إليه في عقر داره «أصلها» فإنه لم يغز أحد في عقر داره إلا أدرك منه عدوه بعض ما يريد. قالوا: نعم ما رأيت. فجعل يجمع غطفان وغيرهم لحربه ﷺ، ولما بلغ رسول الله ذلك، وجه إليه عبد الله بن رواحة في ثلاثة نفر في شهر رمضان سراً ليستكشف له الخبر، فوعوا ما سمعوا من أسير وغيره، ثم خرج بعد ثلاثة أيام، فقدم على رسول الله لليال بقين من رمضان، فأخبره بكل ما رآه وسمعه.

وقدم عليه خارجة بن حميل[1] فاستخبره رسول الله ﷺ ما وراءه؟ فقال: تركت أسير بن رزام يتجهز إليك في كتائب اليهود. فندب رسول الله له الناس، فانتدب له ثلاثين رجلاً، فبعث عليهم عبد الله بن رواحة فقدموا عليه، فقالوا: نحن آمنون حتى نعرض عليك ما جئنا له. قال: نعم ولي منكم مثل ذلك؟ فقالوا: نعم، فقالوا: إن رسول الله بعثنا إليك لتخرج إليه يستعملك على خيبر، ويحسن إليك فطمع في ذلك. فشاور في ذلك اليهود فخالفوه في الخروج. وقالوا: ما كان محمد يستعمل رجلاً من بني إسرائيل. قال: بلى، قد مللنا الحرب. وخرج ومعه ثلاثون رجلاً من اليهود. ومع كل

= وطبعة (دار الغرب الإسلامي) التي اعتمدت عليها أصلاً. سنة ١٩٨٤ و١٩٨٦.

(١) (حميل) ضبطه الشيخ باللام بصيغة التصغير. ولعله (ابن حمير) بتشديد الياء وتخفيفها، ذكره (ابن هشام) رواية عن (ابن إسحاق) ضمن من شهدوا بدراً من بني عبيد بن عدى. ولم أجد أحداً باسم (خارجة بن حميل). المحقق.

رجل رديف من المسلمين، وعبد الله رديف لأسير. حتى إذا كانوا بقرقرة وهي على ستة أميال من خيبر، ندم أسير على سيره إلى رسول الله، وأراد الفتك بعبد الله بن رواحة، ففطن وهو يريد السيف. فاقتحم به عبد الله ثم ضربه بالسيف، فقطع رجله. فضربه أسير بمخرش[١] في يده من شوحط[٢] فأكمه[٣]. وعن عبد الله بن رواحة: وأهوى أسير بيده إلى سيفي، ففطنت له، فدفعت بعيري. وقلت: أي عدو الله غدراً مرتين. فنزلت. فسقت بالقوم حتى انفرد لي أسير، فضربته بالسيف، فأنذرت[٤] عامة فخذه وساقه، فسقط على بعيره. ومال أصحاب رسول الله على أصحابه فقتلوهم، لظهور إرادة الغدر لهم منهم، غير رجل واحد أعجزنا شداً «جرياً» أفلت على رجليه، ولم يصب من المسلمين أحد، والحمد لله، وما قتلوا بعد التأمين إلا لكونهم غدروا.

وكان ﷺ يحدث أصحابه، فقال تمشوا بنا إلى الثنية، سنبحث عن أصحابنا. فخرجوا معه فلما أشرفوا عليها إذا هم بأصحابنا. فجلس ﷺ في أصحابه، فانتهينا فحدثناه الحديث، فقال: نجاكم الله من القوم الظالمين.

قدوم كتيبة من قريش للعبث بأمن المدينة

لما أصاب قريش في بدر ما أصابهم، قرر أبو سفيان ألا يمس رأسه الماء والطيب، حتى يغزو محمداً، فخرج في مئة راكب من قريش، ليبر يمينه، حتى نزل بمحل بينه وبين المدينة نحو بريد[٥] ثم أتى لبني النضير، وهم حي من يهود خيبر «ينسبون إلى هارون أخ موسى» تحت الليل. فأتى حيي بن أخطب وهو من رؤساء بني النضير، وهو أبو صفية، أم المؤمنين، فضرب

---

(١) (المخرش) أو (المخراش) كالمحجن، ما يخرش به أو يخدش.

(٢) (الشوحط): شجر تتخذ منه القسي، أو ضرب من النبع.

(٣) (أكمه) لعله من (المأكمة) لحمة على رأس الورك، أي: أصابه في وركه.

(٤) (أنذر) الشيء: أسقطه.

(٥) (البريد): يساوي مسافة فرسخين، أو اثني عشر ميلاً.

عليه بابه، فأبى أن يفتح له، لأنه خافه. فانصرف عنه. وجاء إلى سلام بن مشكم، سيد بني النضير، والقيم على صندوق أموال طائفتهم. وكان فيه حلياً يعيرونه لأهل مكة، فاستأذن عليه، فأذن له واجتمع به للكيد. ثم خرج إلى أصحابه فبعث رجالاً منهم، فأتوا ناحية من المدينة فحرقوا نخلاً منها. وقال في (الإمتاع): ووجدوا رجلاً من الأنصار، هو معبد بن عمرو وحليفاً له، فقتلوهما، ثم كروا راجعين إلى مكة.

خروج رسول الله ﷺ

لتعقب كتيبة قريش وفرارها من لقائه

ولما علم رسول الله بخبرهم، خرج في طلبهم في مئتين من المهاجرين والأنصار، واستعمل على المدينة بشر بن عبد المنذر. وكان خروجه في طلبهم لخمس خلون من ذي الحجة. وجعل أبو سفيان وأصحابه يغذون السير سعياً في الهرب، وجعلوا يلقون جرب السويق: «وهو قمح أو شعير يقلى، ويخلط ببعض الأفاوية[1]، ثم يطحن، ويؤكل سفاً، وتارة يخلط بماء، وتارة بعسل وسمن «فغنمها المسلمون»، ولم يلحقوا بهم، فرجع رسول الله بمن معه إلى المدينة، وكانت غيبته خمسة أيام.

حملته ﷺ على قراقر

لتعقب غطفان وبني سليم

لما قدم رسول الله ﷺ من بدر، لم يقم إلا سبع ليال، حتى غزا بنفسه (قرقرة الكدرة) وقد بلغه أنه عليها جماعة من غطفان وبني سليم، يريدون الإغارة على المدينة، فخرج ليصدهم بمئتي رجل من الصحابة. واستخلف على المدينة سباخ بن عرفطة الغفاري. واستخلف ابن أم مكتوم على الصلاة.

(١) (الأفاوية) لم أجد لها تفسيراً. ولعلها (الأفاويح) وإن كانت غير فصيحة. وفي (لسان العرب): (الفيحاء): حساء مع توابل.

وكان لواؤه لعلي بن أبي طالب. فلما بلغ مياه الكدرة «سمى بذلك باسم طير يجتمع فيه في لونه كدرة» لم يلق بها أحداً. وأرسل نفراً من أصحابه إلى أعلى الوادي، واستقبلهم في بطن الوادي، فوجد خمسمئة بعير مع رعاة، منهم غلام يقال له سيار، فحازوها وانحدروا إلى المدينة، فلما كانوا على ثلاثة أميال منها، خمسها ﷺ فأخرج خمسه، وقسم الأربعة أخماس على أصحابه فخطّ كل رجل منهم بعيران، ووقع سيار في سهمه، فأعتقه بعد إسلامه. وكانت مدة غيبته خمسة عشر ليلة.

حملته ﷺ على ذي أمر ومطاردة ثعلبة ومحارب

بلغ[1] رسول الله ﷺ أن رجلاً يقال له دعثور بن الحارث الغطفاني «من بني محارب» جمع جمعاً من ثعلبة ومحارب بذي أمر «وهو موضع من ديار غطفان بناحية نجد» يريدون غزو أطراف المدينة ليصيبوا منها. فخرج إليهم رسول الله ﷺ في أربعمئة وخمسين رجلاً، لاثنتي عشرة ليلة مضت من شهر ربيع الأول، في السنة الثالثة من الهجرة. واستخلف على المدينة عثمان بن عفان. وأصاب الصحابة رجلاً منهم يقال له (حباب) من بني ثعلبة. فأدخل على رسول الله فأخبره عن خبرهم وقال له: لن يلاقوك، ولو سمعوا بمسيرك إليهم هربوا في رؤوس الجبال، وأنا سائر معك. فدعاه رسول الله إلى الإسلام، وضمه رسول الله إلى بلال، وأخذ به ذلك الرجل طريقاً هبط به عليهم، ولما سمعوا بمسير رسول الله إليهم فروا إلى رؤوس الجبال، فبلغوا ماء يقال له «ذو أمر» فعسكر به رسول الله وأصحابه، فأصابهم فيه مطر كثير بل ثيابهم، وثياب رسول الله. فنزع ثوبيه ونشرهما على شجرة ليجفا، واضطجع بمرأى من المشركين، واشتغل المسلمون في شؤونهم وكانوا آمنين من عدوهم، فبعث إليه الغطفانيون سيدهم (دعثور) وكان أشجعهم. وقالوا له: لقد انفرد محمد فعليك به. ولما رآه قال: قتلني الله إن لم أقتل محمداً.

---

(١) من هنا بدأت طبعة الجزء الثاني من (معجز محمد رسول الله) ﷺ (دار الغرب الإسلامي) ١٤٠٩/١٩٨٩.

فجاء دعثور ومعه سيفه حتى قام على رأس رسول الله ثم قال: من يمنعك مني اليوم؟ فقام رسول الله ودفعه في صدره فوقع على ظهره، وسقط السيف من يده، وأخذه رسول الله. وقال له: من يمنعك؟ قال: لا أحد، ثم دعاه إلى الإسلام فاقتنع، فآمن، فأعاد له سيفه، ثم أتى قومه فجعل يدعوهم إلى الإسلام. ثم نزلت آية في إثبات هذه الواقعة:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾[1].

ثم رجع رسول الله إلى المدينة دون أن يلقى حرباً، وكانت مدة غيبته إحدى عشر ليلة.

حملته ﷺ على نجران لمطاردة بني سليم

بلغ النبي ﷺ أن بنجران ـ وهو موضع بالحجاز، بينه وبين المدينة ثمانية برد ـ جمعاً كثيراً من بني سليم يقصدون المدينة فتجهز لهم في ثلاثمئة من أصحابه، لست خلون من جمادى الأولى من السنة الثالثة. ولم يظهر وجهاً. وأحث السير حتى بلغ نجران، وقبل أن يصل بليلة، لقي رجلاً من بني سليم، فأخبره أن القوم قد تفرقوا، فحبسه مع رجل، وسار إلى أن وجدهم كذلك، فأطلق سراحه، وأقام بنجران أياماً، ثم رجع ولم يلق حرباً. وكانت غيبته عشر ليال.

سريّـة زيد بن حارثة إلى القردة

علم رسول الله ﷺ أن قريش عدلوا عن الطرق التي تسلكها قوافلهم إلى الشام، بين الينبع والمدينة، بعد أن أصابهم ما أصابهم في بدر، وأنهم اتخذوا طريقهم على العراق، وأن تجاراً منهم، فيهم أبو سفيان بن حرب، وصفوان بن أمية، وحويط بن عبد العزى، خرجوا في عير لهم، يريدون

---

(١) سورة (المائدة) الآية: (١١).

الشام، ومعهم فضة كثيرة، فبعث رسول الله ﷺ في جمادى الآخرة من السنة الثالثة، في مئة راكب يتعقبهم، فالتقى بهم على القردة، وهو ماء من مياه نجد، فلما رأوا السرية تركوا العير، وفروا على وجوههم، فأصاب زيد العير وساقها إلى المدينة، فخمسها رسول الله ﷺ. فبلغ قيمة الخمس عشرين ألف درهم.

زواج عثمان بأم كلثوم

قدمنا في واقعة بدر: أن عثمان تخلف بالمدينة لتمريض زوجه رقية، رضي الله عنها، وقد ماتت قبيل رجوع النبي ﷺ من الغزو ببضع أيام. وجاء أن النبي رأى عثمان بن عفان مهموماً بعد وفاة رقية، فقال: مالي أراك لهفاناً[1] فقال له: يا رسول الله! وهل دخل على أحد ما دخل علي؟ انقطع الصهر بيني وبينك، قال: قد زوجتك أختها أم كلثوم على مثل صداقها وعلى مثل عشرتها. فزوجه إياها في شعبان السنة الثالثة. ولما تزوجها دخل عليها رسول الله ﷺ قال: يا بنية! أين أبو عمرو؟ «وهي كنية عثمان. كني بها أولاً قبل أن يرزق بولده عبد الله من رقية رضي الله عنها» قالت: خرج لبعض حاجاته. قال: كيف رأيت بعلك؟ قالت: يا أبت! خير بعل. ولتزوجه ببنتي النبي قيل له: ذو النورين. وبقيت تحته إلى أن ماتت في السنة التاسعة من الهجرة. وأم عثمان (أروى) عمته ﷺ. وقيل: توأمة عبد الله أبي النبي ﷺ.

ولما انقضت عدة حفصة بنت عمر بن الخطاب من زوجها خنيس بن حذافة من شهداء بدر، عرضها عمر على أبي بكر، فلم يجبه لشيء، وعرضها على عثمان، فسكت عنه، فقال عمر لرسول الله: قد عرضت حفصة على عثمان، فأعرض عني. فقال رسول الله ﷺ: إن الله قد زوج عثمان خيراً من ابنتك، وزوج ابنتك خيراً من عثمان. فتزوجها ﷺ.

---

(١) (لهفاناً): حزيناً متحسراً.

قصة زينب ابنة جحش

روى مقاتل: أن زيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ جاء إليه وقال: يا رسول الله! اخطب علي. قال: من؟ قال: زينب بنت جحش. قال: لا أراها تفعل، إنها أكرم من ذلك نسباً. فقال: يا رسول الله إذا كلمتها أنت وقلت: زيد أكرم الناس علي، فعلت. قال: إنها امرأة لسن[1]. فذهب زيد إلى علي، فحمله على أن يكلم النبي في ابنة عمته، وانطلق معه على رسول الله فكلمه في ذلك. فقال: إني فاعل، ومرسلك يا علي إلى أهلها لتكلمهم. ففعل. ثم عاد فأخبره بكراهتها وكراهة أخيها لذلك. فأرسل إليهم النبي يقول: لقد رضيت لكم، وأقضي أن تنكحوه فأنكحوه. وساق إليها عشرة دنانير، وستين درهماً ودرعاً وخماراً وملحفة وإزاراً، وخمسين مداً من الطعام، وعشرة أمدد من التمر. أعطاه ذلك كله رسول الله ﷺ، فدخل بها.

وجاءه يوماً، فقال: يا رسول الله! إن زينب اشتد علي لسانها، وأنا أريد أن أطلقها. فقال له: اتق الله. فقال: استطالت علي. فقال: أمسك عليك زوجك.

ثم جاء بعد ذلك ﷺ بيت زينب يطلبه، فلم يجده، فتقدمت إليه زينب، فقالت له: ليس هو هاهنا يا رسول الله! فادخل. فأبى أن يدخل. ويقول كتاب السيرة: إنها وقعت في نفسه، فرجع وهو يقول: سبحان مصرف القلوب. وفي رواية: مقلب القلوب. وسمعته زينب يقول ذلك. فلما جاء زيد، أخبرته بما كان من رسول الله ﷺ. فجاء إليه وقال: يا رسول الله! لعل زينب أعجبتك؟ فأفارقها. فقال رسول الله: أمسك عليك زوجك. فما استطاع زيد إليها سبيلاً بعد ذلك اليوم. فلم يغشها من حين رآها رسول الله ﷺ إلى أن طلقها، ونقل عنها أنها قالت: لما وقعت في قلب النبي، لم يستطعني زيد، وما امتنعت عنه، وصرف الله قلبه عني. فطلقها. فلما

---

(١) (لسن): حادة القول.

انقضت عدتها، أرسل رسول الله زيداً إليها، فقال له: اذهب فاذكرها علي. فانطلق قال: فلما رأيتها عظمت في صدري. فقلت: يا زينب أبشري، أرسلني رسول الله يذكرك، قالت: ما أنا بصانعة شيئاً، حتى أؤامر ربي «أستخيره» فبينما رسول الله جالس يتحدث مع عائشة إذ ألهم أن الله زوجه زينب، فسري عنه وهو يبتسم ويقول: من يذهب إلى زينب فيبشرها أن الله زوّجنيها؟ قالت: دخل علي رسول الله، وأنا مكشوفة الشعر. فقلت: يا رسول الله! بلا خطبة ولا إشهاد؟ قال: الله المزوج، وجبريل شاهد. فنزلت الآية:

﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴾[١].

عتب الله على نبيه، لأنه أخفى ما كان يبدو من حبه لزينب، بعد أن علم أنه سيتزوجها. فلما شكا إليه زيد، قال: أمسك عليك زوجك واتق الله. وأخفى عنه في نفسه، ما الله مبديه ومظهره. ووجه العتب: أنه خشي اليهود والمنافقين أن يقولوا: تزوج محمد امرأة ابنه، والله أحق أن يخشاه في إمضاء ما أحبه، ورضيه له، وأعطاه إياه. وقد جعل الله طلاق زيد لها، وتزوج النبي ﷺ إياها، لإزالة حرمة التبني. قال تعالى:

﴿ لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ ﴾[٢].

وأولم ﷺ على زينب[٣] في رمضان السنة الثالثة بما لم يولم به على نسائه،

---

(١) سورة (الأحزاب) الآية: (٣٧).

(٢) سورة (الأحزاب) الآية: (٣٧).

(٣) اختلف في السنة التي تزوج فيها رسول الله زينب بنت جحش، بنت عمته أميمة بنت عبد المطلب. قيل: في السنة الثالثة، وقيل: في السنة الرابعة، وقيل: في السنة الخامسة. والذي عليه المعول عند أهل التحقيق، أنه تزوج زينب بنت خزيمة في =

فقد ذبح شاة، وأطعم فخرج الناس، وبقي رجال يتحدثون في البيت بعد الطعام، فشق ذلك على رسول الله. ففي صحيح البخاري: فجعل النبي ﷺ يخرج ثم يرجع، وهم قعود يتحدثون. فخرج فانطلق إلى حجرة عائشة فسلم عليها، ثم دخل حجر نسائه كلهن، فسلم عليهن وهن يرددن عليه. ثم رجع فوجد القوم في البيت يتحدثون. قال أنس: وكان النبي شديد الحياء، فخرج فطلبها إلى حجرة عائشة.

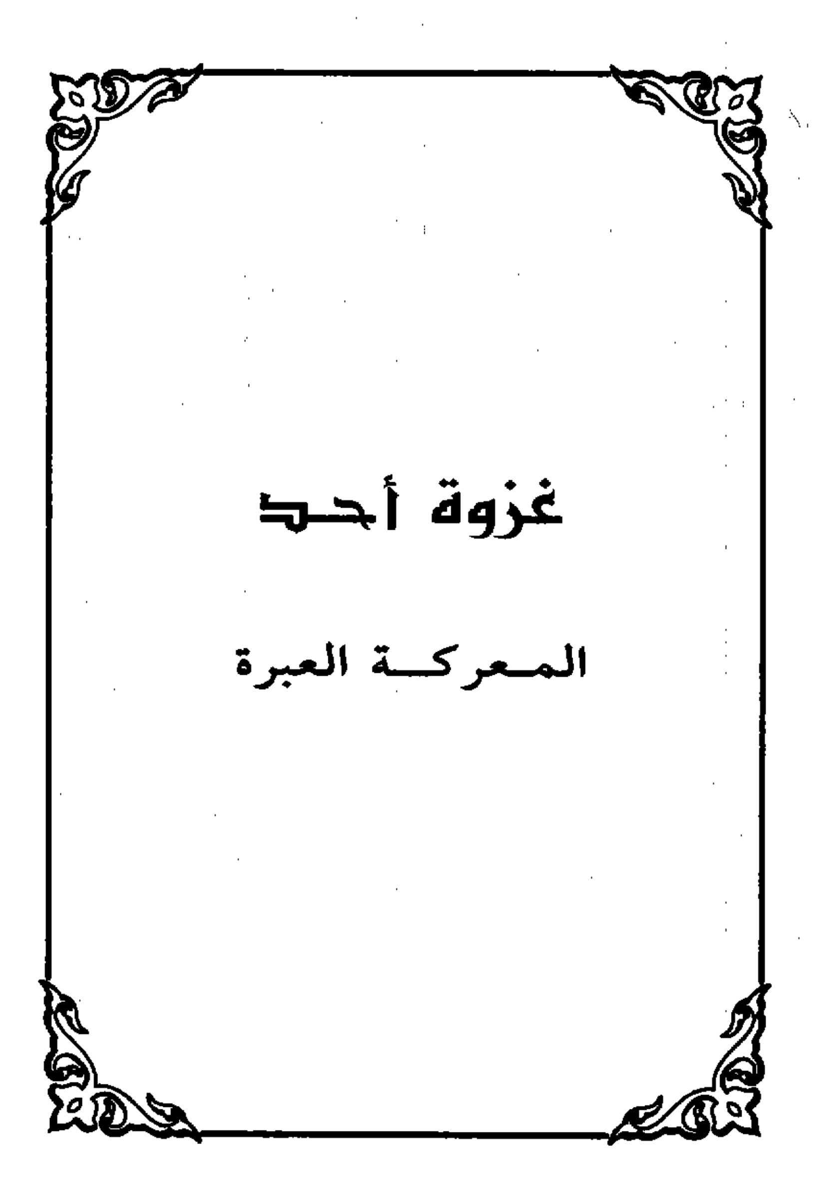
فأخبر أن القوم خرجوا، فرجع حتى وضع رجليه في أسكفة[1] البيت، رجل داخله وأخرى خارجه، وأرخى الستر بيني وبينه. فنزلت آية الحجاب[2] قال الزمخشري: وهي أدب أدّب الله تعالى به الثقلاء.

* * *

= رمضان السنة الثالثة. وتزوج زينب ابنة جحش في السنة الرابعة. وكان اسمها (برة) فغير رسول الله اسمها وسماها زينب. وقال لها: لو كان أبوك مسلماً لسميناه باسم رجل منا، ولكن قد سميته جحشاً. والجحش في اللغة: السيد. (المؤلف).

(١) (الأسكفة) بضم الهمزة، وتشديد الفاء: خشبة الباب التي يوطأ عليها.

(٢) يقصد الشيخ. رحمه الله، الآية: (٥٣) في سورة الأحزاب، والتي ورد فيها ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾ والآية (٥٩) من السورة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ . . .﴾ الآية. وقد اختلف العلماء في تاريخ نزولها بين السنة الرابعة والخامسة للهجرة، اختلافهم في تاريخ زواجه بزينب، أم المؤمنين رضي الله عنها.



غزوة أحد

المعركة العبرة

قريش يطالبون بالثأر

لم يهجع لقريش طرف، بعد أن أصابهم ما أصابهم في واقعة بدر من الكسر، وموت أشرافهم وكبرائهم. وما زالوا يسعون في طلب الثأر فقد مشى عبد الله بن أبي ربيعة، وعكرمة بن أبي جهل، وصفوان بن أمية، ورجال آخرون من أشراف قريش، إلى أبي سفيان بن حرب، وإلى من كان له تجارة في العير التي كان سببها وقعة بدر. وكانت أموالها موثوقة في دار الندوة، لم تعط لأربابها. فقالوا: إن محمد وتركم[1] قتل رجالكم وخياركم، ولم تدركوا دماءكم فأعينونا بهذا المال على حربه، لعلنا ندرك منه ثأراً عمن أصاب منا. وقالوا: نحن طيبو النفوس، أن نجهز بربح هذا العير جيشاً إلى محمد. فقال أبو سفيان: وأنا أول من أجاب إلى ذلك، وبنو عبد مناف معي. فجعلوا لذلك ربح المال، فسلم لأهل العير رؤوس أموالهم، وكانت خمسين ألف دينار. وأنزل الله في ذلك:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ﴾[2].

تجهزت قريش، ومن والاهم من قبائل كنانة وتهامة، وقال صفوان بن أمية لأبي عزة: يا أبا عزة! إنك رجل شاعر، فأعنا بلسانك، ولك علي، إن رجعت أن أغنيك، وإن أصبت أجعل بناتك مع بناتي، يصيبهن ما أصابهن من عسر ويسر. فقال: إن محمد قد من عليّ، على ألا أظاهر عليه أحداً حين أطلقني وأنا أسير في أسارى بدر، فلا أريد أن أظاهر عليه. قال: بلى. فأعنا بلسانك. فخرج أبو عزة ومسافع يستنفران الناس بأشعارهما. ودعا جبير بن مطعم بن عدي غلاماً له حبشياً يقال له وحشي، وكان يقذف بحربة له قذف الحبشة، قلما يخطىء بها. قال له: اخرج مع الناس، فإن أنت قتلت حمزة عم

---

(١) (وتره): أفزعه، وأدركه بمكروه.

(٢) سورة (الأنفال) الآية: (٣٦).

محمد بعمي طعيمة بن عدي، فأنت عتيق. وفي رواية: سبط ابن الجوزي: ساروا بالقيان والدفوف والمعازف والخمور والبغايا. وخرج من نساء قريش في هذه الحملة خمس عشرة امرأة مع أزواجهن، منهن: هند زوج أبي سفيان وأم حكيم بنت طارق مع زوجها عكرمة بن أبي جهل، وسلامة مع زوجها طلحة بن أبي طلحة، وأم مصعب بن عمير، يبكين قتلى بدر، وينحن عليهم، يحرضنهم على القتال، وعدم الهزيمة والفرار. وأرادوا العباس بن عبد المطلب على الخروج معهم، فاعتذر بما لحقه يوم بدر، ولم يساعدهم بشيء.

وقد أرسل العباس بما عزمت عليه قريش، كتاباً إلى النبي ﷺ مع رجل استأجره من بني غفار، شرط عليه أن يأتي المدينة في ثلاثة أيام، بلياليها. ففعل كذلك. وسلم الغفاري كتاب العباس للنبي وهو بقباء، ففك ختمه ودفعه لأبي بن كعب، فقرأه عليه فاستكتم أبياً. ونزل ﷺ على سعد بن الربيع فأخبره بكتاب العباس فقال: والله إني لأرجو أن يكون خيراً، فاستكتمه إياه، ثم شرع يعد لهذا الأمر عدته.

قدوم جيش قريش

سارت قريش إلى المدينة، وهم في ثلاثة آلاف رجل من قريش والحلفاء والأحابيش «الأحابيش الذين حالفوا قريشاً، وهم بنو المصطلق وبنو الهون بن خزيمة اجتمعوا عند حبشي، وهو جبل بأسفل مكة، وتحالفوا على أنهم مع قريش يداً واحدة على غيرهم، ما سجا ليل، ووضح نهار، وما أقام حبشي مكانه. فسموا أحابيش باسم الجبل، وقيل: سموا بذلك لتحبشهم، «أي: تجمعهم».

وكان فيهم مئتا فارس، وثلاثة آلاف بعير، وسبعمئة دارع، وكان معهم أبو عامر الراهب، في سبعين فارساً من الأوس، وعسكروا مقابل المدينة بذي الحليفة، وهو ميقات أهل المدينة الذي يحرمون منه. وأكثر اليهود والمنافقون من الإرجاف في أهل المدينة، وكانت عيون النبي ﷺ مع جيش المشركين منذ فارقوا مكة، وهم نفر من خزاعة، عليهم عمرو بن صالح الخزاعي، يوافونه بأخبارهم ومراحلهم.

وأقيمت الحراسة الشديدة على المدينة، فقد بات سعد بن معاذ، وأسيد بن حضير، وسعد بن عبادة، باتوا يتحارسون في المسجد بباب رسول الله، عليهم السلاح، حتى أصبحوا. وقال رسول الله لأصحابه: إن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم حيث نزلوا. فإن أقاموا، أقاموا بشر مقام، وإن هم دخلوا علينا، قاتلنا فيها، فإنا أعلم بها منهم. وكانوا قد شبكوا المدينة بالبنيان من كل ناحية، فهي كالحصن. وكان ذلك رأي أكابر المهاجرين والأنصار. ووافق على ذلك عبد الله بن أبي بن سلول، فقد استشاره ﷺ في ذلك، ولم يستشره قبل ذلك. قال: يا رسول الله! أقم بالمدينة ولا تخرج، فوالله ما خرجنا منها إلى عدو لنا قط إلا أصاب منا، ولا دخلها إلا أصبنا منه، فدعهم يا رسول الله! فإن أقاموا أقاموا بشر مجلس، وإن دخلوا كافحهم الرجال في وجوههم، ورماهم الصبيان بالحجارة من ورائهم، وإن رجعوا رجعوا خائبين كما جاؤوا.

وذهب الأكثرون، وهم من الأحداث، وممن أسف على ما فاته من مشهد بدر، وقالوا: اخرج بنا إلى أعدائنا، لا يرون أنا جبنا عنهم وضعفنا، فيكون ذلك جرأة منهم علينا. والله لا نطمع العرب في أن تدخل علينا منازلنا. ووافقهم حمزة على ذلك. وقال للنبي: والذي أنزل عليك الكتاب لا أطعم طعاماً، حتى أجادلهم بسيفي خارج المدينة.

هذه آراء الحزبين مع رسول الله ﷺ. وكان هو في ذاته مع الحزب الأول، يكره الخروج، غير أن حزب الأحداث ما زال برسول الله يحاوله على الخروج حتى وافق عليه، وصلى الجمعة بالناس، ثم وعظهم وأمرهم بالجد والاجتهاد، وأخبرهم بأن لهم النصرة ما صبروا، وأمرهم بالتهيؤ للقاء عدوهم، ففرح الناس بذلك. ثم صلى بالناس العصر، وقد حشدوا، وحضر أهل العوالي، ثم دخل رسول الله بيته ومعه أبو بكر وعمر فعمماه ولبساه[1] وصف الناس ينتظرون خروجه. فقال لهم سعد بن معاذ وأسيد بن حضير:

---

(١) (ولبساه) من ألبساه اللأمة.

استكرهتم رسول الله على الخروج، فردوا الأمر إليه، فما أمركم به وما رأيتم له فيه هوى، فأطيعوه. فخرج رسول الله وقد لبس لأمته، وظاهر بين درعين، أي: لبس درعاً فوق درع، وهما: ذات الفضول، وفضة، التي أصابها من بني قينقاع. وأظهر الدرع، وحزم وسطها بمنطقة من أدم من حمائل سيفه، وتقلد السيف، وألقى الترس في ظهره فركب فرسه (السكب) وتقلد القوس، وأخذ قناته بيده، وسار أمام القوم.

ولما رآه الصحابة على هذه الهيئة قالوا: ما كان لنا أن نخالفك ولا نستكرهك على الخروج فاصنع ما شئت. وفي رواية: فإن شئت فاقعد. قال: قد دعوتكم إلى القعود فأبيتم، وما ينبغي لي إذا لبست لأمتي أن أضعها، حتى يحكم الله بيني وبين أعدائه.

وعقد ﷺ ثلاثة ألوية، لواء للأوس، وكان بيد أسيد بن حضير، ولواء للمهاجرين، وكان بيد علي بن أبي طالب. ولما سأل ﷺ عمن يحمل لواء المشركين قيل له: طلحة بن أبي طلحة وكان من بني عبد الدار، فأخذه من علي بن أبي طالب، ودفعه لمصعب بن عمير، وهو من بني عبد الدار. وكانوا أصحاب اللواء في الجاهلية. وسلم لواء الخزرج بيد سعد بن عبادة. وخرج في ألف، منهم مئة دارع. وخرج السعدان أمامه يعدوان، سعد بن معاذ وسعد بن عباده دارعين، وسار إلى أن وصل إلى رأس الثنية، وعندها وجد كتيبة كبيرة، فقال: ما هذه؟ قالوا: هؤلاء حلفاء عبد الله بن أبي بن سلول من يهود. فقال: أسلموا؟! فقيل: لا. فقال: نحن لا ننتصر بهؤلاء. فردهم.

وسار ﷺ وعسكر بالشيخين، وهما جبلان، وعند ذلك عرض جنده، فرد جمعاً من الشباب لم يرهم بلغوا خمس عشرة سنة، بل أربع عشرة سنة، منهم عبد الله بن عمر، وزيد بن ثابت، وأسامة بن زيد، وزيد بن أرقم، والبراء بن عازب ، وأسيد بن حضير، وعرابة بن أوس، وأبو سعيد الخدري، وسعد بن خيثمة، ورافع بن خديج، وسمرة بن جندب، وسعد بن حنينة.

ثم أجاز رافع بن خديج، لما قيل له: إنه رام. فقال سمرة لزوج أمه:

أجاز رافع بن خديج وردني، وأنا أصرعه، فأعلم بذلك رسول الله. فقال: تصارعا. فصرع سمرة رافعاً، فأجازه. وما فرغ من العرض إلا وقد غابت الشمس. فأذن بلال بالمغرب فصلى رسول الله بأصحابه، ثم أذن للعشاء فصلى بهم، وبات، واستعمل على الحرس تلك الليلة محمد بن مسلمة، في خمسين رجلاً، يطوفون بالعسكر. ونام رسول الله، وذكوان بن عبد القيس يحرسه، لم يفارقه فصلى الصبح بالشوط، وهو حائط بين (المدينة) و(أحد).

ومن هذا الحائط، رجع عبد الله بن أبي بن سلول ومن معه من المنافقين. وكانوا ثلاثمئة رجل. وكان يقول: عصاني، وأطاع الولدان ومن لا رأي له. سيعلم. ما ندري علام نقتل نفسنا؟ ارجعوا أيها الناس! فرجعوا، فتبعهم عبد الله بن عمرو بن حرام، وهو والد جابر. وكان في الخزرج كعبد الله بن أبي. يقول: يا قوم! أذكركم الله أن تخذلوا قومكم، ونبيكم، وتتركوا نصرتهم وإعانتهم، عندما حصر من عدوهم. قالوا: لو نعلم أنكم تقاتلون ما أسلمناكم، ولكن لا نرى أنه يكون قتالاً. وأبوا إلا الانصراف. فقال لهم: أبعدكم الله، أعداء الله فسيغني الله تعالى نبيه.

رجوع عبد الله بن أبي
ومعه بنو حارثة وبنو سلمة عن الحرب

فلما رجع عبد الله بن أبي بن سلول بمن معه، قالت طائفة: نقاتلهم، وقالت طائفة: ندعهم. وهما أن يقتتلا. والطائفتان هنا: بنو حارثة من الأوس وبنو سلمة من الخزرج فنزلت الآية[1]:

﴿ ۞ فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم[2] بِمَا كَسَبُوٓا۟ ﴾.

وقد همت الطائفتان بالانصراف، وكانوا جناحين من العسكر، ثم

---

(١) سورة (النساء) الآية: (٨٨).

(٢) (أركسهم): ردهم إلى الكفر. المؤلف، وكان الشرح مدرجاً في صلب الآية الكريمة.

عصمهما الله، فبقي مع رسول الله سبعمئة رجل.

وقالت الأنصار لما رجع ابن أبي: ألا نستعين يا رسول الله بحلفائنا من يهود المدينة؟ يعنون: بني قريظة حلفاء سعد بن معاذ وهو سيد الأوس كما تقدم، وكان في الأنصار بمنزلة أبي بكر في المهاجرين. فقال رسول الله: ﷺ لا حاجة لنا فيهم. ثم سأل الصحابة: من منكم يخرج بنا على القوم من كثيب، من طريق قريب، لا يمرّ بنا عليهم، فأجاب أبو خيثمة: أنا يا رسول الله! فنفذ به من حرة بني حارثة وبين أموالهم، حتى دخل في حائط للمربع بن قيضي الحارثي. وكان رجلاً منافقاً ضريراً. فقام يحثو التراب في وجوههم، ويقول: إن كنت رسول الله، فإني لا أحل لك أن تدخل حائطي، وفي يده حفنة من تراب. وقال: والله! لو أعلم أني لا أصيب بها غيرك يا محمد، لضربت بها وجهك. فابتدر إليه سعد بن زيد فضربه بالقوس في رأسه، فشجه وأراد القوم قتله. فقال لهم رسول الله: لا تقتلوه، فهذا الأعمى: أعمى القلب، أعمى البصر. وغضب له ناس من بني حارثة كانوا على مثل رأيه، منافقين. لم يرجعوا مع من رجع مع عبد الله بن أبي. فهمّ بهم أسيد بن حضير، حتى أومأ إليه رسول الله ، فترك ذلك.

ومضى رسول الله بالجند حتى نزل الشعب من أحد، فجعل ظهره وعسكره إلى أحد، واستقبل المدينة، وصف المسلمين في جبل أحد، وبات تلك الليلة، وحانت صلاة الصبح، والمسلمون يرون المشركين. فأذن بلال وأقام، وصلّى رسول الله بأصحابه صفوفاً، وخطب فيهم يحثهم على الجهاد. ومما ورد في خطابه:

الحث على صلاة الجمعة، فقال: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فعليه الجمعة، إلا صبياً، أو امرأة، أو مريضاً، أو عبداً مملوكاً، ومن استغنى عنها، استغنى الله عنه، والله غني حميد. ما أعلم من عمل يقربكم إلى الله تعالى، إلا وقد أمرتكم به. ولا أعلم من عمل يقربكم إلى النار، إلا وقد نهيتكم عنه. وإنه قد نفث في روعي «قلبي» أنه لن تموت نفس حتى تستوفي أقصى رزقها، لا ينقصن منه شيء، وإن أبطأ عنها. فاتقوا الله ربكم،

وأجملوا في طلب الرزق، لا يحملنكم استبطاؤه، أن تطلبوه بمعصية الله، والمؤمن من المؤمن كالرأس من الجسد، إذا اشتكى، تداعى إليه سائر جسده. والسلام عليكم.

التعبئـــة

ولمّا أقبل خالد بن الوليد، ومعه عكرمة بن أبي جهل، بعث رسول الله الزبير بن العوام، وقال له: استقبل خالد بن الوليد، وكن بإزائه، وأمر بخيل أخرى، فكانوا من جانب آخر، بإزاء خيل أخرى للمشركين وقال: لا تبرحوا حتى أؤذنكم. وقال: لا يقاتلن أحد حتى آمره بالقتال. وكان عدد الرماة خمسين رجلاً، وأمّر عليهم عبد الله بن جبير، وقال: انضح الخيل عنا بالنبل، لا يأتونا من خلفنا، واثبتوا مكانكم، ولو رأيتمونا تتخطفنا الطير، حتى أرسل إليكم. وإن رأيتمونا ظهرنا على القوم وأوطأناهم، فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم، وإن رأيتمونا قد غنمنا، فلا تشركونا، وإن رأيتمونا نهزمهم حتى ندخل في معسكرهم، فلا تفارقوا مكانكم. وإن رأيتمونا نقتل، فلا تغيثونا، ولا تدفعوا عنا. وارشقوهم بالنبل، فإن الخيل لا تقدم على النبل. إنا لن نزال غالبين، ما مكثتم مكانكم. اللهم! إني أشهدك عليهم.

وأخرج رسول الله سيفاً، وقال: من يأخذ هذا السيف بحقه؟ فقام إليه رجال، فأمسكه عنهم. من جملتهم: علي بن أبي طالب، وعمر، والزبير. وقد طلبه ثلاث مرات. ورسول الله يعرض عنه، حتى قام إليه أبو دجانة الأنصاري، وقال: ما حقه؟ يا رسول الله! قال: تضرب به في وجه العدو، حتى ينحني. قال: أنا آخذه بحقه، فدفعه إليه. وكان رجلاً شجاعاً، يختال عند الحرب، يمشي إليها مشية المتكبر. وحين رآه رسول الله يتبختر بين الصفين قال: إنها لمشية يبغضها الله، إلا في مثل هذا الموطن؛ لأن فيها دليلاً على عدم الاكتراث بالعدو.

المبـارزة

ولما أكمل تعبئة الصفوف من الفريقين، وكان ذلك في شوال، سنة ثلاث

من الهجرة، نادى أبو سفيان بن حرب: يا معشر الأوس والخزرج! خلوا بيننا وبين بني عمنا وننصرف عنكم، فأسمعوه ما يكره. فخرج من بين صفوف المشركين رجل على بعير، فدعا للبراز فأحجم عنه الناس. حتى دعا ثلاثاً. فقام إليه الزبير، فوثب حتى استوى معه على البعير، ثم عانقه فاقتتلا فوق البعير، فقال رسول الله: الذي يلي حضيض الأرض مقتول، فوقع المشرك ، فعلاه الزبير، فذبحه. فأثنى عليه رسول الله ﷺ وقال: لكل نبي حواري، وإن حواري الزبير. وقال: لو لم يبرز إليه الزبير، لبرزت إليه بنفسي. وخرج ثان بين الصفين من المشركين، وهو طلحة بن أبي طلحة، واسم أبيه عبد الله بن عثمان بن عبد الدار، وكان بيده لواء المشركين، كما قدمنا. وكنيته: أبو طلحة. وطلب المبارزة، فلم يبرز إليه أحد، فقال: يا أصحاب محمد! إنكم تزعمون أن الله يعجلنا بسيوفكم إلى النار، ويعجلكم بسيوفنا إلى الجنة. فهل أحد منكم يعجلني بسيفه إلى النار؟ أو أعجله بسيفي إلى الجنة كذبتم واللات والعزى، لو تعلمون ذلك حقاً لخرج إلي بعضكم. فخرج إليه علي بن أبي طالب، فاختلفا ضربتين، فكانت ضربة علي القاضية، فأخذ لواء المشركين أخو طلحة، عثمان بن أبي طلحة فحمل عليه حمزة فقطع يده وكتفه، حتى انتهى إلى مؤتزره، فرجع حمزة من الحومة، وهو يقول: أنا ابن ساقي الحجيج، فأخذ اللواء أخو عثمان، وهو أبو سعيد بن أبي طلحة، فرماه سعد بن أبي وقاص، فأصاب حنجرته، فقتله. ثم حمله أخوه مسافع وهو الحارث بن طلحة فرمى عاصم، فقتله. وكانت أمهما سلافة معهما، فنذرت إن أمكنها الله من رأس عاصم، أن تشرب فيه الخمر، وجعلت لمن جاء به مئة من الإبل، فحمل الراية أخو الحارث وهو كلاب بن طلحة، فقتله الزبير. فحمله أخوهم الجلاس بن طلحة، فقتله طلحة بن عبيد الله. ولما قتل أبناء طلحة، حمله أرطاة بن شرحبيل فقتله علي بن أبي طالب، فحمله شريح بن قارض، فقتل. ولم يعرف قاتله. ثم حمله أبو زيد بن عمرو بن عبد مناف بن هاشم بن عبد الدار، فقتله قزمان[1] فحمله ولد لشرحبيل بن

(١) (قزمان) هذا هو الذي قال فيه رسول الله: «إنه لمن أهل النار» قتل يوم أحد تسعة =

هاشم، فقتله قزمان أيضاً. ثم حمله صواب غلامهم، وكان حبشياً، فقاتل حتى قطعت يده، ثم برك عليه فأخذه لصدره، وعانقه حتى قتل عليه. واختلف في قاتله فقيل: قزمان، وقيل: سعد بن أبي وقاص، وقيل: علي. والسبب في تهالك بني عبد الدار على اللواء: أن أبا سفيان، خطبهم قبل المعركة فقال: يا بني عبد الدار! إنكم تركتم لواءنا يوم بدر، فأصابنا ما قد رأيتم. وإنما تؤتى الناس من قبل راياتهم، إذا زالت زالوا، فإما أن تكفونا لواءنا؟ وإمّا أن تخلوا بيننا وبينه؟ فنكفيكموه. فهموا به، وتواعدوا. وقالوا: نحن نخلي لك لواءنا؟ ستعلم غداً، إذا التقينا كيف نصنع؟

المعركـة

ولما صرع صاحب اللواء طلحة بن أبي طلحة، استبشر النبي والمسلمون، وترادف البشر بقتل من قتل من أصحاب اللواء، وصاروا كتائب متفرقة، واحتدم القتال بين الصفوف، فجاس المسلمون فيهم ضرباً حتى أثخنوهم، وأجهضوهم، وأزالوهم عن أثقالهم. وكان شعار المسلمين: أمت أمت. وشعار الكفار: يا للعزى يالهبل. ثم خرج عبد الرحمن بن أبي بكر فقال: من يبارز؟ فنهض إليه أبوه رضي الله عنه شاهراً سيفه.

فقال له رسول الله: شم[1] سيفك، وارجع إلى مكانك، ومتعنا بنفسك. فحملت خيل المشركين على المسلمين ثلاث مرات. فتنضح بالنبل فترجع مفلولة. وحمل المسلمون إثر ذلك فيهم فهتكوهم، وأثخنوهم قتلاً. فلما التقى الناس وحميت الحرب، قامت هند في النسوة اللائي معها، وأخذن

= من المشركين في بعض الروايات، فلما أثخنته الجراحات، قيل له: أبشر يا قزمان! فقد أبليت اليوم، وقد أصابك ما ترى في الله. قال: بماذا أبشر؟! فوالله ما قاتلت إلا حمية عن قومي. فلما اشتدت به جراحاته، قطع عرق يده، فقتل نفسه. فصدق قول رسول الله فيه: إنه من أهل النار. (المحقق).

(١) (شام) السيف، شيمه. غمده، واستله. من الأضداد. والمعنى هنا: أعده إلى غمده.

الدفوف يضربن بها خلف الرجال فيثرن حماسهم ويقلن:

ويهـــا[1] بنـــي عبـــد الـــدار

ويهـــا حمـــاة الأدبـــار

ضربـــاً بكـــل بتـــار

نحـــن بنـــات طـــارق

نمشي على النمـــارق

مشي القطـــا النـــوازق

والمســـك في المفـــارق

والـــدر في المخـــانـــق[2]

إن تقبلـــوا نعـــانـــق

أوتـــدبـــروا نفـــارق

فـــراق غير وامـــق

والأرجوزة لهند بنت طارق.

ولما سمع رسول الله تحريض هند، قال: اللهم بك أحول، وبك أصول، وفيك أقاتل، حسبي الله، ونعم الوكيل.

وقاتل أبو دجانة حتى أمعن في الناس. قال الزبير: وجدت في نفسي، حين سألت رسول الله السيف الذي عرضه، وأنا ابن عمته، فمنعنيه وأعطاه أبا دجانة. فقلت: والله لأنظرن ما يصنع، فاتبعته، فأخذ عصابة حمراء، أخرجها من ساق خفه، فعصب بها رأسه، فقالت الأنصار: أخرج أبو دجانة عصابة الموت. وكانوا يقولون ذلك إذا تعصب بها. فجعل لا يلقى أحد إلا قتله. وكان إذا كل ذلك السيف يشحذه بالحجارة، ولم يزل يضرب به العدو حتى انحنى، وصار وكأنه منجل. وكان رجل من المشركين، لا يدع لنا جريحاً إلا ذفف عليه «أسرع قتله» فدعوت الله أن يجمع بينه وبين أبي دجانة

---

(١) وهي كلمة إغراء وتحريض معناها: دونك وإياهم.

(٢) (المخنقة): القلادة.

فالتقيا فاختلفا ضربتين، فضرب المشرك أبا دجانة، فاتقاها بدرقته فعضت الدرقة[1] على سيفه، وضربه أبو دجانة فقتله. ثم رأيته حمل بالسيف على رأس هند بنت عتبة، زوج أبي سفيان، ثم رده عنها، قال: رأيت إنساناً يحمس الناس حمساً شديداً، يوقد الحرب، ويثيرها، فعمدت إليه، فلما حملت عليه بالسيف ولول، فعلمت أنه امرأة، فأكرمت سيف رسول الله أن أضرب به امرأة.

وقاتل حمزة بن عبد المطلب قتالاً شديداً، ومر به سباع بن عبد العزى، فقال له حمزة: هلم يا بن مقطعة البظور[2] وهي مولاة شريق والد الأخنس، كانت ختانة بمكة، تحادّ الله ورسوله وتعاندهما.

ولما اصطفوا للقتال، خرج سباع للقتال، فقال: هل من مبارز؟ فخرج إليه حمزة، فشد عليه، فلما التقيا ضربه حمزة فقتله. فكان تمام واحد وثلاثين رجلاً من المشركين، قتلهم حمزة. وأكب حمزة عليه ليأخذ درعه. قال وحشي، غلام جبير بن مطعم: إني لأنظر إلى حمزة يهدّ النّاس بسيفه، وقد عثر فانكشف الدرع عن بطنه، فهززت حربتي، حتى إذا رضيت منها دفعتها عليه، فوقعت في ثنيته «وهو موضع تحت السرة وفوق العانة» فندرته حتى خرجت من بين رجليه فأقبل نحوي، فغلب فوقع، فأمهلته حتى إذا مات، جئته فأخذت حربتي، ثم تنحيت إلى العسكر، ولم يكن لي في شيء حاجة غيره.

الكسرة وأسبابها

ولما قتل أصحاب لواء المشركين واحداً بعد واحد، انهزم المشركون،

---

(١) (الدرقة): الترس.

(٢) (البظر) في (اللسان): ما بين الإسكتين من المرأة، وفي (الصحاح): هنة بين الإسكتين لم تخفض، وفي الحديث: «يا بن مقطعة البظور» والختن للغلام، والخفض للجارية، وقيل: الختن لهما معاً. ومنه الحديث: إذا التقى الختانان فالغسل واجب. ويفهم من قول حمزة رضي الله عنه: أن ختن المرأة كان شائعاً عند العرب في الجاهلية. المحقق.

وولوا لا يلوون على شيء، ونساؤهم ينادين: بالويل والثبور، بعد فرحهن وضربهن بالدفوف. فألقين الدفوف، وقصدن الجبل، كاشفات سيقانهن، يرفعن ثيابهن. وتبع المسلمون المشركين، يضعون فيهم السلاح، وينتهبون الغنائم، ففارقت الرماة محلهم الذي أمرهم رسول الله ألاّ يفارقوه، ونهاهم أميرهم عبد الله بن جبير عن مخالفة أمر رسول الله، فقالوا: انهزم المشركون، فما مقامنا هنا؟ وانطلقوا ينتهبون، وثبت عبد الله بن جبير في مكانه، وثبت معه دون العشرة من الرماة. وقال: لا أجاوز أمر رسول الله. فنظر خالد بن الوليد إلى خلاء الجبل من الرماة، وقلة من به منهم. فكر بالخيل ومعه عكرمة بن أبي جهل، فحملوا على من بقي من الرماة، فقتلوهم مع أميرهم عبد الله بن جبير، ومثلوا به. ومن كثرة طعنه بالرماح خرجت (حشوته)[1] وأحاطوا بالمسلمين، فبينما المسلمون قد شغلوا بالنهب والأسر، إذ دخلت جيوش المشركين بينهم، تنادى فرسانها بشعارها: يا للعزى، يا لهبل. ووضعوا السيوف في المسلمين وهم آمنون، وتفرق المسلمون في كل وجه، وتركوا ما انتهبوا، وخلوا من أسروا. وانتقضت صفوف المسلمين، واختل نظامهم. وصار يضرب بعضهم بعضاً من غير شعار: أمت أمت. مما أصابهم من الدهش والحيرة.

ولم يزل لواء المشركين ملقى، حتى أخذته عمرة بنت علقمة، ورفعته فلاثت به فلولهم واجتمعوا عنده، ونادى ابن قمئة: إن محمداً قد قتل، ونادى ذلك ثلاث مرات. فرجعت الهزيمة على المسلمين. وقال قائل: أخراكم يا عباد الله! احترزوا من جهة أخراكم. فعطف المسلمون على أخراهم، فقتل بعضهم بعضاً، وهم لا يشعرون. وانهزمت طائفة منهم إلى جهة المدينة، ولم يدخلوها. وقال رجل من المسلمين، حيث قتل رسول الله ﷺ: ارجعوا إلى قومكم يؤمنونكم. وقال آخرون: إن كان رسول الله قد قتل أفلا تقاتلون على دين نبيكم، وعلى ما كان عليه حتى تلقوا الله شهداء. وفي (الإمتاع): أن ثابت بن الدحداح قال: يا معشر الأنصار! إن كان محمد قد

---

(١) (الحشوة) من الأحشاء: الأمعاء.

قتل، فإن الله حي لا يموت، قاتلوا على دينكم، فإن الله مظفركم وناصركم. فنهض إليه نفر من الأنصار، فحمل بهم على كتيبة خالد بن الوليد، وكان فيها عمرو بن العاص، وعكرمة بن أبي جهل، وضرار بن الخطاب. فحمل عليه خالد بن الوليد بالرمح فقتله، وقتل من كان معه من الأنصار. وكان من جملة المنهزمين: عثمان بن عفان، والوليد بن عقبة، وخارجة بن زيد. فأقاموا ثلاثة أيام ثم رجعوا إلى رسول الله ﷺ فقال: ذهبتم فيها حريضة[1] ونزلت في ذلك الآية:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾[2].

وانهزمت طائفة من المسلمين حتى دخلت المدينة، فلقيتهم أم أيمن، فجعلت تحث التراب في وجوههم، وتقول لبعضهم: هاك المغزل فأغزل به، وهلم سيفك.

ونقل عن الزبير بن العوام في هذه الواقعة قال: لقد رأيتني مع رسول الله يوم أحد، حين اشتد علينا الخوف. وأرسل علينا النوم، فما منا من أحد إلا وذقنه في صدره، فوالله إني لأسمع كالحلم، قول معتب بن بشر[3]: لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا. فحفظتها فأنزل الله تعالى في ذلك آية:

﴿ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ﴾[4].

---

(١) (الحرض) الفساد في البدن، وفي المذهب، وفي العقل. و(الحريض): من لا يتخذ سلاحاً ولا يقاتل.

(٢) سورة (آل عمران) الآية: (١٥٥).

(٣) (ابن بشر) هكذا ضبطه الشيخ. والصحيح: (معتب بن قشير). كما ورد في سيرة (ابن هشام) وبقية السير وكان من المنافقين.

(٤) سورة (آل عمران) الآية: (١٥٤).

وقال كعب بن عمرو الأنصاري: لقد رأيتني يومئذ في أربعة عشر رجلاً من قومي، إلى جنب رسول الله، وقد أصابنا النعاس، حتى أن الحجف «الدرق» تتناطح، ولقد رأيت سيف بشر بن البراء بن معرور يسقط من يده وما يشعر، وإن المشركين لتخثنا[1].

ثبـات رسول لله ﷺ أمام الخطر

وثبت رسول الله في مكانه لما تفرقت عنه أصحابه. وصار يقول: إليّ يا فلان! إليّ يا فلان إليّ يا فلان. أنا رسول الله. فما يعرج إليه أحد، والنبل يأتي إليه من كل ناحية. والله يصرفه عنه. وثبت معه جماعة من أصحابه منهم أبو طلحة. فإنه استمر بين يديه يحوز عنه بجحفته وكان رجلاً رامياً شديد الرمي، فنثر كنانته بين يديه. ويقول: نفسي لنفسك الفداء، ووجهي لوجهك الوفاء. فلم يزل يرمي بها. وكان الرجل يمر بالجعبة من النبل فيقول ﷺ: انثرها لأبي طلحة. وكسر ذلك اليوم قوسين أو ثلاث، ورسول الله يشرف إلى القوم، فيرى مواضع النبل، فيقول له أبو طلحة: يا نبي الله بأبي أنت وأمي لا تشرف، يصبك سهم من سهام القوم، نحري دون نحرك. ويتطاول بصدره، يقي رسول الله ﷺ.

ومن الذين قاتلوا في جنب النبي ﷺ: سعد بن أبي وقاص، فإنه كان من الرماة المذكورين قال: لقد رأيت النبي، يناولني النبل يقول: ارم، فداك أبي وأمي، حتى إنه ليناولني السهم ماله نصل، فيقول: ارم به. حتى إذا فرغت من كنانتي نثر ما في كنانته ورمى سعد في يوم أحد ألف سهم.

وممن ثبت مع النبي في هذا اليوم: سهل بن حنيف، وكان من الرماة المعدودين، بايع رسول الله على الموت، فثبت معه، حتى انكشف الناس عنه، وجعل ينضح بالنبل يومئذ.

وروت لنا (أم عمارة)، وهي نسيبة المازنية، زوج زيد بن عاصم قالت:

---

(١) تجمعنا كغثاء السيل اليابس. وهو الخث.

خرجت يوم أحد لأنظر ما يصنع الناس، ومعي سقاء فيه ما أسقي الجرحى. فانتهيت إلى رسول الله وهو في أصحابه، والريح[1] للمسلمين. فلما انهزم المسلمون، انحزت إلى رسول الله، فقمت أباشر القتال، وأذب عنه بالسيف وأرمي عن القوس، حتى حصلت الجراحة إلي. ورؤي على عاتقها جرح أجوف، له غور. قيل لها: من أصابك بهذا!؟ قالت: ابن قمئة. لما ولى الناس عن رسول الله، أقبل يقول: دلوني على محمد، فلا نجوت إن نجا. فاعترضت له أنا ومصعب بن عمير، فضربني هذه الضربة وضربته ضربات، ولكن عدو الله كان عليه درعان. وقال رسول الله في حقها: ما التفت يميناً ولا شمالاً يوم أحد، إلا ورأيتها تقاتل دوني. وقد جرحت اثني عشر جرحاً، بين طعنة برمح وضربة بسيف.

وممن ثبت معه ﷺ أبو دجانة، فقد تترس دون رسول الله ﷺ، فصار يقع النبل على ظهره وهو مثخن، حتى كثر فيه النبل، وأثخن.

وقاتل دونه زيادة بن عمارة، حتى أثبتته الجراحة «أصابت مقاتله» فقال ﷺ: أدنوه مني، فوسده قدمه. فمات.

وقاتل دونه ﷺ مصعب بن عمير، حتى قتله أبي بن خلف، وهو يظنه رسول الله، فاعترضه رجل من المسلمين، فأمرهم رسول الله أن يخلوا طريقه، فأقبل، والرسول يقول له: يا كذاب أين تفر؟ وتناول الحربة من بعض أصحابه، فخدشه بها في عنقه. واحتقن فيه الدم فقال: قتلني والله محمد. ثم مات وهم قافلون إلى مكة.

إصابة النبي في أحد

ووقع النبي ﷺ في حفرة من الحفر، التي حفرها أبو عامر عبد عمرو، والد حنظلة، للمسلمين، كيداً ليقعوا فيها وهم لا يعلمون، فأغمي عليه ﷺ. وخدشت ركبتاه، فأخذ علي بيده. ورفعه طلحة بن عبيد الله، حتى

---

(١) (الريح): الغلبة والنصرة.

استوى قائماً. وكان سبب وقوعه أن ابن قمئة علاه ﷺ بالسيف، فلم يؤثر فيه السيف، إلا أن ثقل السيف أثر في عاتقه الشريف، فشكا منه ﷺ شهراً أو أكثر، وقذف الحجارة حتى وقع لثغه[1].

ورماه عتبة بن أبي وقاص، أخو سعد بن أبي وقاص، بحجر فكسر رباعيته اليمنى السفلى، وشق شفته السفلى، ولما رأى حاطب بن أبي بلتعة ما فعل عتبة برسول الله، تبعه حتى ظفر به، فضربه بالسيف، حتى أطاح عنقه. فأتى برأسه إلى رسول الله ﷺ، فقال: رضي الله عنك، رضي الله عنك مرتين.

وكسرت خوذته ﷺ على رأسه، وشج جبينه. شجه عبد الله بن شهاب الزهري. وجرحت وجنتاه، بسبب دخول حلقتين من المغفر في وجنتيه بضربة ابن قمئة.

ولما جرح وجهه الشريف، وصار الدم يسيل منه، وجعل ينشف دمه وهو يقول: كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم، وهو يدعوهم إلى ربهم. فنزلت في ذلك الآية:

﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾[2].

وقد عالج إخراج الحلقتين من وجهه الشريف، أبو عبيدة عامر بن عبد الله الجراح، وعقبة بن وهب بن كلدة، وطلحة بن عبيد الله. وكان أشدهم، أبو عبيدة، انتزعها بأسنانه، فسقطت ثناياه، فصار أهتم[3].

---

(١) هكذا وردت في المخطوط: (لثغه) ولم أجد لها معنى ينطبق على النص. والمفهوم أن الرسول ﷺ عالج عاتقه الكريم برياضة رمي الحجارة حتى وقع شفاؤه بعد إصابته بشهر أو أكثر. وقد جاءت الفقرة في طبعة (غ) الجزء الثاني بهذه الصيغة بعد (أو أكثر): «وقذفه بالحجارة حتى وقع لشقه في الحفرة» ولم ترد هذه الفقرة، لا عند (الطبري) ولا (ابن هشام). والله أعلم. المحقق.

(٢) سورة (آل عمران) الآية: (١٢٨).

(٣) (الأهتم): الذي انكسرت ثناياه من أصولها، أو سقط مقدم أسنانه.

بشرى المسلمين بظهور رسول الله

كان أول من عرف رسول الله بعد الهزيمة: كعب بن مالك قال: عرفت عينيه تزهران «تضيئان وتتوقدان» من تحت المغفر، فناديت بأعلى صوتي: يا معشر المسلمين! أبشروا هذا رسول الله. فأشار إلي أن أنصت . . .! وعن بعض الصحابة لما صرخ الصارخ بأن محمداً قد قتل لم نشك في أنه حق. وما زلنا كذلك حتى طلع علينا بين السعدين، فعرفناه بتكفيه[1] إذا مشى. ففرحنا، كأنه لم يصبنا ما أصابنا. فلما عرف المسلمون رسول الله ﷺ، نهضوا به ونهض معهم نحو الشعب، فيهم أبو بكر وعمر وعلي وطلحة والزبير والحارث بن الصمة.

وأقبل بعد ظهور رسول الله، عثمان بن عبد الله بن المغيرة، على فرس أبلق، وعليه لأمة كاملة، قاصداً رسول الله وهو متوجه للشعب، وهو يقول: لا نجوت إن نجا، فوقف رسول الله، فعثر بعثمان فرسه في بعض تلك الحفر، ومشى إليه الحارث بن الصمة فاصطدما ساعة بسيفيهما، ثم ضربه الحارث على رجله، فبرك وذفف عليه، وأخذ درعه ومغفره، فقال رسول الله الحمد لله الذي أحانه[2].

وأقبل في إثره عبد الله بن جابر العامري يعدو، فضربه الحارث على عاتقه، فجرحه، فاحتمله أصحابه، ووثب إليه أبو دجانة فذبحه بالسيف، ولحق برسول الله.

---

(١) (تكفّيه): لم أتبيّن لها معنى، إلا أن تكون اللفظ (بتكففه) بمعنى: الأخذ بكفّ كل من السعدين للتحامل على المشي، من شدة إصابته عليه الصلاة والسلام. وقد جاء فيما بعد: أن الرسول ﷺ بعد رجوعه إلى المدينة، توكأ على السعدين، وصلّى بالناس صلاة المغرب. المحقق.

(٢) (أحانه): أهلكه. من (الحين): الهلاك والمحنة والموت.

غسل جراح رسول الله!

ولما انتهى رسول الله إلى فم الشعب خرج علي بن أبي طالب حتى ملأ درقته ماء، وغسل به عن وجهه الشريف الدم وهو يقول: اشتد غضب الله على من أدمى وجه نبيه.

ثم أراد ﷺ أن يعلو الصخرة التي في الشعب، فلما ذهب لينهض لم يستطع، لأنه ضعف لكثرة ما خرج من دم رابعته[1] ووجهه، مع كونه عليه درعان، فجلس تحته طلحة بن عبد الله فنهض به، حتى استوى عليها. فقال رسول الله ﷺ: أوجب. «ومعناه: فعل شيئاً يستحق عليه المكافأة».

ولما أقبل رسول الله، مع من كان معه من الصحابة، وهم دارعون وكان من حوله جماعة من الصحابة، فقال واحد منهم، وأوتر قوسه، وأراد أن يرميه. فقال له رسول الله: أنا رسول الله! ففرحوا بذلك، وفرح بلقائهم رسول الله، وكان فرحه لأنه وجد من أصحابه من يمنع، وفيه عزم على المقاومة. ولما وصل كان به ﷺ ظمأ شديد، ولم يشرب من الماء الذي جاء به علي في درقته، لأنه وجد فيه ريحاً يعافه، فخرج محمد بن مسلمة، يطلب له ماء فلم يجد، فذهب إلى مياه، فأتى منها بماء عذب، فشرب، ودعا له بخير.

وبعد جلوسه على الصخرة، أقبلت عليه نسوة من المدينة، وفيهن فاطمة رضي الله عنها، فلما لقيته اعتنقته، وجعلت تغسل جراحاته، وعلي يسكب الماء، فتزايد الدم. فلما رأت ذلك أخذت بعضاً من حصير معمول من البردي، فأحرقته بالنار حتى صار رماداً، فأخذت ذلك الرماد، وكمدته حتى لصق بالجرح، فاستمسك الدم.

وبينما رسول الله في الشعب مع أولئك النفر من أصحابه، إذ علت طائفة

---

(١) (رابعته) هكذا. ضبطها الشيخ. والصحيح: (رباعيته) كـ(ثمانية): السنّ التي بين الثنية والناب. جمع. (رباعيات).

من قريش الجبل، معهم خالد بن الوليد، فقال: اللهم! إنهم لا ينبغي لهم أن يعلونا. اللهم! لا قوة لنا إلا بك. فقاتلهم عمر بن الخطاب وجماعة من المهاجرين حتى أهبطوا من الجبل. وهناك نزل قوله تعالى:

﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[1].

وصلى ﷺ ظهر ذلك اليوم وهو جالس، من الجراحة التي أصابته، وصلى المسلمون خلفه قعوداً.

وكان ممن أصيب في ذلك اليوم: طلحة. ففي البخاري، عن قيس بن أبي حازم قال: رأيت يد طلحة بن عبيد الله شلاء، وقى بها رسول الله ﷺ يوم أحد من سهم، وقيل: من حربة. ونزف به الدم حتى غشي عليه، ونضح أبو بكر رضي الله عنه الماء في وجهه حتى أفاق. فقال: ما فعل رسول الله؟ قال له أبو بكر: هو بخير، وهو أرسلني إليك، فقال: الحمد لله. كل مصيبة بعده جلل[2] «قليلة» وسماه في هذه الواقعة (طلحة الجود) لأنه أنفق فيها على ما ذكره أصحاب السيرة، سبعمئة ألف درهم. «وهو مقدار مبالغ فيه، على ما يظهر».

وأصيب عبد الرحمن بن عوف، فقد جرح عشرين جراحة. وقيل: أكثر. زيادة عن فقد ثناياه، كما قدمنا.

وأصيب كعب بن مالك سبع عشرة جراحة. وفي رواية: عشرون جراحة. قال عاصم بن عمر بن قتادة: كان عندنا رجل غريب لا ندري من هو؟ يظهر الإسلام، يقال له: قزمان. وكان ذا بأس وقوة. وكان إذا ذكر أمام رسول الله، يقول: إنه لمن أهل النار. فلما كان يوم أحد، قاتل قتالاً شديداً. وكان أول من رمى من المسلمين بسهم، وكان يرمي النبال، كأنها الرماح، ثم فعل بالسيف الأفاعيل. فكان يكت كتيت[3] الجمل، وقتل ثمانية

---

(١) سورة (آل عمران) الآية: (١٣٩).

(٢) (الجلل): الأمر العظيم، والهيّن الحقير. من الأضداد.

(٣) (الكتيت): صوت غليان القدر، وكت الجمل، صاح صياحاً ليّناً.

أو تسعة من المشركين. ولما أخبر بذلك ﷺ قال: إنه من أهل النار. وأعظم الناس ذلك، وأثبتته الجراجة، فاحتمل إلى دار بني ظفر، وكان حليفاً لهم. فجعل رجال من المسلمين يثنون عليه، ويقولون: والله! لقد أبليت اليوم يا قزمان فأبشر، فيقول: بماذا أبشر؟ فوالله ما قاتلت إلا على حساب قومي، شرفهم ومفاخرهم، ولولا ذلك ما قاتلت. وفي رواية: أن قتادة قال له: هنيئا لك الشهادة، يا أبا الغيداق[1] فقال: إني والله! يا أبا عمر، ما قاتلت على دين، ما قاتلت إلا على الحفاظ، أن تسير إلينا قريش حتى تطأ أرضنا. فلما اشتدت عليه الجراحة، أخذ سهماً من كنانته، فقتل به نفسه، قطع به عروقاً في باطن الذراع، اسمها الزواهق. وفي رواية أخرى: جعل ذبابة سيفه في صدره، بين ثدييه، ثم تحامل عليه حتى قتل نفسه، ولا يبعد أن يكون انتحر بالطريقتين.

وممن أصيب في هذه الحرب: الأصيرم[2] من بني عبد الأشهل. وقد قال عنه أصحاب السير: أنه كان يأبى الإسلام على قومه بني عبد الأشهل. فلما كانت واقعة أحد، جاء إلى المدينة، فسأل عن قومه؟ فقيل له: خرجوا مع النبي، فأخذ سيفه ورمحه ولأمته، وركب فرسه. ولما وصل خدى[3] بين أقوامه وقاتل في جانبهم. حتى أثبتته الجراحة «أصابت مقاتله» ولما أخذ رجل من بني عبد الأشهل يلتمسون قتلاهم بين الصفوف، إذا هم به. فسألوه: ما جاء بك؟ أمناصرة لقومك؟ أم رغبة في الإسلام؟ فقال: بل رغبة في الإسلام، آمنت بالله ورسوله، جئت وقاتلت، حتى أصابني ما أصابني. ولم يلبث أن مات بين أيديهم، فذكروه لرسول الله، فعده من جملة الشهداء.

ومنهم حنظلة، وهو ابن أبي عامر الفاسق؛ الذي كان يسمى في الجاهلية الراهب، فسماه رسول الله الفاسق. كان هو وعبد الله بن أبي بن سلول من رؤوس أهل المدينة وعظمائها، المعدودين للرئاسة على أهلها. كان أبو عامر

---

(١) (الغيداق): الكريم.
(٢) ضبطه (أن هشام) بـ (أصيرم بن عبد الأشهل) واسمه: عمرو بن ثابت بن وقش.
(٣) (خدى): أسرع وهرول.

من الأوس، ويقال له: ابن صيفي . وكان عبد الله بن أبي من الخزرج. فعبد الله هذا أظهر الإسلام. وأما أبو عامر فأباه، إلى أن مات طريداً وحيداً. خرج من المدينة مباعداً لرسول الله، ومعه خمسون غلاماً، وخمسة عشر من قومه الأوس، فلحق بمكة. وكان يعد قريشاً، أنه لو لقي الأوس في أي مكان، لا يختلف عليه منهم أحد، فلما جاء مع قريش إلى أحد، نادى: يا معشر الأوس! أنا أبو عامر. قالوا له: لا أنعم الله بك عيناً يا فاسق! لا مرحباً بك ولا أهلاً. فلما سمع ردهم عليه، قال: لقد أصاب قومي بعدي شراً، فكان أول من أثار الحرب، وضرب بأسهم في وجوه المسلمين، وقاتلهم قتالاً شديداً.

استأذن ولده حنظلة رضي الله عنه، وكان من خيار الصحابة في قتله، فنهاه رسول الله عن ذلك.

والسبب في مصرع حنظلة، أنه أدرك أبا سفيان في يوم أحد، وهو راكب فرساً، فضرب الفرس فوقع أبو سفيان على الأرض، فصاح، وعلاه حنظلة يريد ذبحه، فرآه شداد بن الأسود، فحمل عليه فقتله. فقال عنه رسول الله: إنه لتغسله الملائكة[1].

سئلت زوجته، جميلة بنت عبد الله بن أبي بن سلول، رأس المنافقين عن معنى قول رسول الله فيه؟ قالت: دخل عليها عروساً تلك الليلة، التي صبيحتها أحد. وقد كان استأذن رسول الله في الدخول بها، فلما صلى الصبح، غدا يريد رسول الله، فلزمته، فكان معها، فأجنب. ونادى منادي رسول الله بالخروج إلى العدو، فعجل عن الغسل، إجابة لدعوى النفير. وفي رواية: كان غسل أحد شقيه، ولم يغسل الشق الثاني. فأشهدت أربعة من قومها عليه، بالدخول بها، خشية أن يكون في ذلك نزاع. وعلقت منه بعبد الله بن حنظلة، الذي ولاه أهل المدينة عليهم لما خلعوا يزيد بن معاوية. وكان ذلك سبباً لوقعة (الحرة) المعلومة. ولم تمثل قريش بحنظلة بعد قتله، لكون والده معهم.

---

(١) ولذلك لقب (بغسيل الملائكة).

نهـي رسول الله عن التمثيل بقتـلى المشركين

ورد في (الإمتـاع): أن أبـا قتـادة الأنصـاري، لمـا رأى قـريشـاً يمثلـون بالمسلمين، أراد أن يقتدي بهم ويمثل بقتلاهم. فنهاه رسول الله عن ذلك وقال: يا أبا قتادة! إن قريشاً أهل أمانة، من بغاهم العواثر، أكبه الله تعالى إلى فيه. فقال أبو قتادة: والله! يا رسول الله! ما غضبت إلا لله ولرسوله. فقال: صدقت، بئس القوم كانوا لنبيهم.

خذها وأنا الغلام الفارسي

أقبل على صفوف المسلمين رجل من المشركين مقنعاً بالحديد، يقول: أنا ابن عويف. فتلقاه رشيد الأنصاري الفارسي، فضربه بالسيف على عاتقه، فقطع الدرع، وقال: خذها وأنا الغلام الفارسي، ورسول الله يرى ذلك ويسمعه. فقال له: هلا قلت: خذها، وأنا الغلام الأنصاري؟! فعرض لرشيد أخو ذلك المقتول، يعدو كأنه كلب وهو يقول: أنا ابن عويف. فضربه رشيد على رأسه وعليه المغفر ففلق رأسه، وقال: خذها، وأنا الغلام الأنصاري. فتبسم رسول الله وقال: أحسنت يا أبا عبد الله.

يريـد أن يطـأ بعرجتـه الجنـة

وممن أصيب في هذه الواقعة: عمرو بن الجموح[1] رضي الله عنه. وكان أعرج شديد العرج. وكان له أربعة بنين، مثل الأسود، يشهدون مع رسول الله المشاهد كلها. فلما كان يوم أحد، أرادوا حبسه، وقالوا له: قد عذرك الله، فأتى رسول الله. فقال: إن بنيّ يريدون حبسي عن الخروج معك، فوالله! إني أريد أن أطأ بعرجتي هذه، الجنة. فقال له رسول الله: أما أنت فقد أعذرك الله، فلا جهاد عليك. وقال لبنيه: ما عليكم ألا تمنعوه؟ لعل الله يرزقه الشهادة. فأخذ سلاحه وخرج وأقبل على القبلة وقال: اللهم

(١) «كان في الجاهلية سادناً للأصنام» المؤلف.

ارزقني الشهادة، ولا تردني خائباً إلى أهلي. فقاتل حتى قتل.

نصح لله ولرسوله حيـاً وميتـاً

ومن أصيب: سعد بن الربيع، رضي الله عنه، أمر رسول الله محمد بن مسلمة أن يبحث عنه، فوجده جريحاً به رمق. فقيل له: إن رسول الله أمرنا أن نبحث عنك، أفي الإحياء أنت أم في الأموات؟ فقال: أنا في الأموات. قد طعنت اثنتي عشرة طعنة، وإني قد أنفذت مقاتلي، فأبلغ عني رسول الله السلام. وقل له. إن سعد بن الربيع يقول لك: جزاك الله عنا خير ما جزى نبياً عن أمته، وأبلغ قومك عني السلام، وقل لهم: إن سعد بن الربيع يقول لكم: لا عذر لكم عند الله، أن يخلص إلى نبيكم، وفيكم عين تطرف. الله الله. وما عاهدتم عليه رسول الله ليلة العقبة، فوالله مالكم عند الله عذر. ثم مات. فقال رسول الله: رحمه الله، نصح لله ولرسوله، حياً وميتاً.

بـه بضع وثمـانون جراحة

ومن أصيب في الواقعة: أنس بن النضر، عم أنس بن مالك، خادم رسول الله ﷺ. فإنه لما سمع بقتل رسول الله، قال لمن كان حوله من المسلمين: ما تصنعون بالحياة بعده؟ موتوا على ما مات عليه رسول الله. ثم استقبل القوم، وقال لسعد بن معاذ: هذه الجنة ورب الكعبة، أجد ريحها دون أحد. وقاتل حتى قتل. ووجد فيه، بضعاً وثمانين جراحة، من بين ضربة بسيف، أو طعنة برمح، أو رمية بسهم.

ومن أصيب يوم أحد: خلاد بن عمر بن الجموح. رضي الله عنه. وقتل معه خاله عبد الله بن حزام، والد جابر. فحملتهما هند على بعيرها، تريد دفنهما في المدينة، فلقيتها عائشة أم المؤمنين، وقد خرجت في نسوة يستروحن الخبر، فقالت لها عائشة: ما خبر الجيش؟ فقالت: أما رسول الله فصالح، وكل مصيبة بعده جلل، واتخذ الله من المؤمنين شهداء. ثم قالت لها: من هؤلاء؟ قالت: أخي عبد الله، وابني خلاد، وزوجي عمرو بن الجموح، رضي الله عنهم. فبرك بهم البعير. وصار كلما وجه إلى المدينة يبرك، وإن

وجه إلى أرض أحد نزع. فرجعت إلى النبي وأخبرته. فأمر أن يدفنوا في أحد. ثم أمر رسول الله برد القتلى إلى مضاجعهم.

قال جابر بن عبد الله: كان أبي أول قتيل للمسلمين، قتله أبو الأعور السلمي، وممن قتل بأسياف المسلمين: اليمان، والد حذيفة، واسمه حسيل، فقد خلفه رسول الله مع ثابت بن وقش في الأطام مع النساء والصبيان، لأنهما كان شيخين كبيرين. فقال أحدهما لصاحبه: لا أبالك ما تنتظر؟ فوالله! إن بقي لواحد منا في عمره ظمء حمار[1] أفلا نأخذ أسيافنا ثم نلحق برسول الله لعل الله يرزقنا الشهادة. فأخذا أسيافهما، ثم خرجا حتى دخلا في الناس، من جهة المشركين، ولم يعلم المسلمون بهما، فأما ثابت فقتله المشركون، وأما اليمان فاختلفت عليه أسياف المسلمين، فقتلوه ولم يعرفوه.

التمثيل بشهداء المسلمين

لما استحر القتل في المسلمين: خرجت هند، زوج أبي سفيان في نسوة قريش، اللائي قدمن مع أزواجهنّ، فصرن يمثلن بالشهداء من المسلمين، يجدعن أنوفهم وآذانهم، ويتخذون من ذلك قلادة.

وفي رواية: أن وحشياً بعد أن قتل حمزة، رضي الله عنه، بقر بطنه، وأخرج كبده، وجاء بها إلى هند. وقال لها: ماذا لي إن قتلت قاتل أبيك؟ قالت: سلبي[2] قال: فذا كبد حمزة. فأعطته ثيابها وحليها، ووعدته إذا وصلت إلى مكة، تدفع له عشرة دنانير. وأخذت كبده فلاكتها، فلم تستطع أن تسيغها، فلفظتها من فيها؛ لأنها كانت نذرت إن قدرت على حمزة لتأكلن

---

(١) وزاد عليه (ابن هشام) رواية عن (ابن إسحاق): إنما نحن هامة، اليوم، أو غداً. والهامة في معتقدات الجاهلية: طائر يخرج من رأس القتيل إذا قتل، يصيح: اسقوني. اسقوني، حتى يؤخذ بثأره. فضربته العرب مثلاً للموت. أما قوله (ظمء حمار) فالظمء: مقدار ما يكون بين الشربتين، وأقصر الأظماء: ظمءَ الحمار؛ لأنه لا يحتمل الظمأ، فضرب مثلاً لقرب الأجل. المحقق.

(٢) (السلب) في الأصل، لما يسلب أثناء الحرب. جمع أسلاب.

من كبده. وجاء بها وحشي إلى مصرع حمزة، فجدعت أنفه، وصلمت أذنيه. وفي رواية: وقطعت مذاكيره، ثم جعلت ذلك كالسوار في يديها، وقلائد في عنقها. واستمرت كذلك حتّى قدمت مكة.

ثمّ إن أبا سفيان، أشرف على الجبل، ثم صرخ بأعلى صوته: أنعمت. فقال: إن الحرب سجال، يوم لنا ويوم علينا، ويوم نساء ويوم نسر. حنظلة بحنظلة، وفلان بفلان. إنكم ستجدون في قتلاكم مثلة، لم آمر بها، ما رضيت وما سخطت، وما أمرت وما نهيت، ولا أحببت ولا كرهت، ولا ساءني ولا سرني، ولم تكن عن رأي سراتنا.

وهنا أدركته حمية الجاهلية، فقال: أما أنه إن كان كذلك لم نكرهه. ثم نزل. ومر به الحليس سيد الأحابيش، وهو يضرب بزج الرمح في شدق حمزة، ويقول: ذقه عقق «ذق طعم مخالفتك لنا يا عاق» قومه فقال الحليس: يا بني كنانة! هذا سيد قريش، يفعل بابن عمه ما ترون. فقال أبو سفيان: اكتمه عني، فإنها زلة. ثم نادى أبو سفيان: أفي القوم محمد!؟ «قال ذلك ثلاثاً» فنهاهم رسول الله أن يجيبوه ثم نادى: أفي القوم ابن أبي قحافة؟ «قالها ثلاثاً» فنهاهم رسول الله أن يجيبوه. ثم نادى: أين ابن الخطاب؟ ثلاثاً. فلم يجبه أحد ثم أقبل على أصحابه فقال: هؤلاء قد قتلوا، وقد كفيتموهم، ولو كانوا أحياء لأجابوا. فما ملك عمر نفسه، أن قال: كذبت والله! إن الذي عددت لأحياء كلهم، وقد بقي لك ما يسوءك. فقال له أبو سفيان: أنشدك الله يا عمر! أقتلنا محمداً؟ قال عمر: لا، وإنه ليسمع كلامك الآن. قال: أنت أصدق عندي من ابن قمئة وأبر. ثم نادى أبو سفيان: إن موعدكم بدر العام المقبل. فقال رسول الله لرجل من الصحابة: قل: نعم بيننا وبينكم موعد.

رحيل المشركين

ثم ارتحل المشركون يومهم، فبعث رسول الله أحد الصحابة. قيل: علي بن أبي طالب، وقيل: سعد بن أبي وقاص. فقال: اخرج في آثار القوم، فانظر ماذا يصنعون؟ وماذا يريدون؟ فإن كانوا قد جنبوا الخيل، وامتطوا

الإبل، فإنهم يريدون مكة. وإن ركبوا وساقوا الإبل، فهم يريدون المدينة. والذي نفسي بيده! إن أرادوها لأسير إليهم فيها ثم لأناجزهم. قال الصحابي: فخرجت في إثرهم، انظر ماذا يصنعون؟ فجنبوا الخيل وامتطوا الإبل، وتوجهوا إلى مكة، بعد أن تشاوروا في نهب المدينة. فأشار عليهم صفوان بن أمية ألاّ يفعلوا ذلك. وقال لهم: إنكم لا تدرون ما يغشاكم.

التأبين والدفن

وبعد ارتحال قريش فزع المسلمون إلى قتلاهم، وخرج رسول الله يلتمس عمه حمزة بن عبد المطلب، فوجده ببطن الوادي، قد بقر بطنه، ومثل به، جدع أنفه، وصلمت أذناه، وقطعت مذاكيره[1]. فنظر إلى شيء لم يكن قط أوجع للقلب منه. فوقف وقال: لن أصاب بمثلك، ما وقفت موقفاً أغيظ لي من هذا، رحمة الله عليك. فإنك كنت، ما علمتك فعولاً للخيرات، وصولاً للرحم. أما والله! لن أظفرني الله تعالى بقريش في موطن من المواطن، لأمثلن بسبعين منهم مكانك.

وعن ابن مسعود: ما رأينا رسول الله باكياً، أشد من بكائه على حمزة، وضعه في القبلة. ثم وقف على جنازته، وانتحب، حتى نشق «شهق» وبلغ به الغشي. يقول: يا عم رسول الله! وأسد الله، وأسد رسول الله، يا حمزة! يا فاعل الخيرات! يا حمزة! يا كشاف الكربات! يا حمزة! يا ذاب يا مانع عن وجه رسول الله!

وأمر رسول الله الزبير بن العوام، أن يرجع أمه صفية، أخت حمزة عن رؤيته. فقال لها وقد أقبلت عليه: يا أمه! إن رسول الله يأمرك أن ترجعي. فدفعت في صدره، وقالت: لم؟ وقد بلغني أنه مثّل بأخي، وذلك في الله، فما أرضاني بما كان في الله في ذلك، أنا أشدّ رضا بذلك من غيري، لأحتسبنّ ولأصبرنّ إن شاء الله تعالى. وقالت: لا أرجع حتى أرى

---

(١) (المذاكير): جمع: الذكر. على غير قياس.

رسول الله. فلما رأته قالت: أين ابن أمي حمزة؟ يا رسول الله! قال: هو في الناس. قالت: لا أرجع حتى أنظر إليه. فجعل الزبير يحبسها. فقال النبي ﷺ: دعها. فلما رأته، بكت وبكي معها رسول الله. ثم أمر به، فسجي ببرده. وقال: لولا أن تجزع صفية، ونساؤنا يتطاول جزعهن، وتكون سنة من بعد، لتركنا حمزة، ولم ندفنه، حتى يحشر من بطون الطير والسباع، ليشتد غضب الله على من فعل به ذلك. ثم صلى عليه، فكبر أربع تكبيرات، ثم أمر أن يؤتى بالقتلى، يوضعون إلى جانب حمزة، واحداً بعد واحد، فيصلي على كل واحد منهم مع حمزة، ثم يرجع ويؤتى بآخر، فيصلي عليهم وعليه معهم حتى صلى عليه اثنتين وسبعين صلاة. وهو ضعيف!

وجاء أنه كان يصلي على عشرة عشرة، يؤتى بتسعة وحمزة عاشرهم، فيصلي عليهم، ثم ترفع التسعة وحمزة مكانه، ويؤتى بتسعة آخرين، فيوضعون إلى جنب حمزة فيصلي عليهم، حتى فعل ذلك سبع مرات. وحينئذ يكون جملة من قتل ثلاثة وستين. وصلى على حمزة والشهداء، ودفنهم من غير غسل. وفي البخاري: أمر ﷺ بدفن شهداء أحد بدمائهم، لم يغسلوا ولم يصل عليهم. وهو أثبت من حديث الصلاة.

وأما حديث عتبة، الذي رواه الشيخان وأبو داود والنسائي، وهو أن رسول الله ﷺ صلى على قتلى أحد، بعد ثمان سنين، صلاته على الميت، دعا لهم كدعائه للميت. فذلك كان توديعاً لهم. وقال السهيلي: لم يرد عن رسول الله، أنه صلى على شهيد في شيء من مغازيه. إلا في هذه الرواية. في أحد. ودفنوا بثيابهم، ونزع عنهم الحديد والجلود.

وممن أصيب في أحد: خارجة بن زيد. أخذته رماح المشركين، فجرح بضعة عشر جرحاً، فوقع. فمر به صفوان بن أمية من خلفه، فعرفه فأجهز عليه. وقال: الآن شفيت نفسي، حين قتلت الأماثل من أصحاب محمد، قتلت خارجة بن زيد، وقتلت أوس بن أرقم، وقتلت أبا نوفل.

وممن أصيب: النعمان بن مالك، وعبد بني الحسحاس.

وفي صحيح البخاري: أن رسول الله، كان يجمع بين الرجلين والثلاثة في

القبر الواحد، وإنما أرخص لهم في ذلك، لما في المسلمين من الجراح التي يشق معها، أن يحفروا لكل واحد واحداً وكان يقول عن القبور: احفروا وأوسعوا وأعمقوا. وفي حق الشهداء، نزلت الآية:

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾[1].

لا يحزنها شيء ما بقي رسول الله

مر رسول الله ﷺ بامرأة من بني دينار، وقد أصيب زوجها، وأخوها، وأبوها، وابنها، يوم أحد. فلما نعوا لها، قالت: ما فعل برسول الله ﷺ؟ قالوا: خيراً، هو بحمد الله كما تحبين. وقد بلغها خبر مقتله. قالت: أرنيه، حتى أنظر إليه. فلما رأته أخذت بناحية ثوبه، وجعلت تقول: بأبي وأمي أنت يا رسول الله! لا أبالي إذا سلمت من عطب، كل مصيبة بعدك جلل. «وهي كلمة من أسماء الأضداد».

ولما أراد ﷺ أن يتوجه إلى المدينة، ركب فرسه وخرج المسلمون حوله، عامتهم جرحى ومعه أربعة عشر امرأة. فلما كانوا بأصل أحد، قال ﷺ: اصطفوا حتى أثني على ربي عز وجل. فاصطف الرجال خلفه صفوفاً، وخلفهم النساء، فقال: اللهم لك الحمد كله، لا قابض لما بسطت، ولا باسط لما قبضت، ولا هادي لمن أضللت، ولا مضل لمن هديت، ولا معطي لما منعت، ولا مانع لما أعطيت، ولا مقرب لما أبعدت، ولا مبعد لما قربت.

ثم سار إلى المدينة، فلقيته حمنة بنت جحش بنت عمته، أخت زينب أم المؤمنين، فقال لها: احتسبي. قالت: من يا رسول الله؟ قال: خالك حمزة. قالت: إنا لله وإنا إليه راجعون، غفر الله له، هنيئاً له الشهادة. ثم قال لها: احتسبي. قالت: من؟ يا رسول الله! قال: أخاك عبد الله بن جحش. قالت: إنا لله وإنا إليه راجعون. ثم قال لها: احتسبي. قالت: من يا رسول الله؟ قال: زوجك مصعب بن عمير. فقالت: واحزناه! وصاحت وولولت. فقال

---

(١) سورة (آل عمران) الآية (١٦٩).

رسول الله: إن زوج المرأة لبمكان ما هو لأحد، لما رأى من تثبتها على أخيها وخالها، وصياحها على زوجها. ثم قال لها: لم قلت هذا؟ قالت: تذكرت يتم بنيه فراعني، فدعا لها ﷺ ولولدها، أن يحسن الله تعالى عليهم الخلف.

وجاءت أم سعد بن معاذ، تعدو نحو رسول الله! وهو على فرسه، وسعد آخذ بلجامها. فقال له سعد: يا رسول الله، أمي. فقال: مرحباً بها. فوقف لها، فدنت حتى تأملت رسول الله. فعزاها بابنها عمرو بن معاذ. فقالت: أما إذا رأيتك سالماً فقد انتويت المصيبة «استقللتها» ثم قال لها: أبشري وبشري أهل القتلى: إنّ قتلاهم ترافقوا في الجنة جميعاً، وقد شفعوا في أهلهم جميعاً. قالت: رضينا يا رسول الله! ومن يبكي عليهم بعد هذا؟ ثم دعا لهم. فقالت: ادع لمن خلفوا. فقال: اللهم أذهب حزن قلوبهم، واجبر مصيبتهم، وأحسن الخلف على من خلفوا.

وسمع ﷺ نساء الأنصار، يبكين على أزواجهن وأبنائهن وإخوانهن. فقال: ولكن حمزة لا بواكي له فبكي له.

وأمر سعد بن معاذ نساءه، ونساء الأوس، أن يذهبن إلى بيت رسول الله يبكين حمزة. ولما جاء بيته، حمله السعدان، وأنزلاه عن فرسه. ثم اتكأ عليهما حتى دخل بيته، ثم أذن بلال لصلاة المغرب. فخرج ﷺ على مثل تلك الحال، فتوكأ على السعدين، فصلى. فلما رجع من المسجد من صلاة المغرب، سمع البكاء، فقال: ما هذا؟ فقيل: نساء الأنصار يبكين حمزة. فقال: رضي الله عنكن وعن أولادكن. وأمر أن تردّ النساء إلى منازلهن. ولما غاب الشفق، أذن بلال لصلاة العشاء، فلم يخرج حتى ذهب ثلث الليل. فنادى بلال: الصلاة يا رسول الله! فقام من نومه وخرج وهنّ على باب المسجد يبكين، فقال لهن: ارجعن، رحمكن الله، لقد واسيتن معي، رحم الله الأنصار؛ فإن المواساة فيهم كما علمت قديمة. وصارت الواحدة من نساء الأنصار، لا تبكي على ميتها، إلا بدأت بالبكاء على حمزة، ثم بكت على ميّتها. وباتت وجوه الأوس والخزرج تلك الليلة على بابه بالمسجد، يحرسونه خوفاً من قريش أن تعود إلى المدينة.

إصلاح تقاليد الجاهلية في الحزن على الأموات

وجاء: أنه ﷺ نهى نساء الأنصار عن النوح، فقال له الأنصار: يا رسول الله! بلغنا أنك نهيت عن النوح، وإنما هو شيء نندب به موتانا ونجد فيه بعض الراحة، فأذن لنا فيه. فقال ﷺ: إن فعلن، فلا يخمشن ولا يلطمن، ولا يحلقن شعراً، ولا يشققن جيباً.

وناول علي سيفه إلى فاطمة، وقال: اغسلي عنه دمه، فوالله لقد صدقني اليوم. فقال ﷺ: لئن صدقت القتال، لقد صدق معك سهل بن حنيف، وأبو دجانة، وعاصم بن ثابت بن أبي الأفلح، والحارث بن الصمة.

قتلى أحد من المهاجرين والأنصار

ذكر أصحاب السيرة النبوية: أن الذين قتلوا في واقعة أحد: سبعون، وقيل: ثمانون: ستة من المهاجرين، وهم: حمزة، ومصعب بن عمير، وعبد الله بن جحش، وشماس بن عثمان، وسعد مولى حاطب بن أبي بلتعة، وثقيف بن عمرو حليف بني عبد شمس. والباقون من الأنصار رضي الله عنهم أجمعين[1].

شماتة اليهود والمنافقين بالمسلمين

ولما رجع المسلمون إلى المدينة مكسورين، أظهر اليهود والمنافقون الشماتة والسرور، وصاروا يظهرون أقبح القول. ويقولون: ما محمد إلا طالب ملك، ما أصيب بمثل هذا نبي قط! أصيب في بدنه، وأصيب في أصحابه. ويقولون: لو كان من قتل منكم عندنا ما قتل. واستأذنه عمر في تأديب هؤلاء المنافقين، فقال: أليس هؤلاء يظهرون الإيمان يا رسول الله؟ قال:

---

(١) أضاف الشيخ سطراً تحت عنوان (قتلى أحد من المشركين) وجاء فيه:
يراجع الإحصاء المتقدم، يضمّ إلى ما قتله حمزة، وهو إحدى وثلاثون. المحقق.

بلى، قال: ولكن تعوذاً من السيف، فقد بان أمرهم، وأبدى الله تعالى أضغانهم. فقال ﷺ: نهيت عن قتل من أظهر ذلك. وصار ابن أبي يوبخ ولده عبد الله، وقد أثبتته الجراحة. فقال له ابنه: الذي صنع الله لرسوله والمسلمين خير.

وكانت عادة عبد الله بن أبي بن سلول، إذا جلس رسول الله يوم الجمعة على المنبر، قام فقال: أيها الناس. هذا رسول الله ﷺ بين أظهركم، أكرمكم الله تعالى به، وأعزكم. فانصروه، وعزروه، واسمعوا له وأطيعوه. ثم يجلس. ولما أراد بعد واقعة أحد، وأظهر من الشماتة ما أظهر، أن يفعل ذلك، أخذ المسلمون بثوبه من نواحيه. وقالوا له: اجلس عدو الله! والله لست لذلك بأهل، وقد صنعت ما صنعت، فخرج وهو يتخطى رقاب الناس ويقول: كأني إنما قلت هجراً؟

وقال له بعض الأنصار: ارجع يستغفر لك رسول الله ﷺ. فقال: والله لا أبتغي أن يستغفر لي.

وذكرت قصة أحد في سورة آل عمران:

﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾[1].

المثخنون بالجراحة

عاد الصحابة وأكثرهم جريح. والمثخنون كانوا مصابين بعدة جراحات منهم، من كان به عشرون جراحة، وهو عبد الرحمن بن عوف، ومنهم طلحة بن عبيد الله، وكان به بضع وسبعون جراحة، منها تسعة في صدره، وقطعت سبابة يده اليسرى، فشلت بقية أصابعها. ومنهم من كان به بضع عشر جراحة، وهما أسيد بن حضير وعقبة بن عامر، وأصيب من بني سلمة وحدهم أربعون جريحاً.

---

(١) سورة (آل عمران) الآية: (١٢١).

إرهـــاب العدو

لما كانت صبيحة ليلة قدوم الرسول ﷺ من أحد، أذن بلال: أن يخرج المسلمون العائدون من أحد، خلف قريش، إرهاباً لهم، حتى إذا بلغهم أن رسول الله خرج في طلبهم، ليظنوا به قوة، وأن الذي أصابهم من الكسرة لم يوهنهم، فقد بلغه أن أبا سفيان يريد الرجوع بقريش إلى المدينة ليستأصلوا من بقي من أصحابه. والسبب في ذلك: أن عبد الله بن عمر المزني، جاء إلى المدينة صبيحة ذلك اليوم، وأخبره أنه أقبل من أهله بملل، وهو موضع قريب من المدينة الذي نزلت به قريش، فسمع أبا سفيان وأصحابه يقولون: ما صنعتم شيئاً، أصبتم شوكة القوم وحدهم، ثم تركتموهم ولم تبيدوهم. قد بقي منهم رؤوس يجمعون لكم، فارجعوا نستأصل من بقي منهم. وكان صفوان بن أمية يأبى ذلك، ويقول: يا قوم لا تفعلوا ترشدوا، فإني أخاف أن يجمع عليكم من تخلف عن الخروج من الخزرج. فارجعوا والدولة لكم، فإني لا آمن إن رجعتم أن تكون الدولة عليكم. فقال رسول الله: أرشدهم صفوان وما كان يرشد.

فدعا رسول الله وزيريه أبا بكر وعمر، وذكر لهما الخبر، فقالا: يا رسول الله! أطلب العدو لا يقتحمون على الذرية. فلما انصرف رسول الله من صلاة الصبح ندب الناس إلى النفير، وأمر بلالاً أن ينادي: أن رسول الله يأمركم بطلب عدوكم، ولا يخرج إلا من حضر القتال بالأمس.

وعند تهيؤ المسلمين للخروج، جاء جابر بن عبد الله، فقال: يا رسول الله! إنما تخلفت عن أحد، لأن أبي خلفني على أخوات لي سبع وقال: يا بني! لا ينبغي لي ولا لك، أن نترك هؤلاء النسوة، لا رجل فيهن، ولست بالذي أوثرك بالجهاد مع رسول الله، لعل الله يرزقني الشهادة. فتخلف على أخواتك، فاستخلفت عليهن، واستأثر علي بالشهادة. فأذن لي يا رسول الله! فأذن له، ولم يدع أحداً يخرج لم يشهد معه قتال أحد. واستأذن آخرون غير جابر، منهم عبد الله بن أبي، فأبى ذلك عليهم، ودعا بلوائه وهو معقود لم يحل، فدفعه لعلي بن أبي طالب، وركب فرسه المسمى بالسكب، وعليه الدرع

والمغفر، وما يرى إلا عيناه. وخرج في نحو ستمئة وثلاثين مقاتلاً. خرجوا وبهم الجراحات، ولم يضعوا عليها دواء، وإنما كمدوها بالنار، وطريقتهم في ذلك: أن تسخن خرقة، وتوضع على مكان الجرح، ويتابع ذلك مرة بعد مرّة، حتى يسكن الوجع.

وتلقاه طلحة بن عبيد الله، فقال: أين سلاحك؟ قال: قريب فذهب وأتى به. فقال: يا طلحة! أين ترى القوم؟ فقال: بالسفالة[1]، فقال رسول الله: ذلك الذي ظننت. أما إنا يا طلحة، فلن ينالوا منا مثلها حتى يفتح الله مكة علينا، ثم التفت إلى عمر وقال: يا بن الخطاب! إن قريشاً لن ينالوا منا مثل هذا حتى نستلم الركن. ثم أمر بالخروج من المدينة. وكان دليله في هذا الوجه ثابت بن الضحاك، ولا زالوا سائرين حتى عسكروا بحمراء الأسد. وهي على بعد ثمانية أميال من المدينة. وفي حق هؤلاء نزلت الآية: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾[2].

أتفوتنا غزوة مع رسول الله! إن تركناها لفسق

أقام رسول الله مع جيشه بحمراء الأسد، وأمر رسول الله أن توقد في كل ليلة يقيمها هناك خمسمئة نار، حتى ترى من الأماكن البعيدة، وكان على حرس الرسول في الليلة الأولى عباد بن بشر، وعند العشاء اقتاد الحرس رجلين، فحملهما إلى رسول الله، فإذا هما عبد الله بن سهيل، فأخوه رافع الأنصاري. فقال لهما: ما حبسكما عنّا؟ فقال: عبد الله غلثنا[3] أنا وأخي من مشهد أحد جريحين. فلما سمعنا الأذن بالخروج قال لي أخي رافع: أتفوتنا غزوة مع رسول الله؟ إن تركناها لفسق! والله مالنا من دابة نركبها. فخرجنا لاحقين بالجيش، وكنت أيسر جراح من أخي، فكان إذا غلب حملته

---

(١) صاحب (القاموس) ذكرها باسم (السفلة) وقال: محلة بأسفل مكة.

(٢) سورة (آل عمران) الآية: (١٧٢).

(٣) من (الغلث): شدّة القتال. أو شدّة الوجع. و(المغلث) المقارب من الوجع، ليس يضجع. اللسان.

عقبة، ويمشي عقبة، حتى انتهينا الساعة، فدعا لهما بخير، وقال: إن طالت بكما مدة، كانت لكما مراكب من خيل وبغال وإبل.

وأقام المسلمون في ذلك المحل ثلاث ليال، وكانوا يوقدون في كل ليلة ناراً، كما تقدم وذهب صوت معسكرهم في كل وجه. وحمل سعد من عبادة ثلاثين بعيراً لارتداف الجيش، وساق جزراً لتنحر، فنحروا في يوم الإثنين ويوم الثلاثاء. وكان عامة زادهم التمر.

نظام الاستخبار العسكري

لقي رسول الله في حمراء الأسد معبد الخزاعي، وكان مشركاً «وكانت خزاعة مسلمهم وكافرهم محبة لرسول الله» فقال: يا محمد! لقد عز علينا ما أصابك بنفسك، وما أصابك في أصحابك، ولوددنا أن الله أعلى كعبك، وأن المصيبة كانت لغيرك.

ثم مضى، ولما كان الروحاء رآه أبو سفيان، فقال: هذا معبد مقبل، وعنده الخبر؟ ما وراءك يا معبد؟ فقال مهولاً على قريش الأمر: تركت محمداً وأصحابه قد خرجوا لطلبكم، في جمع لم أر مثله قط، يتحرقون عليكم تحرقاً. قد اجتمع معه من كان تخلف عنه بالأمس من الأوس والخزرج، وتعاهدوا على ألا يرجعوا حتى يلقوكم فيثأروا منكم، وغضبوا لقومهم غضباً شديداً، وندموا على ما فعلوا، وفيهم من الحنق شيء لم أر مثله قط.

قال أبو سفيان: ويلك ما تقول؟ قال: والله ما أرى أن ترحل حتى ترى نواصي الخيل. فقال: لقد أجمعنا الكرة عليهم لنستأصل بقيتهم. قال: فإني أنهاك عن ذلك. فأقروا أن ينصرفوا سريعاً.

وعند منصرف المشركين إلى مكة، أرسل أبو سفيان مع نفر يريدون المدينة، أن يخبروا رسول الله وأصحابه بأنهم أجمعوا على الرجعة. فلما وصلوا أخبروهم بذلك، فنزلت الآية:

﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ﴾.

وقال رسول الله: والذي نفسي بيده! لقد سومت لهم الحجارة[1]، ولو رجعوا لكانوا كأمس الذاهب. وأرسل معبد الخزاعي رجلاً من قبله يخبر رسول الله بانصراف أبي سفيان ومن معه من قريش خائفين.

عقاب الناكث أبي عزة الشاعر بالقتل

ظفر رسول الله في حمراء الأسد بأبي عزّة الشاعر؛ الذي من عليه من غير فداء. وكان من أسراء بدر، لأجل بناته، وأخذ عليه عهداً ألاّ يقاتله، ولا يكثر عليه جمعاً، ولا يظاهر عليه عدواً، كما أسلفنا. فنقض العهد، وخرج مع قريش لأحد، يستنفر الناس ويحرضهم على قتال رسول الله بأشعاره المثيرة. وقد تركه المشركون نائماً لما ترحلوا، فاستمر حتى ارتفع النهار. والذي عثر عليه عاصم بن ثابت ، وقيل: عمير بن عبد الله، فلما أُتي به إلى رسول الله، قال: يا محمد! أقلني[2]، وامنن علي، ودعني لبناتي، وأعطيك عهداً ألا أعود أبداً لمثل ما فعلت. فقال: لا والله! لا تمسح عارضيك بمكة، تجلس بالحجر، تقول: سحرت محمداً مرتين. لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين. اضرب عنقه يا عاصم. فضرب عنقه. ونزلت الآية:

﴿ وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ﴾[3].

عقوبة الجاسوس القتل

لما قدم المسلمون من حرب أحد، أرسل المشركون معاوية بن المغيرة بن أبي العاص «جد عبد الملك بن مروان لأمه» إلى المدينة، يتجسس أخبار النبي، ويكشف عن أحوال المسلمين، فذهب على وجهه حتى أتى دار

---

(١) (الحجارة المسوّمة) المعلمة بعلامة، يعلم بها أنها ليست من حجارة الدنيا. ومنه قوله تعالى في سورة (هود) الآية (٨٢ ـ ٨٣): ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ۝ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ﴾. المحقق.

(٢) من (أقال عثرته): أخذ بيده. أو تجاوز عن الخطأ.

(٣) سورة (الأنفال) الآية: (٧١).

عثمان بن عفان، فدقه. فقالت أم كلثوم: من أنت؟ قال: ابن عم عثمان فقالت: ليس هاهنا. فقال: أرسلي إليه، فله عندي ثمن بعير، كنت اشتريته منه. فجاء عثمان، فلما نظر إليه، قال: أهلكتني وأهلكت نفسك. فقال يابن عم! لم يكن أحد أمس بي رحماً منك فأجرني. فأدخله عثمان منزله، وأخفاه في ناحية. ثم خرج ليأخذ له أماناً من رسول الله، فسمعه يقول لأعوانه: إن معاوية في المدينة فاطلبوه. فدخلوا منزل عثمان، فأشارت إليهم أم كلثوم إلى مخبئه فأخرجوه، وأتوا به رسول الله فأمر بقتله. فقال عثمان: والذي بعثك بالحق! ما جئت إلا لآخذ له أماناً، فهبه لي. فوهبه له. وأجله ثلاثاً، وأقسم إن وجده بعدها قتله.

ولما خرج رسول الله إلى حمراء الأسد، أقام معاوية ثلاثاً يستعلم أخبار المسلمين، ليأتي بها قريشاً. فلما كان اليوم الرابع، عاد رسول الله إلى المدينة. فخرج معاوية هارباً. فبلغ خبره رسول الله. فبعث إليه زيد بن حارثة، وعمار بن ياسر وقال لهما: ستجدانه بموضع كذا وكذا، فوجداه به، فقتلاه.

البحث عن الحارث بن سويد والقصاص منه لقتله المجذر

كان سويد، والد الحارث، قتل زياداً أبا المجذر في الجاهلية، فظفر المجذر بسويد والد الحارث فقتله في أبيه قبل الإسلام. وكان ذلك سبباً لواقعة بعاث فلما قدم رسول الله المدينة، أسلم الحارث بن سويد، وأسلم المجذر بن زياد، وشهدا بدراً. فجعل الحارث يطلب مجذراً، يقتله بأبيه، فلم يقدر عليه. فلما كان يوم أحد وجال المسلمون تلك الجولة أتاه الحارث من خلفه فضرب عنقه. قيل: وقتل أيضاً قيس بن زيد، ثم اختفى. ولما عاد رسول الله من حمراء الأسد إلى المدينة، علم أن الحارث بن سويد في قباء. فنهض إليه ليقتص منه بمن قتله غيلة وغدراً من المسلمين. ودخل قباء في وقت لم يكن ليدخلها فيه، في وقت الظهيرة. فخرج إليه الأنصار يتلقونه، ومنهم

الحارث بن سويد وعليه ثوب مورّس[1] فأمر ﷺ عويمر بن ساعدة، فقال له: قدم الحارث بن سويد إلى باب المسجد، واضرب عنقه.

ولما قدم للقتل بمشهد من رسول الله، قال الحارث: لم يا رسول الله تقتلني؟ فقال: بقتلك المجذر بن زياد، وقيس بن زيد. قال الحارث: قتلت المجذر، وما كان قتلي إياه رجوعاً عن الإسلام، ولا ارتياباً فيه، ولكن حمية من الشيطان، وإني أتوب إلى الله ورسوله مما عملت، وأخرج ديته، وأصوم شهرين متتابعين، وأعتق رقبة. فلم يقبل منه النبي ذلك. فقتل قصاصاً.

سرية أبي سلمة إلى قطن بناحية فيد

فيد ماء لبني أسد بنجد، بعث إليها ﷺ أبا سلمة، عبد الله بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن مخزوم القرشي المخزومي، لطلب طلحة وسلمة ابني خويلد الأسديين. بعثه في هلال المحرم على رأس خمسة وثلاثين شهراً من الهجرة، ومعه مئة وخمسون رجلاً من المهاجرين والأنصار، منهم أبو عبيدة وسعد، وأسيد بن حضير، وأبو نائلة. وسبب ذلك أنه بلغه أنهما يدعوان قومهما ومن أطاعهما لحربه ﷺ.

فنهاهما قيس بن الحارث فلم ينتهوا، فسير لهما أبا سلمة، وعقد له اللواء، وكان دليله الوليد بن زبيد الطائي، وقال له: سر حتى تنزل أرض بني أسد بن خزيمة، فأدبهم. فحث السير حتى انتهى إلى قطن. ولما بلغهم خبر السرية، خافوا وهربوا عن منازلهم. ووجد أبو سلمة إبلاً وشاة وغنماً، ولم يلق كيداً. فانحدر بالغنيمة إلى المدينة وأخرج منها صفي رسول الله عبداً. وأعطى الدليل المذكور ما رضي به، ثم خمسها، وقسم الباقي على رجال السرية، فبلغ سهم كل واحد سبعة أبعرة، وأغناماً. وقد استغرقت السرية في وجهها عشرة أيام.

---

(١) (الثوب المورس): مصبوغ بـ (الورس) نبات كالسهم يزرع باليمن، يصبغ به.

القصاص من سفيان بن خالد الهذلي لاغتياله بعثة الهداة

عرنة واقعة بناحية عرفة، وجه إليها رسول الله ﷺ عبد الله بن أنيس الجمحي السلمي الأنصاري، يوم الإثنين لخمس خلون من المحرم، على رأس خمسة وثلاثين شهراً من الهجرة، لقتال سفيان بن خالد بن نبيح الهذلي اللحياني، وكان بعرفة. وسبب ذلك أنه قتل عاصم بن ثابت ومن معه من البعثة، وكان يحشد الجموع لحربه ﷺ. فقال لعبد الله: اذهب واكفنيه. فقال: صفه لي حتى أعرفه. قال: رجل إذا رأيته هبته، وفرقت[1] منه ووجدت له قشعريرة، وذكرت الشيطان. قال عبد الله: وكنت لا أهاب الرجل. فقلت: يا رسول الله! ما فرقت من شيء قط . قال: آية ما بينك وبينه ذلك. واستأذنته أن أقول شيئاً أدخل به عليه. فقال: قل ما بدا لك. وقال: انتسب لخزاعة. فأخذت سيفي وخرجت اعتزي لخزاعة.

فلما وصلت إليه بعرفة، لقيته يمشي وراء الأحابيش، فهبته وعرفته بنعت رسول الله، فقلت: صدق الله، وصدق رسوله. وقد دخل وقت العصر حين رأيته فصليت وأنا أمشي، أومىء برأسي إيماء ثم دنوت منه، فقال: من الرجل؟ فقلت: من خزاعة، سمعت بجمعك لمحمد فجئت لأكون معك. قال: أجل، إني لفي الجمع له. فمشيت معه وحدثته فاستحلي حديثي فقلت له عجباً لما أحدث محمد هذا الدين المحدث، فارق الآباء، وسفه أحلامهم؟! قال: إنه لم يلق أحداً يشبهني. ثم مشيت معه وهو يتوكأ على عصا يهد الأرض. حتى انتهى إلى خبائه وتفرق عنه أصحابه إلى منازل قريبة منه، وهم يطيفون به. فقال: هلم يا أخا خزاعة، فدنوت منه. وقال: اجلس. فجلست معه حتى إذا نام الناس اغتررته وقتلته، وأخذت رأسه. ثم أقبلت فصعدت جبلاً، ودخلت غاراً، وأقبل الطلب وأنا كامن في الغار. وأقبل من ضمنهم رجل معه إداوة ضخمة، ونعلاه في يده. وكنت حافياً. فوضع إداوته ونعله وجلس يبول قريباً من فم الغار. ثم قال لأصحابه: ليس

---

(١) (فرقت): من (الفرق): الخوف.

أحد في الغار فانصرفوا راجعين. فخرجت فشربت ما في الإداوة ولبست النعلين، ولم يرني أحداً. فطلبهما صاحبهما بعد ذلك فلم يجدهما، فرجع إلى قومه. وكنت أسير الليل وأتوارى النهار، خوفاً من الطلب أن يدركني، حتى قدمت المدينة فوجدت رسول الله ﷺ بالمسجد، فقال: أفلح الوجه. قلت: أفلح وجهك يا رسول الله! ووضعت الرأس بين يديه وأخبرته خبري. فدفع إلي عصا وقال: تخصر بها في الجنة، فإن المتخصرين في الجنة قليل. والتخصر: الاتكاء على قضيب ونحوه.

وكانت غيبته ثماني عشرة ليلة، وقدم يوم السبت لسبع بقين من المحرم.

واقعــة الرجيع

الرجيع اسم ماء لهذيل بن مدركة بن الياس، بين مكة وعسفان. بعث فيها رسول الله ﷺ عاصم بن ثابت الأنصاري، مع بعثة من المعلمين في صفر على رأس ستة وثلاثين شهراً من الهجرة، من أول السنة الرابعة. والسبب في هذا البعث: أن بني لحيان من هذيل، بعد مقتل سفيان بن خالد بن نبيح الهذلي مشوا إلى عضل والقارة، وهما قبيلتان من بني العون بن خزيمة بن مدركة. فجعلوا لهم إبلاً، على أن يكلموا رسول الله أن يخرج إليهم نفراً من أصحابه. فأوفدوا سبعة نفر إلى الرسول مظهرين الإسلام، فقالوا: إن فينا إسلاماً، فابعث نفراً من أصحابك يفقهوننا في الدين، ويقرؤوننا القرآن، ويعلموننا شرائع الإسلام. وكان رسول الله رأى أن يبعث عيوناً إلى مكة، يأتونه بخبر قريش. فلما قدم هؤلاء النفر أرسل لهم بعثة للأمرين معاً، مؤلفة من ستة نفر من الصحابة، وهم: عاصم بن ثابت، ومرتد بن أبي مرثد الغنوي وخبيب بن عدي الأوسي، وزيد بن الدثنة، وعبد الله بن طارق، وخالد بن البكير. فخرجوا مع الرسل حتى أتوا الرجيع، فغدروا بهم واستصرخوا عليهم هذيلاً ليعينوهم على القبض عليهم. فلم يرع القوم وهم في رحالهم، إلا الرجال بأيديهم السيوف، وهم نحو مئتي رجل فأخذ عاصم ومن معه أسيافهم، ليقاتلوا القوم، فقالوا: إنا لا نريد قتلكم، ولكم عهد الله وميثاقه ألا نقتلكم. قالوا ذلك لأنهم يريدون تسليمهم للكفار، ويأخذوا

في مقابلتهم مالاً، لعلمهم أنه لا شيء أحب لقريش، من أن يؤتوا بأحد من أصحاب محمد يمثلون به، ويقتلونه بمن قتل منهم ببدر وأحد، فأبوا أن يقبلوا منهم. فأما مرثد وخالد بن البكير، وعاصم بن ثابت فقالوا: والله لا نقبل من مشرك عهداً. وقاتلوا حتى قتلوا. وأما زيد وخبيب وعبد الله بن طارق فلاتوا[1] ورقوا جبلاً، ورغبوا في الحياة.

وفي رواية: أنهم لما نزلوا بالرجيع، أكلوا تمراً عجوة، فتركوا نواة على الأرض، وكانوا يسيرون بالليل ويكمنون بالنهار، لأنهم لقلتهم غير آمنين من عدوهم من قريش وهذيل، خصوصاً لقرب العهد بواقعة أحد، ومقتل سفيان بن خالد الهذلي. فجاءت امرأة من هذيل ترعى غنماً، فرأت النوى فأنكرت صغرهن، وقالت: هذا تمر يثرب. فصاحت في قومها وقالت: قد أُتيتم من قبل العدو، فجاؤوا في طلبهم حين أخبرتهم، واتبعوا آثارهم، فوجدوهم قد كمنوا بالجبل، فأحاطوا بهم، وقالوا: لكم العهد والميثاق، إن نزلتم إلينا ألاّ نقتل رجلاً.

فنزل إليهم على العهد والميثاق خبيب بن عدي، وزيد بن الدمنة، وعبد الله بن طارق. وامتنع عاصم بن ثابت ومعه الباقون، وقال من فوق: أما أنا فلا أنزل في ذمة كافر. ثم قال: اللهم أخبر عنا رسولك. فاستجاب الله لعاصم. فحين امتنعوا من النزول، رماهم المشركون بالنبل، ورماهم عاصم بنبله حتى قضى. وكان عنده سبعة نبال فقتل بكل نبل رجلاً من المشركين، ثم طاعنهم حتى انكسر رمحه. ثم سل سيفه، وقال: اللهم إني حميت دينك صدر النهار، فاحم لحمي آخره عن التمثيل. فقتلوا عاصماً، وأطلقوا أوتار قسيهم، فربطوا بها خبيب بن عدي، وزيد بن الدمنة. ولما أرادوا ربط عبد الله بن طارق قال: هذا أول الغدر، لا أصحبكم. إن لي بهؤلاء القتلى أسوة. فجروه وعالجوه على أن يصحبهم، فلم يفعل، فقتلوه. وقيل: مشى معهم حتى إذا كانوا بمر الظهران، جذب يده وأخذ بسيفه،

---

(١) لاتوا: لجؤوا.

واستأخر عن القوم، فرموه بالحجارة حتّى قتلوه.

فانطلقوا بخبيب وزيد بن الدثنة، حتى باعوهما بمكة. باعهما جامع وزهير الهذليان بأسيرين من بني هذيل بمكة. وقيل: إنهم باعوا خبيباً بأمة سوداء. والذي اشتراه بنو حارث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف، لأن خبيباً هو الذي قتل عامر بن نوفل يوم بدر. والذين اشتروه من بني الحارث: عقبة وأبو سرعة وأخوهما لأمهما حجير بن أبي إهاب، حليف بني نوفل. واشترى زيد بن الدمنة، صفوان بن أمية ليقتله بأبيه. وكان شراؤهما في ذي القعدة. فحبسوهما حتى خرجت الأشهر الحرم، فقتلوا زيداً. وأما خبيب فإنهم في أول الأمر أساؤوا إليه في حبسه فقال لهم: ما يصنع القوم الكرام هكذا بأسيرهم. فأحسنوا إليه بعد ذلك. وجعلوه عند امرأة تحرسه، وهي ماوية، مولاة حجير، وكان معها زوجها موهب مولى آل نوفل.

روى ابن سعد، عن موهب مولى آل نوفل قال: قال لي خبيب وكانوا جعلوه عندي: يا موهب أطلب إليك ثلاثاً: أن تسقني العذب، وأن تجنبني ما ذبح على النصب، وأن تعلمني إذا أرادوا قتلي.

وقالت ماوية زوج موهب: كان خبيب يتهجد بالقرآن، فإذا سمعه النساء بكين ورققن عليه. فقلت له مرة: هل لك من حاجة؟ فذكر مطالبيه الثلاث. ولما أرادوا قتله أخبرته. فوالله! ما اكترث بذلك. وحين أجمعوا على قتله، استعار من زينب بنت الحارث موسى، ليستحد به لئلا تظهر عند قتله[١] فغفلت عن ابن لها صغير، فأقبل عليه فأجلسه على فخذه. والموسى بيده. فخشيت المرأة أن يقتله ففزعت فقال لها: أتخشين أن أقتله؟! ما كنت لأفعل ذلك إن شاء الله، إن المسلم لا يغدر. قالت زينب: والله ما رأيت أسيراً خيراً

---

(١) رواها (ابن إسحاق) في سيرة (ابن هشام) بهذه الصيغة: «قال لي حين حضره القتل، ابعثي إليّ بحديدة، أتطهر بها للقتل. فأعطيت غلاماً من الحيّ الموسى، فقلت: ادخل بها على هذا الرجل البيت». والاستحداد: حلق العانة. وفي صحيح البخاري عن الرسول ﷺ: «الفطرة خمس: الختان، والاستحداد، ونتف الإبط، وقص الشارب، وتقليم الأظافر». وفي رواية: «حلق العانة» بدل «الاستحداد». المحقق.

من خبيب. ولما رجعوا ليقتلوه، خرجوا به من الحرم إلى الخارج، فقال: اتركوني أصلي، فتركوه فصلى ركعتين. فقال موسى بن عتبة: صلاهما في موضع مسجد التنعيم عند طرف حرم مكة من جهة المدينة، على ثلاثة أميال من مكة. وبعد الصلاة انصرف إليهم، وقال: لولا أن تروا بي جزعاً من الموت لزدت. ثم دعا عليهم(١).

صلب خبيب

فلما انقضت الأشهر الحرم، خرجوا بخبيب عن الحرم، ليقتلوه في الحل، خرج الناس والصبيان والعبيد، فلما انتهوا به إلى التنعيم، أمروا بخشبة طويلة، فحفروا لها، فلما انتهوا بخبيب إليها، قال لهم: دعوني أصلي ركعتين. فتركوه يركع. وبعد صلاته صلبوه على تلك الخشبة ليراه الوارد والصادر، فيذهب بخبره إلى الأطراف. ثم قالوا له: ارجع عن الإسلام نخل سبيلك، وإن لم ترجع لنقتلنك. قال: إن قتلي في سبيل الله لقليل. اللهم! إنه ليس هنا أحد يبلغ عني رسولك السلام. فدعا المشركون أربعين ولداً ممن قتل آباؤهم يوم بدر، فأعطوا كل واحد رمحاً، وقالوا: هذا الذي قتل آباءكم. فطعنوه بتلك الرماح حتى قتلوه. ووكلوا بحراسة تلك الخشبة أربعين رجلاً، يحرسونها لئلا تنزل.

وعن أسامة بن زيد: أن رسول الله كان جالساً مع أصحابه، حين صلب خبيب، فأخذه ما كان يأخذه عند نزول الوحي، فسمعناه يقول: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته. فلما سري عنه، قال: هذا خبيب يقرئني السلام، قتلته قريش. ثم قال: أيكم ينزل خبيباً عن خشبته وله الجنة؟ فقال له

---

(١) لم يثبت الشيخ دعاء خبيب رضي الله عنه، على المشركين، وهو كما يلي في سيرة (ابن هشام): «اللهمّ! أحصهم عدداً، واقتلهم بدداً، ولا تغادر منهم أحداً». وقال (ابن إسحاق): في خبيب ورفاقه رضي الله عنهم، نزلت الآية الكريمة: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ سورة (البقرة) الآية: (٢٠٧). المحقق.

الزبير بن العوام: أنا يا رسول الله! وصاحبي المقداد بن الأسود. فأذن لهما فجاءا، فوجداه مصلوباً، ومن حوله أربعون رجلاً يخفرونه، لكنهم نيام. فأنزلاه بعد أن صلب أربعين ليلة، وحمله الزبير على فرسه، فشعر بهم المشركون، وكانوا سبعين رجلاً فتبعوهما، فلما أدركوهما، قذفه الزبير إلى الأرض. ثم تصدى هو ورفيقه لهم، فكشف العمامة عن رأسه. وقال: أنا الزبير بن العوام وصاحبي المقداد بن الأسود، أسدان رابضان، يذبان عن شبلهما، فإن شئتم ناضلناكم، وإن شئتم نازلناكم، وإن شئتم انصرفتم. فانصرفوا عنهما. وعادا إلى المدينة.

سرية بئر معونة وتسمى أيضاً سرية الغبراء

سميت باسم المكان المذكور لنزولهم به. وتسمى أيضاً سرية المنذر بن عمرو الخزرجي إلى أهل بئر معونة ليدعوهم إلى الإسلام.

«اسم موضع ببلاد هذيل بين مكة وعسفان، وقيل: بين أرض بني عامر وحرة بني سليم. كلا البلدين قريب منه، وهو إلى حرة بني سليم أقرب».

وكان سفر هذه السرية في شهر صفر، على رأس ستة وثلاثين شهراً من الهجرة، وبعد واقعة أحد بأربعة أشهر. وأرسل معهم المطلب السلمي ليدلهم على الطريق.

وكانت هذه السرية إلى رعل وذكوان. وكان مع رعل بطن من بني سليم، ومع ذكوان بطن منهم أيضاً.

وكان من أمرها ما حكاه ابن إسحاق قال: قدم على رسول الله أبو براء عامر بن مالك بن جعفر العامري، ويعرف بملاعب الأسنة، فعرض عليه رسول الله الإسلام، فلم يسلم، ولم يبعد. وقد أهدى إلى رسول الله فرسين وراحلتين، فقال له ﷺ: لا أقبل هدية مشرك. وعرض عليه الإسلام فقال: يا محمد! إني أرى أمرك هذا حسناً شريفاً، وقومي خلفي، فلو أنك بعثت معي نفراً من أصحابك، لرجوت أن يتبعوا أمرك، فإنهم إن اتبعوك، فما أعز أمرك! فقال له ﷺ: إني أخشى أهل نجد عليهم. قال أبو براء: أنا لهم

جار، فابعثهم. فبعث رسول الله المنذر بن عمرو ومعه القراء، وهم سبعون. قال عنهم قتادة: كانوا يحتطبون بالنهار، ويصلون بالليل. وقال أنس: كانوا يشترون الطعام لأهل الصفة ويأتون إلى حجر أزواجه ﷺ. ويتدارسون القرآن بالليل ويصلون.

فساروا إلى بئر معونة، وبعثوا حرام بن ملحان، أخا أم سليم، والدة أنس بن مالك، بكتابه ﷺ إلى عامر بن الطفيل بن مالك بن جعفر الكلابي العامري، أخي أبي براء «وهو غير عامر بن الطفيل الأسلمي الصحابي» فلما قدم حرام بن ملحان، قال: يا أهل بئر معونة إني رسول رسول الله إليكم، فآمنوا بالله ورسوله، فجعل يحدثهم فأومؤوا إلى رجل، فأتاه من خلفه، فطعنه بالرمح، فقال: الله أكبر، فزت ورب الكعبة.

قال ابن إسحاق: إن الطاعن له هو عامر بن الطفيل، وقيل: إنه مات بتلك الطعنة، وإنما أثخن وظنوا أنه مات. فقال الضحاك بن سفيان الكلابي، وكان مسلماً يكتم إسلامه، لامرأة من قومه: هل لك في رجل، إن صح كان نعم الراعي. فضمته إليها فعالجته، فسمعته مرة يقول:

أبا عامر ترجو المودّة بيننا ... وهل عامر إلا عدو مداهن؟
إذا ما رجعنا ثم، لم يك وقعة ... بأسيافنا في عامر أو نطاعن

فتواثبوا عليه فقتلوه.

ثم إنّ عامر بن الطفيل، استصرخ بني عامر قومه، على بقية أصحاب حرام بن ملحان، فلم يجيبوه. وقالوا: لن نخفر أبا براء وقد عقد لهم عقداً وجواراً. فاستصرخ عليهم قبائل من بني سليم عصية ورعلاً وذكوان، فأجابوه إلى ذلك. ثم خرجوا حتى غشوا القوم، فأحاطوا بهم في رحالهم، فلما رأوهم أخذوا سيوفهم وقاتلوهم، حتى قتلوا كلهم، إلا كعب بن زيد الأنصاري الخزرجي. فإنهم تركوه وبه رمق، فعاش حتى قتل يوم الخندق شهيداً، بإصابة سهم، وإلا عمرو بن أمية الضميري، فإنه أسر وأطلق[1].

---

(١) لما تخلص عمرو بن أمية الضميري من أسرى سرية الطفيل، خرج إلى المدينة، =

وذكر ابن إسحاق قال: كان عمرو بن أمية الضميري في سرح القوم، هو ورجل من الأنصار، اسمه المنذر بن محمد بن عقبة، فلم ينبئهما بمصاب أصحابهما، إلا الطير تحوم على المعسكر، فقالا: والله إن لهذه الطير شأناً. فأقبلا لينظر، فإذا القوم في دمائهم، والخيل التي أصابتهم واقفة. فقال الأنصاري لعمرو: ما ترى ؟ قال: أرى أن تلحق برسول الله، فتخبره الخبر. فقال الأنصاري: لكني ما كنت لأرغب بنفسي، عن موطن قتل فيه المنذر بن عمرو، ثم قاتل حتى قتل. وأما عمرو، فأسروه. ثم أخذه عامر بن الطفيل، وجز ناصيته، وأعتقه عن رقبة زعم أنها كانت على أمه.

قال أنس بن مالك: ولما جاء خبرهم رسول الله ﷺ قال: هذا عمل أبي براء، حيث أخذهم في جواره. وقد كنت لهذا كارهاً متخوفاً. فبلغ ذلك أبا براء فمات عقب ذلك ، أسفاً على ما صنع ابن أخيه عامر بن الطفيل. ولما علم ربيعة بن عامر، ملاعب الأسنة، إخفار عامر بن الطفيل ذمة أبيه أبي براء، جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله! أيغسل عن أبي هذه الغدرة أن أضرب عامراً ضربة أو طعنة؟ قال: نعم. فرجع ربيعة وضرب عامراً ضربة أشواه[1] بها، فوثب عليه قومه فقالوا لعامر: اقتص. فقال: قد عفوت.

ويذكر المؤرخون أن من جملة من قتل من القراء في واقعة بئر معونة:

= فصادف بمحل يسمّى (القرقرة) رجلين من بني عامر، فنزلا معه في ظل كان هو فيه، وكان معهما عقد وعهد من رسول الله ﷺ لم يشعر به. فسألهما عمرو، أن ينسبا، فذكرا له، أنهما من بني عامر، فتركهما حتى ناما، فقتلهما. وظن ظفر بثأر بعض أصحابه الذين قتلوا ببئر معونة. وجاء، وأخبر رسول الله بذلك. فقال: لقد قتلت قتيلين، لأدينّهما. والمعنى: أعطى ديتهم، للعهد والجوار الذي عقده لهما. ثم خرج ﷺ لبني النضير ليستعين بهم في دية ذينك القتيلين اللذين قتلهما عمرو. وكان بين بني النضير وبني عامر عقد وحلف، فيسهل الدفع منهم، لكون المدفوع لهم من حلفائهم. المؤلف. والصحيح في نسبته (الضمري) بدون ياء، نسبة إلى (بني ضمرة). المحقق.

(١) (أشواه) أصاب شواه: أطرافه، ولم يصب مقتله.

عامر بن فهيرة مولى أبي بكر، قتله رجل من بني كلاب، اسمه جبار بن سلمى، وقيل: عامر بن الطفيل.

وعن أنس بن مالك قال: ما رأيت رسول الله وجد على أحد، ما وجد على أهل بئر معونة، لكونه لم يرسل هذه البعثة لقتال، إنما أرسلهم مبلغين لرسالته. وقد جرت عادة العرب قديماً ألا تقتل الرسل. ولبث ﷺ يدعو على قتلته أربعين يوماً. ويذكرون أن الحمى أصابت بعد ذلك رعلاً وذكوان وعصية، فهلك بها منهم سبعمئة رجل، عشرة بكل رجل قتلوه من المسلمين[1].

تحريم الخمر

وفي السنة الثالثة، كان تحريم الخمر: وقيل: كان في السنة الرابعة، في حصار بني النضير، وقيل: كان تحريمها بين الحديبية وخيبر، وقيل: كان بخيبر، وقد نزل في تحريمها ثلاث آيات، الأولى:

﴿ ۞يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾[2].

فقد كان أهل المدينة، وهم يشربون الخمر ويسمرون، فسألوا رسول الله عن ذلك؟ فنزلت الآية لبيان ما فيها من الضر والنفع.

الثانية: أن أحد الصحابة، صلى بالناس صلاة المغرب، وهو سكران فخلط في قراءة سورة الكافرين فنزلت الآية الثانية:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ﴾[3].

وتلت نزول الآيتين وقائع كثيرة، كانت سبباً في نزول الآية الثالثة بالمنع. منها: أن حمزة رضي الله عنه، لما شربها، خرج وهو سكران، فوجد ناقتين

---

(١) يفهم من هذا أن البعثة كانت من سبعين رجلاً وهو الصحيح. وذكر ابن هشام، أنهم كانوا في أربعين. المحقق.
(٢) سورة (البقرة) الآية: ٢١٩.
(٣) سورة (النساء) الآية: (٤٣).

لعلي بن أبي طالب فعلاهما بالسيف، وبقر خواصرهما ثم أخذ من أكبادهما، وجب سناميهما. قال علي: فنظرت إلى منظر أفظعني. فأتيت رسول الله، وعنده زيد بن حارثة، فأخبرته الخبر، فخرج معه زيد، فدخل على حمزة، فتغيظ عليه، فرفع حمزة بصره وقال: هل أنتم إلا عبيد لأبي! فرجع النبي يقهقر، حتى خرج.

وقد تعددت أمثال هذه الواقعة حتى قال عمر: اللهم أنزل فيها قرآناً شافياً. فنزلت الآية:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[(١)].

وفي البخاري، عن أنس بن مالك: وإني لقائم أسقي أبا طلحة، وأبا أيوب، وأبا دجانة، ومعاذ بن جبل، وسهيل بن بيضاء، وأبي بن كعب، وأبا عبيدة بن الجراح، إذ جاء رجل وقال: هل بلغكم الخبر؟ قالوا: وما ذلك؟ قال: حرمت الخمر. قالوا: اصرف هذه القلال يا أنس، فأهريقت، وقال أنس: فقمت إلى مهراس فضربتها بأسفله حتى تكسرت. وقد أراقها الصحابة فطاما للنفوس عنها، ولم يريقوها بأمر من رسول الله ﷺ.

ولما حرمت الخمر، قال قوم: قتل إخواننا بأحد، وهي في بطونهم فقد شربها جماعة صبح يوم أحد، قتلوا من يومهم شهداء، فنزلت الآية:

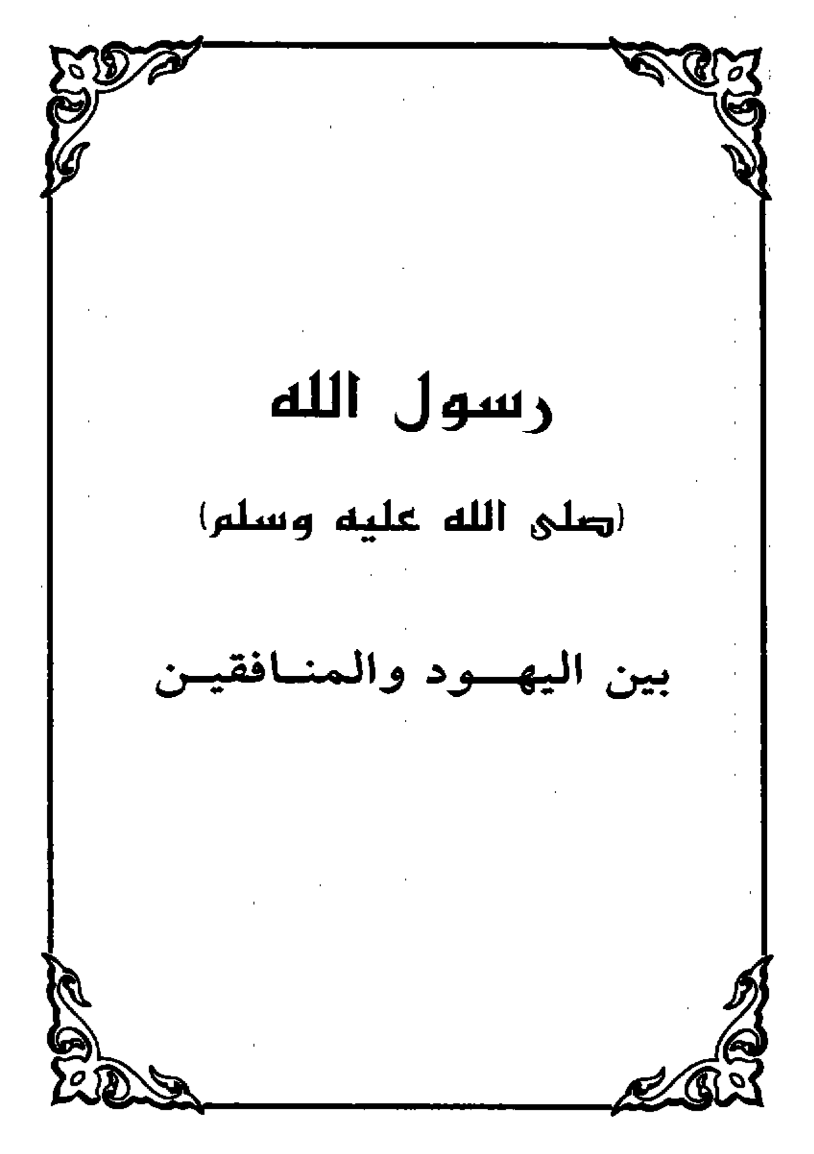
﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[(٢)].

* * *

---

(١) سورة (المائدة) الآية: (٩٠).

(٢) سورة (المائدة) الآية: (٩٣).



رسول الله

(صلى الله عليه وسلم)

بين اليهــود والمنـافقيـن

ظهور كيد بني النضير للرسول

بنو النضير حي من يهود خيبر، يسكنون قرية من قرى المدينة يقال لها: زهرة. خرج إليهم رسول الله في ربيع الأوّل، من السنة الرابعة، يستعين بهم في دية الرجلين من بني عامر، اللذين قتلهما عمرو بن أمية الضميري[1]. وكان أخذ العهد على اليهود أن يعاونوه في الديات، وسار إليهم رسول الله في نفر من أصحابه، دون العشرة. فيهم أبو بكر وعمر وعلي. فقالوا له: نعم يا أبا القاسم! حتى تطعم وترجع بحاجتك. فجلس ﷺ إلى جنب دار من بيوتهم، فخلا بعضهم ببعض. وقالوا: إنكم لن تجدوا الرجل على مثل هذه الحالة، فمن رجل يعلو على هذا البيت، فيلقي عليه صخرة، ونأخذ أصحابه أسارى على مكة، فنبيعهم من قريش. فقال أحد ساداتهم وهو عمرو بن جحاش: أنا لذلك. وقال لهم سلام بن مشكم: لا تفعلوا إنه لنقض للعهد بيننا وبينه، والله ليخبرن بما هممتم به. فلما صعد عمرو بن جحاش ليلقي الصخرة، أظهر رسول الله القيام لقضاء حاجة وترك أصحابه في مجالسهم، ورجع مسرعاً إلى المدينة ولم يعلم بذهابه أحد، حتى من كان معه من الصحابة، فلما استبطؤوه قاموا في طلبه، فقال لهم حيي بن أخطب: لقد عجل أبو القاسم، كنا نريد أن نقضي حاجته، ونقريه، فتركنا على ذلك وذهب!

فبينما بنو النضير على تنفيذ ما عزموا عليه من إلقاء الحجر، إذ أتىٰ آت من اليهود، وكان في المدينة، فقال لهم: ما تريدون؟ فذكروا له الأمر، فقال لهم: أين محمد؟ قالوا: هذا محمد. فأشاروا إلى المكان الذي جلس فيه. قال: والله! لقد تركت محمداً داخل المدينة، فأسقط في أيديهم. وقالوا: قد أخبر بأمرنا، وأخذوا ينتظرون حدوث النكبة بما جنته أيديهم.

---

(١) ينسبه الشيخ بصيغة (الضميري) والصحيح الضمري من غير ياء، كما ورد في سيرة (ابن هشام) نسبة إلى (بني ضمرة). المحقق.

إنـذار يهود بني النضير بالجـلاء عن المدينـة

ولما رجع رسول الله إلى المدينة، أرسل إليهم محمد بن مسلمة: أن أخرجوا من بلدي، فلا تساكنوني فيها، فقد أعلمت بما هممتم به من الغدر. وأجّلهم عشراً، فمن ركن بعد ذلك منهم ضربت عنقه. فأرسل إليهم المنافقون: لا تخرجوا من دياركم، نحن معكم، إن قوتلتم فلكم علينا النصر، وإن أخرجتم لن نتخلف عنكم. وكان من أشد المحرضين لهم على مخالفة الإنذار: عبد الله بن أبي بن سلول، فإنه أرسل إليهم: ولا تخرجوا من دياركم، وأقيموا في حصونكم، فإن معي ألفين من قومي وغيرهم من العرب، يدخلون حصونكم ويموتون عن آخرهم، قبل أن يوصل إليكم. ومن ورائكم قريظة، وحلفاؤكم من غطفان يمدونكم. وبذلك نزلت الآية:

﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ۝١١ لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴾[1].

رفض بني النضير الإنذار بالجلاء وإقـدامهم على الحرب

انخدع بنو النضير لأقوال عبد الله بن أبي، فسولت لهم أنفسهم الطمع في البقاء، فأرسلوا إلى رسول الله ﷺ: إنا لا نخرج من ديارنا، فاصنع ما بدا لك. ولما بلغه ذلك كبّر، وكبر معه المسلمون لتكبيره. وقالوا: حاربت يهود.

وكان المتولي لأمر بني النضير سيدهم حيي بن أخطب، والد صفية أم المؤمنين، وقد نهاه عن هذا الغي: سلام بن مشكم وقال: منتك نفسك، والله يا حيي الباطل، فإن قول ابن أبي ليس بشيء، وإنما يريد أن يورطك في

---

(١) سورة (الحشر) الآية: (١١).

الهلكة، حتى تحارب محمداً، ويجلس في بيته، ويتركك. ألا ترى أنه أرسل قبلك إلى كعب بن أسد القرظي، سيد بني قريظة أن يمدكم بنو قريظة فقال له: لا ينقض رجل واحد منا العهد، فآيس من بني قريظة، وقد وعد حلفاءه من بني قينقاع مثل ما وعدك به، حتى حاربوا ونقضوا العهد، وحصروا أنفسهم في صياصيهم، وانتظروا ابن أبي فجلس في بيته، وسار إليهم محمد حتى نزلوا على حكمه. فإذا كان ابن أبي لا ينصر حلفاءه ومن كان يمنعه من الناس، ونحن لم نزل نضربه بسيوفنا مع الأوس في حروبهم؟ «إذا كانت بين الأوس والخزرج حرب، خرجت بنو قينقاع مع الخزرج وخرجت بنو النضير وقريظة مع الأوس» فكيف يقبل قوله؟!

فقال حيي: نأبى إلا عداوة محمد، وإلا قتاله. فقال سلاّم: فهو والله جلاؤنا من أرضنا، وذهاب أموالنا وشرفنا، وسبي ذرارينا، وقتل مقاتلينا.

فأبى حيي إلا النزول على حرب رسول الله ﷺ. وقالت له بني النضير: أمرنا تبع لأمرك لن نخالفك أبداً.

فأرسل حيي بن أخطب إعلاناً إلى رسول الله بالحرب، فجند رسول الله المسلمين، واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم، وحمل رايته علي بن أبي طالب، وسار بالجند حتى نزل بفناء زهرة، وكانت تبعد عن المدينة مسافة ميلين من ناحية قباء. فتحصن اليهود وراء معاقلهم والمقاتلون عليها يرمون المسلمين بالنبل، والحجارة، والمسلمون من حولها يحاصرونهم. ولما جاء وقت العشاء رجع رسول الله إلى المدينة في عشرة من أصحابه. وكان على فرس، عليه الدرع، واستعمل على العسكر علي بن أبي طالب. ونام تلك الليلة في بيته. ولما أصبحوا أذن بلال بالفجر، فغدا رسول الله في أصحابه الذين كانوا معه يصلي بالناس، وأمر بلالاً بضرب القبة، وهي من خشب، عليها مسوح، فدخل فيها ﷺ. وكان رجل من اليهود أعسر، رامياً، يقال له: عزوك، يبلغ نبله ما لا يبلغه نبل غيره، فوصل نبله تلك القبة. فأمر رسول الله فحولت، وفي ليلة من الليالي، فقد علي بن أبي طالب قرب العشاء، فقال الناس: يا رسول الله! ما نرى علياً. فقال: دعوه، فإنه في بعض شأنكم. فما مر غير قليل حتى جاء برأس عزوك، فقد كمن له حين

خرج يطلب غرة من المسلمين، ومعه جماعة، فشد عليه فقتله، وفر من كان معه. فأرسل رسول الله مع علي عشرة أبطال، منهم أبو دجانة وسهل بن حنيف، فأدركوا الجماعة الذين كانوا مع عزوك فقتلوهم وأتوا برؤوسهم. واستمر الحصار بضعاً وعشرين ليلة. وكان في تلك المدة يجاء بالتمر لمؤونة المسلمين من نخيل سعد بن عبادة.

وأمر رسول الله بقطع النخيل وبحرقها، بعد أن حاصرهم ستّ ليالٍ. واستعمل على ذلك أبا ليلى المازني، وعبد الله بن سلام، وكان أبو ليلى يقطع العجوة، وعبد الله يقطع اللين. وجميع ما قطعوه وحرقوه ست نخلات. ولما شاهدت نساء اليهود الشروع في قطع النخيل، شققن الجيوب، وضربن الخدود، ودعون بالويل. وذلك النخل الذي حرقوه كان بالبويرة، «تصغير بؤرة» فاحتج اليهود وقالوا: يا محمداً قد كنت تنهي عن الفساد، وتعيبه على من صنعه، فما بال قطع النخيل وتحريقها؟ وهل وجدت فيما زعمت، أنه أنزل عليك الفساد في الأرض؟ وخاطبوا المؤمنين: إنكم تكرهون الفساد، وأنتم تفسدون! فوقع في نفوس بعض المسلمين من ذلك شيء، وهنا نزلت الآية: ﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ[1] أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾[2].

إجلاء بني النضير عن المدينة

وما زال عبد الله بن أبي يبعث إلى بني النضير يغريهم، ويعدهم، ويخيفهم، ويقول لهم: اثبتوا وتمنعوا، فإنكم إن قوتلتم وثبنا إليكم، وقاتلنا معكم، وإن أخرجتم خرجنا معكم، فانتظروا ذلك. ورسول الله يطاولهم بالحصار، ويضيق عليهم حتى حصل لهم اليقين: أن عبد الله بن أبي خاذلهم، فجعل سلام بن مشكم وكنانة بن صوريا، يقولان لحيي بن أخطب: أين نصر ابن أبي الذي زعمت؟ فقال حيي: إن هي إلا ملحمة كتبت علينا.

---

(١) اللينة: كل نوع من النخل.

(٢) سورة (الحشر) الآية: (٥).

ولما يئسوا سألوا رسول الله: أن يجليهم ويحقن دماءهم، واشترطوا لأنفسهم، أن لهم من أموالهم ما حملت الإبل، إلا الحلقة «والسلاح» فقبل ﷺ شرطهم. فاحتملوا النساء والصبيان، وحملوا من الأموال ما استقلت به الإبل، فأوقروا حمل ستمئة بعير، بحيث كان الرجل منهم، يهدم بيته عما استحسن من خشبه، كبابه وأسكفته، فيضعه على ظهور بعيره. وينقضون العمد والسقوف، وينزعون الأوتاد، وينقضون الجدران، حتى لا يسكنها المسلمون. وانطلقوا مظهرين التجلد، وخرجت النساء على الهوادج، وعليهن الديباج والحرير، وقطف[1] الخز الأخضر والأحمر، وحلي الذهب والفضة، وخلفهم القيان بالدفوف والمزامير، ومنهن سلمى أم وهب. قال ابن إسحاق: أم عمرو: صاحبة عروة بن الورد[2] «غار عروة علي قومها فسباها منهم، ثم اتخذها حليلة له فجاءت منه بأولاده. ثم إن بعض بني النضير سقى عروة الخمر، واشتراها منه ولما أفاق ندم. ثم اتفق هو ومن اشتراها على أن تكون عند من تختاره، فخيرها وكان لا يظن أن تختار عليه أحداً، فاختارت عليه الرجل من قومها، فندم. وعند مفارقتها له قالت: والله لا أعلم امرأة من العرب، أرخت ستراً على بعل مثلك، أغض طرفاً، ولا أندى كفاً، ولا أغنى غناء، وإنك لرفيع العماد، كثير الرماد، خفيف على ظهور الخيل، ثقيل على متون الأعداء، وأحنى الأهل والجار. وما كنت لأوثر عليك أهلي، لولا أني كنت أسمع بنات عمك، يقلن: قالت أم عروة، وفعلت أم عروة، فأجد من ذلك الموت[3]. والله لا يجامع وجهي وجه أحد من أهلك. فأستوصي ببنيك خيراً، ثم تزوجت في بني النضير، وعادت إلى يهوديتها».

---

(١) (القطف) جمع قطيفة: دثار مخمل، أو كساء له خمل. اللسان.

(٢) الفقرة بين هلالين، من الشيخ رحمه الله.

(٣) أي: لا يكنونها بأولادها من عروة، استنكافاً من يهوديتها، وإنما يكنّونها بعروة، كأنّهم يقولون: (صاحبة عروة)، وتلك مسبّة في نساء العرب. والمفخرة في التكنية بالأولاد. المحقق.

ومرّوا يشقون أسواق المدينة، وصف لهم الناس، فجعلوا يمرون قطاراً في إثر قطار. وإن سلام بن أبي الحقيق «المرابي» رجع معه جلد جمل، مملوء حلياً. وينادي بأعلى صوته: هذا أعددناه لرفع الأرض وخفضها، وإن كنا تركنا نخلاً ففي خيبر النخل «وهذا الحلي كانوا يكرونه للعرب من أهل مكة وغيرهم».

فمنهم من سار إلى خيبر، ومن جملة هؤلاء أكابرهم: حيي بن أخطب، وسلام بن أبي الحقيق، وكنانة بن أبي الربيع بن أبي الحقيق، ومنهم من سار إلى الشام «إلى أذرعات» وكان فيهم جماعة من الأنصار «المتهودين» فإن المرأة من الأنصار إذا لم يعش لها ولد، تنذر إن عاش لها ولد تهوده. فلما أجلي بنو النضير، قال آباء أولئك: لا ندع أبناءنا يذهبون مع اليهود، فأمر الله نبيه لترك الخيرة لأنفسهم، فمن شاء منهم اتبع قومه ومن شاء اتبع أهل دينه. فقال: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ﴾[1].

ولم يسلم من يهود بني النضير إلا رجلان، وهما: يامين بن عمير، وأبو سعد بن وهب. فنزلا من الليل، وأسلما، وجعل يامين لرجل من قيس جعلا، وهو عشرة دنانير، وقيل: خمسة أوسق من تمر، على قتل عمرو بن جحاش، الذي أراد أن يلقي الحجر على رسول الله. وكان سبباً لإجلاء النضريين فقتله غيلة. ونزل في أمر بني النضير سورة الحشر. وكان ابن عباس يسميها، كما جاء في البخاري سورة بني النضير «الحشر: الجلاء» والسورة المذكورة أوثق تاريخ لهذه الواقعة.

اختصاص النبي بفيء بني النضير

وبعد جلاء النضريين، ضبطت متروكاتهم، فكانت من السلاح خمسين درعاً، وخمسين بيضة، وثلاثمئة وأربعين سيفاً. ولم يخمس ذلك رسول الله، كما خمس أموال بني قينقاع، فقال له عمر: يا رسول الله! ألا تخمس ما

(١) سورة (البقرة) الآية: (٢٥٦).

أصبت؟ كما فعلت في بني قينقاع. فقال: لا أجعل شيئاً جعله الله لي، دون المؤمنين بقوله تعالى:

﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾[1].

فكان أموال بني النضير وعقارهم فيئاً لرسول الله خاصة.

وميرت[2] القرى ببني النضير وخيبر بثلاث حصون منها، وهي: الكتيبة، والوطيح، وسلالم، وفدك، ونصف. كما جاء في الإمتاع. وهذا أول فيء اختص به رسول الله. ولم يقسمه قسمة الغنيمة.

التصرف الحكيم وسياسة الإقناع

وبعد أن تمّ الجلاء، وضبطت المخلفات، دعا رسول الله الأنصار من الأوس والخزرج، فحمد الله وأثنى عليه، ثم ذكر الأنصار وما صنعوا بالمهاجرين، من إنزالهم في منازلهم، وإيثارهم على أنفسهم بأموالهم. ثم قال:

إنّ إخوانكم المهاجرين ليس لهم أموال، فإن شئتم قسمت هذه الأموال التي أفاء الله بها علي، مع أموالكم بينكم جميعاً. وإن شئتم أمسكتم أموالكم، وقسمت هذه فيهم خاصة، وخرجوا من دوركم وأموالكم.

«لما قدم المهاجرون من مكة إلى المدينة، قدموا وليس بأيديهم شيء من الأموال، وكان الأنصار أهل الأرض والعقار، فآثروهم بمتاع من أشجارهم. فمنهم من قبلها يتيمة «محضة» ويكفونه العمل، ومنهم من قبل بشرط أن يعمل في الشجر والأرض، وله نصف الثمار، ولم تطب نفسه أن يقبلها منحة محضة، لشرف نفوسهم، وكراهتهم أن يكونوا كلاً على غيرهم».

فتكلم السعدان: سعد بن عبادة، وسعد بن معاذ، على لسان الأنصار،

---

(١) سورة (الحشر) الآية: (٧).

(٢) من (الميرة) وهي جلب الطعام، أي: بثلاث حصون من الخمسة المذكورة.

فقالا: يا رسول الله! تقسم فيء بني النضير بين المهاجرين، ويكونون في دورنا كما كانوا، بل نحب أن نقسم ديارنا وأموالنا على المهاجرين، الذين زتركوا ديارهم وأموالهم وعشائرهم، وخرجوا حباً لله ورسوله. ونؤثرهم بالغنيمة ولا نشاركهم فيها. وتصايحت الأنصار: سلمنا ورضينا. يا رسول الله!

فقال رسول الله: اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار. وقال أبو بكر: جزاكم الله يا معشر الأنصار خيراً. وفيهم نزلت الآية:

﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[1].

فقسم رسول الله المواشي والنخيل بين المهاجرين المحتاجين، ولم يعمّ، وأعطى رجلين من الأنصار كانا محتاجين، وهما: سهل بن حنيف وأبو دجانة. وأهدى سعد بن معاذ سيف ابن أبي الحقيق أحد سادات بني النضير، وكان لهذا السيف ذكر عندهم.

وكان رسول الله يزرع أرضهم التي تحت النخل، فيدخر من ذلك قوت أهله سنة، وما فضل يجعله في الكراع[2] للخيل والعسكر، عدة في سبيل الله. ولم يقسم كل الأرض، وإنما أقطع منها ضياعاً لأبي بكر وعمر، وعبد الرحمن بن عوف، وصهيب، وأبي سلمة بن عبد الأسد، والزبير. وترك ما بقي لنفقته ولمصالح المسلمين، التي منها الصدقات.

ولما أعطى المهاجرين، أمر من أخذ منهم، برد ما كان بيده من نخيل الأنصار، واستغنائهم عنها، لأنهم لم يكونوا ملكوهم ذلك، وإنما كانوا سلموهم لها للانتفاع بثمرها. وظنت أم أيمن أن ما كان بيدها من النخلات ملك لها، فامتنعت من ردها لأم أنس، التي كانت سلمتها لرسول الله فأعطاها لأم أيمن، فظنت أن ذلك ملك، ولكي يستردها جعل يعطيها وهي تمتنع من ردها، إلى أن أعطاها عشرة أمثالها أو قريباً من ذلك. فرد

---

(١) سورة (الحشر) الآية: (٩).

(٢) (الكراع): الخيل، والسلاح.

المهاجرون للأنصار ما كان عندهم من النعائم، منحوهم إياها لاستثمارها. وقد وقع مثل ذلك في خيبر، كما سيأتي.

بنو محارب وبنو ثعلبة يجمعون غطفان على محاربة المسلمين[1]

ذكر ابن إسحاق: أن رسول الله أقام في المدينة، بعد جلاء بني النضير، شهر ربيع الأول. وقال غيره من رواة السيرة: شهري ربيع، وبعض جمادى. فبلغه أن بني محارب وبني ثعلبة، يؤلبون عليه غطفان، وقد جمعوا الجموع، وتصدوا لحربه، فخرج إليهم في جند من الصحابة. اختلف الرواة في عدده من أربعمئة إلى ثمانمئة. واستخلف على المدينة عثمان بن عفان. وسار ﷺ حتى بلغ نجداً ولم يجد أحداً ممن بلغه عنهم، ووجد نسوة فأخذهنّ، ثم لقي

---

(١) احتج البخاري وذكر أن هذه الغزوة كانت بعد خيبر، لا قبلها. وقال: شهدها أبو موسى الأشعري، بما رواه عنه فيها. وهو لم يعد من الحبشة إلا بعد خيبر. ويذهب بعض كتاب السيرة إلى القول بتكرارها. وذكرها الشمي الشامي بعد خيبر. وأغلب كتاب المغازي على تقديمها، وهم مختلفون في تقدير تاريخها.
ويسمّى كتاب المغازي هذه الغزوة بـ(ذات الرقاع) والسبب في تسميتها، ما نقل عن أبي موسى الأشعري قال: خرجنا مع رسول الله في هذه الغزوة ستة نفر، بيننا بعير، فتعبت أقدامنا، فكنا نلف على أرجلنا الخرق. وقيل: سميت بذلك باسم شجر في ذلك المحل يقال لها: ذات الرقاع. وقيل: لأنهم رقعوا راياتهم. وقيل: لأن الجبل الذي نزلوا كانت أرضه ذات ألوان تشبه الرقاع، فيه بقع حمر وسود وبيض، وقيل: لأن الصلاة رقعت فيها. المؤلف.
في سيرة (ابن هشام) ورواية عن (ابن إسحاق) إضافة إلى ما ذكره المؤلف في أوجه تسمية الغزوة بـ(ذات الرقاع) فقال: «وقال الزرقاني في (شرح المواهب) بعدما ساق كلاماً لا يخرج عن هذا: «وهي غزوة محارب، وغزوة بني ثعلبة، وغزوة بني أنمار، وغزوة صلاة الخوف (وهو ما يعنيه، رقعت الصلاة فيها). وغزوة الأعاجيب، لما وقع فيها من الأمور العجيبة».
أما ما ورد في هامش المؤلّف من قول (أبي موسى الأشعري): «خرجنا مع رسول الله في هذه الغزوة، ستة نفر، بيننا بعير» فهو يقصد أنه هو وأصحابه يتعاقبون على بعير واحد. أما تعداد الجيش، فقد ورد لاحقاً بأنه بين الأربعمئة والثمانمئة» المحقق.

جمعاً، فتقارب الجمعان، ولم يكن بينهما حرب. ثم سار إلى أن استقبل شعباً، ولما أدركه الليل نزله، فقال: من يكلؤنا هذه الليلة؟ فقام عباد بن بشر وعمار بن ياسر، فقالا: نحن يا رسول الله! فجلسا على فم الشعب، فقال عباد بن بشر لعمار بن ياسر: أنا أكفيك أول الليل، وتكفيني آخره. فنام عمار، وقام عباد يصلي. وكان زوج بعض النسوة التي أصابهن رسول الله غائباً، فلما جاء أخبر الخبر، فتتبع الجيش، وحلف لا ينثني حتى يصيب محمداً، أو يريق في أصحاب محمداً دماً. فلما رأى سواد عباد، قال: هذه ربيئة[1] القوم ففوق سهماً فوضعه فيه، فانتزعه عباد، فرماه بآخر، فانتزعه، وهو يصلي، ولم يقطع صلاته. فلما غلبه الدم، قال لعمار: اجلس، فقد أتيت. فلما رأى ذلك الرجل عماراً جلس، علم أنه قد نذر به فهرب. فقال عمار: أخي! ما منعك أن توقظني له في أول سهم رمى به. فقال: كنت أقرأ سورة الكهف فكرهت أن أقطعها. وقال عباد، وهو يعتذر عن إيقاظ صاحبه: لولا أني خشيت أن أضيع ثغراً أمرني به رسول الله، ما انصرفت، ولو أتي على نفسي.

جاء ليقتل صاحب الرسالة فآمن به

وذكر الرواة: أنه لما قفل رسول الله ﷺ راجعاً إلى المدينة وجهه هذا، أدركته القائلة بوادي كثير العضاه «الأشجار العظيمة التي لها شوك» وتفرق الناس تحتها يستظلون بها، ونزل رسول الله تحت شجرة ظليلة، قال جابر: تركناها له، فعلق سيفه فيها، فنمنا نومة، فإذا رسول الله يدعونا، فجئنا إليه فوجدنا عنده أعرابياً جالساً، فقال: إنّ هذا قد اخترط سيفي، وأنا نائم، فاستيقظت وهو في يده مسلطاً مسلولاً، قال: من يمنعك مني؟ قلت: الله. قال ذلك مرات. وهو عويثر بن الحارث، قال لقومه: ألا أقتل لكم محمداً؟ قالوا: بلى. وكيف تقتله؟ قال: أقتله غيلة. فجاء إليه فكان منه ما ذكرنا. ثم

(١) (الربيئة): الطليعة.

رد السيف إلى النبي. فقال: ما يمنعك مني؟ فقال كن خير آخذ. قال: تشهد أن لا إله إلاّ الله وأني رسول الله. قال: أعاهدك على أني لا أقاتلك، ولا أكون مع قوم يقاتلونك. فخلى سبيله فجاء إلى قومه فقالوا: ما وراءك؟ قال: جئتكم من عند خير الناس. وأسلم بعد، وكانت له صحبة. وفي هذه الواقعة نزلت الآية:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾[1].

ثم رجع ﷺ إلى مكة[2]، وكانت مدة غيبته خمسة عشر ليلة، وبعث جعال بن سراقة إلى المدينة، مبشّراً المسلمين.

مداعبة الرسول لجابر بن عبد الله ومزاحه

أبطأ جمل جابر، وكان في أخريات العسكر، فمر به ﷺ فقال: من هذا؟ فقلت: جابر بن عبد الله. قال: مالك؟ قلت: إني على جمل ثقال[3] فقال لجابر: أمعك قضيب؟ قلت: نعم، قال: أعطنيه. فضربه فزجره، فكان من ذلك السقام في أول القوم. قال جابر: فلقد رأيتني أكفه عن رسول الله حياء منه، لا يسبقه، وهو ينازعني خطامه، مع أني كنت أرجو أن يتأنّى معنا. فقال: بعنيه. قلت: هو لك. قال: بل بعنيه. قلت: بكم؟ قال: «ممازحاً»

---

(١) سورة (المائدة): الآية: (١١).

(٢) هذا سهو من المؤلف، رحمه الله، فإن فتح مكة لم يتمّ بعد، والرسول ﷺ لا يزال مستقراً بالمدينة، يتأهب لغزوة (بدر الآخرة) أو (بدر الموعد) كما سمّاها المؤلف. وبعث ابن سراقة إلى المدينة، مبشراً يؤيد هذا. ويؤيده أيضاً ما ورد في سيرة (ابن هشام) رواية عن (ابن إسحاق): «ولما قدم رسول الله ﷺ المدينة من غزوة الرقاع، أقام بقيّة جمادى الأولى، وجمادى الآخرة، ورجباً، ثم خرج في شعبان إلى بدر، لميعاد أبي سفيان، حتى نزله» المحقق. انظر (السيرة) الجزء (٣) صفحة (٢١٩ - ٢٢٠).

(٣) لعله يقصد: (ثقيل الخطا). و(ابن هشام) أوردها بهذه الصيغة: «قلت: يا رسول الله! أبطأني جملي هذا». المحقق.

خذ درهماً. فقال جابر: تبيعني[1] يا رسول الله؟ فلا يزال يزيده درهماً درهماً. فيقول جابر: أخذته بكذا وكذا، والله يغفر لك. ولم يزل كذلك، حتى قال: أخذته بأربعة دنانير، ولك ظهره إلى المدينة. فلما قدمنا المدينة قال: يا بلال! أقضه وزده، فأعطاه أربعة دنانير وقيراطاً. فدخل النبي المسجد، فدخلت إليه فعلفت الجمل في ناحية البلاط. فقلت: يا رسول الله! هذا جملك، فخرج ﷺ فجعل يطوف بالجمل، قال: الثمن والجمل لك. قال جابر: أعطاني الجمل، وسهمي مع القوم.

استئناف المسير إلى بدر الموعد

قدمنا أن في يوم الانصراف من أحد، تواعد أبو سفيان ورسول الله على اللقاء في بدر في الموسم القادم. ولما عاد رسول الله من ذات الرقاع أقام بقية جمادى الأولى إلى شوال سنة أربع من الهجرة، وكان ذو القعدة موسماً لبدر، يقصده العرب، يقيمون به ثمانية أيام. فتجهز رسول الله في ألف وخمسمئة من الصحابة. وكان الخيل عشرة أفراس.

وعند تهيؤ المسلمين للخروج قدم نعيم بن مسعود الأشجعي إلى مكة. وكان ذلك قبل إسلامه. وأخبر قريشاً أن المسلمين تهيؤوا للخروج لقتالهم ببدر، فكره أبو سفيان الخروج لذلك، وجعل لنعيم إن رجع إلى المدينة، وخذل المسلمين عن الخروج لبدر، عشرين بعيراً. وحمله على بعير، وقال له أبو سفيان: بدا لي ألا أخرج، وأكره أن يخرج محمد ولا أخرج أنا. فيزيدهم ذلك جرأة. فلأن يكون الخلف منهم، أحب إلى من أن يكون من قبلي. فالحق بالمدينة، وأعلمهم أنا في جمع كثير ولا طاقة لهم بنا، ولك عندي من الإبل كذا وكذا، أدفعها لك على يد سهيل بن عمرو. فجاء نعيم إلى سهيل بن عمرو، فقال له: يا أبا يزيد! تضمن لي هذه الإبل؟ وأنطلق إلى محمد وأثبطه؟ قال: نعم. فقدم نعيم للمدينة، وأرجف بكثرة جموع أبي

---

(١) عن سيرة (ابن هشام): «تغبنني يا رسول الله» وهو أصح. المحقق.

سفيان، وصار يطوف فيهم، حتّى قذف الرعب في قلوب المسلمين، ولم يبق لهم نيّة في الخروج واستبشر المنافقون واليهود بذلك، وقالوا: محمد لا يفلت من هذا الجمع. ووقع الإرجاف بهذا الخبر في المدينة. فجاء أبو بكر وعمر إلى النبي ﷺ، وقد سمعا ما أرجف به المسلمون. وقالا: يا رسول الله! إن الله مظهر نبيه ومعز دينه. وقد وعدنا القوم موعداً لا نحب أن نتخلف عنه، فيرون أن هذا جبن. فسر لموعدهم. فوالله إن في ذلك لخيرة. فسر رسول الله ﷺ بذلك. ثم قال: والذي نفسي بيده! لأخرجن وإن لم يخرج معي أحد. فأذهب الله بكلماته عن المسلمين ما كانوا يجدون. وحمل لواء الرسول علي بن أبي طالب، وخرج معهم بتجارات إلى بدر، فربحت الضعف.

ولما أوفد أبو سفيان نعيماً إلى المدينة، قال لقريش: لقد بعثناه ليخذل أصحاب محمد عن الخروج، ولكن الرأي أن نخرج نحن، نسير ليلة أو ليلتين، ثم نرجع. فإن كان محمد لم يخرج وبلغه أنا خرجنا فرجعنا لأنه لم يخرج، كان هذا عليه. وإن خرج أظهرنا أن هذا عام جدب ولا يصلحنا إلا عام خصب. قالوا: نعم ما رأيت. ثم تجهزوا للرحيل.

جيش السويق

فخرج أبو سفيان من مكة ومعه ألفان من قريش، وخمسون فارساً، حتى انتهوا إلى المجنّة «سوق معروف بمكة من ناحية مر الظهران» والرعب يأكل قلوب جيش قريش، فقام أبو سفيان وخطب فيهم فقال: يا معشر قريش! لا يصلحكم إلا عام خصب، ترعون فيه الشجر، وتشربون فيه الماء. وإن عامكم هذا عام جدب، وإني راجع فارجعوا. وما صدقوا أن تسمعوا هذا الخطاب حتى انقلبوا لواذاً[1] راجعين إلى مكة، فسماهم العامة يومئذ: جيش السويق. يقولون لهم: لم تخرجوا لقتال محمد، وإنما خرجتم لتشربوا السويق.

(١) (لواذاً): لجوءاً.

جيش الإيمـــان

سار رسول الله بجيش المؤمنين، وهم يقطعون المراحل جذلين، وقد لقيهم في طريقهم نفر من عبد القيس، كانوا قاصدين المدينة، في هيئة تجار للميرة، جاعلهم أبو سفيان على حمل أبعرتهم زبيباً إن هم خذلوا المسلمين، وردوهم عن بدر. فلما التقوا بهم في الطريق، وسألوهم عن قريش؟ قالوا لهم: تركناهم قريباً من بدر، وكأننا بهم وقد ملؤوها. يريدون رعبهم وإرهابهم. فقالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل. وكانوا لا يلاقون في طريقهم إلا المرجفين. والإرجاف لا يزيدهم إلا إيماناً وتثبيتاً. فأنزل الله تعالى فيهم مقرظاً إيمانهم وثباتهم:

﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾[1].

ولم يزالوا كذلك، حتى انتهوا إلى بدر. وهل هلال ذي القعدة، وقام السوق صبيحة الهلال، فأقام المسلمون ثمانية أيام، والسوق قائمة، فلا ينازعهم فيها أحد، ونالوا من الفوز على عدوهم، فوق ما ناله من الذل وانكسار النفس. ثم قفل ﷺ راجعاً إلى المدينة.

وبلغ قريشاً خروج المسلمين لبدر، وكثرتهم، وأنهم كانوا أصحاب الموسم، وأن إقبال العرب عليهم كان عظيماً. والمخبر لهم بذلك: معبد بن أبي سعيد الخزاعي، فإنه بعد انقضاء الموسم، أسرع إلى مكة مخبراً لهم بذلك.

فقال صفوان بن أمية لأبي سفيان: قد والله نهيتك يومئذ، أن تعد القوم، وقد اجترؤوا علينا، ورأونا أخلفناهم، وإنما خلفنا الضعف. فسقط في أيديهم، وما يلقون إلا نكالاً وتثبيراً.

تأديب لصوص دومـة الجندل

بينها وبين المدينة سير خمس عشرة ليلة، وهي قريبة من تبوك. بلغ

(١) سورة (آل عمران) الآية: (١٧٣).

رسول الله أن بها جمعاً كثيراً، يقطعون السابلة على القوافل، ويؤذون كل من حولهم من المسافرين، يريدون مهاجمة المدينة. فرأى أن من مصلحة الإسلام تأديبهم، وتأمين طريق المواصلة بين الشام والمدينة، فندب المسلمين لحربهم، فخرج في ألف من المقاتلين، وذلك أواخر السنة الرابعة من الهجرة. واستخلف على المدينة سباع بن عرفطة الغفاري، فكان يسير الليل، ويكمن النهار. ومعه دليل له من بني عذرة يقال له: مذكور، فلما دنا منهم، جالبهم الخبر، فتفرقوا. فهجم على ماشيتهم ورعاتهم، فأصاب من أصاب، وفر من فر. ونزل بديارهم، فلم يلق بها أحداً، فبعث السرايا تتعقبهم، فرجعت بالغنائم دون أن تظفر بهم. وأخذ محمد بن سلمة رجلاً منهم، جاء به إلى النبي ﷺ فسأله عن أولئك العائثين؟ فقال: هربوا على وجوههم، لما سمعوا بك. فعرض عليه الإسلام، فأسلم.

إنّ شرّ الناس من تركه الناس اتقاء فحشه

لما قفل ﷺ إلى المدينة، مر في طريقه بعيينة بن حصن، واسمه حذيفة الفزاري، وكان يرعى مواشيه بمحل بينه وبين المدينة ستة وثلاثون ميلاً، حيث أجدبت أراضيه فوادعه ﷺ على ذلك، وأمنه.

ولما سمن حافره وخفه، وعاد إلى أرضه، نكث العهد، وغزا إبل رسول الله، وهي ترعى بالغابة. فقيل له: بئس ما جزيت به محمداً، أحلّك أرضه، حتى سمن حافرك وخفك، وتفعل معه ذلك؟ قال: هو حافري.

ويقال له: الأحمق المطاع، كان يتبعه عشرة آلاف قناة. ودخل مرة على النبي بغير إذن، وأساء الأدب، فصبر على سفاهته، وقال فيه: إن شر الناس من تركه الناس اتقاء فحشه.

أسلم بعد الفتح، وشهد حنيناً والطائف، وكان من المؤلفة قلوبهم، وقد ارتد بعد ذلك في زمن الصديق، فإنه لحق بطليحة بن خويلد حين تنبأ وآمن به. فلما هرب طلحة، أسره خالد بن الوليد. وأرسل به إلى الصديق في وثاق. فلما دخل المدينة، صار الأولاد يجرون خلفه، وينخسونه بالحديد،

ويضربونه، ويقولون: ويك. كفرت بالله بعد إيمانك؟! فيقول: والله! ما كنت آمنت. فأسلم، ولم يزل مظهراً الإسلام إلى أن مات.

نزول آيـة الحجاب

نزلت آية الحجاب في السنة الرابعة من الهجرة بعد زواجه ﷺ[١] وفيها قصرت الصلاة. وشرع التيمم، وجرى العمل برجم المحصن.

تجهيز الحارث بن ضرار سيد جذيمة لحرب رسول الله

«جذيمة هم المصطلق، وهم بطن من خزاعة، يقيمون على ماء اسمه المريسع[٢] وهي في ناحية قديد».

بلغ رسول الله ﷺ أن الحارث بن ضرار سيد بني المصطلق «وهو من الصلق[٣] رفع الصوت» جمع لحرب رسول الله من قدر عليه من قومه ومن العرب. فانتدب له بريدة بن الحصيب ليعلم علم ذلك. واستأذن بريدة أن يقول ما يتخلص به من شرهم. فأذن له رسول الله بذلك. فخرج حتى ورد عليهم ورأى جمعهم، فقالوا له: من الرجل؟ قال: منكم. قدمت لما بلغني من جمعكم لهذا الرجل، فأسير في قومي، ومن أطاعني، فنكون يداً واحدة حتى نستأصلهم. فقال له الحارث: فنحن على ذلك. فعجل علينا. قال بريدة: أركب الآن فآتيكم بجمع كثير من قومي. فسروا بذلك منه، ورجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره خبر القوم.

فبادر رسول الله ﷺ قبل أن يغزوا المدينة، فندب المقاتلين للخروج إلى

---

(١) زواجه ﷺ من زينب أم المؤمنين رضي الله عنها.

(٢) أورده (ابن هشام) باسم (المريسيع) بياءين. وهو الصحيح. وكذلك هو في (معجم البلدان).

(٣) قال صاحب (القاموس): «والمصطلق: لقب جذيمة بن سعد بن عمرو، سمّي لحسن صوته. وكان أول من غنّى في خزاعة». المحقق.

المريسع، فأسرعوا الخروج. وكان ذلك لليلتين خلتا من شعبان، سنة خمس من الهجرة. خلافاً للبخاري. وأكثر المحدثين على أنها سنة ستّ. وقادوا الخيل؛ وهي ثلاثون فرساً، عشرة للمهاجرين، فرسان منها للرسول: اللزاز، والضرب، وعشرون للأنصار. واستخلف على المدينة زيد بن حارثة، وقيل غيره. وخرج معه من نسائه: عائشة، وأم سلمة. وخرج معه ناس كثير من المنافقين، لم يخرجوا قط في غزوة مثلها. منهم ابن أبي بن سلول، وزيد بن الصلت، ليس غرضهم الجهاد، وإنما الإصابة من عرض الدنيا، مع قرب المسافة. وسار ﷺ حتى بلغ محلاً نزل به. فأُتي برجل من عبد القيس، فسلم على رسول الله، فقال له: أين أهلك؟ قال: بالروحاء. قال: أين تريد؟ قال: إياك جئت، لأومن بك، وأشهد أن ما جئت به حق، وأقاتل معك عدوك.

وسأل الرجل الرسول فقال: أي الأعمال أحب إليك؟ فقال: الصلاة لأول وقتها. فكان بعد ذلك يصلي الصلاة لأول وقتها. وأصاب عيناً للمشركين، وجهه الحارث ليأتيه بخبر رسول الله ﷺ فسأله عنهم، فلم يذكر من شأنهم شيئاً. فعرض عليه الإسلام، فأبى، فأمر رسول الله عمر بن الخطاب أن يضرب عنقه. فضربه.

فلما علم الحارث بمقدم رسول الله، وأنه قتل جاسوسه، سيء بذلك ومن معه، وخافوا خوفاً شديداً، وتفرق عنه جمع كثير ممن كان معه. فوصل ﷺ إلى المريسع فضربت له قبه من أدم وكان معه فيها زوجتاه عائشة وأم سلمة. فتهيأ المسلمون للقتال، ودفع ﷺ راية المهاجرين إلى أبي بكر وراية الأنصار إلى سعد بن عبادة. وأمر رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب أن ينذرهم، فإن شهدوا أن لاإله إلا الله، يمنعوا بها أنفسهم وأموالهم. ففعل عمر ذلك. فأبوا. فتراشقوا بالنبل ساعة. ثم أمر رسول الله أصحابه بالهجوم، وكان شعار المسلمين: يا منصور أمت[1]. فحملوا حملة رجل

---

(١) كثيراً ما وردت هذه الكلمة شعاراً للمسلمين في قتالهم. فهل هي فعل أمر من الموت: (يا منصور. اقتل)؟. المحقق.

واحد، فما أفلت منهم إنسان، وقتل منهم عشرة، وأسر الباقون رجالاً ونساء وأطفالاً، واستاقوا إبلهم وشياههم. فكانت الإبل ألفي بعير، والضان خمسة آلاف شاة. واستعمل على ذلك مولاه شقران، واسمه صالح، وكان حبشياً. وبلغ السبي من النساء مئتين، وقيل: أكثر من سبعمئة. وكانت برة بنت الحارث ـ سيد بني المصطلق ـ في جملة السبي، سباها علي بن أبي طالب. وأمر رسول الله ﷺ بالأسرى فكتفوا، واستعمل عليهم بريدة. ثم فرق السبي فصار في أيدي الناس. وبعث ﷺ أبا ثعلبة الطائي بالفتح إلى المدينة من المريسع، وجمع المتاع الذي وجده في رحالهم، والسلاح والنعم والشاه. وعدلت الجزور بعشرة من الغنم. ووقعت برة بنت الحارث في سهم ثابت بن قيس وابن عم له. فجعل ثابت لابن عمه نخلات له بالمدينة، في حصته من برة. وكاتبها علي تسع أواق من ذهب.

فدخلت على رسول الله، وكانت ابنة عشرين سنة. فقالت له: يا رسول الله. إني امرأة مسلمة، أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله. وإني برة بنت الحارث سيد قومه. أصابنا من الأسر ما قد علمت، ووقعت في سهم ثابت بن قيس وابن عم له، وخلصني ثابت من ابن عمه بنخلات له في المدينة، وكاتبني علي ما لا طاقة لي به، وإني رجوتك فأعني في مكاتبتي. فقال الرسول: أو خير من ذلك؟ قالت: ما هو؟ قال: أؤدي عنك كتابتك وأتزوجك. قالت: نعم يا رسول الله! قد فعلت. فأرسل رسول الله إلى ثابت بن قيس، فطلبها منه. فقال ثابت: هي لك يا رسول الله! بأبي أنت وأمي. فأدّى رسول الله ما كان كاتبها عليه، وأعتقها، وتزوجها، وسماها جويرية[1].

---

(١) أضاف الشيخ ـ رحمه الله ـ بعد هذا فقرة بعنوان (العزل من الوأد). ثم أحاطها بخط مربع، ولكنه لم يشطبها، ولا أشار إلى موقع آخر لها. فرأيت إثباتها في الهامش. وهي بالنص التالي:
«روى أصحاب السير، عن أبي سعيد الخدري، قال: غزونا مع رسول الله غزوة المصطلق، فسبينا كرائم العرب، واقتسمناها، وملكناها. فطالت علينا الغربة، =

وفي الإمتاع: لما تزوج رسول الله جويرية، خرج الخبر إلى الناس، وقد اقتسموا رجال بني المصطلق، وملكوهم، ووطئوا نساءهم. فقالوا: أصهار النبي ﷺ فأعتقوا ما بأيديهم من ذلك السبي.

وعن جويرية قالت: لما أعتقني رسول الله، وتزوجني، والله ما كلمته في قومي، حتى كان المسلمون هم الذين أرسلوهم، وما شعرت إلا بجارية من بنات عمي، تخبرني الخبر، فحمدت الله تعالى وكان النبي لأهلها مئتي بيت. منهم من منّ عليه رسول الله بغير فداء. ومنهم من افتدى. وفي كلام عائشة أن الإعتاق كان لأهل مئة بيت. وعليه فالإطلاق كان لأهل الأخرى. ثم بعد ذلك أسلم بنو المصطلق جميعاً. وبعد عامين بعث إليهم رسول الله الوليد بن عقبة بن أبي معيط، لأخذ الصدقة «الزكاة»، وكان بينهم وبينه شحناء في الجاهلية، فخرجوا للقائه، وهم متقلدون السيوف فرحاً وسروراً بقدومه، فتوهم أنهم خرجوا لقتاله، ففر راجعاً وأخبر رسول الله بأنهم ارتدوا، فهم بقتالهم، وأكثر المسلمون ذكر غزوهم. فأرسل إليهم خالد بن الوليد يتعلم أحوالهم، وقال له: كن معهم عند الصلاة، فإن تركوها فشأنك بهم. فدنا منهم عند غروب الشمس، فكمن حيث يسمع الصلاة، فإذا هو بالمؤذن قد قام حين غربت الشمس، فأذن ثم أقام الصلاة، فصلوا المغرب، ثم لما غاب الشفق أذن مؤذنهم، ثم أقام الصلاة فصلوا العشاء، ثم لما كان جوف الليل فإذا هم يتهجدون، ثم عند طلوع الفجر أذن مؤذنهم، فأقام الصلاة فصلوا. فلما انصرفوا وأضاء النهار فإذا هم بنواحي الخيل في ديارهم، فقالوا: ما هذا؟ قيل لهم: خالد بن الوليد. فقالوا: يا خالد ما شأنك؟ قال: أنتم والله شأني. أتي النبي، فقيل له: إنكم تركتم الصلاة

= والشوق إلى النساء، فرغبنا في الفداء، فأردنا أن نستمتع ونعزل، فقلنا: نفعل ذلك. وقلنا: نعزل، ورسول الله بين أظهرنا؟ فسألناه عن ذلك؟ فقال: لا عليكم أن تفعلوا ما كتب الله خلق قمحة، قدرها، هي كائنة إلى يوم القيامة، إلا ستكون. وفي رواية الإمام مسلم: سألوه ﷺ عن العزل، فقال: «ذلك الوأد الخفيّ» كان يفعله الجاهلية، خوف الإملاق، أو خوف حصول العار.

وكفرتم بالله. فجثوا أمامه يبكون، وقالوا: معاذ الله! وهذا الولي بيننا وبينه شحناء في الجاهلية، فخرجنا نكرّمه ونؤدّي مالنا من الصدقة، وإنما خرجنا بالسيوف خشية أن يكافئنا بالذي كان بيننا وبينه. فرد الخيل عنهم، ورجع إلى رسول الله فأخبره بخبرهم. وفي هذه الواقعة نزلت الآية[1]: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ ﴾.

ولم يقتل في هذه الواقعة من المسلمين إلا رجل واحد من المهاجرين، وهو هشام بن صبابة، قتله آخر من الأنصار خطأ، فظنه من العدو. وقدم أخو المقتول من مكة إلى المدينة مظهراً الإسلام، وقال: جئت أطلب دية أخي، فأمر رسول الله له بدية أخيه. وهي مئة من الإبل فأخذها وأقام عند رسول الله غير كثير، ثم عدا على قاتل أخيه فقتله، وخرج إلى مكة مرتداً، وقد أهدر دمه ﷺ يوم فتح مكة، فقتل.

إثـارة ابن أبي بن سلول للفتنـة باسم الوطنية

وبعد انتهاء واقعة المصطلق، وكان المسلمون على الماء، حين رجوعهم إلى المدينة، اختصم أجير لعمر بن الخطاب، كان يقود له فرساً اسمه (جهجاه) وحليف لعبد الله بن أبي بن سلول، وهو سنان بن فروة. فكسع[2] «دفع» أجير عمر، حليف الخزرج. فنادى سنان بن فروة: يا للخزرج! ونادى جهجاه: يا لكنانة! يا لقريش! فأقبل جمع من الفريقين، وشهروا السلاح. حتى كاد أن تكون فتنة عظيمة، فخرج رسول الله فقال: ما بال دعوى الجاهلية؟ فأخبر بالحال فقال: «دعوا تلك الكلمة، فإنها فتنة[3]. من دعا

---

(١) سورة (الحجرات) الآية: (٦).

(٢) (كسعه): ضرب دبره بيده، أو بصدر قدمه. القاموس. المحقق.

(٣) وفي رواية «فإنها منتنة» أو «نتنة» ولم يتعرض (ابن هشام) لقولة الرسول هذه، وأضيفت على الهامش. المحقق. وفي طبعة (غ) للجزء الثاني من (معجز محمد) وردت بصيغة «منتنة».

دعوى الجاهلية، كان من محشيي جهنم» ثم كلموا ذلك المضروب، فترك ظلامته، فسكنت الفتنة.

وبلغت الحادثة عبد الله بن أبي بن سلول، وكان عنده رهط من قومه الخزرج من المنافقين، وفيهم زيد بن أرقم، رضي الله عنه، وهو غلام حديث السن. فقال عبد الله بن أبي، «والحقد يأكل قلبه»: والله ما رأيت كاليوم مذلة، وقد فعلوها. نافرونا وكاثرونا في بلادنا، وأنكرونا ملتنا. والله ما عدنا وجلابيب[1] قريش، إلا كما قال الأول في أمثالهم: «سمن كلبك يأكلك» ويقولون: «أجع كلبك يأكلك» والله لقد ظننت أني سأموت، قبل أن أسمع هاتفاً يهتف بما سمعت. لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل. يعني بالأعز نفسه، وبالأذل الرسول.

ثمّ أقبل على من حضر من قومه، فقال لهم: هذا ما فعلتم بأنفسكم، أحللتموهم بلادكم، وقاسمتموهم أموالكم. أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم، لتحولوا إلى غير داركم. ثم لم ترضوا بما فعلتم، حتى جعلتم أنفسكم أغراضاً للمنايا. فقاتلتم دونه. «يعني: رسول الله» فأيتمتم أولادكم، وقللتم وكثروا، فلا تنفقوا عليهم حتى ينفضوا من عند محمد.

ولما سمع ذلك زيد بن أرقم، حكاه لعمه، ثم مشى به إلى رسول الله فأخبره الخبر، وكان عنده نفر من المهاجرين والأنصار، فيهم عمر بن الخطاب فكره رسول الله ذلك، وتغير وجهه. وقال له: يا غلام! لعلك غضبت عليه؟ قال: والله، يا رسول الله! لقد سمعته منه. قال: لعله أخطأ سمعك. ولامه من حضر من الأنصار. قالوا: عمدت إلى سيد قومك تقول عليه ما لم يقل. وفي البخاري: فكذبني رسول الله ﷺ. وأصابني همٌّ لم يصبني مثله قط. وجلست في الخباء. فقال لي عمي: ما أردت إلا أن كذبك رسول الله ومقتك. فقال زيد: والله لقد سمعت ما قال، ولو سمعت هذه المقالة من أبي،

---

(١) (الجلابيب): جمع جلبيب وهو ما يجلب من بلد إلى غيره. وقيل: الجلابيب الأزر الغلاظ القليلة القيمة. ومراده: الغرباء الذين يعبرون عنهم اليوم بكلمة «الدخلاء». المؤلف

لنقلتها إلى رسول الله. وإني لأرجو أن ينزل الله على نبيه ما يصدق حديثي.

كيف يا عمر يتحدث النـــاس
بأن محمداً يقتل أصحابه؟

ولما تغير وجه رسول الله، رأى عمر رضي الله عنه أن يقتل ابن أبي. وحكى ذلك عن نفسه قال: لما كان من أمر ابن أبي ما كان، جئت رسول الله وهـو في فيء شجـرة، عنـده غليـم أسـود يغمـز ظهـره «يكبسـه» فقلـت: يا رسول الله! كأنك تشتكي ظهرك. فقال: تقحمت بي الناق الليلة «ألقته» فقلت: يا رسول الله! ائذن لي أن أضرب عنق ابن أبي، أو مر محمد بن مسلمة بقتله. فقال ﷺ: كيف يا عمر يتحدث الناس، بأن محمداً يقتل أصحابه؟! فقال عمر: وإن كرهت أن يقتله مهاجري، فأمر به أنصارياً، وأشار إلى عباد بن بشر! فقال ﷺ: ترعد له إذن أنف كثيرة بيثرب.

ولما بلغ الحباب رأي عمر في قتل أبيه، جاء إلى رسول الله، فقال: علمت أنك تريد قتل أبي، فيما بلغك عنه. فإن كنت فاعلاً، فمرني أن أحمل لك رأسه قبل أن تقوم من مجلسك هذا، وإني لأخشى أن تأمر به غيري، فيقتله، فلا تدعني نفسي أن أنظر إلى قاتل أبي، يمشي في الناس، فأقتله، فأدخل النار. فعفوك أفضل، ومنتك أعظم. فقال الرسول ﷺ: ما أردت قتله، ولا أمرت به، فترفق به، ولتحسن صحبته، ما كان بين أظهرنا. فقال الحباب: إن أبي كان أهل هذه البحيرة «يعني: المدينة» اتفقوا على أن يتوجوه عليهم، فجاء الله عز وجلّ بك، فوضعه، ورفعنا بك. ومعه قوم من المنافقين، يطيفون به، ويذكرونه أموراً، قد غلب الله عليها.

ولم يزل عبد الله يناوىء رسول الله ﷺ حتى مات، وحاول الحباب ابنه مرّة أخرى قتله، فمنعه رسول الله. فقد روى الدارقطني: أن رسول الله مرّ على جماعة فيهم عبد الله بن أبي، فسلّم عليهم، ثمّ ولّى. فقال عبد الله: لقد عثا ابن أبي كبشة في هذه البلاد. فسمعها ابنه الحباب فاستأذن رسول الله، في أن يأتيه برأس أبيه. فقال: لا، ولكن برّ أباك.

ثم أذن ﷺ بالرحيل، «كان ذلك في ساعة لم يكن يرتحل فيها» فإنه كان

لا يرحل إلا إن برد الوقت، وماذلك إلا لكي يصرف الناس عن الكلام في هذا الأمر، لأنه لم يكن لهم حديث غير ذلك.

وارتحل العسكر وسار رسول الله ﷺ، فجاءه أسيد بن حضير، فحياه بتحية النبوة قال: السلام عليك أيها النبي الكريم، ورحمة الله وبركاته. ثم سأل فقال: ما بالك رحلت في ساعة منكرة، ما كنت تروح في مثلها؟ فرد عليه ﷺ: أما بلغك ما قال صاحبكم؟ قال: أي صاحب يا رسول الله؟ قال: عبد الله بن أبي بن سلول. قال: ما قال؟ قال: زعم أنه إن رجع إلى المدينة أخرج الأعز منها الأذل. قال: فأنت والله يا رسول الله، تخرجه إن شئت، هو الذليل وأنت العزيز. ثم قال: ارفق به يا رسول الله! فوالله لقد جاء الله بك، وإن قومه ينظمون له الخرز، ليتوجوه، ما بقيت عليهم إلا خرزة واحدة عند يوشع اليهودي، فإنه ليرى أنك استلبته ملكاً.

ثم سار رسول الله بالجند سيراً حثيثاً. وصار يضرب ناقته بالسوط في «مراقها» أسفل بطنها، وسار يومهم ذلك وليلتهم، وصدر اليوم الثاني، حتى آذتهم الشمس، ثم نزل بالناس، فلم يلبثوا أن وجدوا مس الأرض حتى وقعوا نياماً، وإنما فعل ذلك لشغل الناس عما كان بالأمس، من حديث عبد الله بن أبي.

وذهب بعض الأنصار الذين سمعوا رد الرسول، على ما نقله زيد بن أرقم، إلى ابن أبي فقال له: يا أبا الحباب! إن كنت قلت ما نقل عنك، فأخبر به النبي ﷺ فليستغفر لك، ولا تجحده، فينزل فيك ما يكذبك. وإن كنت لم تقله، فأت رسول الله فاعتذر له، واحلف له ما قلته.

فمشى عبد الله بن أبي إلى رسول الله، فقال له رسول الله: إن كانت سبقت منك مقالة، فتب. فجعل يحلف بالله: ما قلت مقال زيد، وما تكلمت به. فقال بعض من حضر من الأنصار: عسى أن يكون الغلام وهم في حديثه، ولم يحفظ ما قال الرجل. وقال آخرون: يا رسول الله! شيخنا

وكبيرنا، لا يصدق عليه كلام غلام[1].

تعصف هذه الريح لموت منافق عظيم النفاق

ولما دنا ﷺ المدينة، هب إعصار شديد بحيث كاد يدفن الراكب، تخوف منه الجند على أهلهم؛ لأن مدة الوداعة التي كانت بين رسول الله، وبين عيينة بن حصن، كان ذلك حين انقضائها، فخافوا منه على المدينة، فقال لهم ﷺ: ليس عليكم منه بأس، ما بالمدينة من ثقب «باب» وما كان ليدخلها حتّى تأتوها، ولكن تعصف هذه الريح لموت منافق، عظيم النفاق. فكان كما قال، فقد مات في ذلك اليوم: رافع بن التابوت من عظماء يهود بني قينقاع؛ وهو ممّن أسلم ظاهراً. فقال عبادة بن الصامت لابن أبيّ: يا أبا حباب! مات خليلك. قال: أيّ خليل؟ قال: من موته فتح للإسلام وأهله. قال: من؟ قال: رافع بن التابوت. قال عبد الله: واويلاه! من أخبرك يا أبا الوليد بموته؟ قال: أخبرني بذلك رسول الله. فحزن عليه حزناً شديداً.

يدعي أنه يعلم الغيب ولا يعلم مكان ناقته!

وفقدت ناقته ﷺ (القصواء) وهي بمكانها من بين الإبل ليلاً، فجعل المسلمون يطلبونها في كل وجه، فقال زيد بن الصلت، وكان منافقاً وهو بمجمع من الأنصار: أنّى يذهب هؤلاء في كل وجه؟ قالوا: يطلبون ناقة رسول الله، قد ضلّت. قال: أفلا يخبر الله بمكانها! فأنكر عليه القوم. وقالوا: قاتلك الله. وأرادوا إيذاءه. فعمد هارباً إلى رسول الله، متعوذاً به. فقال ﷺ وهو يسمع: إن رجلاً من المنافقين، شمت، أن ضلّت ناقة رسول الله. وقال: ألا يخبره الله بمكانها! وإنها في الشعب، قد مسك زمامها

---

(١) الشيخ، رحمه الله، لم يستشهد بالآية التي نزلت في هذه الواقعة وهي قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ صدق الله العظيم. (المنافقون: ٨) ولكنه أشار فيما بعد إلى نزول سورة المنافقين جملة في هذه الواقعة.

بشجرة. فذهبوا وأتوا بها، فاستغفره فرضي عنه. ويقال: إنه لم يزل مبتلى من قولته، حتى مات.

مسابقة رسول الله لعائشة

عن عائشة رضي الله عنها، قالت: خرجت مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره وأنا جارية، لم أحمل اللحم، فقال للنّاس: تقدموا. فتقدّموا. ثم قال: تعالي حتى أسابقك، فسابقته فسبقته. فسكت عنّي حتى حملت اللحم، وخرجت معه في سفرة أخرى «وكانت غزوة بني المصطلق» فقال للنّاس: تقدموا. فتقدموا. ثم قال لي: تعالي حتى أسابقك. «قالت: فتحزّمت بخبائي، وتحزّم» فسابقته فسبقني، فجعل يضحك وهو يقول: هذه بتلك.

والله لا تدخل المدينة حتى تقرّ أنّك الذليل

ولمّا انتهى رسول الله إلى وادي العقيق، تقدم الحباب بن عبد الله بن أبيّ وجعل يتصفح الركاب، حتى مرّ أبوه، فمسك بخطام ناقته، وأناخ به ثم وطأ على يد راحلته، فقال أبوه: ما تريد يا لكع؟ فقال: والله لا تدخل المدينة حتى تقر أنك الذليل، وأن رسول الله ﷺ العزيز. وحتى يأذن لك رسول الله، لتعلم الأعز من الأذل: أنت أو رسول الله؟ فقال: أنت من بين الناس؟ فقال: نعم أنا من بين الناس. لئن لم تقرّ لله ولرسوله بالعزة، لأضربن عنقك. فقال: ويحك؟ أفاعل أنت؟ قال: نعم. ولما رأى منه الجد، قال:

أشهد أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين

ولما شهد عبد الله بن أبي: أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين، قال رسول الله للحباب: جزاك الله عن رسوله وعن المؤمنين خيراً. وفي ذلك نزلت سورة المنافقين. وذكر في نزولها زيد بن أرقم قال: رأيت رسول الله تأخذه البرحاء، ويعرق جبينه الشريف، وتثقل به راحلته فقلت: إن رسول الله يوحى إليه، ورجوت أن ينزل الله عليه تصديقي. فلما سري عنه،

أخذ بأذني، وأنا على راحلتي يرفعها إلى السماء، حتى ارتفعت عن مقعدي، وهو يقول: وعت أذنك يا غلام، وصدق الله حديثك وكذب المنافقين. وبمدح أذنه نزلت الآية: ﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾[1].

ولما نزلت سورة المنافقين، صار قوم ابن أبي يعنفونه ويبغضونه. وبلغ ذلك النبي ﷺ فقال لعمر: كيف ترى؟

إني والله لو قتلته يوم قلت لأرعدت له
أنوف لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته

فقال عمر رضي الله عنه: قد والله علمت، لأمر رسول الله أعظم بركة من أمري. ولما نزلت سورة المنافقين وفيها تكذيب لابن أبي قال له أصحابه: اذهب إلى رسول الله، يستغفر لك، فلوى رأسه ثم قال: أمرتموني أن أومن فآمنت، وأمرتموني أن أعطي زكاة أموالي فأعطيت، فما بقي إلا أن أسجد لمحمد. فنزلت الآية[2]:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾.

وقال السدي في الآية[3]:

﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾.

نزلت في الحباب بن عبد الله بن أبي، جلس إلى النبي ﷺ فشرب ماء، فقال له: بالله يا رسول الله! أما أبقيت فضلة من شرابك، أسقها أبي، لعل الله يطهر بها قلبه. فأفضل له، فأتاه بها. فقال عبد الله: ما هذا؟ فقال: هي فضلة من شراب النبي ﷺ جئتك بها، لعل الله يطهر قلبك بها. فقال له

(١) سورة (الحاقة) الآية: (١٢).
(٢) سورة (المنافقون) الآية: (٥).
(٣) سورة (المجادلة) الآية: (٢٢).

عبد الله أبوه: فهلا جئتني ببول أمك، فهو أطهر منها؟ فغضب. وجاء إلى رسول الله وقال: بالله أما أذنت لي في قتل أبي؟ فقال النبي ﷺ: بل ترفق به، وتحنن إليه.

وقد جاء أن الحباب قال: يا رسول الله! إني أسقي والدي من وضوئك، لعل قلبه أن يلين. فتوضأ ﷺ وأعطاه، فذهب به الى أبيه، فسقاه، وقال: هلا تدري ما سقيتك؟ قال: نعم سقيتني بول أمك. قال: لا والله! ولكن سقيتك بول رسول الله ﷺ.

وقدم رسول الله للمدينة من وجهته إلى المريسع، هلال رمضان. فكانت غيبته ثمانية وعشرين ليلة.

قصّـــة الإفك

وهي أفظع قصة باطلة، ألصقتها الأغراض بفجر التاريخ الإسلامي للمز كرامة أشرف امرأة، كان لها المقام الأول في صدر هذا التاريخ.

وقد قصت لنا عائشة نفسها عناصر الواقعة، التي لفق منها أعداء الرسالة التهمة. قالت: لما دنونا من المدينة قافلين، ليلة أذن بالرحيل، وكنا نازلين. فقمت وذهبت لأقضي حاجتي، حتى جاوزت الجيش، فلما قضيت شأني، أقبلت إلى راحلتي، فإذا عقد لي من جزع ظفار، كان ثمنه يسيراً «اثنا عشر درهماً» قد انقطع. فذهبت إلى التماسه في المحل، الذي قضيت فيه حاجتي. وحين التماسه، أقبل الرهط الذين كانوا يرحلون لي «بتخفيف الحاء الذين يجعلون الهودج على الرحل» فاحتملوا هودجي، فرحلوه على بعيري الذي كنت أركب وهم يحسبون أني فيه. وكان النساء إذ ذاك خفافاً. وساروا. وكان يرحل هودجها ويقود بعيرها أبو سويهبة مولى رسول الله. وكان رجلاً صالحاً. فوجدت عقدي، فجئت منازلهم وليس بها داع ولا مجيب، وأقمت بالمكان الذي كنت فيه، وظننت أنهم سيفقدوني فيرجعون إلي. فبينما أنا جالسة في منزلي، غلبتني عيني فنمت. وكان صفوان السلمي خلف الجيش، لأنه كان على ناقته، يلتقط ما يسقط من الطعام. وقيل: كان ثقيل النوم، لا يستيقظ حتى يرتحل الناس. وقد شكته زوجته إلى النبي، وقالت: إنه

لا يصلي الصبح. فقال: يا رسول الله! إني امرؤ ثقيل النوم، لا أستيقظ حتى تطلع الشمس. فقال: إذا استيقظت فصل[1].

فأدلج فأصبح عند منزلي. على خلاف عادته، فرأى سواداً، ثم أتاني فعرفني، فاستيقظت باسترجاعه. قوله: (إنا لله وإنا اليه راجعون) لأن تخلف أم المؤمنين عن الرفقة في مضيعة مصيبة. قالت: فخمرت وجهي بجلبابي. قالت: فوالله ما كلمني كلمة، فأناخ ناقته، فوطأ على يدها، وقال: قومي فاركبي، فركبتها. ولما ركبت قالت: حسبي الله ونعم الوكيل، فانطلق يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش، بعدما نزلوا. وذلك في نحو الظهيرة.

فلما نزلنا هلك من هلك بقول البهتان والافتراء، والذي تولى كبره عبد الله بن أبي بن سلول، فإنه كان ينزل مع جماعة المنافقين مبتعدين من الناس ، فمرت بهم فقال: من هذه؟ قالوا: عائشة وصفوان. فقال: فجر بها ورب الكعبة! وصار يقول: امرأة نبيكم باتت مع رجل حتى أصبحت. ثم أشاع ذلك في المدينة بعد دخولهم لها، لشدة عداوته لرسول الله ﷺ.

قالت: فقدمنا المدينة، فاشتكيت شهراً، والناس يفيضون في قول أصحاب الإفك، ووصل الخبر إلى رسول الله، وإلى أبوي، ولا أشعر بشيء من ذلك. وكان يريبني أني لا أعرف من رسول الله اللطف الذي كنت أرى منه حين أشتكي، وإنما يدخل علي فيسلم وعندي أمي تمرضني، ثم يقول: كيف تيكم؟ لا يزيد على ذلك. ثم ينصرف. فذاك الذي يريبني. حتى خرجت بعد ما نقهت، فخرجت معي أم مسطح ابن خالة أبي بكر، وكان مسطح يتيماً في حجر أبي بكر، وكان فقيراً ينفق عليه أبو بكر. وخروجنا إلى المحل الذي كانت تخرج إليه النساء ليلاً لقضاء الحاجة، نحوالمنصع[2]. فلما

---

(١) تأييداً لقوله عليه الصلاة والسلام: عن أبي عبيدة، وعن جابر بن زيد قال: بلغني عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «من نسي صلاة، أو نام عنها، فليصلها إذا ذكرها». (الجامع الصحيح) مسند الإمام الربيع بن حبيب. المطبعة العربية. الجزائر ١٩٨٥.

(٢) (المناصع): المجالس، أو مواضع يتخلى فيها لبول أو حاجة. الواحد (منصع). القاموس. المحقق.

فزعنا من شأننا وأقبلت، عثرت أم مسطح في مرطها[1]. فقالت: تعس مسطح «هلك مسطح» تعني: ولدها. قلت لها: بئس ما قلت، أتسبين رجلاً شهد بدراً؟ قالت: يا هنتاه «يا هذه» ألم تسمعي ما قال؟ قلت: وما قال؟ فأخبرتني بقول أهل الإفك، فازددت مرضاً على مرضي، أخذتني حمى نافضة، فرجعت إلى بيتي، فمكثت تلك الليلة حتى أصبحت، ما يرقأ لي دمع، ولا أكتحل بنوم. ثم أصبحت أبكي، ودخل علي رسول الله، وقال بعد أن سلم: كيف تيكم؟ فقلت: أتأذن لي أن آتي بيت أبوي؟ وأنا أريد أن أتثبت الخبر من قبلهما، لأن أمها فارقتها لما نقهت من المرض، وذهبت إلى بيتها.

فأذن لي، فجئت أبوي، وأرسل معي الغلام، فدخلت الدار، فوجدت أم رومان في السفل، وأبا بكر فوق يقرأ. فقالت أمي: ما جاء بك؟ فأخبرتها، وقلت لها: يغفر الله لك، تحدث الناس بما تحدثوا به، لا تذكرين لي من ذلك شيئاً. قالت: يا بنية! هوني عليك الشأن، فوالله لقلما كانت امرأة وضيئة قط عند رجل يحبها، ولها ضرائر، إلا أكثرن عليها القول في تنقيصها. «قالت ذلك وهي لا تدري مصدر الإشاعة» فقلت: سبحان الله! ولقد تحدث الناس بهذا، وقد علم به أبي؟ قالت: نعم، فقلت: ورسول الله؟ قالت: نعم. وبكيت، وسمع أبو بكر صوتي، فنزل، فقال لأمي: ما شأنها؟ فقالت: بلغها الذي ذكر من شأنها، ففاضت عيناه، فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت، لا يرقأ لي دمع، ولا اكتحلت بنوم في الليلة الثانية. ولما أصبحت، أصبح أبواي عندي، يظنان أن البكاء فالق كبدي. فبينما هما جالسان عندي، وأنا أبكي، وهما يبكيان، وأهل الدار يبكون. فاستأذنت عليَّ امرأة من الأنصار فأذنت لها، فجعلت تبكي معي. فبينما نحن على ذلك، دخل علينا رسول الله، ثم جلس، ولم يجلس عندي منذ قيل ما قيل. وقد لبث شهراً لا يوحى إليه في شأني.

---

(١) (المرط): كساء من صوف أو خز.

فتشهد حين جلس، ثم قال: أما بعد، يا عائشة فإنه قد بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله، وإن كنت ألممت بذنب، فاستغفري لله وتوبي. فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب إلى الله تعالى تاب الله عليه. فلما قضى رسول الله مقالته، قلص دمعي حتى ما أحس منه بقطرة، فقلت لأبي: أجب رسول الله فيما قال. قال: فوالله ما أدري ما أقول لرسول الله. فقلت لأمي: أجيبي رسول الله. فقالت: والله ما أدري ما أقول لرسول الله. فقلت: لقد سمعتم هذا الحديث، حتى استقر في نفوسكم، فلئن قلت: إني بريئة، والله يعلم أني بريئة، لا تصدقوني بذلك. ولئن اعترفت لكم بأمر، والله يعلم أني منه لبريئة، لتصدقوني. فوالله لا أجد لي ولكم، إلا قول أبي يوسف، والتمست اسم يعقوب فلم أقدر عليه، إذ يقول: «فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون» «إنما أشكو بثي وحزني إلى الله» ثم تحولت واضطجعت على فراشي. وما كنت أظن أن الله ينزل في شأني وحياً يتلى ويصلّى به، ولشأني في نفسي، كان أحقر من أن يتكلم الله بي في أمر يتلى.

وعند ذلك، قال أبو بكر رضي الله عنه: ما أعلم أهل بيت من العرب، دخل عليهم ما دخل علي. والله ما قيل لنا هذا في الجاهلية، حيث لا يعبد الله، فيقال لنا في الإسلام؟! وأقبل على عائشة مغضباً.

فأخذ رسول الله ما كان يأخذه عند نزول الوحي، من شدة الكرب، فسُجِّي بثوبه، ووضعت له وسادة من أدم تحت رأسه.

قالت عائشة: أما أنا حين رأيت من ذلك ما رأيت، فوالله ما فزعت لأني قد عرفت أني بريئة، وأن الله غير ظالمي، وأما أبواي فوالذي نفس عائشة بيده! ما سرّى عن رسول الله بما أخبر، حتى ظننت لتخرجن أنفسهما فرقاً «خوفاً» من أن يأتي من الله تحقيق ما قال الناس. فلما سري عن رسول الله، سري عنه وهو يضحك، وإنه لينحدر منه العرق كالجمان، فجعل يمسح العرق عن وجهه الكريم، فكان أول كلمة تكلم بها:

يا عائشة! أما إن الله قد برأك. فقالت أمي: قومي إليه. فقلت: والله لا أقوم إليه، ولا أحمد إلا الله.

نزلت تلك الآية في يوم شات، وتناول رسول الله درعي[1] فقلت بيده هكذا، أي: أدفع يده عن درعي. فأخذ أبو بكر النعل ليعلوني بها، فضحك رسول الله، وقال له: أقسمت عليك لا تفعل.

وقد بلغ الذين اشتغلوا بترويج قصة الأفك (١٨) ثماني عشرة شخصا. ولم تنزل آية براءتها إلا بعد مضي سبع وثمانين ليلة، منذ أرجف بها.

أما آية البراءة فهي:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾[2].

وكان أبو بكر ينفق على مسطح لقرابته منه، ولصغره، فحلف لا ينفق عليه أبداً، ولا ينفعه بنافع أبداً. وأخرجه من منزله، فنزلت الآية[3]:

﴿ وَلَا يَأْتَلِ[4] أُولُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

فقال النبي لأبي بكر: أما تحب أن يغفر الله لك؟ قال أبو بكر: إني لأحب أن يغفر الله لي. فرجع إلى مسطح بالنفقة التي كان ينفقها عليه. وقال: إني والله لا أنزعها عنه أبداً.

ولما تكلم الناس في هذا الأمر، استشار رسول الله كبار الصحابة في ذلك. فقال عمر بن الخطاب: من زوجها لك يا رسول الله؟ قال: الله تعالى. قال: أتظن أن الله دلس عليك فيها؟ سبحانك هذا بهتان عظيم. وقال أسامة بن زيد: أهلك ولا نعلم إلا خيراً. وقال علي: لم يضيق الله عليك، والنساء سواها كثير، وإنك لتقدر أن تستخلف، فطلقها وانكح غيرها، وإن

---

(١) (الدرع): من المرأة، قميصها.

(٢) سورة (النور): الآية: (١١).

(٣) سورة (النور): الآية: (٢٢).

(٤) (ولا يأتل): لا يحلف. يقال: آلي، وائتلى، يأتلي: حلف. (معجم ألفاظ القرآن الكريم).

تسأل الجارية «بريرة، خادمة عائشة» تصدقك.

فدعا رسول الله بريرة فقال: أي بريرة! هل رأيت من شيء يريبك؟ قالت بريرة: والذي بعثك بالحق ما رأيت عليها أمراً أغمصه «أعيبه» عليها، أكثر من أنها جارية حديثة السن، تنام عن عجين أهلها، فتأتي الداجن «الشاة التي لا تخرج للمرعى» فتأكله. فقام إليها علي، فضربها ضرباً وجيعاً، وجعل يقول لها: اصدقي رسول الله. فقالت: والله ما أعلم إلا خيراً، ما علمت عنها إلا ما يعلم الصانع على تبر الذهب الأحمر، والله لئن كانت على غير ذلك ليخبرك الله بذلك.

وسأل رسول الله من نسائه عن عائشة، زينب ابنة جحش «قالت عائشة وهي التي كانت تساميني «تساويني» وتناصبني «تعاديني» من أزواج النبي في المنزلة والمحبة» فقالت: أحمي سمعي وبصري، من أن أقول سمعت، ولم أسمع. وأصون بصري من أن أقول أبصرت ولم أبصر. وما علمت عنها إلا خيراً. والله ما أكلمها وإني لمهاجرتها، وما كنت أقول إلا الحق.

خطبة رسول الله في الدفاع عن عائشة وتأنيب الأفاكين

لما ثبت لدى رسول الله براءة عائشة، رضي الله عنها من تهمة الإفك، وكذب عصبة الأفاكين. رقى المنبر في موسم مشهود، وكان المسجد غاصاً بالمهاجرين والأنصار، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال:

أيها الناس! هناك رجال يؤذونني في أهلي، ويقولون عليهم غير الحق. فتكلم عن ابن سلول فقال: من يعذرني من رجل، قد بلغني أذاه في أهل بيتي. فوالله ما علمت على أهلي إلا خيراً. ولقد ذكروا رجلاً «يعني: صفوان» ما علمت عنه إلا خيراً، ولا يدخل بيتي إلا وأنا حاضر، ولا غبت في سفر إلا غاب معي، يقولون عليه غير الحق.

فقام سعد بن معاذ سيد الأوس: فقال: يا رسول الله! أنا أعذرك منه.

إن كان من الأوس ضربت عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج، أمرتنا، ففعلنا أمرك.

فقام سعد بن عبادة، سيد الخزرج، وقد احتملته الحمية، فقال لسعد بن معاذ، كذبت لعمر الله، لا تقتله، ولا تقدر على قتله.

فقام أسيد بن حضير، ابن عم سعد بن معاذ، فقال لسعد بن عبادة: كذبت لعمر الله، لنقتلنه، وأنفك راغم، فإنك منافق، تجادل عن المنافقين.

فثار الحيان، الأوس والخزرج، حتى هموا أن يقتتلوا ورسول الله قائم على المنبر. فلم يزل يخفضهم، حتى سكنوا. ثم نزل رسول الله، وتفرق الصحابة.

جرى كل ذلك في المدينة، وعائشة أم المؤمنين مريضة بالحمى، لا تعلم منه شيئاً. ثم سكتت نأمة[1] هذه الفتنة، وخف الكلام في حديث الإفك.

إنهاء مسألة الأفك وعقاب القاذفين

بعد نزول آية البراءة، خرج رسول الله إلى الناس، وخطبهم، وتلا عليهم الآية. وأمر بجلد أصحاب الإفك، وهم: عبد الله بن أبي، ومسطح، وحمنة بنت جحش «أخت زينب» وأخوها عبيد الله، وكان ضريراً شاعراً، وكان يدور مكة أعلاها وأدناها من غير قائد، وحسان بن ثابت، شاعر رسول الله فجلدوا الحد، وهو ثمانون جلدة.

ولما انتهت هذه الفتنة، مشى رسول الله في الصلح بين السعدين. فقد جاء في (الإمتاع) أنه ﷺ مكث أياماً، ثم أخذ بيد سعد بن معاذ في نفر من الصحابة، حتى دخل على سعد بن عبادة، فتحدثوا ساعة، وقرب لهم سعد بن عبادة طعاماً، فأصابوا منه، ثم انصرفوا. فمكث أياماً، ثم أخذ بيد سعد بن عبادة في نفر، فانطلقوا حتى دخلوا منزل سعد بن معاذ، فتحدثوا

---

(١) (النأمة): النغمة والصوت. وأسكت الله نأمته: أماته.

ساعة، وقرب لهم سعد بن معاذ طعاماً فأصابوا منه، ثم خرجوا. وقد ذهب من أنفسهم ما كان.

مشروعيـة التيمم

في الطبراني عن أسلم قال: كنت أخدم رسول الله ﷺ، وأرحل له ناقته، فقال لي ذات يوم: يا أسلم! قم فارحل. فقلت: يا رسول الله! أصابتني جنابة ولا ماء. فسكت رسول الله. فنزلت آية التيمم: ﴿فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾[1] فقال: قم يا أسلم! فتيمم. فأراني التيمم، ضربة للوجه، وضربة لليدين إلى المرفقين. فقمت فتيممت، ثم رحلت له حتى مر بماء. فقال: يا أسلم! أمسس هذا جلدك؟

وفي (الإمتاع): نزلت آية التيمم طلوع الفجر، فمسح المسلمون أيديهم إلى الأرض ثم مسحوا بأيديهم إلى المناكب.

وعن عائشة قالت: لما كان من أمر عقدي ما كان، وقال أهل الإفك ما قالوا. فخرجت مع النبي ﷺ في غروة أخرى، فسقط أيضاً عقدي، حتى حبس التماسه الناس، فإنه ﷺ بعث رجلين في طلبه، أحدهما أسيد بن حضير. وطلع الفجر، فلقيت من أبي ما شاء الله؛ لأن الناس جاؤوا اليه، وشكو إليه ما نزل بهم. فجاء إليها، ورسول الله واضع رأسه الشريف على فخذها، قد نام. فقال لها: حبست رسول الله، والناس ليسوا على ماء. فجعل يطعن بيده في خاصرتها، ويقول: يا بنية! في كل سفرة تكونين عناء وبلاء، وليس مع الناس ماء؟ قالت: فلا يمنعني من التحرك إلا مكان رسول الله على فخذي. فقام حين أصبح، وحضرت الصلاة، فالتمس الماء فلم يجد، فأنزل الله تعالى الرخصة بالتيمم، فقال أبو بكر عند ذلك: والله يا بنية! إنك كما علمت، مباركة. وقال لها ﷺ: ما أعظم بركة قلادتك! وقال لها أسيد بن حضير: جزاك الله خيراً، فما نزل بك أمر تكرهينه، إلا جعل الله منه مخرجاً للمسلمين.

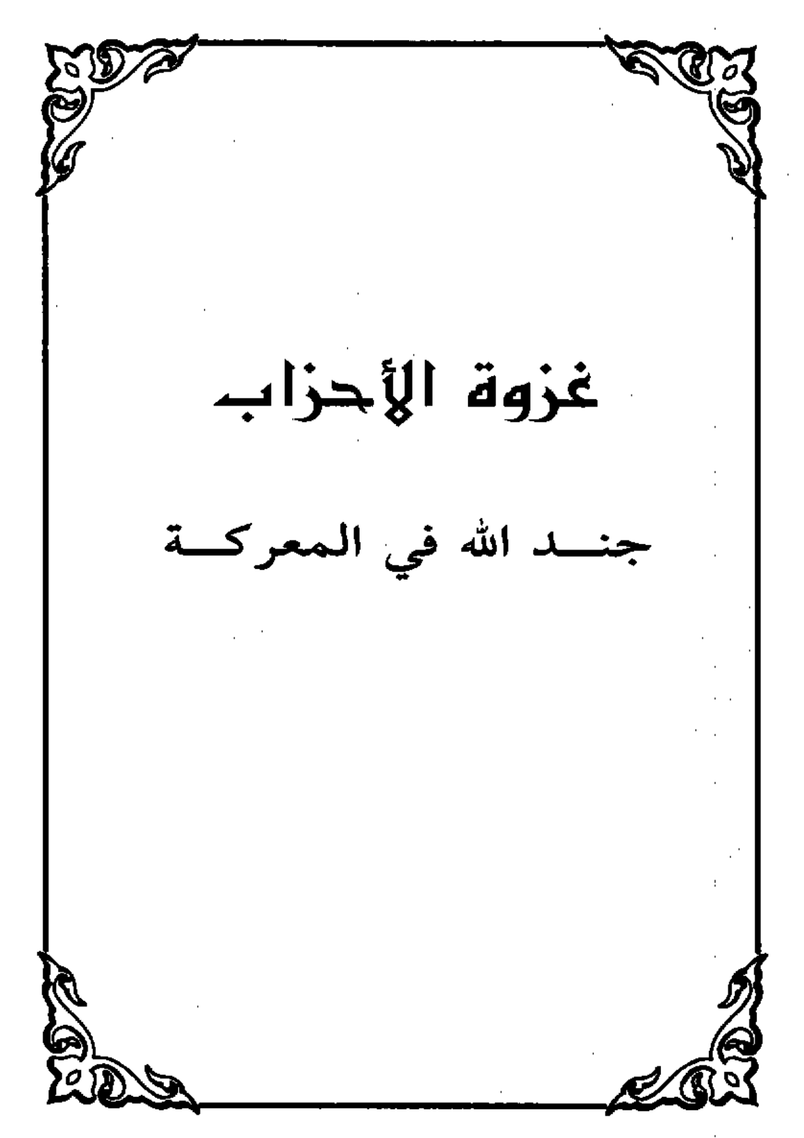
---

(١) سورة (النساء) الآية (٤٣).

صلاة الخسوف

وفي هذه السنة الخامسة خسف القمر، فصلى ﷺ بأصحابه صلاة الخسوف، حتى تجلى القمر. وصارت اليهود تضرب بالطاس ويقولون: سحر القمر.

* * *



غزوة الأحزاب

جنـــد الله في المعركـــة

تـألّب الأحزاب على صاحب الرسالـة

لما وقع إجلاء بني النضير من المدينة، كما تقدم، سار منهم جمع من كبرائهم، منهم سيدهم حيي بن أخطب، وعظيمهم سلام بن مشكم، ورئيسهم كنانة بن الحقيق، وهوذة بن قيس، وأبو عامر الفاسق إلى مكة، وقدموا على قريش يدعونهم ويحرضونهم على حرب رسول الله. وقالوا: سنكون معكم عليه حتى نستأصله. فرحب بهم أبو سفيان، وقال: أحب الناس إلينا، من أعاننا على عداوة محمد.

فقالت قريش لأولئك اليهود: إنكم أهل الكتاب الأول، والعلم، أخبرونا عما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد، فديننا خير أم دين محمد؟ قالوا: بل دينكم خير من دينه، لأنكم تعظمون هذا البيت، وتقومون على السقاية، وتنحرون البدن، وتعبدون ما كان يعبد آباؤكم، فأنتم أولى بالحق منه. فنزلت في حقهم الآية[1]:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴾.

فلمّا قالوا ذلك لقريش، سرّهم ونشطهم. ثم دعوهم إلى الاتفاق على حرب رسول الله ﷺ، فخرج من بطون قريش خمسون رجلاً، وقد ألصقوا أكبادهم بالكعبة، متعلقين بأستارها، وتحالفوا ألا يخذلوا بعضهم بعضاً، ويكونون كلهم يداً واحدة على محمد، ما بقي منهم رجل.

ثم ذهبت تلك الطائفة من اليهود إلى غطفان، ودعوهم وحرضوهم على حرب رسول الله ﷺ، وقالوا لهم: إنّا سنكون معكم، وأن قريشاً قد بايعوهم على ذلك، وجعلوا لهم تمر خيبر سنة إن هم نصروهم عليه. فتجهزت قريش وأتباعها من القبائل وغطفان. وكان قائد قريش أبو سفيان بن حرب، وكان معه أربعة آلاف، ومعهم ثلاثمئة فرس، وألف

---

(١) سورة (النساء) الآية: (٥١).

وخمسمئة بعير. وعقد اللواء في دار الندوة، وحمله عثمان بن طلحة، المقتول والده طلحة، يوم أحد.

وقائد غطفان: عيينة بن حصن الفزاري في بني فزارة، وهم في ألف.

وقائد بني مرة: الحارث بن عوف المري، وكانوا في أربعمئة.

وقائد بني أشجع: أبو مسعود بن رخيلة، ومعه قومه.

وقائد بني سليم: سفيان بن عبد شمس، وهم سبعمئة.

وقائد بني أسد: طلحة بن خويلد الأسدي، وعددهم تتمة العشرة آلاف.

كانت الأحزاب عشرة آلاف، وهم ثلاثة عساكر، وملاك أمرها لأبي سفيان، وهو المدبّر لأمرها، القائم بشأنها.

ورود الخبر بقدوم جيش الأحزاب

ولما تهيأت الأحزاب للخروج، أتى ركب من خزاعة، من مكة إلى المدينة في أربع ليال، حتى أخبروا رسول الله ﷺ بذلك. فما تلقى رسول الله خبر تألبهم وقدومهم، حتى ندب المسلمين إليه، وأخبرهم خبر عدوهم، وشاورهم في أمرهم، هل نبرز من المدينة أو نكون فيها؟

الاستعداد للحرب وإقامة الخنادق والحصون للدفاع

فأشار عليه سلمان الفارسي بالخندق فقال: يا رسول الله! كنا بأرض فارس إذا تخوفنا الخيل، خندقنا علينا، فإن ذلك كان من مكائد الفرس، فأعجبهم ذلك. وركب ﷺ فرساً له، ومعه عدة من المهاجرين والأنصار، فارتاد موضعاً ينزل فيه، وجعل سلعاً[1] خلف ظهره. وأمرهم بالجد، ووعدهم النصر، إن هم صبروا.

---

(١) (السلع): جبل بالمدينة، مطلّ عليها. كما سيأتي.

فعمل فيه رسول الله مع المسلمين، وحمل التراب على ظهره الشريف، ودأب المسلمون يبادرون قدوم العدو، واستعاروا من بني قريظة آلة كثيرة من مساحي، كدور، ومكاتل.

وحصل للصحابة تعب وجوع؛ لأنه كان في وقت عسرة، وعام مجاعة. وصار الشخص منهم إذا نابته النائبة من الحاجة التي لا بد له منها، يذكر ذلك لرسول الله، ويستأذنه في اللحاق بها. فإذا قضى حاجته رجع إلى ما كان من عمله رغبة في الخير. وتباطأ رجال من المنافقين، وجعلوا يورون[1] بالضعف، وصار الواحد منهم يتسلل إلى أهله، من غير استئذان. وكان زيد بن ثابت ممن ينقل التراب، فقال في حقه: أما إنه نعم الغلام. وغلبته عينه فنام في الخندق، فأخذ عمارة بن حزم سلاحه، وهو نائم، فلما قام، فزع على سلاحه، فقال له ﷺ: يا أجار[2]؟ قد نمت حتى ذهب سلاحك. ثم قال: من له علم بسلاح هذا الغلام؟ فقال عمارة: أنا يا رسول الله! وهو عندي. فقال: رد عليه سلاحه. ونهى أن يُروع المسلم، ويؤخذ متاعه لاعباً.

واشتد على الصحابة من حفر الخندق كدية، وهي محل صلب، فشكوا ذلك لرسول الله فأخذ المعول وضرب، فصارت كثيباً أهيل. وكان أبو بكر وعمر ينقلان التراب في ثيابهما، إذا لم يجدا مكاتل، من العجلة.

المثل الأعلى للرجل

وعن سلمان الفارسي، قال: ضربت في ناحية من الخندق، فغلظت عليَّ، ورسول الله قريب مني. فلما رآني أضرب، ورأى شدة المكان علي، نزل فأخذ المعول من يدي، وقال: بسم الله. وضرب ضربة فكسر ثلثها،

---

(١) (يورون): يتظاهرون. ولكنّ اللفظة لغة لا تستقيم. فهي من (ورى): أوقد. قال الله تعالى: ﴿أفرأيتم النار التي تورون﴾؟. أو هي (يُورُّون) يستترون. من (التورية).

(٢) لم أتبيّن معنى هذه اللفظة؟. لعلّ الألف بعد حرف النداء، سبقة قلم، والمقصود: يا جار. واللفظة غير موجودة في طبعة (غ) ولا عند (ابن هشام) ولا عند (الطبري) والله أعلم. المحقق.

وبرقت برقة، فخرج نور من قبل اليمن، كالمصباح في جوف ليل مظلم، فكبر رسول الله وقال: أعطيت مفاتيح اليمن، إني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني الساعة، كأنها أنياب الكلاب. ثم ضرب الثانية، فقطع ثلثاً آخر، فخرج نور من قبل الروم، فكبر رسول الله وقال: أعطيت مفاتيح الشام. والله! إني لأبصر قصورها الحمر. ثم ضرب الثالثة فقطع بقية الحجر، وبرقت برقة فكبر، وقال: أعطيت مفاتيح فارس. والله! إني لأبصر قصور الحيرة، ومدائن كسرى، كأنها أنياب الكلاب من مكاني هذا. ثم قال: هذه فتوح، يفتحها الله بعدي يا سلمان.

عند ذلك قال جمع المنافقين، منهم معتب بن قشير: ألا تعجبون من محمد؟ يمنيكم ويعدكم الباطل، ويخبركم أنه يبصر من يثرب قصور الحيرة ومدائن كسرى، وأنها تفتح لكم، وأنتم تحفرون الخندق، من الفرق لا تستطيعون أن تبرزوا. فنزلت عند ذلك الآية[1]:

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾.

ولما فرغ رسول الله ﷺ من حفر الخندق، أقبلت الأحزاب فنزلت قريش بمجمع الأميال، وغطفان ومن معهم إلى جانب أحد.

وكان المسلمون ألفاً. وقال ابن إسحاق: سبعمئة. وأيده في ذلك ابن حزم فقال: هذا العدد هو الصحيح الذي لا شك فيه. وعسكر بهم ﷺ إلى سفح سلع، وهو جبل فوق المدينة، فجعل ظهر عسكره إلى سلع، وجعل الخندق بينه وبين الأحزاب. وكان شعار المهاجرين: يا خيل الله. وشعار الأنصار: ثم لا تنصرون.

وضربت له ﷺ قبة من أدم، وكان ﷺ، يعقب فيها بين ثلاثة من نسائه، عائشة، وأم سلمة، وزينب بنت جحش. وقال النووي: ومكث ﷺ في عمل الخندق خمسة عشر يوماً. وجزم به. وجعل سائر نسائه ﷺ في بني حارثة.

---

(١) سورة (آل عمران) الآية: (٢٦).

وجعل النساء والذراري في الآطام، وعرض الغلمان وهو يحفر الخندق، وكانوا بأجمعهم من بلغ ومن لم يبلغ يعملون فيه. فلما التحم الأمر، أمر من لم يبلغ منهم خمس عشرة سنة أن يرجع إلى أهله، وأجاز من بلغ خمس عشرة سنة. وقد أجاز: عبد الله بن عمر بن الخطاب، وزيد بن ثابت، وأبو سعيد الخدري، والبراء بن عازب، وبعد انتهاء الخندق، شبكوا المدينة بالبنيان من كل ناحية، فصارت كالحصن، يحيط بها شبكة من البنيان والبساتين، من ثلاث جهات، ومن الرابعة الخندق. وأعطى لواء المهاجرين لزيد بن حارثة ولواء الأنصار لسعد بن عبادة، وبعث مسلمة بن أسلم في مئتي رجل، وزيد بن حارثة في ثلاثمئة رجل يحرسون المدينة، ويظهرون التكبير، تخوفاً على الذراري من بني قريظة، لما بلغه أنهم نقضوا ما بينه وبينهم من العهد، وأنهم يريدون الإغارة على المدينة. فإن حيي بن أخطب أرسل إلى قريش، أن يأتيه منهم ألف رجل، وإلى غطفان أن يأتيه منهم ألف، ليغيروا على المدينة. فعظم البلاء، وصار الخوف على الذراري والنساء، أشد من الخوف على العسكر في الخندق.

ولما نظر الأحزاب إلى الخندق قالوا: والله إن هذه لمكيدة، ما كانت العرب تكيدها. وصار المشركون يتناوبون، فيغدو أبو سفيان في أصحابه يوماً ويغدو خالد بن الوليد يوماً، وعمرو بن العاص يوماً، وهبيرة بن أبي وهب يوماً، وعكرمة بن أبي جهل يوماً، وضرار بن الخطاب يوماً. فلا يزالون يجيلون خيلهم، ويفترقون مرة، ويجتمعون أخرى، ويناوشون أصحاب رسول الله، يرمونهم بالنبال. ومكثوا على ذلك مدّة.

السعي في تأليب بني قريظة مع الأحزاب

وكان حيي بن أخطب قال لقريش في مسيرة معهم: إن قومي بني قريظة معكم، وهم أهل حلقة ورهبة، وعددهم خمسون وسبعمئة مقاتل. فقال له أبو سفيان: ائت قومك حتى ينقضوا العهد الذي بينهم وبين محمد. فخرج حيي حتى أتى كعب بن أسد القرظي، وولي عهد قريظة الذي عاهدهم عليه رسول الله ﷺ، فدق عليه باب حصنه، فأبى أن يفتح له، وألح عليه في

ذلك، فقال: ويحك يا حيي! إنك امرؤ مشؤوم، وإني قد عاهدت محمداً، فلست بناقض ما بيني وبينه، ولم أر منه إلا وفاء وصدقاً. فقال: ويحك! افتح لي أكلمك. فقال: ما أنا بفاعل. فقال له: والله ما أغلقت دوني بابك إلا تخوفاً على جشيشتك[1] «البر يطحن غليظاً» أن آكل معك. ففتح له، فقال له: ويحك يا كعب! جئت بعز الدهر، جئتك بقريش، حتى أنزلتهم بمجمع الأميال، وبغطفان حتى أنزلتهم بجانب أحد، قد عاهدوني وعاقدوني: ألا يبرحوا حتى يستأصلوا محمداً ومن معه. فقال له كعب: جئتني والله بذل الدهر، وكل ما يخشى، فإني لم أر في محمد إلا صدقاً ووفاء. ويحك يا حيي! دعني وما أنا عليه. فلم يزل حيي بكعب حتى أعطاه عهداً من الله وميثاقاً، لئن رجعت قريش وغطفان، ولم يقتلوا محمداً، أن يكون معه في حصنه، ويصيبه ما أصابه.

تمزيق بني قريظة لعهدها مع الرسول

فعند ذلك نقض كعب العهد، وبرىء مما كان بينه وبين رسول الله ﷺ، ومزقوا الصحيفة التي كان فيها العقد، وجمع رؤساء قومه وهم: محرجير بن عطا، وشاس بن قيس، وعزال بن ميمون، وعقبة بن زيد، وأعلمهم بما صنع مع نقض العهد. وشق الكتاب الذي كتبه لهم رسول الله. فلجم الأمر لما أراده الله من هلاكهم.

وكان حيي بن أخطب في اليهود يشبه بأبي جهل في قريش، فلما انتهى الخبر بذلك إلى رسول الله، شق عليه الأمر، وأرسل سعد بن معاذ، وسعد بن عبادة، وابن رواحة، وخولة بن جبير، وقال لهم: انطلقوا حتى تنظروا، أحق ما بلغنا عن هؤلاء القوم؟ فإن كان حقاً، فألحنوا إليّ أعرفه دون القوم، وإلا فاجهروا بذلك بين الناس. فخرجوا حتى أتوا بني قريظة،

---

(١) (الجشيشة): ما جُشَّ من بر ونحوه. و(المجش) و(المجشة) الرحى. و(الجشيش): السويق، وحنطة تطحن جليلاً، فتجعل في قدر، ويلقى فيها لحم أو تمر، فيطبخ. القاموس. المحقق.

فوجدوهم قد نقضوا العهد، وقالوا: من رسول الله؟ وقالوا: لا عهد بيننا وبين محمد. فشتمهم سعد بن معاذ. وقال سعد بن عبادة: دع مشاتمتهم، فما بيننا وبينهم رأي! ثم أقبل السعدان ومن معهما إلى رسول الله، فكنوا له عن نقضهم العهد. قالوا: «عضل[1] والغارة» فقال رسول الله: الله أكبر. أبشروا يا معاشر المسلمين! نصرة الله تعالى وعونه. وتقنع ﷺ بثوبه واضطجع، ومكث طويلاً. فاشتد على الناس البلاء والخوف حين رأوه ﷺ اضطجع، ثم رفع رأسه، فقال: أبشروا بفتح الله ونصره.

شجاعـة النساء

وحكي لنا عبد الله بن الزبير، عن حالة النساء والأطفال، ومن في حكمهما في هذه الواقعة حكاية طريفة، قال:

كنت يوم الأحزاب، أنا وعمرو بن أبي سلمة مع النساء، في أطم[2] حسان بن ثابت، وكان حسان مع النساء. ومن جملتهم: صفية بنت عبد المطلب، أم الزبير[3] واتفق أن جاسوساً يهودياً، جعل يطوف بذلك الحصن. فقالت صفية لحسان: يا حسان! لا آمن هذا اليهودي أن يدل الأعداء على عورة الحصن، فيأتون إلينا، فانزل فأقتله. قال حسان: يا بنت عبد المطلب! قد عرفت ما أنا بصاحب هذا. فلما آيست منه، أخذت عموداً ونزلت، ففتحت باب الحصن، وأتته من خلفه فضربته بالعمود حتى قتلته، وصعدت الحصن، فقالت : يا حسان! انزل إليه فاسلبه، فإنه لم يمنعني من سلبه إلا أنه رجل. فقال: يا بنة عبد المطلب! مالي بسلبه حاجة.

ولما تحقق لدى المسلمين نقض بني قريظة للعهد، عظم البلاء على

---

(١) (عضل) اشتد الأمر واستفحل. ومنه: الداء العضال.

(٢) (الأطم) القصر: وكل حصن مبني بالحجارة، وكل بيت مربع مسطح. جمع: آطام وأطوم.

(٣) وعمّة الرسول عليه الصلاة والسلام.

المسلمين؛ لأن العدو أحاطهم من فوقهم، ومن أسفل منهم، وأحدق بهم من كل مكان. وبذلك نزلت الآية[1]:

﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾.

وقال المنافقون: كان محمد يعدنا أن نملك كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه، أين ذلك؟! وأحدنا لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط. ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً. فنزلت الآية[2]:

﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾.

ولمّا اشتد الأمر، فكر رسول الله في تشتيت شمل الأحزاب، فبعث إلى عيينه بن حصن الفزاري سيّد غطفان، وإلى الحارث بن عوف المري، سيد بني مرة، في أن يصالحهما على قطع ثلث ثمار المدينة، على أن يرجعا بمن معهما عنه، فجاءا متخفيين، فوافقاه على ذلك، بعد أن طلبا النصف، وكتبا بذلك صحيفة الصلح، كتبها بخطه، عثمان بن عفان.

معارضة السعدين في الصلح على الوجه الذي رآه الرسول

فلما أراد ﷺ أن يبرم الصلح على ذلك، بعث إلى السعدين، سعد بن معاذ وسعد بن عبادة. فذكر لهما ذلك، واستشارهما فيه. فقالا: يا رسول الله أمراً تحبّه، فنصنعه؟ أم شيئاً أمرك الله به؟ لا بد لنا من العمل به، أم شيء تصنعه لنا؟ وإن كان هو الرأي، فما لهم عندنا إلا السيف. فقال لهم رسول الله: لو أمرني الله ما شاورتكما. والله ما أصنع ذلك، إلا لأني رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة، وكالبوكم من كل جانب، فأردت أن أكسر شوكتهم إلى أمر ما.

فقال سعد بن معاذ: قد كنا يا رسول الله! نحن وهؤلاء القوم «غطفان»

---

(١) سورة (الأحزاب) الآية: (١٠).

(٢) سورة (الأحزااب) الآية: (١٢).

على الشرك بالله وعبادة الأوثان. لا نعبد الله، ولا نعرفه. وهم لا يطمعون أن يأكلوا منا ثمرة، إلا قرى أو بيعاً. وإن كانوا لا يأكلون إلا العلهز[1] «الوبر والدم» من الجهد. فحين أكرمنا الله بالإسلام، وهدانا له، وأعزنا بك وبه، نقطعهم أموالنا؟ نعطي الدنية! مالنا بهذا من حاجة. والله لا نعطيهم إلا السيف، حتى يحكم الله بيننا وبينهم.

فقال رسول الله ﷺ: فأنت وذاك. ثم قال لسعد: شق الكتاب. فعمد سعد بن معاذ إلى الكتاب فشقه، وقال لعيينة والحارث: ارجعا بيننا وبينكم السيف. رافعاً بها صوته. فقال رسول الله: ليجهدوا علينا. فرجع القائدان يتعثران في أذيال الخيبة.

الحـرب

ثم أقبلت طائفة من قريش، مكرة على ظهور الخيل، تريد اقتحام الخندق، من مضيق به، وفيهم عكرمة بن أبي جهل، وهبيرة بن أبي وهب، وضرار بن الخطاب، وعمرو بن ود، ونوفل بن عبد الله، وكان عمرو بن ود ابن تسعين سنة، فدعا إلى البراز، فقام علي بن أبي طالب، وقال: أنا له يا رسول الله! فقال له: اجلس، إنه عمرو بن ود. ثم كرر عمرو النداء، وجعل يوبخ المسلمين، ويقول: أين جنتكم التي تزعمون أنه من قتل منكم دخلها؟! أفلا تبرزون لي رجلاً؟

فقام علي فقال: أنا له يا رسول الله! فقال: اجلس، إنه عمرو بن ود. ثم نادى الثالثة، فقام علي فقال: أنا له يا سول الله! فقال: إنه عمرو. فقال: وإن كان عمراً؟ فأذن له رسول الله في مناجزته، وأعطاه سيفه ذا الفقار، وألبسه درعه الحديد، وعممه بعمامته، وقال: اللهم أعنه عليه.

فمشى إليه علي رضي الله عنه فقال: يا عمرو! إنك عاهدت الله، لا يدعوني أحد إلى واحدة من ثلاث إلا قبلتها. قال: أجل. فقال علي: فأنا

---

(١) (العلهز): طعام من الدم والوبر، كان يتخذ في المجاعة.

أدعوك إلى الله وإلى رسوله، وإلى الإسلام. فقال: يا بن أخي! أخر عني هذه. قال: وأخرى، ترجع إلى بلادك، فإن يك محمد صادقاً، فأنت أسعد الناس به، وإن يك كاذباً كان الذي تريد. قال: هذا ما لا تتحدث به نساء قريش أبداً. كيف وقد غدوت على استيفاء ما نذرت؟ نذر لما أفلت هارباً يوم بدر، وقد جرح، ألا يمس رأسه ماء، ولا دهن، حتى يقتل محمداً. قال عمرو: فالثالثة؟ قال علي: المبارزة. فضحك عمرو، وقال: إن هذه لخصلة، ما كنت أظن أن أحداً من العرب يردعني بها. فمن أنت؟ قال: علي. قال عمرو: ابن عبد مناف؟ قال: علي بن أبي طالب. فقال: غيرك يابن أخي! من أعمامك، من هو أشدّ منك. فإني أكره أن أهريق دمك، فقد كنت لأبيك نديماً. فقال علي كرم الله وجهه: «يغضبه ويحميه»: ولكني والله! أحب أن أهريق دمك. فغضب، فقال له علي: كيف أقاتلك وأنت على فرسك؟ ولكن انزل معي. فاقتحم من فرسه، وسل سيفه كأنه شعلة نار. فعقر فرسه، وضرب وجهه. وأقبل علي كرم الله وجهه، فاستقبله بدرقته[١] فضربه عمرو فقدها، وأثبت فيها السيف، وأصاب رأسه فشجه، فضربه علي على حبل عاتقه «موضع الرداء من العنق» فسقط هامة[٢].

فكبر المسلمون

ولما قتل عمرو رجع من وصل الخندق من قريش بخيلهم، فتبعهم الزبير، وضرب نوفل بن عبد الله بالسيف فشقه نصفين، ووصلت الضربة إلى كاهل فرسه. فقيل له: يا أبا عبد الله! ما رأينا مثل سيفك. فقال: والله ما هو السيف، ولكنها الساعد.

وحمل الزبير على هبيرة بن أبي وهب، «زوج أم هانيء، أخت علي بن أبي طالب» فضرب ثغر فرسه، وسقط درع كان محقبها[٣] الفرس «جعلها على

---

(١) (الدرقة): الترس.

(٢) (الهامة): رأس كل شيء.

(٣) من (الحقيبة): كل ما شد في مؤخر الرحل. والمحقب: المردف. والحقب: الحبل يشدّ به.

مؤخر ظهرها» فأخذها الزبير، ولما شاهد ذلك عكرمة بن أبي جهل، ألقى رمحه، وانهزم.

وحمل ضرار بن الخطاب «أخو عمر» وهبيرة بن أبي وهب على علي، فأقبل عليهما. فأما ضرار فولى هارباً، وأما هبيرة فثبت، ثم ألقى درعه، وهرب. وكان فارس قريش وشاعرها.

ولما فر ضرار، تبعه أخوه عمر وصار يشتد في أثره، فكر ضرار على عمر، وحمل عليه بالرمح، ليطعنه، ثم أمسك، وقال: يا عمر! هذه نعمة مشكورة، أثبتها عليك، ويد لي عندك، غير مجزي بها، فاحفظها ووقع له أيضاً مثل ذلك معه، في يوم أحد. فإنه ضرب عمر بالقناة ثم رفعها عنه، وقال: ما كنت لأقتلك يا بن الخطاب.

وخرجت طائفتان من الأنصار ليلاً، لا يشعر بعضهم ببعض، ولا يظنون إلا أنهم العدو، فكانت بينهم جراح وقتل، ثم نادوا شعارهم ﴿ثم لا ينصرون﴾ فكف بعضهم عن بعض، وجاؤوا إلى رسول الله فقال: جراحكم في سبيل الله، ومن قتل منكم فهو شهيد.

ورمى سعد بن معاذ في هذه الواقعة، رضي الله عنه. فقطع أكحله «وهو عرق في الذراع تتشعب منه عروق البدن يقال له: المشترك وعرق الحياة» رماه ابن العرقة «لقب لجدته لقبت به لطيب عرقها» وقال: خذها، وأنا ابن العرقة.

وفي يوم، استمرت المقاتلة في جوانب الخندق من الصبح إلى الليل، ولم يصل رسول الله، ولا أحد من المسلمين صلاة الظهر والمغرب، والعشاء. وصار المسلمون يقولون: ما صلينا. فيقول ﷺ: ولا أنا.

قضـاء الصلاة

فلما انكشف القتال، جاء عليه الصلاة والسلام إلى قبته. وفي رواية أبي سعيد الخدري، قال:

حبسنا يوم الخندق حتى ذهب هواي[1] «طائفة من الليل» فدعا رسول الله بلالاً، فأمره فأقام الظهر، فصلاه، كما كان يصلي. ثم أقام العصر، فصلاها كذلك. ثم أقام المغرب، فصلاها كذلك. ثم أقام العشاء، فصلاها كذلك. فصلى كل صلاة كأحسن ما كان يصليها في وقتها.

وفي يوم آخر، لم يفته إلا العصر. فقد روى البخاري، عن عمر بن الخطاب أنه جاء يوم الخندق، بعدما كادت الشمس تغرب، فقال ﷺ: ما صليتها، يعني: العصر. فنزلنا مع النبي بطحان، فتوضأ للصلاة وتوضأنا لها، فصلى العصر بعدما غربت الشمس. ثم صلى بعدها المغرب. ولا مانع من التكرار، لأن غزوة الخندق دامت خمسة عشر يوماً.

وخرجت طائفة من الأنصار، ليدفنوا ميتاً منهم في المدينة، فصادفوا عشرين بعيراً لقريش، محملة شعيراً وتمراً وتيناً. حملها ذلك حيي بن أخطب، شداداً وتقوية لقريش، فأتوا بها رسول الله غنيمة. فتوسع بها المسلمون من أهل الخندق. ولما بلغ ذلك أبا سفيان، قال: إن حيياً لمشؤوم. فطع بنا. ما نجد ما نحمل عليه إذا رجعنا.

وكر خالد بن الوليد بطائفة من قريش، يطلب غرة للمسلمين، فصادف، أسيد بن حضير في مئتين من المسلمين، فناوشوهم. فكان في قريش وحشي، قاتل حمزة، فبرز له طفيل بن النعمان فقتله[2]. ثم عادوا، فكانوا يرسلون طلائعهم بالليل، يطمعون في الإغارة. فقام رسول الله ﷺ في المسلمين، لما توالت الغارات، فقال:

يا أيها الناس! لا تتمنوا لقاء العدو، اسألوا الله العافية، فإن لقيتم العدو فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف.

وكان رسول الله يختلف إلى ثلمة في الخندق. قالت عائشة: كان يذهب

---

(١) وجدت في (القاموس): (تهواء من الليل) ساعة. ولعل الصحيح (هوى) بدون ألف، قطعة من الليل، وقد وردت بهذه الصيغة في (سيرة ابن هشام).

(٢) (طفيل) هو القتيل رضي الله عنه. وهو من شهداء (الخندق) مع خمسة آخرين.

إلى تلك الثلمة، فإذا أخذه البرد جاء فأدفأته في حضني، فإذا دفىء خرج إلى تلك الثلمة. ويقول: ما أخشى أن يؤتى المسلمون إلا منها. فبينما رسول الله في حضني صار يقول: ليت رجلاً صالحاً يحرس هذه الثلمة الليلة؟ فسمع صوت السلاح، فقال: من هذا؟ فقال «سعد بن أبي وقاص»: سعد، يا رسول الله! أتيت أحرسك. فقال: عليك هذه الثلمة فاحرسها. ونام رسول الله حتى غط، ثم قام فصلى، ثم خرج من قبته، فقال: هذه خيل المشركين تطيف بالخندق. ثم نادى: يا عباد بن بشر! قال: لبيك. قال: هل معك أحد؟ قال: نعم. أنا في نفر حول قبتك يا رسول الله! وكان ألزم الناس لقبته يحرسها. فبعثه يطيف بالخندق، وأعلمه أن خيل الأحزاب تطيف بهم، وإذا أبو سفيان في خيل يطيفون بمضيق من الخندق، فرماهم المسلمون حتى رجعوا.

وأتى ليلته، نعيم بن مسعود الأشجعي وهو من غطفان، بين المغرب والعشاء، فوجده ﷺ وسلم يصلي، فلما رآه جلس، ثم قال: ما جاء بك يا نعيم؟ قال: جئت لأصدقك، فإني أسلمت، وقومي لا يعلمون بإسلامي، فمرني بما شئت. فقال رسول الله: إنما أنت رجل واحد فخذّل عنا ما استطعت. فإن الحرب (خدعة) «ينقضي أمرها بالمخادعة» فقال: إني أقول ما يقتضيه الحال، وإن كان خلاف الواقع. قال: قل ما بدا لك، فأنت في حل.

كيد رجل هزم الأحزاب

فخرج نعيم حتى أتى بني قريظة، وكان لهم نديماً. قال: فلما رأوني رحبوا بي، وعرضوا علي الطعام والشراب. فقلت: إني لم آت لشيء من هذا، إنما جئت تخوفاً عليكم، لأشير عليكم برأيي. «يا بني قريظة قد عرفتم ودي إيّاكم، وخاصة ما بيني وبينكم». قالوا: صدقت، لست عندنا بمتهم. فقال لهم: اكتموا عني. قالوا: نفعل. قال: لقد رأيتم ما وقع لبني قينقاع، ولبني النضير من إجلائهم، وأخذ أموالهم. وإن قريشاً وغطفان ليسوا كأنتم. البلد بلدكم، وبها أموالكم ونساؤكم وأبناؤكم، لا تقدرون على أن ترحلوا منه إلى غيره. وإن قريشاً وغطفان قد جاؤوا لحرب محمد وأصحابه،

وقد ظاهرتموهم وعاونتموهم عليه، وبلدهم ونساؤهم وأموالهم بغيره، فليسوا كأنتم، فإن رأوا نهزة «فرصة» أصابوها، وإن كان غير ذلك، لحقوا ببلادهم، وخلوا بينكم وبين بلدكم، والرجل ببلدكم، ولا طاقة لكم به. إن خلا بكم، فلا تقاتلوا معهم، حتى تأخذوا منهم رهناً من أشرافهم، بسبعين رجلاً، يكونون بأيديكم، ثقة لكم، على أن يقاتلوا معكم محمداً حتى يناجزوه.

قالوا: لقد أشرت بالرأي والنصح. ودعوا له، وشكروا. وقالوا: نحن فاعلون. قال: ولكن اكتموا عني. قالوا: نفعل.

ثم خرج من عند بني قريظة حتى أتى قريشاً، فقال لأبي سفيان ومن معه من الأكابر: قد عرفتم ودي لكم، وفراقي لمحمد، وإنه قد بلغني أمر، قد رأيت أن أبلغكموه، نصحاً لكم، فاكتموه عني. قالوا: نفعل.

قال: تعلمون أن معشر يهود بني قريظة قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد، من نقض عهده، وقد أرسلوا إليه، وأنا عندهم، أنا قد ندمنا على ما فعلنا، فهل يرضيك أن تأخذ من القبيلتين، قريش وغطفان، رجالاً من أشرافهم، سبعين رجلاً، فنعطيكهم فتضرب أعناقهم، وترد جناحنا الذي كسرت إلى ديارهم «يعني بني النضير» ثم نكون معك على من بقي منهم، حتى نستأصلهم، فأرسل إليهم يوافقهم. وقال لهم: فإن بعثت إليكم يهود يطلبون منكم رهناً من رجالكم، فلا تدفعوا إليهم رجلاً واحداً، واحذروهم على أسراركم. ولكن اكتموا عني، ولا تذكروا من هذا حرفاً. قالوا: لا نذكره. ثم ذهب فأتى غطفان فقال: يا معشر غطفان! إنكم أهلي وعشيرتي، وأحب الناس إليّ، ولا أراكم تتهمونني. قالوا: صدقت، ما أنت عندنا بمتهم. قال: فاكتموا علي. قالوا: نعم. فقال لهم مثل ما قال لقريش وحذرهم.

فلما كان ليلة السبت، أرسل أبو سفيان ورؤوس غطفان إلى بني قريظة، عكرمة بن أبي جهل، في نفر من قريش وغطفان، فقالوا لهم: إنا لسنا بدار مقام، قد هلك الخف والحافر، فأعدوا للقتال، حتى نناجز محمداً، ونفرغ مما

بيننا وبينه. فأرسلوا إليهم: إن اليوم الذي يلي هذه الليلة يوم السبت، وقد علمتم مالنا من تعد في يوم السبت. ومع ذلك، فلا نقاتل حتى تعطونا رهناً، سبعين رجلاً. فقالوا: صدق والله نعيم.

وفي رواية أخرى: أن بني قريظة أرسلت لقريش، قبل مجيء رسل قريش إليهم رسولاً، يقول لهم: ما هذا التواني؟! والرأي أن تتواعدوا على يوم، يكونون معكم فيه، لكنهم لا يخرجون حتى ترسلوا إليهم رهنا، سبعين رجلاً من أشرافكم، فإنهم يخافون إن أصابكم ما تكرهون، رجعتم وتركتموهم. فلم ترد قريش لهم جواباً. فذهب نعيم إلى بني قريظة وقال لهم: كنت عند أبي سفيان وقد جاءه رسولكم فقال: لو طلبوا مني عتاقاً[١] ما دفعتها لهم. فاختلفت كلمتهم. وجاء حيي بن أخطب لبني قريظة فلم يجد منهم موافقة. وقالوا: لن نقاتل معهم حتى يدفعوا إلينا سبعين رجلاً من قريش وغطفان. وهذا ما عندنا. فعاد يتعثر في أذيال الخيبة.

العاصفة بعد الكيد

وبعث الله ريحاً عاصفاً، وهي ريح الصبا[٢] في ليال شديدة البرد، فقلعت خيامهم، وقطعت أطنابها[٣] وكفأت قدروهم على أفواهها، وصارت الريح تلقي الرجال على أمتعتهم. وفي رواية: دفنتهم وأطفأت نيرانهم. وبذلك نطقت الآية[٤]:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾.

فبثت فيهم الرعب، وقال ﷺ: نصرت بالصبا، وأهلكت عاد بالدبور[٥]

---

(١) (العتاق): نجائب الخيل.
(٢) (الصبا): ريح مهبّها من مطلع الثريا إلى بنات نعش.
(٣) (الطنب) حبل يشدّ به سرادق البيت. أو الخيمة.
(٤) سورة (الأحزاب) الآية: (٩).
(٥) (الدبور): هي الريح التي تقابل الصبا. وتعاكسها في الهبوب.

وكانت ريحاً صفراء، لها أصوات مثل الصواعق، وكانت ليلة مظلمة، بحيث لا يرى الشخص إصبعه إذا مدها.

وارتاع المنافقون من هذه العاصفة، فجعلوا يستأذنون، ويقولون: بيوتنا عورة؛ لأنها خارج المدينة، وحيطانها قصيرة، يخشى عليها السرقة، فأذن لنا أن نرجع إلى نسائنا وأبنائنا وذرارينا، فيأذن لهم حتى لم يبق معه ﷺ تلك الليلة إلا ثلاثمئة.

ذكـاء المخبرين السريين

ولما بلغ رسول الله ﷺ اختلاف كلّ الأحزاب، ورأى من تأثير العاصفة ما رأى، قال: من يأتينا بخبر القوم؟ قال ذلك ثلاثاً. فما قام أحد من شدة الخوف والجوع والبرد. فدعا ﷺ حذيفة بن اليمان قال: فلم أجد بداً من القيام، حين نوديت باسمي فجئته ﷺ فقال: تسمع كلامي منذ الليلة، ولا تقوم؟ فقلت: لا. والذي بعثك بالحق! ما قدرت على ما في من الجوع والبرد والخوف. قال: والله ما بي أن أقتل، ولكن أخشى أن أوسر. فقال: إنك لن توسر، اذهب حفظك الله من أمامك، ومن خلفك، وعن يمينك، وعن شمالك، حتى ترجع إلينا. قال حذيفة: فلم يكن لي بد من القيام. وقال: اذهب فادخل في القوم. فقمت مستبشراً بدعاء رسول الله، كأني احتملت احتمالاً، وذهب عني ما كنت أجد من الخوف والبرد، وعهد إلي ﷺ فقال: إن بالقوم خبراً فأتني به. قال: فمضيت كأني أمشي في حمام. قال: فلما وليت دعاني، فقال لي: لا تحدثن شيئاً. وفي رواية: لا ترم بسهم ولا حجر ولا تضر بن بسيف، حتى تأتي. فجئت إليهم، ودخلت في غمارهم، فسمعت أبا سفيان يقول:

يا معشر قريش! ليتعرف كل امرىء منكم جليسه، واحذروا الجواسيس والعيون. فأخذت بيد جليسي على يميني، وقلت: من أنت؟ فقال: معاوية بن أبي سفيان. وقبضت يد من على يساري، وقلت: من أنت؟ قال: عمرو بن العاص. فعلت ذلك خشية أن يفطن بي.

ثم جعل أبو سفيان يخطب، فقال: يا معشر قريش! والله إنكم لستم بدار

مقام، ولقد هلك الكراع والخف. وأخلفتنا بنو قريظة وبلغنا عنهم الذي نكره، ولقينا من هذه الريح ما ترون، فارتحلوا فإني مرتحل. ووثب على جمله، فما حل عقال يده إلا وهو قائم. فلما ضربه وثب. فقال له عكرمة بن أبي جهل: إنك رأس القوم وقائدهم، تذهب وتترك الناس؟ فاستحيا أبو سفيان، وأناخ جمله، وأخذ بزمامه، وهو يقوده، وقال:

ارحلــوا

فجعل الناس يرحلون، وهو قائم، ثم قال لعمرو بن العاص: يا أبا عبد الله تقيم في جريدة[1] من الخيل، بإزاء محمد وأصحابه، فإنا لا نأمن من أن نطلب. فقال عمرو: أنا أقيم. وقال لخالد بن الوليد: ما ترى يا أبا سليمان؟ فقال: أنا أيضاً أقيم. فأقام عمرو وخالد في مئتي فارس. وسار جميع العسكر.

وقال حذيفة: ولولا عهد رسول الله إلي حين بعثني، ألا أحدث شيئاً، لقتلت أبا سفيان بسهم.

وسمعت غطفان ما فعلت قريش، فاشتدّوا راجعين إلى بلادهم، فقد دخل عسكرهم[2] فإذا الناس يقولون: الرحيل! الرحيل! لا مقام لكم. والريح تقلبهم على بعض أمتعتهم. فلمّا انتصفت الطريق إذا أنا بنحو عشرين فارساً معتمين[3]، فخرج إلي منهم فارسان، وقالا: أخبر صاحبك: أن الله كفاه القوم. ثم أتيت رسول الله، فوجدته قائماً يصلّي، فأخبرته الخبر. فضحك حتى بدت ثناياه في سواد الليل، وعاودني البرد، فجعلت أقرقف[4]

---

(١) (الجريدة): خيل لا رجالة فيها. كلهم راكبون.

(٢) يعني (حذيفة) رضي الله عنه.

(٣) (معتمين) سائرين في العتمة، وهي ثلث الليل الأول، بعد غيبوبة الشفق، أو وقت صلاة العشاء الآخرة. وإذا كانت بتشديد الميم، فمن لبس العمامة. المحقق.

(٤) (تقرقف) برد حتى تقرقفت ثناياه بعضها ببعض: اصطكت من شدّة البرد.

أمامه، فأومأ إلي بيده، فدنوت منه، فسدل علي من فضل شملته[1] فنمت، ولم أزل نائماً حتّى الصبح.

فلما أن أصبحت، قال: قم يا (توسان)[2]. وكان يقال لحذيفة: صاحب سر رسول الله، الذي لا يعلمه غيره.

وحين انجلاء الأحزاب. قال ﷺ: الآن لا نغزوهم ولا يغزونا. وانصرف رسول الله لسبع ليال بقين من ذي القعدة. على قول ابن سعد. وكان ذلك في سنة خمس من الهجرة. على ما أثبته الجمهور ومنهم الذهبي، وابن القيم، وابن حجر.

ابن حبان يكذب وضع الحجر على بطنه ﷺ من الجوع

لما نهى النبي ﷺ الصحابة عن الاختلاط الجنسي[3] قالوا له: مالك أنت يا رسول الله؟ قال: إني لست مثلكم إني أبيت يطعمني ربّي ويسقيني. قال ابن حبان: في هذا الحديث دليل على بطلان ما ورد أنه ﷺ كان يضع الحجر على بطنه من الجوع قال: وإنما لفظ الحديث كان يضع الحجز بالزاي وهو طرف الإزار فصحفوا، وزادوا لفظ (من الجوع). فتأمل.

كتاب أبي سفيان إلى رسول الله

ولما ارتحل الأحزاب، أرسل أبو سفيان كتاباً لرسول الله، قال فيه:

---

(١) الشملة: كساء يشتمل به.

(٢) لم أعثر على معنى لهذه اللفظ، ولم يشرحها المؤلف، كعادته في شرح الغريب. ولم يوردها (ابن هشام) في سيرته، وفي القاموس: فلان من توس صدق، أي: من أصل صدق.

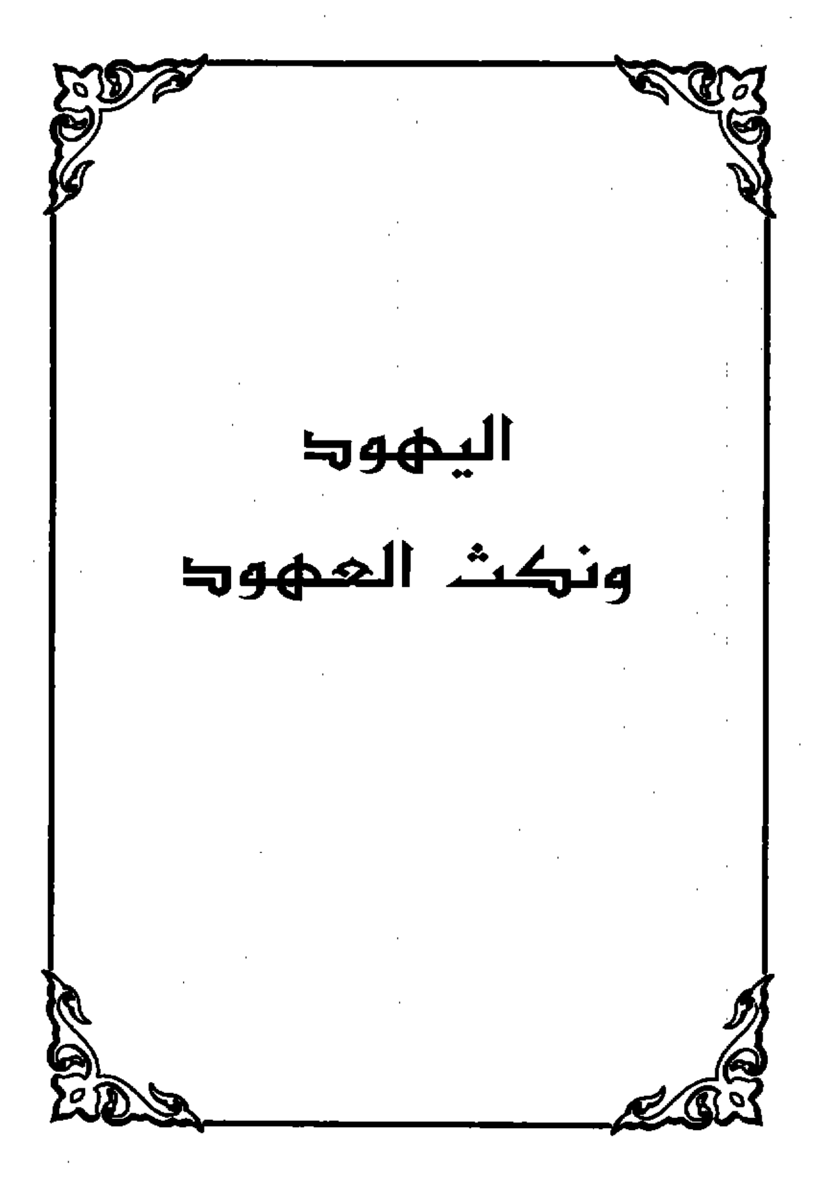
(٣) ربما المقصود النهي عن الإفراط الذي يتجاوز الفطرة البشرية إلى الشهوة الحيوانية. على أن الشيخ، رحمه الله، قد ختم الفقرة بقوله: (فتأمّل). وهذه الفقرة غير واردة في طبعة (غ). المحقق.

باسمك اللهم! فإني أحلف باللات والعزى وأساف ونائلة وهبل. لقد سرت إليك في جمع، وأنا لا أريد أن أعود إليك أبداً، حتى أستأصلكم. فرأيتك قد كرهت لقاءنا، واعتصمت بمكيدة الخندق، ما كانت العرب تعرفها، وإنما تعرف ظل رماحها، وشبا سيوفها، وما فعلت هذا إلا فراراً من سيوفنا ولقائنا، ولك مني يوم كيوم أحد.

جواب رسول الله لأبي سفيان

بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله، إلى أبي سفيان بن صخر بن حرب. فبعد. أتاني كتابك، وقديماً غرك بالله الغرور. وأما ما ذكرت بأنك سرت إلينا، وأنت لا تريد أن تعود حتى تستأصلنا، فذلك أمر يحول الله بينك وبينه، ويجعل لنا العاقبة، وليأتين عليك يوم، أكسر فيه اللات والعزى وأساف ونائلة وهبل، حتى أذكرك ذلك.

* * *



اليهود
ونكث العهود

تأديب بني قريظة على نكث العهد

لما انصرف رسول الله من الخندق، دخل المدينة وقت الظهيرة، وقد صلى الظهر، فدخل بيت عائشة، فاغتسل ورجل شعره، ودعا بالمجمرة فتبخر، وإذا بمناد نادى في موضع الجنائز: عذيرك من محارب؟ «أي: من يعذرك» فارتاع لذلك رسول الله، ووثب وثبة منكرة، وخرج فخرجت في إثره عائشة، فإذا رجل على دابة، والنبي متكىء على معرجة[1] الدابة يكلمه. فرجعت . فلما دخل قالت: من ذلك الرجل الذي كنت تكلمه؟ قال: ورأيته؟ قالت: نعم. قال: بمن تشبهينه؟ قالت: بدحية الكلبي. قال: ذاك جبريل. أمرني أن أمضي إلى بني قريظة. ولما أدبر الراكب، سطع الغبار في زقاق بني غنم من الأنصار.

وفي البخاري، عن أنس قال: كأني أنظر إلى الغبار ساطعاً في زقاق بني غنم ، موكب «نوع من السير»[2] جبريل حين سار لبني قريظة.

ولما ذهب الراكب، أمر رسول الله بلالاً، أن يؤذن في الناس، بأن من كان سامعاً مطيعاً، فلا يصلين العصر، إلا في بني قريظة. وفي رواية: بعث رسول الله يومئذ منادياً ينادي: يا خيل الله! يا فرسان خيل الله! اركبي. ثم سار إليهم، وقد لبس ﷺ السلاح: الدرع، والمغفر، والبيضة. وأخذ قناة بيده الشريفة، وتقلد السيف، وركب فرسه (اللحيف)[3] «وقيل: ركب حمار اليعفور» والناس حوله، قد تقلدوا السلاح. وهم ثلاثة آلاف. والذين على الخيل ستة وثلاثون فرساً له ﷺ ثلاثة منها، واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم، ودفع لواءه إلى علي بن أبي طالب. واللواء على حاله لم يحل من مرجعه من الخندق. ومر ﷺ بنفر من بني النجار، وقد لبسوا السلاح.

---

(١) (معرجة الدابة): موقع الركوب على ظهرها.

(٢) لم يتضح لي مدلول التفسير، عائداً لماذا؟

(٣) وورد في (تاريخ الطبري) بلفظ (اللخيف) بالخاء. وفي (اللسان): وفي الحديث: كان اسم فرسه ﷺ اللحيف، لطول ذنبه؛ كأنه يلحف الأرض بذنبه. المحقق.

فقال: هل مر بكم أحد؟ قالوا: نعم. دحية الكلبي، مر على فرس أبيض عليه اللأمة، وأمرنا بحمل السلاح، وقال لنا: رسول الله يطلع عليكم الآن. فلبسنا سلاحنا.

تقدم علي بن أبي طالب، ومعه نفر من المهاجرين والأنصار، وركز اللواء عند أهل الحصن. فسمع طعناً من اليهود في حق رسول الله، وآل بيته. فسكت عنهم المسلمون وقالوا: بيننا وبينهم السيف.

وحين أقبل رسول الله، أمر علي أبا قتادة الأنصاري أن يلزم اللواء، وذهب يلقى رسول الله. فقال له: يا رسول الله! عليك ألا تدنو من هؤلاء الأخابث. قال: لعلك سمعت منهم لي أذى؟ قال: نعم يا رسول الله. قال: لو رأوني لم يقولوا من ذلك شيئاً.

فلما دنا رسول الله من حصونهم، قال: يا إخوان القردة! هل أخزاكم الله، وأنزل بكم نقمته؟! أتشتمونني؟ فجعلوا يحلفون. ويقولون: ما قلنا. فقالوا: يا أبا القاسم! ما كنت جهولاً ولا فاحشاً. وقيل: تقدمه أسيد بن حضير، فقال لهم: يا أعداء الله! لا تبرحوا من حصنكم حتّى تموتوا جوعاً. إنما أنتم بمنزلة ثعلب في جحر. فقالوا: يا بن الحضير! نحن مواليك. قال: لا عهد بيني وبينكم.

وحاصر رسول الله بني قريظة خمساً وعشرين ليلة. وكان طعام الصحابة التمر، يرسل به إليهم سعد بن عبادة، حتى جهدهم الحصار. وقذف الله في قلوبهم الرعب. وكان حيي بن أخطب دخل مع بني قريظة حصنهم، حين رجعت الأحزاب، وفاء لكعب، بما كان عاهده عليه.

مداولـــة القرظيين في أمرهم

فلما تيقنوا أن رسول الله غير منصرف عنهم، حتى يناجزهم، قال كبيرهم، كعب بن أسد: يا معشر يهود! قد نزل بكم من الأمر ما ترون، وإنّي عارض عليكم خلالاً ثلاثاً، أيها شئتم؟ قالوا: وما هي؟ قال: نتابع هذا الرجل ونصدقه، فوالله لقد تبين لكم أنه نبي مرسل، وأنه الذي تجدونه في كتابكم، فتأمنون على دمائكم وأموالكم ونسائكم وأبنائكم، وما منعنا من

الدخول معه إلا الحسد للعرب، حيث لم يكن من بني إسرائيل. ولقد كنت كارهاً لنقض العهد. ولم يكن البلاء والشؤم إلا من هذا الجالس حيي بن أخطب. أتذكرون ما قال لكم ابن خراش حين قدم عليكم: أنه يخرج بهذه القرية نبي، فاتبعوه وكونوا له أنصاراً؟

فأجابه اليهود: لا نفارق حكم التوراة أبداً، ولا نستبدل به غيره. قال كعب: فإذا أبيتم هذا؟ فهلم فلنقتل أبناءنا، ونساءنا. ثم نخرج إلى محمد رجالاً، مصلتين السيوف، ولا نترك وراءنا ثقلاً، حتى يحكم الله بيننا وبين محمد. فإن نهلك نهلك ولم نترك وراءنا نسلاً، نخشى عليه. وإن نظفر، فلعمري، لنجدن النساء والأبناء.

قالوا: نقتل هؤلاء المساكين؟؟ فما خير العيش بعدهم؟!

قال: فإن أبيتم على هذه، فإنّ الليلة ليلة السبت، وإن عسى أن يكون محمد وأصحابه قد أمنوا فيها، فانزلوا، لعلنا نصيب منهم غرة!

فقالوا: نعبد بسبتنا! ونحدث فيه ما لم يحدث فيه من كان قبلنا؟

وقال لهم عمرو بن سعدي: قد خالفتم محمداً فيما حالفتموه، ولم أشرككم في غدركم. فإن أبيتم أن تدخلوا معه، فاثبتوا على اليهودية وأعطوا الجزية. فوالله لا أدري، يقبلها أم لا ؟

قالوا: نحن لا نقر للعرب بخراج في رقابنا يأخذونه. القتل خير من ذلك.

قال: فإني بريء منكم. وخرج في تلك الليلة، ومر بحرس رسول الله، وعليه محمد بن مسلمة. فقال محمد: من هذا؟ قال: عمرو بن سعدي. ثم قال: اللهم لا تحرمني إقالة عثرات الكرام. وخلى سبيله. ولم يدر بعد ذلك أين هو؟

وروى كتاب السيرة، أنه قال لقريظة قبل قدوم النبي لحصارهم: يا بني قريظة! لقد رأيت عبراً، رأيت دار إخواننا بني النضير خالية بعد ذلك العز والخلد والشرف، والرأي الفاضل والعقل. تركوا أموالهم، قد تملكها

غيرهم، وخرجوا خروج ذل. لا، والتوراة، ما سلط هذا على قوم قط، ولله بهم حاجة.

وقد أوقع ببني قينقاع، وكانوا أهل عزة وسلاح، ونخوة، فلم يخرج أحد رأسه، حتى سباهم، فكلم فيهم، فتركهم على إجلائهم من يثرب.

يا قوم! قد رأيتم ما رأيتم، فأطيعوني، وتعالوا نتبع محمداً. فوالله! إنكم تعلمون أنه نبي، ولقد بشر به علماؤنا. ثم لا زال يخوفهم بالحرب والسبي والجلاء. ثم أقبل على كعب بن أسد وقال: والتوراة التي أنزلت على موسى يوم طور سينا، إنه للعز والشرف في الدنيا. فبينما هم كذلك لم يرعهم إلا مقدمة النبي قد حلت بساحتهم. فقال: هذا الذي قلت لكم.

طلب القرظيين السماح لهم بالجلاء ورفض ذلك

وبعد الحصار أرسلوا بنباش بن قيس، إلى رسول الله ﷺ، أن ينزلوا على ما نزلت عليه بنو النضير. من أن لهم ما حملت الإبل، إلا الحلقة. فأبى رسول الله أن يحقن دماءهم، ويسلم لهم نساءهم والذرية.

فأرسلوه ثانياً، بأنه لا حاجة لهم بشيء من الأموال، ولا من الحلقة، ولا من غيرها.

فأبى رسول الله أن يجيبهم إلى ذلك. وأمرهم أن ينزلوا على حكمه. فعاد بنباش إليهم بذلك.

إنّه الذبح

وبعد ذلك بعثوا إلى رسول الله ﷺ، أن أبعث إلينا أبا لبابة. وهو رفاعة بن المنذر، لنستشيره في أمرنا. وكان بين الأوس حلف وبني قريظة، وكان مناصحاً لهم؛ لأن ماله وعياله وولده كانت عندهم(١) فأرسله إليهم.

---

(١) أشار الشيخ إلى فقرة تابعة للنص في قصاصة منفردة كتب عليها (تابع صحيفة١٢٣) من ترقيم المخطوطة، وعلى القصاصة ما يشير إلى تشطيب فقراتها بجرة قلم. وكأن =

فلما رأوه قام إليه الرجال، وجهش «أسرع»[1] إليه النساء والصبيان يبكون في وجهه من شدّة المحاصرة، وتشتيت بالهم، فرق لهم، وقالوا: يا أبا لبابة! أترى أن ننزل على حكم محمد؟ قال: نعم. وأشار بيده إلى حلقه، أي: إنه الذبح. قالوا له: أما ترى أن ننزل على حكم سعد بن معاذ؟ فأومأ أبو لبابة بيده إلى حلقه: «إنه الذبح» فلا تفعلوا. قال أبو لبابة: فوالله ما زالت قدماي من مكانهما، حتى عرفت أني خنت الله ورسوله. لأن في ذلك تنفيراً لهم عن الانقياد له ﷺ.

فنزلت الآية:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[2].

فانطلق أبو لبابة، على وجهه. فلم يأت رسول الله، وارتبط بالمسجد إلى عمود من عمده. «سارية» وهي التي كانت عند باب أم سلمة.

وكانت تلك الأسطوانة أكثر تنفله ﷺ عندها، وكان ينصرف إليها من صلاة الصبح، فكان يستبق إليها الفقراء والمساكين، ومن لا بيت له إلا المسجد، فيجيء إليهم رسول الله، ويتلوا عليهم ما أنزل من ليلته، ويحدثهم ويحدثونه.

وارتبط أبو لبابة بسلسلة ربوض «ثقيلة» وقال: والله لا أذوق طعاماً

= الشيخ رحمه الله لم يتأكد من صحة روايتها، فاكتفى بما هو مثبت في النص الأصلي. ولكن رأيت من الوفاء أن أثبت نصها، وهو ما يلي:

«فدعاه رسول الله ﷺ وقال له: اذهب إلى حسبائك فإنهم أرسلوا إليك من بين الأوس، فذهب إليهم. فقال كعب بن أسيد: يا أبا بشير! قد عرفت ما بيننا، وقد اشتد علينا الحصار، وهلكنا. ومحمد لا يفارق حصننا حتى ننزل على حكمه. فلو زال عنّا حتّى لحقنا بالشام أو خيبر. ولم نطأ له أرضاً، ولم نكثر عليه جمعاً أبداً. ما ترى، وقد اخترناك على غيرك، أننزل على حكم محمد؟ قال أبو لبابة: نعم».

والفقرة مدرجة في طبعة (غ) مع اختلاف في الصياغة.

(١) (جهش): فزع إليه، وهو يردد البكاء، ومنه: أجهش بالبكاء.

(٢) سورة(الأنفال) الآية: ٢٧.

ولا شراباً حتى أموت، أو يتوب الله علي مما صنعت. وعاهد الله ألا يطأ أرضاً لبني قريظة أبداً، ولا يرى في بلد، خان الله ورسوله فيه أبداً.

فلما بلغ رسول الله خبر أبي لبابة، وكان استبطأه. قال: أما لو جاءني لاستغفرت له. وأما إذ فعل ما فعل، فما أنا بالذي أطلقه، حتى يتوب الله عليه. واستمر على ذلك، حتى تاب الله عليه. ونزلت في حقه الآية[1]:

﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

قبول بني قريظة حكم رسول الله فيهم

ثم إن بني قريظة نزلوا على حكم رسول الله، وكانوا ستمئة، وقيل: سبعمئة وخمسين رجلاً. فأمر بهم فكتفوا، وأخرج النساء والذراري من الحصون، وجعلوا ناحية وكانوا ألفاً. واستعمل عليهم عبد الله بن سلام وهو من مسلمة اليهود، فتواثبت الأوس. وقالوا: يا رسول الله! موالينا وحلفاؤنا! وقد فعلت في موالي إخواننا بالأمس[2] ما قد فعلت. يعنون: بني قينقاع، فقد وهبهم لعبد الله بن سلول، على أن يجلوا من المدينة. كما تقدم. فظنت الأوس، أنه يفعل مع بني قريظة كذلك، ويهبهم لهم. ولما كلموه في ذلك أبى أن يفعل؛ لأن بني قريظة نكثوا العهد، وتألبوا عليه مع أعدائه. وبنو قينقاع لم يفعلوا ذلك.

ولمّا اشتد غضبهم، مال إلى التساهل معهم، فقال لهم: أما ترضون يا معشر الأوس أن يحكم فيهم رجل منكم؟ قالوا: بلى. فقال: ذلك إلى سعد بن معاذ. ففرحوا بذلك. وسري عنهم.

---

(١) سورة (التوبة) الآية: ١٠٢.

(٢) الصيغة في سيرة (ابن هشام) كما يلي: «فتواثب الأوس، فقالوا: يا رسول الله! إنهم موالينا، دون الخزرج. وقد فعلت في موالي إخواننا بالأمس، ما قد فعلت». وقد كرر الشيخ، رحمه الله، لفظ (الأوس) قبل (الأمس) خطأ، فحذفتها. المحقق.

سعد بن معـــاذ في مستشفى رفيدة

كان للمرضى والمجروحين، الذين لم يكن لهم من يقوم عليهم، خيمة في المسجد، تسمى (خيمة رفيدة) تداوى فيها المرضى والمجروحون.

ولما عاد رسول الله من واقعة الخندق، وكان سعد بن معاذ مجروحاً في يده، فقال: اجعلوه في خيمة رفيدة، حتى أعوده من قرب.

ولما أمر رسول الله بتحكيمه في بني قريظة، أتاه الأوس فحملوه على حمار، ثم أقبلوا به إلى رسول الله، وهم يقولون له: يا أبا عمرو! أحسن في موالينا، فإن رسول الله إنما ولاك ذلك لتحسن فيهم، فأحسن فيهم، فقد رأيت ابن أبي وما صنع في حلفائه، وهو ساكت. فلما أكثروا عليه قال: لقد آن لسعد ألا تأخذه في الله لومة لائم. فقال بعضهم: واقوماه!

فلما وصل سعد إلى المعسكر، وكان فيه رسول الله، والمسلمون حوله جلوس. قال رسول الله: قوموا إلى سيدكم، فأنزلوه، معاشر الأنصار! فقاموا إليه صفين، يحييه كل رجل منهم حتى انتهى إلى النبي فقال: احكم فيهم يا سعد. فقال: الله ورسوله أحق بالحكم. قال: قد أمرك الله أن تحكم فيهم. فقال سعد لمن كان في الناحية التي ليس فيها رسول الله: عليكم بذلك عهد الله وميثاقه أن الحكم فيهم كما حكمت؟ قالوا: نعم. قال: وعلى من هنا مثل ذلك؟ وأشار إلى الناحية التي فيها رسول الله، وهو معرض عنه، إجلالاً له. فقال رسول الله: نعم.

ثم التفت سعد إلى بني قريظة، فقال لهم: أترضون بحكمي؟ قالوا: نعم. فأخذ عليهم عهد الله وميثاقه.

إنّ الحكم ما حكم به سعد بن معاذ

فحكم سعد بن معاذ بعد أن نظر في خياشيمهم، بإعدام الرجال البالغين،

ولفظه: قتل كل من جرت عليه الموسى[1]، ومصادرة الأموال، وسبي الذراري والنساء، وتمليك ديارهم للمهاجرين دون الأنصار.

فقالت الأنصار: إخواننا، لنا معهم. فقال: إني أحببت أن يستغنوا عنكم. وقال رسول الله لسعد: لقد حكمت فيهم بحكم الله، من فوق سبعة أرقعة[2].

جمع الفيء وقسمته

وبعد صدور الحكم، أمر ﷺ بجمع ما وجد في حصون بني قريظة من الحلقة والسلاح، وغير ذلك، فجمع، فوجد فيها ألف وخمسمئة سيف وثلاثمئه درع، وألفي رمح، وخمسمئة فرس وجحفة. ووجد أثاث كثير، وآنية كثيرة، وأجمالاً نواضح[3] وماشية، وشياها كثيرة، ونخلاً.

فخمس ذلك كله، حتى الرثة وهو «السقط من أمتعة البيت» خمسة أجزاء، ففرق أربعة أسهم على الناس، فجعل للفارس ثلاث حصص، حصة له، وحصتان لفرسه. وللراجل حصّة. وهو أول فيء وقعت فيه المحاصة. وأسهم لخلاد بن سويد، الذي قتلته نباتة اليهودية. وأسهم لسنان بن محصن الذي مات في نصب الحصار.

ورضخ[4] للنساء اللائي حضرن القتال، وهن: صفية بنت عبد المطلب، وأم عمارة. وأم سليط، وأم العلا، والسميراء بنت قيس، وأم سعد بن معاذ وكبشة بنت رافع. ولم يسهم لهن. وأخذ هو ﷺ جزءاً، وهو الخمس. ووجد جرار خمر، فأهريق، ولم يخمس.

---

(١) أي: بلغ سن البلوغ، وأنبت الشعر. وانظر إلى عطية ورفاعة القرظيين فيما سيأتي. المحقق.

(٢) (الأرقعة): السموات. الواحدة رقيع. هي السماء الأولى، والرقع: السماء السابعة.

(٣) (نواضح) من الأبل، التي يستقى عليها، واحدها: ناضح.

(٤) (رضخ) له: أعطاه عطاء غير كثير.

تنفيذ حكم القتل

وأمر بنقل الرجال المحكوم عليهم بالقتل، إلى دار أسامة بن زيد. والنساء والذرية إلى دار ابنة الحارث النجارية، وقد كانت معدودة لنزول الوفود من العرب، وأمر بحمل المتاع، وترك المواشي ترعى هناك الشجر.

وغدا ﷺ إلى المدينة، ثم خرج إلى السوق، فأمر بحفر الحفائر، ثم أمر بقتل المحكومين فبعث إليهم، فجيء بهم أرسالاً، تضرب أعناقهم، ويلقون في تلك الحفر.

وقال بعضهم لكعب بن أسد، وهم يساقون إلى الموت: ما ترى يصنع فينا محمد؟ قال: أفي كل موطن لا تعقلون؟ أما ترون أن من ذهب منكم لا يرجع؟ هو والله القتل. قد دعوتكم إلى غير هذا، فأبيتم علي. قالوا: ليس حين عتاب. ثم استمر قتلهم إلى الليل، على شعل السعف. ثم رد عليهم التراب.

وكان للنساء حين القتل منظر يفتت الأكباد، فقد شققن الجيوب، ونشرن الشعور، ولطمن الخدود. وملأن فضاء المدينة نواحاً وصراخاً.

وكان من جملة من أوتي بهم للقتل، حيي بن أخطب، مجموعة يداه إلى عنقه بحبل. فلما نظر إليه رسول الله قال: ألم يمكن الله منك يا عدو الله؟ قال: بلى. أبى الله إلا تمكينك مني. أما والله ما لمت نفسي في عداوتك، ولكنه من يخذل الله يخذل. ثم أقبل على الناس، فقال: أيها الناس! إنه لا بأس بأمر الله، كتاب وقدر وملحمة.

ولما أُتي بكعب بن أسد، سيد بني قريظة. قال له رسول الله: يا كعب! قال: نعم يا أبا القاسم! قال: ما انتفعتم بنصح ابن خراش لكم؟ قال: يا أبا القاسم! ولولا أن تعيرني اليهود بالجزع من السيف لاتبعتك. ولكني على دين يهود. فأمر رسول الله أن يقدم، فضرب عنقه.

ولم يقتل من نساء اليهود، إلا امرأة واحدة، اسمها نباتة، كانت رمت خلاد بن سويد برحى قتلته. وروي عن عائشة قالت عنها: إنها لعندي

تتحدث معي تضحك ظهراً وباطناً. وكانت جارية حلوة. والقتل جار في رجالها في السوق، إذ هتف هاتف باسمها: أين نباتة؟ قالت: أنا والله! فقلت لها: ويلك مالك؟ قالت: أقتل. قلت: ولم؟ قالت: لحدث أحدثته. قتلني زوجي. فقالت لها عائشة: كيف قتلك زوجك؟ قالت: أمرني أن ألقي رحى على أصحاب محمد، كانوا تحت الحصن مستظلين في فيئه. فأدركت خلاد بن سويد، فشدخت رأسه، فمات، وأنا أقتل به. قالت عائشة: فانطلق بها فضرب عنقها. والله ما ألقى عجباً، من طيب نفسها وضحكها، وقد عرفت أنها تقتل.

وكان المتولي للقتل: علي بن أبي طالب، والزبير بن العوام. وبينما كانا منهمكين في القتل، إذ أقبل سعد بن عبادة والحباب بن المنذر، فقالا: يا رسول الله! إن الأوس قد كرهت قتل بني قريظة لمكان حلفهم. فقال سعد بن معاذ: ما كرهه أحد من الأوس وفيه خير، فمن كرهه فلا أرضاه الله. فقام أسيد بن حضير فقال: يا رسول الله! لا تبق داراً من دور الأوس إلا فرقت فيها من بقي من اليهود، يقتلونهم. والمراد بالأوس: الذين كرهوا القتل. فقتلوا من بعث بهم إلى دورهم. فاشتركوا فيما كرهوه من قتل حلفائهم مع المهاجرين.

وكان بين اليهود: الزبير بن بطاء، وكان شيخاً كبيراً. ولما قدم للقتل، جاء ثابت بن قيس فقال: يا أبا عبد الرحمن! هل تعرفني؟ قال: فهل يجهل مثلي مثلك؟ قال: أردت أن أجزيك بيدك عندي. «وكان قد منّ على ثابت في الجاهلية يوم بعاث، في الحرب التي كانت بين الأوس والخزرج. وكان الظفر فيها للأوس، فأخذه الزبير فجز ناصيته ثم خلّى سبيله» قال: إن الكريم يجزي الكريم، وأحوج ما كنت إليّ اليوم. فأتى ثابت إلى رسول الله، فقال: إنه كان للزبير علي منة، وقد أحببت أن أجزيه بها، فهب لي دمه. فقال له رسول الله: هو لك. فأتى ثابت فقال له: إن رسول الله قد وهب لي دمك، فهو لك. فقال: شيخ كبير، لا أهل له ولا ولد، فما يصنع بالحياة؟ فعاد ثابت إلى رسول الله. فقال: بأبي أنت وأمي! امرأته وولده؟ فقال: هم لك! قال: فأتيته. فقلت: قد وهب لي رسول الله أهلك وولدك فهم لك. فقال:

أهل بيت بالحجاز، لا مال لهم، فما بقاؤهم على ذلك؟ فرجع إلى رسول الله فقال: ماله؟ فقال: هو لك. فأتيته فقلت له: قد أعطاني رسول الله مالك، فهو لك. فقال الزبير: أي ثابت! أما أنت فقد كافيتني، وقضيت الذي عليك. ما فعل بالذي كان وجهه مرآة مضيئة تتراءى منها عذارى الحي: كعب بن أسد، سيد بني قريظة؟ قلت: قتل. قال: فما صنع بسيد الحاضر والبادي ابن أخطب؟ قلت: قتل. قال: فما فعل بمقدمنا إذا شددنا، وحامينا إذا فررنا، عزَّال بن سموأل؟ قلت: قتل. قال: فما فعل المجلسان «يعني بني كعب بن قريظة وبني عمرو بن قريظة» فقلت: قتلوا. قال: فإني أسألك يا ثابت! بيدك عندي، إلا ألحقتني بالقوم. فوالله! ما بالعيش بعد هؤلاء من خير؟ أأرجع إلى دار قد كانوا حلولاً فيها، فأخلد فيها بعدهم؟ لا حاجة لي فما أنا بصابر لله، إفراغه دلو ناضح «مقدار الزمن الذي يفرغ فيه ماء الدّلو» حتّى ألقى الأحبّة. قال ثابت: ما كنت لأقتلك. فقال: لا أبالي من قتلني. فقتله الزبير بن العوام. فكان أهله وماله من جملة الفيء.

وحكى لنا عطية القرظي عن نفسه، قال: كنت غلاماً، فوجدوني لم أنبت فخلوا سبيلي. وكان رفاعة قد أنبت، فأرادوا قتله. فلاذ بسلمى بنت قيس، أم المنذر، وكانت إحدى خالات عبد المطلب، وهي من بني النجار، فقالت: بأبي وأمي يا رسول الله! هب لي رفاعة. فوهبه لها. فأسلم.

* * *



كلمة الله العليا

لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا ولكن تغزوهم

ولما انقضى شأن بني قريظة قال رسول الله ﷺ: لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا، ولكنكم تغزوهم. فكان كذلك.

وانفجر جرح سعد بن معاذ، الذي في يده، وسال منه الدم، وذلك أن عنزاً مرت عليه، وهو مضطجع، فأصابت الجرح بظلفها فانفجرت جراحته، فجعلت الدماء تسيل، فمات منه، وحمل إلى منزله. ولما اتصل خبره برسول الله، قام يجر ثوبه، حتى أتى بيته، وما في البيت إلا سعد مسجى، وجلس عنده ساعة، ثم خرج وأمر بدفنه.

وروى البيهقي أنه ﷺ، حمل جنازة سعد بن معاذ بين العمودين، ومشى أمام جنازته. وجاءت أمه، ونظرت إليه في اللحد، وقالت: أحتسبك عند الله. وعزاها رسول الله، وهو واقف على قدميه على القبر. فلما سوي التراب على قبره، رش عليه الماء، ثم دعا وانصرف. وناحت عليه أمه، فقال ﷺ: كل نائحة تكذب، إلا نائحة سعد بن معاذ. فإنه كان موصوفاً بكل ما يقال فيه من الأوصاف الحسنة، بخلاف غيره.

هدية صاحب دومة الجندل

وأهدى صاحب دومة الجندل إلى رسول الله، جبة من سندس، فوهبها ﷺ إلى عمر بن الخطاب.

توبة أبي لبابة

ونزلت توبة أبي لبابة على رسول الله، وهو في بيت أم سلمة، قالت: سمعت رسول الله من السحر يضحك. فقالت: مم تضحك؟ أضحك الله سنك. قال: تيب على أبي لبابة. قالت: أفلا أبشره يا رسول الله؟ قال: بلى. إن شئت. فقامت على باب حجرتها فقالت: يا أبا لبابة! أبشر فقد تاب الله عليك.

قالت أم سلمة: فثار الناس إليه ليطلقوه، فقال: لا والله! حتى يكون

رسول الله هو الذي يطلقني بيده الشريفة. فلما مر رسول الله على أبي لبابة خارجاً إلى صلاة الصبح، أطلقه.

وفي (الإمتاع): أن أبا لبابة، أقام مربوطاً خمس عشرة، ليلة وكانت تأتيه امرأته في وقت كل صلاة فتحله للصلاة. وكذا إذا أراد حاجة الإنسان، ثم يعود فيربط بالعمود. حتى كاد يذهب سمعه وبصره، ولما انطلق قال: من تمام توبتي أن أهجر دار قوم أصبت فيها الذنب وأن أنخلع من مالي. فقال ﷺ: يجزيك الثلث، أن تتصدق به. ولم يأمره ﷺ أن يهجر تلك الدار.

ثم سير ﷺ سعد بن عبادة الأنصاري بطائفة من سبايا بني قريظة إلى الشام، فابتاع لهم بها خيلاً كثيراً وسلاحاً، فقسمها على المسلمين، واشترى عثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف، جملة ما بقي من السبايا. فجعلت تلك الجملة من السبايا قسمين: الشواب، والعجائز على حدة. ثم خير عبد الرحمن بن عوف، عثمان بن عفان، فأخذ الأخير العجائز، وأخذ عبد الرحمن الشواب. وجعل عثمان على كل واحدة منهن شيئاً، إن أتت به عتقت. فكان المال عند العجائز، ولا يوجد عند الشواب. فربح عثمان من ذلك مالاً كثيراً.

ونهى رسول الله أن يفرق بين الأم وولدها في السبايا، حتى يبلغ. قيل: يا رسول الله! وما بلوغه؟ قال: تحيض الجارية، ويحتلم الغلام. وإذا وجد الولد الصغير، ليس له أم، لم يبع من المشركين العرب، ولا من اليهود، وإنما يباع من المسلمين. وكانت أم الولد الصغير، تباع من عند المسلمين هي وولدها، من العرب ويهود المدينة. وقد قال ﷺ: من فرق بين والدة وولدها، فرق الله بينه وبين أحبته يوم القيامة.

واصطفى رسول الله لنفسه منهم: ريحانة بنت شمعون[1]، من بني

---

(١) ذكرها (ابن هشام) بـ: «ريحانة بنت عمرو بن حنافة. وفي بعض الروايات: (جفافة). أما (الطبري) فذكرها باسم (ريحانة بنت زيد من بني قريظة). وقال: وأفاء الله عز وجلّ على رسوله ريحانة بنت زيد. ثم قال: «فهؤلاء أزواج رسول الله =

النضير، وكانت متزوجة في بني قريظة، وكانت حسناء، ودعيت إلى الإسلام فأبت. ووجد رسول الله في نفسه من ذلك فعزلها. ثم لما أسلمت، سر رسول الله بذلك. واختارت أن تكون في ملكه. وقيل أنه أعتقها وأصدقها اثني عشر أوقية، وأعرس بها في المحرم، سنة ست، بعد أن حاضت، فغارت عليه. فطلقها تطليقة واحدة، فأكثرت من البكاء، فراجعها ولم تزل عنده حتّى ماتت، راجعة من حجة الوداع، سنة عشر، فدفنت في البقيع. وممن نزل من حصون بني قريظة، صبيحة نزول اليهود، على حكم سعد بن معاذ: ثعلبة بن شعبة وإخوته أسد وأسيد وأسد، وابن عم لهم، فأسلموا، وأحرزوا دماءهم وأموالهم. وهم ليسوا من يهود، وإنما هم عرب من بني هذيل.

قتل الهداة المعلمين

قدم على رسول الله إلى المدينة، بطنان من العضل والقارة. وقالوا: يا رسول الله إن فينا إسلاماً فابعث معنا نفراً من أصحابك يفقهونا في الدين، ويقرؤونا القرآن، ويعلمونا شرائع الإسلام! فبعث معهم نفراً من الصحابة، وأمر عليهم عاصم بن ثابت الأنصاري ويقال له: ابن أفلح. منهم مرثد الغنوي وكان يهرب الأسرى من مكة إلى المدينة[1].

= ﷺ فهن ستّ قرشيات». وأما (ابن هشام) فإنه لم يذكر زواج النبي ﷺ بها. وإنما ذكر أنه سرّ بإسلامها، ولم يعدها بين أزواج الرسول. وقال: ومن غير العربيات صفية بنت حيي بن أخطب من بني النضير. وأغفل ذكر مارية القبطية أم إبراهيم بينما ذكرها الطبري. وقال: وهي التي تسرّى بها.

وفي كلام الشيخ رحمه الله تداخل يدعو إلى التأمّل، بين قوله: «وكانت متزوجة في بني قريظة وقوله: «بعد أن حاضت فغارت عليه» وربما لهذا السبب، استبعدت هذه الفقرة كلية من طبعة (غ) الجزء الثاني. وما من شك في أن الاستبعاد كان من الشيخ نفسه بعد مراجعته النصّ. والله أعلم. المحقق.

(١) كان مرثد واعد رجلاً من الصحابة مأسوراً بمكة، أن يحمله. فجاء به يحمله حتى انتهى به إلى حائط من حيطان مكة في ليلة مقمرة. فجاءت (عناق) وكانت من جملة البغايا بمكة. فرأت ظل مرثد في جانب الحائط، فلما أتت إليه عرفته قالت: =

مقتل زيد بن الدثنة

وأخرج صفوان بن أمية زيد بن الدثنة، إلى الحل، مع مولى له ليقتله به. واجتمع عند قتله رهط من قريش، فيهم أبو سفيان بن حرب، فلما قدم للقتل، قاله له أبو سفيان: أنشدك بالله يا زيد! أتحب محمداً الآن عندنا مكانك؟ نضرب عنقه، وأنت في أهلك فقال: والله ما أحب أن محمداً الآن في مكانه الذي هو فيه، تصيبه شوكة تؤذيه وإني لخالص في أهلي. فقال أبو سفيان: ما رأيت أحداً يحب أحداً، كحب أصحاب محمد محمداً. ثم قتله ذلك المولى. طعنه برمح في صدره حتى أنفذه من ظهره. ورمي بالنبل رحمه الله[1].

سريّة محمد بن مسلمة إلى القرطاء

بعث رسول الله ﷺ محمد بن مسلمة في ثلاثين راكباً إلى القرطاء[2]، وهم بطن من بني بكر، وكانوا ينزلون بناحية (ضرية) وهي قرية لبني كلاب على

= مرثد؟ قلت: مرثد. قالت: مرحباً وأهلاً. تبيت عندنا الليلة؟ فقلت: يا عناق إن الله حرّم هذا. فذهبت ودلت عليّ قريش. فخرج في إثري ثمانية رجال، فتواريت في كهف الخندمة. فجاؤوا حتى وقفوا على رأسي فلم يبصروني. فلما رجعوا رجعت لصاحبي، وكان ثقيلاً فحملته، حتى انتهيت إلى محل «آمن» ففككت عنه قيده. ثم جعلت أحمله حتى قدمت المدينة. ثم استشار رسول الله في نكاح عناق. فأمسك عن جوابه. حتى نزلت آية:

﴿الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك. وحرم ذلك على المؤمنين﴾.

فدعاني رسول الله ﷺ ثم قال: لا تتزوجها. وقد نزلت في بغايا المشركين، لما هم فقراء المهاجرين أن يتزوجوهن وهنّ موسرات. فحرم ذلك عليهم. فتأمل؟ المؤلف.

(١) سبق للشيخ أن عالج هذه الحادثة في (واقعةالرجيع) والفقرتان تكملة لها، ومقحمتان هنا، وغير موجودتين في طبعة (غ). المحقق.

(٢) (القرطاء). بضم القاف، وفتح الراء جاء في (ابن هشام): قبيلة من (هوازن) أو من (نفيل) وجاء في الهامش تعليقاً على ذلك، ورواية عن أبي ذر: «القرطاء: بطون من العرب، من بني كلاب» المحقق.

طريق البصرة إلى مكة، وإلى مكة أقرب، وبين ضرية والمدينة سبع ليال. وأمره أن يسير بالليل، ويكمن بالنهار، وأن يفجأهم، ويعلم الخيل المغيرة على العدو. ففعل ما أمره به، فلما أغار عليهم، قتل منهم عشرة، وفر الباقون، واستاق إبلهم وشاءهم. وكانت نحو مئة وخمسين بعيراً، وثلاثة آلاف شاة. ثم كرّ راجعاً إلى المدينة.

وعن ابن إسحاق: أنهم أسروا رجلاً، وهم لا يشعرون من هو؟ حتى أتوا به رسول الله. فقال: أتدرون من أخذتم؟ هذا ثمامة بن أثال الحنفي. فربطوه بسارية من سواري المسجد، يشهد اجتماع المسلمين، وحسن صلاتهم فخرج إليه ﷺ فقال: ماذا عندك يا ثمامة؟ قال: خير، يا محمد! إن تقتل، تقتل ذا دم. وإن تنعم، تنعم على شاكر. وإن كنت تريد المال، فسل تعط منه ما شئت. فتركه حتى كان الغد. فقال: ما عندك يا ثمامة؟ قال: عندي ما قلت لك.

فقال ﷺ: أطلقوا ثمامة، فانطلق إلى نخل قريب من المسجد فاغتسل، ثم دخل المسجد، فأسلم. ثم قال: والله، يا محمد! ما كان على وجه الأرض وجه أبغض إليّ من وجهك، وقد أصبح وجهك أحبّ الوجوه إليّ. والله ما كان دين أبغض إليّ من دينك، فأصبح دينك أحبّ الدين كله إليّ. والله ما كان من بلد أبغض إليّ من بلدك، فأصبح بلدك أحبّ البلاد إليّ. وإن خيلك أخذتني وأنا أريد العمرة، فماذا ترى؟

فبشّره ﷺ بنيل خيري الدنيا والآخرة، وأمره أن يعتمر. فلما قدم مكة يلبّي، وينفي الشريك عن الله، قال له قائل: صبأت؟! قال: لا، ولكن أسلمت لله رب العالمين، مع محمد رسول الله. ولا والله! تأتيكم من اليمامة حبّة حنطة، حتى يأذن فيها النبي. وقد أرادوا قتله. فقال قائل منهم: دعوه. فإنكم تحتاجون إلى اليمامة. فخلي سبيله.

فخرج إلى اليمامة، فمنعهم أن يحملوا إلى مكة شيئاً. فكتبوا إلى رسول الله: إنك تأمر بصلة الرحم، وإنك قد قطعت أرحامنا. فكتب ﷺ إلى

ثمامة: أن يخلي بينهم وبين الامتيار والحمل. ولما منع ثمامة الميرة عن مكة أكلت قريش العلهز «الوبر والدم».

ولما أجهدهم الجوع، جاء أبو سفيان إلى المدينة، فقال لرسول الله: ألست تزعم أنك بعثت رحمة للعالمين؟! قال: بلى. قال: فقد قتلت الآباء بالسيف، والأبناء بالجوع. فكتب إليه برفع المنع.

وصار ثمامة من أكابر الصحابة، وهدى الله به خلقاً كثيراً إلى الإسلام من قومه. ولم يرتد مع من ارتد من أهل اليمامة، ولا خرج عن الطاعة قط، بل إنه قام مقاماً محموداً بعد وفاة النبي ﷺ حين ارتد أغلب أهل اليمامة مع مسيلمة.

وقد خطب في الناس حين قامت فتنة مسيلمة فقال في خطابه:

«بسم الله الرحمن الرحيم. حم. تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم، غافر الذنب، وقابل التوب، شديد العقاب».

فأين هذا القول من هذيان مسيلمة؟

فأطاعة ثلاثة آلاف، وانحازوا إليه.

حملته ﷺ لتأديب بني لحيان

لما بلغ رسول الله ﷺ خبر استشهاد عاصم بن ثابت الأنصاري، والسبعة[1] الذين معه من القراء بالرجيع، على يد بني لحيان، وسلم من بقي منهم لقريش، يقتلونهم، وجد على أصحابه المقتولين وجداً شديداً، وأراد أن ينتقم لهم من هذيل، فأمر أصحابه بالتهيؤ، فخرج من المدينة بعض مضي ستة أشهر من واقعة بني قريظة، وأظهر أنه يريد الشام؛ ليدرك من القوم غرة. واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم، وخرج في أكثر من مئة رجل، ومعهم

---

(١) اختلف في عددهم، ففي سيرة ابن هشام: «فبعث رسول الله ﷺ، ستة من أصحابه» وفي الهامش قيل: إنهم كانوا عشرة. وهو أصح. ستة من المهاجرين، وأربعة من الأنصار». المحقق.

عشرون فرساً، وسلك على غراب وهو جبل بناحية المدينة، ثم على طريقه إلى الشام، ثم حول ذات اليسار، حتى استقل به الطريق على الجحفة من طريق مكة، ثم انتهى إلى بطن غراب، وهو واد بينه وبين عسفان خمسة أميال.

ولما وصل إلى الرجيع، ترحم على الشهداء، ودعا لهم بالمغفرة. فسمعت بنو لحيان بمقدمه، فهربوا إلى رؤوس الجبال، وأرسل السرايا خلفهم في كل ناحية، فلم يجدوا أحداً، وأقام في ذلك المكان يتعقب الخونة يومين.

فلما رأى ﷺ أنه فاته ما أراده من غرتهم، قال: لو أنا هبطنا عسفان، لرأى أهل مكة أنا قد جئنا مكة. فخرج في مئة راكب من أصحابه، حتى نزل عسفان، ثم سير فارسين من أصحابه حتى بلغا كراع الغميم، ثم كرا راجعين. وبعث أبا بكر في عشرة للاستكشاف، ولما عاد توجه بعساكره عائداً إلى المدينة. وكانت غيبته في هذه الحملة أربع عشرة ليلة.

وقفة الرسول على قبر أمه آمنة بنت وهب

لما عاد رسول الله من بني لحيان، وقف على الأبواء، فنظر يميناً وشمالاً، فرأى قبر أمه آمنة، فنزل، فتوضأ، ثم صلى ركعتين، فبكى، وبكى الناس لبكائه، ثم قام فصلى ركعتين، ثم انصرف إلى أصحابه، وقال: ما الذي أبكاكم؟ قالوا: بكيت فبكينا يا رسول الله! قال: ما ظننتم؟ قالوا: ظننا أن العذاب نازل علينا. قال: لم يكن من ذلك شيء، ولكن مررت بقبر أمي، فصليت ركعتين، ثم استأذنت ربي عز وجل أن استغفر لها، فزجرت زجراً، فأبكاني. ثم دعا براحلته فركبها، فسار يسيراً، فنزلت الآية:

﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴾[1].

---

(١) سورة التوبة الآية: ١١٣. قال الشيخ مخلوف في صفوة البيان في تفسير الآية: «نزلت حين أراد النبي ﷺ أن يستغفر لعمه أبي طالب بعد موته، فنهاه الله عن ذلك». وقال الشيخ ابن عاشور في التحرير والتنوير: «وأما ما روي في أسباب النزول أن هذه الآية: نزلت في استغفار النبي ﷺ لأبي طالب، أو أنها نزلت في =

وفي مسلم عن أبي أيوب، قال: زار رسول الله قبر أمه، فبكى وأبكى من حوله، فقال: استأذنت ربي في أن أستغفر لها، فلم يأذن لي، واستأذنت أن أزورها بعد ذلك، فأذن لي. فزوروا القبور، فإنها تذكر الموت.

إغارة عيينة بن حصن في خيل من غطفان على لقاح رسول الله بالغابة

لم يقم ﷺ بعد رجوعه من الحملة لبني لحيان إلا أياماً قلائل، حتى أغار عيينة بن حصن في خيل من غطفان، على لقاح رسول الله بالغابة. وكانت عشرين لقحة «وهي ذات اللبن القريبة من الولادة» ومعها ولد أبي ذر الغفاري وزوجة لأبي ذر. وكان ولده راعيها، يؤوب بلبنها كل ليلة إلى المدينة عند المغرب، والمسافة بينهما يوم أو نحو يوم فقتلوا الراعي، واحتملوا المرأة مع اللقاح.

وذكر ابن سعد أن أبا ذر: استأذن رسول الله أن يكون في اللقاح، فقال له: لا نأمن عيينة بن حصن وقومه أن يغيروا عليك. فألح عليه، وأنا ألح عليه، فكان والله ما قال، فإني والله! لفي منزلنا، ولقاح رسول الله قد روحت وحلبت عتمتها. ونمنا. فلما كان الليل، أحدق بنا عيينة بن حصن في أربعين فارساً، فصاحوا بنا وهم قيام على رؤوسنا، فأشرف لهم ابني فقتلوه، وكان معه ثلاثة نفر، فنجوا ونجوت معهم. وشغلهم عنا إطلاق اللقاح. ثم صاحوا في أدبارها، فكان آخر العهد بها، ولما قدمت المدينة على رسول الله، وأخبرته، تبسم.

بطولة سلمة بن الأكوع

وكان أول من علم بهذه الواقعة: سلمة بن الأكوع، فإنه غدا يريد الغابة، متوشحاً قوسه، ومعه غلام لرسول الله، اسمه رباح، يقود فرسه،

= سؤاله أن يستغفر لأمه آمنة حين زار قبرها بالأبواء، فهما خبران واهيان، لأنها نزلت بعد ذلك بزمن طويل».

فلقيه غلام لعبد الرحمن بن عوف، فأخبره أن عيينة بن حصن قد أغار على لقاح رسول الله في أربعين فارساً، من غطفان. فقال الغلام: يا رباح! اقعد على هذا الفرس، فأخبر رسول الله، أن قد أغير على سرحه.

في رواية: أن سلمة رجع إلى المدينة، وعلا ثنية الوداع، فنظر إلى بعض خيولهم، فصرخ بأعلى صوته: واصباحاه! الفزع الفزع. قال ذلك ثلاث مرات. ثم خرج يشتد في أثر القوم كالسبع. ويقولون: إنه كان يسبق الفرس جرياً، حتى لحق بهم، فجعل يرميهم بالنبل، ويقول إذا رمي: خذها وأنا ابن الأكوع، واليوم يو م الرضع[1] فإذا رجعت الخيل نحوه انطلق هارباً. وهكذا يفعل. قال: كنت ألحق الرجل منهم، فأرميه بسهم في رجله فيعقره فإذا رجع إلي فارس منهم، أتيت شجرة فجلست في أصلها، ثم أرميه فأعقره، فيولي عني. فإذا دخلت الخيل في بعض مضائق الجبل، علوت الجبل ورميتهم بالحجارة. قال: ولم أزل أرميهم، حتى ألقوا أكثر من ثلاثين رمحاً، وأكثر من ثلاثين بردة، يستخفون بها. ولا يلقون شيئاً من ذلك، إلا جعلت عليها حجارة وجمعته على طريق رسول الله، وما زلت كذلك، أتبعهم، حتى ما خلق الله تعالى من بعير من ظهر رسول الله، إلا خلفته وراء ظهري، وخلوا بينهم وبينه.

يا خيل الله اركبي

أما ما كان من أمر رسول الله ﷺ، لما بلغه صياح ابن الأكوع، نادى بالمدينة: يا خيل الله اركبي! وكان أول ما نودي بها في بني قريظة، وأول من انتهى من الفرسان إلى رسول الله: المقداد بن الأسود. و«أبوه عمرو، وإنما كني باسم زوج أمه» ثم عباد بن بشر، وسعيد بن زيد. ثم تلاحقت به الفرسان، وأمر عليهم سعيد بن زيد، وعقد له اللواء في رمحه. وقال له: اخرج في طلب القوم، حتى ألحقك بالناس.

---

(١) الرضع: تشديد الضاد. لعله يقصد الإبل المرضعة. وهي اللقاح بكسر اللام المشددة. جمع: اللقح. وهي التي أنتجت إلى شهرين. ثم هي لبون. المحقق.

فخرج الفرسان في طلب القوم، حتى تلاحقوا بهم. وكان شعارهم يومئذ: أمت أمت، وأول فارس لحق بهم محرز بن نضلة. ويقال له: «الأخرم الأسدي» ووقف لهم بين أيديهم وقال لهم: يا معشر بني اللكيعة[1] قفوا حتى يلحق بكم من وراءكم من المهاجرين والأنصار، فحمل عليه شخص من المشركين، فقتله.

وعن سلمة بن الأكوع، قال: إن القوم جلسوا يتغذون وجلست على رأس قرن جبل فقال لهم رجل أتاهم: من هذا؟ قالوا: لقينا من هذا البرح، حتى انتزع كل شيء في أيدينا. قال: فليقم إليه منكم أربعة، فتوجهوا إلي، فهددتهم. وعنه رضي الله عنه، قال لهم لما أقبلوا عليه: هل تعرفونني؟ قالوا: لا. ومن أنت؟ قال: أنا سلمة بن الأكوع. والذي كرم وجه محمد! لا أطلب رجلاً منكم إلا أدركته، ولا يطلبني فيدركني. قال: قال بعضهم: إنا نظن ذلك. فرجعوا.

قال سلمة: فما برحت مكاني، حتى رأيت فوارس رسول الله مقبلة، يؤمهم الأخرم الأسدي، واسمه: محرز بن نضلة. فنزلت من الجبل وأخذت بعنان فرسه، وقلت له: احذر القوم، لا يقطفوك! حتى يلحق رسول الله وأصحابه. فقال: يا سلمة! إن كنت تؤمن بالله واليوم الآخر، وتعلم أن الجنة حق، وأن النار حق، فلا تحل بيني وبين الشهادة. فخليت عنه فالتقى هو ومسعدة الفزاري فعقر فرس مسعدة، وطعنه مسعدة فقتله. رحمه الله. وتحول على فرسه.

فأقبل على إثره أبو قتادة الأنصاري، رضي الله عنه. قال لما وصل: فرميت بسهم في جبهتي، فنزعت قدمه، وأنا أظن نزعت الحديدة. فطلع علي فارس، وقال: لقد ألقانيك الله يا أبا قتادة! وكشف عن وجهه فإذا هو مسعدة الفزاري فقال: أيهما أحب إليك: مجالدة؟ أو مطاعنة؟ أو مصارعة؟

---

(١) اللكيعة: اللئيمة.

فقلت: ذلك إليك. فقال: صراع. فنزل وعلق سيفه في شجرة، ونزلت فعلقت سيفي في شجرة. وتواثبنا فرزقني الله الظفر عليه فإذا أنا على صدره، وإذا شيء مس رأسي، فإذا سيف مسعدة، قد وصلت إليه في المعالجة. فضربت بيد إلى سيفه، وجردت السيف، فلما رأى أن السيف في يدي. فقال: يا أبا قتاده استحيني. قلت: لا والله! قال: فمن للصبية؟ قلت: النار. ثم قتلته، وأدرجته في بردي. ثم أخذت ثيابه فلبستها، ثم استويت على فرسه، فإن فرسي نفرت، حيث تعالجنا. وذهب للقوم فعرفوه. ثم ذهبت خلف القوم، فحملت على ابن أخي مسعدة فدققت صلبه، فانكشف من معه عن اللقاح، فحميتها برمحي، وجئت أحرسها، حتّى أقبل رسول الله.

مخرج رسول الله في هذا الوجه

خرج رسول الله من المدينة في خمسمئة، واستعمل عليها ابن أم مكتوم، وجعل على شرطتها سعد بن عبادة، وترك معه من الأنصار ثلاثمئة يحرسون المدينة، وأقبل في جند من الصحابة. فلما وصلوا إلى مكان المعركة، وجدوا مسعدة الفزاري مسجى في برد أبي قتادة، فاسترجع المسلمون وقالوا: قتل أبو قتادة، فقال رسول الله ﷺ: ليس أبا قتادة، ولكنه قتيل لأبي قتادة، وضع عليه برده، ليعرف أنه صاحبه. والذي أكرمني بما أكرمني به! إن أبا قتادة على آثار القوم يرتجز، فخرج عمر بن الخطاب حتى كشف البرد عن وجه المسجى، فإذا به مسعدة. فقال: الله أكبر! صدق رسول الله.

أفلح وجهك يا أبا قتادة

ولما التقى رسول الله بأبي قتادة، قال: أفلح وجهك يا أبا قتادة! فقال: ووجهك يا رسول الله! قال ﷺ: أبو قتادة سيد الفرسان. وقال له: ما هذا الذي بوجهك؟ قال: سهم أصابني. فقال: ادن مني، فنزع السهم نزعاً رقيقاً. قال: ما ضرب علي ساعة قط، ولا خرج علي. قال لي: قتلت مسعدة؟ قلت: نعم. فأعطاه فرس مسعدة، وسلاحه.

ولم يستنقذوا كل اللقاح، بل استنقذوا نصفها، وفيها جمل أبي جهل. وأفلت القوم بالباقي. وسار رسول الله، حتى نزل بالجبل من ذي قرد، بناحية خيبر، ولاحق به الجند. وقال له سلمة بن الأكوع: إن القوم عطاش، فلو بعثتني في مئة رجل، استنقذت ما بقي في أيدي غطفان من السرح، وأخذت بأعناق القوم. فقال رسول الله:

ملكت فأسجح

والمعنى: قدرت فاعف. والسر في ذلك أن سلمة رضي الله عنه، تبعهم إلى قبيل الغروب، إلى أن عدلوا إلى شعب فيه ماء يقال له: ذو قرد، فنحاهم عنه، ومنعهم الشرب منه، وتركوا عليه فرسين، وجاء بهما سلمة، يسوقهما إلى رسول الله.

وقال له رجل من الصحابة[1]: القوم الآن يغبقون بأرض غطفان. الغبوق: الشرب بالعشي. أي: يشربون اللبن. فجاء رجل من غطفان، ولما سئل عنهم؟ قال: مروا على فلان الغطفاني، فنحر لهم جزوراً فلما أخذوا يكشطون جلدها «يسلخونها» رأوا غبرة، فتركوها، وخرجوا هرباً.

ومكث ﷺ هناك يوماً وليلة، ونحر بلال ناقته. ولما أصبح، قال: خير فرساننا أبو قتادة، وخير رجالنا سلمة. وقال لأبي عياش لما تلاحق به الفرسان: لو أعطيت هذا الفرس رجلاً أفرس منك، للحق بالناس؛ فقال أبو عياش: يا رسول الله إني أفرس الناس. قال أبو عياش: فوالله ما جرى بي خمسين ذراعاً حتى طرحني. فعجبت لذلك.

وقسم في كل مئة من أصحابه جزوراً، ينحرونها. وكانوا كما قلنا خمسمئة. وبعث سعد بن عبادة بأحمال تمر، وبعشر جزائر. فوافق رسول الله بذي قرد. وأقبلت امرأة أبي ذر على ناقة من إبل رسول الله المغتصبة، وهي

---

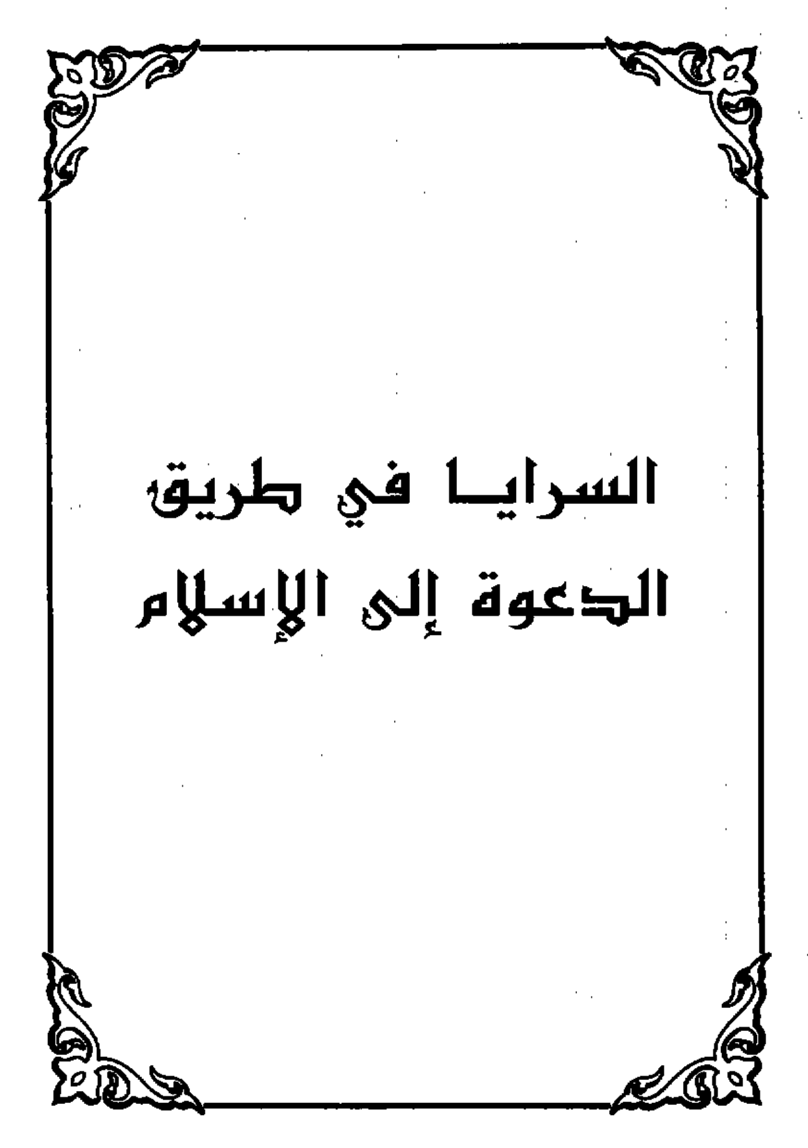
(١) الخبر في سيرة ابن هشام كما يلي: «وقال له سلمة بن الأكوع: يا رسول الله! لو سرحتني في مئة رجل، لاستنقذت بقية السرح، وأخذت بأعناق القوم. فقال له رسول الله ﷺ، فيما بلغني. إنهم الآن ليغبقون في غطفان» صفحة ٢٩٧ الجزء ٣.

العضباء، أفلتت من القوم، فطلبوها فأعجزتهم. فقد أفلتت من الوثاق ليلاً فأتت الإبل، فجعلت إذا دنت من البعير رغا، فتتركه. حتى انتهت إلى العضباء، فقعدت على عجزها ثم زجرتها، وعلموا بها، ثم طلبوها فأعجزتهم، ونذرت إن نجاها الله عز وجل لتنحرنها، فلما أخبرت النبي الخبر تبسم، وقال: بئسما جزيتيها، أن حملك الله عليها، ونجاك بها ثم تنحرينها! وقال:

لا نذر في معصية الله ولا فيما لا تملكين

قال: إنما هي ناقة من إبلي، ارجعي إلى أهلك على بركة الله. ثم أمر بالرحيل إلى المدينة. ورجع رسول الله وهو راكب على ناقته العضباء مردفاً سلمة بن الأكوع، وقد غاب عنها خمس ليال، وأعطى سلمة سهم الراجل والفارس جميعاً.

* * *



السرايا في طريق الدعوة إلى الإسلام

سرية عكاشة بن محصن الأسدي إلى غمر مرزوق

الغمر. لبني أسد، على ليلتين من فيد. وهي قلعة في طريق مكة. خرج إليها عكاشة في أربعين رجلاً، في شهر ربيع الأول، سنة ست من الهجرة، عقب أمره ﷺ بذلك، دون تراخ. فنذر به القوم، فهربوا فنزلوا على بلادهم، فوجدوا ديارهم خلوا من سكانها. فبعث عكاشة طليعة تتعقبهم، فرأت أثر النعم قريباً فقصدتها، فأصابت رجلاً منهم، أمنته، فدلها على نعم لبني نعم لأسد، فأغاروا عليها، فاستاقوا مئتي بعير، وأطلقوا الرجل، وقدموا بالإبل على رسول الله، ولم يلقوا حرباً.

سرية محمد بن مسلمة الأنصاري إلى ذي القصة

ذو القصة: موضع في طريق الربذة، بينه وبين المدينة أربعة وعشرون ميلاً. وكان خروجه في شهر ربيع الأول، سنة ست من الهجرة ومعه عشرة، بعثهم إلى بني ثعلبة، فجاؤوهم ليلاً، قد كمن لهم المشركون، لعلمهم فتركوا محمد بن مسلمة، حتى نام هو وأصحابه، ثم أحدقوا بهم، وما شعر المسلمون إلا والنبل قد خالطهم، فوثب محمد بن مسلمة ومعه قوس، فصاح في أصحابه، فوثبوا فترامو بالنبل ساعة من الليل، ثم انحاز أصحاب محمد إليه، وقد قتلوا من القوم رجلاً.

ثم حمل المشركون عليهم بالرماح، فقتلوهم، إلا محمد بن مسلمة، فوقع جريحاً، يضرب كعبه فلا يتحرك، فجردوهم ثم انطلقوا. فمر رجل من المسلمين بمحمد بن مسلمة، فرآهم صرعى فاسترجع، فتحرك له محمد بن مسلمة فحمله حتى ورد به المدينة جريحاً.

فبعث رسول الله أبا عبيدة بن الجراح في ربيع الآخر، في أربعين رجلاً إلى مصارعهم، فلم يجدوا أحداً، ووجد نعماً وشنياهاً فساقه، وأصاب رجلاً واحداً، فأسلم، فتركه. وقدم بما غنمه المدينة فخمسه رسول الله، وقسم ما بقي عليهم.

سريّة زيد بن حارثة إلى بني سليم بالحموم

وهي ناحية ببطن نخل، على أربعة أميال من المدينة. وكان بعث هذه السرية في شهر ربيع الآخر، سنة ست من الهجرة. فأصابوا امرأة من مزينة، اسمها حليمة، فأسروها، فدلتهم على منازل بني سليم: فأصابوا نعماً وشاء، ووجدوا جماعة منهم فأسروهم. فكان فيهم زوج حليمة المزنية، فلما رجع زيد بما أصاب، وهبه رسول الله للمزنية نفسها. وقيل: أسلمت. وأنكر إسلامها آخرون.

سرية زيد بن حارثة إلى العيص

العيص: اسم موضع، على مسيرة أربع ليال من المدينة. وروي عن عائشة رضي الله عنها. قالت: ما بعث رسول الله زيد بن حارثة في سرية إلا أمره عليها، ولو بقي لاستخلفه. وروى البخاري عن سلمة بن الأكوع، قال: غزوت مع رسول الله سبع غزوات، ومع زيد بن حارثة سبع غزوات، يؤمره علينا رسول الله. وكان بعث هذه السرية، في جمادى الأولى، سنة ست من الهجرة.

بعثه حين علم أن عيراً لقريش، قد أقبلت من الشام، وبعث معه سبعين راكباً، ليتعرضوا لها، فأدركوها وأخذوها بما فيها، وفيها فضة كثيرة لصفوان بن أمية، وأسر منهم ناساً، منهم أبو العاص بن الربيع بن عبد العزى بن عبد شمس، واسمه لقيط، والزبير، أو هشيم أو مهشم أو ياسر. وأمه هالة بنت خويلد، أخت خديجة. وكان أبو العاص من رجال قريش المعدودين، تجارة ومالاً وأمانة. وهو زوج زينب بنت رسول الله ﷺ. فلما قدم المدينة أجارته زوجته، بعد أن استجار بها، ونادت في الناس، حين صلى رسول الله الفجر وفي رواية: حين كبر وكبر الناس معه، نادت:

أيها الناس! إني قد أجرت أبا العاص. فلما سلم رسول الله من الصلاة أقبل على الناس، فقال: أيها الناس! هل سمعتم ما سمعت؟ قالوا: نعم. قال: والذي نفس محمد بيده! ما علمت بشيء من هذا، حتى سمعت

ما سمعتم. المؤمنون يد واحدة، يجير عليهم أدناهم، وقد أجرنا من أجارت. ثم قام، ودخل منزله، فدخلت عليه زينب، فسألته أن يرد عليه ما أخذ منه، فقبل، وقال: أكرمي مثواه، ولا يخلصن إليك، فإنك لا تحلين إليه.

وفي رواية: قالت زينب لأبيها: إن أبا العاص، إن قرب فابن عم، وإن بعد فأبو ولد، وإني قد أجرته. فقال رسول الله لأصحابه: إن هذا الرجل منا، حيث قد علمتم، وقد أصبتم له مالاً، فإن تحسنوا، وتردوا عليه الذي له فإنا نحب ذلك. وإن أبيتم فهو فيء الله الذي أفاءه عليكم، فأنتم أحق به.

فقالوا: يا رسول الله! بل نرده عليه. حتى إن الرجل ليأتي بالدلو، والرجل بالإداوة، حتى ردوا عليه ماله بأسره، لا يفقد منه شيء.

ثم ذهب أبو العاص إلى مكة، فأدى إلى كل ذي مال ماله. ثم قال: هل بقي لأحد منكم عندي مال لم يأخذه؟ قالوا: لا. قال: هل أوفيت ذمتي؟ قالوا: اللهم نعم، فجزاك الله خيراً، فقد وجدنا فيك وفياً كريماً.

عند ذلك أسلم، وقال: والله ما منعني من الإسلام عند رسول الله، إلا تخوفاً أن تظنوا أني إنما أردت أن آكل أموالكم، فلما ردها الله عليكم، وفرغت منها، أسلمت ثم خرج من مكة، وقدم المدينة.

وأخرج الحاكم بسند صحيح: أن زينب وهي أكبر بناته ﷺ هاجرت إلى المدينة، وأبو العاص على دين قريش، فخرج إلى الشام في تجارة، ولما عاد مسلماً، ردها ﷺ إليه.

وقد أثنى عليه ﷺ ثناء جميلاً، فقال: حدثني فصدقني، ووعدني ووفى لي. وكان ﷺ يصلي، وهو حامل أمامة بنت زينب من أبي العاص. وقد مات في سنة اثنتي عشرة، في خلافة الصديق رضي الله عنه. وماتت زينب في حياة أبيها، رضي الله عنها.

سرية زيد بن حارثة إلى الطرف

الطرف: اسم ماء عين، على بعد ستة وثلاثين ميلاً من المدينة بطريق العراق. وكانت في جمادى الآخرة سنة ست، بعثه إلى بني ثعلبة في خمسة عشر

رجلاً، فهربت منه الأعراب، لأنهم خافوا أن يكون سار إليهم ﷺ بنفسه، وأن سرية زيد مقدمة له، فأصاب نعماً وشاء، فجاء بها إلى المدينة، وغاب في هذا الوجه أربع ليال، ثم عاد موفقاً.

سرية زيد بن حارثة إلى حسمى

وهي اسم لأرض، ينزلها جذام، وراء وادي القرى، من جهة الشام. بعثه ﷺ إليها في جمادى الآخرة سنة ست، لتأديبهم بسبب اعتدائهم على دحية بن خليفة الكلبي حين أقبل من عند قيصر، لما أرسله ﷺ إليه بكتاب، يدعوه إلى الإسلام. وقد أعطاه قيصر جائزة وكساه، فلقيه في عودته الهنيد بن عارض في ناس من جذام، وهي قبيلة من معد بجبال حسمى، فقطعوا عليه الطريق، وأصابوا كل شيء كان معه، ولم يتركوا عليه إلا سمل ثوب. فسمع بذلك نفر من بني الضبيب، رهط رفاعة بن زيد الجذامي، ممن كان أسلم، فاستنقذوا لدحية متاعه، فقدم دحية على رسول الله، فأخبره الخبر، فسير إليهم زيد بن حارثة في خمسمئة رجل، يؤدبهم، ورد معه دحية. فكان زيد يسير بالليل، ويكمن بالنهار، ومعه دليل من بني قدرة، فأقبل عليهم حتى هجموا مع الصبح على القوم، فأغاروا عليهم فقتلوا فيهم فأوجعوا. وممن قتل منهم: الهنيد وابنه، فغنموا ما شيتهم، وسبوا نساءهم، فأخذوا من الإبل ألف بعير، ومن الشاه خمسة آلاف، ومن النساء والصبية مئة.

فرحل رفاعة بن زيد الجذامي في نفر من قومه، فرفع لرسول الله كتابه الذي كتبه له ولقومه ليالي قدم عليه، فأسلم. نصه:

«بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من محمد رسول الله إلى رفاعة بن زيد، إني بعثته إلى قومه عامة، ومن دخل فيهم، يدعوهم إلى الله وإلى رسوله، فمن أقبل ففي حزب الله، وحزب رسوله، ومن أدبر فله أمان شهرين».

فلما قدم على قومه أسلموا، فلم يلبثوا أن جاء دحية قافلاً من عند قيصر، فكان ما كان من قصتهم معه. فلما سمع بنو الضبيب بما صنع

زيد بن حارثة، ركب نفر، منهم حسان بن ملة، وأبو زيد بن عمرو، فلما وقفوا على زيد بن حارثة، قال حسان: إنا قوم مسلمون. فقال: أقرئهم الكتاب. فقرأه. فقال زيد ناذراً في الجيش: إن الله قد حرم علينا ثغرة القوم التي جاؤوا منها إلا من أخته. وكانت أخت حسان في الأسارى فقال له زيد: خذها. فقالت امرأة: أتنطلقون ببناتكم وتذرون أمهاتكم؟ فقال زيد لأخت حسان: اجلسي مع بنات عمك، حتى يحكم الله فيكن. ونهى الجيش أن يهبطوا إلى واديهم الذي جاؤوا منه، فأمسوا في أهليهم. فلما شربوا عتمتهم، ركبوا حتى صبحوا رفاعة، فقال له حسان بن ملة: إنك لجالس، تحلب المعز، ونساء جذام أسارى، غرّها كتابك الذي جئت به. فدعا رفاعة بجمل فشد عليه رحله، وخرج معه جماعة فساروا ثلاث ليال، حتى دخلوا المدينة، وانتهوا إلى المسجد. فلما رآهم رسول الله، ألاح لهم بيده: أن تعالوا من وراء الناس. فاستفتح رفاعة المنطق، فقام رجل فقال: يا رسول الله! إن هؤلاء القوم سحرة ـ فرددها مرتين ـ عندهم فصاحة لسان وبيان. فقال رفاعة: رحم الله من لم يحسدنا في يومنا هذا الأخير. ثم دفع كتابه إليه ﷺ فقال: دونك يا رسول الله! فقال ﷺ لكاتبه: يا غلام! اقرأه، وأعلن. فلما قرأه. استخبرهم؟ فأخبروه الخبر. فقال لهم ﷺ: كيف أصنع بالقتلى؟! ثلاث مرات. فقال رفاعة: أنت أعلم يا رسول الله! لا نحرم عليك حلالاً، ولا نحل لك حراماً.

فقال أبو زيد بن عمرو: أطلق لنا يا رسول الله! من كان حياً، ومن قتل فهو تحت قدمي هذه. فقال ﷺ: صدق أبو زيد، اركب معهم يا علي. فقال علي: إن زيداً لن يطيعني. فقال: خذ سيفي هذا، فأعطاه سيفه. فقال: ليس لي راحلة، فحملوه على بعير، وخرجوا، فإذا رسول لزيد على ناقة من إبلهم، فأنزلوه عنها. فقال الرسول: يا علي! ما شأني. قال: مالهم عرفوه فأخذوه، ثم ساروا فوجدوا الجيش بقيفاء فأخذوا ما في أيديهم. وقال زيني دحلان في كتاب السيرة النبوية: حتى كانوا ينزعون المرأة من تحت فخذ الرجل. وأخبروهم بأن النبي إنما بعث علياً إلى زيد بن حارثة، يأمره أن يخلي بينهم وبين حرمهم وأموالهم.

فقال علي لزيد: إن رسول الله يأمرك أن ترد على هؤلاء القوم ما بيدك من أسرى، وسبي، ومال. فقال زيد: أريد علامة من رسول الله. فقال علي: هذا سيفه. فعرفه زيد، فنزل وصاح بالناس فاجتمعوا، فقال: من كان معه شيء من سبي أو مال فليرده، فهذا رسول الله «أتي بذلك» فرد عليهم كل ما أخذ منهم.

وعلق كاتب السيرة، على ما وصف من حال النساء مع الرجال بقوله: ظاهر السياق، أنهم كانوا يطؤون الجواري بالاستبراء. ثم قال: هو كذلك. لأن وجوبه إنما كان في سبي هوازن.

سرية زيد بن حارثة إلى وادي القرى

وهو موضع قريب من المدينة، على طريق الحاج من الشام، بعث به في رجب سنة ست،لتأديب بني فزارة. فلقيهم وقاتلهم، فقتل منهم وقتل من المسلمين بعض أفراد، وممن قتل من المسلمين: ورد بن مرداس،حمل من هناك وهو جريح به رمق،ثم مات.

سرية عبد الرحمن بن عوف إلى دومة الجندل

وهو حصن وقرى من طرف الشام،بينها وبين دمشق خمس ليال، وبينها وبين المدينة خمس عشرة أو ست عشرة ليلة. وكانت في شعبان سنة ست من الهجرة. وذكر ابن إسحاق في هذه الواقعة عن ابن عمر قال: كنت عاشر عشرة من أصحاب رسول الله في مسجده، وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي وعبد الرحمن بن عوف وابن مسعود ومعاذ بن جبل وحذيفة وأبو سعيد، إذ أقبل فتى من الأنصار، فسلم ثم جلس فقال: يا رسول الله! أي المؤمنين أفضل؟ قال: أحسنهم خلقاً. قال: أي المؤمنين أكيس؟ قال: أكثرهم للموت ذكراً، وأكثرهم له استعداداً، قبل أن ينزل به، أولئك هم الأكياس. ثم سكت الفتى.

وعظ رسول الله ونصائحه للناس

وأقبل علينا رسول الله ﷺ وقال: يا معشر المهاجرين! خمس خصال إذا

نزلن بكم، وأعوذ بالله أن تدركوهن، أنه لم تظهر الفاحشة في قوم حتى يعلنوا بها، إلا ظهر فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم الذين مضوا. ولم ينتقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين، وشدة المؤونة، وجور السلطان. ولم يمنعوا الزكاة من أموالهم، إلا منعوا القطر من السماء. فلولا البهائم ما مطروا. وما نقضوا عهد الله عز وجل وعهد رسوله، إلا سلط عليهم عدو من غيرهم فأخذ ما كان في أيديهم. وما لم يحكم أئمتهم بكتاب الله، وتجرؤوا فيما أنزل الله، إلا جعل بأسهم بينهم.

ثم أمر عبد الرحمن بن عوف، أن يتجهز لسرية بعثه عليها. فلما أصبح، اعتم بعمامة من كرابس[1] سوداء وأتى رسول الله، فأدناه منه، وأقعده بين يديه، فنفض عمامته، وعممه بيده، فأرسل من خلفه أربع أصابع أو نحو ذلك، ثم قال: هكذا يا بن عوف! فاعتم، فإنه أحسن وأعرف. وأمر بلالاً أن يدفع إليه اللواء، فدفعه إليه. ثم قال: خذها يا بن عوف!

وصيته ﷺ للجيش

«اغزوا جميعاً في سبيل الله، فقاتلوا من كفر بالله، ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليداً. فهذا عهد الله، وسيرة نبيه فيكم» فأخذ عبد الرحمن اللواء، وسار إلى كلب بدومة الجندل، فمكث ثلاثة أيام يدعوهم إلى الإسلام. وقد كانوا أبوا لما قدم عليهم إلا أن يعطوا السيف. وفي اليوم الثالث أسلم الأصبغ بن عمر الكلبي[2] وهو مليكهم وكان نصرانياً، وأسلم معه ناس كثير من قومه. وأقام عبد الرحمن بقيتهم بالجزية. وكتب عبد الرحمن إلى رسول الله يخبره بالفتح، وإسلام من أسلم منهم، وإقامة الباقين على الجزية، واستأذنه أن يتزوج فيهم. فكتب إليه يقره على ما عمل، وأمره أن يتزوج بنت الأصبغ، فتزوج ماضرة، وقدم بها المدينة، وهي أم ولده عبد الله الحافظ الثقة، وهو من كبار التابعين.

---

(١) الكرباس: ثوب من القطن الأبيض. معرب من الفارسية.

(٢) ذكره ابن هشام باسم: الأصبغ بن ثعلبة الكلبي.

سريّة علي بن أبي طالب إلى حي الغمج من بني سعد

بلغ رسول الله أن هذا الحي ساعون في جمع الناس، يريدون أن يمدوا يهود خيبر، وهم على ماء الغمج، ما بين فدك وخيبر، فبعث إليهم علياً بن أبي طالب ومعه مئة رجل، في شعبان سنة ست من الهجرة، فساروا بالليل وكمنوا بالنهار، حتى قاربوا الحي، فلقوا رجلاً فقالوا: من أنت؟ فقال: باغم[1] «يطلب شيئاً ضل عنه» فقالوا: هل لك علم بما وراءك من جمع بني سعد؟ قال: لا علم لي به. فشددوا عليه، فأقر أنه عين لهم، بعثوه إلى خيبر، يعرض على يهودها نصرهم، على أن يجعلوا لهم من تمرها، كما جعلوا لغيرهم، ويقدمون عليهم، فسألوه حينئذ عن القوم؟ قال: قد تركتهم قد تجمع منهم مئتا رجل. قالوا: فسر بنا حتّى تدلنا. قال: على أن تؤمنوني. قالوا: إن دللتنا عليهم أمناك، وإلا فلا أمان لك. قال: فذاك.

فرجع بهم دليلاً، حتى ساء ظنهم به. ثم أفضى بهم إلى أرض مستوية، فإذا نعم كثير وشاء، فقال: هذه نعمهم وشاؤهم. فأغاروا عليها وساقوها. فقال: أرسلوني . فقالوا: حتى نأمن الطلب وهرب الرعاء إلى جمعهم، فحذروهم فتفرقوا. فقال الدليل: علام تحبسوني، وقد تفرقت الأعراب؟ قال علي: حتى نبلغ معسكرهم. فانتهى بهم إليه، فلم يروا أحداً، فأرسلوه، وساقوا النعم والنساء معهم. وكانت خمسمئة بعير، وألفي شاة. وهربت بنو سعد بالظعن. وعاد علي بسريته إلى المدينة غانماً، ولم يلق كيداً، وخاف المشركون فلم يمدوا اليهود.

سرية زيد بن حارثة
إلى أم قرفة للانتقام من فزارة وتأديبهم

أم قرفة: امرأة أبوها ربيعة بن بدر الفزاري، وكان يضرب بها المثل،

---

(١) باغم: لعله من بغمت الظبية، صاحت إلى ولدها، تطلبه بصوت رخيم، وفي لسان العرب: بغمت الرجل: إذ لم تفصح له عن معنى ما تحدثه به.

يقال: «أمنع من أم قرفة» كان يعلق في بيتها خمسون سيفاً لخمسين رجلاً، كلهم لها محرم. كنيت بابن لها يسمى قرفة. ولها عشرة بنين، وبنتان. وكانت بناحية وادي القرى، على سبع ليال من المدينة في طريق الشام. خرجت هذه السرية في رمضان، سنة ست من الهجرة.

وسببها: أن زيد بن حارثة، خرج في تجارة إلى الشام، ومعه بضائع للصحابة، فلما كان بوادي القرى، لقيه ناس من فزارة من بني بدر، ولما علمت فزارة بمقدمهم، جعلوا لهم ناطوراً، قالوا: إنه يبصر على مسيرة يوم. فكان إذا أصبحوا يصعد على جبل مشرف، فينظر وجه الطريق الذي يرون أنهم يؤتون منه، فإذا لم يبصر شيئاً، يقول: اسرحوا، اسرحوا، لا بأس عليكم. فإذا كان العشاء أشرف على ذلك الجبل، فينظر فيقول: ناموا لا بأس عليكم. فلما كان الصحابة على نحو ليلة، أخطأ دليلهم الطريق، فسار في آخر حتى أمسوا وهم على خطأ، فعاينوا الحاضرين من بني فزارة، فحمدوا خطأهم. ثم صبحهم زيد وأصحابه وكبروا، وأحاطوا بهم فقتلوهم، وأخذوا أم قرفة، وهي عجوز ذات شرف في قومها، وأخذوا بنتها جارية بن مالك بن حذيفة بن بدر.

وعمد قيس بن المحسر إلى أم قرفة، فقتلها قتلاً فظيعاً، ربط رجليها بحبلين ثم ربطهما إلى بعيرين حتى شقها. فعل بها ذلك؛ لأنها كانت تسب رسول الله، وجهزت ثلاثين راكباً من ولدها وولد ولدها، وقالت لهم: اغزوا المدينة، واقتلوا محمداً. وأما ابنة أم قرفة، فقد أسندها سلمة بن الأكوع.

ثم أقبل زيد بجنوده وعاد ظافراً إلى المدينة فقرع باب رسول الله وهو يجر ثوبه فاعتنقه وقبله، ثم أخبره بالظفر والنصر، ووهب ﷺ بنت أم قرفة لخاله حزن بن أبي وهب، ومنها ولده عبد الرحمن بن حزن.

سرية كرز بن جابر الفهري إلى عكل وعرينة

عكل: حي من قضاعة، وعرينة حي من بجيلة، كان قدم سبعة أو ثمانية رجال من الحيين، على رسول الله المدينة، فبايعوه على الإسلام وأقروا

بالشهادتين. وكانوا حين قدموا المدينة سقاماً، مصفرة ألوانهم، منتفخة بطونهم، فلما أقاموا أياماً قالوا: يا رسول الله. إنا كنا أهل ضرع وماشية وإبل، ولم نكن أهل ريف، وكرهنا الإقامة بالمدينة، فلو أذنت لنا فخرجنا إلى الإبل، فأمر لهم بذوذ من الإبل، وهي تكون من الثلاثة إلى العشرة، ومعها راع، وأمرهم باللحوق بهم؛ ليشربوا من ألبانها، فانطلقوا حتى إذا كانوا ناحية الحرة، وصحت أجسامهم كفروا بعد إسلامهم، وقتلوا راعي رسول الله، وكان عبداً له، اسمه يسار، ومثلوا به تمثيلاً فظيعاً، فقطعوا يده ورجله، وجعلوا الشوك في عينيه، واستاقوا الذود، فجاء الصريخ بما وقع منهم إلى المدينة. فبعث ﷺ وراءهم خيلاً من المسلمين، قريباً من العشرة، وأمَّر عليهم كرز بن جابر الفهري في شوال سنة ست. جاء الخبر في أول النهار، وبعث السرية حين مجيء الخبر، فغدوا فإذا امرأة تحمل كتف بعير، فسألوها فقالت: مررت بقوم قد نحروا بعيراً، فأعطوني هذا، وهم بتلك المفازة، فساروا فوجدوهم، فأسروهم. ولم يفلت منهم إنسان فربطوهم وأردفوهم على الخيل، حتى قدموا المدينة، أمر بهم فقطعت أرجلهم وأيديهم من خلاف، وسملوا أعينهم[1]، وتركوا في ناحية الحرة من الشمس، حتى هلكوا، فكان ذلك قصاصاً عادلاً، وعبرة لغيرهم. وفي هذ الواقعة نزلت الآية:

﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾[2].

سريّة عمرو بن أمية الضمري
إلى أبي سفيان ليقتله

والسبب في ذلك: أن أبا سفيان أرسل رجلاً من المشركين إلى رسول الله ليقتله، فقد عرض الأمر على نفر من قريش، وقال: ألا أحد منكم يغدر

---

(١) سمل العين: سملها أو فقأها.

(٢) سورة المائدة: الآية ٣٣.

محمداً؟ فإنه يمشي في الأسواق. فأتاه رجل من الأعراب في منزله، فقال لأبي سفيان: قد وجدت أجمع الرجال قلباً، وأشدهم بطشاً، وأسرعهم شداً «جرياً» فإن أنت قويتني خرجت إليه حتى أغتاله، وقد هيأت له خنجراً مثل خافية[1] النسر، فإني هاد بالطريق، فقال أبو سفيان: أنت صاحبنا. فأعطوه بعيراً ونفقة، وقال: اطو أمرك. فخرج ليلاً، فسار على راحلته، ثم أقبل عليه، وهو في مسجد بني عبد الأشهل. فلما رآه ﷺ. قال: إن هذا الأعرابي ليريد غدراً، والله حائل بينه وبين ما يريد. فذهب لينحني على رسول الله فجذبه أسيد بن حضير بداخلة إزاره، فإذا بالخنجر، فأسقط في يده، وأخذ يقول: دمي. دمي. «خلوا دمي» فأخذ أسيد بلبته، وخنقه أشد الخنق. فقال له ﷺ: اصدقني ما أنت؟ قال الأعرابي: وأنا آمن؟ قال: نعم. فأخبره بخبره فخلى عنه، فأسلم. وقال: يا محمد! والله ما كنت أفرق[2] الرجال، فما هو إلا أن رأيتك، فذهب عقلي، وضعفت نفسي. ثم إنك اطلعت على ما هممت به، مما لم يعلمه أحد، فعرفت أنك ممنوع، وأنك على حق، وأن حزب أبي سفيان حزب الشيطان، فجعل رسول الله يبتسم. فأقام الرجل أياماً، ثم استأذن في الخروج، فأذن له، فخرج، ولم يسمع له بذكر، ولم يعرف اسمه أحد من الرواة، ولا الحفاظ.

فبعث رسول الله عمرو بن أمية الضميري[3] ومعه جبار بن صخر إلى أبي سفيان، وقال لهما: إن أصبتما منه غرة فاقتلاه. فدخلا مكة، وجلسا بشعب. ثم دخلا مكة ليلاً. فقال جبار لعمرو: لو أنا طفنا بالبيت وصلينا ركعتين. فقال عمرو: إنّ القوم إذا تعشوا جلسوا بأبنيتهم، وإنهم إن رأوني عرفوني، فإني أعرف بمكة من الفرس الأبلق. فقال: كلا إن شاء الله. قال عمرو: فأبى أن يطيعني. فطفنا بالبيت وصلينا. ثم خرجنا نريد أبا سفيان،

---

(١) (الخافية): جمعها الخوافي: ريشات، إذا ضمّ الطائر جناحيه خفيت ولم تظهر.
(٢) أفرق: أخاف، أو أفزع.
(٣) (الضميري): هكذا ينسبه الشيخ، والصحيح: الضمري نسبة إلى بني ضمرة. وسبقت الإشارة إلى ذلك. المحقق.

فوالله إنا لنمشي بمكة إذ نظر إلى رجل من أهلها فعرفني. فقال: عمرو بمكة؟ فخافوه وطلبوه. وكان في الجاهلية فاتكاً جريئاً. فجمع له أهل مكة، وصاروا يطلبونه، فهرب عمرو ورفيقه، فلقيا رجلاً من رؤوس المشركين، وهو عبيد الله بن مالك التميمي، فقتله وقتل آخر من بني الديل، سمعه يغني ويقول:

ولست بمسلم ما دمته حياً ولست أدين دين المسلمينا

ولقيا رسولين لقريش، بعثوهما إلى المدينة، يتجسسان الأخبار فقتل أحدهما، وأسر الآخر، فقدم به إلى المدينة، وجعل يخبر رسول الله بخبره، وهو يضحك.

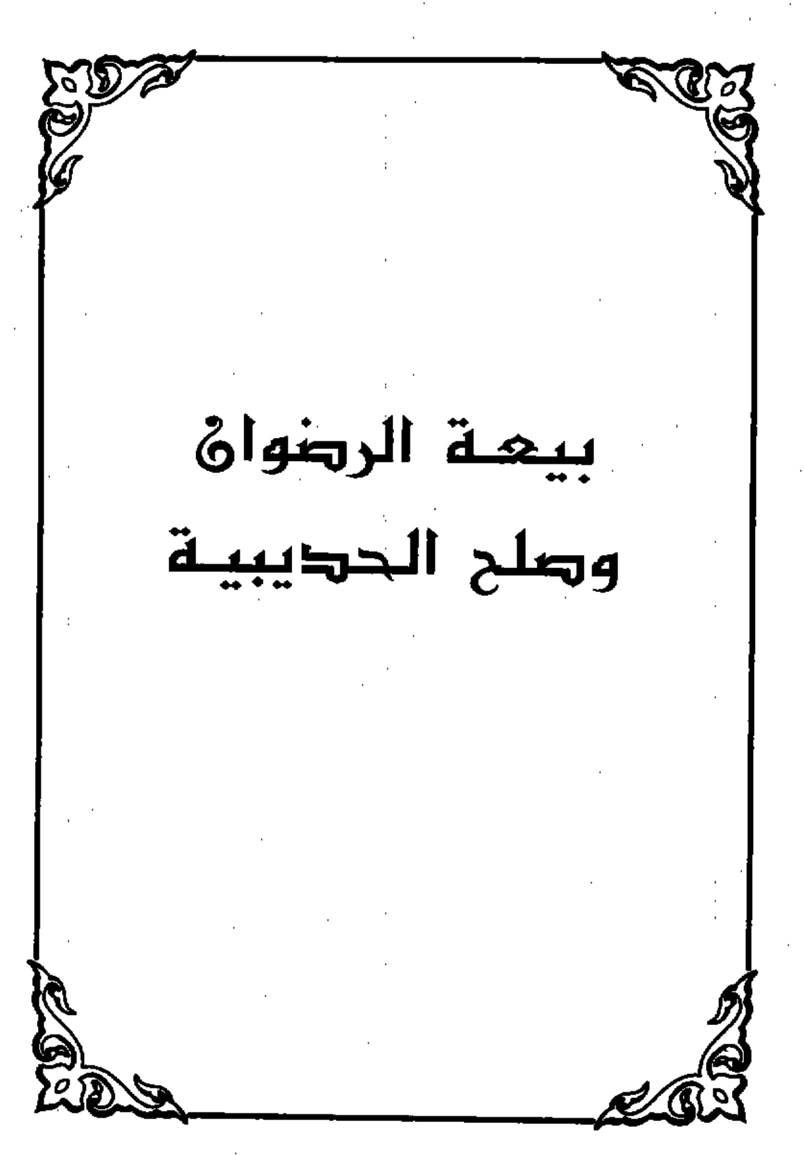
ومما حكاه عن نفسه قال: لما طلبتنا قريش قلت لصاحبي: النجاء. فخرجنا نشتد حتى أصعدنا في جبل، وخرجوا في طلبنا حتى إذا علونا الجبل، يئسوا منا، فرجعنا فدخلنا كهفاً في الجبل، فبتنا فيه، وقد أخذنا حجارة فرقمناه دوننا. فلما أصبحنا غدا علينا عبد الله بن مالك التميمي، يقود فرساً له ويختلي عليها، فغشينا ونحن في الغار فقلت: إن رآنا صاح بنا فأذانا وقتلنا. قال: وكان معي خنجر قد أعددته لأبي سفيان، فخرجت إليه، فضربته على قدميه ضربة واحدة، فصاح صيحة، أسمع أهل مكة، ورجعت فدخلت مكاني. وجاء الناس يشتدون وهو بآخر رمق، فقالوا: من ضربك؟ قال: عمرو بن أمية. وغلبه الموت، فمات مكانه. ولم يدلل على مكاننا. فاحتملوه، فقلت لصاحبي لما أمسينا: النجاء. فخرجنا ليلاً من مكة نريد المدينة، فمررنا بالحرس وهم يحرسون جثة خبيب بن عدي. فقال أحدهم: والله ما رأيت كالليلة أشبه بمشية عمرو بن أمية، لولا أنه بالمدينة لقلت إنه هو. فلما حاذيت الخشبة التي عليها خبيب، شددت عليها فاحتملتها، وخرجت أشتد. فخرجوا ورائي، حتى أتيت جرفاً «مهبط سيل» فرميت الجثة في الجرف، فغيبه الله عنهم، فلم يقدروا عليه، فقلت لصاحبي: النجاء. ومضينا ثم أوينا إلى جبل، ودخلنا كهفاً، فبينا نحن فيه، إذ دخل علينا شيخ من بني الديل أعور، في غنيمة له، فقال: من الرجل؟ فقلت: من بني بكر.

فمن أنت؟ فقال: من بني بكر. فقلت: مرحباً. فاضطجع. ثم رفع عقيرته يغني بالبيت المتقدم:

ولست بمسلم ما دمته حياً ولست أدين دين المسلمينا

فقلت في نفسي: ستعلم. ثم أمهلته حتى إذا نام، أخذت قوسي، فجعلت سيتها في عينه الصحيحة «والسية: ما عطف من طرفها» ثم تحاملت عليه، حتى بلغت العظم، ثم خرجت حتى جئت العرج. ثم سلكت حتى إذا هبطت النقيع إذا رجلان من قريش كانت قريش بعثتهما عيناً إلى المدينة فقلت: استأسرا، فأبيا. فرميت أحدهما بسهم. واستأسر الآخر، فأوثقته رباطاً، وقدمت به المدينة، وسلمته إلى رسول الله.

* * *



بيعة الرضوان
وصلح الحديبية

خروج رسول الله معتمراً إلى مكة

رأى رسول الله في النوم: أنه دخل مكة هو وأصحابه، محلقين رؤوسهم ومقصرين، وأنه دخل البيت، وأخذ مفتاحه، وطاف هو وأصحابه، واعتمر، فأخبر أصحابه، أنه يريد الخروج للعمرة في تلك السنة، فتجهزوا للسفر، وأعلن ذلك في الناس ليأمن من قريش، ومن حولهم، من حربه وليعلموا أنه إنما خرج زائراً للبيت، ومعظماً له، وكان خروجه في ذي القعدة، واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم، وأبا رحم جميعاً. فكان ابن أم مكتوم على الصلاة، وأبو رحم حافظاً للمدينة. فكان خروجه بعد أن استنفر العرب ومن حوله من البوادي ممن أسلم: غفار، ومزينة، وجهينة، وأسلم، خشية أن يحاربه قريش ويصدوه عن البيت. فتثاقل كثير منهم، وقالوا: أنذهب إلى قوم قد غزوه بعقر داره في المدينة، وقتلوا أصحابه، فنقاتلهم؟ وتحيلوا بالشغل بأهاليهم وأموالهم، وأنه ليس لهم من يقوم بذلك. فنزلت في تكذيبهم الآية: ﴿ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴾[١].

وكان جملة من معه ﷺ عشر مئة، ومئتا فارس، ليس معهم سلاح إلا السيوف في القرب.

وخرج رسول الله بعد أن اغتسل ببيته، وصلى بالمسجد ركعتين، ولبّى مرتين، وركب راحلته القصوى[٢] من عند بابه، وخرج معه: أم سلمة، وعمارة، وأم منيع، وأم عامر الأشهلية ومن أجابه من المهاجرين،

---

(١) سورة الفتح الآية (١١).

(٢) القصوى: الصحيح: القصواء بالألف الممدودة. وقد دأب الشيخ رحمه الله على كتابتها بالألف المقصورة. وفي لسان العرب: «وفي الحديث: أنه خطب على ناقته القصواء. وهو لقب ناقة سيدنا رسول الله ﷺ. والقصواء: التي قطع طرف أذنها، ولم تكن ناقته ﷺ قصواء، إنما هو لقب لها. وقيل: كانت مقطوعة الأذن.

والأنصار، ومن تبعه من الأعراب. وتثاقل عليه كثير منهم، كما تقدم، وساق معه الهدي، سبعين بدنة. وكان لفظ تلبيته:

«لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك. إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك له».

ولما وصل إلى ذي الحليفة، وصلى الظهر، أحرم منها بعمرة، وقلد، وحلل البدن، وأشعر منها عدة، وهي موجهات للقبلة، في الشق الأيمن من سنامها. ثم أمر ذكوان بن جندب و«قد سماه ناجية لما نجا من قريش» فأشعر ما بقي وقلدهن نعلاً نعلاً. وأشعر المسلمون بدنهم وقلدوها. «الأشعار: جرح بصفحة سنامها» «التقليد: وضع قطعة من جلد أو نعل بالية في عنق البدن ليعلم أنها هدي، فيكف الناس عنها».

وقال عمر بن الخطاب: أتخشى يا رسول الله من أبي سفيان وأصحابه؟ ولم تأخذ للحرب عدتها؟ فقال: لست أحب أن أحمل السلاح معتمراً. وأرسل ﷺ بشر بن سفيان العتكي[1] عيناً له إلى مكّة، يأتيه بأخبارها. فذهب، فلما كان بعسفان، عاد إليه وأخبره. فقال: هذه قريش قد سمعت بخروجك، واستنفروا من أطاعهم من الأحابيش، وأجلبت[2] ثقيف معهم. يخرجون ومعهم العوذ والمطافيل[3] «أي: النياق التي معها أولادها، أو النساء معهنّ أولادهن» ليكون أدعى لعدم الفرار، وقد لبسوا جلود النمر «كناية عن ظهور الكراهية والحقد» وقد نزلوا بذي طوى. يعاهدون الله ألا يدخلها عليهم عنوة أبداً. وهذا خالد بن الوليد في خيلهم، قد قدموها إلى كراع الغميم، وكانت مئتي فرس، وقد صفت إلى جهة القبلة.

---

(١) العتكي: ذكره ابن هشام بنسبة الكعبي في النص. وذكر بنسبة الكلبي في فهرس الأعلام. انظر: الجزء ٣ صفحة ٣٢٢. المحقق.

(٢) أجلبت: تجمعت وتألبت. ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ سورة الإسراء الآية (٦٤). المحقق.

(٣) (العوذ) بضم العين، جمع: الحديثات النتاج من كل أنثى. و(المطافيل) جمع مطفل: التي يرافقها ولدها، من الإنس والوحش. المحقق.

فأمر ﷺ عباد بن بشر، فتقدم في خيله، فقام بإزاء خالد بن الوليد، وصف أصحابه، وحانت صلاة الظهر، فأذن بلال، وأقام الصلاة.. فاستقبل رسول الله القبلة، وصف الناس خلفه، فركع بهم وسجد، ثم سلم. فقال المشركون: أمكنكم محمد وأصحابه من ظهورهم، هلا شددتم عليهم؟ فأجاب خالد: تأتي الساعة صلاة أخرى، هي أحب إليهم من أنفسهم وأبنائهم، وهي صلاة العصر.

صلاة الخوف

وبين الصلاتين: الظهر والعصر نزلت الآية:

﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً﴾[1].

ولما حانت صلاة العصر، صلى رسول الله بأصحابه صلاة الخوف، فجعل بعض المسلمين يسجد، وبعضهم قائم ينظر إلى المشركين، وهي على ما في رواية مسلم: صفهم صفين وأحرم بهم، وركع واعتدل بهم، ثم لما سجد سجد معه الصف الأول، ولحقه في القيام. وتقدم الصف الثاني وتأخر الصف الأول، ثم ركع واعتدل بهم جميعاً، ثم سجد وسجد معه الصف الثاني الذي تقدم، واستمر الصف الأول، الذي تأخر على الحراسة في اعتداله. فلما جلس للتشهد، أتم البقية صلاتهم، وجلسوا معه للتشهد، وسلم بهم جميعاً[2].

ولما رأى المشركون ذلك، قالوا: لقد أخبروا بما أردنا بهم. فأسفوا لما فاتهم من الغرة للمسلمين.

---

(١) سورة النساء الآية (١٠٢).

(٢) سبق أن تعرّض الشيخ لصلاة الخوف ضمن بقيّة الصلوات.

المداولة في الأمر

كان أبو هريرة يقول: ما رأيت أحداً قط، أكثر مشاورة لأصحابه من رسول الله ﷺ. وحين علم رسول الله، أن قريشاً تريد منعه عن البيت، جمع الصحابة وقال: أشيروا علي، أتريدون أن نؤمّ البيت، فمن صدفنا عنه قاتلناه؟ فقال أبو بكر: يا رسول الله! خرجت عامداً لهذه البيت، لا تريد قتل أحد ولا حرباً، فتوجه له، فمن صدفنا عنه قاتلناه. وقال المقداد بن الأسود: نحن لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا، إنا هاهنا قاعدون، ولكن نقول: اذهب أنت وربك فقاتلا، إنا معكما مقاتلون. والله! يا رسول الله! لو سرت بنا إلى برك الغمامة لسرنا معك، ما بقي منا رجل. فبدا الارتياح من هذه الأقوال على وجوه الصحابة. فقال رسول الله عند ذلك: فامضوا على اسم الله. فساروا. ثم قال متأسفاً:

يا ويح قريش! قد أكلتهم الحرب. ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر العرب؟ فإن هم أصابوني، كان ذلك الذي أرادوا، وإن أظهرني الله عليهم، دخلوا في الإسلام وافدين، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة. فما تظن قريش؟ فوالله لا أزال أجاهد على الذي بعثني الله به حتى يظهره الله. أو تنفرد هذه السالفة[1]. «صفحة العنق وهي كناية عن القتل».

ثم قال: هل من رجل يخرج بنا على طريق غير طريقهم التي هم بها؟ فأجابه ناجية بن جندب الأسلمي: أنا يا رسول الله! فقال له: سر بنا. فسلك بهم طريقاً وعراً، فلما خرجوا منه، وقد شق عليه ذلك، وأفضوا إلى أرض سهلة. قال ﷺ للناس، وقد أحس منهم بالملل: قولوا: نستغفر الله، ونتوب إليه. فقالوا ذلك.

ثم أمر رسول الله الناس أن يسلكوا طريقاً تخرجهم على مهبط الحديبية، من أسفل مكة، فسلكوا ذلك الطريق، فلما كانوا بالثنية التي يهبط عليهم منها، بركت ناقته القصوى. فقال الناس: حل حل. فألحت، واستمرت على

(١) السالفة: قال صاحب القاموس: «مقدم العنق»، من لدن معلق القرط إلى الترقوة.

عدم القيام، فقالوا: خلأت القصوى «حرنت». فقال رسول الله: ما خلأت وما هو لها بعادة، ولكنها حبسها حابس الفيل عن مكة. والذي نفس محمد بيده! لا تدعوني قريش اليوم إلى حطة «خصلة» يسألون فيها صلة الرحم، وتعظيم حرمات الله إلا أعطيتهم إياها. ثم زجر الناقة، فقامت، فولى راجعاً عوده على بدنه. ثم قال للناس: انزلوا. فقالوا: يا رسول الله! ما بالوادي ماء؟ فنزل عليه فأخرج سهماً من كنانته. فأعطاه ناجية بن جندب، وهو سائق بدن رسول الله، فأمره أن ينزل في قليب، ويغرزه فيه، فغرزه في جوفه، فجاش بالرواء العذب حتى ضرب الناس بعطن[1]، فرووا ورويت إبلهم.

وقد كان على الماء نفر من المنافقين، منهم عبد الله بن أبي بن سلول، فقال له أوس بن خولي: ويحك يا أبا الحباب! أما آن لك، تبصر ما أنت عليه؟ أبعد هذا شيء؟ فقال: إني رأيت مثل هذا. فقال له أوس: قبحك الله وقبح رأيك. ثم أقبل عبد الله إلى رسول الله. فقال له رسول الله: يا أبا الحباب! أنّي رأيت مثل ما رأيت اليوم؟ قال: ما رأيت مثله قط. قال: فلم قلت ما قلت؟ فقال: يا رسول الله! استغفر لي. وقال ابنه الحباب: استغفر له يا رسول الله! فاستغفر له.

وفي قول بعض الرواة: أن أبا سفيان قال لسهيل بن عمير[2]: قد بلغنا أنه ظهر بالحديبية قليب فيه ماء، أوجده محمد، فقم بنا ننظر إليه. فأشرفنا على القليب، والعين تنبع تحت إبلهم. فقالا: ما رأينا كاليوم قط. وهذا من سحر محمد قليل. وأتى بديل بن ورقاء[3]، وكان سيد خزاعة مسلمها ومشركها، وكانوا عيوناً له ﷺ بمكة، يخبرونه بكل شيء وهو بالمدينة إلى رسول الله، فسأله: ما الذي جاء بك إلى مكة؟

---

(١) العطن: مبرك الإبل حول الحوض، ومربض الغنم حول الماء.
(٢) هو في سيرة ابن هشام: سهيل بن عمرو. وهو الصحيح.
(٣) في سيرة ابن هشام: «رجال من خزاعة» أغفلها الشيخ، مع أن صيغة الجمع فيما بعد تقتضيها: «وكانوا عيوناً له» المحقق. السيرة الجزء ٣ صفحة ٣٢٥.

لم يأت يريد حرباً وإنما جاء زائراً للبيت

وفي كتاب المواهب اللدنية: أنه أعاد عليه ما كان قاله للمقداد بن الأسود، في حق قريش، أي: أنهم قد أكلتهم الحرب. .الخ. فقال بديل: سأبلغهم عنك ما تقول. فانطلق حتى أتى قريشاً، فقال: إنا جئناكم من عند هذا الرجل، وسمعناه يقول قولاً، فإن شئتم أن نعرضه عليكم فعلنا. فقال سفهاؤهم: لا حاجة لنا أن تخبرنا عنه بشيء. وقال ذو الرأي منهم: هات ما سمعته. فقال لهم: سمعته يقول كذا وكذا. حتى حدثهم بما قال. وطريف بالباحث أن يقف على ما قال: يا معشر قريش! إنك تعجلون على محمد، وإن محمداً لم يأت لقتال، وإنما جاء زائراً لهذا البيت. فاتهموه وجابهوه بما يكره.

فقالوا: إن جاء ولا يريد قتالاً، فوالله لا يدخلها علينا عنوة، ولا تتحدث بذلك عنا العرب، وبيننا وبينه من الحرب ما بيننا. والله! لا كان هذا العار، ومنا عين تطرف.

ثم تداولت قريش بينهم في الأمر، فقر قرارهم على أن يبعثوا إليه مكرز بن حفص، أخا بني عامر. فلما رآه رسول الله مقبلاً قال: غادر! فلما انتهى إليه وكلمه، قال له نحواً مما قال لبديل. فرجع إلى قريش، وأخبرهم بما قال له رسول الله. ثم بعثوا إليه الجليس بن علقمة وكان سيد الأحابيش، وهم بنو الهون بن خزيمة، وبنو الحارث بن عبد مناف بن كنانة، وبنو المطلق بن خزيمة.

«سموا الأحابيش: لأنهم تحالفوا تحت جبل بأسفل مكة يقال له حبش هم وقريش، على أنهم يد واحدة على من عاداهم».

فلما رآه رسول الله، قال: إن هذا من قوم يتألهون ويعظمون الهدي. ابعثوا الهدي في وجهه حتى يراه. فلما رأى الهدى يسيل عليه بقلائده في عرض الوادي، قد أكل أوباره من طول الحبس عن محله. واستقبله الناس يلبون. قد شعثوا. صاح، وقال: سبحان الله! ما ينبغي لهؤلاء أن يردوا عن البيت. أبى الله أن يحج لخم، وجذام، وفهر، وحمير، ويمنع ابن

عبد المطلب! هلكت قريش ورب الكعبة، إنما القوم أتوا عماراً. فقال رسول الله: أجل، يا أخا بني كنانة!

فعاد الجليس بن علقمة إلى قريش، فقال لهم: إني رأيت ما لا يحل منعه، رأيت الهدي في قلائده، قد أكل أوباره، معكوفاً[1] عن محله، والرجال قد شعثوا وقملوا. فقالوا له: اجلس، فإنما أنت أعرابي، ولا علم لك! فما رأيت من محمد مكيدة! فعند ذلك غضب الجليس وقال: يا معشر قريش! والله ما على هذا حالفناكم، ولا على هذا عاقدناكم. يصد عن بيت الله من جاءه معظماً؟ والذي نفس الجليس بيده! لتخلن بين محمد وما جاء له، أو لأنفرن بالأحابيش نفرة رجل واحد. فقالوا له: مه يا جليس! حتى نأخذ لأنفسنا ما نرضى به.

ثم عادوا، فبعثوا إلى رسول الله، عروة بن مسعود الثقفي؛ الذي شبهه ﷺ بعيسى ابن مريم، فقال لقريش، قبل أن يذهب، وقد سمع تعنيفهم للجليس: إني رأيت ما يلقى منكم من بعثتموه إلى محمد، إذا جاءكم من التعنيف، وسوء اللفظ. وقد عرفتم، كل واحد منكم كالوالد لي، وأنا كالولد له «وأمه سبيعة بنت عبد شمس» قالوا: بلى. قال: فهل تتهموني؟ قالوا: ما أنت عندنا بمتهم. فخرج حتى أتى رسول الله ﷺ، فجلس بين يديه. ثم قال: يا محمد! جمعت أوباش الناس، ثم جئت بهم إلى بيضتك «أهلك وعشيرتك» لتفضها بهم، إنهم قريش، قد خرجت معها العوذ المطافيل، قد لبسوا جلود النمر. يعاهدون الله ألا تدخلها عليهم عنوة أبداً. وأيم الله! لكأني بهؤلاء قد انكشفوا عنك غداً. والله لا أرى وجوهاً، وإني أرى أسراباً من الناس، خليقاً أن يعبروا ويدعوك. وكان أبو بكر جالساً خلف رسول الله يسمع ما يقول. فقال له: اعضض بظر اللات «قطعة تقطعها الخاتنة من الفرج» أنحن ننكشف عنه؟ قال: من هذا؟ يا محمد! قال: هذا ابن أبي قحافة. قال: أما والله لولا يد كانت لك عندي، لكافأتك على

---

(١) معكوفاً: محبوساً عن الموضع الذي يحل نحره فيه. ومنه قوله تعالى من سورة الفتح الآية: ٢٥ «والهدي معكوفاً أن يبلغ محله». المحقق.

هذه الكلمة التي قلتها. ولكن هذه بهذه.

«استعان عروة في حمل دية، فأعانه الرجل بالواحد من الإبل، والرجل بالاثنين، وأعانه أبو بكر بعشرة إبل شواب».

ثم جعل عروة يتناول لحية رسول الله، وهو يكلمه، وهي «عادة العرب خصوصاً عند الملاطفة، وفي الغالب: إنما يصنع ذلك بالنظير»، وكان المغيرة بن شعبة واقفاً على رسول الله ﷺ في الحديد، وعليه المغفر. فجعل يقرع يد عروة إذا تناول لحية رسول الله بنصل السيف «وهو ما يكون أسفل القراب من فضة أو غيرها ويقول: اكفف يدك عن مس لحية رسول الله. وعروة يقول: ما أغلظك! وما أفظك! فلما كثر عليه، غضب عروة، وقال: ليت شعري! من هذا الذي آذاني من بين أصحابك؟ والله! إني لا أحسب فيكم ألأم منه، ولا شر منزلة. فتبسم رسول الله، وقال: هذا ابن أخيك، المغيرة بن شعبة. «وعروة كان عم والد المغيرة فقال: أي غدر يا غادر؟ وهل غسلت غدرتك[1] بعكاظ إلا بأمس، وقد أورثتنا العداوة من ثقيف إلى آخر الدهر!

«غدرة المغيرة: قتله قبل إسلامه، ثلاثة رجال من بني مالك من ثقيف. غيلة. وقصة ذلك: أنهم كانوا سدنة اللات، أوفدهم قومهم، على المقوقس ملك مصر بهدايا، فرافقهم المغيرة، فأنزلهم المقوقس في كنيسة معدودة للضيافة، فلما دخلوا عليه، وقدموا له الهدايا، استخبر كبيرهم عن المغيرة؟ فقالوا: ليس منا بل من الأحلاف. فكان من أهون رجال الوفد عليه. فأكرمهم جميعاً دونه. فلما رجعوا، لم يواسه أحد منهم. فكره أن يخبروا أهله بمواساتهم، وازدراء الملك، فأجمع رأيه على قتلهم، وتربص بهم الفرصة، ولما وصلوا إلى عكاظ أثناء رجوعهم إلى قومهم. فجلسوا يعاقرون الخمر، فعرضوا على المغيرة أن يشرب معهم، فامتنع، وجعل يسقيهم بدون مزج، حتى سكروا وهمدوا، فوثب عليهم فقتلهم جميعاً. وأخذ كل ما معهم. ووفد

---

(١) الصيغة في سيرة ابن هشام: «وهل غسلت سوءتك إلا بالأمس» المحقق.

على رسول الله إلى المدينة وأسلم. فسأله أبو بكر: من مصر قدمت؟ قال: نعم. فقال: ما صنع المالكيون الذي كانوا معك؟ فقال: كان بيني وبينهم ما يكون بين العرب، وقتلتهم، وجئت بأسلابهم. ليخمسها النبي، أو يبدي فيها رأيه.

فقال رسول الله ﷺ: أما إسلامك فقبلته، ولا آخذ من أموالهم شيئاً، ولا أخمسه، فإنه غدر، والغدر لا خير فيه. فقال: يا رسول الله! إنما قتلتهم، وأنا على دين قومي، ثم أسلمت. فقال ﷺ: الإسلام يجب ما قبله.

وبلغ ذلك ثقيفاً، فتداعوا للقتال، واصطلحوا على أن يحمل عمه عروة ثلاثة عشر دية.

والله ما رأيت ملكاً في قومه مثل محمد في أصحابه

وتكلم رسول الله مع عروة بما تكلم به مع من تقدم من رسل قريش، من أنه لم يأت لحرب، فقام من عند رسول الله، وقد رأى ما يصنع به أصحابه من الإجلال والتعظيم. إذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وإذا جلسوا تأدبوا في حضوره، وإذا تكلم أنصتوا، ولا يحدون النظر إليه.

ولما أتى قومه، قال: يا معشر قريش! إني جئت كسرى في قومه، وقيصر في ملكه، والنجاشي في ملكه. والله ما رأيت ملكاً في قومه قط، مثل محمد في أصحابه. ولقد رأيت قوماً لا يسلمونه لشيء أبداً! فروا رأيكم؟ فإنه عرض عليكم رشداً، فاقبلوا ما عرض عليكم، فإني لكم ناصح، مع أني أخاف ألا تنصروا عليه.

نرده عامنا هذا ويرجع إلى قابل

فقالت قريش: لا تتكلم بهذا أيا أبا يعفور! ولكن نردّه عامنا هذا، ويرجع إلى قابل. فقال: ما أراكم إلا ستصيبكم قارعة. ثم انصرف بمن معه إلى الطائف وتركهم.

ولما أبطأ الجواب عن رسول الله، دعا خراش بن أمية الخزاعي، فبعثه إلى

قريش وحمله على بعير له، يقال له[1]: الثعلب ليبلغ أشرافهم عنه ما جاء له، فعقروا به جمل رسول الله. عقره عكرمة بن أبي جهل. وأرادوا قتله، فمنعه الأحابيش، فخلوا سبيله، حتى أتى رسول الله، فأخبره بما لقي.

ثمّ دعا رسول الله عمر بن الخطاب ليبعثه، يبلّغ عنه أشراف قريش ما جاء له. فقال: يا رسول الله! إني أخافهم على نفسي، وما بمكة من بني عدي بن كعب أحد يمنعني. وقد عرفت قريش عداوتي إياها وغلظتي عليها. ولكن أدلك على رجل، أعز لها منّي: عثمان بن عفان فإن بني عمّه يمنعونه. فدعا رسول الله عثمان بن عفان، فبعثه إلى أشراف قريش، يخبرهم أنه لم يأت لحرب، وأنه لم يأت إلا زائراً لهذا البيت. ومعظماً لحرمته، وسلّم له بذلك كتاباً، يتضمن الصلح على ما وقع بينهم وبين سهيل بن عمرو.

وأمر ﷺ عثمان بن عفّان أن يأتي سرّاً رجالاً مسلمين، ونساء مسلمات بمكة ويدخل عليهم، ويبشرهم بالفتح، ويخبرهم أن الله وشيك أن يظهر دينه بمكة حتى لا يستخفي فيها الأمان.

فخرج عثمان إلى مكة، ودخلها معه عشرة من الصحابة، يزورون أهلهم بإذنه ﷺ فلقى عثمان قبل دخوله إلى مكة أبان بن سعيد بن العاص، فأجاره حتى يبلغ رسالة رسول الله وجعله يمشي بين يديه. فجاء إلى عظماء قريش، فبلغهم عن رسول الله ما أرسله به. فكان يقول، وهم يردّون عليه: إن محمداً لا يدخلها علينا أبداً. فلما فرغ عثمان من تبليغ الرسالة. قالوا له: إن شئت أن تطوف بالبيت فطف. قال: ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله.

وقال المسلمون لرسول الله: قد خلص عثمان إلى البيت، فطاف به دوننا. فقال: ما أظنّه طاف بالبيت ونحن محصورون. قالوا: وما يمنعه يا رسول الله وقد خلص إليه؟ قال: ذلك ظنّ به. ألا يطوف بالبيت حتى نطوف، ولو مكث كذا كذا سنة.

---

(١) لم يورد الطبري هذا الاسم في تعداده لأسماء إبل ولقاح الرسول ﷺ. المحقق.

فاحتبست قريش عندها عثمان ثلاثة أيام، لا يأذنون له. فبلغ رسول الله أنه قتل، وقتل معه العشرة رجال، الذين دخلوا مكة. فقال ﷺ عند ذلك: لا نبرح، حتى نناجز القوم. ودعا رسول الله الناس للبيعة. وعن سلمة بن الأكوع، قال: بينما نحن جلوس، قائلون، إذ نادى منادي رسول الله، وهو عمر بن الخطاب: أيها الناس! البيعة البيعة، نزل الروح القدس، فاخرجوا على اسم الله. فسرنا إلى رسول الله، وهو تحت شجرة، فبايعه الناس، على عدم الفرار. وإنه، إما الفتح، وإما الشهادة.

وبايع رسول الله عن عثمان، فوضع يده على يده، وضع يده اليمنى على يده اليسرى، وقال: اللهم! إن هذا عن عثمان، فإنه في حاجتك وحاجة رسولك.

وكانت البيعة تحت شجرة من السمر[1]. ولما جاء عثمان، بايع تحت تلك الشجرة أسوة ببقية الصحابة، وقد سميت بيعة الرضوان.

وورد أن أول من تقدّم للبيعة، وبايع رسول الله: سنان بن أبي سنان الأسدي قال: أبايعك على ما في نفسك. قال: وما في نفسي؟ قال: أضرب بسيفي بين يديك، حتى يظهرك الله، أو أقتل. وصار الناس يقولون له: نبايعك على ما بايعك عليه سنان.

ثم عبد الله بن عمر. وقيل: سلمة بن الأكوع. ثم تتابع المبايعون من الصحابة، ولم يتخلف أحد إلا أمجد بن قيس، قال عنه سلمة بن الأكوع: لكأني أنظر إليه، لاحقاً بإبط ناقته، يستتر بها من الناس. وكان يُرمى بالنفاق. وهو سيد بني سلمة في الجاهلية.

«وبعثت قريش إلى عبد الله بن أبي بن سلول: إن أحببت أن تدخل مكة فتطوف بالبيت فافعل، فقال له ابنه الحباب: يا أبت! أذكرك الله. ألا تفضحنا

---

(١) (السَّمر) ضرب من شجر الطلح، صغار الورق، قصار الشوك، له ثمرة صفراء يأكلها الناس، وخشبه من أجود الخشب، و(السَّمُرة) هي شجرة بيعة الرضوان. انظر (اللسان). المحقق.

في كل موطن، تطوف ورسول الله لم يطف؟! فأبى حينئذ وقال: لا أطوف حتى يطوف رسول الله، إنّ لي من رسول الله أسوة حسنة، فلما بلغ رسول الله امتناعه، رضي عنه، وأثنى عليه بذلك.

بيعة الرضوان

لما بلغ خبر البيعة لقريش، أساءها كثيراً، فأرسلت خمسين رجلاً، عليهم مكرز بن حفص، الذي قال عنه رسول الله رجل غادر، ليطوفوا بعسكر رسول الله ليلاً، يتجسسون أخبارهم، ويجدون منهم غرّة، فأخذهم محمد بن مسلمة، وكان على حرس رسول الله، ولم يفلت منه إلا مكرز، وأتى بهم إلى رسول الله، فحبسهم، وبلغ قريشاً ذلك فجاء جمع منهم حتى رموا المسلمين بالنبل والحجارة، وقتل من المسلمين ابن زينم بسهم، فأسر المسلمون منهم اثني عشر رجلاً.

عند ذلك أرسلت قريش وفداً إلى رسول الله ﷺ على رأسهم سهيل بن عمرو فقال: يا محمد إن الذي كان من حبس أصحابك عثمان ومن دخل معه، وما كان من قتال من قاتلك، لم يكن من رأي ذوي الرأي فينا، نحن كنا كارهين له حين بلغنا. بل كان من سفهائنا. فابعث إلينا بأصحابنا الذي أسرت أولاً وثانياً. فقال: إني غير مرسلهم، حتى ترسلوا أصحابي. فقالوا: نفعل.

فبعث سهيل ومن معه إلى قريش بذلك، فبعثوا من كان عندهم، عثمان والعشرة رجال، فأطلق رسول الله أصحابهم.

وصف الحالة التي لقيها أصحاب النبي من الانتظار من الحديبية، وإصلاح طريقة الإحرام

عن كعب بن عميرة قال: كنا مع رسول الله بالحديبية ونحن محرمون، قد حصرنا المشركون وأضررنا ضرراً شديداً. وقد بين لنا هذا الضرر بما حكاه عن نفسه، قال: كان لي وفرة «شعر في الرأس» فجعلت الهوام تتساقط على وجهي، فمرّ بي رسول الله ﷺ، فقال: كأنك تؤذيك هوام رأسك؟ وفي

رواية أخرى: لعلك آذاك هوام رأسك؟ قلت: نعم يا رسول الله. قال: ما كنت أرى أن الجهد بلغ بك هذا. فقلت: فمرني أن أحلق. فأنزل الله:

﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾[1].

فقال له رسول الله: صم ثلاثة أيام، أو تصدّق بفرق من زبيب أو تمر بين ستّة مساكين «الفرق: ثلاثة أصع» لكل مسكين نصف صاع: أو انسك «أي اذبح ما تيسّر لك» أي ذلك فعلت: أجزى عنك. قال: فحلقت، ثم نسكت.

وفي رواية الشيخين: انسك شاة، أو صم ثلاثة أيام، أو أطعم فرقاً من الطعام على ستة مساكين. قال ابن عبد البر: عامة الآثار واردة عن كعب بن عمير، ووردت بلفظ التخيير، وهو نص القرآن، وعليه العمل.

المكالمة في الصلح

اجتمع قريش، وتداولوا بينهم في أمر الصلح، على أن يرجع محمد عن مكّة، ويعود من قابل فيقيم ثلاثاً، معه سلاح الراكب، والسيوف في القرب، والقوس. فأوفدوا في هذا الأمر سهيل بن عمرو، ومكرز بن حفص، وحويطب بن عبد العزى إلى رسول الله، ليصالحوه على ذلك. فلما رآهم رسول الله مقبلين، قال: أراد القوم الصلح، حيث بعثوا من أوفدوهم، سهيل بن عمرو. فلما مثل أمام رسول الله، جثا بين يديه والمسلمون حوله جلوس. وتكلم فأطال، ثم تراجعا، ومن جملة ذلك قال له رسول الله: تخلوا بيننا وبين البيت نطوف به. فقال له سهيل: والله! لا تتحدث العرب بنا، أنا أخذنا ظغطة «بالشدّة والإكراه». ولكن ذلك من العام القابل. ثم انتهى الأمر على الوفاق بين الطرفين. ولم يبق إلا الكتاب بذلك.

معارضة عمر في شروط الصلح

ولقي عمر من تلك الشروط أمراً عظيماً، فوثب من مقعده فأتى أبا بكر،

---

(١) سورة (البقرة) الآية: (١٩٦).

فقال: يا أبا بكر! أليس هو برسول الله؟ قال: بلى. قال: أو لسنا بالمسلمين؟ قال: بلى. قال: أو ليسوا بالمشركين؟ قال: بلى. قال: فعلام نعطي الدنيّة «النقيصة والخصلة المذمومة» في ديننا! فقال له أبو بكر: إنه رسول الله ﷺ وليس يعصي ربّه. وهو ناصره، استمسك بغرزه «ركابه» حتى تموت.

ثم أتى عمر رضي الله عنه رسول الله، فقال له مثل ما قال لأبي بكر. فقال له النبي: أنا عبد الله ورسوله، لن أخالف أمره، ولن يضيعني. فجعل عمر يردّ على رسول الله الكلام. حتى قال له أبو عبيدة بن الجراح: ألا تسمع يا بن الخطاب رسول الله يقول ما يقول، نعوذ بالله من الشيطان الرجيم. فقال رسول الله: يا عمر! إني رضيت، وتأبى؟!

كتابة وثيقة الصلح

فدعا رسول الله أوس بن خولة، أن يكتب وثيقة الصلح. فقال سهيل: لا يكتبها إلا ابن عمك علي، أو عثمان بن عفان. فأمر علياً أن يكتب، فأملى عليه:

«بسم الله الرحمن الرحيم». فقال سهيل بن عمرو: لا أعرف الرحمن الرحيم ولكن اكتب: باسمك اللهم. فصاح المسلمون. وقالوا: لا يكتب إلا بسم الله الرحمن الرحيم. فقال النبي: اكتب: باسمك اللهم[1] فكتبها. ثم قال اكتب:

«هذا ما صالح عليه محمد رسول الله، سهيل بن عمرو» فقال سهيل: ولو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك، ولم أصدك عن البيت. ولكن اكتب:

---

(١) افتتح النبي كتبه بهذه الصيغة في أربعة كتب. ولما نزلت آية بسم الله مجراها ومرساها كتب بسم الله. ولما نزلت آية: قل ادعو الله أو ادعو الرحمن، فكتب بسم الله الرحمن. ولما نزلت آية: وإنه بسم الله الرحمن الرحيم صار يكتب كذلك في صدر كتبه. المؤلف.

الآية: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرِىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾ الآية (٤١) سورة (هود).

الآية: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ الآية (١١٠) سورة (الإسراء).

الآية: ﴿وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ الآية (٣٠) سورة (النمل). المحقق.

باسمك وباسم أبيك: محمد بن عبد الله. فقال لعلي: امح رسول الله.

فقام أسيد بن حضير، وسعد بن عبادة، وأخذا بيد علي، ومنعاه أن يكتب إلا محمداً رسول الله، وإلا فالسيف بيننا وبينهم، وضجّ المسلمون وارتفعت الأصوات، وجعلوا يقولون: لم نعط هذه الدنيّة في ديننا؟ فجعل رسول الله، يخفضهم، ويومىء بيده إليهم: أن اسكتوا. ثم قال: أرنيه. فأراه إياه، فمحاه بيده الشريفة، وقال اكتب:

«هذا ما صالح به محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو «ولما كتبها علي» قال أنا والله رسول الله، وإن كذبتموني، وأنا محمد بن عبد الله. ثم أملى عليه: «على وضع الحرب، تأمن فيه النّاس، ويكف بعضهم عن بعض» واختلف في تعيين المدّة من سنتين إلى عشر سنين. واشترط نواب قريش، زيادة عن كف الحرب: «رد من أتى محمداً من قريش، ممّن هو على دين محمد، بغير إذن وليه، ذكراً كان أو أنثى. ومن أتىٰ قريشاً مرتداً ممن كان مع محمد ذكراً كان أو أنثى، لم يرد عليه. وأن من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده، دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه، وأن بيننا وبينكم عيبة[١] مكفوفة «صدوراً» نقيّة من الغل والخداع، مطوية على الوفاء بالصلح، وأنه لا إسلال ولا إغلال «لا سرقة ولا خيانة»[٢].

قال سهيل: «وأنك ترجع عامك هذا، فلا تدخل مكة، وأنه إذا كان عام قابل خرج منها قريش، فتدخلها بأصحابك، فأقمت بها ثلاثة أيام، معك سلاح الراكب، السيوف في القرب والقوس. لا تدخلها بغيرها» وفي البخاري: وأخذ رسول الله الكتاب ليكتب «التوقيع» فكتب: هذا ما قاضى عليه محمد.

ولما أتم الكتاب. قال سهيل: هذا يكون عندي، وقال رسول الله: بل عندي. فأخذه ﷺ وأمر محمد بن مسلمة فنسخ مثلها لسهيل. فأخذها عنده.

---

(١) جاء في (اللسان): عيبة الرجل. موضع سره.

(٢) جاء في (اللسان): الإسلال: الغارة الظاهرة، والرشوة، والسرقة.

ولما اشترط سهيل أن يردّ إلى قريش، من جاء مسلماً. قال المسلمون: سبحان الله! كيف نرد للمشركين من جاء مسلماً!؟ وعسر عليهم شرط ذلك. وقالوا: يا رسول الله! أتكتب هذا؟ قال: نعم، من ذهب منا إليهم، فأبعده الله، ومن جاءنا منهم، فرددنا إليهم، سيجعل الله له فرجاً ومخرجاً. فقال عمر: أترضى بذلك؟ فتبسم وقال: من جاءنا منهم فرددناه إليهم، سيجعل الله له فرجاً ومخرجاً، ومن عرض عنا، وذهب إليهم، فلسنا منه في شيء، وليس منا، بل هو أولى بهم.

وبينا رسول الله هو وسهيل بن عمرو، يكتبان كتاب الصلح، ويتواجهان في الشروط، إذ أقبل أبو جندل بن سهيل بن عمرو إلى المسلمين، يرسف في الحديد، متوشحاً سيفه، قد أفلت من سجن المشركين، فهلل المسلمون يرحّبون به، ويهنئونه، فلما رأى سهيل ابنه أبا جندل، قام إليه فضرب وجهه ضرباً شديداً بغصن شائك، حتى رق له المسلمون، وبكى منهم من بكى. وقال سهيل: هذا أول ما أقاضيك عليه يا محمد، أن تردّه إلي. لقد لجت القضيّة بيني وبينك، وتمت قبل أن يأتيك هذا. قال: صدقت، فجعل سهيل ينتر ابنه أبا جندل بلبتيه ويجرّه ليردّه إلى قريش. وجعل أبو جندل يصرخ بأعلى صوته، ويقول: يا معشر المسلمين! أردّ إلى المشركين يفتنوني عن ديني؟ ألا ترون ما لقيت؟ «فقد عذّب عذاباً شديداً على أن يرجع عن الإسلام» فزادت كلماته للنّاس ما بهم من الحنق على قريش من منع دخولهم مكة، وطوافهم بالبيت، كما كان وعدهم ذلك رسول الله ﷺ. فلما رأوا شروط الصلح، وتحمّل رسول الله في نفسه عليه، دخلهم من ذلك أمر عظيم، حتى كادوا يهلكون. وما داخلهم أشد من اشتراط أن يردّ إلى المشركين، من جاء مسلماً منهم، وأنهم سيردون أبا جندل إليهم بعد ضربه.

فكلم الرسول ﷺ أبا جندل، فقال له: اصبر واحتسب، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً، وأعطيناهم على ذلك، وأعطونا عهد الله. ألا نغدر بهم.

وقال ﷺ لسهيل: إنا لم نفضّ الكتاب بعد «يريد بذلك ألا يسلّم

أبا جندل» فقال: بل لقد لجت القضية بيني وبينك «تمّ العقد» فردّه. فقال رسول الله: فأجره لي. فقال: ما أنا مجير ذلك. قال: بلى فافعل. قال سهيل: ما أنا بفاعل. فقال مكرز وحويطب لرسول الله: قد أجرناه لك، لا نعذبه.

عند ذلك أخذ حويطب ومكرز يتساران، فقال حويطب لمكرز: رأيت قوما أشد حبّاً لمن دخل معهم من أصحاب محمد، أما أنا فإني أقول لك:

لا نأخذ من محمد نصفاً أبداً بعد هذا اليوم

حتى يدخلها عنوة

فقال مكرز: وأنا أرى ذلك. ولما سمع ذلك عمر بن الخطاب، وثب ومشى إلى جنب أبي جندل. وكان أبوه سهيل بجنبه يدفعه. فقال له عمر: اصبر يا أبا جندل! فإنما هم المشركون، وإنما دم أحدهم لك ومعك السيف «يعرّض له بقتل أبيه» إن الرجل يقتل أباه في الله، والله لو أدركنا آباءنا لقتلناهم في الله. فقال له أبو جندل: مالك لا تقتله أنت؟ فقال عمر: نهانا رسول الله عن قتله وقتل غيره. فقال أبو جندل: ما أنت أحق بطاعة رسول الله منّي. قال عمر: وددت أن يأخذ السيف، فيضرب أباه، فضن الرجل بأبيه.

ورجع أبو جندل إلى مكة في جوار مكرز بن حفص وحويطب، فأدخلاه مكاناً، وكف عنه أبوه «واسم أبي جندل: العاص. وهو أخو عبد الله بن سهيل. وإسلام عبد الله سابق على أبي جندل. وقد شهد بدراً والمشاهد كلها».

ودخلت بنو بكر في عقد قريش وعهدهم، ودخلت خزاعة في عقده ﷺ وعهده، ووثب من هناك من خزاعة، فقالوا: نحن ندخل في عقد محمد وعهده، ونحن على من وراءنا من قومنا. فقال حويطب لسهيل: بادأنا إخوانك خزاعة بالعداوة، وكانوا يستترون منّا. فدخلوا في عهد محمد وعقده. فقال سهيل: ما هم إلا كغيرهم، هؤلاء أقاربنا ولحمتنا قد دخلوا مع محمّد، قوم اختاروا لأنفسهم أمراً، فما نصنع بهم؟ قال حويطب: نصنع

بهم أن ننصر عليهم حلفاءنا بني بكر. قال سهيل: إياك أن تسمع هذا منك بنو بكر، فإنهم أهل شؤم، فيسبوا خزاعة، فيغضب محمد لحلفائه، فينفض العهد بيننا وبينه.

ومن هذا القول يعلم أن الصلح وقع بسبب (بيعة الرضوان) وأن قريشاً وأحلافها شعروا بضعفهم، وتفوق قوة النبي ﷺ وأن سلطانه لا محالة سيمتدّ إلى مكّة، وأن رسول الله إنما يصابرهم حتى يحتسب الفرصة.

ولما تمّ الصلح شهد عليه رجال من الفريقين، فمن المسلمين: أبو بكر وعمر، وعثمان، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وأبو عبيدة بن الجراح، ومحمد بن مسلمة. ومن قريش: حويطب ومكرز.

كانت خزاعة حلفاء عبد المطلب بن هاشم جد النبي ﷺ يناصرونه على عمّه نوفل بن عبد مناف. والسبب في هذا الحلف: أنّ المطلب لما مات، وثب نوفل على ساحات وأقبية من السقاية كانت لعبد المطلب، واغتصبه إياها. فاضطرب عبد المطلب لذلك واستنهض قومه، فلم ينهض معه واحد منهم. وقالوا له: لا ندخل بينك وبين عمّك. وكتب بذلك إلى أخواله بني النجار، فجاء منهم سبعون راكباً، فأتوا نوفلاً وقالوا له: ورب البنية! لتردن على ابن أختنا ما أخذت، وإلا ملأنا منك السيف، فردّه.

ثم حالف عبد المطلب خزاعة، بعد أن حالف نوفل بن أخيه عبد شمس، ولما شرع رسول الله ﷺ في عقد الحلف مع قريش، أتاه أبيّ بن كعب بحلف خزاعة وقرأه عليه. نصه:

«باسمك اللهم! هذا حلف عبد المطلب بن هاشم، لخزاعة، إذ قدم عليهم سرواتهم، وأهل الرأي منهم. غائبهم يقر بما قاضى عليه شاهدهم. إن بيننا وبينكم عهد الله وميثاقه، وما لا ينسى أبداً. اليد واحدة، والنصر واحد. ما أشرف ثبير، وثبت حراء مكانه، وما بلّ بحر صوفة.

وفي الإمتاع صورة أخرى لهذه المعاهدة، وهي:

«باسمك اللهم! هذا ما تحالف عليه عبد المطلب بن هاشم ـ ورجالات

عمرو بن ربيعة من خزاعة، تحالفوا على التناصر والمواساة، ما بل بحر صوفة، حلفاً جامعاً غير مفرق. الأشياخ على الأشياخ، والأصاغر على الأصاغر، والشاهد على الغائب، وتعاضدوا أوكل عهد، وأوثق عقد، لا ينقض ولا ينكث. ما أشرقت شمس على ثبير، وحنّ بفلاة بعير، وما أقام الأخشبان، وعمر بمكة إنسان. حلفاً أبد الطول، أمد يزيده طلوع الشمس شداً، وظلام الليل مدّاً. وأن عبد المطلب وولده ومن معهم من رجال خزاعة متكافئون متظاهرون متعاونون، فعلى عبد المطلب النصرة لهم بمن تابعهم، على كل طالب. وعلى خزاعة النصرة لعبد المطلب وولده ومن معهم، على جميع العرب من شرق أو غرب، أو حزن أو سهل. وجعلوا الله على ذلك وكيلاً.

فلما تمّ الصلح دخل خزاعة مع رسول الله حسب عهدهم لعبد المطلب، ودخل بنو بكر مع قريش.

بعد الصلح

لما فرغ رسول الله ﷺ من كتابة الصلح، أمر المسلمين بالحلق والنحر، ثلاث مرّات، فلم يفعل ذلك منهم أحد. فدخل على أم سلمة وهو مغضب، فاضطجع. فقالت: مالك يا رسول الله! مراراً، وهو لا يجيبها. وفي الثالثة ذكر لها ما لقي من النّاس. وقال لها: هلك المسلمون، أمرتهم أن ينحروا ويحلقوا ويحلوا، فلم يفعلوا. فقالت: يا رسول الله! لا تلمهم، فإنهم قد دخل عليهم أمر عظيم، مما أدخلت على نفسك من المشقة في أمر الصلح، ورجوعهم بغير فتح مكة. ثم أشارت عليه أن يخرج، ولا يكلم أحداً منهم، وينحر بدنه ويحلق رأسه، فاستحسن رأيها، وأخذ الحربة، وقصد هديه، فقسمه قسمين: قسم بعث به إلى مكة، بعث عشرين بدنة مع ناجية، نحرها بالمروة، وقسّم لحمها على فقراء مكة. وقسم نحره بالمدينة، أخذ الحربة، وأهوى بها إلى البدن رافعاً صوته بقوله: باسم الله. والله أكبر. حتى نحرت جميعاً، وفرّق لحمها على الفقراء الذين حضروا هناك.

ثم دخل قبّة له من أدم أحمر، ودعا بخراش بن أمية الخزاعي فحلق

رأسه، فلما أن رأى الصحابة ذلك، قاموا فنحروا وحلقوا، وبعضهم قصر ولم يحلق، كعثمان وأبي قتادة، فدعا للمحلقين ثلاثاً، وواحدة للمقصرين.

قفول رسول الله من الحديبية إلى المدينة والتبشير بفتح مكة

ثم انصرف رسول الله قافلاً إلى المدينة، بعد أن أقام بالحديبية تسعة عشر يوماً، وأبرم الصلح مع قريش. وكان الحجر الأوّل في بناء الحكم الإسلامي على مكة.

ولما وصل رسول الله إلى كراع الغميم بين مكة والمدينة، نزلت عليه سورة الفتح. وقال عنها لعمر بن الخطاب: نزلت عليّ سورة، هي أحب إليه مما طلعت عليه الشمس. ومنها يظهر أن وجهه إلى الحديبية، كان عبارة عن مناورة جسّ بها نبض قريش، لكي يختبر قوتهم ومنعتهم في الدّفاع عن العاصمة القرشية. فكان جنوحهم لعقد الصلح معه، دليلاً قاطعاً على الضعف والوهن، لا على القوة والتمكّن، وقد أحب أن يطمئنهم على أنفسهم فأعطاهم كل ما سألوه. وهو ما غرب فهمه عن جلّ الصحابة.

تعديل العهد فيما يتعلّق بردّ النساء

لما قدم رسول الله المدينة، هاجرت إليه أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط، في مدّة الصلح، وكانت أسلمت بمكة، وبايعت رسول الله قبل الهجرة. خرجت من مكة وحدها وصاحبت في الطريق رجلاً من خزاعة حتى قدمت المدينة. وفي الاستيعاب: أنها مشت على قدميها من مكة إلى المدينة، وهي أخت عثمان بن عفان لأمه. ولما قدمت المدينة دخلت على أم سلمة أم المؤمنين، وأعلمتها أنها جاءت مهاجرة. وتخوّفت أن يردّها رسول الله. فهونت عليها. فلما أقبل رسول الله على أم مسلمة، أعلمته بها، فرحب بها. فخرج في إثرها أخوها عمارة والوليد ابني عتبة، يردّانها بالعهد. فقالا: يا محمد! أو ما لنا ما عاهدتنا عليه؟ ولما كلّمها رسول الله في ذلك. قالت له أم كلثوم: يا رسول الله! أنا امرأة وحال النساء إلى الضعف، فتردني إلى

الكفار، يفتنوني عن ديني، ولا صبر لي. فعذرها رسول الله، ولم يفعل، وفي ذلك نزلت الآية[1]:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ مُهَـٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَـٰنِهِنَّ ۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَـٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۖ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۚ وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ ۚ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ وَإِن فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُواْ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُواْ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَـٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَـٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ ۙ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

وذكر السهيلي قال: إن الامتحان هو: أن تستحلف المرأة المهاجرة: أنها ما هاجرت ناشزة، ولا هاجرت إلا لله ولرسوله. فقد كانت المرأة إذا جاءت للنبي، حلّفها عمر بن الخطاب بالله ما خرجت رغبة، بأرض عن أرض. وبالله ما خرجت عن بغض زوج. وبالله ما خرجت لالتماس دنيا ولا لرجل من المسلمين. وبالله ما خرجت إلا حبّاً لله ورسوله. وإذا حلفت لم تردّ، وردّ صداقها إلى بعلها[2].

ولما قدم الوليد وعمارة مكّة، أخبرا قريشاً بهذا التعديل الذي جاء به الإسلام للنصوص التي تضمنتها المعاهدة، فرضوا بذلك وأقروه، وتركوا أم كلثوم في المدينة، حيث لم يكن لها زوج بمكة، فزوجها ﷺ زيد بن حارثة مولاه.

وأقبلت جملة من النساء مهاجرات من مكّة، من جملتهن: سبيعة بنت الحارث، فأقبل زوجها مسافر المخزومي طالباً لها. وأراد مشركو مكة ردّهن، فاستحلف رسول الله سبيعة، فحلفت فأعطى زوجها مسافر ما أنفق

---

(١) سورة (الممتحنة) الآيات: (١٠ ـ ١٢).

(٢) هذه الفقرة وردت في طبعة (غ) في الهامش.

عليها، فتزوجها عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

ولما فتحت مكة، وبطل العهد، فلم تستحلف امرأة، جاءت إلى المدينة، ولا ردّ صداقها إلى بعلها، لأن الأصل براءة الذمّة. وليست عصمة المسلمة، بملك لمشرك. وطلب ردّ المهور للأزواج كان واجباً في مدّة العهد خاصة.

وكان رسول الله، مدّة العهد، يردّ الرجل، ولا يردّ النساء، بعد امتحانهن جرياً على التعديل المتقدّم.

إنكار الصحابة للمعاهدة ورأي الرسول ﷺ فيها

رجع ﷺ ومعه المسلمون إلى المدينة، وفي نفوس أصحابه شيء من عدم الفتح الذي كانوا لا يشكون فيه. وأخذوا يتقولون من هذا الموضوع في الطريق. ولما وصلوا إلى كراع الغميم، نزلت سورة الفتح لتهدئة نفوسهم. وقال ابن إسحاق: بضجنان «وهو جبل على مسافة بريد من مكّة». وقال رسول الله للصحابة: لقد نزلت علي سورة هي أحبّ إلى مما طلعت عليه الشمس. لما تضمنته من البشرى بتحقيق الفتح، ودفع القالة التي لغط بها القائلون ثم قرأ[1]:

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴾ إلى آخر السورة.

وذكر طائفة من الصحابة أن المراد بالفتح: فتح الحديبية، ووقع الصلح. وعليه ابن عبّاس وأنس بن مالك، والبراء بن عازب.

وقال بعض العلماء: إن هذا الفتح، وإن كان في السورة الظاهرة ضيماً للمسلمين، لكنّه كان في الباطن عزّاً لهم للأمن الذي وقع بسببه، فقد اختلط المسلمون والمشركون بعضهم ببعض من غير نكير، وأسمع المسلمون المشركين القرآن، وناظروهم على الإسلام جهرة آمنين، وكانوا قبل ذلك لا يتكلمون عندهم بذلك إلا خفية، فظهر من كان يخفي إسلامه. فذلّ المشركون من

---

(١) سورة (الفتح) الآيات: (١ ـ ٣).

حيث أرادوا العزّة، وقهروا من حيث أرادوا الغلبة، بعد أن كان المنافقون يظنون، أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبداً، وحسبوا أنهم لا يرجعون، بل يقتلون كلهم.

وقال آخرون: المراد بالفتح: فتح مكّة، وقد نزلت السورة عدّة لها، وعبّر فيها بالماضي عن المستقبل لتحقق وقوعه، وفيه من الفخامة والدلالة على شأن المخبر به ما لا يخفى.

والمعنى: قضينا لك قضاء مبيناً على أهل مكة، أن تدخلها أنت وأصحابك قابلاً، والفتح هنا بمعنى الفتاحة، وهي الحكومة[1].

وفي الصحيح عن البراء بن عازب، قال: تعدّون الفتح فتح مكّة، وقد كان فتحاً، ونحن نعدّ الفتح بيعة الرضوان، وذلك لما ترتب على الصلح من الأمن، ورفع حالة الحرب، وتمكن من كان يخشى الدخول في الإسلام، والوصول إلى المدينة. وتتابع الأمر إلى أن كمل الفتح بدخول مكّة، ونزول قريش على حكم الإسلام.

وفي قوله تعالى: «وأثابهم فتحاً قريباً، ومغانم كثيرة تأخذونها» فالمراد به فتح خيبر على الصحيح؛ لأنها هي التي وقعت فيها المغانم الكثيرة.

وقد روى مجمع بن جارية الأنصاري الأوسي، قال: لما انصرفنا من الحديبية، وجدنا رسول الله واقفاً عند كراع الغميم، وقد جمع النّاس وقرأ عليهم: «إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً» فقال رجل يستفهم: أو فتح هو؟ لقد صددنا عن البيت، وصدّ هدينا! فردّ عليه رسول الله: بئس الكلام! بل هو أعظم الفتح، قد رضي المشركون أن يدفعوكم بالراح عن بلادهم، ويسألوكم القضيّة، ويرغبون إليكم في الأمان، ولقد رأوا منكم ما كرهوا، وأظفركم

---

(١) اتفق المفسرون على أن (الفتح) هنا بمعنى (النصر) لا بمعنى الحكومة، كما ذهب الشيخ رحمه الله وإن كانت (الفتاحة) بضمّ الفاء وفتحها، بمعنى الحكم. كما يحمل (الفتح) معنى الحكم في الآية الكريمة: ﴿رَبَّنَا ٱفۡتَحۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ قَوۡمِنَا بِٱلۡحَقِّ﴾ سورة (الأعراف) الآية: (٨٩).

عليهم، وردّكم سالمين مأجورين، فهو أعظم الفتوح.

أنسيتم يوم أحد؟ إذ تصعدون ولا تلوون على أحد، وأنا أدعوكم في أخراكم؟

أنسيتم يوم الأحزاب؟ إذ جاؤوكم من فوقكم ومن أسفل منكم، وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر، وتظنون بالله الظنون؟

فقال عمر: ألم تقل لنا: أنك تدخل مكّة آمنا؟

قال: بلى، أفقلت لكم في عامي هذا؟

قالوا: لا.

قال: فإنكم تأتونه وتطوفون به.

فقال المسلمون: صدق الله ورسوله، هو أعظم الفتوح. والله ما فكرنا فيما فكرت فيه، ولأنت أعلم بالله وبأمرنا.

وروى سعيد بن منصور بإسناد صحيح، عن الشعبي قال: لم يكن في الإسلام فتح قبل الحديبية أعظم منه، إنما كان القتال حيث التقى الناس. فلما كانت الهدنة، ووضعت الحرب أوزارها، وأمن الناس بعضهم بعضاً، والتقوا، وتفاوضوا في الحديث والمنازعة. لم يكلّم أحد ذو عقل في تلك المدّة بالإسلام إلا دخل فيه. ولقد دخل في تينك السنتين مثل من كان دخل في الإسلام قبل ذلك أو أكثر، يدلّ عليه أنه ﷺ خرج إلى الحديبية في ألف وأربعمئة، ثم خرج بعد سنتين إلى فتح مكّة في عشرة آلاف.

ومما ظهر من مصلحة الفتح: أنه كان مقدمة بين يدي الفتح الأعظم الذي دخل الناس عقبه في الإسلام، أفواجاً أفواجاً.

تدبير عمر لحلّ مشكلتي التموين والنقل حلاً مرضياً

يذكر هنا علماء السيرة النبوية: أنه حصلت في جيش الصحابة مجاعة شديدة، أشفقوا منها على أنفسهم، فشكوا ذلك لرسول الله ﷺ فقالوا: أصابنا الجهد «المشقّة من الجوع» وفي الناس ظهر «إبل» فانحر لنا لنأكل من لحمه، ولندهن من شحمه، ولنحتذي من جلوده.

فقال عمر بن الخطاب: لا تفعل يا رسول الله! فإن يكن في الناس بقيّة ظهر أشلّ، كيف بنا إذا لقينا العدوّ غداً جياعاً رجالاً؟

ولكن إن رأيت أن تدعو الناس إلى أن يجمعوا بقايا أزوادهم، ثم تدعو لهم فيها بالبركة، فإن الله سيبلغها بدعوتك.

فأمر رسول الله ﷺ الصحابة ببسط الأنطاع والعبي[1] ففعلوا، ثم أمر بأنه من كان عنده بقية من زاد أو طعام فلينثره، فنثروه، فباركه، ودعا لهم، فكان شيئاً كثيراً. ثم قال: قرّبوا أوعيتكم، فأخذوا ما شاء الله، وملؤوا أوعيتهم، وأكلوا حتى شبعوا، وبقي مثله. وضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه من الفرح والاستبشار.

الأنواء

أصاب المسلمين مطر في الحديبية، لم يبل أسفل نعالهم، فنادى منادي رسول الله: أن صلّوا في رحالكم. وقال ﷺ في صبيحة تلك الليلة لما صلّى بهم: أتدرون ما قال ربكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: قال الله عز وجل: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مطرنا برحمة الله وفضله، فهو مؤمن بالله وكافر بالكواكب، ومن قال: مطرنا بالنجم كذا، أو بنوء كذا، فهو مؤمن بالكواكب كافر بي.

والسبب في هذا القول: أن ابن أبي بن سلول. قال لما نزلت المطر تلك الليلة: هذا نوء الخريف، مطرنا بالشعرى. والنوء: سقوط نجم ينزل في الغرب مع الفجر، وطلوع زعيبة من المشرق، من نجم المنازل. وذلك يحصل في كل ثلاثة عشر يوماً إلا (الجبهة)[2] النجم المعروف فإن لها أربعة عشر يوماً.

والأنواء ثمانية وعشرون نوءاً «نجماً» كان العرب يعتقدون أن منها يحدث

---

(١) (الأنطاع): الجلود. و(العبي) من (العباية): ضرب من الأكسية، واسع فيه خطوط كبار. ولكن الجمع غير صحيح، لأنه يجمع على (أعبية) أو (عباء). المحقق.

(٢) في (اللسان): الجبهة: النجم الذي يقال له جبهة الأسد. وهي أربع أنجم ينزلها القمر. أما (زعيبة) فلم أهتد إليه. وإنما قالت المعاجم: زعيب: اسم. المحقق.

الريح والمطر. يقولون: مطرنا بنوء الجرّة، وهو نجم يقال له (الدبران).

حكم الظهار

اختلف العلماء في وقت تشريعه، فمن قائل بعد الحديبية، قبل واقعة خيبر، وقيل: بعد خيبر. وقد ذهبنا في ترتيب تشريعه على القول الأول.

والسبب في تشريعه: أن أوس بن الصامت الأنصاري، وكان شيخاً كبيراً، قد ساء خلقه. وقال لزوجته خولة بنت ثعلبة بن مالك الخزرجية، وكانت بنت عمه، وقد راجعته في شيء، فغضب وقال لها: أنت علي كظهر أمّي. وكان ذلك، يُعدّ في عرف الجاهلية، طلاقاً، يحرم به عندهم نكاح النساء. ثمّ همّ بها بعد ذلك، فقالت: كلا. لا تصل إلي، وقد قلت ما قلت، فسقط في يده. وقال: ما أراك إلا قد حرمت علي. قالت له: انطلق إلى رسول الله، فاسأله. قال: إني أستحي منه أن أسأله عن هذا قالت: فدعني أنا أسأله. فقال لها: سليه. فجاءت إلى رسول الله، وكان يمشط رأسه، تمشطه له عائشة رضي الله عنها. فقالت. يا نبيّ الله! إن أوس بن الصامت. أبو ولدي. وأحبّ الناس إليّ قال كلمة[1] . . . . . قال: أنت عليّ كظهر أمّي. وكان الظهار أشدّ الطلاق عند العرب، وأحرم الحرم، إذا ظاهر الرجل من امرأته، لم ترجع إليه أبداً. ولما أخبرته ﷺ بذلك. قال لها: ما أمرنا بشيء من أمرك، ما أراك إلا قد حرمت عليه.

فقالت: أشكو إلى الله فاقتي وتركي إلى غير أحد، وقد كبر سنّي، ودق عظمي. ثم قالت: اللهم! إني أشكو إليك شدة وحدتي. وما شقّ عليّ من فراقه، وما نزل بي وبصبيتي! قالت عائشة: فلقد بكيت وبكى من في البيت رحمة لها، ورقة عليها. ولما رأت خولة عطف القوم عليها أخذت تقص على رسول الله قصة علاقتها بزوجها أوس بن الصامت قالت: تزوجني وأنا ذات مال وأهل، فلما أكل مالي، وذهب شبابي، ونفضت بطني، وتفرق أهلي، ظاهر منّي. فأعاد لها رسول الله قوله: ما أراك إلا قد حرمت عليه.

---

(١) غير واضحة في الأصل. والتتمة توضّح المقصود. المحقق.

فبكت، وصاحت، وأعولت، وقالت: أشكو إلى الله فقري ووحدتي. وصبية صغاراً، إن ضمهم إليه ضاعوا، وإن ضممتهم إليّ جاعوا. وصارت ترفع رأسها إلى السماء.

وفيما تفعل ذلك، فرغ رسول الله من مشط شق رأسه، وأخذ في مشط الشق الآخر، إذ نزلت سورة (المجادلة)[1].

﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ۝١ ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ۝٢ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝٣ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

وبعد نزول هذه الآيات سري عن رسول الله ﷺ، فسأل عائشة عن المرأة: أينها؟ قالت: هاهي هذه. قال: دعيها. فدعتها. فقال لها ﷺ: اذهبي فجيىء بزوجك. فذهبت وجاءت به، وأدخلته على رسول الله، فإذا هو فقير الحال، سيىء الخلق. فقال له: أتجد رقبة؟ قال: مالي بهذا من قدرة.

قال: أتستطيع أن تصوم شهرين متتابعين. قال: والذي بعثك بالحق! إني آلم إذا لم آكل في اليوم ثلاث مرّات. قال: أتستطيع أن تطعم ستين مسكيناً. قال: لا، إلا أن تعينني بها فأعانه. أعطاه مكتلاً يأخذ خمسة عشر صاعاً. فقال: أطعمه ستين مسكيناً، وهو أول إطعام وقع في الإسلام. وسياق الآية: إبطال العمل بالظهار، وجعل القول به منكراً وزوراً؛ لأن الزوجة لا تكون أماً بحال حتى تحرم.

لا يصلح لنا في ديننا الغدر

وممّن ردّه من الرجال وهو بالحديبية: أبو بصير، وكان ممّن أوذي

(١) سورة (المجادلة) الآيات: (١ ـ ٤).

وحبس بمكّة وكتب في ردّه: أزهر بن عوف، عم عبد الرحمن بن عوف، والأخنس بن شريق كتاباً، وبعث به رجلاً من بني عامر، يقال له: خنيس، ومعه مولى يهدية الطريق، فقدما على رسول الله بالكتاب، وقد جاء فيه:

قد عرفت ما شارطناك عليه، من ردّ من قدم إليك من أصحابنا، فابعث إلينا بصاحبنا. فقال رسول الله لأبي بصير: يا أبا بصير! إنا قد أعطينا هؤلاء القوم ما علمت، ولا يصلح لنا في ديننا الغدر، وإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين، فرجاً ومخرجاً. فانطلق إلى قومك.

قال: يا رسول الله! أتردني إلى المشركين، يفتنوني عن ديني؟ قال له: انطلق. فانطلق معهما «صار النّاس يغرونه بمن معه، يقولون له: الرجل يكون خيراً من ألف رجل» حتى إذا كانوا بذي الحليفة، جلس أبو بصير إلى جدار، ومعه صاحباه، وكان مع خنيس سيف، فقال: لأضربن بسيفي هذا الأوس والخزرج، فقال له: أصارم سيفك هذا؟ يا أخا بني عامر. قال: نعم. انظر إن شئت، فاستلّه أبو بصير ثم علاه به حتى قتله. فولى المولى الذي كان معه هارباً، حتى أتي رسول الله، وهو جالس في المسجد. فلما رآه وهو مقبل، والحصى يطن تحت قدميه من شدّة عدوه وأبو بصير في إثره، حتى أزعجه. قال ﷺ: إن هذا الرجل قد رأى فزعاً. فلما انتهى إليه قال له: ويحك مالك؟ قال: قتل صاحبكم صاحبي، وأفلت منه، ولم آكد، وإني لمقتول، واستغاث برسول الله، فأمنه، فإذا أبو بصير أناخ بعير العامري بباب المسجد، ودخل متوشحاً السيف، ووثب على رسول الله، فقال: وفت ذمتك، وأدى الله عنك، أسلمتني ليد القوم، وقد امتنعت بديني أن أفتن فيه، أو يفتن بي. فقال له ﷺ: اذهب حيث شئت. فقال أبو بصير: هذا سلب العامريّ الذي قتلته، رحله وسيفه فخمسه. فقال: إذا خمسته رأوني لم أوف لهم بالذي عاهدتهم عليه، لكن شأنك بسلب صاحبك.

كيف كانت عاقبة المعاهدة شؤماً على قريش؟

عند ذلك ذهب أبو بصير إلى محل في طريق الشام، تمرّ به عيرات قريش، واجتمع إليه جمع من المسلمين الذين كانوا احتبسوا بمكة، لما بلغهم خبره،

ولما بلغ خبره رسول الله. قال في حقه: ويل أمه مسعراً، لو كان معه رجال؟!

وانفلت إليه أبو جندل بن سهيل بن عمرو «الذي ردّه رسول الله يوم الحديبية» من مكة في سبعين فارساً من قريش، أسلموا فلحقوا بأبي بصير، وكرهوا أن يقدموا على رسول الله في تلك المدّة، خوف ردّهم. وانضم إليهم ناس من غفار، وأسلم وجهينة، وطوائف أخرى من العرب، ممّن أسلموا حتى بلغوا ثلاثمئة مقاتل، فقطعوا مادة قريش، وحالوا دون تسيير قوافلهم، لا يظفرون بأحد منهم إلا قتلوه، ولا تمرّ منهم عير إلا أخذوها.

إبطال شرط تسليم الرجال من المعاهدة

وحين أعيا أمرهم قريشاً، كتبوا إلى رسول الله يسألونه بالأرحام إلا آواهم، وأرسلوا أبا سفيان في ذلك. قالوا: إنا أسقطنا هذا الشرط من الشروط، من جاء منا إليك فأمسكه في غير حرج، فإن هؤلاء الركب قد فتحوا علينا باباً، لا يصلح إقراره.

تأمين الثوار، وعودتهم إلى ديارهم

كتب رسول الله ﷺ إلى أبي جندل وإلى أبي بصير أن يقدما عليه، ويأمر من معهما من المسلمين، أن يلحقوا ببلادهم وأهليهم، وألا يتعرّضوا لأحد مرّ بهم من قريش ولا بعيرتهم.

فقدم عليهم كتاب رسول الله، وأبو بصير رضي الله عنه يجود بنفسه الأخير في حالة النزع، ففاضت أنفاسه وكتاب الرسول في يده يقرأه، فدفنه أبو جندل مكانه، وجعل عند قبره مسجداً. وقام أبو جندل ومعه ناس من أصحابه إلى رسول الله، ورجع باقيهم إلى أهليهم، وأمنت قريش على عيرهم وتجارتهم.

ظهور الخوارق في سياسة الرسول

عند ذلك علم أصحاب الرسول؛ الذين كرهوا المعاهدة، وعسر عليهم

تسليم أبي جندل إلى قريش، ورده إلى أبيه سهيل، وأن طاعته خير مما أحبوه، وأن رأيه أحكم وأشد من رأيهم، وأن مصالحته على تلك الشروط، كانت أبعد نظراً، وأجدى، فقد كثر بسببها المسلمون، فإن المشركين لما أبوا القتال، اختلطوا بالمسلمين. فأثر فيهم الإسلام تأثيراً عظيماً، فأسلم كثير منهم.

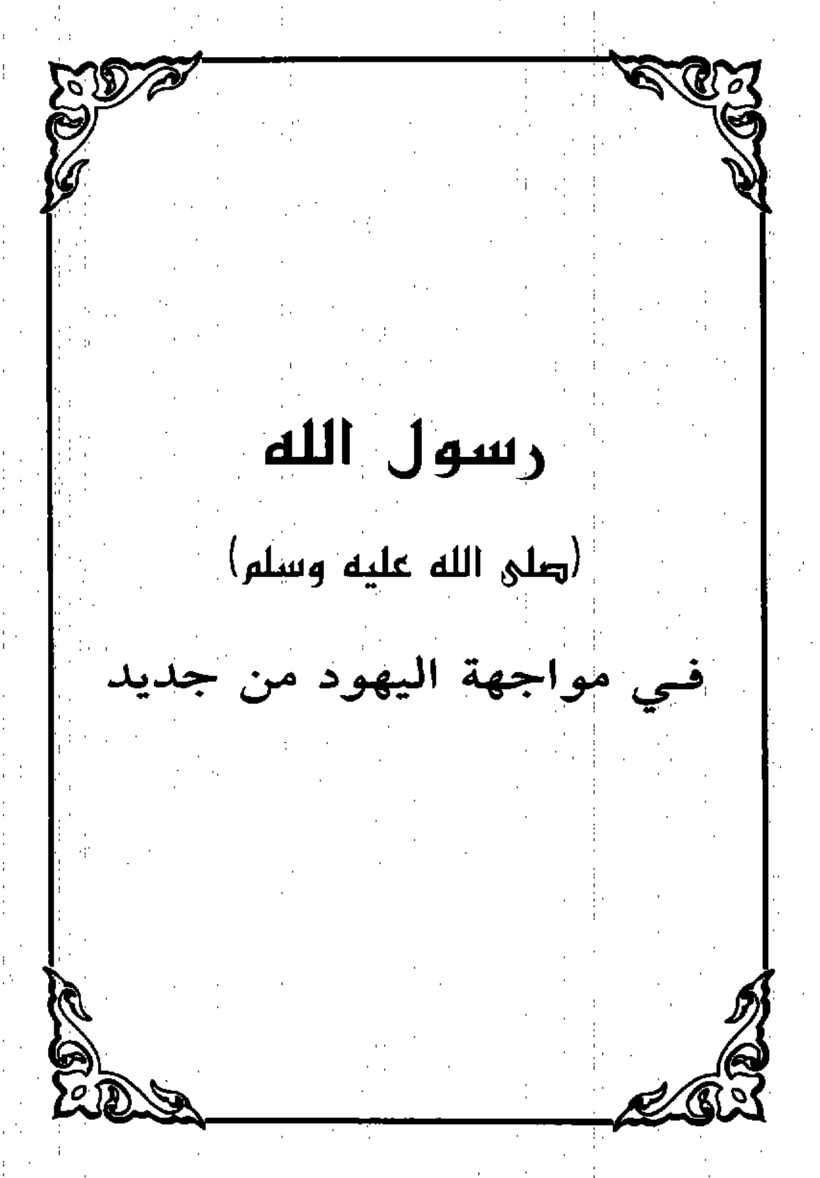
فقد ذكر المؤرخون أن الذين أسلموا في سنتي الصلح، يعدلون الذين أسلموا قبلها في ست عشرة سنة. وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وهو أحكم رجل بعد رسول الله، يقرظ أعمال الرسول وحسن سياسته:

«ما كان فتح في الإسلام، أعظم من فتح الحديبية»

ثم أردف هذه الكلمة الباهرة، بكلمة أخرى انتقد بها آراء المعارضين، قال: «ولكن الناس قصر رأيهم، عما كان بين محمد وربه، والعباد يعجلون، والله لا يعجل لعجلة عباده حتى تبلغ الأمور ما أراد»:

لقد رأيت سهيل بن عمرو بعد إسلامه في حجة الوداع، قائماً عند المنحر، يقرب لرسول الله بدنه، ورسول الله ينحرها بيده. ودعا الحلاق فحلق رأسه، فأنظر إلى سهيل، كلما يلفظ من شعره ﷺ يضعه على عينيه، وأذكر امتناعه أن يقر يوم الحديبية، بأن يكتب بسم الله الرحمن الرحيم، وأن محمداً رسول الله. فحمدت الله وشكرته.

* * *



رسول الله

(صلى الله عليه وسلم)

في مواجهة اليهود من جديد

استنجاد يهود خيبر بغطفان لحرب رسول الله ﷺ

قدمنا أن اليهود كانوا يعملون سراً لتأليب العرب على النبي ﷺ، ولكن كانت تدابير رسول الله وحملاته العسكرية أنفذ وأحكم من كل ما يبيتون ويبرمون، فقد تحالفوا مع غطفان على حرب رسول الله ﷺ، فبدأ بهم قبل أن يعاجلوه.

ولقد أرسلوا في هذا الوجه كنانة بن أبي الحقيق، وهوذة بن قيس، في أربعة عشر رجلاً إلى غطفان، ليستمدوا بهم، وشرطوا لهم نصف ثمار خيبر إن غلبوا على المسلمين، فجمعوا أربعة آلاف، ثم خرجوا ليظاهروا اليهود.

تدبير رسول الله
لصرف غطفان عن إنجاد اليهود

ويقال: إن رسول الله أرسل من قبله إلى غطفان، ألا يعينوا اليهود على أن يعطيهم من خيبر شيئاً سماه لهم، وهو نصف ثمارها، فأبوا عليه ذلك، وقالوا: هؤلاء جيراننا، ولنا معهم حلف. فتدارك رسول الله الأمر، واتجه بجيوشه إلى خيبر، قبل أن يفاجئوه. ولما بلغ غطفان قدوم المسلمين إلى خيبر، أسرعوا إلى إنجادهم على الصعب والذّلول. ولما وصلوا وجدوا المسلمين سبقوهم إلى المواقع الحصينة المشرفة على خيبر، التي تحول دون إنجاد اليهود. وبينما كانوا يهمون بالتقدم، إذ سمعوا أصواتاً تنادي: يا آل غطفان! أهليكم خولفتم إليهم. فظنوا أن المسلمين أغاروا عليهم في مواطنهم، فألقي الرعب في قلوبهم، فولوا مدبرين، وخلوا بين رسول الله وبين أهل خيبر. فكانت فرصة لمناجزة خيبر.

ولما اطمأن الغطفانيون على أنفسهم، رجعوا إلى خيبر، فوجدوا رسول الله قد فتح حصونها. وجيوشه مستولية عليها. عند ذلك قال عيينة بن حصن، سيد غطفان لرسول الله: أعطنا الذي وعدتنا من غنائم حلفائنا، فقد امتنعنا عن قتالك، فقال: ولكن الصياح الذي سمعت، أنفذك إلى أهلك، ولكن

لك ذو الرقيبة. قال: وما ذو الرقيبة[1]؟ قال: الجبل الذي رأيت في منامك. فعاد ميؤوساً، وقد خسر الصفقتين.

حرب رسول الله لخيبر[2]

قفل رسول الله راجعاً من الحديبية إلى المدينة في ذي الحجة، سنة ست. وأقام بقية الشهر، وأياماً من المحرم. قيل: عشرين منه، سنة سبع. فبلغه في أثنائها: أن غطفان تعاقدت مع يهود خيبر على مناجزته، وأنهم يعدون لذلك عدتهم. وكان جند خيبر وحدهم، عشرة آلاف مقاتل، لهم سلاح وعدة، فأحب أن يعاجلهم في ديارهم، قبل أن يباغتوه. فاستنفر المسلمين لقتالهم؛ الذين شهدوا معه الحديبية. وحين سمعوا بذلك، الذين تخلفوا عنها أحبوا الخروج معه إلى خيبر، طمعاً في الغنيمة، فقال لهم: لا تخرجوا معي إلا راغبين في الجهاد، فأما الغنيمة فلا تعطوا منها شيئاً. وأمر مناديه أن ينادي بذلك في الناس، فاجتمع إليه ﷺ من المقاتلين، الذي صدقوا الله. ألف وأربعمئة راجل، ومئتا فارس. فخرج بهم، ومعه من نسائه أم سلمة رضي الله عنها. واستعمل على المدينة نميلة بن عبد الله الليثي، وقيل: سباع بن عرفطة. ثم سار بالجيش يريد خيبر.

وكان من عادته ﷺ إذا أتى قوماً بليل؛ لم يسرع بالهجوم عليهم، وإنما يبيتهم حتى يصبح، فإن سمع أذاناً كف عنهم، وإلا أغار عليهم.

إنذار يهود خيبر بقدوم جيش المسلمين

لما علم عبد الله بن أبي بن سلول، عزم رسول الله على منازلة خيبر، كتب

---

(١) لما كان عيينة آتياً إلى خيبر في جوعه، عرسوا بالليل، ولما انتبه غدوة، قال لقومه: أبشروا، فإني رأيت الليلة في النوم أني أعطيت في الليل ذا الرقيبة، وهو جبل بخيبر. وتأويل ذلك: أني أخذت برقبة محمد. وقد بلغ ذلك رسول الله فأورده مورد التهكم. المؤلف.

(٢) (خيبر) مدينة كبيرة، تبعد عن المدينة بثمانية برد. والبريد أربعة فراسخ، والفرسخ ثلاث أميال، وهي ذات حصون ومناعة. المؤلف.

إليهم: إن محمداً سائر إليكم، فخذوا حذركم، وأدخلوا أموالكم إلى حصونكم، واخرجوا إلى قتاله، ولا تخافوا منه. إن عددكم كثير، وقوم محمد شرذمة قليلون، عزل، لا سلاح معهم.

وحكى الواقدي قال: إن أهل خيبر سمعوا بقصده ﷺ، فكانوا يخرجون في كل يوم عشرة آلاف مقاتل، مسلحين مستعدين صفوفاً. ثم يقولون: محمد يغزونا؟ هيهات هيهات! حتى كانت الليلة التي قدم فيها المسلمون ناموا، ولم تتحرك لهم دابة، ولم يصح لهم ديك حتى طلعت الشمس، فخرجوا بالمساحي، طالبين مزارعهم، فوجدوا المسلمين، فلما رأوهم قالوا: محمد والله! والخميس!

فلما أتى خيبر، أقام بعيداً عنها بواد يقال له: الرجيع، بينهم وبين غطفان. ونام وأصبح ولم يسمع أذاناً، فصلى بغلس[١] ثم دفع رايته (العقاب) إلى الحباب بن المنذر، ودفع راية أخرى لسعد بن عبادة. وأذن للجيش بالتقدم، فكانوا يشاهدون اليهود يخرجون إلى مزارعهم، يحملون في أيديهم المساحي، والمكاتل (القفف).

فلما رأى رسول الله ذلك منهم قال: الله أكبر! خربت خيبر. إنا إذا نزلنا بساحة قوم، فساء صباح المنذرين. قالها ثلاثاً. ثم أمر بالنزول قريباً من حصن (النطاة) فجاءه الحباب بن المنذر، فقال: يا رسول الله! إنك نزلت منزلك هذا، فإن كان عن أمر أمرت به؟ فلا نتكلم، وإن كان هو الرأي؟ تكلمنا. فقال ﷺ: هو الرأي.

فقال: إن النطاة لي بهم معرفة، ليس قوم أبعد مدى، ولا أعدل رمية منهم، وهم مرتفعون علينا، وهو أسرع لانحطاط نبلهم، ولا نأمن من بياتهم[٢] يدخلون في حمرة النخل «النخل المجتمع بعضه على بعض» تحول

---

(١) (الغلس): ظلمة آخر الليل.

(٢) (بياتهم): غدرهم ليلاً، أو الهجوم ليلاً. ومنه قوله تعالى: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ سورة (الأعراف) الآية (٤).

يا رسول الله! فقال له: أشرت بالرأي. إذا أمسينا إن شاء الله، تحولنا. ودعا رسول الله محمد بن مسلمة، فقال: انظر لنا منزلاً بعيداً. فطاف محمد، ثم عاد، وقال: وجدت لك منزلاً. فقال ﷺ: على بركة الله. وتحول لما أمسى، وأمر الناس بالتحول، واتخذوا ذلك المكان معسكراً لهم، وكان حائلاً بين أهل خيبر وغطفان، وابتنوا هناك مسجداً، كانوا يصلون فيه مع رسول الله، طوال أيام إقامتهم هناك.

انتشاب القتال

وبعد القرار أمر رسول الله بقطع نخيل أهل حصن النطاة، لئلا تكون حاجزاً يحول دون قتالهم، فوقع المسلمون في قطعها، حتى قطعوا أربعمئة نخلة، وانكشف الحصن. ثم نهاهم ﷺ عن القطع، فلم يقطعوا من نخيل خيبر غيرها. وشب القتال في ذلك اليوم بين الفريقين، وخرج ﷺ مع المقاتلين، وعليه درعان وبيضة ومغفر، وهو على فرس، يقال له (الضرب) وفي يده قناة وترس.

وقد بدأ القتال على حصن ناعم، من حصون النطاة بالرمي، وقد دفع ﷺ لواءه لرجل من المهاجرين، فرجع ولم يصنع شيئاً. فدفعه إلى آخر، فعاد كذلك. وخرجت كتائب اليهود، يقدمهم ياسر، فكشف الأنصار حتى انتهوا إلى رسول الله في موقفه، فاشتد ذلك على رسول الله. وقتل محمود بن مسلمة، أخو محمد بن مسلمة، برحى ألقيت علي رأسه، فهشمته، من ذلك الحصن، ألقاها عليه مرحب وكنانة بن الربيع، فإنه قاتل حتى أعياه القتال، وكان الحر شديداً. فانحاز إلى ظل ذلك الحصن، فهشمت الرحى البيضة، ونزلت فلذة جبينه على وجهه، وندرت عينه[1] . فأدركه المسلمون وبه رمق، فأتوا به إلى رسول الله، فسوى الجلدة إلى مكانها وعصبه بخرقة فمات من شدّة الجراحة، فجاء إليه محمد بن مسلمة، فقال: إن اليهود قتلوا أخي محمود بن مسلمة، وأريد الهجوم عليهم. فقال ﷺ: لا تتمنوا لقاء العدو،

---

(١) (ندر) الشيء (ندورا): خرج من جوف شيء، أي: سقطت عينه.

فإنكم لا تدرون ما تبتلون به منهم، الزموا الأرض جلوساً، فإذا غشوكم فانهضوا، وكبروا.

ومكث ﷺ سبعة أيام يقاتل عساكر حصون النطاة، يذهب كل يوم محمد بن مسلمة للقتال، ويخلف على المعسكر العام عثمان بن عفان، فإذا أمسى رجع إليه بمن جرح من المسلمين، يداوي جروحهم. وكان يعطي الراية كل يوم واحداً من الصحابة، ويبعثه. فبعث أبا بكر، فقاتل، ولم يكن فتح. ثم بعث عمر، فقاتل ولم يكن فتح. ثم بعث رجلاً من الأنصار. وكان يناوب بين أصحابه في حراسة الليل. فلما كانت الليلة السادسة من السبع، استعمل عمر رضي الله عنه على الحراسة، فطاف بمن كان معه من العسس، حول المعسكر، وفرقهم في المواقف. فأُتي إليه برجل من يهود خيبر، عثروا عليه في جوف الليل. فأمر عمر بضرب عنقه. فقال: اذهب بي إلى نبيكم، حتى أكلمه. فأمسك عنه. وحمله إلى رسول الله، فوجده يصلي، فسمع كلام عمر، فسلم، وأمر بإدخاله، فدخل عليه باليهودي، فقال لليهودي: ما وراءك؟ فقال: أو تؤمنني يا أبا القاسم؟ قال: نعم. قال: خرجت من حصن النطاة، من عند قوم يتسللون من الحصن، في هذه الليلة. قال: أين يذهبون؟ قال: إلى الشق، وقد جعلوا فيه ما بقي من ذراريهم، وهم يتهيؤون للقتال. وفي هذا الحصن وهو أصعب حصون النطاة: منجنيق، ودبابات، ودروع، وسيوف، في بيت تحت الأرض. فإذا دخلت الحصن غداً، وأنت داخله إن شاء الله، أوقفتك عليه، فإنه لا يعرفه غيري. وأخرى؟ قال: ما هي؟ قال: يستخرج المنجنيق، وينصب على الشق، ويدخل الرجال تحت الدبابات، فيحفروا الحصن، فتفتحه من يومك، وكذلك تفعل بحصون الكتيبة.

ثم قال: احقن دمي يا أبا القاسم! قال: أنت آمن. قال: ولي زوجة، فهبها لي. قال: هي لك. ثم دعاه إلى الإسلام. فقال: انظرني أياماً، فأنظره.

وقال ﷺ لمحمد بن مسلمة: لأعطين الراية إلى رجل يحب الله ورسوله، ويحبانه، ولا يولي الدبر، يفتح الله عز وجل على يده. يمكنه الله من قاتل

أخيك. فبعث إلى علي، وكان تخلف في المدينة لرمد أصابه، ثم لحق بالقوم، فقيل له: إنه يشتكي عينيه. ولما أقبل عليه أخذ بيده، وقال لمحمد بن مسلمة: هذا هو، هذا هو. فقدّم له اللواء الأبيض.

فقال علي: يا رسول الله! إني أرمد كما ترى، لا أبصر موضع قدمي. فرقاه، وفتح له عينيه، فدلكهما بكفه، حتى كأن لم يكن بهما وجع. قال علي: فما رمدت بعد يومئذ. وقال له: خذ هذه الراية، فأخذها. وألبسه درعه الحديد، وشدّ عليه سيفه ذا الفقار فقال:

أقاتلهم يا رسول الله؟ قال: أن يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله. فإذا فعلوا ذلك، فقد حقنوا دماهم وأموالهم، إلا بحقّها، وحسابهم على الله، وأخبرهم بما يجب عليهم. ثم قال له: فامش، ولا تلتفت حتى يفتح الله عليك.

فخرج رضي الله عنه يهرول، حتى ركز الراية تحت الحصن، فاطلع عليه يهودي من رأس الحصن، فقال: من أنت؟ قال: عليّ بن أبي طالب، فخرج إليه أهل الحصن، وكان أول من خرج الحارث أخو مرحب، وكان معروفاً بالشجاعة، فانكشف المسلمون، وثبت علي فتضاربا فقتله، وانهزم بمقتله اليهود إلى الحصن. ثم خرج مرحب، وطلب المبارزة. قال محمد بن مسلمة: أنا له يا رسول الله! أنا الموتور الذي قتل له قتيل، فلم يأخذ بثأره الثائر، قتل أخي بالأمس. قال: فقم إليه، اللهم أعنه. فحمل مرحب أولاً على محمد بن مسلمة، فاتقاه بدرقته، فوقع سيف مرحب فيها، فعضت به وأمسكت، فضربه محمد على ساقه، فنفله رسول الله سلب مرحب: سيفه ورمحه، ومغفره، وبيضته. وروى مسلم: أن علياً هو الذي قتله. وعليه أكثر أهل الحديث، ورواة السيرة. والتحقيق: أنّ محمداً أصابه، وعليّ أجهز عليه؛ ولهذا أنفله ﷺ سلبه. ثم خرج من بعد مرحب أخوه ياسر، وهو من مشهوري فرسان اليهود وشجعانهم، فخرج له الزبير فقتله.

ردّ الأمانة

بينما كانت الحرب قائمة بواسطة المبارزة، قدم على رسول الله عبد أسود، يقال له: يسار. وكان يعرف بالأسود الراعي، فحيا. فقال: يا رسول الله! أعرض عليّ الإسلام، فعرضه عليه. فقال: ما كان لي إن أسلمت؟ قال: الجنة. فأسلم، فلما أسلم قال: يا رسول الله! إني كنت أجيراً، لصاحب هذا الغنم، فكيف أصنع بها وهي أمانة للناس؟ الشاة والشاتان وأكثر من ذلك. قال: اضرب في وجهها، فإنها سترجع إلى ربها.

فقام الأسود من ساعته، وأخذ حفنة من حصى، فرمى به وجهها، فقال: ارجعي إلى صاحبك، فوالله ما أصحبك، فخرجت مجتمعة، كأن سائقاً يسوقها حتى دخلت الحصن. ثم تقدّم الأسود، فقاتل مع المسلمين، فأصابه غرب[1] منهم في رأسه، فقتله. فقال في حقه ﷺ: لقد أكرم الله هذا العبد، وساقه إلى خير، قد كان الإسلام من نفسه حقاً.

فتح حصون النطاة الثلاثة: ناعم والصعب وفلة

وقاتل علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، حتى تقحم باب حصن ناعم، والمسلمون من خلفه، إلى أن فتحوه. وكان يهود حصن ناعم، فروا بما لديهم إلى حصن الصعب، واعتصموا به، فلم يجدوا به شيئاً. وكانت (أسلم)[2] من جند رسول الله أصابها جهد، وليس لديها مؤونة، فانتدبت أسماء[3] ابن حارثة وقالت: اذهب إلى رسول الله. وقل له: إن أسلم يقرؤونك السلام. ويقولون: أجهدنا الجوع. فلامهم رجل منهم، وقال: إنكم من بين العرب تصنعون هذا؟ فقال زيد بن حارثة «أخو أسماء»: والله

---

(١) (الغرب): حدّ السيف. أو الرمية بسهم لا يعرف مأتاه. وهو المقصود. المحقق.

(٢) في سيرة (ابن هشام): أن بني سهم من أسلم، أتوا رسول الله ﷺ.

(٣) لم أجد أحداً بهذا الاسم المؤنث (أسماء) منسوباً إلى (ابن حارثة) ولم يرد عند (ابن هشام).

إني لأرجو أن يكون البعث إلى رسول الله مفتاح الخير. فجاء أسماء إلى رسول الله، وبلغه ما قالت (أسلم). فدعا لهم. ودفع اللواء للحباب بن المنذر، وندب معه الناس إلى حصن الصعب، فأقاموا على محاصرته يومين. وكان به خمسمئة مقاتل من اليهود. وقبل فتحه، خرج منه رجل يقال له يوشع مبارزا، فخرج له الحباب بن المنذر فقتله. وتلاه آخر يقال له: الديال، فبرز، له عمارة بن عقبة الغفاري، فضربه على هامته. وقال: خذها وأنا الغلام الغفاري فقتله. ولما شاهد اليهود، ما نزل بمن برز منهم، حملوا كلهم حملة واحدة، فخرقوا صفوف المسلمين، حتى انتهوا آلى رسول الله، وهو واقف في وسط الجيش، قد نزل على فرسه. فثبت لهم الحباب بن المنذر، إلى أن هزمهم. فدخلوا الحصن. ولما أرادوا غلق الباب، تقحمه المسلمون عليهم، وما زالوا يقاتلونهم، حتى فتحوه. فوجدوا به من الميرة والذخيرة شيئاً كثيراً. وكانت فيه خزائن من الشعير، والتمر، والسمن، والعسل، والسكر، والزيت، والودك، والماء. فغنم ذلك المسلمون. ونادى رسول الله: كلوا، واعلفوا، ولا تحملوا شيئاً إلى بلادكم.

ونقل في السيرة الشامية عن عبد الله بن مغفل، قال: أصبت من فيء خيبر جراب شحم، فاحتملته على عنقي، أريد رحلي. فلقبني صاحب المغانم، وهو أبو اليسر، كعب بن عمرو بن زيد الأنصاري. فأخذ بناحيتي وقال: هلم بهذا حتى نقسمه بين المسلمين، فقلت: والله لا أعطيك. فجعل يجاذبني الجراب، فرآنا رسول الله ونحن نصنع ذلك، فتبسم ضاحكاً. فقال لصاحب المغانم: لا أبالك. خل بينه وبينه فأرسله. فانطلقت به إلى رحلي، فأكلته أنا وأصحابي.

وفي كتاب (الإمتاع): أنهم وجدوا في حصن الصعب، آلة حرب، ودبابات، ومنجنيقاً، ودروعاً، وسيوفاً... وما إلى ذلك. فكانت الغنائم فيه عظيمة.

ثم تحوّل الصحابة من الصعب إلى حصن الفلة، فأقاموا على حصاره ثلاثة أيام، فجاء رجل من اليهود، وقال لرسول الله: تؤمنني على أن أدلك على ما تستريح به، فإنك لو مكثت شهراً، لا تقدر على فتح هذا الحصن، فإن به

دبولاً «مجاري للمياه تحت الأرض» يخرجون ليلاً، فيشربون منها، فإن قطعت عنهم شربهم أهلكتهم. فأمنه ﷺ فأرشده إليها، فأمر بها فقطعت. ولما رأى اليهود ذلك، أشفقوا على أنفسهم من العطش، فخرجوا وقاتلوا أشد القتال، وفتح ذلك الحصن، وبذلك وقعت حصون النطاة كلها بأيدي المسلمين.

فتح حصون الشق وهي أبي والبري

ثم سار المسلمون إلى حصون الشق، فبدؤوا بحصن (أبي)، فقاتل أهله قتالاً شديداً، وخرج بطل منهم اسمه غزوال يدعو إلى البراز، فبرز له الحباب، فضربه بالسيف فقطع يده اليمنى، ونصف الذراع، فارتد راجعاً إلى الحصن، فتبعه الحباب فقطع عرقوبه، فوقع على الأرض، فوقف عليه. فخرج آخر مبارز، فخرج إليه رجل من المسلمين فقتله. وبقي اليهودي مكانه، فخرج إليه أبو دجانة فضربه على رجله فقطعها، ثم وقف عليه. فأحجمت اليهود عن البراز، فكبر المسلمون، وتحاملوا على الحصن فدخلوه، وأبو دجانة في مقدمتهم، فوجدوا فيه أثاثاً ومتاعاً وغنماً وطعاماً.

وهرب من كان فيه من اليهود إلى الحصن الثاني من حصون الشق، وهو حصن (البري) فتمنعوا به أشد التمنع. كان أهله أشد رمياً بالنبل والحجارة، وقد أصابوا ثياب رسول الله، وعلقت به. وما زال المسلمون يعالجونه حتى فتحوه، ووجدوا به آنية من نحاس، وفخار، فأمر رسول الله ﷺ بتطهيرها بالماء الساخن، ثم أجاز لهم استعمالها للطبخ والأكل بها.

فتح حصون الكتيبة وهي ثلاثة القموص والوطيح وسلالم

ولما فتح المسلمون حصني الشق، تقدموا إلى حصون الكتيبة، وهي أصعب من كل الحصون التي تقدّمتها خصوصاً (القموص) وهو أمنع حصون خيبر، مكث المسلمون على حصاره عشرين ليلة، وفتح على يد علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وكان فيه جل رؤساء اليهود وأشرافهم.

ثمّ انتقل الصحابة إلى الوطيح، «وهو في الأصل ما تعلق بمخالب الطير

من الطين» وسلالم ومكثوا على حصارهما أربعة عشر يوماً، فلم يخرج منهما أحد، وهمّ ﷺ أن ينصب عليها المنجنيق، حتى إذا أيقنوا بالهلكة، ورأوا أن حصونهم غير مانعتهم من سيوف المسلمين، جنحوا إلى الصلح، حقناً لدمائهم. فسألوا رسول الله: أن يترك لهم الذرية، ويخرجون من خيبر وأرضها.

وقال المؤرخون: وتركوا لقاء ذلك كل شيء، من الصفراء، والبيضاء، والكراع، والحلقة، والبر، إلا ثوباً لكل واحد يحمله على ظهره، وعلى أن لا يكتموه شيئاً يسألهم عنه، وإن كتموه فذمة الله بريئة منهم.

ومما تقدّم يعلم أن حصون خيبر الستة الأولى، فتحت عنوة، والحصنان الأخيران فتحاً صلحاً، فكانا فيئاً لرسول الله ﷺ.

وقد وجدوا بالحصنين الأخيرين مئة درع، وأربعمئة سيف، وألف رمح، وخمسمئة قوس عربية بجعابها. ووجدوا صحائف عديدة من التوراة. ولما سألتها اليهود أمر ﷺ بردها إليهم، ولم يغيبوا شيئاً، غير حلي بني النضير، وهو كما تقدم حمل جلد بعير.

وفي (الإمتاع): أن رسول الله ﷺ سأل عنه كنانة بن أبي الحقيق؟ فقال: أذهبته الحروب والنفقات، فدفعه، وقيل: دفع سعيد بن عمر بن أبي الحقيق للزبير بن العوام يستجويه عنه، فقال كان عند حيي بن أخطب، وقد رأيته يطوف في خربة هاهنا.

فذهبوا إلى الخربة، ففتشوها، فوجدوا بها ذلك الجلد، وقد ضاع منه شيء كثير، فكان فيه أساور ودمالج وخلاخل وأقرطة وخواتيم الذهب وعقود الجوهر والزمرد وظفار مجزع بالذهب. «قومت كلها بعشرة آلاف دينار» وقد تم فتح حصون خيبر، بعد أن قتل من اليهود ثلاثة وتسعون رجلاً، واستشهد من المسلمين نحو أربعة وثلاثين رجلاً. وفي رواية ثانية: أربعة عشر فقط.

وأمر رسول الله بالغنائم، فقسمت، وكان من جملتها السبايا. فجاء دحية ابن خليفة الكلبي وقال: يا رسول الله! أعطني جارية. فقال: اذهب وخذ

لك واحدة منهن، وأخذ صفية بنت حيي بن أخطب. وكانت حسناء. فتنافس الناس فيها. فجاء رجل إلى النبي وقال: أعطيت دحية صفية، سيدة قريظة والنضير، وهي لا تصلح إلا لك. فقال: دعوه وليأت بها. فجاء بها، فقال: خذ جارية غيرها، فأخذ أخت كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق، زوج صفية.

رعايـة رسول الله لعواطف النسـاء

روي أنه لما سبيت صفية، وابنة عم لها، مر بهما بلال بين قتلى اليهود، فلما رأتهم بنت عم صفية، صاحت وصكت وجهها، وحثت التراب على رأسها. فلما رآها رسول الله على تلك الحالة، أشفق عليها، وقال: اعزبوا هذه الشيطانة عني. وقال لبلال: أنزعت منك الرحمة، حتى تمر بامرأتين على قتلى قومهما؟

وعن صفية، قالت: انتهيت إلى رسول الله، وما من الناس أحد أكره إليّ منه، قتل أبي، وزوجي، وقومي. وما زال رسول الله يلاينها حتى صفت بعد كدرها. ومما قال لها: إني أعتذر إليك مما صنعت بقومك. إنهم قالوا لي كذا وكذا، وصنعوا بي كذا وكذا. وأخذ يعدد لها مساوئهم التي تقدم ذكرها.

قالت صفية: وما زال رسول الله يعتذر إلي، حتى ذهب ذلك من نفسي. فما قمت من مقعدي وفي الناس أحد أحب إلي منه. وبعد أن اصطفاها لنفسه، جعلها عند أم سليم، وهي أم أنس بن مالك، خادمة. وما زالت بها، تهذبها وتعلمها، حتى لان قلبها للإسلام. ثم أعتقهاﷺ، وخيرها بعد العتق، بين أن ترجع إلى من نفي من أهلها؟ أو تسلم فيتخذها خليلة له؟ فقالت: أختار الله ورسوله. ثم أسلمت. وجعل عتقها مهراً لها لتزوجها به. وقد قال ﷺ: عتق الأمة صداقها.

قسمـة غنـائم خيبر

قسم ﷺ غنائم خيبر قبل ارتحاله، أخرج من الغنائم خمسه، وقسم الأربعة أخماس على المقاتلين، فأعطى الراجل سهماً، والفارس ثلاثة أسهم. ومن جملة من أسهم له سبيعة بن عبد المطلب بن عبد مناف، واسمه علقمة.

ولم يعط أحداً غاب من أهل الحديبية، إلا لجابر بن عبد الله، ورضخ النساء اللائي سافرن معه، وكن عشرين امرأة فيهم صفية عمته ﷺ، وأم سليم، وأم عطية الأنصارية[1]. قالت: أتيت رسول الله قبل خروجه إلى خيبر في نسوة، قلت: يا رسول الله! نريد الخروج معك نعين المسلمين ما استطعنا. فقال: على بركة الله. فلما افتتح خيبر، رضخ لنا، وأخذ هذه القلادة، ووضعها في عنقي، فوالله لا تفارقني أبداً. وأوصت أن تدفن معها.

الصلح مع يهود خيبر

وبعد أن تمّ فتح الحصون، ونزل اليهود على حكمه ﷺ، سألوه أن يدفع لهم الأرض وقالوا: نحن أدرى بزراعتها منكم، فدفعها إليهم، واتفق معهم على إعمارها بشرط ما يخرج منها من تمر وزرع، وأبقى لنفسه الحق في إخراجهم منها متى شاء. أي: متى أحدثوا ما يخل بأمن المسلمين. واستمروا يعملون فيها إلى خلافة عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، فأجلاهم عنها، كما سنبيّنه.

وكان ﷺ يرسل إلى خيبر في كل سنة: عبد الله بن رواحة خارصاً[2]، فشكوا سنة إلى رسول الله خراصته، وأرادوا أن يرشوه. فقال: تطعموني السحت؟! والله لقد جئتكم من عند أحب الناس إلي، ولا يحملني بغضي

---

(١) كانت أم عطية لما خرجت إلى خيبر جارية حديثة السن، أردفها رسول الله على راحلته خلفه. قالت: فلما كان الصبح أناخ راحلته، فنزلت عن حقيبة رحله وإذا بها دم. وكانت أول حيضة حاضتها فتقبضت إلى الناقة واستحيت أن يرى أحد ذلك. فلما رآها رسول الله وهي على تلك الحالة. قال: ما بك لعلك تعبت؟ قالت نعم. قال: انزلي وأصلحي من نفسك. ثم خذي إناء من ماء، واطرحي فيه ملحاً، ثم اغسلي ما أصاب الحقيبة من الدم. ثم عودي إلى مرتحلك فقالت: فكنت لا أطهر من حيضة إلا جعلت في طهره ملحاً. (المؤلف).

(٢) (الخرص) لغة: الحزر والتقييم و(الخارص) الذي يتولّى جرد الإنتاج سنوياً. وفي (اللسان): «وكان النبي ﷺ يبعث الخراص على نخيل خيبر، عند إدراك ثمرها يحزرونه». (المحقق).

إياكم، وحبّي إيّاه، على ألا أعدل. فقالوا: بهذا قامت السموات والأرض.
فخرج بعده جبار بن حجر، وكان خارصاً للمدينة.

زواج رسول الله بأم المؤمنين صفيـة

لما زايل رسول الله خيبر، وكان منها على ستة أميال، نزل المنزل الأول، وأحب أن يدخل بصفية، فأبت، وأصرت على ذلك. فلما كان بالصهباء[1]، مال إلى دوحة هناك، فنزلها. فراودها على الزواج فطاوعته. فقال: ما حملك على الإباء بالمنزل الأول؟ قالت: كنا قرب اليهود، وقد خشيت عليك منهم. وأقام هناك ثلاثة أيام، فأعرس بها، بعد أن أسلمت، وطهرت من الحيض. وأصلحت أم سليم من شأنها، وبنى بها في قبة نصبها لها هناك وجعل لها وليمة حيساً في نطع صغير «الحيس: تمر وأقط وسمن» وقال لأنس: آذن من حولك ليأكلوا من ذلك الحساء. وتولى أبو أيوب الأنصاري حراسته ليلة عرسه، تقلد سيفه، وجعل يطوف بتلك القبة. حتى أصبح ورسول الله لا يعلم به. ولما أصبح رأى مكان أبي أيوب، فقال: مالك يا أبا أيوب؟ قال: يا رسول الله! خفت عليك من هذه المرأة. قتلت أباها، وزوجها، وقومها، وهي حديثة عهد بالإسلام، فبت أحفظك. فدعا له. وقال: اللهم احفظ أبا أيوب، كما بات يحفظني[2].

وكان ﷺ يكرم صفية، ويحسن معاملتها. حتّى إنه ليضع لها ركبته، لتركب عليها، وقد أبت أول مرة أن تضع قدمها على ركبته الشريفة، تأدباً معه. ﷺ. وقالت عنه: ما رأيت أحداً قط، أحسن خلقاً من رسول الله ﷺ.

---

(١) (الصهباء) موضع بينه وبين خيبر روحة.

(٢) غزا مع يزيد بن معاوية سنة خمسين بعد الهجرة القسطنطينية. ولما مات هناك، أوصى يزيد أن يدفنه أين مات. فركب المسلمون ومشوا به إلى المكان الذي اختاروه لمواراته. ولما علمت الروم بمكانته من المسلمين، قالوا ليزيد: كيف أمنت ألا ننبشه بعدك؟ فنحرق عظامه. فحلف يزيد: لئن فعلوا ذلك بصاحب رسول الله ليهدمن كل كنيسة بأرض العرب، وينبش قبورهم. فأقسموا له ليكرمون قبره، وليحرسونه ما استطاعوا. المؤلف.

لقد رأيته ركب بي في خيبر، وأنا على عجز ناقته ليلاً، فجعلت أنعس، فتضرب رأسي مؤخرة الرحل، فيمسني بيده، ويقول: يا هذه! مهلاً.

النهي عن إتيان الحبالى والسبايا إلا بعد الاستبراء

نهى رسول الله ﷺ في خيبر عن إتيان الحبالى من النساء، اللاتي سبين، وألا يصيب أحد امرأة من السبي غير حامل حتى يستبرئها «بعد الحيض» وأمر مناديه أن ينادي: من آمن بالله واليوم الآخر، لا يسق بمائه زرع الغير. «وهذه من ألطف كناياته ﷺ» ولا يطأ امرأة حتى تنقضي عدتها. وبلغه أن رجلاً أتى سبية حبلى، فقال: لقد هممت أن ألعنه لعنة، تدخل معه في قبره.

استغفال قريش بنشر الأخبار الكاذبة في حق رسول الله ﷺ

وفد حجاج بن بلاط السلمي، وهو والد نصر بن الحجاج، على رسول الله، وهو على خيبر بعد فتحها. فأسلم وكان الحجاج مكثراً من المال، فقال: يا رسول الله! إن مالي عند امرأتي بمكة، وتفرق تجارها، فأذن لي أن آتي مكة لآخذ مالي، قبل أن يعلموا بإسلامي، فلا أقدر على أخذ شيء منه متى علموه، فأذنه، فقال: لا بد لي من أن أتقول وأذكر خلاف الواقع لما يوصل لأخذ مالي. قال: قل. فخرج وعاد إلى مكّة. قال: حتى إذا انتهيت إلى الحرم، فإذا رجال من قريش يستشفون الأخبار، وقد بلغهم أن رسول الله صار إلى خيبر، وهم يعلمون أنهم أهل قوة ومنعة. وقد وقع بينهم مراهنة على مئة بعير، في أن النبي يغلب أهل خيبر أو لا ؟ قال بالأول حويطب بن عبد العزى وجماعة معه. وقال بالثاني ابن عباس بن مرداس وجماعة معه. فقالوا: حجاج عنده والله الخبر، ولم يكونوا علموا بإسلامه. فجاؤوني. وقالوا: يا حجاج! قد بلغنا أن (القاطع) «يعنون رسول الله» قد صار إلى خيبر. فقلت: عندي من الخبر ما يسرّكم، فاجتمعوا إلي يقولون إيه يا حجاج؟ فقلت لهم: لم يلق محمد وأصحابه قوماً يحسنون القتل غير أهل خيبر، فهزم هزيمة لم يسمع بمثلها قط. وأسر محمد. وقالوا: لا نقتله حتى نبعث به إلى مكّة، فنقتله بين أظهرهم. يقتلونه بمن كان أصاب من رجالهم فصاحوا:

يا أهل مكّة! قد جاءكم الخبر؟

قالوا لأهل مكة: قد جاءكم الخبر؟ هذا محمد، إنما تنتظرون أن يقدم به عليكم، فيقتل بين أظهركم.

قال حجاج: قلت لهم: أعينوني على غرمائي، أريد أن أقدم، فأصيب من غنائم محمد وأصحابه، قبل أن يسبقني التجار إلى ما هناك. فجمعوا لي مالي أحسن ما يكون، ففشا ذلك القول بمكة، وأظهر المشركون الفرح والسرور، وانكسر من كان بها من المسلمين. وسمع بذلك العباس بن عبد المطلب، فجعل لا يستطيع أن يقوم، فبعث إلى حجاج غلاماً وقال: قل له: يقول لك العباس: الله أعلى وأجل من أن يكون الذي جئت به حقاً! فقال له حجاج: اقرأ على أبي الفضل السلام، وقل له: ليخلي لي بعض بيوته لآتيه بالخبر على ما يسره، واكتم عني. فأقبل الغلام، فقال: أبشر يا أبا الفضل! فوثب العباس فرحاً، كأن لم يمسه شيء، وأخبره بذلك، فأعتقه العباس. وقال: لله علي عتق عشر رقاب.

فلما كان ظهراً، جاءه حجاج فناشده الله أن يكتم عنه ثلاثة أيام. وقال: إني أخشى الطلب. فإذا مضت ثلاث، فأظهر أمرك. فوافقه العباس على ذلك، فقال: إني قد أسلمت، وإن لي مالاً عند امرأتي، وديناً على الناس، ولو علموا بإسلامي لم يدفعوه إلي. إني تركت رسول الله ﷺ قد فتح خيبر، وجرت سهام الله وسهام رسوله فيها. وتركته عروساً بابنة ملكهم حيي بن أخطب، وقتل ابن أبي الحقيق. ثم ودعه، وانصرف، بعد أن سرى عن العباس رضي الله عنه[1].

ولمّا أمسى المساء، خرج حجاج من مكة، وسار إلى المدينة، وطالت على العباس تلك الليالي الثلاث. فلما مضت عمد العباس إلى حلة فلبسها،

---

(١) هذه القصة تؤيد الرأي القائل بإسلام العباس وهو في مكة، وتكتمه في ذلك على قريش. المحقق

وتخلق[1] بخلوق، وأخذ بيده قضيباً، ثمّ أقبل يخطر، حتى أتى مجالس قريش، وهم يقولون إذا مر بهم: لا يصيبك إلا خير يا أبا الفضل! هذا، والله، التجلد بحر المصيبة. قال: كلا، والله الذي حلفتم به، لم يصبني إلا خير بحمد الله. أخبرني حجاج: أن خيبر فتحه الله على يد رسوله، وجرت فيها سهام الله، وسهام رسوله. فاصطفى رسول الله صفية، بنت ملكهم حيي بن أخطب، لنفسه، وأنه تركه عروساً بها. وإنما قال ذلك ليخلص ماله، وإلا فهو ممن أسلم.

فردّ الله الكآبة على المشركين، فقالوا: انفلت عدو الله «يعنون الحجاج» والله لو علمنا لكان لنا وله شأن. ولم يلبثوا أن جاءهم الخبر بذلك.

قفول المهاجرين من الحبشة على رسول الله إلى خيبر

وقدم من الحبشة بعد فتح خيبر جعفر بن أبي طالب، رضي الله عنه، ومن معه من المسلمين. وكانوا ستة عشر رجلاً، عدا النساء. فتلقاه رسول الله قائماً، وعانقه وقبل جبهته، ثم قال: والله ما أدري، بأيهما أفرح بفتح خيبر؟ أم بقدوم جعفر؟ ولما رأى جعفر رسول الله حجل[2] «مشى على رجل واحدة» إعظاماً لرسول الله، كما يفعل الحبشة ذلك للتعظيم. فقال له ﷺ: جعفر أشبه الناس بي، خَلقاً وخُلقاً. فرقص أمامه طرباً بهذا الثناء. وكانت مع جعفر زوجه أسماء بنت عمه، وولدت له بالحبشة ابنه عبد الله.

وقدم مع عبد الله بن جعفر: الأشعريون، أبو موسى الأشعري وأخواه: أبو بردة، وأبو رهم. وقد صافحوا الناس بالسلام، فقال رسول الله:

إن أهل اليمن قد سنوا لكم المصافحة

وقال: من تمام محبتكم المصافحة، ومن ذلك اليوم صارت سنة متبعة بين المسلمين، يحيي بها بعضهم بعضاً عند اللقاء.

---

(١) (تخلق) تطيّب. و(الخلوق): الطيب.

(٢) (حجل): تشبّه في مشيته بالحجل.

وفد الحبشة

وقيل: قدم أيضاً مع جعفر، وفد الحبشة، سبعون رجلاً، عليهم ثياب الصوف. منهم اثنان وستون من الحبشة، وثمانية من روم أهل الشام. فقام ﷺ يخدمهم بنفسه. فقال له الصحابة: نحن نكفيك يا رسول الله! فقال: إنهم كانوا لأصحابنا مكرمين، وإني أحب أن أكافئهم.

قدوم طائفة من دوس على رسول الله في خيبر

وقدم الطفيل بن عمرو، ومعه أبو هريرة في طائفة من قومهما دوس. جاؤوا المدينة وكانوا ثمانين بيتاً. فأخبروهم أن رسول الله على خيبر. ولما صلوا الصبح، خلف سباع بن عرفطة الغفاري، زوّدهم، وسيرهم إلى خيبر، فلقوا رسول الله محاصراً لحصن الكتيبة، فأقاموا معه حتى تمّ فتح خيبر. ولما قدم هؤلاء على رسول الله، هدى الله دوساً، وأسلموا جميعاً، كما أشرنا لذلك، لما ذكرنا خبر إسلام الطفيل بعد لقاء رسول الله.

قدوم أم حبيبة بنت أبي سفيان أم المؤمنين رضي الله عنها

قدمنا: أنها كانت ممن هاجر مع زوجها، عبد الله بن جحش إلى الحبشة، في الهجرة الثانية. فتنصر هناك، ومات على النصرانية، وبقيت أم حبيبة على إسلامها. وفي افتتاح محرم، السنة السابعة أرسل ﷺ عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي، ليزوجه منها، ويوفدها إلى المدينة.

وقد قصت علينا أم حبيبة، كيف علمت بأن رسول الله يتزوجها. قالت: رأيت في المنام كأن قائلاً يقول لي: يا أم المؤمنين! ففزعت. فأولتها بأن رسول الله يتزوجني، فما شعرت إلا وجارية النجاشي قد دخلت علي، فقالت لي: إن الملك يقول لك: إنّ رسول الله كتب إليه: أن يزوجك منه. ويقول: وكّلي من يزوجك. فقلت: بشرك الله بالخير. فأرسلت بالوكالة إلى خالد بن سعيد. وأعطت تلك الجارية سوارين، وخلخالين، وخواتيم فضة. سروراً بما بشرت به. فلما كان العشي من ذلك اليوم، دعا النجاشي

جفعر بن أبي طالب، ومن معه من المسلمين. فحضروا. وخطب النجاشي، بعد أن حمد الله، وأثنى عليه وعلى رسول الله. قال: إن رسول الله كتب إلي، أن أزوجه أم حبيبة بنت أبي سفيان، فأجبنا إلى ما دعا إليه، وقد أصدقها أربعمئة دينار. ثم سكب الدنانير بين يدي القوم.

ثم تكلم خالد بن سعيد بن العاص. فقال: لقد أجبت إلى ما دعا إليه رسول الله، وزوجته أم حبيبة، بنت أبي سفيان، فبارك الله لرسول الله، ودفع النجاشي الدنانير لخالد بن سعيد، فقبضها منه. وهو أرسلها مع جارية النجاشي لأم حبيبة، فأعطتها فوق ما تقدم خمسين ديناراً.

قالت أم حبيبة: فلما كان من الغد، جاءتني جارية النجاشي، فردت علي جميع ما أعطيتها. وقالت: إن الملك أمر ألا أرزأك شيئاً. وعزم على نسائه، أن يبعثن إليك بكل ما عندهن من العطر. فأتت منهن بورس[1] وعطر وعرعر، وزباد[2] كثير. وقالت: حاجتي إليك: أن تقرئي رسول الله سلامي. ولما وصلت أم حبيبة إلى رسول الله، وأقرأته سلام الجارية. قال: وعليها السلام، ورحمة الله وبركاته.

مجيء وفد فدك يطلب عقد الصلح مع رسول الله ﷺ

لما مر رسول الله بفدك، حين خروجه إلى خيبر، بعث محيص بن مسعود، إلى يهودها يخوفهم ويحذرهم أن يصالحوه، فجعلوا يتربصون، وقالوا في أنفسهم: إن خيبر عشرة آلاف مقاتل ما نرى محمداً يبلغ معهم أمراً. فأقام عندهم محيص يومين، فلما عزم على الرحيل، قالوا: نحن نرسل له منا رجالاً، سيأخذون لنا منه الصلح. كان ذلك، وهم يظنون أن رسول الله لا يقدر على فتح خيبر. حتى إذا جاءهم النذير بدخول المسلمين إلى حصن

---

(١) (الورس): قال صاحب القاموس: نبات كالسمسم، ليس إلا باليمن، يزرع فيبقى عشرين سنة. نافع للكلف طلاء، وللبهق شرباً. وقد يكون للعرعر، والرمث وغيرهما من الأشجار، لاسيما بالحبشة، ما للورس، ولكنها دونه. المحقق.

(٢) (الزباد): الطيب.

ناعم. فأرسلوا إليه من قبلهم وفداً على رأسه: نون بن يوشع، يصالحونه على حقن دمائهم، وأن يكون لهم نصف الأرض، ولرسول الله النصف الآخر. يصالحهم على ذلك. فصالحهم عليه، ونزلوا على حكمه. وكان ﷺ ينفق من إيراد فدك على صغار بني هاشم، ويزوج أيّمهم.

جرائم اليهود المخلّة بعهدهم مع الرسول التي أقضت مضاجع المسلمين وكانت سبباً في جلائهم

بعد أن أقر رسول الله يهود خيبر وفدك على البقاء في أراضيهم، واشترط عليهم منع الأذى عن المسلمين، خالفوا هذا الشرط ثلاث مرّات مرّة في عهد رسول الله، ومرتان في عهد عمر. أما التي كانت في عهد رسول الله فهي:

قتل عبد الله بن سهيل الأنصاري

وجد قتيلاً في جب من جباب يهود الشق، فسألهم أخوه محيصة عنه، فأقسموا أنه ليس لهم به من علم، ولما أيس منهم ذهب هو وأخواه عبد الرحمن وحويصة، وهذا كان أكبرهم إلى رسول الله. فأراد عبد الرحمن وهو أصغرهم أن يتكلم، فقال له رسول الله: كبر، كبر. فسكت. ثم أراد محيصة أن يتكلم. فقال أيضاً: كبر، كبر. فسكت. فتكلم حويصة، ورفع إليه قضية مقتل أخيهم عبد الله. وقال: إن اليهود تهمتنا وظنتنا. فقال ﷺ: إما أن يدوا صاحبكم، وإما أن يأذنوا بحرب.

وكتب ﷺ إلى يهود خيبر في ذلك، وكتبوا إليه: أننا ما قتلناه ولا علم لنا به. ولما ردّوا إليه بذلك، قال لإخوة عبد الله بن سهيل: تحلفون أيمان القسامة[1] وتستحقون دم صاحبكم فقالوا: يا رسول الله! لم نحضر ولم نشهد. فقال: فتحلف لكم يهود. قالوا: يا رسول الله! ليسوا بمسلمين[2].

---

(١) روى المسيب، أن أيمان القسامة كان معمولاً بها في الجاهلية، ثم أقرها رسول الله ﷺ في الإسلام، وأول ما قضى بها في هذه الواقعة.

(٢) في (اللسان): القسامة الجماعة يقسمون على الشيء أو يشهدون. وقتل فلان فلاناً بالقسامة، أي: باليمين، وردت في طبعة (غ): «تحلفون يمين القامة»؟.

ولما لم تقم له ﷺ البينة، وأبى إخوته أن يؤدوا أيمان القسامة، وداه رسول الله من عنده بمئة ناقة، خمس وعشرون جذعة، وخمس وعشرون حقة، وخمس وعشرون ابنة لبون، وخمس وعشرون بنت مخاض. وعدّها المسلمون سابقة لليهود.

وأما المرتان اللتان خالفوا فيها شرط الرسول في عهد عمر، رضي الله عنه، فـ:

الأولى:

الإغراء بمقتل مطهر بن رافع

وصورة ذلك: أن مطهر رضي الله عنه قدم خيبر بعشرة من الأعلاج، جلبهم من الشام، ليعملوا له بأرضه. فأقام بخيبر ثلاثة أيام. فقال لهم اليهود: أنتم نصارى، ونحن يهود، وهذا سيدكم من العرب، وهم قوم قهرونا بالسيف، وأنتم عشرة رجال، وهو رجل واحد، يسوقكم إلى الجهد والبؤس، وستكونون في رق شديد، فإذا خرجتم من قريتنا فاقتلوه.

فقال الأعلاج: ليس معنا سلاح، فدست لهم اليهود سكينتين أو ثلاثة.

فلما خرجوا من خيبر، أقبلوا على مطهر بسكاكينهم، فخرج يعدو إلى سيفه، وكان في قرابه على راحلته، فأدركوه قبل الوصول إليه، وبعجوا بطنه، ثم انصرفوا سراعاً، حتى عادوا إلى خيبر. فآواهم اليهود، وزودوهم إلى الشام، وجاء الخبر بذلك إلى عمر.

الثانية:

جدع عبد الله بن عمر في يديه ورجليه

خرج عبد الله بن عمر إلى خيبر في خلافة أبيه، وكان عاملاً له هناك. فعدا عليه اليهود من الليل، فجدعوا يديه ورجليه.

قرار مجلس شورى الإسلام إجلاء اليهود عن الحجاز

ولما بلغ ذلك أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، دعا كبار الصحابة

للمشاورة، فيما يصنع باليهود، بعد أن تكرر منهم الاعتداء، دون إظهار الفاعلين، فخطب فيهم فقال:

أيها الناس! كان رسول الله عامل أهل خيبر على أموالهم «أراضيهم ونخيلهم» فقال لهم: نقركم على ما أقركم الله، ففعلوا بعبد الله ما فعلوا، وفعلوا بمطهر بن رافع ما فعلوا، وعدوا على عبد الله بن سهيل في عهد رسول الله ﷺ، ولا شك أن هؤلاء أصحاب رسول الله، وليس لهم عدو غيرهم. فإنّ وقوع هذه الحوادث لدليل على نقض العهد الذي أعطاهم رسول الله؛ لذلك رأيت إجلاءهم.

فقام طلحة بن عبد الله فقال: قد والله أحسنت يا أمير المؤمنين! ووفقت. فهم أهل سوء. فقال عمر: من معك على أهل رأيك؟ قال: المهاجرون والأنصار جميعاً. فقاموا وأيدوه، فسر بذلك عمر.

فلما أجمع الصحابة على ما رآه عمر، وعلم اليهود أنهم مخرجون، أرسلوا أحد بني الحقيق إلى أمير المؤمنين، يحتج على إخراجهم. قال: أتخرجنا وقد أقرّنا محمد، وعاملنا على أرضنا، وشرط ذلك لنا؟! فقال عمر: أتظن أنّي نسيت قول رسول الله لك: كيف بك إذا خرجت من خيبر، يحدو بك قلوصك ليلة بعد ليلة. فقال: هذه كانت هزلة من أبي القاسم. فقال: كذبت، ما كان هازلاً حين قال لك ما قال. وهنا ذكر الصحابة بالوصية المعلومة التي أوصى بها رسول الله: لا يبقى دينان في جزيرة العرب.

وقد وردت عن ذلك أقوال كثيرة عن الصحابة، فمنهم من ذكر حديث: لا يبقى دينان في جزيرة العرب. ومنهم من قال: سمعت رسول الله يقول: لأخرجن اليهود والنصارى. واستدرك عليه آخرون، فقال: والمشركين من جزيرة العرب. قال آخرون: إن آخر ما تكلم به ﷺ قوله: «أخرجوا اليهود من الحجاز» وفي رواية: إن عشت إلى قابل أخرجت اليهود والنصارى من الحجاز.

تنفيــذ قرار الجـلاء

لم يكن بعد القرار إلا التنفيذ، فقد أمر عمر رضي الله عنه تقويم ما كان

ليهود خيبر وفدك، والنصارى في نجران من المكاسب من التمر وغيره، وأعطاهم قيمة ذلك، وخيرهم أين يذهبون؟ وأجّلهم ثلاثة أيام، غير يومي الدخول والخروج، فخرج اليهود والنصارى من المناطق الثلاثة. وهي: اليمامة والطائف والمدينة. لآخر مرّة. فذهبوا إلى تيماء وأريحا والشام وأقطعهم هناك، وفحص عمر بنفسه جلاءهم حتّى تيقّنه، وثلج صدره، بحيث لم يشهد النّاس بعد ذلك في جزيرة العرب ديناً غير الإسلام.

واقعة وادي القرى

ونزول من كان بها من اليهود على حكمه ﷺ

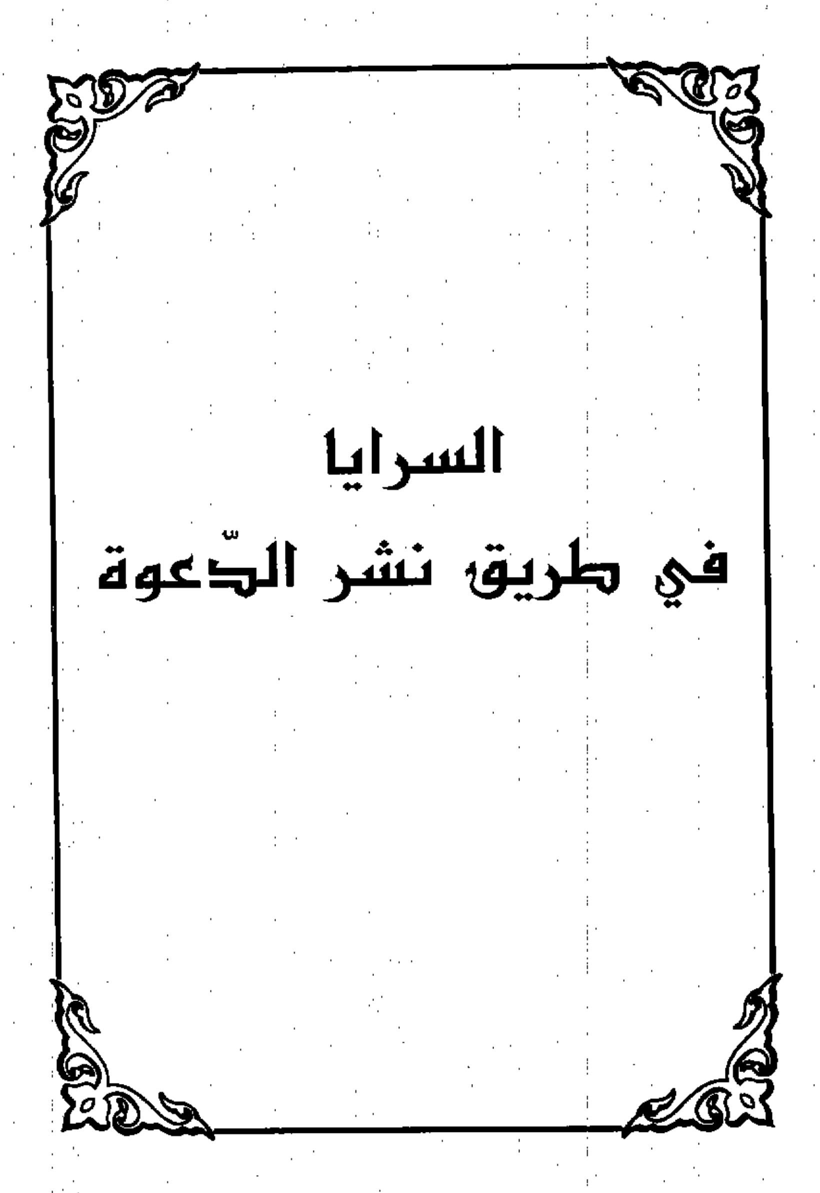
لما انصرف رسول الله بجنوده من خيبر، قافلين إلى المدينة، مر على وادي القرى، وهو موضع قريب من المدينة، وكان بها حصناً لليهود. فأراد رسول الله أن يدخلهم في الطاعة، فنزل بهم أصيلاً مع غروب الشمس، فلجأ اليهود إلى داخل الحصن، فأقام عليهم رسول الله أربعة أيام يحاصرهم. وعقد للجند أربعة ألوية: لواء إلى سعد بن عبادة، ولواء إلى الحباب بن المنذر، ولواء إلى سهل بن حنيف، ولواء إلى عباد بن بشر. وأرسل إلى اليهود، يدعوهم إلى أحد أمرين: إمّا الإسلام، وإمّا الطاعة؟ ففضلوا القتال على التسليم، وكان قتالهم مبارزة.

فافتتح المبارزة اثنان منهم، قتلهم الزبير واحداً بعد واحد. وخرج للثالث عليّ بن أبي طالب، فألحقه بالأولين. ثم خرج لهم أبو دجانة الأنصاري يقاتلهم، ولم يزالوا يبارزونه، واحداً واحداً، حتى قتل منهم أحد عشر رجلاً. فأحجم اليهود عن الخروج وقرروا التسليم، وأعطوا ما بأيديهم. وفتح المسلمون الحصن عنوة. فأصابوا به أثاثاً ومتاعاً. وقسم ﷺ ما أصابه على أصحابه، وترك الأرض والنخيل بأيدي اليهود. عاملهم عليها ما عامل يهود خيبر. وولّى عليهم عمر بن سعد بن العاص. ولم يقتل في هذه الواقعة من المسلمين غير عبده ﷺ الذي كان يرحل له، فقد جاءه سهم بينما كان يحط الرحل، فقتله.

دخول يهود تيماء في الطاعة بلا حرب

لما بلغ يهود تيماء وهم على سبع مراحل من المدينة في طريق الشام، ما حصل ليهود خيبر ووادي القرى، خافوا على أنفسهم، فبعثوا إلى رسول الله بطاعتهم، وسألوا أن يقرهم على الجزية، فوادعهم على ذلك، فأقاموا ببلادهم، وأرضهم في أيديهم، وولّى عليهم ﷺ من قبله يزيد بن أبي سفيان. ثمّ تحوّل إلى المدينة، فدخلها مؤيداً منصوراً.

* * *



السرايا
في طريق نشر الدّعوة

سريّة عمر بن الخطاب إلى تربة لقتال هوازن

تربة: واد بقرب مكّة على مسيرة أربعة أيام منها، ويقال: لها عجز، بعث إليها ﷺ عمر بن الخطاب. ومعه ثلاثون رجلاً، وكان خروجهم في شعبان سنة سبع من الهجرة، وأرسل معهم دليلاً من بني هلال، فكانوا يسيرون بالليل ويكمنون بالنهار، فأتى خبرهم إلى الطائفة التي كانت بتربة من هوازن، فهربوا. وجاء عمر إلى محالّهم، فلم يلق منهم أحداً، بل ترحلوا وأخذوا أموالهم من نعم وغيرها، فعادوا إلى المدينة.

فلما كانوا بذي الجدر، وهو على ستة أميال من المدينة، قال له الدليل: هل لك في مناجزة جمع آخر، تركته من خثعم قد أجدبت بلادهم؟

فقال عمر: لم يأمرني رسول الله بهم، إنما أمرني أن أعمد إلى قتال هوازن بتربة. ثمّ كرّ راجعاً إلى المدينة.

سريّة أبي بكر إلى بني كلاب

بنو كلاب: قبيلة بنجد بضاحيّة ضريّة بعث إليهم ﷺ أبا بكر رضي الله عنه، مع جماعة من الصحابة. كان فيهم سلمة بن الأكوع. قال: فشننا الغارة، فوردنا الماء، وقتل من قتل منهم. ورابت الذراري، فخشيت أن يسبقوني إلى الجبل، فأدركتهم فرميت بسهم بينهم وبين الجبل، فقتلنا، وسبينا. وقتلت بيدي سبعة من المشركين، ثم عادوا إلى المدينة.

سريـة بشير بن سعد الخزرجي إلى بني مرّة بفدك

بعث رسول الله ﷺ بشير بن سعد في ثلاثين رجلاً إلى بني مرّة بفدك. وقد قدّمنا: أنها قرية بينها وبين المدينة ستة أميال، وكانت في شعبان سنة سبع من الهجرة. فلما وصلوا منازل القوم، لقوا رعاة الشاء فسألوهم عن بني مرّة؟ فقالوا: في بواديهم. والناس يومئذ شاتون لا يحضرون الماء، فاستاقوا النعم والشاء، وانحدروا إلى المدينة. فخرج الصريخ في إثرهم، فأدركوا منهم العدد الكثير، لما جنّهم الليل، فباتوا يترامون بالنبل، حتى فني نبل السرية أصحاب بشير. فلما أصبحوا، حملوا على السريّة حملة

واحدة، فقتلوا منهم من قتلوا، وولى من ولّى هارباً. وقاتل بشير قتالاً شديداً حتى ارتث «جرح» فسقط وكان بـه رمق، فضربوا كعبه اختباراً لحاله، أهو حيّ أم ميّت؟ فلم يتحرك. قالوا: مات. فرجعوا بنعمهم وشياههم، وحمل خبر السريّة علية بن زيد إلى رسول الله، ثم قدم بعده بشير بن سعد، فإنه استمرّ في القتلى، فلما أمسى تحامل حتى ورد إلى فدك، فأقام عند يهودي أياماً، ولما ارتفع الجـرح ، وقوي على المشي عاد إلى المدينة.

سريّـــة غالب بن عبد الله الليثي إلى أهل الميفعة

أهل الميفعة: بطنان من عوال وبني عبد بن ثعلبة، وراء بطن نخلة بناحية نجد. وهي على ثمانية برد من المدينة. سيّرها رسول الله، وهي مؤلفة من مئة وثلاثين رجـلاً، بقيادة غالب بن عبد الله الليثي، وكان ذلك في شهر رمضان، سنة سبع من الهجرة، فهجموا عليهم في وسط محالّهم، فقتلوا من تعرّض لهم، واستاقوا نعماً وشاء إلى المدينة[1].

وعن أسامة بن زيد قال: لما انهزم أهل الميفعة، بقي نهيك بن مرداس الأسلمي، وقيـل: الغطفاني، فألجأ غنمه إلى جبل، فلما أعييناه قال: لا إله إلا الله محمد رسول الله. فكف عنه الأنصار، وطعنته برمحي حتى قتلته. فلما قدمنـا على رسول الله، قال: يا أسامة! أقتلته بعـد ما قال: لا إله إلا الله؟! قلت: إنما قالها متعوّذاً. فمـا زال يكرّرهـا رسول الله، حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم، فيكفر عني ما صنعت.

---

(١) «الحلبية. جزء ثالث. صحيفة (٢١٢). دحلان جزء ثاني صحيفة (٢٥٧)» هذا التعليق من المؤلف. وهو نادراً ما يذكر الجزء والصفحة، بل ربما هي المرة الوحيدة. وإنما غالباً ما يكتفي بعنوان (المرجع) أو (المصدر) مجرداً من اسم المؤلف، أو العكس، المؤلف دون اسم الكتاب. المحقق.

سريّــة بشير بن سعد الأنصاري إلى يمن[1]

وادٍ قريب من خيبر، وهو من مواطن غطفان، بلغه ﷺ أن عيينة بن حصن جمعهم وواعدهم على الإغارة على المدينة، فلما علم رسول الله بخبرهم جهز لهم بشير بن سعد الأنصاري، ومعه ثلاثمئة رجل، وسيّرهم سنة سبع من الهجرة، فساروا بالليل وكمنوا بالنهار حتى أتوا المحل المذكور، وأصابوا نعماً كثيراً. وتفرّق الرعاء وذهبوا إلى القوم وأخبروهم، فتفرّقوا، ولحقوا بعلياء بلادهم، فتبعهم المسلمون، فأسروا منهم رجلين، وأتوا بهما إلى المدينة، فأسلم الرجلان، فأطلقهما رسول الله.

عمرة القضاء

قال الحافظ ابن حجر: لها أربعة أسماء: عمرة القضاء، وعمرة القضية، وعمرة الصلح، وعمرة القصاص. وكانت في شهر ذي القعدة من السنة السابعة، من مثل الشهر الذي صده ﷺ المشركون في السنة التي قبلها عن البيت. وكانت عمرة تامة، معدودة في عمره التي اعتمرها بعد الهجرة، وهي أربعة: الحديبية، وعمرة القضاء، وعمرة الجعرانة، والعمرة المقرونة بحجة الوداع. والثلاثة الأولى، وقعت كلها في ذي القعدة، إلا العمرة الأخيرة كانت في أيام الحج.

ومكث ﷺ قبل الهجرة ثلاث عشرة سنة، لم ينقل عنه أنه اعتمر خارجاً من مكّة إلى الحل في تلك المدّة أصلاً. ولم تكن هذه العمرة الثانية من مغازيه ﷺ كما عدّها البخاري، بل سار إليها مسالماً، على ما عاقد عليه قريشاً في الحديبية.

فقد نقل عن ابن شهاب: أنه ﷺ خرج في هلال ذي القعدة سنة سبع معتمراً، وأمر ألا يتخلف عنه أحد ممن شهد الحديبية، وأبلغ أن يخرج إليها من شاء من غيرهم، فكان من خرج معه من الرجال ألفين، سوى النساء والصبيان.

---

(١) (يمن) بالفتح، ويروي بالضمّ، ثم السكون. ماء لغطفان بين بطن قوّ ورؤاف على الطريق بين تيماء وفيد. (معجم البلدان). المحقق.

واستخلف على المدينة أبا رهم كلثوم بن الحصين الغفاري، وقيل: أبا ذر الغفاري. وساق ستين بدنة وقلّدها، وحمل معه السلاح والدروع والأرماح، وقاد مئة فرس، جعل عليها محمد بن مسلمة. وعلى السلاح بشير بن سعد. وأحرم ﷺ من باب المسجد. وسلك طريق الفرع. ولبّى . ولبى المسلمون معه. ولما انتهوا إلى الحليفة، قدّم محمد بن مسلمة في الخيل أمامه، فوجد في الظهران نفراً من قريش، فسألوه عن سبب مجيئه بالخيل. فقال: هذا رسول الله، يصبّح هذا المنزل غداً إن شاء الله. فأتوا قريشاً، فأخبروهم، ففزعوا منه. فقالوا: ما أحدثنا حدثاً، وإنا على كتابنا ومدّتنا، ففيم يغزونا محمد في أصحابه؟ ثم إنّ قريشاً انتدبت مكرز بن حفص، وأرسلته في نفر منهم إليه ﷺ وساروا حتى التقوا به ببطن ياجج، قادماً في جيش ومعه الهدي والسلاح. فقالوا: والله ما عرفت يا محمد صغيراً ولا كبيراً بالغدر. تدخل بالسلاح في الحرم على قومك، وقد شرطت لهم ألا تدخل إلا سلاح المسافر، والسيوف في القرب فقال ﷺ: إني على عهدي، لا أدخل عليهم بسلاح.

وفي أنس الجليس: أن المشركين اشترطوا عليه شروطاً غير الأولى، فإنه قاضاهم على أن يقيم ثلاثة أيام، ويخرج، وألا يتبعه أحد من أهل مكّة، وألا يمنع من أصحابه أحداً أن يقيم بها. فقال له عند ذلك مكرز: هذا هو البر والوفاء الذي تعرف به. ثم عاد مكرز إلى مكّة. وأخبر قريشاً ما قاضى عليه محمد، وأنه لا يدخل عليهم بسلاح. وامتثالاً لذلك ترك ﷺ السلاح في بطن ياجج، وهو على مسافة أميال من مكّة، وخلف عليه أوس بن خولي الأنصاري في مئتين من الصحابة. وسار في أصحابه معتمراً إلى مكّة.

لما علمت قريش بمقدمه ﷺ إلى مكّة، خرج كبراؤهم منها، حتى لا يرونه يطوف بالبيت هو وأصحابه، عداوة وبغضاً. فدخلها ﷺ راكباً ناقته القصوى[1] وأصحابه محدقون به، قد توشحوا السيوف يلبّون. دخل من الثنيّة التي على الحجون وهي ثنيّة كداد. وكان عبد الله بن رواحة الأنصاري،

---

(١) (القصواء).

أخذ بزمام الناقة، وهو يحدو بها. وقعد المشركون الذين خرجوا من مكّة. بجبل قينقاع[1] يراقبونه وأصحابه، وهو يطوفون بالبيت. فكان المشركون يتغامزون عليهم، ويتهامسون في حقّهم، ويقولون: انظروا إليهم فقد أضعفتهم حمّى يثرب. ولما بلغ ذلك رسول الله، قال: رحم الله امرأً أراهم من نفسه قوة، وأمر أصحابه أن يرملوا الأشواط الثلاثة، ليروا المشركين أن لهم قوّة. ولما رآهم المشركون يهرولون، قال بعضهم لبعض: أهؤلاء الذين زعمتم أن الحمّى قد وهنتهم، هؤلاء أجلد من كذا، إنهم ينفرون نفر الظبي. واضطبع[2] ﷺ بردائه، وكشف عضده اليمنى، وفعلت الصحابة كذلك. وهذا أول رمل واضطباع في الإسلام. ثم سعى رسول الله بين الصفا والمروة على راحلته. وبعد فراغه نحر هدية عند المروة، وحلق هناك. حلقه معتمر بن عبد الله العدوي. ثم أمر مئتين من أصحابه أن يذهبوا إلى بطن ياجح، يقيمون على السلاح. والمئتان الآخرون، ليقضوا نسكهم، ففعلوا.

ثم دخل البيت، ولم يزل به، حتى أذن بلال الظهر فوق ظهر الكعبة، فقال عكرمة بن أبي جهل: لقد أكرم الله تعالى أبا الحكم[3].

وتزوج رسول الله وهو بمكة (برّة) أخت أم الفضل، زوج العباس عمّه، وأخت أسماء بنت عميس لأمها، زوج حمزة. ولما عقد عليها، سمّاها (ميمونة)، تزوج بها وهو محرم. رواه البخاري ومسلم. وبعث إليه جعفر بن

---

(١) الصحيح: (قعيقعان) وهو أحد الأخشبين والثاني (أبو قبيس) في بعض الروايات. و(قينقاع) من يهود المدينة. كما هو معروف. المحقق.

(٢) (اضطبع) الشيء: أدخله تحت ضبعيه. و(الاضطباع) الذي يؤمر به الطائف بالبيت أن تدخل الرداء من تحت إبطك الأيمن، وتغطي به الأيسر. (اللسان). المحقق.

(٣) يعني والده. حيث لم يسمع هذا العبد يقول ما يقول. وقال صفوان بن أمية: الحمد لله، الذي ذهب أبي قبل أن يرى هذا. وقال خالد بن أسيد: الحمد لله الذي أذهب أبي ولم يشهد هذا اليوم، حيث يقوم بلال ينهق فوق الكعبة. ولما سمع سهيل بن عمرو الأذان غطى وجهه. المؤلف.

أبي طالب يخطبها، ولما انتهت إليها الخطبة كانت على بعيرها، فقالت: البعير وما عليه لرسول الله. وجعلت أمرها لأم الفضل أختها، فجعلت أم الفضل أمرها للعباس. فزوجها العباس، وأصدقها عنه ﷺ أربعمئة درهم.

وروى البيهقي، والترمذي، والنسائي، عن أبي رافع قال: تزوج رسول الله ميمونة وهو حلال، وبنى بها وهو حلال. وأن الرسول بينهما، وأراد ﷺ أن يبني بها في مكة فلم تمهله قريش، بل دعوه إلى الخروج، بعد أن أمضى الثلاثة أيام التي اشترطوها عليه في العقد. فقال لهم: ما عليكم لو تركتموني، فأعرست بين أظهركم، فصنعت لكم طعاماً. فقالوا: لا حاجة لنا في طعامك، اخرج عنّا من أرضنا، هذه الثلاثة قد مضت. قال لهم: إني نكحت فيكم امرأة، فما يضرّكم إن مكثت حتى أدخل بها.

كان مجيء قريش إليه ﷺ لإنذاره بالخروج، وهو بالقبة التي نصبها بالأبطح، وكان يتحدث مع الأنصار، ومنهم سعد بن عباده، فصاح حويطب: نناشدك الله والعقد إلا ما خرجت من أرضنا، فقد مضت الثلاثة. فغضب سعد بن عبادة، لما رأى من غلظ قولهم لرسول الله، فقال سعد لحويطب: كذبت لا أم لك، ليس بأرضك، ولا أرض آبائك، والله! لا يبرح منها إلا طائعاً راضياً. فتبسم رسول الله. وقال: يا سعد! لا تؤذ قوماً زارونا في رحالنا. وأسكت الفريقين.

ثم إن رسول الله أمر أبا رافع ، أن ينادي بالرحيل، وألا يمسي بمكة أحد من المسلمين، وخلف أبا رافع ليأتي بأم المؤمنين (ميمونة) حين يمسي. فخرج رسول الله في أصحابه، وتبعته أمامة بنت حمزة، واسم أمها سلمى بنت عميس . فنادت: يا عم، يا عم! فتناولها علي بن أبي طالب. وقال لفاطمة وهي في هودجها: دونك ابنة عمك. وقال لرسول الله: علام نترك ابنة عمنا يتيمة بين ظهراني المشركين. فلم ينهه. فخرج بها إلى المدينة. ولما وصلوا اختصم في كفالة أمامة علي بن أبي طالب، وجعفر، وزيد بن حارثة. فقال علي: ابنة عمّي، وأنا أخذتها وأخرجتها من بين ظهراني المشركين. وقال جعفر: هي ابنة عمّي، وخالتها أسماء بنت عميس تحتي. وقال زيد: هي

ابنة أخي بعهد التآخي بين المهاجرين. فكان لكل فيها شبهة. فقضى فيها رسول الله لخالتها، وقال: الخالة بمنزلة الأم. ولما قضى بها لجعفر، جعل يحجل حول رسول الله كما فعل بخيبر.

وفي مساء خروج رسول الله بالصحابة من مكّة، بعد عمرة القضاء، خرج أبو رافع ومعه ميمونة، وقد لقيت عند خروجها من سفهاء مكة عناء شديداً. فقال لهم أبو رافع: ما شئتم، هذه والله الخيل والسلاح ببطن ياجج، وأنتم تريدون نقض العهود والمدّة. فولوا راجعين منكسين. وأقام ﷺ بسرف، وفيه دخل بميمونة تحت شجرة هناك. وهناك قبرت أيضاً لما ماتت، فإنها لما ثقل عليها المرض وهي بمكّة، قالت: أخرجوني. فحملوها حتّى أتوا بها ذلك الموضع، فماتت به ودفنت به. وهي آخر من عاشر من أزواجه ﷺ.

سريّــة الأخرم بن أبي العوجاء السلمي إلى بني سليم يدعوهم إلى الإسلام

ندب رسول الله الأخرم ومعه خمسون راجلاً إلى بني سليم، يدعوهم إلى الإسلام، فخرجوا من المدينة في ذي الحجة سنة سبع. فعلم بخروجهم جاسوس من بني سليم، فتقدم السرية يحذرهم، فجمعوا للقائهم جموعاً كثيرة، فأتوهم وهم معدون لهم، فلما دعوهم للإسلام قالوا: أي حاجة لنا بما تدعونا إليه؟! فهجموا عليهم، وتراموا بالنبال ساعة. وجعلت الإمدادات تتوارد على بني سليم، وأحدقوا بالمسلمين من كل ناحية. فقاتل المسلمون قتالاً شديداً، حتى قتل عامتهم، ووقع ابن أبي العوجاء جريحاً، ثم تحامل، وساعده على الارتحال من نجا من أصحابه، حتى وصلوا إلى المدينة في صفر سنة ثمان.

سريّــة غالب بن عبد الله الليثي إلى بني الملوح بكديد

كديد[1]: ماء بين عسفان وقديد، بعث رسول الله غالب في بضعة عشر

---

(١) جاء في (معجم البلدان) بأل التعريفية: (الكديد)، موضع على اثنين وأربعين ميلاً =

رجلاً إلى بني الملوح، يشنون الغارة عليهم، وكان مخرج هذه السرية في صفر سنة ثمان.

روى ابن إسحاق وغيره، عن جندب بن مكيث الجهني، قال: بعث رسول الله غالب بن عبد الله على سريّة كنت فيها لشنّ الغارة على بني الملوح، ولما كنا بقديد، لقينا الحارث بن مالك الليثي، المعروف بابن البرصاء، فأخذناه فقال: إني جئت أريد الإسلام، وخرجت، قاصداً لقاء رسول الله. فقلنا له: ما ضرّك إن كنت مسلماً، رباط يوم وليلة، وإن تك غير ذلك، نكون قد استوثقنا منك. فشددناه وثاقاً. ثم خلفنا عليه عبداً أسود وقلنا: إن غارّك فاحتز رأسه. ثم سرنا حتى أتينا الكديد عند مغرب الشمس. فكنا من ناحية الوادي. وبعثني أصحابي رئية لهم، فخرجت حتى أتيت تلاً مشرفاً على الحاضر، فاستندت فيه، فعلوت على رأسه فنظرت إلى الحاضر. فوالله إني لمنبطح على التل إذ خرج رجل من خبائه، فقال لامرأته: إني لأرى على التل سواداً، ما رأيته من أول يومي، فانظري إلى أوعيتك، هل تفقدين شيئاً؟ لا تكون الكلاب جرّت بعضها؟ فنظرت وقالت: لا، والله! لا أفقد شيئاً. قال: فناوليني قوسي، وسهمين. فناولته فأرسل سهماً، فما أخطأ بين عيني، فنزعته، وثبت مكاني. وأرسل الآخر، فوضعه في منكبي، فنزعته، وثبت مكاني. فقال لامرأته: لو كان رئية لقوم، قد خالطه سهماي. لا أبالك إذا أصبحت، فابتغيها فخذيهما، لا تمضغهما الكلاب. ثم دخل وأمهلناهم، حتى إذا اطمأنوا وناموا، وكان في وجه السحر، شننا عليهم الغارة، فقتلنا منهم، واستقنا الغنم، وخرج صريخ القوم فجاءنا قوم لا قبل لنا بهم، فمضينا بالغنم، ومررنا بابن البرصاء وصاحبه، واحتملناهما معنا، وأدركنا القوم، حتى قربوا منّا، فأرسل الله الوادي بالسيل، ليس لأحد به قوة، ولا يقدر أحد أن يجاوزه، فوقفوا ينظرون إلينا، وإنا لنسوق نعمهم،

= من مكة. وأمّا (قديد) اسم موضع قرب مكة. وورد في أحاديث كثيرة، منها: عن عبد الله بن عباس، رضي الله عنهما، قال: «صام رسول الله ﷺ حتى إذا بلغ الكديد، الماء الذي بين قديد وعسفان، أفطر، فلم يزل مفطراً حتى انسلخ الشهر» المحقق.

لا يستطيع منهم رجل أن يمرّ إلينا، ونحن نحدوها سراعاً، فلم يقدروا على طلبنا، حتى فتناهم. فقدمنا على رسول الله، فأسلم الحارث وكانت له صحبة. وقد مات في خلافة معاوية.

إسلام فتيان قريش

خالد بن الوليد وعثمان بن طلحة وعمرو بن العاص

إسلام خالد:

قال عن نفسه: لما قدم محمد لعمرة القضاء، تغيبت عن مكة، ولم أشهد دخوله، وكان أخي الوليد بن الوليد دخل معه فلم يجدني، فكتب إليّ الكتاب التالي:

بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد. فإني لم أر أعجب من ذهاب رأيك عن الإسلام، وعقلك عقلك، ومثل الإسلام لا يجهله أحد. قد سألني رسول الله عنك، فقال: أين خالد؟ فقلت: يأتي الله به. فقال: ما مثله يجهل الإسلام، ولو كان يجعل نكايته مع المسلمين على المشركين كان خيراً له، ولقدمناه على غيره. فاستدرك يا أخي ما فاتك من مواطن صالحة.

لما جاءني كتابه نشطت للخروج، وزادني رغبة في الإسلام، وبشّرتني مقالة رسول الله، وقلت: قد شهدت هذه المواطن كلها على محمّد، فليس موطن أشدّ، إلا انصرف، وأنا أرى في نفسي أني في غير شيء، وأن محمداً يظهر، فأجمعت على الخروج إلى المدينة واللحوق برسول الله ﷺ.

ولما عزمت على ذلك لقيت صفوان بن أميّة، فقلت: يا أبا وهب! أما ترى أنّ محمداً ظهر على العرب والعجم، فلو قدمنا عليه واتبعناه، فإن شرفه شرف لنا. فقال: لو لم يكن يبقى غيري، ما اتبعته أبداً. فقلت: هذا رجل، قتل أبوه وأخوه ببدر.

فلقيت عكرمة بن أبي جهل، فقلت له مثل ما قلت لصفوان، فقال مثل الذي قال صفوان. قلت: فاكتم ذكر ما قلت لك.

إسلام عثمان بن طلحة:

ثم لقيت عثمان بن طلحة الحجبي، قلت: هذا لي صديق، فأردت أن أذكر له ذلك، ثم تذكرت قتل أبيه طلحة، وعمه عثمان، وإخوته الأربع: مسافع، والجلاس، والحارث، وكلاب، فإنهم قتلوا كلهم يوم أحد. فكرهت أن أذكر له. ولما غلب عليّ الرأي قلت له: إنما نحن بمنزلة ثعلب في جحر، لو صبت فيه ذنوب[١] من ماء لخرج، ثم قلت له ما قلت لصفوان وعكرمة، فأسرع الإجابة، وواعدني، إن سبقني أقام بمحل كذا، وإن سبقته إليه انتظرته، فلم يطلع الفجر حتى التقينا، فسرنا حتى أنهينا إلى الهدّة[٢].

إسلام عمرو بن العاص:

فالتقينا عمرو بن العاص بالهدة، فقال: مرحباً بالقوم، فقلنا: وبك. قال: أين سيدكم؟ فقال خالد: لقد استقام الميسم[٣]، وتبيّن الطريق، وظهر الأمر، وأن هذا الرجل لنبي، فاذهب فأسلم، فحتى متى؟ قال عمرو: وأنا والله! ما خرجت إلا لأسلم، فاصطحبنا جميعاً.

فلما وصلوا المدينة، أناخوا ركابهم بظهر الحرة، فأخبر بهم رسول الله، فسرّ بهم، وقال لأصحابه:

رمتكم مكة بأفلاذ كبدها

قال خالد: فلبست من صالح ثيابي، ثم عمدت إلى رسول الله، فلقيت أخي الوليد، فقال: أسرع فإن رسول الله قد سرّ بقدومكم، وهو ينتظركم. فأسرعنا المشي، فاطلعت عليه، فما زال رسول الله يبتسم حتى وقفت عليه، فسلّمت عليه بالنبوّة، فردّ السلام برجه طلق. فقلت: إني أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله. قال: الحمد لله الذي هداك، كنت أرى لك عقلاً،

---

(١) (ذنوب) الذنوب: الدلو فيها ماء.

(٢) (الهدّة) موضع بين مكة والطائف. وبتخفيفها بأعلى مرّ الظهران.

(٣) (الميسم) هكذا وردت، وهي الآلة التي يوسم بها، ولكنها في طبعة (غ) المنسم وهي الطريق. وقد تكون أصح وإن تكرر المعنى في الجملة اللاحقة.

رجوت ألّا يسلمك إلا إلى خير. قلت: يا رسول الله! ادع الله يغفر لي تلك المواطن؛ التي كنت أشهدها عليك، فقال: الإسلام يجب ما كان قبله.

وتقدّم عثمان وعمرو، فأسلما. وعن عمرو بن العاص قال: قدمنا المدينة، فأنخنا بالحرّة، فلبسنا من صالح ثيابنا. ثم نودي بالعصر، فانطلقنا حتى اطلعنا عليه ﷺ وإن لوجهه تهللاً، والمسلمون حوله، قد سرّوا بإسلامنا. فتقدم خالد بن الوليد، فبايع. ثم تقدم عثمان، فبايع. ثم تقدمت. فوالله! ما هو إلا أن جلست بين يديه، وما استطعت أن أرفع طرفي حياء منه، فبايعته على أن يغفر ما تقدم من ذنبي.

فقال: إن الإسلام يجب ما كان قبله. والهجرة تجب ما كان قبلها، فوالله! ما عدل بي رسول الله وبخالد بن الوليد في أمر حزبه منذ أسلمنا. ولقد كنا عند أبي بكر بتلك المنزلة. ولقد كنت عند عمر بتلك المنزلة. وسأل رجل عمرو بن العاص: ما أبطأ بك عن الإسلام؟ وأنت أنت في عقلك. قال: كنا من قوم لهم علينا تقدّم، وكانوا ممن توازي أحلامهم الجبال، فلذنا بهم، فلما ذهبوا، صار الأمر إلينا، نظرنا، وتدبرنا، وإذا حق بيّن.

سريّـــة غالب بن عبد الله الليثي إلى بني مرّة

لما رجع غالب بن عبد الله من الكديد مؤيداً منصوراً، بعثه ﷺ إلى موضع مصاب، أصحاب بشير بن سعد الخزرجي بفدك. في صفر سنة ثمان. في مئتي رجل، وكان قبل قدوم غالب هيأ الزبير لذلك، وعقد له لواءها، فلما قدم غالب، قال للزبير: اجلس. فسار غالب إلى أن ضجّ القوم، وقد آخى بين رجاله، وأخذ عليهم عهداً ألا يعصوه، بعد أن خطبهم فقال: لا تعصوني، فإنه ﷺ قال: من أطاع أميري، فقد أطاعني، ومن عصاه فقد عصاني. وإنكم إن تعصونني، فإنكم تعصون نبيّكم. فإنه لا رأي لمن لا يطاع.

ثمّ ألف بين كلّ اثنين، وقال لهم: لا يفارق أحد منكم زميله، فإياكم أن يرجع، فأقول له: أين صاحبك؟ فيقول: لا أدري. فإن كبرت فكبروا. فلما أحاط بالقوم، كبر غالب وكبّر معه المسلمون، وجردوا السيوف. فخرج عليهم الرجال من بني مرّة، فقاتلوا ساعة، ووضع المسلمون فيهم السيف،

وكان شعارهم (أمت أمت) وقتلوا منهم خلقاً، وأصابوا نعماً، وشاء، وذرية، فساقوها إلى المدينة، فكانت عشرة من الإبل لكل واحد، وعدلها من الغنم لكل بعير.

وكان في القوم أسامة بن زيد، وتفقده غالب، فلم يره، وبعد ساعة من الليل أقبل، فلامه غالب. وقال: ألم تر إلى ما عهدته إليك؟ فقال: خرجت في إثر رجل منهم، جعل يتهكّم بي، حتى دنوت منه، وضربته بالسيف، قال: لا إله إلا الله. فقال غالب: بئس ما فعلت. ثم عادوا إلى المدينة ظافرين، بعد أن انتقموا لشهداء سرية بشير بن سعد.

سريّـــة شجاع بن وهب الأسدي إلى بني عامر من هوازن

أرسله ﷺ للإغارة عليهم، وكانوا بالسيحاء[1]، وهو ماء من ذات عرق، على ثلاثة مراحل من مكة، أرسله مع أربعة وعشرين رجلاً. في شهر ربيع الأوّل سنة ثمان. فكان يسير بالليل ويكمن بالنّهار حتى صبحهم، فأصاب منهم نعماً كثيراً وشاء، واستاق ذلك حتى قدم المدينة. وكانت غيبته خمس عشرة ليلة، وكانت سهام الواحد خمسة عشر بعيراً، وعدل البعير بعشر من الغنم.

سريّـــة كعب بن عمير الغفاري إلى ذات أطلاح

ذات أطلاح: اسم مكان، وراء وادي القرى، من البلاد الشامية. بعث إليها رسول الله ﷺ كعب بن عمير الغفاري، يدعو أهلها إلى الإسلام. وكان خروجه في خمسة عشر رجلاً، في ربيع الأول، سنة ثمان. فكانوا يسيرون ليلاً، ويكمنون نهاراً، حتى دنوا من القوم، فأبصره جاسوس لهم، فذهب وأخبرهم فجاؤوا مسرعين على الخيل، فدعاهم المسلمون إلى الإسلام، فلم يستجيبوا لهم، ورموهم بالنّبال، فدافع الصحابة على أنفسهم، وقاتلوهم

---

(١) جاء في (اللسان): (سيح) ماء لبني حسّان بن عوف. وورد في طبعة (غ) «بالسيحاء».

أشد قتال، فقتلوا جميعاً. ولم ينج منهم إلا أميرهم كعب. وكان سقط بين القتلى، ولما جنّ عليه الليل، تحامل إلى المدينة. فأخبر بخبر السريّة، فشق ذلك على رسول الله، فهمّ بالبعث إليهم، فلما بلغهم ذلك، تحوّلوا من منزلهم إلى ناحية أخرى.

اعتداء أمير من الغساسنة على رسول رسول الله إلى أمير بصرى

أوفد رسول الله ﷺ الحارث بن عمير الأزدي، بكتاب إلى الحارث بن شمّر الغساني أمير بصرى، يدعوه فيه إلى الإسلام. فما نزل بمؤتة حتى تعرّض له شرحبيل بن عمرو الغساني، وهو من الأمراء المعينين من قبل الرّوم، فقال: أين تريد؟ فقال: الشام. فقال: لعلك من رسل محمد؟! قال: نعم. فأمر به فأوثق رباطاً، ثم قدمه فضرب عنقه. ولم يقتل لرسول الله رسول غيره.

حملة رسول الله على العرب المستدجنين للروم

لما بلغ رسول الله ذلك اشتد الأمر عليه، فجهّز جيشاً من الصحابة، كان مؤلفاً من ثلاثة آلاف مقاتل لمقاتلة هؤلاء العرب المستدجنين، الذين يتهالكون في سبيل تأييد سطوة الروم عليهم، وأمر عليهم زيد بن حارثة، وقال: إن أصيب زيد، فصاحب الأمر من بعده جعفر بن أبي طالب، وإن أصيب جعفر، فالأمر إلى عبد الله بن رواحة. فإن قتل عبد الله، فليرتض المسلمون رجلاً من بينهم، يجعلونه أمير.

وعقد رسول الله لواء أبيض، دفعه لزيد بن حارثة، وأوصاهم: أن يأتوا أين قتل الحارث بن عمير، وأن يدعوا من هناك للإسلام، فإن أجابوا، وإلا استعانوا عليهم بالله، وقاتلوهم، ونهاهم أن يأتوا مؤتة[1]. وكان خروجهم

---

(١) كذلك وردت في طبعة (غ) ولعلّ فيها خطأ؛ لأنه لا معنى للنهي، وهم متوجهون إلى مؤتة. ولم ترد عند (ابن هشام) ولا عند (الطبري). المحقق.

في جمادى الأولى سنة ثمان، فأسرع العساكر بالخروج، وعسكروا بالجرف، حوهو موضع على ثلاثة أميال من المدينة لجهة الشام. وخرج رسول الله متبعاً لهم، حتى بلغ ثنية الوداع. فوقف وودعهم.

وصيّة رسول الله للجيش
أن يعاملوا أعداءهم بالحقوق الإنسانية

لما ودّع رسول الله الجيش في ثنيّة الوداع، خطب فيهم فقال:

أوصيكم بتقوى الله عز وجل، وبمن معكم من المسلمين خيراً. اغزوا باسم الله، فقاتلوا عدو الله، وعدوكم بالشام. وستجدون فيها رجالاً في الصوامع معتزلين، فلا تتعرضوا لهم. ولا تقتلوا امرأة، ولا صغيراً، ولا بصيراً فانياً، ولا تقطعوا شجرة، ولا تهدموا بناء.

ثمّ رجع رسول الله إلى المدينة، ومضى الجيش في سبيله. وبلغ العدوّ خبر سيرهم إليه فتجهز لهم شرحبيل بن عمرو الغساني، فجمع للقائهم مئة ألف. وقيل: أكثر من ذلك. وكان خليطاً من الروم، والعرب المتنصّرة: بكر، وجذام، ولخم، وقيس، وبهراء. ومعهم من الخيل والسلاح ما ليس للمسلمين.

الحرب

ولما نزل المسلمون وادي القرى، سير لهم شرحبيل بن عمرو الغسّاني أخاه سدوس في مقدّمة صغيرة، فقاتلوا المسلمين، وقتل سدوس فيمن قتل من أصحابه، وانهزم الباقون.

ونزل المسلمون معان، وبلغهم كثرة ما جمع لهم العدوّ، فأقاموا هناك ليلتين، فقال المسلمون: نكتب إلى رسول الله، فنخبره الخبر، فإمّا أن يمدّنا بالرجال، وإما أن يأمرنا بأمر نمضي له. فشجعهم عبد الله بن رواحة على المضي في جهادهم، وقال:

يا قوم! إن التي تكرهون، للتي خرجتم إياها تطلبون: الشهادة، ونحن

ما نقاتل الناس بعدد، ولا قوة، ولا كثرة، وما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله تعالى به. فإنما هي إحدى الحسنيين، إما ظهور، وإما شهادة.

فقال العساكر: صدق والله! ابن رواحة، فمضوا للقتال مخلصين جهادهم لله، فلقيتهم جموع الأعداء من الروم والعرب. فانحازالمسلمون إلى مؤتة، فالتقى الجمعان عندها، واقتتلوا قتالاً شديداً. وقاتل زيد بن حارثة قتال الأبطال حتى استشهد، رضي الله عنه، طعناً بالرماح، فأخذ الراية بدله جعفر بن أبي طالب، فقاتل بها وهو على فرسه، فألحمه[1] القتال، فعقرها وقاتل حتى قتل رضي الله عنه، وعمره تسع وثلاثون سنة. وكان أكبر من علي بعشر سنين، وقد قطعت يداه، ووجد فيه بضع وتسعون جراحة، بين ضربة سيف، وطعنة برمح، كلها في حال الإقبال. ضربه رومي بالسيف فقده نصفين. ثم أخذ اللواء عبد الله بن رواحة رضي الله عنه، وتقدم بها وهو على فرسه، ثم نزل ليقاتل راجلاً، فأتاه ابن عمّ له بعرق من لحم، فقال: شدّ بهذا صلبك. فإنك قد لقيت أيامك هذه ما لقيت. فأخذه من يده، ثم انتهس منه نهسة، ثم سمع الحطة[2] في النّاس، فقال لنفسه: وأنت في الدنيا؟! ثم ألقى اللحم من يده، وأخذ سيفه، فقاتل، حتّى قتل. دفن الثلاثة في قبر واحد، زيد وجعفر وعبد الله بن رواحة، رضي الله عنهم. وحينئذ طمع الأعداء في المسلمين فأعادوا الكرة عليهم، فتقاتلوا حتى تداخلت الصفوف في بعضها، وكان الصدام عنيفاً، وأراد بعض المسلمين الانهزام، فجعل عقبة بن عامر يقول: يا قوم! يقتل الإنسان مقبلاً أحسن من أن يقتل مدبراً. ثم تقدّم ثابت بن أحزم العجلاني البلوي، حليف الأنصار، وكان من أهل بدر، وقال: يا معشر المسلمين! اصطلحوا على رجل منكم: قالوا: أنت. قال:

---

(١) (ألحمه) اشتد عليه القتال، وأحاط به دون مخرج.

(٢) (الحطة) قيل: لا إله إلا الله، أو كل كلام يستغفر به الإنسان عن ذنوبه. ومنه قوله تعالى: ﴿وقولوا حطة، نغفر لكم خطاياكم﴾ وقد جاءت اللفظة في طبعة (غ) هكذا: (الحطمة) وفسرت بـ(زحام الناس) وكذلك وردت عند الطبري). وأظن المعنى الأول أصح. المحقق.

ما أنا بفاعل. فاصطلح الناس على خالد بن الوليد. فدفع ثابت بن أرقم الراية إلى خالد، وقال: أنت أعلم بالقتال مني. فقال خالد: بل أنت أحق بها، فأصرّ عليه ثابت، ونادى في الجيش: يا معشر المسلمين! قلّدوا خالداً، فاجتمعوا عليه، وسلّموه اللواء.

وروى ابن سعد: أن خالداً لما أخذ اللواء حمل على القوم، فهزمهم أسوأ هزيمة بسبب ما ابتكره في الجيش من التراتيب، فإنه في صبيحة الليلة التي تقلد فيها الإمارة، أجرى تغييرات في الجيش، جعل مقدّمة الجيش ساقه، وساقه مقدمة، وميمنته ميسرة، وميسرته ميمنة، فظن الأعداء بذلك أنه وصلت نجدة للمسلمين، فرعبوا وانهزموا، فقتلهم المسلمون قتلة عظيمة، وأشهروا عليهم انتصاراً مبيناً.

وكانت أيام القتال سبعة، لم ير لها مثيل. وروى البخاري عن خالد، قال: اندقت في يده يوم مؤتة تسعة أسياف، وما ثبت في يدي إلا صفيحة يمانية. ولم يقتل من المسلمين عدا الأمراء، إلا اثنا عشر رجلاً، وبعث خالد بيعلى بن أمية بشيراً بالنصر إلى المدينة.

وروى كتاب السيرة: أنه لما وقف رسول الله على أخبار الواقعة، جمع المسلمين في المدينة، وأرسل من ينادي فيهم: الصلاة جامعة، ثم صعد المنبر، وعيناه تذرفان دموعاً، فقال في خطابه:

أيها الناس! باب خير، باب خير، باب خير. ثلاثاً. أخبركم عن جيشكم الغازي أنهم انطلقوا فلقوا العدوّ، فقتل زيد رضي الله تعالى عنه شهيداً، فاستغفروا له. ثم أخذ الراية جعفر رضي الله عنه، فشدّ على القوم حتى قتل شهيدا، فاستغفروا له. ثم أخذ الراية عبد الله بن رواحة رضي الله عنه، وأثبت قدميه، حتّى قتل شهيداً، فاستغفروا له. ثم أخذ اللواء خالد بن الوليد، ولم يكن من الأمراء، وهو أمير نفسه، ولكنه سيف من سيوف الله فآب بنصره.

أمّا المنهزمون في الموقعة، فإنه لما قتل عبد الله بن رواحة، رضي الله عنه، تركوا مواقعهم وانقلبوا راجعين إلى المدينة، فلما علم بمقدمهم المسلمون،

جعلوا يحثون في وجوههم التراب ويقولون لهم: يا فرارون! فررتم في سبيل الله. فقال رسول الله عنهم: بل هم الكرارون.

وفي رواية: أنهم قالوا لرسول الله: نحن الفارون؟ فقال لهم: بل أنتم العكارون «الكرارون»[1] وقد لقوا من أهل المدينة شراً، حتى إن الرجل يجيء إلى أهل بيته، يدق عليهم بابه، فيأبون يفتحون له. ويقولون: هل تقدمت مع أصحابك فقتلت؟! حتى إن نفراً من الصحابة بلسوا[2] في بيوتهم استحياء، كلما صرخ واحد منهم، صاحوا به. وصار رسول الله يرسل لهم رجلاً رجلاً، يؤنبهم.

هل أنتم تاركون لي أمرائي؟

وقد مدح رسول الله خالداً لما رجع، وأثنى عليه. وحكى الرواة: أن رجلاً من المسلمين، قتل جندياً من كبار الروم، فأراد أخذ سلبه، فمنعه خالد رضي الله عنه، فكلمه عوف بن مالك، في دفع ذلك الرجل، قبل قدومهم على رسول الله، فأبى خالد، فأطلق عوف لسانه في خالد. ولما بلغ خبر ذلك لرسول الله، قال لخالد: لا تعطه. وقال لمن حضره معرضاً بعوف: هل أنتم تاركون لي أمرائي؟

وعن أسماء بنت عميس، زوج جعفر، قالت: دخل رسول الله ﷺ لما وافته أخبار المعركة، مما أصاب جعفر وأصحابه. قال: ائتني ببني جعفر. فآتيته بهم، فشمهم، فذرفت عيناه وبكى، حتى نقطت لحيته. فقلت: يا رسول الله! بأبي أنت وأمي ما يبكيك؟ أبلغك عن جعفر وأصحابه شيء؟ قال: نعم، أصيبوا هذا اليوم. فقمت أصيح، واجتمع علي النساء، وجعل

---

(١) (عكر) كر وانصرف. و(العكار) الكرّار العطاف. و(اعتكروا). اختلطوا في الحرب، والعسكر: رجع بعضه على بعض. المحقق.

(٢) (بلس) الصحيح: (أبلس) سكت وتحيّر. و(المبلس) الساكت على ما في نفسه، المتحيّر. ومنه قوله تعالى: ﴿ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ ﴾ سورة (الروم) الآية: (٤٩). المحقق.

رسول الله يقول: يا أسماء! لا تقولي هجراً، ولا تضربي خداً.

وجاء رجل إليه، فقال: يا رسول الله! إن النساء عيين[1] وفتنّ. فقال: اذهب، فأسكتهنّ فإن أبين فاحث في أفواههن التراب. ثم دعا فقال: اللهم! قد قدم جعفر إلى أحسن الثواب، فاخلفه في ذريته، بأحسن ما خلفت أحداً من عبادك في ذريته. وخرج رسول الله إلى أهله، وقال: لا تغفلوا عن أهل جعفر، فاصنعوا لهم طعاماً، فإنهم قد شغلوا بأمر صاحبهم. ودخل رسول الله على فاطمة، وهي تقول: واعماه! فقال: على مثل جعفر فلتبك البواكي.

تأديب قضاعة لما همت بغزو المدينة

بلغ رسول الله أن جمعاً من قضاعة، يتآمرون على غزو المدينة، فندب عمرو بن العاص، وذلك بعد إسلامه بسنة لتأديبهم، وعقد له لواء أبيض، وجعل معه راية سوداء، وبعثه في عصابة[2] من أكابر المهاجرين والأنصار، ومعهم ثلاثون فرساً، وأمره أن يستعين بمن يمر عليهم من المسلمين. وذلك في جمادى الآخرة، سنة ثمان. فكان يسير بالليل، ويكمن بالنهار، حتى قرب إلى مواطن القوم، وكانت بذات السلاسل، وراء وادي القرى، فبلغه أن لهم جمعاً كثيراً، فبعث رافع بن كعب الجهني إلى رسول الله، يعلمه بذلك، ويستنجده. فأردفه بأبي عبيدة عامر بن الجراح في مئتين، كان فيهم أبو بكر وعمر، وأمره أن يكونا جميعاً، ولا يختلفان، ولما اجتمعا، وحضرت الصلاة، أراد أبو عبيدة أن يؤم الناس، فقال له عمرو: إنما قدمت علي مدداً، وأنا الأمير. فقال جمع من الصحابة كانوا مع أبي عبيدة: أنت أمير أصحابك، وهو أمير أصحابه. فقال عمرو: أنتم مدد لنا. فلما رأى أبو عبيدة الاختلاف، وكان طيب القلب، لين العريكة. قال لعمرو: لتعلم أن آخر

---

(١) هكذا وردت (عيين) وهي في طبعة (غ): «عنّيننا وفتّننا» و(عيي) في الأمر: أفلت من يده، وفقد السيطرة عليه. أي: بالغن في النواح على شهداء غزوة مؤتة. المحقق.

(٢) (العصابة) و(العصبة): من الرجال والخيل والطير ما بين العشرة إلى الأربعين. القاموس.

شيء، عهد إلي رسول الله أن قال: إن قدمت على صاحبك، فتطاوعا ولا تختلفا. وإنك والله! إن عصيتني لأطيعنك. قال: فإني الأمير عليك. قال: فدونك. فتولى عمرو الأمر، وكان يقود الجيش، ويصلي بالناس.

ولما التقى المسلمون بالمشركين، حملوا عليهم فتفرّقوا، وأراد المسلمون أن يتبعوهم، فصدهم عمرو. ولما هجم الليل، وأراد المسلمون أن يوقدوا ناراً ليصطلوا عليها، منعهم عمرو. وقال: من أوقد ناراً لأقذفنه فيها، فشق عليهم ذلك، لما فيه من شدّة البرد. فكلمه في ذلك بعض سراة المهاجرين، فغالظه عمرو في القول، وقال له: لقد أمرت، وعليك أن تسمع لي وتطيع قال: نعم. قال عمرو: فافعل.

وبلغ ذلك عمر بن الخطاب، فغضب، وهم أن يأتيه، فمنعه أبو بكر وقال: إن رسول الله لم يستعمله إلا لعلمه بالحرب. فسكت. وبعد أن انهزم المشركون وتشتتوا، بعث عوف بن مالك مبشراً إلى المدينة بقدوم السريّة وسلامتها. قال عوف: فجئته ﷺ وهو يصلي في بيته. فقلت: السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته. فقال عوف بن مالك؟ فقلت: نعم بأبي وأمي أنت يا رسول الله! قال: أخبرني. فأخبرته بما كان من سيرنا وما كان بين أبي عبيدة فينا وعمرو، ومطاوعة أبي عبيدة لعمرو. فقال: يرحم الله أبا عبيدة. وأخبرته بمنع عمرو للمسلمين من اتباع العدو، ومن إيقاد النار. فسكت. ولما قدم عمرو سأله عن ذلك ؟ فقال: كرهت أن يوقدوا ناراً، فيرى عدوهم قلتهم فيطمع فيهم، وكرهت أن يتبعوهم فيكون لهم مدد، فيعطفون عليهم. فحمد رسول الله عمله.

سرية أبي عبيدة عامر بن الجراح بن هلال الفهري لتأديب جهينة

سير رسول الله أبا عبيدة بن الجراح في سرية، بها ثلاثمئة رجل من المهاجرين والأنصار، فيهم عمر بن الخطاب، إلى حي من جهينة على ساحل البحر. وقد سماها البخاري: غزوة سيف البحر، وكانت في رجب، سنة

ثمان. ومشهورة بسرية (الخبط). والسبب في هذه التسمية: أن رجال السرية جاءوا، بعد أن استنفدوا زادهم من التمر. ولما جاءوا أكلوا الخبط. فقد كانوا يضربون الخبط، وهو ورق السلم بعصيهم، ويبلونه بالماء، فيأكلونه[1].

ولما أنهكهم الجوع، ابتاع لهم قيس بن سعد بن عبادة جزوراً ونحرها لهم، فأكلوها. وفي بعض الروايات: أنهم أصابهم جوع شديد. ولما رأى قيس بن سعد بن عبادة ما بالمسلمين من جهد الجوع، وقال قائل منهم: والله لو لقينا عدواً، ما كان منا حركة إليه. لما بالناس من جهد. قال: من يشتري مني تمراً، أوفيه له بالمدينة بجزور، يوفها إلي هنا؟ فقال له رجل من أهل الساحل: أنا أفعل. ولكن والله! ما أعرفك لمن أنت؟ قال: أنا قيس بن سعد بن عبادة. فقال الرجل: ما أعرفني بسعد! إن بيني وبين سعد خلّة، سيد أهل يثرب. فاشترى خمس جزائر، كل جزور بوسق من تمر، «والوسق ستون صاعاً» فقال الرجل: أشهد لي. فقال: أشهد من تحب. فأشهد نفراً من المهاجرين والأنصار، من جملتهم عمر بن الخطاب. وقيل: إن عمر امتنع من أن يشهد، وقال: هذا يُدان، ولا مال له؟! إنما المال لأبيه. فقال الرجل: والله ما كان بيعها لينحي «لا يوفي» بابنه ما التزمه. فكان بين قيس وعمر كلام، حتى أغلظ له قيس فيه. وأخذ قيس الجزر، فنحر لهم منها ثلاثة، في ثلاثة أيام. وأراد أن ينحر لهم في اليوم الرابع، فنهاه أبو عبيدة. وقال له: عزمت عليك ألا تنحر، تريد أن تخفر ذمتك؟ لا يوفى لك بما التزمت! ولا مال لك! فقال قيس: أترى أبا ثابت «يعني والده» يقضي ديون الناس، ويطعم في المجاعة، ولا يقضي ديناً، استدنته لقوم مجاهدين في سبيل الله؟

وروى البخاري: أن قيساً نحر لهم تسع جزائر، كل يوم ثلاثاً. ثم نهاه أبو عبيدة. ثم صاروا يأكلون من سمك البحر. فقد روى كتاب السيرة: أن البحر ألقى لهم سمكة هائلة، يسمّونها العنبر. قالوا في وصفها: أن أبا عبيدة

---

(١) صاحب (القاموس) أضاف تفسيراً آخر لهذه التسمية، فقال: و(الخبط) موضع لجهينة على خمسة أميال من المدينة. ومنه سرية الخبط من سراياه ﷺ إلى حي من جهينة، أو لأنهم جاءوا حتى أكلوا الخبط.

نصب لهم ضلعاً من أضلاعها، ومر تحته قيس بن سعد، على بعير. وكان أطول رجل في القوم، وبعيره أطول بعير، فمرّ تحته، ولم يطأطىء رأسه. فأكل العسكر منها أياماً، نحو الشهر، وقد صحبوا من لحمها إلى المدينة.

وقد بلغ سعد بن عبادة، ما حصل للمسلمين من المجاعة، قبل عودتهم من وجههم قال: إن يكن قيس كما أعهد، فلينحر للقوم. فلما قدم قيس، قال له سعد: ما صنعت في مجاعة القوم؟ قال: نحرت. قال: أصبت. ثم كرر السؤال ثلاثاً، وقيس يجيب: نحرت. وفي الرابعة. قال: ثم ماذا؟ قال قيس: نهيت. قال سعد: ومن نهاك؟ قال: أميري أبو عبيدة. قال: ولم؟ قال: زعم أنه لا مال لي، إنما المال لأبيك. فقلت له: أبي يقضي عن الأباعد، ويحمل الكل، ويطعم في المجاعة، ولا يصنع هذا لي؟! فلان لموافقتي، فأبى عليه عمر بن الخطاب إلا التصميم على المنع. فجاء سعد إلى رسول الله ﷺ وقال: من عذيري من ابن الخطاب؟ يبخل على ابني! فقال سعد لولده قيس: لك أربع حوائط: أدناها ما يتحصل منه خمسون وسقاً.

ثم إن قيساً وفى الرجل، صاحب الجزر، وحمله وكساه. فبلغ رسول الله، ما فعل قيس، فقال: إنه في بيت جود، إن الجود لمن تسمية ذلك البيت(١).

وقد قضت هذه السريّة في وجهها أكثر من نصف شهر، ثم عادت إلى المدينة، ولم تلق كيداً.

سرية أبي قتادة إلى خضرة محارب من نجد

واسم أبي قتادة: الحارث بن ربعي الأنصاري السلمي، بعثه ﷺ في خمسة

---

(١) روى كتاب السيرة النبوية: لم يكن في الأوس، والخزرج، مطعمون يتوالدون في بيت واحد، إلا قيس، وأبوه سعد، وأبوه عبادة، وأبوه دليم. وكان هذا يأمر شخصاً، يقف كل يوم على أطم ينادي: من يريد الشحم واللحم؟ فعليه بدار أبي دليم.
وكان أهل الثروة من الصحابة، إذا أمسى المساء، يقصدون أهل الصفة، فينطلق أحدهم مع الرجل، والرجلين، والجماعة. وأما سعد فينطلق بالثمانين، يطعمهم في بيته. (المؤلف).

عشر رجلاً. في شعبان سنة ثمان. وأمره أن يشنّ الغارة على غطفان بأرض محارب. فكانوا يسيرون بالليل، ويكمنون بالنهار حتّى بلغوا خضرة. فأكبوا على القوم وهم غارون، فقتل رجال منهم، فقتل المسلمون من أشرف منهم، ونجا الباقون.

وسبى أبو قتادة واستاق النعم، فكانت الإبل مئتي بعير، والغنم ألفي شاة. وعن ابن عمر قال: كنت في هذه السرية، فكانت سهامنا اثني عشر بعيراً ونفلنا بعيراً، بعيراً، فرجع كل واحد منّا يسوق ثلاثة عشر بعيراً. وعادت السرية ظافرة منصورة، بعد مغيب خمس عشرة ليلة.

وكان في السبي جوارٍ، وأطفال، وأربع نسوة. فيهن جارية وضيئة، كأنها ظبي، وقعت في سهم أبي قتادة. فجاء محمية بن جزء[1] الزبيدي إلى رسول الله فقال: إنّ أبا قتادة أصاب في وجهه هذا جارية وضيئة، وقد كنت وعدتني جارية، من أول فيء يفيء الله به عليك. فأرسل ﷺ إلى أبي قتادة، يستوهبه الجارية. فوهبها له. فدفعها إلى محمية بن جزء الزبيدي.

سريــة أبي قتادة إلى إضم

وهو اسم لوادٍ، على مسافة ثلاثة برد من المدينة. وكان خروجها في أول شهر رمضان، سنة ثمان. وهي مؤلفة من ثمانية أنفار. والسبب في إرسالها: أن أهل مكة لما نقضوا العهد، كما سنبينه، وهَمَّ رسول الله أن يغزوهم، بعث هذه السرية إلى إضم، ليظن جواسيس قريش، أن في تلك الجهة قلق، وأن رسول الله يريد إسكاته فلا ينتبهون إلى تعبئته وتجهيزاته التي كان يهيئها إلى فتح مكة. وكان يدعو الله في هذه الأثناء، ويقول في دعائه: اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش، حتى نبغتها في بلادها. وقد استجاب له. فخرج أبو قتادة ومن معه، فلقوا في طريقهم عامر بن الأضبط الأشجعي. فحياهم بتحية الإسلام «السلام عليكم وأظهر الشهادة» فقتله محكم بن جثامة.

وحكى عبد الله بن أبي حدرد كما في رواية الطبراني، قال: بعثنا

---

(١) ضبطه (ابن هشام): (محمية بن الجزء، من بني زبيد).

رسول الله إلى إضم، في نفر من المسلمين فيهم أبو قتادة، ومحلم بن جثامة بن قيس، فخرجنا حتى كنا ببطن إضم، فمر بنا عامر بن الأضبط على قعود[1] ومعه متبع له، ووطب من الشن، فسلم علينا بتحية الإسلام، فأمسكنا عنه. وحمل عليه محلم فقتله، لشيء كان بينهما. وأخذ بعيره ومتبعه. فلما قدمنا على رسول الله وأخبرناه الخبر، فتلا علينا الآية:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَـٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾[2].

وقال لمحكم: أقتلته بعد ما قال: آمنت بالله؟ فجلس محلم بين يدي رسول الله ليستغفر له، وقال: إنما قالها متعوذاً. قال: هلا شققت عن قلبه، لتعلم أصادق هو أم كاذب؟ قال: وهل قلبه إلا مضغة من لحم؟ قال ﷺ: إنما كان ينبيء عنه لسانه، لا ما في قلبه تعلم، ولا لسانه صدقت؟ فقال: استغفر لي يا رسول الله! قال: لا غفر الله لك.

وكان قوله زجراً وتهويلاً، كيلا يتهاون الناس بقتل المسلمين. فقام محلم من بين يديه، وهو يتلقى دموعه ببرديه.

وذكر ابن إسحاق من خبر محكم[3] أن النبي ﷺ صلى بحنين، ثم عمد إلى ظل شجرة، فجلس تحتها، فقام إليه الأقرع بن حابس وعيينة بن حصن يختصمان في عامر بن الأضبط، عيينة يطلب دمه ويقول لرسول الله: والله!

---

(١) (القعود) بفتح القاف: من الإبل، ما يقتعد لكل حاجة.

(٢) سورة (النساء) الآية: (٩٤) أوردها الشيخ برواية (حفص) في (السلام)، وهي في رواية (ورش): (السلم). وتتمة الآية الكريمة ﴿ فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾.

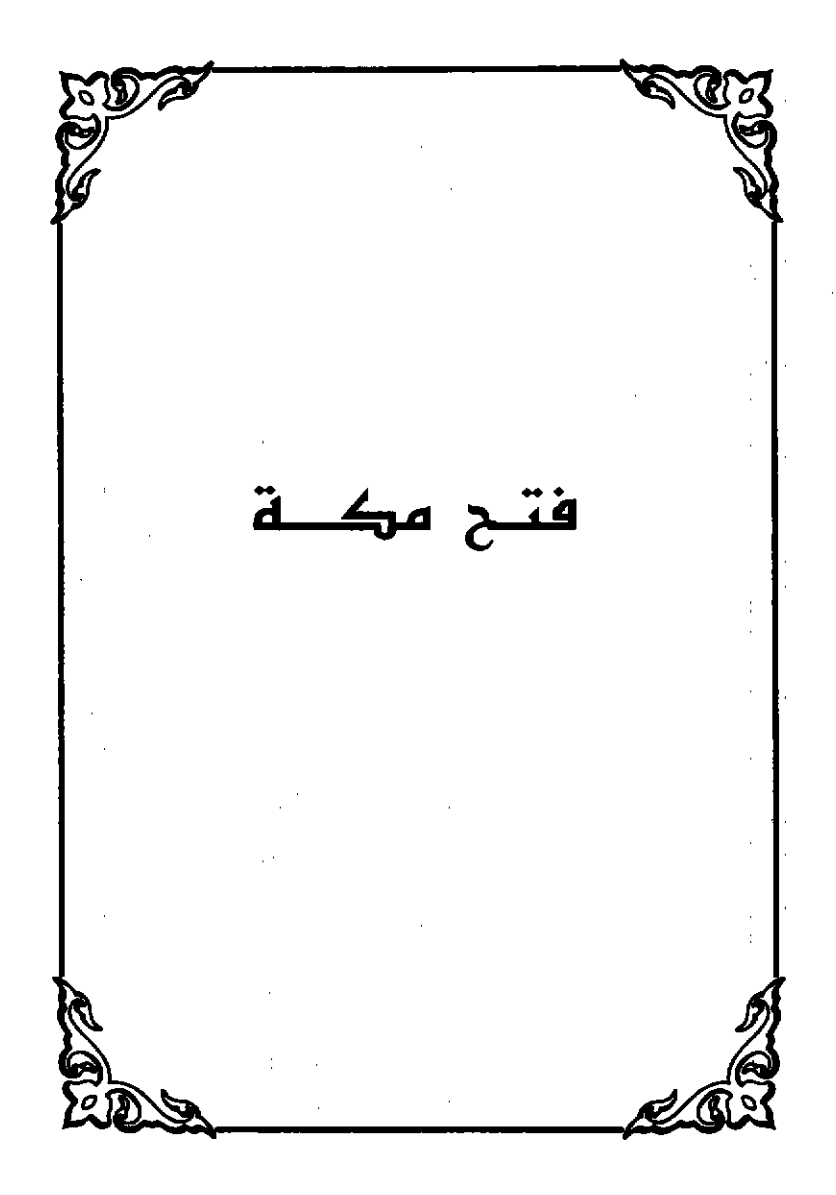
(٣) (محكم) يكتبه الشيخ مرّه بالكاف وأخرى باللام. والصحيح: (محلم بن جثامة بن قيس الليثي). واختلف المفسرون وأصحاب السير، والرواة في القاتل والمقتول. وفي السرية ووقائعها. وما أضافه الشيخ في نهاية الواقعة، لم أجده في تاريخ الطبري) ولا في (سيرة ابن هشام) أو التفاسير التي بين يدي. وقال (الثعالبي) الجد، في (الجواهر الحسّان): «ولا خلاف، أنّ الذي لفظته الأرض، حين مات هو محلم بن جثامة». المحقق.

إني لأدعه، حتى أذيق نساءه من الحر، مثل ما أذاق نسائي. والأقرع يدافع عن محلم. وارتفعت الأصوات وكثرت الخصومة، ورسول الله يقول لعيينة، ومن معه من غطفان: بل تأخذون الدية، خمسين في سفرنا هذا، وخمسين إذا رجعنا. وهو يأبى عليه. فلم يزل به حتى اتفقا على الدية. ثم قالوا: إن محلماً يستغفر له رسول الله.

فقام محلم، وهو رجل طويل، أدم[1]، عليه حلّة، كان قد تهيأ للقتل فيها. حتى جلس بين يدي رسول الله، وعيناه تدمعان. فقال له: مااسمك؟ قال: أنا محلم، قد فعلت الذي بلغك، وأنا أتوب إلى الله، واستغفر لي. فرفع رسول الله يديه، ثم قال: اللهم! لا تغفر لمحلم. قالها ثلاثاً، بصوت عال.

* * *

(١) (أدم): أسمر البشرة.



فتح مكة

إنجاد قريش لنفاتة على خزاعة

أحلاف رسول الله ونقض صلح الحديبية

وسبب ذلك، كما جاء في (الإمتاع): أن رجلاً من بني بكر، هجا رسول الله، وصار يتغنى بهجائه. فسمعه غلام من خزاعة، فضربه، فشجه. فثار الشر بين الحيين وعادوا إلى ما كان بينهم من ترات قديمة. فطلب بنو نفاتة من أشراف قريش، أن يسعفوهم بالرجال والسلاح على خزاعة. فأمدوهم بذلك. فبيتوا خزاعة، وباغتوهم وهم آمنون على ماء لهم، يقال له (الوتير)[1]، وهاجموهم، وكان معهم وجوه من قريش، مستخفين. منهم صفوان بن أمية، وحويطب بن عبد العزى، وعكرمة بن أبي جهل، وشيبة بن عثمان، وسهيل بن عمرو. وما يزالون يثخنونهم حتى قتلوا منهم ثلاثاً وعشرين، وأدخلوهم دار بديل بن ورقاء الخزاعي بمكة، ودار رافع، وانتهبوهم في عماية الصبح. قال سهيل بن عمرو لنوفل بن معاوية البكري: قد حضرت تريد قتل من بقي، وهذا ما لا نطاوعك عليه. فتركهم ودخلت رؤساء قريش منازلهم. وسواء أتشاوروا في ذلك مع أبي سفيان أم لم يتشاوروا؟ ووافقهم على نقض الصلح، أو لم يوافقهم؟ فقد كان هذا العدوان الصارخ على خزاعة نقضاً للصلح، كما صرح به أبو سفيان نفسه. فقد أخبروا، أنه جاء الحارث بن هشام إلى أبي سفيان وأخبره بالواقعة فقال: هذا أمر لم أشهده، ولم أغب عنه، وإنه لشر. والله! ليغزونا محمد.

احتجاج خزاعة

فأرسلت خزاعة وفداً منها إلى رسول الله، وكان مؤلفاً من أربعين رجلاً، تحت رئاسة سيدهم: عمرو بن سالم الخزاعي. ومن جملتهم بديل بن ورقاء الخزاعي، حتى قدموا المدينة فدخلوا المسجد، ووقف عمرو بن سالم على

---

(١) (الوتير): ماء بأسفل مكة.

رسول الله وهو جالس، ومعه أكابر الصحابة، وصرخ بالأبيات التالية، وهي أبلغ ما قيل في الاحتجاج:

يـا رب إني نـاشـد محمـدا ... حلـف أبينـا وأبيـه الأتلـدا
إن قـريشـاً أخلفـوك المـوعـدا ... ونقضـوا ميثـاقـك المـؤكـدا
هـم بيتـونـا بـالـوتير صيـدا ... وقتلـونـا ركعـاً وسجـدا

فأجاب رسول الله ﷺ على الفور: نصرت يا عمرو بن سالم! ودمعت عيناه. وقال: لا نصرت إن لم أنصر بني كعب «خزاعة» مما أنصر به نفسي، وأهل بيتي، خزاعة مني، وأنا منهم.

وحدثت عائشة، قالت: قبل قدوم عمرو بن سالم، أن رسول الله صبيحة الواقعة قال لها: لقد حدث في خزاعة حدث. قالت: فقلت: يا رسول الله! أترى قريشاً يجترؤون على نقض العهد الذي بينك وبينهم؟ فقال: ينقضون العهد لأمر يريده الله. فقلت: لخير أو لشر؟ قال: لخير. فأمرها أن تتجهز للسفر، وأمرها ألا تعلم أحداً بذلك. فدخل عليها أبو بكر، قبل أن يخبره رسول الله بذلك، أو يستشيره فقال: يا بنية! ما هذا الجهاز؟ فقالت: ما أدري. وقيل: أعلمته، فقال: انتقضت الهدنة بيننا.

وعن ميمونة أم المؤمنين: أن رسول الله، بات عندها ليلة، فقام يتوضأ للصلاة. فسمعته يقول: لبيك، لبيك، لبيك، نصرت، نصرت، نصرت. قالت: كأنك تكلم إنساناً، فهل كان معك أحد؟ قال: هذا راجز بني كعب، يزعم أن قريشاً أعانت عليهم بكر بن وائل. قالت ميمونة: فأقمنا ثلاثاً. ثم صلى ﷺ الصبح، فسمعت الراجز يقول: يا رب إني ناشد محمدا.. الأبيات.

وسأل رسول الله عمرو بن سالم وأصحابه: فيمن تهمتكم؟ قالوا: بنو بكر. قال: كلها؟ قالوا: لا. ولكن بنو نفاثة. قال: هذا بطن من بكر. قالوا: وكان معهم نفر من قريش.

فقال رسول الله للصحابة: كأنكم بأبي سفيان، قد جاءكم ليشد العقد، ويزيد المدة، وهو راجع بسخطه. ثم أمر أولئك الركب من خزاعة بالرجوع إلى مواطنهم، وأن يتفرقوا في الأودية. فرجعو وتفرّقوا، وذهبت فرقة إلى

الساحل، وفرقة لزمت الطريق. إخفاء لمجيئهم إلى المدينة.

حيرة قريش ومداولتها في الأمر

أما ما كان من حال قريش بعد الواقعة، فقد ندموا على ما صنعوا. وجاء الحارث بن هشام وعبد الله بن أبي ربيعة إلى صفوان، ومن كان معه، فلامهم على ما صنعوا. فاجتمع إليه أكابر قريش للمداولة في الأمر، فقال لهم الحارث: إن بينكم وبين محمد مدة، وهذا نقض لها. وقالت قريش: إن محمداً غازينا. فقال عبد الله بن أبي سرح: لا يغزوكم حتى يخيركم في خصال، كلها أهون من غزوة. يرسل إليكم: دوا قتلى خزاعة، وهم ثلاثة وعشرون قتيلاً، أو تبرؤوا من حلف بكر بن وائل، أو ينبذ إليكم على سواء. فقال سهيل بن عمرو: نبرأ من حلف بكر أسهل. وقال شيبة بن عثمان: ندي القتلى أهون. وقال قرطة بن عمرو: لا ندي، ولا نبرأ، لكننا ننبذ إليه على سواء. قال أبو سفيان: ليس هذا بشيء، وما الرأي الأصوب إلا جحد أن قريشاً دخلت في نفض عهد، أو قطع مدة، وأن ما وقع كان بغير رضا منا، ولا مشورة، فما علينا؟ قالوا: هذا الرأي، ولا رأي غيره. وكان النقض من قريش في شعبان، سنة ثمان.

خروج أبي سفيان في تجديد العهد وتمديد المدة

فقالت قريش لأبي سفيان: ما لهذا الأمر سواك، اخرج إلى محمد، فكلمه في تجديد العهد، وزيادة المدة. فخرج أبو سفيان، هو ومولى له، على راحلتين، فأسرعا السير، وهما يظنان أنهما أول من خرج بعد الواقعة من مكة إلى المدينة. ولما كانا بعسفان لقيا بديل بن ورقاء فيمن معه من خزاعة، فأشفق أبو سفيان أن يكون بديل عائداً من المدينة، فتجاهل الأمر، وقال: أخبرونا عن يثرب من عهدكم بها، فقالوا: لا علم لنا بها. إنما كنا في الساحل، نصلح بين الناس في قتلى. ثم صبر أبو سفيان، حتى ذهب القوم، فجاء منازلهم، ففتت أبعار إبلهم، فوجد فيها النوى. فقال: أحلف بالله، لقد جاء القوم محمداً.

فلما قدم أبو سفيان المدينة، دخل على بنته أم حبيبة، زوج النبي ﷺ،

ولما أراد الجلوس على فراش رسول الله، طوته عنه. فقال: يا بنية! أرغبت بي عن هذا الفراش؟ أم رغبت به عني؟ قالت: بل هو فراش رسول الله، وأنت مشرك غير طاهر. قال: والله لقد أصابك بعدي شر! فقالت: بل هداني الله تعالى إلى الإسلام، وأنت تعبد حجراً لا يسمع ولا يبصر. واعجباً منك يا أبت! وأنت سيد قريش وكبيرها. فقال: أنا أترك ما كان يعبد آبائي؟ وأتبع دين محمد؟ ثم تركها. وخرج حتى أتى رسول الله، وقال: كنت غائباً عن صلح الحديبية، فامدد العهد، وزد في المدة. فقال له رسول الله: لذلك جئت؟ قال: نعم.

فقال ﷺ: هل كان فيكم من حدث؟ فقال: معاذ الله! نحن على عهدنا، وصلحنا، لا نغير ولا نبدل. فقال له ﷺ: فنحن على مدتنا وصلحنا. فأعاد أبو سفيان القول على رسول الله، فلم يرد عليه شيئاً. ثم ذهب أبو سفيان إلى أبي بكر، فالتمس منه أن يكلم رسول الله ﷺ في تجديد العقد، والزيادة في المدة. فقال أبو بكر: ما أنا بفاعل، جواري في جوار رسول الله ﷺ. ثم أتى عمر بن الخطاب فكلمه، فقال: أنا أشفع لكم إلى رسول الله؟ فوالله لو لم أجد إلا الذر[1] لجاهدتكم بها. ما كان من حلفنا جديداً أخلقه الله، وما كان مقطوعاً فلا وصله الله. فقال له أبو سفيان: جزيت من ذي رحم شراً. ثم جاء إلى عثمان بن عفان، فقال له: إنه ليس في القوم، أقرب بي رحماً منك. فزد في المدة، وجدد العقد، فإن صاحبك لا يرد عليك أبداً. فقال عثمان: جواري في جوار رسول الله. ثم جاء إلى علي بن أبي طالب، فقال: إنك أمس القوم بي رحماً، وإني قد جئت في حاجة فلا أرجعن كما جئت خائباً، اشفع لي إلى محمد. فقال: ويحك يا أبا سفيان! لقد عزم رسول الله على أمره ما نستطيع أن نكلمه. فالتفت إلى فاطمة وقال: يا ابنة محمد! هل لك أن تجيري بين الناس؟ فقالت: إنما أنا امرأة. قال: قد أجارت أختك زينب، زوجها أبا العاص بن الربيع، وأجاز ذلك محمد. قالت: إنما ذلك إلى رسول الله. قال:

---

(١) الذر: قال صاحب القاموس: «صغار النّمل، ومئة منها زنة حبّة شعير، الواحد: ذرة».

فأمري أحد ابنيك أن يجير! قالت: إنما هما صبيان، ليس مثلهما يجير. قال: فكلمي علياً. فقالت: أنت تكلمه. فقال: يا أبا الحسن! إني أرى الأمور قد انسدت علي فانصحني قال: والله لا أعلم لك شيئاً، يغني عنك، ولكنك سيد بني كنانة، فقم واجر بين الناس ثم الحق بأرضك. قال: أو ترى ذلك مغنياً عني شيئاً؟ قال: والله ما أظنه، ولكن لا أجد لك غير ذلك.

فذهب أبو سفيان إلى المسجد، فقال: أيها الناس! إني أجرت بين الناس. ولا والله! ما أظن أن يخفرني أحد، ولا يرد جواري. وجاء إلى النبي ﷺ. فقال: يا محمد! إني أجرت بين الناس، والله ما أظن أحداً يخفرني، ويرد جواري! فقال له رسول الله: أنت تقول ذلك، يا أبا سفيان!

ولمّا يئس، وأقام أياماً، ركب راحلته وعاد إلى مكة، وقد اتهمته قريش أشر التهمة! وقالوا: إنه صبأ، واتبع محمداً سراً، وكتم إسلامه. فلما دخل على هند ليلاً، قالت: لقد غبت حتى اتهمك قومك؟ فإن كنت مع طول إقامتك، قد جئتهم بنجح؟ فأنت الرجل. فلما أخبرها ضربته برجلها في صدره، وقالت: قبحت من رسول قوم، فما جئت بخير! ولما أصبح ذهب عند أساف ونائلة. وحلق رأسه وذبح لهما ومسح رأسيهما بالدم وقال: لا أفارق عبادتك حتى أموت، وأراد بذلك تبرئة نفسه مما اتهمته به قريش. فلما رأوه صنع ذلك. قالوا له: ما وراءك؟ هل جئت بكتاب من محمد؟ أو زيادة في مدة؟ فإنا لا نأمن أن يغزونا! فقال: والله لقد أبى. كلمته فما رد علي شيئاً. ثم جئت أبا بكر، فلم أر فيه خيراً. ثم جئت ابن الخطاب، فوجدته أدنى العدو. ثم جئت علياً، فوجدته ألين القوم. وقد أشار علي بشيء صنعته، فوالله لا أدري أيغني عني شيئاً، أم لا ؟ قالوا: وبم أمرك؟ «قال أمرني أن أجير بين الناس. قالوا: لم تلتمس جوار الناس على محمد؟ ولا تجير أنت عليه؟ وأنت سيد قريش، وأكبرها، وأحقها، ألا يخفر جواره. ففعلت؟ قالوا: فهل أجاز ذلك محمد؟ قال: لا . وإنما قال: أنت تفعل ذلك يا أبا حنظلة؟! والله! لم يزدني.

قالوا: رضيت بغير رضا، وجئت بما لا يغني عنا، ولا عنك شيئاً!

ولعمرو الله! ما جوارك بجائز! وإن إخفارك عليهم لهين. والله. أراد عليّ أن يلعب بك. قال: والله ما وجدت غير ذلك. قالوا: ما جئتنا بحرب فنحذر، ولا صلح فنأمن.

مشاورة رسول الله ﷺ لأصحابه في فتح مكة

روى أبو مالك الأشجعي، قال: خرج رسول الله من بعض حجره، فجلس عند بابها، وكان من عادته إذا جلس وحده، لم يأته أحد حتى يدعوه. فقال: ادع لي أبا بكر. فجاء، فجلس بين يديه، فناجاه طويلاً ثم أمره فجلس عن يمينه. ثم قال: ادع لي عمر. فجاء، فجلس، فناجاه طويلاً، فرفع عمر صوته، فقال: يا رسول الله! هم رأس الكفر، الذين زعموا أنك ساحر! وأنك كاهن، وأنك كاذب، وأنك مفتر. ولم يدع شيئاً مما يقولون إلا ذكره. ثم قال: وأيم الله! لا تذل العرب، حتى يذل أهل مكة. فأمره، فجلس عن شماله.

ثم دعا الناس، فقال: ألا أحدثكم بمثل صاحبيكم هذين؟ قالوا: نعم[1] يا رسول الله! فأقبل بوجهه على أبي بكر، فقال: إن إبراهيم عليه السلام، كان ألين في الله تعالى من الدهن بالليل. ثم أقبل على عمر، فقال: إن نوحاً، كان أشد في الله تعالى من الحجر، وإن الأمر أمر عمر، فتجهزوا وتعاونوا.

فقام الصحابة من حوله ﷺ، فتبع الناس أبا بكر، فقالوا: إنا كرهنا أن نسأل عمر عما ناجاكما به رسول الله؟ قال: سألني كيف تأمرني في غزو مكة؟ قلت: يا رسول الله! هم قومك. وما زلت به أهوّن عليه، حتى ظننت أنه يطيعني. ثم لما تكلم مع عمر، فقال: هم رأس الكفر، وما زال يحرضه، حتى ذكر له كل سوء كانوا يقولونه.

---

(١) الصواب أن يكون الجواب بـ: «بلى» لا بـ «نعم» والأرجح أن يكون الخطأ من المؤلف.

التدابير العسكرية للتجهيز والنفير

أول ما بدأ به ﷺ في أمر هذه الحرب: أن أمر بالطرق فحبست، وأمر جماعة أن تقيم في الأنقاب[1] يعرف من يمر بها. وقال: لا تدعوا أحداً يمر بكم تنكرونه، إلا رددتموه. وكان عمر يطوف بالأنقاب يراقب الحراس الذين عليها. ثم بعث ﷺ إلى قبائل المسلمين يستنفرهم، فقدمت عليه: أسلم، وغفار، ومزينة، وأشجع، وجهينة. وكانت تدابيره كلها تجري في السر.

خيانة حاطب بن أبي بلتعة
وكشف سر الحملة على قريش

ولما شاع خبر التجهيزات، وتوافد الحشر إلى المدينة، كتب حاطب بن أبي بلتعة كتاباً إلى ثلاثة من قريش، يخبرهم بما عزم عليه رسول الله ﷺ. وهم سهيل بن عمرو، وصفوان بن أمية، وعكرمة بن أبي جهل. ثم أعطى الكتاب إلى سارة المغنية بمكة، وهي امرأة لبعض بني عبد المطلب بن عبد مناف. قدمت على رسول الله، تشكو إليه الحاجة وتطلب المساعدة. فقال لها: ما كان في غناك ما يغنيك؟ فقالت: إن قريشاً منذ قتل منهم من قتل في بدر، تركوا الغناء. فوصلها وأحضر لها بعيراً، وطعاماً، فرجعت إلى قريش، وقد جاعلها[2] عبد الله بن خطل على الكتاب بعشرة دنانير، وكساها برداً. وقال لها: اخفيه ما استطعت، ولا تمري على الطريق فإن عليه حراساً، يفتشونك. فسلكت غير الطريق.

وقد بلغ رسول الله ما صنع حاطب، فبعث علياً، والزبير، والمقداد وطلحة، وعمار، وأبا مرثد، وقال: أدركوا امرأة بمحل كذا وكذا قد كتب معها حاطب كتاباً إلى قريش، يخبرهم ما قد أجمعنا له في أمرهم. فخذوه

---

(١) الثقب: المنفذ. والممرّ، يجمع على أثقب وثقوب. والمقصود: منافذ المدينة دخولاً وخروجاً.

(٢) جاعله: رشاه، أو دفع له أجره. من الجعل والجعال.

منها، وخلوا سبيلها. فإن أبت أن تخرجه إليكم، فاضربوا عنقها. فخرجوا خلفها حتى أدركوها. فقالوا لها: أين الكتاب الذي تحملينه؟ فحلفت لهم بالله ما معها من كتاب، فاستنزلوها، وفتشوا رحلها، فلم يجدوا شيئاً. فقال لها علي: لتخرجن الكتاب، أو لنكشفنك، وأضرب عنقك. ولما رأت منه الجد، قالت: أعرضوا عني فأعرضوا عنها، فحلت عقالها. ودفعته إلى علي بن أبي طالب، فتركوها تواصل سيرها إلى مكة. ولما وصلتها صارت تؤذي رسول الله ﷺ، وتنال منه بغنائها. فقد كان عبد الله بن خطل يهجو رسول الله، وهي توقعه وتغني به للناس، وقد كان ﷺ أهدر دمها يوم الفتح، ثم أسلمت، وعفا عنها.

فحمل الكتاب إلى رسول الله. نصه:

إلى سهيل بن عمرو وعكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية. أما بعد: فإنّ محمداً قد نفرنا، فإما إليكم وإما إلى غيركم ولا أراه إلا يريدكم. وسيتوجه إليكم بجيش كالليل، ويسير كالسيل. وأقسم بالله لو سار إليكم وحده، لينصرنه الله تعالى عليكم، فإنه منجز له ما وعده فيكم. فإن الله تعالى ناصره ووليه، فعليكم الحذر، وقد أحببت أن تكون لي يد بكتابي إليكم. والسلام.

محاكمة حاطب وإعذار الرسول له

فدعا رسول الله حاطباً، فقال له: أتعرف هذا الكتاب؟ وأراه إياه. قال: نعم. فقال: ما حملك على هذا؟ فقال حاطب: يا رسول الله! لا تعجل علي. أما والله! إني لمؤمن بالله ورسوله، ما غيرت ولا بدلت ولا كفرت منذ أسلمت، ولا غششت منذ نصحت، ولا أحببتهم منذ فارقتهم. ولكني كنت أمرأ لصقاً في قريش، ليس لي في القوم أهل ولا عشيرة. وكان لي بين أظهرهم ولد وأهل، وإخوة وأم، فصانعتهم عليهم. وكان من معك من المهاجرين، ممن لهم أهل أو مال بمكة، لهم قرابات يحمون بها أهليهم وأموالهم. فأحببت إذ فاتني النسب فيهم، أن أتخذ عندهم يداً، يحمون بها قرابتي. وما كتبت لا يضر الله ورسوله.

فقال عمر: قاتلك الله! ترى رسول الله يأخذ بالأثقاب، ويأمر ألا نرى أحداً يمر ممن نكره إلا رددناه؟ تكتب إلى قريش تحذرهم. دعني يا رسول الله! أضرب عنق هذا المنافق.

فقال رسول الله: إنه قد صدقكم فيما أخبركم به، وقد شهد بدراً فبرأه بذلك، وعفا عنه. ونزلت في ذلك الآية، تحرم فعل مثل ذلك في المستقبل:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾(١).

خروج رسول الله غازياً إلى مكّة

ولمّا تم تجنيد المسلمين، وكملت تعبئتهم، استخلف على الصلاة ابن أم مكتوم، وعلى الأحكام والقضايا: أبا رهم كلثوم بن الحصين الغفاري. وخرج منها بعد العصر، لعشر ليال خلون من رمضان، سنة ثمان من الهجرة. وكان جيشه حين خرج من المدينة عشرة آلاف، مؤلفاً على الصورة التالية:

من المشاة: المهاجرون ٧٠٠ الأنصار ٤٠٠٠.

مزينة: ١٠٠٠.

أسلم: ٤٠٠.

جهينة: ٨٠٠.

من الفرسان:

المهاجرون: ٣٠٠، الأنصار: ٥٠٠.

مزينة: ١٠٠.

---

(١) سورة الممتحنة الآية: (١).

أسلم: ٣٠.

جهينة: ٥٠.

وكان الباقي من أخلاط القبائل.

ومع رسول الله ﷺ أزواجه: أم سلمة وميمونة. ولما بلغ ﷺ الأبواء، أو قريباً منها، لقيه ابن عمه: أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، والحرث أكبر أعمامه، وأبو سفيان أخوه ﷺ من الرضاعة، أرضعته حليمة السعدية. ولقيه أيضاً عبد الله بن المغيرة ابن عمته عاتكة، وهو أخو أم سلمة، أم المؤمنين، لأبيها. وكان مجيئهما بقصد الإسلام. وكان ابن المغيرة في الجاهلية من أشد الناس إذاية لرسول الله ﷺ. فأعرض عنها (عاتكة)، فكلمته أم سلمة فيهما وقالت: لا يكون ابن عمك، وابن عمتك، وصهرك، أشقى الناس بك. فقال ﷺ: لا حاجة لي بهما. أما ابن عمي أبو سفيان، فقد هتك عرضي، أما ابن عمتي وصهري، فهو الذي قال لي بمكة: والله! لا آمنت بك، حتى تتخذ سلماً إلى السماء فتعرج فيه وأنا أنظر إليك، ثم تأتي بصك، وأربعة من الملائكة، يشهدون لك أن الله أرسلك... الخ ما تقدم.

فلما خرج الخبر إليهما، بأن رسول الله لا يودّ لقاءهما، قال أبو سفيان وكان معه ابن له يقال له جعفر: والله! ليأذنن لي، أو لآخذن بيد أبي هذا، ثم لنذهبن في الأرض، حتّى نموت جوعاً وعطشاً.

فلما بلغ قوله رسول الله ﷺ رق لهما، ثم أذن لهما، فدخلا عليه، وأسلما، وقبل ﷺ إسلامهما. وقال علي لأبي سفيان. ائت رسول الله من قبل وجهه، فقل له ما قال إخوة يوسف ليوسف: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾ فإنه ﷺ لا يرضى أن يكون أحد أحسن منه قولاً. ففعل. فأجابه رسول الله ببقية الآية: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾.

وكان أبو سفيان بعد ذلك، لا يرفع رأسه إلى رسول الله حياء منه، لأنه عاداه نحو عشرين سنة، يهجوه. ولم يتخلف عن قتاله، وكان رسول الله يحبّه، ويقول: أرجو أن يكون خلفاً من حمزة.

وقد كان ﷺ في سفره هذا، صام وصام الجيش، حتى إذا كانوا يالكديد، وهو محل بين عسفان وقديد، أفطر. ولما خرج ووصل إلى الصلصال، قدّم أمامه الزبير بن العوام في مئتين. ونادى منادي رسول الله: من أحب أن يصوم فليصم، ومن أحب أن يفطر فليفطر.

وفي رواية: أنه لما بلغ الكديد، سمع أن الناس شق عليهم الصيام وأنهم ينظرون فيما يفعل، فاستوى ﷺ على راحلته بعد العصر ودعا بإناء فيه ماء، وقيل: لبن فشرب منه، ثم ناوله لرجل بجنبه فشرب. فقيل له بعد ذلك: إن بعض الناس صام. فقال: أولئك العصاة. لأنهم خالفوا أمره لهم بالإفطار، ليقووا على لقاء العدوّ. فقد قال لهم: إنكم قد دنوتم من عدوّكم، والفطر أقوى لكم. فلم يزل ﷺ يفطر حتى انسلخ الشهر.

وفي قديد، عقد ﷺ الألوية والرايات، ودفعها للقبائل، ثم سار حتى نزل بمر الظهران وقد عميت أخباره عن قريش، فلم يعلموا بوصوله إليه، ولم يبلغه حرف واحد من مسيره إليهم. فأمر ﷺ أصحابه بأن يوقد كل واحد منهم ناراً، فأوقدوا عشرة آلاف نار. وكان على الحرس عمر بن الخطاب.

وصادف أن العباس خرج في تلك الأثناء بعياله مهاجراً إلى المدينة فلقي رسول الله بالجحفة، فأرسل أهله وثقله إلى المدينة، ورجع معه غازياً إلى مكة. قال العبّاس: لما شاهدت هذا الجيش وكثافته، رقت نفسي لأهل مكّة، وقلت في نفسي: واصباح قريش! والله لئن دخل مكة عنوة، قبل أن يأتوه فيستأمنوه، إنه لهلاك قريش إلى آخر الدهر.

قال العباس: فركبت بغلة رسول الله البيضاء، فخرجت عليها حتى جئت الأراك فقلت لعلي: أجد بعض الحطابة، أو صاحب لبن، أو ذا حاجة، يأتي مكة يخبرهم بمكان رسول الله، ليخرجوا إليه، فيستأمنوه، قبل أن يدخلها عنوة. وإني لأسير، إذ سمعت كلام أبي سفيان وبديل بن ورقاء، وهما يتراجعان، وكان معهما حكيم بن حزام، خرجوا يتجسسون الأخبار أو يسمعون بمحمد، لأنهم علموا بمسيره، ولم يعلموا أي جهة يسير إليها.

وقد أرسلت قريش أبا سفيان يتجسس الأخبار، وقالوا: إن لقيت

محمداً، فخذ لنا منه أماناً. فلما سمعوا صهيل الخيل، راعهم ذلك، وقال أبو سفيان: ما رأيت كالليلة نيراناً قط، ولا عسكراً. هذه كنيران عرفة، هذه والله! خزاعة حمشتها الحرب، وبديل يقول: خزاعة، أقل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها.

قال العباس: فعرفت صوت أبي سفيان. وكان أبو سفيان صديقاً ونديماً للعباس. فقلت: يا أبا حنظلة! فعرف صوتي. فقال: أبو الفضل. فقلت: نعم. قال: مالك فداك أبي وأمي! قلت: والله! هذا رسول الله في الناس قد جاءكم، بما لا قبل لكم به، قد جاءكم بعشرة آلاف. فقال أبو سفيان: واصباح قريش! فما الحيلة؟ فداك أبي وأمّي! قلت: والله! لئن ظفر بك ليضربنّ عنقك، فاركب في عجز هذه البغلة، حتى آتيك رسول الله، فأستأمنه لك. فركب خلفي، ورجع صاحباه. فجئت به، كلما مررت بنار من نيران المسلمين، قالوا: من هذا؟ وإذا رأوا بغلة رسول الله وأنا عليها. قالوا: عم رسول الله على بغلته. وما زلت كذلك، حتى مررت بنار عمر بن الخطاب. فقال: من هذا؟! وقام إليّ. فلما رأى أبا سفيان على عجز البغلة، قال: أبو سفيان، عدوّ الله؟! الحمد لله الذي أمكن منك، من غير عقد ولا عهد. ثم خرج يشتد نحو رسول الله، فركضت البغلة، فسبقته، فاقتحمته على البغلة، ودخلت على رسول الله ودخل عليه عمر في إثري، فقال: يا رسول الله! عدوّ الله أبو سفيان، قد أمكن الله منه من غير عقد ولا عهد. فدعني لأضرب عنقه. قال العباس: إني قد أجرته يا رسول الله! ثم جلست إلى رسول الله. فأخذت برأسه. فقلت: والله! لا يناجيه الليلة أحد دوني. فلما أكد عمر في شأنه. قلت: مهلاً، يا عمر! فوالله لو كان من رجال بني عدي بن كعب، ما قلت مثل هذا. ولكنك قد عرفت أنه من رجال بني عبد مناف. قال: مهلاً، يا عباس! فوالله لإسلامك يوم أسلمت كان أحب اليّ من إسلام الخطاب لو أسلم. فقال رسول الله للعباس: اذهب به إلى رحلك، فإذا أصبحت فأتني به. فذهب به. فلما أصبح غدوت على رسول الله بعد أن نودي بالصلاة، وثار الناس، ففزع أبو سفيان، وقال للعباس: يا أبا الفضل! ما يريدون؟ هل أمروا فيّ بشيء؟ قال: لا، ولكنهم قاموا الى الصلاة.

ورأى أبو سفيان الناس متكأكئين على رسول الله، يتلقون وضوءه. ثم رآهم لما قام إلى الصلاة، يركعون إذا ركع، ويسجدون إذا سجد، فقال للعباس: يا عباس! ما يأمرهم لشيء إلا فعلوه! فقال العباس: لو نهاهم عن الطعام والشراب لأطاعوه. فقال: ما رأيت ملكاً مثل هذا، لا ملك كسرى، ولا ملك قيصر، ولا ملك بني الأصفر.

ثم قال أبو سفيان للعبّاس: كلمه في قومك، هل عنده من عفو عنهم؟

فانطلق العباس بأبي سفيان حتى أدخله على رسول الله، فقال له رسول الله: ويحك يا أبا سفيان! ألم يأن لك أن تعلم، أنه لا إله إلا الله؟! قال: بأبي أنت وأمي ما أحلمك؟ وأكرمك! وأوصلك! لقد ظننت أنه لو كان مع الله إله غيره، لما أغنى عنّي شيئاً بعد. فقال: ويحك يا أبا سفيان! ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله؟! قال: بأبي أنت وأمي. أما والله هذه، فإن في النفس حتى الآن منها شيئاً.

ثم قال العباس: يا رسول الله! قد أجرت أبا سفيان، وحكيم بن حزام، وبديل بن ورقاء وهم يدخلون عليك. فقال: أدخلهم، فدخلوا عليه. فمكثوا عنده عامة الليلة، يستخبرهم عن أهل مكة. ودعاهم للإسلام.

فقال أبو سفيان: ما أعلم ذلك، والله إن في النفس من هذا شيئاً، فأرجها إلى وقت آخر.

وذكر عبد بن حميد أن النبي حين عرض الإسلام على أبي سفيان قال: كيف أصنع بالعزى؟ فسمعه عمر من وراء القبة، فقال عمر: «تفعل عليك» فقال له أبو سفيان: ويحك يا عمر! إنك رجل فاحش دعني مع ابن عمّي، وإياه أكلّم.

وجاء في أسد الغابة: أنه ﷺ قال ليلة قرب من مكة يوم الفتح: إن بمكة أربعة نفر من قريش، أربأ بهم عن الشرك، وأرغب بهم في الإسلام عتاب بن أسيد، وجبير بن مطعم، وحكيم بن حزام، وسهيل بن عمرو.

ويروى أن حكيم بن حزام وقف بين يدي رسول الله، قال: أجئت

بأوباش الناس من يعرف، ومن لا يعرف إلى أهلك وعشيرتك؟ فقال رسول الله: هم أظلم وأفجر، قد غدرتم بعقد الحديبية، وتجاهرتم على بني كعب «يعني خزاعة» بالإثم والعدوان في حرم الله وأمنه.

فقال بديل: صدقت والله يا رسول الله! فقد غدروا بنا. والله إن قريشاً خلّوا بيننا وبين عدوّنا، فأنالوا منا الذي نالوا.

فقال حكيم: قد كنت يا رسول الله! حقيقاً أن تجعل عدتك وكيدك لهوازن، فإنهم أبعد رحماً، وأشدّ عداوة.

فقال: إني لأرجو أن يجمعها إليَّ ربي يوم فتح مكّة، وإعزاز الإسلام بها، وهزيمة هوازن وأخذ أموالهم وذراريهم.

فقال له أبو سفيان: يا رسول الله! ادع الناس بالأمان. أرأيت إن اعتزلت قريش فكفت أيديها، آمنون هم؟

قال رسول الله ﷺ: نعم من كفّ يده، وأغلق داره، فهو آمن.

فقال العبّاس بينه وبين رسول الله: إن أبا سفيان رجل يحبّ الفخر، فاجعل له شيئاً. قال: نعم، من دخل دار أبي سفيان، فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، ومن ألقى سلاحه فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن. ومن دخل دار حكيم بن حزام[1] فهو آمن. ثم قال أبو سفيان: وما تسع داري؟! ومايسع المسجد؟! وعقد ﷺ لواء لأبي رويحة الذي آخى رسول الله بينه وبين بلال، وأمره أن ينادي: من دخل تحت لواء أبي رويحة فهو آمن.

---

(١) كان عمره يوم أسلم ستين سنة، وعاش بعد إسلامه ستين سنة. فقد مات وله من العمر ١٢٠ سنة. فقد أعتق في الجاهلية مئة رقبة، وأعتق في الإسلام مثل ذلك، فإنه حجّ في الإسلام، وأوقف بعرفة مئة وصيف في أعناقهم أطواق الفضّة، منقوشاً عليها: عتقاء الله عن حكيم بن حزام، أهدى مئة بدنة مجللة بالحبرة وأهدى ألف شاة. وكان من أشراف قريش في الجاهلية. (المؤلف).

استعراض الجيش

أمر رسول الله ﷺ العباس أن يستبقي أبا سفيان وبديلاً وحكيم بن حزام بمضيق الوادي، حتى تمرّ بهم جنود الله، ويعلموا كيف يعود الرجل الطريد إذا كان عظيماً إلى بلاده. قال العبّاس: ففعلت. فمرّت القبائل كلها، كلما مرّت قبيلة، كبّرت ثلاثاً عند محاذاتنا. كان أبو سفيان يسأل عن القبائل قبيلة قبيلة.

فأوّل من مر: خالد بن الوليد في بني سليم. فقال أبو سفيان: من هؤلاء؟ فقلت: هذا خالد بن الوليد «قال: الغلام؟ قلت: نعم» قال: ومن معه؟ قلت: بنو سليم. قال: مالي ولبني سليم. ثم مرّ على إثره الزبير بن العوّام في خمسمئة من المهاجرين والفتيان العرب. فقال: من هؤلاء؟ فقلت: الزبير. فقال: ابن أختك؟ قلت: نعم. ثم مرّت بنو غفار ثم أسلم، ثم بنو كعب، ثمّ مزينة، ثم جهينة، ثم كنانة، ثم أشجع فقال أبو سفيان: هؤلاء كانوا أشد العرب على محمد. قال العبّاس: ولكن الله أدخل الإسلام قلوبهم، فهذا فضل الله. ثم مرّ رسول الله ﷺ في كتيبته الخضراء للبسهم الحديد، «والعرب تطلق الخضرة على السواد والسواد على الخضرة» وفيها المهاجرون والأنصار، لا يرى منه إلا الحدق. فيها ألفا دارع، وعمر بن الخطاب أميرها، يقول للعساكر: رويداً رويداً حتى يلحق أولكم آخركم. قال أبو سفيان: سبحان الله يا عبّاس! من هؤلاء. فقلت: هذا رسول الله في الأنصار. فقال: ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة. ثم قال: والله! يا أبا الفضل! لقد أصبح ملك ابن أخيك اليوم عظيماً. فقلت: يا أبا سفيان! إنها النبوّة. فقال: نعم، إذن. ثم قلت له: النجاة إلى قومك. فذهب هو ورفقاؤه.

ولّما دخل مكّة، صرخ بأعلى صوته: يا معشر قريش! هذا محمد قد جاءكم بما لا قبل لكم به. فمن دخل دار أبي سفيان، فهو آمن. فقامت إليه زوجته هند بنت عتبة أم معاوية، فأخذت بشاربه. وقالت: اقتلوا الخبيث الدنس، الذي لا خير فيه، قبّح من طلعة قوم. يا آل غالب! هلا قاتلتم ودافعتم عن أنفسكم وبلادكم؟! فقال لها: ويحك! اسكتي وادخلي بيتك. ثم

التفت إلى القوم وقال: ويحكم! لا تغرنكم هذه من أنفسكم، فإنه قد جاءكم ما لا قبل لكم به. من دخل دار أبي سفيان فهو آمن. فصاح القوم. وقالوا: قبّحك الله! وما تغني عنا دارك؟ قال: ومن أغلق عليه بابه. فهو آمن، ومن دخل تحت لواء أبي رويحة فهو آمن. فتفرّق الناس إلى دورهم وإلى المسجد.

كانت دار حكيم بن حزام بأسفل مكّة ودار أبي سفيان بأعلاها. ولم يستثن ﷺ من الأمن العام إلا جماعة، وإن وجدوا متعلقين بأستار الكعبة. منهم:

عبد الله بن أبي سرح، فارس بني عامر «واحد النجباء الكرام من قريش» وعبد الله بن خطل، وقينتان، وعكرمة بن أبي جهل، والحويرث بن نفيل، ومفيد بن حبابة، وهبار بن الأسود، وكعب بن زهير، والحارث بن هشام، وزهير بن أميّة، وسارة مولاة لبعض بني عبد المطلب، وصفوان بن أمية، وزهير بن أبي سلمى، وهند بنت عتبة امرأة أبي سفيان، ووحشي بن حرب قاتل حمزة.

سبب عزل سعد من قيادة كتيبة الأنصار

قالوا: كان سعد على راية رسول الله مع كتيبية الأنصار، ولما مرّ على أبي سفيان وهو واقف بمضيق الوادي، قال أبو سفيان: من هذا؟ قال العباس: هؤلاء الأنصار، عليهم سعد بن عبادة؛ فلما حاذاه سعد، قال: يا أبا سفيان! اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الحرمة، اليوم أذلّ الله قريشاً. فلما أقبل رسول الله ومعه الزبير، وكان قريباً من أبي سفيان، ناداه: يا رسول الله! أمرت بقتل قومك؟ فإنه زعم سعد ومن معه حين مر بنا أنه قاتلنا، فإنه قال... وأعاد عليه قوله. أنشدك الله في قومك، فأنت أبر الناس وأرحمهم، وأوصلهم.

فقال عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف: يا رسول الله! فإنا لا نأمن من سعد أن يكون له في قريش جولة.

فقال رسول الله: يا أبا سفيان! كذب سعد، اليوم يوم المرحمة، اليوم أعزّ الله فيه قريشاً، اليوم يعظم الله فيه الكعبة، اليوم تكسى فيه الكعبة. وأرسل علياً بن أبي طالب أن ينزع راية الأنصار من سعد، ويقلّدها لابنه قيس «وكان

من دهاة العرب وأصحاب الرأي والمكيدة» وأبى سعد أن يسلم اللواء إلا بأمارة من رسول الله إليه فأرسل إليه بعمامته، فدفع اللواء لابنه قيس.

احتلال[1] مكـــة

أمر رسول الله خالد بن الوليد، وكان على جملة قبائل العرب، أن يدخل من أسفل مكة وأن ينصب رايته عند أدنى البيوت. وقال: لا تقاتلوا إلا من قاتلكم. وكان بأسفل مكة صفوان بن أميّة وعكرمة بن أبي جهل وسهيل بن عمرو، وقد جمعوا معهم ناساً بالخندمة «جبل بمكّة» ليقاتلوا، وكان من جملتهم رجل كان يعدّ سلاحاً، ويصلح من شأنه فقالت له زوجته، وكانت أسلمت سرّاً: لماذا تعدّ ما أرى؟ فيقول: لمحمد وأصحابه، فتقول له: والله! ما أراه يقوم لمحمد وأصحابه بشيء. قال: إني لأرجو أن أخدمك بعضهم.

وفي تاريخ مكة للأزرقي: قال رجل من قريش ـ وهو جحاش بن قيس ـ لامرأته وهي تبري نبالاً له، وكانت أسلمت سرّاً. فقالت له: لم تبري هذه النبل؟ قال: بلغني أن محمداً يريد أن يفتح مكة ويغزوها، ولئن كان لأخدمنك خادماً من بعض من نستأسر. فقالت له: والله! لكأني بك وقد رجعت تطلب مخبأ أخبئك فيه، لو رأيت خيل محمد.

فلما دخل رسول الله يوم الفتح، أقبل ذلك الرجل إليها، فقال: ويحك هل من مخبأة؟ فقالت له: فأين الخادم؟ فقال لها: دعي عنك.

ولما لقي خالد رضي الله عنه جموع المشركين بالمحلّ المذكور، ومنعوه الدخول، ورموه بالنبل وقالوا له: لا تدخلها عنوة، فصاح خالد في أصحابه، فقتل من قتل، وانهزم من لم يقتل. وكان من جملة من انهزم ذلك الرجل. واستمر خالد يدفعهم إلى أن وصل الخزورة إلى باب المسجد، وصعدت طائفة منهم الجبل، فتبعهم المسلمون، فرأى ﷺ وهو على العقبة بارقة السيوف،

---

(١) لست أدري لم فضّل الشيخ لفظة احتلال على لفظة فتح؟! وسورة الفتح أصدق دليل. هل بعد كلام الله مجال للاجتهاد؟ «فعلم ما لم تعلموا، فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً» وقال: ﴿إذا جاء نصر الله والفتح﴾ صدق الله العظيم.

فقال: ما هذا؟ وقد نهيت عن القتال. فقيل له: لعل خالداً قوتل فدافعهم، ولم يكن له بد من قتالهم، وما كان خالد ليخالف أمرك. وكان جملة من قتل في هذه المعركة أربعة وعشرين رجلاً من قريش، وأربعة من هذيل.

وجعل رسول الله على الجناح الثاني الزبير بن العوّام، والقلب بينهما، وجعل أبا عبيدة على الحسر: «وهو الجيش الراجل الغير المدرع» وذهب الزبير إلى أعالي مكّة، وأخذ أبو عبيدة بطن الوادي.

فتقدّم الجيش، وقد بوشت[1] قريش أوباشاً: «أي: جمعت جموعاً من قبائل شتى» فأمر رسول الله أبا هريرة أن يهتف في الأنصار، فهتف بهم، فجاؤوا وطافوا برسول الله فقال لهم: ترون أوباش قريش وأتباعهم؟! ثم وضع إحدى يديه على الأخرى. وقال: احصروهم حصراً، حتى توافوني بالصفا. ودخلوا من أعالي مكة. وقال أبو هريرة: فما تشاء أن تقتل أحداً منهم إلا قتلناه، لا يقدر أن يدفع عن نفسه.

فأقبل أبو سفيان على رسول الله مستغيثاً، فقال: يا رسول الله! أبيحت خضراء قريش، لا جماعة لقريش بعد اليوم. فأمر أن ينادي: من أغلق بابه فهو آمن. ووجه ﷺ اللوم على خالد بن الوليد، وقال: لم قاتلت؟ وقد نهيت عن القتال. قال: هم بدؤونا بالقتال، ورمونا بالنّبل، ووضعوا فينا السلاح، وقد كففت ما استطعته، ودعوتهم إلى الإسلام، فأبوا. حتى إذا لم أجد بداً من أن أقاتلهم قاتلتهم، إلى أن أظفرنا الله بهم، فهبوا من كل وجه. وقد قتل سبعين رجلاً من مكة. فقال له: كف عن الطلب. قال: فعلت. فقال رسول الله: قضى الله أمراً. ثم قال: كفوا السلاح، إلا خزاعة، عن بني بكر إلى صلاة العصر، وهي الساعة التي أحلت لرسول الله في مكّة.

والخلاصة: أن أعلى مكة الذي احتله الأنصار، فتح صلحاً، وأسفلها الذي احتله خالد، فتح عنوة. ودخل ﷺ مكة من كدن، وهو أعلاها دخلها

---

(١) (البوش): جماعة القوم، لا يكونون إلا من قبائل شتى. و(الأوباش) مقلوب منه. (اللسان) المحقق.

وهو راكب على ناقته القصوى، مردفاً أسامة بن زيد بكرة يوم الجمعة، معتجراً بردة جيدة، حمراء، واضعاً رأسه الشريف على رحله تواضعاً لله تعالى. دخلها بغير إحرام، وكانت رايته سوداء، ولواؤه أبيض، وكان إلى جانبه أبو بكر يحادثه، ويقرأ سورة الفتح، حتى جاء البيت، وطاف به سبعاً على راحلة، ومحمد بن مسلمة آخذ بزمامها، يستلم الحجر بمحجن في يده.

وكان شعار المهاجرين يوم دخلوا «يابني عبد الرحمن» وشعار الخزرج: «يا بني عبد الله» وشعار الأوس: يا بني عبيد الله! وهو الذي يعرف به بعضهم بعضاً من ظلمة الليل. وعند اختلاط الحرب إذا وقع.

وكان نزول رسول الله بمكة عند الحجون، أين أمر الزبير أن يغرز رايته، وهي في شعب أبي طالب الذي حصرت فيه قريش بني هاشم وبني المطلب قبل الهجرة. نزل في قبة من أدم نصبت له هناك، ومعه زوجتاه: أم سلمة وميمونة.

وعن جابر قال: لما رأى رسول الله بيوت مكة وقف، فحمد الله وأثنى عليه، ونظر إلى موضع قبته وقال: هذا منزلنا يا جابر! حيث تقاسمت قريش علينا. قال جابر: فذكرت حديثاً كنت سمعته منه بالمدينة قال: منزلنا إذا فتح الله تعالى علينا مكة، في خيف بني كنانة، حيث تقاسموا على الكفرة. إلى آخر ما تقدّم من قصة الصحيفة. وقال أسامة بن زيد قبل الدخول إلى مكة، لرسول الله ﷺ: أين ننزل غداً ننزل بدارك؟! فقال: وهل ترك لنا عقيل من دار؟

كسر الأصنام

فكان ﷺ يأتي المسجد من الحجون لكل صلاة. وعن ابن عباس: دخل رسول الله مكة يوم الفتح، وعلى الكعبة ثلاثمئة وستون صنماً، لكل حي من أحياء العرب صنم. فجاء ﷺ ومعه قضيب، فجعل يهوي به إلى كل صنم منها، فيخر لوجهه، وبعضها لقفاه، وهو يقول: «جاء الحق، وزهق الباطل. إن الباطل كان زهوقاً» حتى مرّ عليها كلها.

ثمّ أقبل إلى الحجر، فاستلمه، ثم طاف بالبيت، وفي يده قوس، أخذ

بسيته «ما انعطف من طرف القوس» فأتى من طوافه على صنم إلى جنب البيت، من جهة بابه، وهو هبل وكان أعظم الأصنام، وجعل يطعن بها في ثنييه، ويقول: جاء الحق، وزهق الباطل، إن الباطل كان زهوقاً. فأمر به فكسر. فقال الزبير لأبي سفيان: كسر هبل، أما إنك كنت في يوم أحد في غرور، حين تزعم أنه قد أنعم. فقال أبو سفيان: دع هذا عنك يا بن العوام! فقد أرى لو كان مع إله محمد غيره، لكان غير ما كان. وانتهى ﷺ إلى المقام، وهو يومئذ لاحق بالكعبة.

وعن علي بن أبي طالب قال: انطلق بي رسول الله ليلاً، حتى أتى الكعبة. فقال: اجلس فجلست إلى جنب الكعبة. فصعد رسول الله على منكبيه، قال: انهض، فنهضت. فلما رأى ضعفي تحته. قال: اجلس. فجلست. ثم قال: يا علي اصعد على منكبي. فصعدت. وفي رواية: اصعد على منكبي، واهدم الصنم. فقلت: يا رسول الله! بل اصعد أنت وإني أكرمك أن أعلوك. فقال: إنك لا تستطيع حمل ثقل النبوّة، فاصعد أنت. فجلس النبي، فصعد علي على كاهله، ثم نهض به. قال علي: فلما نهض بي، صعدت فوق ظهر الكعبة، وتنحى رسول الله، وخيل لي حين نهض بي، أني لوشئت لنلت أفق السماء. وقال ﷺ: ألق صنمهم الأكبر، وكان من نحاس.

ولما ألقى الأصنام، لم يبق إلا صنم خزاعة، موتداً بأوتاد من حديد فقال ﷺ. عالجه، فعالجته، فلم أزل أعالجه، حتى استمكنت فيه، فقذفته فتكسّر.

وفي الكشاف: أنه ألقى الأصنام جميعها، ولم يبق إلا صنم خزاعة فوق الكعبة، وكان من قوارير صفر. فقال: يا علي! ارم به، فحمله فرمى به فكسره، فجعل أهل مكة يتعجبون. ويقولون: ما رأينا أسحر من محمد. وأمر عمر، وهو بالبطحاء أن يأتي الكعبة. فيمحو كل صورة فيها، وكان عمر أبقى صورة إبراهيم، فقال ﷺ لما دخل الكعبة ورأى الصورة: يا عمر ألم آمرك ألا تترك فيها صورة، قتلهم الله حيث جعلوه شيخاً يستقسم بالأزلام. ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[1]

---

(١) سورة آل عمران الآية: (٦٧).

وعن أسامة بن زيد، قال: دخلت على رسول الله في الكعبة، فرأى صوراً، فدعا بدلو من ماء، فأتيته به، فجعل يمحوها، وتلك الصور هي صور الملائكة، وصور إبراهيم وإسماعيل في أيديهما الأزلام، يستقسمان بها. وكذلك صورة إسحاق، وبقية الأنبياء. وصورة مريم. فقال: قاتل الله قوماً، يصوّرون ما لا يخلقون. لقد علموا أنهما لم يستقسما بالأزلام قط. ووجد صورة حمامة من عيدان، فكسرها بيده، ثم طرحها. ودعا بزعفران، فلطخه بتلك التماثيل، وصلى بها ركعتين بين أسطوانتين.

وفي رواية مسلم: دخل ﷺ الكعبة، هو وأسامة بن زيد، وبلال، وعثمان بن أبي طلحة، والفضل بن العباس. وفي رواية ثانية: فأغلقوا الباب، وكان خالد بن الوليد، واقفاً على الباب، يذبّ النّاس. قال ابن عمر: ولما فتحوا الباب، كنت أول من ولج. ثم دخل إلى مقام إبراهيم وكان لاصقاً بالكعبة. فصلى ركعتين. ثم ذهب إلى زمزم، فاطلع فيها وقال: لولا أن تغلب بنو عبد المطلب على وظيفتهم «وهي نزع الماء من زمزم» لنزعت منها دلواً، فشرب منه، فابتدر المسلمون، يصبّون على وجوههم «من وضوئه» لا تسقط قطرة إلا في يد إنسان. إن كان قدر ما يشربها شربها، وإلا مسح بها جلده، والمشركون «ينظرون» ويقولون: ما رأينا ولا سمعنا ملكاً قط بلغ مثل هذا. ثم جلس في المسجد، والناس حوله. فخرج أبو بكر، وجاء بأبيه، يقوده وقد كف بصره، فلما رآه ﷺ قال: هلا تركت الشيخ في بيته، حتى أكون أنا آتيه. فقال أبو بكر: هو أحق أن يمشي إليك من أن تمشي أنت إليه. فأجلسه بين يدي رسول الله ﷺ فمسح رسول الله صدره، وقال: أسلم تسلم، فأسلم. وهنأ رسول الله أبا بكر بإسلام أبيه. وكان شعر أبي قحافة ورأسه ولحيته أبيض كالثغامة[1]. فقال: غيروهما وجنّبوهما السواد. وجاء

---

(١) جاء في اللسان: الثغامة: نبات ذو ساق، جماحته مثل هامة الشيخ، وفي حديث النبي ﷺ: أنه أتي بأبي قحافة يوم الفتح، وكان رأسه ثغامة فأمرهم أن يغيروه. المحقق.

عنه: أن أحسن ما غيّرتم به هذا الشيب الحناء والكتم[١]. وقال ابن عبد البرّ: والصحيح أنه ﷺ لم يخضب، ولم يبلغ من الشيب ما يخضب له.

ومن أغرب ما يروى: أنه سرق لأخت لأبي بكر في فتح مكّة طوق من فضة كان في عنقها، اقتلعه إنسان اقتلاعاً، فأخذ أبو بكر بيد أخته، وقال: أنشدتكم الله بالإسلام، طوق أختي. فما أجابه أحد. ثم قال الثانية والثالثة. فما أجابه أحد، فقال لأخته: احتسبي طوقك. فوالله! إن الأمانة في الناس اليوم لقليل. وفي أبي بكر نزلت الآية[٢]:

﴿قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِيٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾.

ثم أتى رسول الله الصفا، فعلاه حيث ينظر إلى البيت، فرفع يديه، فجعل يذكر الله بما شاء أن يذكره، ويدعوه، والأنصار تحته. قال بعضهم لبعض: أما الرجل فأدركته رغبة في قريته، ورأفة بعشيرته، فلما انتهى من توجهه إلى الله، رفع رأسه، وقال:

يا معشر الأنصار! قلتم: أما الرجل فأدركته رغبة في قريته، ورأفة بعشيرته؟ قالوا: نعم. قلنا ذلك يا رسول الله! قال: فما اسمي إذن، إن فعلت ذلك، كيف أسمّى، وأوصف بأني عبد الله ورسوله؟! كلا، لا أفعل ذلك. إني عبد الله ورسوله وهاجرت إلى الله، وإليكم، فالمحيا محياكم، والممات مماتكم. فأقبل إليه الأنصار يبكون، ويقولون: والله! ما قلنا الذي قلنا إلا نضن بالله ورسوله، لا نسمح أن يكون رسول الله في غير بلدتنا «المدينة» فقال: إن الله ورسوله يعذرانكم ويصدقانكم.

---

(١) الكتم: نبات يخلط للخضاب الأسود، اللسان.

(٢) سورة الأحقاف الآية ١٥. وقف الشيخ في ذريتي، لم يكمل. وقد وقع خلط في الآية في طبعة (غ) وأقحم فيها جزء من الآية ١٠١ من سورة يوسف: «توفني مسلماً، وألحقني بالصالحين». المحقق.

أصحاب السوابق
الذين أهدر دمهم رسول الله ﷺ يوم فتح مكـة

ذيل[1]:

عبد الله بن أبي سرح:

كان ممن أسلم قبل الفتح، واتخذه رسول الله كاتباً للوحي، فكان إذا أملى عليه: سميعاً بصيراً، كتب عليماً حكيماً. وإذا أملى عليه عليماً حكيماً، كتب غفوراً رحيماً، وكان يفعل مثل هذه الخيانة. وقال مرّة: إن محمداً، لا يعلم ما يقول. وزعم أنه لما كتب: ﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين﴾. إلى قوله تعالى: ﴿ثم أنشأناه خلقاً آخر﴾ تعجّب من تفصيل خلق الإنسان. فقال: تبارك الله أحسن الخالقين، قيل أن تملى عليه. فقال له رسول الله: اكتبها، هكذا أنزلت. فقال عبد الله: إن كان محمد نبيّاً، يوحى إليه، فأنا نبي يوحى إليّ.

ولما ظهرت خيانته، لم يستطع أن يقيم بالمدينة، فارتد وهرب إلى مكّة، وأخذ يتقول على رسول الله الأقاويل، فكان يقول: إني كنت أصرف محمداً كيف شئت. كان يملي علي: عزيز حكيم، فأقول: عليم حكيم. فيقول: نعم. كل صواب. وكل ما أقوله، يقول: اكتب هكذا نزلت.

فلما علم يوم الفتح، أن رسول الله أهدر دمه، لجأ إلى عثمان بن عفان، أخيه من الرضاعة، فقال: استأمن لي رسول الله قبل أن يضرب عنقي. فغيبه عثمان، حتى هدأ الناس واطمأنوا. فاستأمن له، ثم أتي به إلى النبي ﷺ فأعرض عنه، فصار عثمان يقول: يا رسول الله أمنته. وهو يعرض عنه. ثم قال: نعم. فمد يده، فبايعه وصار يستحي من مقابلة رسول الله. فقال ﷺ لعثمان: أما بايعته فأمّنته؟ قال: بلى، ولكن يذكر جرمه القديم فيستحي

---

(١) أشار الشيخ بـ ذيل إلى هذا الفصل حتى بيعة الرجال وكأنّه مقحم على قصة الفتح فأراد جعله ملحقاً لها. واستبقيته في صلب النص من وقائع فتح مكة. كذلك في طبعة (غ) المحقق.

منك. قال: الإسلام يجب ما قبله. فذكر له عثمان ما قاله ﷺ فإذا جاء جماعة للنبي. يجيء معهم، ولا يجيء إليه منفرداً.

عبد الله بن خطل:

كان ممّن أسلم قبل فتح مكة، وقدم المدينة، وكان اسمه عبد العزّى فسمّاه رسول الله: عبد الله. وبعثه لأخذ الصدقة، وأرسل معه رجلاً من الأنصار يخدمه، وكان مسلماً. فنزل منزلاً وأمره أن يذبح له تيساً ويصنع له طعاماً ما. ونام ثم استيقظ، فلم يجده صنع له شيئاً وهو نائم. فعدا عليه، فقتله، ثم ارتد مشركاً.

وكان شاعراً يهجو رسول الله في شعره، وكانت له قينتان تغنيانه بهجاء رسول الله الذي يقوله، ولما قدم رسول الله لفتح مكّة ركب عبد الله بن خطل فرسه، ولبس الحديد، وأخذ بيده قناة، وصار يقسم: لا يدخلها محمد عنوة، فلما أبصر خيل المسلمين مقبلة دخله الرعب، فانطلق إلى الكعبة، فنزل عن فرسه، وألقى سلاحه، ودخل تحت أستارها. فأخذ رجل بسلاحه، وركب فرسه، ولحق برسول الله، وهو بالحجون، فأخبره خبره. ولما نزل ﷺ وطاف بالكعبة قيل: هذا ابن خطل معلقاً بأستار الكعبة. فقال: اقتلوه، فإن الكعبة لا تعيذ عاصياً، ولا تمنع من إقامة حدّ واجب، فأخذه أكثر من واحد: سعد بن حريث وأبو برزة والزبير وسعد بن ذويب وسعد بن زيد، واشتركوا في قتله تنفيذاً لحكمه ﷺ فيه.

القينتان:

وأمر ﷺ بقتل قينتي عبد الله بن خطل لعدواتهما للإسلام وتشهيرهما به فقتلت إحداهما، واستؤمن للأخرى، فأمّنها.

الحويرث بن نقيد بن وهب بن عبد بن قصيّ:

كان يؤذي رسول الله بمكّة، ويعظم القول فيه، وينشد فيه الهجاء المقذع. والسبب الذي من أجله، أهدر الرسول دمه: أن العباس عم رسول الله. حمل فاطمة الزهراء، وأختها أم كلثوم من مكة، يريد بهما المدينة. فتعرّض لهما الحويرث، فنخس بهما البعير فرمى بهما إلى الأرض، وكان قاصداً قتلهما،

فنجيا بلطف من الله. ولما دخل رسول الله مكّة، همّ بالهرب، فقبض عليه، وأعيد إلى مكّة، وتولى القصاص منه: علي بن أبي طالب.

مقيس بن ضبابة[1]:

كان أسلم وقدم على رسول الله بالمدينة، طالباً دية أخيه هشام بن ضبابة. قتله رجل من الأنصار في غزوة ذي قرد خطأ، فظنه من العدوّ، ودفع له رسول الله دية أخيه. ثم إنه عدا على الأنصاري قاتل أخيه فقتله، بعد أن أخذ الدية ثم فرّ إلى مكّة، وارتد. نفذ فيه حكم القصاص ابن عمه: نميلة بن عبد الله الليثي بعد أن أخبر أنه مع جماعة من كبار قريش، بردم بني جميح، فذهب إليه فقتله.

هبار بن الأسود بن المطّلب بن أسد بن عبد العزى بن قصيّ

أهدر رسول الله دمه، لأنه كان عرض لزينب بنت رسول الله، وسفهاء قريش حين بعث بها زوجها أبو العاص إلى المدينة، فأهوى إليها هبار، ونخس بعيرها، فسقطت من فوق الجمل على صخرة، وكانت حاملاً فألقت ما في بطنها، وأهراقت الدماء. ولم يزل بها مرضها ذلك، حتى ماتت، ولما دخل المسلمون مكة، يوم الفتح، بحثوا عنه.

ولما رحل رسول الله منصرفه من الجعرانة إلى المدينة، بلغه هبار، رافعاً صوته: يا محمد! أنا جئت مقراً بالإسلام، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله. واعتذر إليه. وقال في اعتذاره: قد هربت منك في البلاد، فأردت اللحوق بالأعاجم، ثم ذكرت عائذتك وفضلك في صفحك عمن جهل عليك، وكنا يا نبي الله! أهل شرك، فهدانا الله بك، وأنقذنا من الهلكة، فاصفح عن جهلي، وعما كان مني، فإني مقر بسوء فعلي. ومعترف بذنبي. فقال: يا هبار! عفوت عنك، وقد أحسن الله إليك حيث هداك إلى الإسلام، والإسلام يجب ما كان قبله.

---

(١) اختلف في (ضبابة) ومنهم من كتبها بالضاد، وآخرون بالخاء. وهي في سيرة ابن هشام بالخاء.

عكرمة بن أبي جهل:

أما سبب إهدار دمه: فإنه كان هو وأبوه، أشدّ الناس أذية لرسول الله وأشدّهم نقمة على المسلمين. ولما بلغه أن النبي أهدر دمه، فرّ إلى اليمن، فاتبعته امرأته بنت عمّه، أم حكيم بنت الحارث بن هشام، بعد أن أسلمت. فوجدته في ساحل البحر، قد ركب السفينة، فردته، وقد نذر على نفسه لئن نجاه الله، ليأتين محمداً، يضع يده في يده. ولما رأى امرأته نزل من السفينة، وقالت له: جئتك من عند أوصل الناس، وأبرّ الناس، وخير النّاس، لا تهلك نفسك، قد استأمنت لك. ولما قدم عليه وثب ﷺ قائماً فرحاً به، ورمى رداءه، وقال: مرحباً بمن جاء مؤمناً مهاجراً. وقال: يا محمد! هذه زوجتي، أخبرتني أنك أمنتني؟ قال: صدقت، إنك آمن. قال عكرمة: أشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأنك عبده ورسوله. وطأطأ رأسه من الحياء. فقال ﷺ: يا عكرمة! ما تسألني شيئاً أقدر عليه، إلا أعطيتكه. قال: استغفر لي كل عداوة عاديتكها. فقال: اللهم اغفر لعكرمة كل عداوة عادانيها، أو منطق تكلّم به. وقال المفسّرون: فيه نزلت الآية:

﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾[1].

وكان الصحابة يسبّون أباه أبا جهل. فقال لهم ﷺ: يأتيكم عكرمة مؤمناً مهاجراً، فلا تسبّوا أباه، فإن سبّ الميت يؤذي الحي، ولا يلحق الميت، وفي رواية ثانية: لا تسبّوا الأموات، فإنهم قد أفضوا إلى ما قدموا، وكفّوا عن مساويهم.

سارة:

أهدر دمها لأنها ارتدت بعد أن استأمنت، وأسلمت في المدينة وأوقر لها بعيراً طعاماً. ولما عادت إلى مكة، صارت تطرب الناس بهجائه، وإيذاء

---

(١) سورة (لقمان) الآية: (٣٢).

المسلمين، ولما سئل ﷺ للعفو عنها، عفا، فأتته مذعنة، وأسلمت، فحسن إسلامها.

الحارث بن هشام المخزومي، وزهير بن أمية المخزومي:

الأول شقيق أبي جهل، وكان شديداً على رسول الله، وعلى المسلمين. والثاني أخو أم سلمة أم المؤمنين، كان شديداً في الكفر، مشهرّاً برسول الله. فأهدر دمه يوم الفتح. فهربا، واختبأا في بيت أم هانىء بنت أبي طالب، شقيقة علي كرم الله وجهه. وكان من أحمائها، قرابة زوجها: هبيرة بن أبي وهب المخزومي، مستجيرين بها، فأجارتهما فتبعهما علي، وكان يريد قتلهما تنفيذاً لأمر رسول الله، فمنعته وحالت دونهما. فقال: تجيرين المشركين! فخرج، فأغلقت باب بيتها عليهما. وجاءت إلى رسول الله، وهو بأعلى الكعبة، فوجدته يغتسل وفاطمة ابنته تستره بثوب فسلّمت عليه، فقال: من هذه؟ قالت: أم هانىء بنت أبي طالب. فقال: مرحباً بأم هانىء. فلما اغتسل، أخذ ثوبه، وتوشح به. ثم صلّى الضحى ثماني ركعات. ثم أقبل عليها، فقال: ما جاء بك؟ فأخبرته خبر الرجلين، وما كان من أمر أخيها. فقال: أجرنا من أجرت، وأمنّا من أمّنت. فلا يقتلهما. فعادت إليهما، وأطلقتهما من مخبئهما.

وعن الحارث قال: لما أجاز النبي جوار أم هانىء، صار لا يتعرّضني أحد بعد ذلك. وكنت أخشى عمر بن الخطاب، فمر علي وأنا جالس فلم يتعرّض لي، وكنت أستحي أن يراني رسول الله، لما أذكر برؤيته إياي ما كنت أفعله به في كل موطن مع المشركين، إلى أن لقيته داخل المسجد، فلقيني بالبشر، ووقف حتى جئته، وشهدت الحق، فقال: الحمد لله الذي هداك، ما كان مثلك يجهل الإسلام. وصار بعد ذلك معدوداً من أفاضل الصحابة.

هبيرة بن وهب المخزومي:

كان من أشدّ الناس عداوة لرسول الله. ولما فتحت مكّة وأهدر دمه كره البقاء بها، وفرّ بشركه إلى نجران، فلم يزل بها حتّى مات، وأسلمت

أم هانىء زوجته، يوم الفتح، وقيل: أسلمت من قبل، وكانت تكتم إسلامها، وإنما أظهرته يوم الفتح.

صفوان بن أميّة بن خلف الجمحي:

كان مثل أبيه، من أشد المشركين، عداوة وإذاية لرسول الله، وللمسلمين، فأهدر رسول الله دمه. فاختفى يوم الفتح، بعد موقعة أسفل مكّة. وقال رواة السيرة: ضاقت به الدّنيا، حتى أراد أن يلقي نفسه في البحر، لولا أن تداركه ابن عمّه عمير بن وهب الجمحي. فقال جاء إلى رسول الله وقال: إن صفوان سيد قومه، وقد هرب، ليقذف نفسه في البحر. فأمنه، فإنك أمنت الأحمر والأسود. فقال له: أدرك ابن عمك فهو آمن. فقال: أعطني علامة يعرف بها أمانك، فإني قد طلبت منه العودة، فقال: لا أعود معك إلا أن تأتيني بعلامة أعرفها، فأعطاه ﷺ عمامته، دخل بها مكة يوم الفتح، فلحقه بالساحل، وهو يهم ركوب البحر. فقال له صفوان: اغرب عني، لا تكلمني. فقال: أي صفوان! فداك أبي وأمّي، جئتك من عند أفضل الناس، وأبرّ الناس، وأحلم الناس، وخير الناس. وهو ابن عمك، عزّه عزك، وشرفه شرفك، وملكه ملكك. قال: إني أخافه على نفسي لما مضى منّي. فقال: هو أحلم من ذلك، وأكرم. وأراه العمامة التي جاء بها علامة على الأمان فرجع معه، حتى وقف على رسول الله، فقال: إن هذا يزعم أنك أمّنتني؟ قال: صدق. فقال: أمهلني بالخيار شهرين. فقال ﷺ: أنت بالخيار أربعة أشهر، فمكث معه مدّة.

ولمّا أراد ﷺ الخروج لحرب هوازن، استقرض منه أربعين ألف درهم، وطلب منه درعاً كانت عنده، فقال: أغصباً يا محمد؟ قال: لا، ولكن عارية، مرجوعة أو مضمونة. ثم خرج مع رسول الله لحرب هوازن، وهو على دين قريش، فلما قسم ﷺ الغنائم، أعطاه على وجه الاستئلاف، مئة من الإبل، ثم مئة، ثم منه حبرة[1]، فكانت ثلاثمئة، ثم رآه ﷺ يرمق شعباً،

---

(١) حبرة: مختارة، منعّمة، سوية الخلقة.

مملوءاً نعماً وشاء. فقال له ﷺ: هل يعجبك هذا، أن يكون لك يا أبا وهب؟ قال: نعم. قال: هو لك بما فيه. فقبض صفوان ما في الشعب. فقال: إن الملوك لا تطيب نفوسها بمثل هذا. ما طابت نفس أحد قط بمثل هذا إلا نبي، فأسلم، وحسن إسلامه.

وكان يقول: كان محمد أبغض الخلق إليّ، فما زال يعطيني، حتّى صار أحب الخلق إليّ.

هند بنت عتبة بن ربيعة زوج أبي سفيان:

أهدر دمها ﷺ لأنها مثلت بعمه حمزة يوم أحد، ولاكت قلبه[١]، ولم تقدر على ابتلاعه، فلفظته. فلما كان يوم الفتح، ورأت كثرة جنود المسلمين، اختفت في بيت زوجها. حتّى استقرّت الأمور، ثم أتته وهو بالأبطح، في جملة النساء اللائي جئن لمبايعته بعد أن بايعه الرجال وكانت متنقبة، فكان يقول لهن بايعنني: على ألا تشركنّ بالله شيئاً، ولا تسرقنّ[٢]، ولا تزنين[٣] ولا تقتلن أولادكن[٤] ولا تأتين بهتان تفترينه بين أيديكن وأرجلكن[٥] ولا تعصين في معروف[٦].

ولما تكلمت، وأظهرت الإسلام. كان من جملة كلامها: الحمد لله الذي أظهر الدين الذي اختاره لنفسه. ثم قالت: لتمسّني رحمتك يا محمد، إني امرأة مؤمنة بالله، مصدقة به. قال: وإنك لهند بنت عتبة. قالت: نعم، فاعف عما سلف، عفا الله عنك يا نبي الله! فقال لها: مرحباً بك. وعفا عنها، وأمّنها، وقبل إسلامها. وبعد أن أسلمت، عمدت إلى صنم كان في

---

(١) والمشهور كبده.
(٢) قالت: والله إني كنت أصبت من مال زوجي الهنة بعد الهنة، وما كنت أدري إن كان ذلك حلالاً، أم لا؟
(٣) قالت: أوتزني الحرّة يا رسول الله؟!
(٤) قالت: ربيناهم صغاراً، فنقتلهم كباراً، وهل تركت لنا ولداً لم تقتله يوم بدر؟
(٥) قالت: والله إن البهتان لقبيح. وما تأمرنا إلا بالرشد ومكارم الأخلاق.
(٦) قالت: ما جلسنا مجلسنا هذا، وفي أنفسنا أنا نعصيك في معروف. (المؤلّف).

بيتها، فجعلت تضربه بالفأس، وتقول له: كنا منك في غرور. ثم أرسلت هديّة إلى رسول الله جديين مشويين، وقديد، مع جارية لها، وأوصتها أن تعتذر إليه، فلما أتته الجارية بالهديّة. قالت: يا رسول الله! إن هنداً تعتذر إليك، وتقول لك: إنما غنمها اليوم قليلة الوالدة. فدعا لها بالبركة.

كعب بن زهير بن أبي سلمى المزني:

أهدر رسول الله دمه، لأنه كان من الشعراء الهجائين له ﷺ وكان يعيّر أخاه بجيراً لما أسلم، وكان يظهر عداوته الشديدة للمسلمين. وسبب عداوته إسلام أخيه، فإنه كان وإياه، على غنم لهما، فلما بلغهما خبره، قال بجير لكعب: اثبت في غنمنا، حتى آتي محمداً، فأسمع كلامه، وأعرف ما عنده. فأقام كعب بأبرق الغراب، وهو ماء لبني أسد، بين المدينة والربذة. ومضى بجير إلى رسول الله فسمع كلامه، وآمن به، فكتب بجير إلى أخيه كعب، يخبره بأنه قد ظهر أمره، وقد تحققت لديه نبوّته، وأنه آمن به واتّبعه. وحثه على القدوم إليه، ليؤمن به كإيمانه. فكتب إليه كعب الأبيات التالية:

ألا مبلغ عني بجيراً رسالة ... فهل لك فيما قلت، ويحك هل لكا؟!
فبيّن لنا إن كنت لست بفاعل ... على أي شيء غير ذلك دلكا
على خلق لم تلف أماً ولا أباً ... عليه، ولم تلف[1] عليه أخالكا!
فإن كنت لم تفعل، فلست بآسف ... ولا قائل، إما عثرت: لعالكا[2]

ثمّ أرسل كعب بالأبيات إلى أخيه بجير، فلما أتته كره أن يكتمها رسول الله، فأنشده إياها، قال: إنه لكذوب. ثم قال: أجل. لم يلف عليه أباه ولا أمه، من لقي منكم كعب بن زهير، فليقتله. فكتب إليه أخوه: إن رسول الله قتل رجالاً ممّن كانوا يهجونه ويؤذونه، فإن كان لك في نفسك حاجة، فطر مسرعاً إلى رسول الله، فإنه لا يقتل أحداً جاء تائباً. وإن أنت أبيت ذلك، فانج إلى نجائك من الأرض.

---

(١) كتبه الشيخ مجزوماً بدون ياء، ولا يستقيم ذلك لاإعراباً ولا عروضاً. والصحيح (ولم تدرك) كما هو في (سيرة ابن هشام) المحقق.

(٢) (لعا) كلمة تقال بها عثرة العاثر. ومعناه: الارتفاع.

فلما بلغت الرسالة كعباً، وعلم أن رسول الله أمر بإراقة دمه ضاقت عليه الأرض، وضاق على نفسه، فلما لم يجد بدّاً، ولا مخلصاً يلتجىء إليه إلا الإسلام، خرج حتى قدم المدينة بعد رجوع النبي ﷺ من فتح مكّة، فنزل على رجل من جهينة، كانت بينه وبينه معرفة، فسأله عن أرقّ الصحابة، فدلّه على أبي بكر، فأتاه، وأخبره بخبره فمشى أبو بكر، وكعب على إثره حتى صار بين يدي رسول الله. فقال: رجل يبايعك، يا رسول الله! فمد يده فبايعه. وكان رسول الله لا يعرفه. فقال يا رسول الله! إن كعب بن زهير، قد جاءك مسلماً، تائباً، يستأمنك، فأمّنه، عند ذلك أنشده قصيدته المشهورة: «بانت سعاد» ولما فرغ من إنشادها رمى ﷺ بردة كانت عليه. اشتراها معاوية من ورثته بعشرين ألف درهم، وهي التي كان يتوارثها الخلفاء، يتبركون بها، إلى أن فقدت عند هجوم التتار على بغداد.

وحشي بن حرب:

أهدر رسول الله دمه، لأنه قتل عمّه حمزة بن عبد المطلب، يوم أحد. فلما فتح مكّة هرب وحشي إلى الطائف، فلما خرج وجد الطائف أسلموا. قال: ضاقت علي المذاهب. فقلت: ألحق بالشام أو اليمن، أو ببعض البلاد، فوالله إني لفي ذلك من همّ. إذ قال لي رجل: ويحك، إنه ما يقتل أحداً يدخل في دينه، فخرجت حتى قدمت عليه، فلم يرعه إلا وأنا قائم على رأسه، أشهد شهادة الحق. فلما رآني قال: وحشي؟ قلت: نعم يا رسول الله! قال: اقعد. فحدثني كيف قتلت حمزة فحدثته. فلما فرغت قال: ويحك! غيب وجهك عنّي، فكنت أتنكب رسول الله حيث كان، لئلا يراني. حتّى قبضه الله.

ثم خرج وحشي مع من خرج لقتال أهل الردّة في خلافة أبي بكر، فقتل مسيلمة الكذاب بحربته التي قتل بها حمزة، فكان يقول: أرجو أن تكون هذه بتلك.

بيعة الرجال

ولما تم احتلال مكة، جلس رسول الله على الصفا، يبايع الناس فجاء

الكبار، والصغار، والرجال، والنساء، فبايعهم على الإسلام أن يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، وعلى الجهاد فتقدم أولاً الرجال، فبايعوه أفواجاً. وجاءه رجل، فأخذته الرعدة، فقال له: هون عليك، فإني لست بملك، إنما ابن امرأة من قريش، كانت تأكل القديد. وكان من جملة من بايعه معاوية بن أبي سفيان[1].

ولمّا فرغ رسول الله من بيعة الرجال، شرع في قبول البيعة من النساء. قال لهن: بايعنني على ألا تشركنّ بالله شيئاً، ولا تسرقن، ولا تزنين، ولا تقتلنّ أولادكنّ، «ولو بإسقاط الأجنة»[2]، ولا تلحقنّ بأزواجكن غير أولادهم، ولا تقعدن مع الرجال في خلوة، ولا تأتين بهتاناً تفترينه بين أيديكن وأرجلكن، ولا تعصين في معروف، ولا تصحن، ولا تنحن، ولا تخمشن وجهاً، ولا تنشزن ولا تحلقن شعراً، ولا تحرقن قرناً[3]، ولا تشققن جيباً، ولا تدعين الويل والثبور.

وبعد أن انتهى ﷺ من قبول البيعة، سأل عمه العباس، قال: أين أبناء

---

(١) وروى عنه، قال: لما كانت واقعة الحديبية، وقع الإسلام في قلبي، فذكرت ذلك لأمي، فقالت: إياك أن تخالف أباك، فيقطع عنك القوت. فأسلمت وأخفيت إسلامي. فقال لي أبو سفيان يوماً وكان يشعر بإسلامي: أخوك خير منك، هو على ديني. فلما كان يوم الفتح، أظهرت إسلامي، ولقيته ﷺ فرحب بي، وكتبت له.

(٢) هذه إضافة وتفسير من الشيخ، رحمه الله، فإن إسقاط الأجنّة غير معروف في ذلك العهد. وإنما استدل في ذلك بقوله عليه الصلاة والسلام عندما سئل عن العزل؟ فقال: إنه الوأد الخفي فكيف بالإسقاط؟ وقد تعرض المؤلف لذلك فيما سبق. المحقق.

(٣) القرن في اللسان: كل ضفيرة من ضفائر الشعر.

الآية الكريمة ١٢ في سورة الممتحنة في مبايعة المؤمنات للرسول ﷺ أشمل وأدق في شروط المبايعة. وما أضيف في هذه الفقرة إنما جاء في أحاديث نبوية، وفي وقائع أخرى وخاصة بعض عادات الجاهلية في الحزن على الموتى. والتي تصدى الإسلام لتصحيحها. والصيغة السابقة في مبايعة هند بنت عتبة تتطابق مع الآية الكريمة. المحقق.

أخيك «يعني: أبا لهب» وهما عتبة ومعتب، لا أراهما. قال العباس: قد تنحيا فيمن تنحى من مشركي قريش. قال: ائتني بهما فركبت إليهما. فأتيت بهما، ودعاهما للإسلام، فأسلما. فسرّ رسول الله بإسلامهما، ودعا لهما، وأخذ بأيديهما، وانطلق بهما، حتى أتى الملتزم فدعا ساعة. ثم انصرف والسرور يرى في وجهه. فقال له العباس: سرك الله يا رسول الله! إني أرى السرور في وجهك. قال: إني استوهبت ابني عمي هذين من ربي فوهبهما لي.

وقد شهدا معه حنيناً والطائف، ولم يأتيا المدينة، بل أقاما في مكة.

مفتاح الكعبة

أرسل بلال إلى عثمان بن طلحة، أن يأتي بالمفتاح. فقال: إنه عند أمي. فرجع بلال إلى رسول الله، فأخبره أن المفتاح عند أمه. فبعث إليها رسولاً تسلمه. فقالت: لا واللات والعزى! لا أوصله إليك أبداً، فقال لها عثمان: يا أمي! ادفعيه إلي. فإنه قد جاء أمر، غير ما كنا عليه. إن لم تفعلي قتلت أنا وأخي، ويأخذه منك غيري، فأدخلته حجرتها. وقالت: أي رجل يدخل يده هاهنا؟[1]

وقالت له: أنشدك الله! أن يكون ذهاب مأثرة قومك على يديك. كل ذلك ورسول الله قائم ينتظر. حتى إنه لينحدر منه مثل الجمان من العرق. فبينما هو يكلمها، إذ سمعت صوت أبي بكر وعمر، والأول رافعاً صوته، وهو يقول: يا عثمان اخرج. فقالت: يا بني! خذ المفتاح. فأن تأخذه أحب إلي من أن تأخذه تيم وعدي. فأخذه عثمان. فخرج يمشي، حتّى إذا كان قريباً من وجه رسول الله، عثر عثمان، فسقط منه المفتاح، فجثا عليه وتناوله.

---

(١) الفقرة مبتورة في المخطوط. هكذا. لعلها في الأصل كذلك. على أنه تهديد مبهم من أم طلحة، زيادة في التهويل. على أن ابن هشام لم يورد هذه القصة. إنما قال: «فلما قضى طوافه، دعا عثمان بن طلحة، فأخذ منه مفتاح الكعبة، ففتحت له» الجزء ٤ صفحة ٥٤.

وفي رواية: فاستقبله ببشر، ثم أخذ منه المفتاح، وفتح الكعبة. وقد تطاول يومئذ العباس عم النبي ﷺ في رجال من بني هاشم، لأخذ المفتاح، والسبب في ذلك: ما حكاه عثمان بن طلحة نفسه، قال:

لقيني رسول الله بمكة قبل الهجرة، ودعاني إلى الإسلام، فقلت: يا محمد! العجب لك؟ تطمع أن أتبعك، وقد خالفت دين قومك، وجئت بدين محمد؟!

وكنا نفتح الكعبة في الجاهلية، يوم الإثنين، والخميس. فأقبل النبي يوماً يريد أن يدخل الكعبة مع الناس، وذلك بعد بعثته فأغلظت له، ونلت منه، فحلم عني. ثم قال: يا عثمان! لعلك سترى هذا المفتاح يوماً بيدي، أضعه حيث شئت.

فقلت: هلكت قريش يومئذ وذلت. وكان قصده أن يقول ما دامت قريش، إنك لا تقدر على ذلك.

فقال: عمرت وعزت يومئذ.

ولما أخذ المفتاح، ودخل الكعبة، تذكرت تلك الساعة هذا القول، ووقع مني موقعاً، ظننت أنه صائر إلى غيري، خصوصاً لما قام علي بن أبي طالب، وقال: يا رسول الله! اجمع لنا الحجابة مع السقاية. فكان جوابه: إني أعطيكم ما تبذلون فيه أموالكم للناس، لا ما تأخذون فيه من الناس أموالهم.

ثم رد ﷺ المفتاح إلى عثمان بن طلحة، وكان معه شيبة ابن عمه. وقال: خذوها. «السدانة خالدة تالدة[1]، لا ينزعها منكم إلا ظالم. يا عثمان! إن الله استأمنكم على بيته، فكلوا مما يصل من هذا البيت بالمعروف.

قال عثمان: فلما وليت ناداني، فرجعت إليه، فقال: ألم يكن الذي قلت

---

(١) تولى سدانة البيت يوم الفتح، تقليداً من النبي ﷺ عثمان بن طلحة، بن عثمان، بن عبد الدار، بن قصي، بن كلاب. واستمرّت فيه إلى أن مات بدن عقب. فانتقلت الولاية إلى ابن عمّه، شيبة بن عثمان بن طلحة بن عبد الله. وبقيت الولاية في أعقاب شيبة، وهم الشيبيون إلى هذا اليوم. المؤلّف.

لك؟! لعلك ترى هذا المفتاح بيدي، أضعه حيث شئت؟ قلت: بلى فقال: إن الله قد أنزل فيك قرآناً. ثم تلا عليه الآية[1]: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا﴾.

ثم خرج ﷺ، ووقف على باب الكعبة، يخطب في الناس.

أحكام وقواعد الشريعة الإسلامية

افتتح رسول الله ﷺ خطاب الحاضرين بكلمة التوحيد، فقال: لا إله إلا الله وحده، لا شريك له. صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده.

ثم استرسل في بيان جملة من الأحكام فقال:

لا يقتل مسلم بكافر، ولا يتوارث أهل ملتين مختلفتين، ولا تنكح المرأة على عمّتها، ولا خالتها. والبينة على المدعي واليمين على من أنكر. ولا تسافر امرأة مسيرة ثلاث ليال إلا مع ذي محرم. ولا صلاة بعد العصر، ولا بعد الصبح. ولا يصام يوم الأضحى، ولا يوم الفطر.

إلى أن قال:

يا معشر قريش! إن الله أذهب عنكم نخوة الجاهلية، وتعظمها بالآباء، والناس من آدم، وآدم من تراب. ثم تلا الآية[2]:

---

(١) سورة النساء الآية: ٥٨ وقد اكتفى الشيخ بصدر الآية ولم يكملها. ويستعمل عادة لفظة: الخ. ويؤيد سبب النزول هذا، الشيخ عبد الرحمن الثعالبي في الجواهر الحسان، قال: «الآية خطاب للنبي ﷺ في أمر مفتاح الكعبة، حين أخذه من عثمان بن طلحة» الجزء١ صفحة ٤٥٧. أما الشيخ ابن عاشور في التحرير والتنوير فيقول: « ذكر الواحدي في أسباب النزول بسند ضعيف، أن الآية نزلت يوم فتح مكة، إذ سلم عثمان بن طلحة مفتاح الكعبة للنبي ﷺ الجزء ٥ صفحة (٩٢). المحقق.

(٢) سورة (الحجرات) الآية: (١٣).

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾.

إنّ الله قد حرم مكة، وخلق السموات والأرض. ويوم خلق الشمس والقمر، ووضع هذين الجبلين، فهي حرام إلى يوم القيامة. لا يحل لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر، يسفك فيها دماء، ولا يعضد فيها شجرة، ولا تحل لأحد كان قبلي، ولم تحل لأحد يكون بعدي. ولم تحل لي إلا هذه الساعة، من صبيحة يوم الفتح، إلى العصر، غضباً على أهلها. ألا قد رجعت حرمتها اليوم، كحرمتها بالأمس. فليبلغ الشاهد منكم الغائب. فمن قال لكم: إن رسول الله قد قاتل فيها، فقولوا: إن الله قد أحلها لرسول الله، ولم يحلها لكم.

لا يحل أن يحمل السلاح بمكة. يا معشر خزاعة! ارفعوا أيديكم عن القتل، فقد كثر القتل! فمن قتل بعد مقامي هذا، فأهله بخير النظرين، إن شاؤوا فدم قاتله، وإن شاؤوا فعقله[1] ثم أمر منادياً أن ينادي بمكة:

من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدع في بيته صنماً إلا كسره. فبادر الناس لكسر أصنامهم.

ثم بعث رسول الله السرايا لكسر الأصنام التي حول مكة، كما سنبينه إن شاء الله تعالى.

ثم وضع يديه على عضادتي الباب، وقال:

يا معشر قريش. ما تظنون أني فاعل بكم؟

فأجابه سهيل بن عمرو:

نقول خيراً، ونظن خيراً، أخ كريم، وابن أخ كريم، وقد قدرت.

---

(١) دخل مكة ابن الأقرع الهذلي، من بني بكر، وهو على شركه، فعرفته خزاعة، فأحاطوا به. فطعنه خراش بمشقصه في بطنه، حتى قتله، ولما بلغ ذلك رسول الله قال: لو كنت قاتلاً مسلماً بكافر، لقتلت خراشاً، ووداه رسول الله ﷺ «المشقص: ما طال من النصل وعرض» المؤلف. ذكره ابن هشام باسم (ابن الأثوع الهذلي) المحقق.

فقال رسول الله: أقول لكم كما قال أخي يوسف: لا تثريب عليكم اليوم. يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين، اذهبوا فأنتم الطلقاء.

فأقام ﷺ بمكّة بعد فتحها ثمانية عشر يوماً. وكان مدة إقامته يقصر الصلاة. وقد حدثت أثناء إقامته حوادث مهمة، منها:

تحريم نكاح المتعـة

كان نكاح المتعة مباحاً عند العرب، ثم أقره الإسلام، ثم نسخ في خيبر، ثم أبيح يوم الفتح، ثم منع بعد إباحته بثلاثة أيام. ففي صحيح مسلم، عن بعض الصحابة: قال: لما أذن لنا رسول الله في المتعة، خرجت أنا ورجل إلى امرأة من بني عامر، كأنها بكرة غيطاء[1]، فعرضنا عليها نفسنا، فقلنا لها: هل لك أن يستمتع منك أحدنا؟ فقالت: ما تدفعان؟ قلنا: بردينا. وفي لفظ: رداءينا. فجعلت تنظر فرأتني أجمل من صاحبي، وترى برد صاحبي أحسن من بردي، فإذا نظرت إلي أعجبتها، وإذا نظرت إلى برد صاحبي أعجبها. فقالت: أنت وبردك تكفيني، فكنت معها ثلاثاً.

وكان فيه[2] خلاف في الصدر الأول ثم ارتفع، وأجمعوا على تحريمه، وعدم جوازه. ونقل عن بعض الصحابة، قال: رأيت رسول الله قائماً بين الركن والباب، وهو يقول:

أيها الناس! إني كنت أذنت لكم في الاستمتاع، ألا وإن الله حرمها إلى يوم القيامة، فمن كان عنده منهن شيء، فليخل سبيلها، ولا تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً.

---

(١) (البكرة): الفتية من الإبل. و(الغيطاء) لم أوفق لمعنى محدد لها، إلا أن يكون اللفظ: (عيطاء) ويستقيم المعنى. من (العيط): طول العنق، فهو أعيط، وهي عيطاء. يقصد: فارعة الطول، بعيدة مهوى القرط. وتلك من الأوصاف المستحبة في النساء. المحقق.

(٢) نكاح المتعة.

وفي رواية مسلم عن جابر، أنه قال: استمتعنا على عهد رسول الله، وأبي بكر، وعمر. والظاهر أن السبب في تكرار إباحتها وتحريمها: الضرورة.

وترتفع بارتفاعها. أبيحت المتعة في خيبر، ولما عاد الجيش منعت في ثنية الوداع. وقيل: إنما سميت بذلك، لأن الصحابة ودعوا النساء هناك اللائي تمتعوا بهن في خيبر. ثم أبيحت لجيش الفتح ثلاثة أيام، ثم منعت. ولم تحرم على القطع، إلا في حجة الوداع. ونقل السهيلي: أنها أبيحت وحرمت ثلاث مرات، وقيل: أربع. وقيل: إن رسول الله لم يحرم المتعة مطلقاً، بل عند الاستغناء عنها. وإباحتها إنما كانت عند الخوف من الزنى، وبذلك كان يفتي ابن عباس. وإنما كان تحريمها على وجه القطع عند حجة الوداع، ثم منعها عمر في خلافته على وجه البتّ.

وقد وقعت مناظرة في المتعة بين القاضي يحيى بن أكثم، وأمير المؤمنين المأمون. لما أذن بإباحتها، فدخل عليه يحيى، وهو متغير اللون بسبب ذلك. فقال له المأمون: مالي أراك متغيراً؟ قال: لما حدث في الإسلام! قال: وما حدث؟ قال: النداء بتحليل الزنى! قال: وهل المتعة زنى؟ قال: نعم. قال: ومن أين لك هذا؟ قال. من كتاب الله وسنة رسوله.

أما الكتاب، فقد قال الله تعالى:

﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾[(١)].

ثم قال: يا أمير المؤمنين! هل زوجة المتعة ملك يمين؟ قال: لا. قال: أهي الزوجة التي عند الله، ترث وتورث، ويلحق بها الولد؟ قال: لا. قال: فقد صار متجاوز هذين من العادين.

وأما السنة فقد روى الزهري بسنده إلى علي بن أبي طالب، كرم الله

---

(١) سورة (المؤمنون) الآيات: (١ ـ ٧).

وجهه، أنه قال: أمرني رسول الله ﷺ أن أنادي بالنهي عن المتعة وتحريمها، بعد أن كان أمر بها.

فالتفت المأمون للحاضرين وقال: أتحفظون هذا من حديث الزهري؟ قالوا: نعم، يا أمير المؤمنين! فقال المأمون: أستغفر الله، نادوا بتحريم المتعة.

استقراض رسول الله العطاء لجيش الفتح

استقرض رسول الله المال من نفر من قريش، أخذ من صفوان بن أمية خمسين ألف درهم. ومن عبد الله بن أبي ربيعة أربعين ألف درهم. ومن حويطب بن عبد العزى أربعين ألف درهم. فكانت عدتها ثلاثين ومئة ألف درهم، فرقها ﷺ في الضعفاء من أصحابه. ووفّى الدائنين مما أفاء الله عليه من غنائم هوازن. وقال: إنما جزاء السلف الحمد والأداء.

منع الشفاعة في إقامة الحدود

أُتي بامرأة إلى رسول الله سرقت متاعاً لغيرها، فأراد قطع يدها. وكان قطع اليد من العقوبات المعروفة في الجاهلية، يقطعون يد السارق اليمنى. ففزع قومها إلى أسامة بن زيد يستشفعون. فلما كلمه أسامة فيها، تلون وجه الرسول وقال: تكلمني في حد من حدود الله تعالى؟ فقال أسامة: استغفر لي يا رسول الله! ثم قام رسول الله في الناس خطيباً:

فأثنى على الله بما هو أهله. ثم قال: أما بعد:

فإنّ ما أهلك الناس قبلكم، أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد. والذي نفس محمد بيده! لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها. ثم أمر رسول الله بتلك المرأة، فقطعت يدها.

ولايـة عتاب بن أسيد

لما عزم رسول الله على الرحيل من مكة، ولى عليها عتاب بن أبي العيص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، وعمره إحدى وعشرون

سنة، وأمره أن يصلي بالناس. وهو أول أمير صلى بالناس في مكة بعد الفتح، وترك معه ﷺ معاذ بن جبل يعلم الناس السنن والفقه والقرآن.

فكان عتاب شديداً على المريب، ليناً على المطيع، من صرامته، قوله: والله. لا أعلم متخلفاً يتخلف عن الصلاة في جماعة إلا ضربت عنقه، فإنه لا يتخلف عن الصلاة إلا منافق. فشكاه أهل مكة إلى رسول الله قالوا: لقد استعملت على أهل الله عتاب بن أسيد، أعرابياً جافياً فقال: هذا الذي رأيت. وفرض له في السنة أربعين أوقية من الفضة، وكسرها، درهم في كل يوم. ويروي أنه قام فخطب، فقال: أيها الناس! أجاع الله كبد من جاع على درهم في كل يوم. فقد رزقني رسول الله درهماً في كل يوم، فليست لي حاجة إلى أحد. وبقي على عمله إلى أن توفي، يوم وفاة أبي بكر الصديق. وقيل: بل عاش إلى سنة إحدى وعشرين، ومات في خلافة عمر، وهو على مكة. وهو الذي حمل قريش على الإسلام.

هـــدم العزى

عقب فتح مكة بخمس ليال، أوفد ﷺ خالد بن الوليد، ومعه ثلاثون فارساً، لهدم العزى. وهي صنم، وضعه سعد بن ظالم الغطفاني، في مكان اسمه نخلة، وهو موضع على ليلة من مكة، وكانت العزى من آلهة قريش، وجميع بني كنانة. وكانت سدنتها لبني شيبان من سليم، حلفاء بني هاشم. وهي من أعظم أصنام العرب. ويعتقدون أن الرب يشتي عند اللات، ويصيف عند العزى، فبنوا لها بيتاً، وكانوا يهدون لها، كما يهدون الكعبة، ويعظمونها كتعظيمها، يطوفون بها، وينحرون عندها.

ولما سمع سادن العزى بقدوم خالد بن الوليد، علق سيفه، واستند في الجبل الذي هي فيه، فلما انتهى خالد إليها هدم البيت بما فيها، وكسر الصنم.

هـــدم سواع

وسير رسول الله عمرو بن العاص، إلى هدم سواع. وهو صنم لهذيل،

على ثلاثة أميال من مكة. فبعثه بعد الفتح، في أيام رمضان. فلما انتهى إليه عمرو لقيه السادن، قال: ما تريد؟ قال: أمرني رسول الله أن أهدمه. قال: لا تقدر على ذلك. فقال عمرو: لم؟ قال: يمنعك. قال: أراك حتى الآن على الباطل، ويحك؟ وهل هو يسمع ويبصر حتى يمنعني؟ قال عمرو: ودنوت منه فكسرته. وأمرت أصحابي فهدموا بيت خزانته، فلم نجد فيه شيئاً. ثم قلت للسادن: كيف رأيت؟ قال: أسلمت لله رب العالمين.

هدم مناة

أوفد ﷺ بعد فتح مكة سعيد بن زيد الأشهلي، لهدم مناة. وهي صنم للأوس والخزرج، ومن دان دينهم من هذيل وبني كعب وخزاعة وغسان. وكانت بالمشلل، وهو جبل على ساحل البحر، يهبط منه إلى قديد. فخرج سعيد في عشرين فارساً، حتى انتهى إلى الصنم وعليه سادن. قال السادن: ما تريد؟ قال سعيد: أريد هدم مناة. قال له: أنت وذاك. على معنى التهكم لظنه أنه لا يقدر على ذلك. فأقبل سعيد يمشي إلى الصنم، ولما وصل إليه خرجت إليه امرأة عريانة، سوداء، ثائرة الرأس، منتشرة الشعر، تدعو الويل والثبور، وتضرب صدرها. فقال لها السادن: مناة! دونك بعض عصاتك. فضربها سعيد فقتلها، وأقبل إلى الصنم ومعه أصحابه، فهدموه. ولم يجدوا في خزانته شيئاً، وانصرف راجعاً إلى رسول الله.

* * *

السرايا
وحملات التأديب

حملته ﷺ لتأديب هوازن

لما فتح ﷺ مكة، وأطاعت له قبائل العرب، تنمرت هوازن وثقيف، ومشى أشراف الطائفتين بعضهم إلى بعض، وقد خافوا أن يغزوهم. وقالوا: إنا نراه قد فرغ لنا، فلا ناهية «لا مانع» له دوننا. والرأي أن نغزوه قبل أن يغزونا. فحشدوا وبغوا، وقالوا: إنّ محمداً لقي قوماً لا يحسنون القتال. وقد كانوا من قبل مصرين على قتاله، فقد نقل عن أبي الزناد: أن هوازن أقامت سنة تجمع الجموع، وتسير رؤساءها في العرب، تجمعهم. فلما فتحت مكة، أجمعوا الأمر على قتاله. وكانت مقاليدهم إلى مالك بن عوف بن سعد بن يرفوع بن واثلة بن درهمان بن نصر بن معاوية بن بكر بن هوان. ويقال له: النصري. فاجتمع إليه من القبائل جموع كثيرة، منهم بنو سعد بن بكر، وهم الذي كان رسول الله مسترضعاً فيهم، وفيهم دريد بن الصمة. وكان شجاعاً مجرباً، لكنه كبر، وقيل: إنه جاوز المئة، وقد عمي وصار لا ينتفع إلا برأيه، ومعرفته بالحرب.

وثقيف، وكان قائدهم كنانة بن عبد ياليل. وكان جملة من اجتمع ألفاً. وجعلوا أمر الجميع إلى مالك بن عوف النصري. وكان عمره ثلاثين سنة. واشترطوا عليه أن يأخذ برأي دريد بن الصمة. فأمرهم مالك أن يسوقوا معهم مواشيهم وأموالهم ونساءهم وأبناءهم، كي يثبتوا عند الحرب، ولا يفروا. فلما نزلوا بأوطاس، اجتمع إليه الناس، وفيهم دريد بن الصمة. فسأل دريد الناس: بأي واد أنتم؟ فقالوا: بأوطاس. قال: نعم مجال الخيل لا حزن ضرس، ولا سهل دهس[1] ثم قال: مالي أسمع رغاء البعير، ونهاق الحمير، وبكاء الصغير، وثغاء الشاء، وخوار البقر؟ فأجيب: ساق مالك بن عوف مع الناس أموالهم ونساءهم وأبناءهم. فسأل دريد: أين مالك؟ وكان توافق معه على ألا يخالفه. فحضر بين يديه، فقال له: إنك جئت تقاتل رجلاً

(١) (الحزن) المرتفع من الأرض. ضد (السهل). و(الضرس): الحجارة ذات الأطراف الحادة، تعيق على السير. و(الدهس): الأرض السهلة، لا هي رمل ولا تراب، أي: إنّ الموقع أيسر وأثبت للرجل والخف والحافر، سلماً وحرباً. المحقق.

كريماً، قد أوطأ العرب، وخافته العجم، وأجلى يهود الحجاز عن ذل وصغار. يا مالك! أما إنك قد أصبحت رئيس قومك. وأن هذا يوم كائن له ما بعده من الأيام. مالي أسمع رغاء البعير، ونهاق الحمير، وبكاء الصغير، ويعار الشاء، وخوار البقر؟ قال مالك: سقت مع الناس أبناءهم ونساءهم وأموالهم. قال دريد: ولم؟ أجاب مالك: أردت أن أجعل خلف كل رجل أهله وماله، ليقاتل عنهم. فزجر دريد بلسانه، كما تزجر الدابة «وهو أن يلصق اللسان بالحنك الأعلى ويصوت به» ثم قال له: رويعي ضأن، والله ما له وللحرب؟ ثم أشار عليه بردّ الذريّة والأموال. وقال: هل يرد المنهزم شيء؟ إن كانت لك، لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه. وإن كانت عليك، فضحت في أهلك ومالك. ثم سأل، فقال: ما فعلت كعب وكلب؟ قالوا: لم يشهدها منهم أحد. قال: غاب الحد والجد! لو كان يوم علاء ورفعة ما غابا! ثم قال لمالك: إن يومك هذا الذي تلقى فيه محمداً ما بعده يوم. فقال له مالك: إني لأطمع أن ترى ما يسرك.

وقال المؤرخون: إن دريداً أشار على مالك بأمور، لم يقبلها منه. بل قال له: والله! لا أطيعك، إنك قد كبرت وضعف رأيك. فقال دريد لهوازن: قد شرط على نفسه ألا يخالفني، وقد خالفني، فأنا أرجع إلى أهلي. فمنعوه. وقال له مالك: والله لتطيعنني يا معشر هوازن! أو لأتكئن على هذا السيف حتى يخرج من ظهري. وقال المؤرخون: قال ذلك، لأنه كره أن يكون لدريد في الأمر رأي. فقالوا كلهم: أطعناك.

ولما سمع ذلك دريد، قال: يا معشر هوازن! إن هذا فاضحكم في عورتكم، وممكن منكم عدوّكم، ولا حق بحصن ثقيف، وتارككم، فانصرفوا واتركوه. فأبوا أن يجيبوه، فاحتملها، وسكت.

ثم إن مالكاً، أمر بالخيل فجعلت صفوفاً، وجعل المشاة خلفهم، وجعل النساء فوق الإبل والبقر والغنم وراء ذلك، كيلا يفروا ويقاتلوا عن مالهم ونسائهم وذراريهم. وقال للناس: إذا رأيتموني شددت عليهم، شدوا عليهم شدة رجل واحد. ثم بعث عيوناً له، ثلاثة نفر، يراقبون أعمال رسول الله،

وأين يكون وجهه إذا خرج من مكة؟ وجاؤوا متفرصين[1] فقال لهم: مالك؟ ويلكم ما خطبكم؟ قالوا: رأينا جيشاً لجباً. والله! ما تماسكنا أن عدنا كما ترى، وإن أطعتنا رجعت بقومك. فقال: أف لكم! بل أنتم أجبن العسكر. فلم يصغ لقولهم، وأمر بسجنهم. ومضى على ما يريده من التعرض لقتال رسول الله ﷺ.

هذا ما كان من أمر هوازن، وأحلافهم. أما ما كان من أمره ﷺ، فإنه لما بلغه اجتماع العرب عليه، انتدب رجلاً من الصحابة، يكشف له خبرهم. فأرسل عبد الله بن أبي حدرد الأسلمي، وأمره أن يدخل فيهم ويقف على أخبارهم، وما أجمعوا عليه. فأتاهم ودخل فيهم، ومكث بينهم يوماً أو يومين، ثم عاد إلى رسول الله ﷺ فأخبره بخبرهم فقال: يا رسول الله! إني انطلقت بين أيديكم حتى طلعت جبل كذا فإذا أنا بهوازن عن بكرة أبيهم بظعنهم ونعمهم وشبانهم اجتمعوا إلى حنين، فأتي إلى خبأة مالك وعنده رؤساء هوازن فكان يقول لهم: إن محمداً لم يقاتل قوماً قط، وأنه كان يلقى قوماً غراراً لا علم لهم بالحروب فيظهر عليهم، فتبسم رسول الله وقال: إن ما لديهم غنيمة للمسلمين غداً إن شاء الله تعالى، فأجمع رسول الله أمر السير إلى هوازن.

تجهيز رسول الله جيشه
لقتال هوازن وأحلافهم

قيل لرسول الله: إن عند صفوان بن أمية أدرعاً وسلاحاً. ولم يكن أسلم، فأرسل إليه، ولما حضر قال: يا أبا أمامة! أعرنا سلاحك نلق به عدوّنا غداً. فقال صفوان: أغصباً يا محمد؟ فقال: بل عارية. وهي مضمونة حتّى تؤدى إليك. فقال: ليس بهذا بأس، فأعطاه مئة درع، بما يكفيها من السلاح. وسأل رسول الله أن يكفيه حملها، ففعل.

---

(١) (متفرصين): لعله من (الفريصة): اللحمة بين الجنب والكتف، لا تزال ترعد، أي: عادوا ترتعد فرائصهم خوفاً ورهبة من جيش المسلمين. المحقق.

واستعار ﷺ من ابن عمه نوفل بن الحارث بن عبد المطلب، ثلاثة آلاف رمح. فأعاره إياها، وقال له رسول الله: كأني أنظر إلى رماحك هذه، تقصف ظهر المشركين.

ثم اقترض ﷺ مالاً، فرقه في الضعفاء من الجيش. أخذ من صفوان بن أمية خمسين ألف درهم. ومن عبد الله بن ربيعة أربعين ألف درهم. ومن حويطب بن عبد العزى أربعين ألف درهم.

وأمر ﷺ بعد ذلك جيشه بالخروج، وكان عدته اثني عشر ألفاً. منهم عشرة آلاف، الذين جاء بهم من المدينة. أربعة آلاف من الأنصار، وألف من المهاجرين، وألف من جهينة، وألف من مزينة، وألف من أسلم، وألف من غفار، وألف من أشجع، وألفان ممن أسلم من أهل مكة، ومعهم ثمانون من المشركين، لم يسلموا. منهم صفوان بن أمية وسهيل بن عمرو[1].

فخرج رسول الله ﷺ بالجيش إلى حنين، وكان أهل مكة ركباناً ومشاة، حتى النساء خرجن يمشين على غير وهن، واستعمل رسول الله على مكة عتاب بن أسيد، وترك معه معاذ بن جبل، يعلم الناس الأحكام والشرائع. ولما قرب رسول الله من أوطاس، صف جيوشه، وفرق الألوية والرايات في المهاجرين والأنصار. فقلد لواء المهاجرين لعلي بن أبي طالب. ولواء الأنصار لسعد بن أبي وقاص. وأعطى عمر بن الخطاب راية. وقلد لواء الخزرج للحباب بن المنذر، ولواء الأوس لأسيد بن حضير. وفي سيرة الدمياطي: أنه ﷺ جعل في كل بطن من الأوس والخزرج، لواء وراية يحملها رجل منهم. وكذلك قبائل العرب.

وكان رسول الله ﷺ راكباً على بغلته، وعليه درعان، والمغفر، والبيضة. ولما مر الجيش بذات أنواط، وهي شجرة من السدر، كان المشركون يعظمونها، وينوطون بها أسلحتهم «يعلقونها بها» فقالوا: يا رسول الله! اجعل

---

(١) هذا التعداد للجيش يختلف في تفاصيله عن التعداد السابق في عنوان: (خروج رسول الله غازياً إلى مكة) وإن اتفق معه في المجموع. المحقق.

لنا ذات أنواط. فقال: الله أكبر! هذا كما قال قوم موسى: «اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة. قال: إنكم قوم تجهلون» لتركبن متن من كان قبلكم. ثم ساروا، فلما كانوا بحنين[1] وانحدروا في الوادي، وذلك عند غبش الصبح. فخرج عليهم القوم، وكانوا كمنوا لهم في شعاب الوادي ومضائقه، بإشارة من دريد بن الصمة. فقد قال لمالك: اجعل لك كميناً يكن لك عوناً. إن حمل القوم عليك جاءهم الكمين من خلفهم، وكررت أنت بمن معك. وإن كانت الحملة لك لم يفلت من القوم أحد. فحملوا على المسلمين حملة واحدة، وكانوا رماة، فاستقبلوهم بالنبل، كأنه جراد منتشر، لا يكاد يسقط لهم سهم. وذكر البراء بن عازب، وكان ممن حضر هذه الحرب، قال: كان هوازن رماة، وإنا لما حملنا عليهم انكشفوا، فأكب العساكر على الغنائم، فاستقبلوهم بالسهام، فأخذ المسلمون في الرجوع منهزمين، لا يلوون على أحد، وخرجت الكتائب من مضيق الوادي في غبش الصبح، فحملوا حملة واحدة، وانكشفت خيل بني سليم مولية، وكانت مع رسول الله، فتبعهم أهل مكّة والناس، فانهزموا.

ذكر أصحاب السيرة في أسباب هذه الهزيمة: أن الطلقاء[2] وهم خليط أهل مكة، الذين خرجوا مع الجيش وكان إسلامهم مدخولاً. قال بعضهم لبعض لما دارت الحرب. اخذلوهم فهذا وقته، فكانوا أول من انهزم وتبعهم الناس.

وقيل للبراء بن عازب: فررتم عن رسول الله يوم حنين؟ فقال: لكن رسول الله لم يفر، فقد انحاز ذات اليمين، ومعه نفر قليل من الصحابة منهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي والعباس وابنه الفضل، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وأسامة بن زيد، وربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، وعتبة ومعتب أبناء أبي لهب، وابن حاضنته. وقد استشهد في هذه الحرب، واختلف الرواة في عدد الذين ثبتوا معه ﷺ في هذه الواقعة، من عشرة إلى

---

(١) (حنين): واد بجنب ذي المجاز، وهو بين مكة والطائف. المؤلف.
(٢) إشارة إلى قول الرسول لهم يوم فتح مكة: «اذهبوا فأنتم الطلقاء». المحقق.

ثلاثمئة ولا منافاة بين الرواة في ذلك، لاختلال اللحظات. فكانوا تارة قليلا، وآونة كثيراً. تارة مجتمعون معه وتارة يتفرقون عن يمينه وشماله.

وعن ابن مسعود، قال: كنت مع رسول الله يوم حنين، فولى الناس وبقيت معه في ثمانين رجلاً من المهاجرين والأنصار، فقمنا على أقدامنا ولم نولهم الدبر. وهم الذين أنزل الله عليهم السكينة[1] ورسول الله على بغلته، لم يمض قدماً. وكان العباس بن عبد المطلب آخذاً بلجام بغلته. يكفها أن تقدم في نحر العدو. وكان أبو سفيان بن الحارث آخذاً بركابه. قال: لما لقينا العدو بحنين اقتحمت عن فرسي، وبيدي السيف مصلتاً، والله يعلم أني أريد الموت دونه، وهو ينظر إلي. فقال له العباس: أخوك أخوك وابن عمك، أبو سفيان، فارض عنه. فقال: غفر الله له كل عداوة عدانيها. قال: ثم التفت إلي، وقال: يا أخي! فقبلت رجله في الركاب، فقال: أبو سفيان بن الحارث من شباب أهل الجنة، ثم ركض ناحية هوازن، ويقول:

أنا النبيّ لا كذب   أنا ابن عبد المطلب

وأخذ كفاً من تراب، ورماه في وجوههم. وقال: شاهت الوجوه، ثم لا ينصرون.

وعن مالك بن أوس قال: حدثني عدة من قومي، شهدوا ذلك اليوم، يقولون: لقد رمى رسول الله ﷺ تلك الرمية من الحصى، فما منا أحد إلا شكا القذى في عينيه، ولقد كنا نجد في صدورنا خفقاً كوقع الحصى في الطاس، ما يهدأ ذلك الخفقان. وعن زيد بن عامر السوائي، وكان شهد ذلك اليوم، فسئل عن الرعب الذي حصل للقوم في ذلك اليوم؟ فأخذ قبضة من الحصاة، فرمى بها في الطست، فطنت. فقال: إنا كنا نجد في أجوافنا مثل هذا. وعن أبي عبد الرحمن الفهري، قال: حدثني أبناؤهم عن آبائهم أنهم قالوا: لم يبق منا أحد، إلا امتلأت عيناه وفمه تراباً، وسمعنا صلصلة كإمرار

---

(١) إشارة إلى الآية الكريمة (٢٦) من سورة (التوبة): ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾. المحقق.

الحديد على الطست. وفي ذلك نزلت الآية[1]:

﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾.

ونقل عن رجل من جيش المشركين. قال: لما التقينا بأصحاب رسول الله ﷺ يوم حنين، لم يقوموا لنا حلب شاة[2]. فلما لقيناهم جعلنا نسوقهم ونحن في آثارهم، حتى انتهينا إلى صاحب البغلة البيضاء، فإذا هو رسول الله ﷺ، فتلقاها عنده رجال، بيض، حسان الوجوه. فقالوا لنا: شاهت الوجوه، فانهزمنا، وركبوا أكتافنا، ولما رأى رسول الله ما رأى من الهزيمة صار يقول: إلي أيها الناس!

وعن عبد الرحمن بن مولى: فلم أر الناس يلوون على شيء، فقال ﷺ لعمه العباس: اصرخ: يا معشر الأنصار! يا أصحاب السمرة! «شجرة بيعة الرضوان» وكان العباس جهوري الصوت، يسمع على مسافة أميال. وفي رواية: أنه ﷺ نادى بنفسه بعد نداء العباس، فالتفت عن يمينه فقال: يا معشر الأنصار! فقالوا: لبيك يا رسول الله! أبشر، نحن معك. ثم التفت عن يساره وقال: يا معشر الأنصار! فقالوا: لبيك يا رسول الله! فنحن معك. وصار الرجل منهم إذا لم يطاوعه بعيره على الرجوع، أي: ينقاد إليه بسرعة. انحدر عنه وتركه ورجع وسيفه وفرسه معه، يؤم الصوت حتى ينتهي إلى رسول الله. وقال بعض الرواة: ما شبهت عطفة الأنصار على رسول الله، إلا عطفة الإبل على أولادها. وفي رواية: فجاء المهاجرون والأنصار بسيوفهم في أيمانهم، كأنها الشهب، فأمرهم أن يصدقوا الحملة، فاقتتلوا مع الأعداء قتالاً شديداً، ولما نظر إلى قتالهم، قال: الآن حمي الوطيس. «وهو حجر التنور» وهي من الكلمات التي لم تسمع من قبل، إلا من فم رسول الله. فولى المشركون الأدبار، والمسلمون في إثرهم، يقتلون

---

(١) سورة (الأنفال). الآية: (١٧).

(٢) لم يثبتوا لنا المدَة التي يستغرقها حلب الشاة.

ويأسرون فيهم. وقد قال رجل من هوازن: ما خيل إلينا، إلا أن كل شجر وحجر فارس يطلبنا.

وكان أمام الأعداء، يوم حنين، رجل على جمل أحمر، بيده راية سوداء في رأس رمح طويل، وهوازن خلفه. إن أدرك من أمامه طعنه برمحه، وإن فاته دفع رمحه لمن وراءه فاتبعوه. فبينما هو كذلك، إذ أهوى إليه علي بن أبي طالب، ورجل من الأنصار، يريدانه. فأتى علي من خلفه وضرب عرقوب الجمل، فوقع على عجزه، ووثب الأنصاري على الرجل، فضربه ضربة أطنّ[1] قدمه بنصف ساقه، واجتلد الناس، فما رجفت راجفة من المسلمين من هزيمتهم، حتى وجدوا الأسارى مكتوفين عند رسول الله.

ولما انهزم المسلمون أول الأمر، تكلم ضعفاء الإيمان من أهل مكة، بما في نفوسهم من الضغن، ومنهم أبو سفيان، فقالوا: لا تنتهي هذه الهزيمة دون البحر، لقد غلبت هوازن. ولم يرض صفوان بن أمية بتلك المقالة، فقال لأبي سفيان: بفيك الكثكث «الحجارة والتراب»[2] وقال هشام بن كلدة، وهو أخو صفوان لأمه: بطل سحر محمد. فقال له صفوان: اسكت، فض الله فاك. فوالله لأن يربّني[3] رجل من قريش، أحبّ إليّ من أن يربّني رجل من هوازن. ومر رجل على صفوان فقال له: أبشر بهزيمة محمد وأصحابه، فوالله لا يجبرونها أبداً. فغضب صفوان، وقال: أتبشرني بظهور الأعراب؟! فوالله لرب[4] من قريش يدبر أمري، أحبّ إليّ من رجل من الأعراب. وقال عكرمة لذلك الرجل: ليس هذا لك، ولا بيدك، الأمر بيد الله. ليس إلى محمد منه شيء، إن أديل عليه اليوم فإن له العاقبة غداً.

ووصل خبر الهزيمة إلى مكة، فسر بذلك قوم لم يثبت الإسلام في

---

(١) (أطنّ) ساقه: قطعها.

(٢) في (اللسان) دقاق التراب، وفتات الحجارة. وهي بالثاء، وليست بالتاء كما وردت في طبعة (غ). المحقق.

(٣) (يربني): يملكني، ويتولّى أمري.

(٤) (رب) هنا بمعنى صاحب الأمر، ومالك الشيء، تقول: ربّ البيت.

قلوبهم، وأظهروا الشماتة. وقال قائل منهم: ترجع العرب إلى دين آبائها. وثبت الله عتاب بن أسيد وجماعة معه، فلم يتغيروا عما هم عليه، حتى جاءتهم البشرى بنصر الله المسلمين، وانهزام هوازن ومن معهم.

وعن قتادة قال: سرعان ما مضى المهزومون إلى مكة يخبرون أهلها بالهزيمة، فسر بذلك قوم من أصحاب القلوب المريضة، وأظهروا الشماتة في المسلمين، وقالوا: قتل محمد وتفرق أصحابه. فقال عتاب بن أسيد: إن قتل محمد فإن دين الله قائم، والذي يعبده محمد حي لا يموت، فما أمسوا حتى جاءهم الخبر بالنصر، فانقلب الحزن سروراً، والخوف أمنا. فسر عتاب ومعاذ، وكبت الخائنون.

ولما انعطف المسلمون راجعين في قتالهم هوازن إلى الذرية، نهاهم رسول الله عن قتلهم، وقال: من قتل قتيلاً من المحاربين فله سلبه. وروي أن أبا طلحة الأنصاري، قتل وحده عشرين قتيلاً، وأخذ أسلابهم. وأدرك ربيعة بن رفيع السلمي، وكان غلاماً دريد بن الصمّة، فأخذ بخطام جمله، وهو يظن أنه امرأة، فإذا هو شيخ كبير عمي، لا يعرفه الغلام فقال له دريد: ماذا تريد؟ فقال: أقتلك. قال: ومن أنت؟ قال: ربيعة بن رفيع السلمي، ثم ضربه بسيفه فلم يغن شيئاً. فقال له دريد يسخر به: بئس ما سلحتك أمك. خذ سيفي هذا من مؤخر الرحل، ثم اضرب به، وارفع عن العظام، واخفض عن الدماغ. فإنّي كذلك كنت أضرب الرجل، ثم إذا ما أتيت أمك فأخبرها، أنك قتلت دريد بن الصمة، فرب يوم قد متعت فيه نساءك. فلم يلتفت إليه حتى قتله. فلما أخبر ربيعة أمه بقتله، قالت له: أما والله! لقد أعتق اثنين بل ثلاثة، هلا تكرمت عن قتله، لما أخبرك بمنه علينا؟ فقال: ما كنت لأتكرم عن رضا الله ورسوله.

وممن شهد الواقعة من النساء مع رسول الله: أم سليم، وكانت مع زوجها أبي طلحة، زيد بن سهل الأنصاري. وكانت حازمة وسطها ببرد لها، وفي حزامها خنجر. وكانت حاملاً يومئذ بابنها عبد الله بن أبي طلحة. فقال لها زوجها: ما هذا الخنجر الذي معك؟ يا أم سليم! قالت: إن دنا مني أحد

من المشركين بعجته به. فقال أبو طلحة: ألا تسمع يا رسول الله ما تقول أم سليم؟! فأعاد عليه القول، فجعل رسول الله يضحك. فقالت: بأبي أنت وأمي يا رسول الله! اقتل هؤلاء الذين انهزموا عنك، فإنهم لذلك أهل. فقال: إن الله قد كفى وأحسن.

وجرح في هذه الواقعة خالد بن الوليد جراحات، أثقلت به. وعن بعض الصحابة قال: رأيت بعدما هزم الله المشركين، ورجع المسلمون إلى رحالهم، رسول الله يمشي في المسلمين، ويقول: من يدلني على رحل خالد بن الوليد؟ حتى دل عليه، فوجده قد أسند إلى مؤخرة الرحل لأنه أثقل بالجراحة، فداواه ﷺ، فشفاه الله في وقته.

وكان جملة من استشهد في هذه الواقعة من المسلمين، أربعة فقط، وقتل من المشركين أثناء الحرب أكثر من سبعين، وفي الانهزام أكثر من ثلاثمئة. وأسر منهم خلق كثير، ومن النساء ستة آلاف.

ولما انهزمت هوازن، أسلم كثير من مشركي مكة وغيرهم، لما رأوا بأعينهم من نصر الله لرسوله ﷺ.

وكانت الغنائم عظيمة جداً، فمن الإبل عشرون ألف بعير، ومن الغنم أكثر من أربعين ألف شاة، ومن الفضة أربعة آلاف أوقية. ولم يذكر عدد البقر لقلته بالنسبة لما ذكر.

وأمر رسول الله ﷺ بديل بن ورقاء الخزاعي أن يسير بالسبي والغنائم إلى الجعرانة، فسار به، وأحدره[1] إلى الجعرانة[2] فكان بها إلى أن انصرف رسول الله من غزوة الطائف.

---

(١) (أحدره): (انحدر) به.

(٢) (الجعرانة) قال صاحب (القاموس) موضع بين مكة والطائف، سمي بريطة بنت سعيد، وكانت تلقب بالجعرانة. وهي المراد في قوله تعالى: ﴿كالتي نقضت غزلها﴾ وقد أفاض (ابن عاشور) في قصّتها في التحرير والتنوير الجزء (١٤) صفحة (٢٦٤). والآية: (٩٢) سورة (النحل). المحقق.

سريّة أبي عامر الأشعري إلى أوطاس

وهو عم أبي موسى الأشعري، بعثه في جماعة من الصحابة، منهم سلمة بن الأكوع، يتعقب فلول المنهزمين من هوازن إلى أوطاس. وقد انقسمت فلول هوازن إلى ثلاثة أقسام: قسم لجأ إلى الطائف، وقسم إلى نخلة، وقسم إلى أوطاس. وهم الذين تعقبتهم هذه السّرية. ولما وافاهم أبو عامر، وكانوا مجتمعين، فناوشوه القتال، فقاتلهم مبارزة، إلى أن قتل منهم تسعة إخوة، واحداً بعد واحد. وكلما بارزه واحد منهم دعاه إلى الإسلام فيأبى فيقول: اللهم اشهد عليه، فإني دعوته إلى الإسلام فلم يجب. ثم يبارزه فيقتله، إلى أن أتى على التسعة. ولما تقدم إليه العاشر، ودعاه إلى الإسلام، وقال: اللهم اشهد عليه. فقال: اللهم لا تشهد علي، فكف عنه أبو عامر، ظناً منه أنه أسلم فأفلت منه، ثم أسلم من بعد. فكان إذا رآه رسول الله، يقول: هذا شريد أبي عامر. ثم استشهد أبو عامر رضي الله عنه، قتله أخوان، وهما العلاء وأوفى أبناء الحارث بن جشم. ثم أدرك أبو موسى قاتل عمّه، فقتله. ثم خلف أبا عامر أبو موسى، باستخلاف عمر بن الخطاب له، وكان من رجال السرية، فأقرّه الناس على ذلك، فقاتل القوم حتى هزمهم، وفتح الله على يديه، وظفر بسبايا وغنائم كثيرة، عاد بها إلى رسول الله.

سريـة الطفيل بن عمرو الدوسي إلى ذي الكفين

وذو الكفين، اسم صنم من خشب، كان لبني عمرو بن حممة الدوسي. فإن النبي لما عزم على السير إلى الطائف لمحاصرة من تحصنوا به من ثقيف، بعث الطفيل لإحراق ذلك الصنم وأن يوافيه بالطائف، فخرج سريعاً فهدمه، وجعل يلقى النار في وجهه، ويقول:

يا ذا الكفين لست من عبادكا　　ميـلادنـا أقـدم مـن ميـلادكـا

إني حشوت النار في فؤادكا

وكان معه من قومه أربعمئة، وكان مطاعاً فيهم، فوافى رسول الله بعد رجوعه من الطائف بأربعة أيام.

سيره ﷺ لمحاصرة الطائف

لما انهزمت ثقيف في حنين، أسرعوا إلى الطائف، وتحصنوا بالمدينة، وادخروا فيها من الأقوات والعتاد ما يكفيهم لمدة سنة، وتهيؤوا للقتال. وكان معهم مالك بن عوف، وجمع من أشراف هوازن. ولما علم رسول الله بخبرهم، هب للمسير نحو الطائف، وجعل على مقدمة الجيش خالد بن الوليد، وكان معه بنو سليم، فيهم مئة فارس. ومر رسول الله بحصن مالك بن عوف، فأمر به فهدم، ومر ببستان ثقيف وهو لأصحابه الذين مر بهم، حين ذهب إلى الطائف، فعرض نفسه عليهم، فأرسل إليهم رسولاً أن يخرجوا منه، وإلا أمر بإحراقه، فأبوا أن يخرجوا منه، فأحرق. واستمر الجيش في سيره، إلى أن وصلت المقدمة، وعليها خالد، إلى الطائف فنزلوا قريباً من الحصن، وعسكروا هناك، وحاصروا المدينة، ورماهم المحصورون بالنبل رمياً شديداً، حتى أصيب كثير من المسلمين بجراحات، وقتل منهم اثنا عشر رجلاً، منهم عبد الله بن أمية المخزومي أخو أم سلمة، وجرح عبد الله بن أبي بكر، وأصيبت عين أبي سفيان فأتي بها في يده، فقال: يا رسول الله! هذه عين أصيبت في سبيل الله. فقال له: إن شئت دعوت فردت عليك، وإن شئت فعين في الجنة. قال: أختار عيناً في الجنة. ورمى بها في يده.

ولما أقبل رسول الله على الطائف، نزل قريباً من الحصن، ولما قتل من قتل من المسلمين ارتفع إلى موضع مسجد الطائف اليوم، وأقام على حصارهم ثمانية عشر يوماً. ونصب المنجنيق على المحصورين، ورماهم به. وهو أول منجنيق رمي به في الإسلام. وكان الذي أشار به سلمان الفارسي. وقيل: إنه صنعه بيده. وأقبل خالد بن الوليد ينادي أهل الحصن إلى البراز فلم يخرج إليه أحد، وناداه عبد ياليل: لا ينزل إليك منا أحد، ولكن نقيم بحصننا فإنه به من الطعام ما يكفينا سنين، فإن أقمتم حتى يذهب ذلك الطعام، خرجنا

إليكم بأسيافنا جميعاً حتى نموت على آخرنا.

وذهب جماعة من الصحابة تحت دبابتين[1] لينقبوا عليهم السور، فتراجعوا إلى جدار الحصن، ليخرقوه، ففطن لهم ثقيف، فأرسلوا إليهم سكك الحديد محمّات بالنار، فخرجوا من تحتها فرموهم بالنبل، فقتلوا منهم رجالاً.

ولما طال الحصار على المسلمين عمدوا إلى قطع الأعشاب وتحريقها، فسألت ثقيف من رسول الله أن يدعها لله وللرحم. فقال: أدعها لله والرحم. ومنع المسلمين من ذلك.

تحرير العبيد

لما عزم رسول الله على ترك غزو الطائف، أمر مناديه أن ينادي: أيما عبد نزل من الحصن، وخرج لنا، فهو حر. فنزل منهم جماعة. اختلف الرواة في عددهم. فقد قيل: ثلاثة عشر. وقيل: ثلاثة وعشرون. ونزل أحدهم في بكرة، فسمى أبو بكرة، وكان عبداً للحارث بن كلدة، فأعتقهم رسول الله ﷺ، ودفع كل واحد منهم إلى رجل من المسلمين، يمونه، فشق ذلك على أهل الطائف مشقة عظيمة.

واستأذن عيينة بن حصن، رسول الله في أن يأتي ثقيفاً في حصنهم، ليدعوهم إلى الإسلام، فأذن له في ذلك، فأتاهم فدخل عليهم، فقال لهم: تمسكوا في حصنكم، فوالله لنحن أذل من العبيد، ولا تعطوا بأيديكم، ولا يشق عليكم قطع هذا الشجر. ثم رجع إلى رسول الله، فقال له: ما صنعت يا عيينة؟ قال: أمرتهم بالإسلام ودعوتهم إليه، وحذرتهم النار، ودللتهم على الجنة. فقال رسول الله: كذبت، إنما قلت لهم: كيت وكيت. فقال: صدقت يا رسول الله! وإني أتوب إلى الله وإليك من ذلك.

---

(١) (الدبابة): آلة من آلات الحرب، تجعل من الجلود، ويدخل فيها الرجال، فيدبون بها إلى الأسوار، فينقّبونها. المؤلف.

إشعار رسول الله أصحابه
بصعوبة فتح الطائف

أقبلت خولة بنت حكيم، زوجة عثمان بن مظعون، على رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله! أعطني إن فتح الله عليك الطائف، حلي بادية بنت غيلان، أو حلي القارعة[1] بنت عقيل، وكانتا من أجمل وأغنى نساء ثقيف. فقال لها: وإن كان لم يؤذن لنا في ثقيف، يا خولة؟ فذكرت ذلك لعمر بن الخطاب، فأتى ودخل على رسول الله، فقال: ما حديث حدثتنيه خولة؟ زعمت أنك قلت لها كذا؟ قال: قلته. قال: أو ما أذن الله فيهم؟ قال: لا. قال: وإذاً، فالرحيل؟ قال: نعم.

استشارة رسول الله أصحابه في القتال أو الرحيل

لما أدرك رسول الله ﷺ مناعة الطائف، استشار أصحاب الرأي من الصحابة في الإقامة على الحصار أو الرحيل؟ فقال له نوفل بن معاوية الديلمي: يا رسول الله! ثعلب في جحر إن أقمت أخذته، وإن تركته لم يضرك. وقال أبو بكر: ما أظن أن تدرك منهم يومك هذا ما تريد. فقال ﷺ: وأنا لا أرى ذلك. ثم أمر عمر بن الخطاب، فأذن بالناس بالرحيل. فضج الناس من ذلك، وقالوا: نرحل ولم يفتح علينا؟ فقال لهم رسول الله: فاغدوا على القتال، فغدوا، فأصيب المسلمون مرّات. فقال ﷺ: إنا قافلون إن شاء الله. فسروا بذلك وأذعنوا، وجعلوا يرحلون. ورسول الله يضحك، متعجباً من سرعة تغير رأيهم، وقد أدركوا أن رأيه أبرك وأنفع من رأيهم فرجعوا إليه.

في ذات كل كبد حراء أجر

ولما ارتحلوا واستقبلوا، قال بعض الصحابة: ادع على ثقيف، أهل

---

(١) القارعة: كتبها الشيخ بالقاف، وهي بالفاء الفارعة، وكذلك هي في سيرة ابن هشام وفي طبعة غ. المحقق.

الطائف. فدعا لهم. وقال في دعائه: اللهم اهد ثقيفاً، ائت بهم مسلمين. وعند انحداره ﷺ على الجعرانة، لقيه سراقة بن مالك، وهو واضع الكتاب الذي كتبه له ﷺ عند الهجرة بين أصبعيه، وينادي: أنا سراقة وهذا كتابي. فقال له ﷺ: هذا يوم وفاء ومودة. أدنوه، فأدنوه منه، فقال له: نعم، في كل ذات كبد حراء أجر.

أصناف المؤلفة

جعل رسول الله المؤلفة ثلاثة أصناف:

صنف يتألفهم ليثبت إسلامهم، وكان إسلامهم ضعيفاً، كأبي سفيان بن حرب.

وصنف ليسلموا، كصفوان بن أمية.

وصنف لدفع أذاهم، وإزالة شرهم، كعيينة بن حصن، والعباس بن مرداس، والأقرع بن حابس.

ولما بدأ القسمة على الصنف الأول، أقبل أبو سفيان، ورأى المال، فقال: يا محمد! أصبحت أكثر قريش! فتبسم رسول الله، ثم أعطاه أربعين أوقية من الفضة، ومئة من الإبل. فقال: يا رسول الله! ابني يزيد «وهو زيد الخير» فأعطاه مثل ذلك. فقال: وابني معاوية؟ فأعطاه أيضاً كذلك، فأخذ أبو سفيان وولداه: مئة وعشرين أوقية من الفضة، وثلاثمئة من الإبل. عند ذلك قال: بأبي أنت وأمي يا رسول الله! لأنت كريم في الحرب والسلم. لقد حاربتك، فنعم المحارب كنت، وسالمتك فنعم المسالم كنت. هذا غاية الكرم، جزاك الله خيراً.

ثم جاء حكيم بن حزام، فسأل رسول الله، فأعطاه مئة من الإبل. ثم سأله أيضاً، فأعطاه مئة ثم أعاد المسألة؟ فأعطاه مئة. وبعد الثالثة، قال له رسول الله معرضاً برغبته: يا حكيم! هذا المال خضر[1] حلو، فمن أخذه

---

(١) خضر بكسر الضاد، أي: يبهج العين، ويشهي النفس. ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا﴾ سورة الأنعام الآية ٩٩. المحقق.

بسخاء، بورك له فيه، ومن أخذه بإشراف نفس، لم يبارك له فيه، وكان كالذي يأكل ولا يشبع. واليد العليا خير من اليد السفلى. فأخذ حكيم المئة الأولى، وترك المئتين المزيدتين. وقال: يا رسول الله! والذي بعثك بالحق! لا أرزأ أحدا بعدك شيئاً، حتى أفارق الدنيا، فكان أبو بكر يدعو حكيماً في خلافته، ليعطيه عطاءه، فيأبى أن يقبل منه شيئاً. وكذلك كان في حياته، أيام عمر، فكان عمر يقول: إني أعرض على حكيم حقه، الذي قسم الله له من هذا الفيء فيأبى أن يقبله.

وممن أعطاهم رسول الله مئة، غير من قدمنا، الأخنس بن شريق وجبير بن مطعم، والجد بن قيس السهمي، والحارث بن الحارث، والحارث بن هشام، وحاطب بن عبد العزّى، وحرملة بن خوذة، وحويطب بن عبد العزى، وحكيم بن طليق، وخالد بن أسيد، وخلف بن هشام، وزهير بن أبي أسيد، وزيد الخيل، والسائب بن أبي السائب، وصيفي بن عائذ، وسهل وسهيل، ابنا عمرو، وشيبة بن عثمان الحجبي، وعبد الرحمن بن يعقوب الثقفي، وسفيان بن عبد الأسد المخزومي، وحميم بن حذيفة العدوي، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وعكرمة بن عامر، العبيدي، وعلقمة بن علاثة، وعمرو بن الأهتم، والعلاء بن جارية الثقفي، وكعب بن الأخنس، ولبيد بن ربيعة العامري، ومالك بن عوف رئيس هوازن، ومطيع بن الأسود القرشي، والنضر بن الحارث، ونوف بن معاوية الكناني، وهشام بن الوليد المخزومي.

ومن الصنف الثاني من المؤلفة: صفوان بن أمية. وكان لما خرج مع رسول الله، على دين قومه أعطاه ثلاثمئة بعير، ثم وفى له دينه، وقد أعطاه في ذلك وادياً مملوءاً إبلاً وغنماً، ولم يزل يعطيه حتى أسلم. ومنهم كثير، ذكرناهم فيمن تقدم، ممن أخذوا المئة.

وممن أعطاه ﷺ من الصنف الثالث، وكان عطاؤه مئة: الأقرع بن حابس التميمي، وعيينة به حصن الفزاري، والعباس بن مرداس السلمي، أعطاه دون المئة. فشكا حاله لرسول الله ضمن أبيات يقول فيها:

وقد كنت في الحرب ذا تدرؤ[1] فلم أعط شيئاً ولم أمنع
وما كنت دون امرىء منهما ومن تخفض اليوم لم يرفع

يعرض بعيينة والأقرع.

فأمر رسول الله أبا بكر، قال: اقطع عني لسانه، وأعطه مئة من الإبل، فأعطي تمام المئة.

ومنهم من أعطاهم ﷺ خمسين، خمسين من الإبل، وهم: عثمان بن وهب المخزومي، وعمير بن وهب، وعدي بن قيس السهمي، وعمرو بن مرداس السلمي، ومخرمة بن نوفل الزهري، وهشام بن عمرو العامري، وسعيد بن يربوع.

ثم أمر ﷺ بقسمة بقية الغنائم على الأعراب، أمر بذلك زيد بن ثابت الأنصاري، وكان من أعظم كتابه، فأحضر الناس والغنائم وقسمها على الناس، فكانت سهامهم: لكل رجل أربعة من الإبل، وأربعين شاة، فإن كان فارساً أخذ اثني عشر من الإبل، ومئة وعشرين شاة. وإن كان معه أكثر من فرس، لم يسهم للزائد. وقد أغنى بهذه العطايا قريشاً، وعوض عنهم ما قد خسروه في حروبهم معه ﷺ.

الاعتراض على هذه القسمة وبعد نظر الرسول فيها

لم يعط رسول الله من هذه الغنائم شيئاً، لا لكبار المهاجرين، ولا لعامة الأنصار، فشق ذلك على المنافقين، وضعفاء الحال منهم، فقال المنافقون: هذه قسمة ما عدل فيها، وما أريد بها وجه الله تعالى. فأخبر رسول الله بذلك، فغضب وقال: إذا لم أعدل فمن يعدل؟ رحم الله أخي موسى، لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر. فقال عمر بن الخطاب وخالد بن الوليد: مرنا

---

(١) (تدرؤ) قال صاحب القاموس: «رجل ذو تدرؤ وتدرأة مدافع ذو عز ومنعة» المحقق.

يا رسول الله أن نضرب عنق القائل. فقال: دعوه، فإنه سيكون له شيعة، يتعمقون في الدين، حتى يخرجوا منه كما يخرج السهم من الرمية، لا يتحدث الناس: أني أقتل أصحابي. فعامل رسول الله ذلك القائل بظاهر حاله، تألفاً للناس على الإسلام.

وقال ضعفاء الحال، وليسوا منافقين: يغفر الله لرسول الله، يعطي قريشاً، ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم، والله إن هذا لعجيب. إذا كانت شدة فنحن ندعى لها، وتعطى الغنائم لغيرنا. وودنا أن نعلم ممن كان هذا؟ فإن كان من الله صبرنا، وإن كان من النبي استعتبناه. فبلغ قولهم رسول الله. فأرسل إلى الأنصار فجمعهم في قبّة من أدم، فخطب فيهم فقال:

يا معشر الأنصار! ألم أجدكم ضلالاً فهداكم الله بي؟ وكنتم متفرقين، فألفكم الله بي؟ وكنتم عالة فأغناكم الله بي؟ وكلما قال شيئاً. قالوا: الله، الله، ورسوله[1]. قال: ما يمنعكم أن تجيبوا رسول الله؟! لو شئتم لقلتم، فصدقتم وصدقتم؟ أتيتنا مكذباً فصدقناك، ومخذولاً فنصرناك، وطريداً فآويناك، وعائلاً فواسيناك، وخائفاً فأمناك؟ قالوا: بلى، المن علينا لله ورسوله.

فقال: ما حديث بلغني عنكم؟ فقال فقهاء الأنصار: أما فقهاؤنا فلم يقولوا شيئاً. وأما ناس منا، حديثة أسنانهم، فقالوا: يغفر الله لرسول الله، يعطي قريشاً ويتركنا، وسيوفنا تقطر من دمائهم!

فقال ﷺ: إني أعطيهم رجالاً حديثي عهد بكفر ومصيبة[2] لتألفهم، وإني أردت أن أخبرهم، أو أجيرهم. أما ترضون أن يرجع الناس بالشاة والبعير، وترجعون برسول الله إلى بيوتكم؟ فوالله لما تنقلبون به خير مما ينقلبون به؟

قال الأنصار: يا رسول الله! قد رضينا.

فقال: فوالذي نفس محمد بيده! لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار، ولو سلك الناس شعباً لسلكت شعب الأنصار. اللهم! ارحم الأنصار،

---

(١) الصيغة عند (ابن هشام): «بلى. الله ورسوله أمنّوأفضل» المحقق.

(٢) ومصيبة؟ ولعل اللفظ: وعصبية. وهي في طبعة غ وعصبته. المحقق.

وأبناء الأنصار. فبكى القوم، حتى اخضلت لحاهم. وقالوا: رضينا برسول الله قسماً وحظاً.

والذي يدلنا على المقصد الأسمى، من إعطاء المؤلفة وحرمان قدماء، المسلمين الذين ثبت الإيمان في قلوبهم، جوابه الشريف لمن قال له: أعطيت عيينة والأقرع وتركت جعيل بن سراقة فقد قال ﷺ: أما والذي نفس محمد بيده! لجعيل خير من طلاع[1] الأرض، كلهم مثل عيينة والأقرع، ولكن أتألفهما ليسلما، ووكلت جعيل بن سراقة لإسلامه. وإني لأعطي الرجل وغيره أحب إلي منه،مخافة أن يكبّه الله في النار على وجهه. إني لأعطي أقواماً أخاف هلعهم وجزعهم، وأكل أقواماً إلى ما جعل الله في قلوبهم من الخير والغنى، منهم: عمرو بن تغلب. قال عمرو: فوالله ما أحب أن لي بها حمر النعم.

وعن جبير بن مطعم قال: بينما أنا مع النبي ﷺ مقفلين من حنين، إذ علقت برسول الله الأعراب، يسألونه أن يعطيهم من الغنيمة. يقولون: يا رسول الله! اقسم علينا شيئاً، حتى اضطروه إلى سحره[2] فخطفت رداءه. فوقف، فقال: أعطوني ردائي، فلو كان عندي عدد هذه العضاه[3] نعماً، لقسمته بينكم، ثم لا تجدوني بخيلاً، ولا كذوباً، ولا جباناً. ثم قام إلى جنب بعير، فأخذ وبرة من سنامها، فدفعها. ثم قال للناس: والله مالي من فيئكم ولا هذه الوبرة، إلا الخمس، والخمس مردود عليكم.

حضور وفد هوازن وإطلاق سباياهم

وبعد القسمة حضر وفد هوازن، يسألون رسول الله ﷺ أن يرد عليهم سبيهم، وأموالهم في ذلك. فقال ﷺ: معي من ترون من المسلمين، وقد

---

(١) طلاع الأرض: ما طلعت عليه الشمس. ومنه قول الحسن: لأن أعلم أنّي بريء من النفاق، أحبّ إلّي من طلاع الأرض ذهباً. المحقق.

(٢) السحر: ما التزق بالحلقوم والمريء من أعلى البطن. اللسان.

(٣) العضاهة: أكبر الشجر، أو الخمط، أو كل ذات شوك، أو ما عظم منها وطال.

استأنيت بكم حتى ظننت أنكم لا تقدمون، وكان في الوفد أبو طرد، ويكنى بأبي برقان، وهو عمه من الرضاعة. فقال: يا رسول الله! إنا أهل وعشيرة، وقد أصابنا من البلاء مالم يخف عليك، وإن فيمن أصبتم الأمهات والأخوات، والعمات والخالات، وحواضنك اللائي كن يكفلنك «لأن حليمة مرضعته كانت من هوازن» لو أرضعنا للحارث بن أبي شمر الغساني، ملك الشام، أو للنعمان بن المنذر ملك العراق، ثم نزل بنا ما نزل، مثل ما أنزلت بنا، لرجونا عطفه، وعائدته علينا، وأنت خير المكفولين. وأنشد أبياتاً يتعطفه بها منها:

فألبس العفو من قد كنت ترضعه   من امهاتك، إن العفو مشتهر

فقال ﷺ: إن أحسن الحديث أصدقه، أبناؤكم ونساؤكم أحب إليكم، أم أموالكم؟ فاختاروا إحدى الطائفتين، إما السبي وإما المال؟ وقد كنت استأنيت بكم حتى ظننت أنكم لا تقدمون، وقد وقعت المقاسم مواقعها. أما مالي ولبني عبد المطلب فهو لكم. ثم قال لهم: إذا أنا صليت الظهر بالناس، فقوموا فقولوا: إنا نستشفع برسول الله إلى المسلمين، وبالمسلمين إلى رسول الله في أبنائنا ونسائنا، وأظهروا إسلامكم. وقولوا: نحن إخوانكم في الدين، فسأسأل لكم الناس.

فلما صلى رسول الله الظهر، قالوا، فتكلموا بما أمرهم به، فقال رسول الله ﷺ بعدما أثنى على الله بما هو أهله: أما بعد فإن إخوانكم هؤلاء جاؤوا تائبين، وإني قد رأيت أن أرد إليه سبيهم، فمن أحب منكم أن يطيب بذكر، فليفعل. ومن أحب منكم أن يكون على حظه، حتى نعطين إياه من أول ما يفيء الله علينا، فليفعل، فلكل من تمسك منكم بحقه من السبي، بكل إنسان ست قلائص[1].

قال المهاجرون والأنصار: ما كان لنا، فهو لرسول الله. فقال الأقرع بن

---

(١) القلوص من الإبل: الشابة، أو الباقية على السير، أو أول ما يركب من إناثها، والناقة الطويلة القوائم.

حابس التميمي: أما أنا وبنو تميم، فلا. وقال عيينة بن حصن الفزاري: أما أنا وبنو فزارة، فلا. وقال العباس بن مرداس السلمي: أما أنا وبنو سليم، فلا. فعارضه بنو سليم. وقالوا: بلى ما كان لنا فهو لله ولرسوله. فقال لهم العباس: وهنتموني حيث صيرتموني منفرداً.

فقال رسول الله: هؤلاء القوم مسلمون، وقد خيرتهم، فلم يعدلوا بالأبناء والنساء شيئاً. فمن كان عنده من النساء سبي، فطابت نفسه أن يرده، فليرده. ومن أبى فليرد ذلك قرضاً علينا بكل إنسان ست فرائض[1] من أول ما يفيء الله علينا. قالوا جميعاً: رضينا وسلمنا.

قال ﷺ: إنا لا ندري، لعل فيكم من لم يرض؟ فمروا عرفاءكم، فليرفعوا إلينا. فرفعت العرفاء إليه أنهم قد رضوا، فردوا، وأعطى هوازن نساءها وأبناءها.

وقد احتاط رسول الله لهذا الأمر، قبل تفريق السبي على المسلمين، فأمر منادياً ينادي: ألا توطأ الحبالى حتى يضعن، ولا غير الحبالى حتى يستبرأن بحيضة. فرد رسول الله عليهم جميع السبي، ولم يتخلف منهم أحد إلا عجوز من عجائزهم كانت عند عيينة بن حصن قال: هذه أم الحي. لعلهم أن يغلوا فداءها؟ ثم ردها بست قلائص[2].

---

(١) الفريضة: ما فرض في السائمة من الصدقة، أو الحصة المفروضة، والمعنى الأخير هو المقصود، وهو مرادف لست قلائص. المحقق.

(٢) فقد جاء ولدها زهير بن صرد، فسامها من عيينة، وأعطاه مئة من الإبل، فأبى وطمع في الزيادة. فتركها وذهب وغاب عنه. ثم مرّ عليه معرضاً، فقال له عيينة: خذها بالمئة فأبى، وقال: لا أدفع إلا خمسين، فأبى عيينة. فغاب عنه ثم مرّ عليه معرضاً فقال: خذها بالخمسين. فقال: لا أدفع إلا خمساً وعشرين. فأبى عيينة فغاب عنه ثم مر معرضاً. فقال: خذها بالخمس والعشرين، فقال: لا آخذها إلا بعشرة، فأبى عيينة، فغاب عنه، ثمّ مرّ معرضاً فقال: خذها بالعشرة، فقال: لا آخذها إلا بستة، والله ما ثديها بناهد، ولا بطنها بوالد، ولا فوها ببارد، ولا صاحبها عند موتها بواجد، ولا درها بناكد «غزير» فقال عيينة: خذها، لا بارك الله لك فيها. ولم يفارقه حتى أخذ لها منه ثوباً قبطياً أبيض من ثياب مصر. المؤلف.

وسأل رسول الله الوفد عن مالك بن عوف النصري؟ فقالوا: هو مع ثقيف بالطائف. فقال: أخبروه إن أتاني مسلماً، رددت عليه أهله، وماله، وأعطيته مئة من الإبل. وأمر بحبس أهله عنده عمته عاتكة، أم عبد الله بن أمية المخزومي. ولم يجز أن يجري السهمان في مال مالك. فلما أخبر بذلك مالك ركب مستخفياً، فأدرك رسول الله بالجعرانة، وقيل بمكة. فرد عليه أهله وماله، وأعطاه فرق ذلك مئة من الإبل التي أخرجها له من الفيء. كما وعد بذلك. وأسلم مالك يومئذ، وحسن إسلامه. واستعمله رسول الله على من أسلم معه من قومه. فكان يقاتل بهم ثقيفاً، لا يخرج لهم سرح، إلا أغار عليه. ضيق عليهم المنافس حتى أسلموا، وقد شهد فتح القادسية ودمشق.

وكان من جملة سبي هوازن: أخته من الرضاع الشيماء، ولما قالت له الشيماء: أنا أختك يا رسول الله؟ قال: وما علامة ذلك؟ فاخبرته بعضة، كان عضها حين كان مسترضعاً عندهم، وأرته إياها. فعرفها، وتذكر ذلك. فقام وبسط لها رداءه، وصنع مثل ذلك بأمه حليمة[1] حين جاءته من قبل ودمعت عيناه. وقال للشيماء: سلي تعطي، واشفعي تشفعي. وخيرها بعد ذلك، فقال: إن أحببت فعندي محبة مكرمة، وإن أحببت أن أمتّعك، وترجعي إلى قومك؟ قالت: بل تمتعني وأرجع إلى قومي. فأعطاها نعماً وشاء وغلاماً. يقال له: مكحول، وجارية. وقيل: أعطاها ثلاثة أعبد غير الجارية. فأعادها قريرة العين.

وبعد أن أتم ﷺ تسوية مشكلة هوازن، وأرضى من معه من العرب، اعتمر من الجعرانة لخمس ليال خلون من ذي القعدة، وقيل بعد ذلك بأيام. ودخل مكة، وطاف، وسعى، وحلق، ورجع الى الجعرانة من ليلته، فكأنه لم يفارقها. وهي موضع بينه وبين مكة ثمانية عشر ميلاً، وكانت مدة إقامته بها ثلاث عشرة ليلة، ثم قفل راجعاً إلى المدينة.

وكان قدومه المدينة لثلاث بقين من ذي القعدة، وقيل: لست. وكانت مدة غيبته عنها أكثر من ثمانين يوماً.

---

(١) (مرضعته) حليمة.

وقد أجمع كتاب السيرة النبوية: أن واقعة بدر، وواقعة حنين كانتا من أهم الأسباب للعرب لظهور الإسلام، كدين وكدولة، فقد انطفت بهما جذوة الشرك في بلاد العرب، وانكسرت شوكة القبلية، وانقطعت الفتنة، وتألفت عناصر الوحدة. ولم يجد العرب بعد تغلب المسلمين بداً من الدخول في الإسلام، والاستظلال بظله الوارف، ولم تبق قوة تناصبه، وترد شكيمته، وتنازعه السيادة. وقد ثبت لهم بالعيان قبل البرهان: أن الله منجز وعده، الذي وعد به رسوله في آية[1]:

﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾.

وقد تمّ لهم ذلك، واستقل الإسلام في الحجاز، بعد جهاد عشر سنين، من حياة بعثته ﷺ وحياته أكبر درس، لمن أراد أن يتجرد لخدمة قومه، بالحق والعدل، وكفى بها موعظة، وكفى بها ذكراً وهداية للمهتدين.

بعث قيس بن سعد الخزرجي إلى صداء

لما انصرف رسول الله ﷺ من الجعرانة بعث قيس بن سعد في أربعمئة فارس إلى صداء، وأمر أن يقاتل من بها من القبائل، وهم حي من اليمن. فقدم على رسول الله زياد بن الحارث الصدائي، فسأل عن ذلك البعث؟فأخبره به، فقال: يا رسول الله! أنا وافدهم إليك.. فاردد الجيش، وأنا كفيل بإسلام قومي وطاعتهم. فقال: الحق بهم فارددهم. فقال: إن راحلتي قد كلت من المسير. فبعث رسول الله خلفهم فردهم، ورجع الصدائي إلى قومه، فقدم بهم بعد خمسة عشر يوماً، فأسلموا جميعاً.

سريّة عيينة بن حصن الفزاري إلى بني تميم

والسبب في توجيه هذه السرية: أن رسول الله بعث بشر بن سفيان العدوي الكلبي، إلى بني كعب بن خزاعة، لأخذ صدقاتهم، وكانوا مع بني

---

(١) سورة (القصص) الآية: (٥).

تميم على ماء واحد، فأخذ بشر صدقات بني كعب، فقال لهم بنو تميم، واستكثروا ذلك: لم تعطوهم أموالكم؟ واجتمعوا ورفعوا السلاح على بشر. ومنعوه من أخذ الصدقة، وحملها إلى رسول الله. فقال لهم بنو كعب: نحن أسلمنا، ولا بد في ديننا من دفع الزكاة. فقال بنو تميم: والله لا ندع بعيراً واحداً يخرج من هنا. فلما رأى بشر ذلك، قدم المدينة وأخبر رسول الله بذلك. فعند ذلك نهد إليهم بعيينة بن حصن الفزاري في خمسين فارساً من العرب، ليس فيهم أحد من المهاجرين والأنصار. فكان يسير الليل ويكمن بالنهار، فهجم عليهم، وأسر منهم أحد عشر رجلاً، وإحدى وعشرين امرأة، وثلاثين صبياً، فجاء بهم إلى المدينة، فأمر بهم ﷺ، فحبسوا في دار رملة بنت الحارث.

فجاء في أمرهم جماعة من رؤساء بني تميم، منهم: عطارد بن حاجب، والزبرقان بن بدر، والأقرع بن حابس. وقيس بن الحارث «واسمه فراس» ونعيم بن سعدة، وعمرو بن الأهتم، ورباح بن الحارث.

فلما رآهم النساء والصبيان من الأسارى، بكوا في وجوههم فجاؤوا إلى باب النبي ﷺ بعد أن دخلوا المسجد، ووجدوا بلالاً، يؤذن لصلاة الظهر، والناس ينتظرون خروج رسول الله ﷺ ليصلي بهم، وقد استبطؤوه. فجاء وفد بني تميم من وراء الحجرات، ونادوا بصوت جاف: اخرج إلينا يا محمد! نفاخرك ونشاعرك، فإن مدحنا زين، وذمنا شين. فخرج رسول الله، وقد تأذى بصياحهم. وقد نزلت في حقهم الآية[1]:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝٤ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

ولما رأى بلال رسول الله، أقام الصلاة، فتعلق به التميميون يكلمونه، فوقف لهم: فقالوا له: نحن ناس من تميم جئنا بشاعرنا، وخطيبنا، لنشاعرك ونفاخرك. فقال لهم رسول الله: ما بالشعر بعثنا، ولا بالفخار أمرنا. ثم

(١) سورة الحجرات الآية: (٤).

مضى، فصلى الظهر، ولما فرغ جلس في صحن المسجد، فأقبل عليه التميميون فقالوا: إن مدحنا لزين، وإن شتمنا لشين. فقالوا: أتأذن لخطيبنا وشاعرنا؟ فقال: أذنت. فليقم.

فقال الأقرع بن حابس لشاب منهم: قم يا عطارد بن حاجب، فاذكر فضلك، وفضل قومك. فتكلم وخطب. فقال: الحمد لله، الذي له علينا الفضل، وهو أهله، الذي جعلنا ملوكاً، ووهب لنا أموالاً عظاماً، نفعل فيها المعروف، وجعلنا أعز أهل المشرق عدداً. فمن مثلنا في الباس، ألسنا رؤوس الناس؟ وأولي فضلهم؟ فمن فاخر فليعدد مثل ما عددنا، وإنا لو شئنا أكثرنا. وإنما أقول هذا لأن يأتوا بمثل قولنا، وأمر أفضل من أمرنا. ثم جلس.

فأمر رسول الله ثابت بن قيس بن شماس أن يجيبه، فقال: قم فأجب الرجل. فقام ثابت فقال:

الحمد لله نحمده ونستعينه، ونؤمن به ونتوكل عليه. ونشهد أن لا إله إلا الله وحده، لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله. دعا المهاجرين من بني عمه، أحسن الناس وجوهاً، وأعظم الناس أخلاقاً، فأجابوه. والحمد لله الذي جعلنا أنصاره، ووزراء رسوله، وعزاً لدينه، فنحن نقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، فمن قالها منع منا نفسه وماله، ومن أباها قاتلناه، وكان رغمه علينا في الله هيناً، أقول قولي هذا، وأستغفر الله للمؤمنين والمؤمنات.

ثم دعا شاعر تميم، وحسان، شاعر رسول الله، فتساجلا، فغلب حسان شاعرهم.

ولما انتهت هذه المساجلة بين الطرفين بفوز الأدب العربي الإسلامي، على الأدب العربي المجوسي[1] قال رسول الله للأقرع بن حابس: لقد كنت غنياً،

---

(١) المجوس يقصد الشيخ: نخوة الجاهلية، والتفاخر بالآباء والأجداد، وإن كانت اللفظة في غير محلها. وهو ما يرمز إليه قوله ﷺ للأقرع: «لقد كنت غنياً، يا أخا =

يا أخا بني دارم! أن تذكر ما كنت ترى أن الناس نسوه! فكان هذا القول أشد عليهم من قول حسان. فقال الأقرع: لخطيبه «يعني رسول الله» أخطب من خطيبنا، ولشاعره أشعر من شاعرنا، ولأصواتهم أعلى من أصواتنا. ثم دنا إلى النبي فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله. فقال له رسول الله: ما يضرك ما كان قبل هذا.

ومما يروي عن جمود عواطف الأقرع: أنه رأى رسول الله يقبل الحسن بن علي، فقال: يا رسول الله! إن لي من الولد عشرة، ما قبلت واحدا منهم؟ فقال ﷺ: من لا يرحم لا يرحم.

ثم أمر ﷺ برد الأسرى والسبي، وأحسن جوائزهم، بعد أن أسلموا كلهم، وأعطى كل واحد اثني عشر أوقية من الفضة.

وقد اختلف المؤرخون في عدد رجال الوفد، فقيل: كانوا سبعين، وقيل: ثمانين، وقيل: تسعين. ونقل ابن عبد البر في الاستيعاب: أنهم لما أسلموا بقوا في المدينة مدة يتعلمون القرآن والدين، ولما أرادوا الخروج، أعطاهم رسول الله نساءهم وأموالهم. وقال: أما بقي منكم أحد؟ وكان عمرو بن الأهتم في ركائبهم. فقال قيس بن عاصم، وكان مشاحناً له: لم يبق إلا غلام حدث في ركائبنا، وأزرى به. فأعطاه رسول الله مثل ما أعطاهم. ولما بلغ عمرو بن الأهتم ما قاله قيس بن عاصم في حقه، لامه على ذلك.

بعث الوليد بن عقبة إلى بني المصطلق ومكايدته لهم وإخفاقه في ذلك

بعث رسول الله الوليد بن عقبة بن أبي معيط، لأخذ الصدقات من بني المصطلق، وهو بطن من خزاعة، وكان بينهم وبين الوليد عداوة في الجاهلية، وكانوا قد أسلموا وبنوا المساجد.

فلما سمعوا بدنو الوليد، خرج منهم عشرون رجلاً بالإبل والغنم،

= بني دارم! أن تذكر ما كنت ترى أن الناس نسوه» صدق رسول الله. المحقق.

يؤدونها عن زكاتهم، فرحاً به وتعظيماً لله ولرسوله. فحدثته نفسه بالسوء، لما رأى السلاح معهم، فخافهم لذلك، مع أنهم لم يحملوه للقائه إلا تجملاً. فرجع من الطريق قبل أن يصلوا إليه، وأخبر النبي بما رآه منهم، مستنداً الظنة، فقال: إنهم لقوه بالسلاح، يحولون بينه وبين الصدقة. وقال عنهم: إنهم ارتدوا. . . !

فهم ﷺ أن يبعث إليهم من يغزوهم، فبلغهم ذلك. وفي رواية مشهورة: أنه بعث إليهم خالد بن الوليد لاستكشاف الخبر خفية في عسكر معه، وأمره أن يخفي عنهم قدومه. فلما دنا منهم، بعث عيوناً ليلاً، فإذا هم ينادون بالصلاة ويصلون. فأتاهم خالد، فلم ير منهم إلا طاعة وخيراً. ثم لقي الحارث بن ضرار الخزاعي، وكان رئيس القوم، فقال: إلى أين؟ فقال: إليكم. قال: ولم؟ قال: إن رسول الله بعث الوليد، فزعم أنك منعتك الزكاة وأردت قتله. فقال: لا والذي بعث محمداً بالحق! ثم عاد خالد بمن معه، فأخبروا النبي الخبر، على وجه الحق. فبعث لهم رسول الله عباد بن بشر يأخذ صدقات أموالهم، ويعلمهم شرائع الإسلام، ويقرئهم القرآن. ولم تحدث الفتنة التي أرادها الوليد بن عقبة، بحكمة الرسول ﷺ.

سريـــة عبد الله بن عوسجـة
إلى بني عمرو بن حارثة

أوفده إليهم بكتاب، يدعوهم فيه إلى الإسلام والطاعة، وذلك في مستهل صفر، وقيل: ربيع الأول، سنة تسع من الهجرة. فأبوا أن يجيبوه، واستخفوا بالدعوة، فغسلوا الخط من الرق، ورقعوا بها أسفل دلوهم. فعاد وأخبر رسول الله بذلك، فدعا عليهم بذهاب العقل، ولم يعاقبهم.

سريـــة قطبة بن عامر الخزرجي
إلى خثعم قريباً من تربة

بعثه ﷺ في صفر، سنة تسع، في عشرين رجلاً، وأمره أن يشن الغارة عليهم، فخرجوا على عشرة أبعرة يتعقبونها، فلقيهم رجل منهم، فسألوه؟

فاستعجم عليهم، وأبى أن يجيبهم، وجعل يصيح بكلمات يحذر قومه فقتلوه، ثم أمهلوا القوم حتى ناموا، فشنوا الغارة عليهم، فاقتتلوا قتالاً شديداً، حتى كبرت الجراحات في الفريقين، ثم هزموهم، وغنموا أموالهم، وساقوا نساءهم وذراريهم تنكيلاً بهم على عدم الإذعان، وترك الطاعة. وجاء سيل فحز بينهم، فعادت السرية بالغنائم، ورجعت إلى المدينة. والمسافة بينهم وبين مكة مسير يومين.

سريـــة الضحاك بن سفيان الكلابي
إلى بني كلاب

أوفده رسول الله ﷺ إلى بني كلاب في جيش، وذلك في ربيع الأول سنة تسع، فجاءهم ودعاهم إلى الإسلام والطاعة، فأبوا، فقاتلهم، فانهزموا، وتركوا أموالهم غنيمة، فصادرها، وعاد بها إلى رسول الله. ومن دلائل تمكن الشعور الديني في النفوس، أن أحد رجال السرية من المسلمين، لقي أباه في جملة القوم، فدعاه إلى الإسلام، فسبه وسب الإسلام، فضرب عرقوب فرس أبيه، فوقع فأمسك أباه، حتى جاء آخر من المسلمين، فقتله.

سريـــة علقمة بن محرز المدلجي
إلى ساحل البحر

بعثه ﷺ إلى طائفة من الحبشان كانوا يقطنون مراكبهم على ساحل جدة، ومعه من الجند ثلاثمئة، فلما خاض البحر ليصل إليهم، هربوا فرجع علقمة بمن معه ولم يلقوا كيداً.

وقد هم أثناء الرجوع، بعض الجنود أن يسرع العودة قبل بقية الجيش، ومنهم عبد الله بن حذافة السهمي، فأخره علقمة عليهم، وكان فيه دعابة، فنزلوا ببعض الطريق، وأوقدوا ناراً يصطلون عليها. فقال لهم عبد الله: عزمت عليكم إلا تواثبتم هذه النار، اختباراً لطاعتهم، فلما هم بعضهم بذلك قال: امنعوا أنفسكم، فإنما كنت أمزح. فلما قدموا المدينة، ذكروا ذلك لرسول الله ﷺ. فقال: من أمركم بمعصية فلا تطيعوه، إنما الطاعة في

المعروف. وقال: لو دخلوها ما خرجوا منها.

سريـــة علي بن أبي طالب
لهـدم الفلس

أوفد رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب، في ربيع الأول، سنة تسع، في مئة وخمسين رجلاً من الأنصار، على مئة بعير، وخمسين فرساً. معهم راية سوداء، ولواء أبيض؛ لهدم الفلس وهو صنم طي.

فأغار على محلة حاتم عند الفجر، فهدموا الفلس، وأحرقوه، وأغار على أحياء أخرى. ووجد في خزينة الصنم أسيافاً[١] وأدراعاً، وغنم سبياً ونعماً وشاء، وفضة. وكان في السبي سفانة «درة» بنت حاتم الطائي، أخت عدي.

ولما قدم الوفد بسفانة على رسول الله ﷺ، جعلت في حضيرة في المسجد، وكانت امرأة جذلة[٢]، ذات وقار وعقل، فمر بها رسول الله ﷺ فقامت له، فقالت: يا محمد! أرأيت أن تخلي عنا، ولا تشمت بنا أحياء العرب؟ فإني ابنة سيد قومي، وإن أبي كان يحمي الذمار، ويفك العاني، ويشبع الجائع، ويكسو العاري، ويقري الضيف، ويطعم الطعام، ويفشي السلام، ولم يرد طالب حاجة قط، أنا ابنة حاتم طي.

فقال لها رسول الله: يا جارية! هذه صفة المؤمنين حقاً، لو كان أبوك مسلماً لترحمنا عليه. ثم التفت إلى الناس فقال: إن أباها كان يحب مكارم الأخلاق. قالت: هلك الوالد، وغاب الوافد، فامنن علي من الله عليك. قال: ومن وافدك؟ قالت: عدي بن حاتم. قال: الفار من الله ورسوله.

---

(١) وهي ثلاث أسياف مشهورة عند العرب: رسوف والمخذم واليماني. المؤلف. والمخذم في اللسان: السيف القاطع، واليماني نسبة إلى اليمن. قال الشاعر:
كأنهم أسيف بيض يمانية ... عضّ مضاربها، باق بها الأثر
أما رسوف فلم أوفق للعثور عليه في اللسان وفي القاموس. المحقق.

(٢) لعلها (جزلة) ذات أرداف وثيرة. وإذا كانت اللفظة من (الجذل) الفرح، فإن المؤنث منها (جذلانة) لا (جذلة) على أن المعنى لا يستقيم مع قوله: (ذات وقار وعقل) ووردت في طبعة (غ) بالذال. المحقق.

قالت: ثم مضى رسول الله، وتركني، حتى إذا كان من الغد، قلت له كذلك. وقال مثل ذلك. ففي اليوم الثالث أشار ﷺ إلى رجل خلفه، وكان علي بن أبي طالب: بأن كلميه، فكلمته. فقال رسول الله: قد فعلت، فلا تعجلي، حتى يجيء من قومك من يكون لك ثقة، فيبلغك إلى بلادك. فآذنيني «أعلميني» فصبرت حتى قدم علي من أثق به، فجئت رسول الله فقلت: قدم رهط من قومي، لي فيهم ثقة. وكانت أسلمت فحسن إسلامها. قالت: فكساني وحملني وأعطاني نفقة. وعند خروجها ودعته، ودعت له، فقالت:

شكرتك يد افتقرت بعد غنى، ولا ملكتك يد استغنت بعد فقر، وأصاب الله بمعروفك مواضعه، ولا جعل لك إلى لئيم حاجة، ولا سلب نعمة من كريم، إلا وجعلك سبباً لردها عليه.

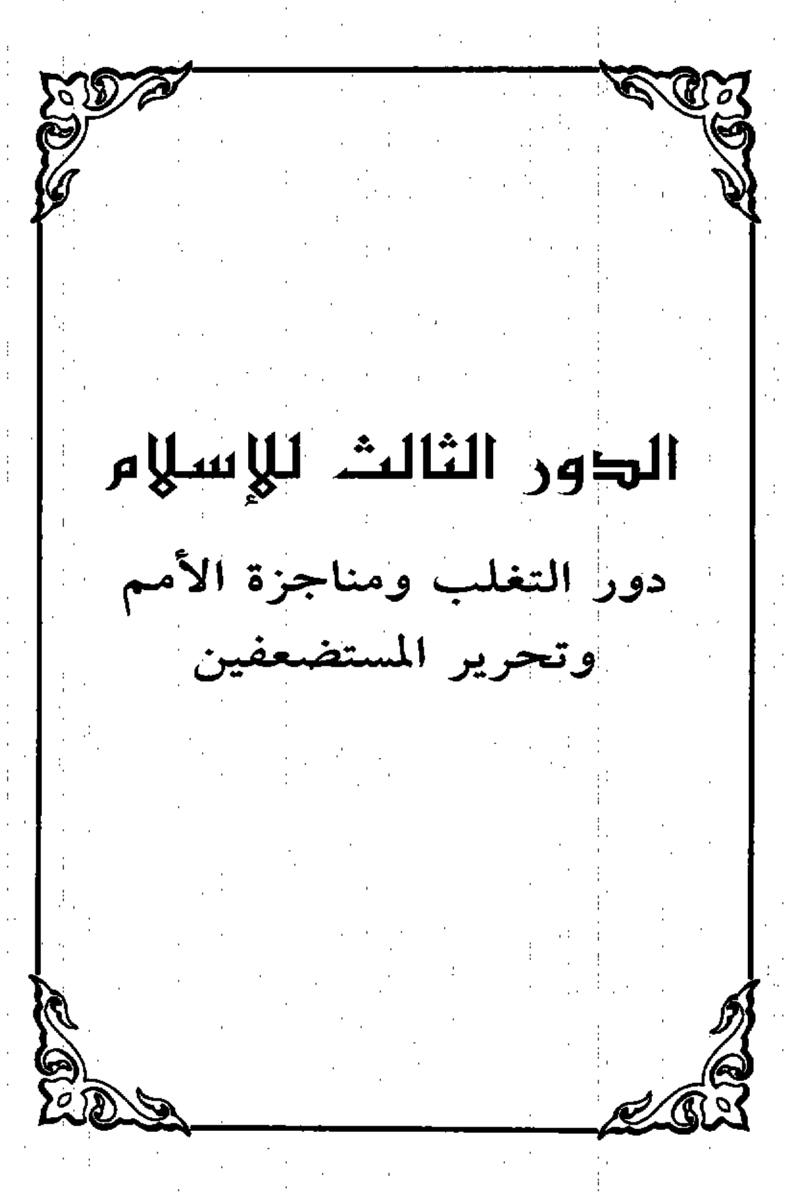
ثم سارت إلى الشام لاحقة بأخيها عدي، ولما لقيته سألها أن تخبره عما رأته في رسول الله، قالت: أرى والله أن تلحق به سريعاً، فإن يك نبياً فللسابق إليه فضيلة، وإن يكن ملكاً، فلن تزال في عز اليمن وأنت أنت. فقال: هذا والله هو الرأي.

سريــة عكاشة بن محصن الأسدي

إلى الحباب وعذرة

الأولى من فزارة وكلب، ولعذرة في أرضهما شرك. وكان خروجهما في ربيع الآخر، سنة تسع، يدعوهما إلى الإسلام، فذهب ودعاهما، وعاد ولم يلق كيداً.

* * *



الدور الثالث للإسلام

دور التغلب ومناجزة الأمم وتحرير المستضعفين

الدّور الثالث للإسلام

دور التغلب ومناجزة الأمم وتحرير المستضعفين

لما تحررت الأمة العربية من نير التقاليد الزائفة، ووحد الإسلام بين قبائلها، وآرائها المختلفة في الحجاز، وأقام لها الرسول من أوساطها دولتها العتيدة، لم يبق في سبيلها مانع من بسطها السلطان ومزاحمتها للدول القويّة على التفوق، وإدارة دفة السياسة والسيادة العالمية، وإنزال الأمم على طاعتها. وذلك هو المقصد الأسمى للرسول ﷺ فيما نهجه من الخطط والتدابير المثلى لسير الإسلام.

﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾[1].

ولتحقيق هذه الغاية كانت المبادرة واجبة؛ لإنقاذ العرب القابعين تحت نير السلطتين الأجنبيتين: الفارسية والرومية، في شرق وغرب بلاد العرب. وما كان الرسول الكريم ليشغله عن هذا الشأن شاغل بعد أن توطدت أقدام الإسلام في الحجاز، وهنا تتجلى لنا عظمة الروح الإسلامية في مظهرها المهيب.

فقد أهاب بالعرب المسلمين، بعد أن رسخت دعائم الإسلام في الحجاز، إلى حروب التحرير من سلطان الغالبين، فأمرهم بمناجزة الروم، لإزالة سلطانهم الغاشم عن بلاد العرب، وأباح الله للرسول الأمين أن يحارب الكتابيين الذي يستعبدون قسماً عظيماً من العرب في البلاد السورية، فتقرر هذا الحكم في آية: ﴿ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾[2].

وتلا ذلك تشريع النظام السياسي للإسلام، وإتمام كيان الدّولة.

---

(١) سورة القصص الآية: (٥).

(٢) سورة التوبة الآية: (٢٩).

أسباب حرب الرسول مع الروم
والعرب المتنصرة

لم يكن ظهور الإسلام في الحجاز، وقيام دولته فيه، بالأمر الهين على الدّولة النصرانية العامة، صاحبة السيادة والسلطان على ممالك الشرق الأدنى، ولا على العرب المتنصرة الذين يمتون لها بصلات التابعية والدين، فكانوا يراقبون الأحداث التي تقع في تلك البلاد الجرداء، بلاد الشمس، والمحل. ولم يكن خفيفاً عليهم استئصال نفوذ الجمعيات الطائفية، التي كانت لليهود في يثرب، ولا سقوط مكة في قبضة الرسول، وانهزام هوازن في واقعة حنين، ولا إعلان العمل بقانون القرآن الأساسي. الذي يصرح بمنع وجود الأديان داخل حدود هذه المملكة.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ﴾(١).

وإنما كانوا ينتظرون الظروف المناسبة للإجهاز على هذه الدّولة الفتية، وهي في المهد، قبل أن تترعرع، ويقوى ساعدها على اقتحام الحروب الخارجية. وما فتئوا يتربصون بها الدوائر، حتى وافاهم الجواسيس المبثوثون في كل مكان بإمساك الغيث عن الحجاز، في السنة العاشرة للبعثة، وانشغال العرب بمعاناة أزمة القحط. وهم أصحاب الكراع، والخف. فقد روى الطبراني في حديث عمران بن حصين الخزاعي قال: كانت نصارى العرب كتبت إلى هرقل: إن هذا الرجل الذي يدعي النبوة هلك، وأصابت البلاد سنون، فهلكت الأموال، فإن كنت تريد أن تلحق دينك «تدرك» فالآن.

ووافته ﷺ الأخبار من طريق الأنباط، الذين كانوا يقدمون بتجارة الزيت من الشام إلى المدينة: أن الروم تحشد له بالشام، وقد جمعت له جيشاً مختلطاً

---

(١) سورة التوبة الآية: (٢٨).

من متنصرة العرب: لخم، وجذام وعاملة وغسان. وغيرهم. وأن مقدمتهم وصلت إلى البلقاء، وقد بلغ عدده أربعين ألفاً، وقد ندب هرقل لقيادتهم قباذاً.

التجهيز لحرب الروم

لما بلغ رسول الله ﷺ حشد الرّوم له، ولم يكن في المسلمين يومئذ جهد، ولا قوّة لمعاناة هذه الحرب العتيدة، التي لا تشبه حروبهم السابقة مع القبائل، وحالة البلاد لا تساعد عليها. ولكن علم النبي بأن الحياة مغامرة، وأن الحرب يجب أن تكون خارج الحجاز، أولى من وقوعها في الداخل، وأكثر القبائل موتورة بمن قتل من رجالها في حروب التأسيس. فلما انقدح له الرأي الأصيل، ورأى أن لا مفر له من الحرب، توكل على الله، فنزلت عند ذلك عليه الآية المؤذنة بالجهاد[1]:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

فحمل رسول الله المسلمين، وحثهم على التجنيد والنفقة. فجاء الصحابة بتبرعات كثيرة. فكان أول من بذل له ماله كله في هذا السبيل: أبو بكر، جاءه بأربعة آلاف درهم، فقال له ﷺ: هل أبقيت لأهلك شيئاً؟ قال: أبقيت لهم الله ورسوله. وجاء عمر بنصف ماله، وجاء عبد الرحمن بن عوف بمئتي أوقية من الفضة، وجاء عاصم بن عدي بسبعين وسقاً من تمر، وجاء عثمان بما كفى لتجهيز ثلث الجيش. وكان يقال: ما ترك لهم حاجة حتى كفاهم شنق[2] أسقيتهم. وروى ابن إسحاق: أن عثمان أنفق في ذلك الجيش نفقة عظيمة، لم ينفق أحد مثلها. وروى قتادة: أن عثمان حمل في جيش العسرة على ألف بعير، وسبعين فرساً. وروى الإمام أحمد والبيهقي عن عبد الرحمن بن سمرة قال: جاء عثمان حين جهز، جيش العسرة بألف دينار

---

(١) سورة التوبة: الآية (١٢٣).

(٢) لعل المقصود بـ شنق: ربط أسقيتهم.

في كمه، فنثرها في حجره ﷺ، فرأيت رسول الله يقلبها في حجره، ويقول: ماضرّ عثمان ما عمل بعد اليوم. وعن حذيفة بن اليمان: أن جملة ما وهبه عثمان لهذا الجيش بلغ عشرة آلاف دينار.

ولما اجتمعت الأموال، أرسل رسول الله ﷺ إلى أهل مكة، وقبائل العرب، يستنفرهم، فجاءته الجنود من كل صوب، ومنهم البكاؤون، منهم سالم بن عمير الأنصاري، وأبو ليلى عبد الرحمن بن كعب الأنصاري، والعرباض بن سارية التميمي، وهرم بن عبد الله بن رفاعة الأنصاري، وعمرو بن عتمة الأنصاري، وعبد الله بن مغفل المزني، وآخرون غيرهم. وهم من فقراء الصحابة، وطلبوا منه أن يستحملهم، فاعتذر لهم، فرجعوا يبكون فنزلت في حقهم الآية:

﴿ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴾[1].

وأوفد أبا موسى الأشعري قومه إلى رسول الله يسأله الحملان فقال: ما عندي ما أحملكم عليه، فرجع إليهم حزيناً. ثم جاء إلى رسول الله ذود من الإبل[2] فبعث به إليهم، فأقبلوا مسرعين.

وعسكر المسلمون في ثنية الوداع، وهناك عقد ﷺ الألوية والرايات لقواد جنده، فدفع لواءه الأعظم لأبي بكر، ورايته العظمى للزبير، ودفع راية الأوس لأسيد بن حضير، وراية الخزرج للحباب بن المنذر. ودفع لكل بطن من الأنصار وقبائل العرب لواءه أو رايته. وتحرك بالجيش من ثنية الوداع، واختلف كتاب السيرة في تقديره، من ثلاثين ألف إلى سبعين ألف، والغالب الرأي المتوسط، وهو أربعون ألف. وكانت الخيل عشرة آلاف، وقيل: اثني عشر ألفاً.

---

(١) سورة التوبة: الآية: ٩٢.

(٢) (الذود): من ثلاثة إلى عشرة، أو خمس عشرة، أو عشرين، أو ثلاثين، أو بين الثنتين والتسع.

المتخلفون بعد الأمر بالنفير العام

وتخلف عن الجيش جماعة، منهم المنافقون، ومنهم القاعدون. وقد خالفوا بذلك الدعوة إلى النفير العام، ونزلت في ذلك آيات تتضمن أحكاماً ملائمة لمثل هذه الحالة، لإزالة أثرها من نفسية القوم.

أما المتخلفون من المنافقين، فمنهم عبد الله بن أبي بن سلول، بعد أن كان قد خرج بقومه، وعسكر بهم أسفل من ثنية الوداع، وجعل يعترض على إقدامه ﷺ على هذه الحرب. ومما قاله في ذلك لتثبيط الهمم: يغزو محمد بني الأصفر، مع جهد الحال والحر والبلد البعيد إلى ما لا طاقة له به. فحسب محمد أن قتال بني الأصفر معه اللعب، والله لكأني أنظر إلى أصحابه مقرنين في الحبال. يقول ذلك إرجافاً برسول الله وأصحابه. ثم رجع بمن تبعه، وتخلفوا عن الجيش.

واجتمع جمع من المنافقين في بيت سويلم اليهودي، فقال قائل منهم: أتحسبون جلاد بني الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضاً؟ والله! لكأني بالصحابة غدواً مقرنين في الحبال. يقول ذلك ترهيباً للمؤمنين، وتثبيطاً لهم على الخروج.

ولما بلغ ذلك رسول الله، قال لعمار بن ياسر: أدرك القوم، فاسألهم عما قالوا؟ فانطلق إليهم عمار، فقال لهم ذلك، فأتوا رسول الله يعتذرون إليه. وقالوا: إنما كنا نخوض ونلعب! وقال ﷺ للجد بن قيس: هل لك في جلاد بني الأصفر؟ قال: يا رسول الله! أو تأذن لي في التخلف؟ ولا تفتني. فوالله لقد عرف قومي، أنه ما من رجل بأشد عجباً بالنساء مني. وإني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر ألا أصبر. فأعرض عنه رسول الله. وقال: قد أذنت لك. فلامه ابنه «الجد بن قيس» عبد الله. قال: والله ما يمنعك إلا النفاق، وسينزل الله فيك قرآناً، فأخذ نعله وضرب به وجهه، عند ذلك نزلت في حقه الآية: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟

﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ﴾[1].

«فتنة النفاق والتخلف عن رسول الله» فقال له ابنه عبد الله: ألم أقل لك؟ فقال له الجد: اسكت يا لكع، فوالله لأنت أشد علي من محمد. وذهب الجد إلى رسول الله وقال: أعينك بمالي، فنزلت في حقه الآية: ﴿قُلۡ أَنفِقُواْ طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمۡ﴾[2].

وقال منافقون آخرون لبعضهم: لا تنفروا في الحر. فنزلت في حقهم الآية: ﴿قُلۡ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّاۚ لَّوۡ كَانُواْ يَفۡقَهُونَ﴾[3].

وتخلف جماعة آخرون من المنافقين بلا عذر، جرأة على الله ورسوله. وفي حقهم نزلت الآية: ﴿وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾[4].

وجاءه الضعفاء المقلون، وعددهم اثنان وثمانون رجلاً، يستأذنونه في التخلف، لضعف حالهم، فأذنهم، وسماهم القرآن المعذرين، وفيهم نزلت الآية: ﴿وَجَآءَ ٱلۡمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ لِيُؤۡذَنَ لَهُمۡ﴾.

وتخلف جماعة من فضلاء المسلمين، منهم كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة بن الربيع في غير عذر، وكانوا غير متهمين في دينهم، فأمر ﷺ بهجرهم ومقاطعتهم بعد رجوعه إلى المدينة، خمسين يوماً، حتى نزلت فيهم آية التوبة، كما سنذكره عنهم.

ومن تخلف أبو خيثمة الأنصاري، فإنه مكث بعد الجيش أياماً، فدخل

---

(١) سورة التوبة الآية: ٤٩.

(٢) سورة التوبة: الآية ٥٣ وتتمة الآية: ﴿إِنَّكُمۡ كُنتُمۡ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ﴾ أضاف المؤلف هامشاً جاء فيه: «والمحققون من العلماء يذهبون إلى إثبات توبة الجد من النفاق. وحسنت توبته، وعاش إلى خلافة عثمان، رضي الله عنه». المحقق.

(٣) سورة التوبة الآية: ٨١ وبداية الآية: ﴿فَرِحَ ٱلۡمُخَلَّفُونَ بِمَقۡعَدِهِمۡ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ الآية.

(٤) سورة التوبة الآية: ٩٠ وبدايتها: ﴿وَجَآءَ ٱلۡمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ لِيُؤۡذَنَ لَهُمۡ﴾ الآية.

على أهله في يوم شديد الحر، فوجد امرأتين له في عريشتين لهما في حائط، قد رشت كل منهما عريشتها، وبردت فيها ماء، وهيأتا طعاماً، فلما نظر إلى ذلك، قال: رسول الله في الحر، وأبو خيثمة في ظل بارد وطعام مهيأ، وامرأة حسناء، ما هذا بالنصف؟ ثم قال: والله! لا أدخل عريش واحدة منكما، حتى ألحق برسول الله، فهيئا لي زاداً، ففعلتا. ثم قدم ناضحه[1] فارتحله وأخذ سيفه ورمحه، ثم خرج في طلب رسول الله، فأدرك عمير بن وهب يطلب اللحاق برسول الله أيضاً، فترافقا حتى دنوا من تبوك. فقال أبو خيثمة لعمير: إن لي ذنباً، فلا عليك أن تتخلف عني، حتى آتي رسول الله ففعل. فلما دنا أبو خيثمة قال الناس: هذا راكب مقبل. فقال رسول الله: كن أبا خيثمة. فلما دنا فنظروه قالوا: أبو خيثمة. فلما أناخ أقبل يسلم على رسول الله. فقال: أولى لك، يا خيثمة أولى لك. وهي كلمة تهديد[2]. ثم أخبره خبره، فدعا له بخير.

ولما مرّ الجيش بالحجر، ديار ثمود استحث[3] رسول الله راحلته، وقال: لا تدخلوا بيوت الذين ظلموا إلا وأنتم باكون، خوفاً أن يصيبكم ما أصابهم. ونهى الناس أن يشربوا من مائها، وأن يتوضؤوا به للصلاة، وأن يعجن منه عجين، وأن يحاس به حيس، وأن يطبخ به طعام.

ثم ارتحل ﷺ بالناس، ولم يزل سائراً حتى نزل بئر صالح، وأخبر الجيش أنه تهب عليهم الليلة ريح شديدة. وأمر من كان له بعير فليشدّ عقاله، ونهى الناس في تلك الليلة عن أن يخرج أحد منهم وحده، بل معه صاحبه. فخرج شخص وحده لحاجة فخنقته الريح. وخرج آخر في طلب بعير له ضل، فتاه حتى ظهر في جبال طيء، فأخبر بذلك ﷺ فقال: ألم أنهكم أن يخرج أحد منكم إلا ومعه صاحبه؟!

وكان ﷺ يستخلف على عسكره أبا بكر الصديق، يصلي بالناس،

---

(١) الناضح: البعير الذي يستقى عليه الماء.
(٢) أولى لك في معجم ألفاظ القرآن الكريم: الويل لك، ولك ما تكره.
(٣) استحث: استعجل.

واستعمل على حرس العسكر عباد بن بشر، فكان يطوف في أصحابه على العسكر. وأصبح الناس يوماً، ولا ماء لهم، وحصل لهم عطش شديد كاد يقطع رقابهم. وعن عمر قال: نزلنا منزلاً أصابنا فيه عطش شديد، فمطرت حتى ارتوى الناس. واحتملوا ما يحتاجون إليه. وذكر بعضهم: حتى أن الرجل يسحر[1] بعيره فيعصر فرثه فيشربه، ويجعل ما بقي على صدره. فشكوا ذلك لرسول الله، فقال له أبو بكر: قد عودك الله من الدعاء خيراً، فادع الله لنا. فقال: أتحب ذلك؟ قال: نعم. فرفع ﷺ يديه إلى الله، وجعل يتضرع إليه، فلم يرجعهما حتى أرسل له سحابة، أنها لم تتجاوز المعسكر، وأن رجلاً من الأنصار قال لآخر متهم بالنفاق: ويحك! قد ترى؟ فقال: إنا مطرنا بنوء كذا وكذا، عند ذلك نزلت آية تكذبه ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾[2].

وتباطأ جمل أبي ذر لما به من الإعياء فتخلف عن الجيش، فأخذ متاعه وحمله على ظهره، ثم خرج يتبع أثر رسول الله ماشياً، فأدركه نازلاً في بعض المنازل. ولما أشرف ونظره شخص، فقال: يا رسول الله! هذا رجل يمشي على الطريق وحده؟ فقال: كن أبا ذر. فلما تأمله القوم، قالوا: يا رسول الله! أبو ذر فقال: رحم الله أبا ذر! يعيش وحده، ويموت وحده، ويبعث وحده. وكان كما قال، فقد مات وكان وحده بالربذة، يسكنها في خلافة عثمان، بسبب اختلاف وقع بينه وبين بعض الصحابة، في بعض ألفاظ القرآن، وتفسير بعض معانيه، فخشي عثمان، وأبو ذر، اتساع الأمر، فاستأذنه في سكنى الربذة[3] فأذن له، فبقي بها حتى مات.

وحكى المغيرة بن شعبة، قال: لما كنا بين الحجر وتبوك، ذهب رسول الله لحاجته، بعد الفجر وتبعته بماء فأبطأ، حتى أسفر الناس بصلاة الفجر، ولم يأتهم رسول الله، فقدموا عبد الرحمن بن عوف، وقد صلّى ركعة، فصلى

---

(١) يسحر: يصاب بالاسهال.

(٢) سورة الواقعة: الآية٨٢.

(٣) الربذة قال صاحب القاموس: «مدفن أبي ذر الغفاري، قرب المدينة».

رسول الله معه الركعة الثانية، ثم قام وأتى بركعة أخرى، وقال لهم بعد فراغه: أحسنتم وأصبتم.

وقبل قدومهم تبوك بليلة، نام رسول الله فلم يستيقظ، حتى كانت الشمس قدر رمح، وقد كان قال لبلال: اكلأ لنا الفجر، فأسند بلال ظهره إلى راحلته، فغلبته عيناه. فقال له ﷺ: ألم أقل لك يا بلال! اكلأ لنا الفجر؟ قال: يا رسول الله! ذهب بي مثل الذي ذهب بك. ثم تحول ﷺ غير بعيد وصلى الصبح قضاء.

وعن بعض الصحابة، قال: بعد أن صلينا وركبنا، جعل بعضنا يهمس لبعض: ما كفارة ما صنعنا من تفريطنا في صلاتنا؟ فقال رسول الله: ما هذا الذي تهمسون دوني؟ فقلنا: يا رسول الله! قد فرطنا في صلاتنا. قال: ما لكم بي أسوة؟ ثم قال: ليس في النوم تفريط، إنما التفريط على من لم يصل الصلاة حتى يجيء وقت الأخرى.

ولما وصل رسول الله ﷺ إلى تبوك، أرسل خالد بن الوليد في أربعمئة فارس إلى أكيدر بن عبد الملك، وكان نصرانياً، مؤمراً من قبل هرقل على دومة الجندل، وهي حصون وقرى بينها وبين الشام خمس ليال، فانتهى إليه خالد، وقد خرج من حصنه في ليلة مقمرة إلى بقر يطاردها هو وأخوه حسان. فشدت عليهما خيل خالد، فأسروا أكيدر وقتلوا حساناً وكان عليه قباء[1] من ديباج مخوص بالذهب، فبعث به خالد إلى رسول الله، وهرب من كان معهما، ودخلوا الحصن وأغلقوه، ثم أجار خالد أكيدر من القتل حتى يأتي به رسول الله، على أن يفتح لخالد دومة الجندل، وصالحه على ألفي بعير، وثمانمئة فرس، وأربعمئة درع، وأربعمئة رمح، ففتح الحصن، فدخله خالد، وأخذ ما صالحه عليه، وخمسه. ثم قدم بأكيدر على رسول الله فحقن ﷺ دمه، وصالحه على الجزية، وخلى سبيله.

وكان هرقل مقيماً بحمص. وفي هذه الغزوة كتب ﷺ إليه يدعوه إلى

---

(١) القباء: نوع من الثياب التي تلتف بالجسم فوق الثياب العادية.

الإسلام[1] ووفد عليه وهو بتبوك صاحب إيلة[2] ومعه أهل جرباء وأهل أذرح وأهدى صاحب إيلة إلى رسول الله بغلة بيضاء، فكساه ﷺ برداً. وقد صالح رسول الله على الجزية، بعد أن عرض عليه الإسلام فأباه. وكتب إلى أهل إيلة الكتاب التالي:

هذا منة من الله، ومحمد النبي رسول الله، لحجنة بن رؤبة وأهل إيلة، سفنهم وسيارتهم في البر والبحر، لهم ذمة الله تعالى ومحمد النبي، ومن كان معهم من أهل الشام، وأهل اليمن، وأهل البحر. فمن أحدث منهم حدثاً، فإنه لا يحول ماله دون نفسه، وإنه عطية لمن أخذه من الناس، وإنه لا يحل أن يمنعوا ماء يريدونه، ولا طريقاً يريدونه من بر أو بحر.

وكتب ﷺ لأهل أذرح وجرباء ما صورته:

بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتاب من محمد النبي، لأهل أذرح وجرباء، إنهم آمنون بأمان الله وأمان محمد ﷺ وإن عليهم مئة دينار في كل رجب، وافية طيبة، والله كفيل بالنصح والإحسان للمسلمين.

وصالح ﷺ أهل منيا على ربع ثمارهم، وأقام ﷺ بتبوك بضع عشرة ليلة، وقيل: عشرين، ولم يلق كيداً. وفر الناس من النصارى رعباً منه، عند سماعهم بقدومه، فأعز الله نبيه، ومكن الخوف منه، ومن أصحابه في أفئدة الروم.

استشـارة رسول الله أصحابه في مجـاوزة تبوك

دعا رسول الله ﷺ قواده وكبار أصحابه، واستشارهم في مجاوزة تبوك،

---

(١) «بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام. أسلم تسلم، يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإنما عليك إثم الآريين. يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة، سواء بيننا وبينكم، ألا نعبد إلا الله، ولا نشرك به شيئاً، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون». المؤلف.

(٢) جاء في (معجم البلدان): هي آخر الحجاز وأوّل الشام. المحقق.

بعدما انتشر صيته فيما وراءها، وقذف الله الرعب في قلوب العرب المتنصرة والروم. فقال عمر بن الخطاب: إن كنت أمرت بالسير فسر ونحن معك. فقال ﷺ: لو كنت أمرت بالسير ما استشرتكم فيه، فأشار أكثرهم بالعدول، وقالوا: إن للروم جموعاً كثيرة، وليس بها أحد من أهل الإسلام، وقد دنونا وأفزعناهم، فلو رجعنا هذه السنة حتى ترى، ويحدث الله بعد ذلك أمراً.

وفي تبوك أنزلت آيات من سورة بني إسرائيل[١]:

﴿ وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا ۝ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴾.

وفي الآيتين إشارة إلى ما كان يقوله اليهود لرسول الله وهو بالمدينة، فقد كانوا يغرونه بالشام، ويقولون: إن كنت نبياً صادقاً فالحق بالشام، فإنها أرض المحشر، وموطن الأنبياء، فقام لتحقيق ما قالوا، وكان قصدهم دفعه إلى المجالدة مع الروم، ليوقعوه مع المسلمين في التهلكة، فأمره الله كيداً لهم بالرجوع إلى المدينة. وبذلك نزلت الآية الثانية[٢]:

﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴾.

ثم انصرف رسول الله عائداً بجيوشه إلى المدينة، وبنى في طريقه عشرين مسجداً، وأجرى العيون كي يسهل السفر على الجيوش، عند العزم على فتح البلاد السورية.

---

(١) سورة الإسراء الآية: ٧٦ ـ ٧٧ قال الشيخ ابن عاشور في التحرير والتنوير: «تسمّى في عهد الصحابة سورة بني إسرائيل. ففي جامع الترمذي، في أبواب الدعاء، عن عائشة، رضي الله عنها قالت: كان النبي ﷺ لا ينام حتى يقرأ الزمر وبني إسرائيل» وذكر الشيخ الثعالبي في الجواهر الحسان عن عبد الله بن مسعود، أنه قال في بني إسرائيل والكهف ومريم: إنهم من العتاق الأول، وهن من تلادي» وسماها هود ابن محكم الهواري سورة بني إسرائيل. المحقق.

(٢) سورة الإسراء الآية: ٨٠.

مؤامرة المنـافقين على الفتك برسول الله ﷺ

أجمع المنافقون الذين كانوا في الجيش، مع رسول الله، وهم اثنا عشر. وقيل: خمسة عشر رجلاً، على الإيقاع برسول الله في العقبة، التي بين تبوك والمدينة، فقالوا: إذا أخذ في العقبة دفعناه عن راحلته في الوادي. فعلم رسول الله ﷺ بما عزموا عليه، فلما وصل الجيش العقبة نادى منادي رسول الله: إن رسول الله يريد أن يسلك العقبة، فلا يسلكها أحد، واسلكوا بطن الوادي، فإنه أسهل لكم وأوسع. فلما سمع المنافقون النداء، أسرعوا وتلثموا، وسلكوا العقبة خلافاً لإذن رسول الله، وسلك العسكر بطن الوادي، وسلك رسول الله العقبة، وأمر عمار بن ياسر أن يأخذ بزمام ناقته، وأمر حذيفة بن اليمان أن يسوقها من خلف، فكانا يتناوبان ذلك.

فبينما رسول الله ﷺ يسير في العقبة، إذ سمع حس القوم قد غشوه، فنفرت ناقة رسول الله ﷺ حتى سقط بعض متاعه، فغضب من ذلك، وأمر حذيفة أن يردهم. فرجع حذيفة إليهم، وقد رأى غضب رسول الله، ومعه محجن، فجعل يضرب وجوه رواحلهم. ويقول: إليكم إليكم ياأعداء الله! فإذا هو برجال ملثمين، فعلموا أن رسول الله اطلع على قصدهم، فولوا مدبرين. فانحطوا عن العقبة مسرعين إلى بطن الوادي، واختلطوا بالناس، فرجع حذيفة، فسأله رسول الله: هل عرفت أحداً من الذين رددتهم؟ قال: لا، كانوا متلثمين، وكانت الليلة مظلمة، وإنما عرفت راحلة فلان وفلان. قال هل علمت ما كان من شأنهم وما أرادوه قال: لا، قال: إنهم أرادوا أن يسيروا معي في العقبة، فيزحموني ويطرحوني منها إلى الوادي، فاكتماهم. ولما أصبح جاء إليه أسيد بن حضير، فقال: يا رسول الله! ما منعك البارحة من سلوك الوادي؟ فقد كان أسهل من العقبة قال: أتدري ما أراد المنافقون؟ وذكر القصة فقال: يا رسول الله! قد نزل الناس واجتمعوا، فمر كل بطن أن يقتل الرجل الذي همَّ بهذا، وإن أحببت فبين أسماءهم. والذي بعثك بالحق! لا أبرح حتى آتيك برؤوسهم. فقال: فإني أكره أن يقول الناس إن محمداً قاتل بقوم، حتى إذا أظهره الله بهم، أقبل عليهم فقتلهم. فقال أسيد:

يا رسول الله! هؤلاء ليسوا بأصحابك. فقال: أليسوا يظهرون الشهادة؟ ثم جمعهم ﷺ وأخبرهم بما قالوه، وما أجمعوا عليه، فحلفوا بالله ما قالوا، ولا أرادوا الذي يذكره عنهم. فنزلت الآية في تكذيبهم:

﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا ﴾[1].

وقد كان المنافقون الذين تخلفوا بالمدينة، يخبرون عن النبي أخبار السوء، يقولون: إن محمداً وأصحابه قد جهدوا في سفرهم، وهلكوا، فلما بلغتهم الأخبار على وجهها الصحيح، وبان كذبهم، ساءهم ذلك، ونزل في حقهم:

﴿ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴾[2].

وخرج أهل المدينة للقاء رسول الله. واستبشروا بمقدمه الميمون.

ولما دنا من المدينة، أمر أصحابه ومن معه من الجيش، ألا يكلموا رجلاً من المتخلفين فأعرض عنهم رسول الله، وأعرض عنهم المسلمون، حتى أن الرجل يعرض عن أبيه وأخيه، أما المنافقون فجعلوا يحلفون ويعتذرون فقبل رسول الله اعتذارهم، واستغفر لهم، ووكل سريرتهم إلى الله، وأما الثلاثة مالك ومن معه فأرجأهم، وأخر أمرهم، وفيهم نزلت الآية:

﴿ وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾[3].

كعب بن مالك يحدثنا عن قصة تخلفه

قال: لم أتخلف عن رسول الله منذ أسلمت إلا غزوة تبوك، وتخلفت في غزوة بدر فيمن تخلف عنها من الصحابة، ولم يعاقب منهم أحد، والسر في ذلك أنه خرج في غزوة بدر يريد عيراً لقريش، حتى جمع الله بينهم وبين

---

(١) سورة (التوبة) الآية: (٧٤).

(٢) سورة (التوبة) الآية: (٥٠).

(٣) سورة (التوبة) الآية: (١٠٦).

عدوهم لغير ميعاد. وقد شهدت مع رسول الله ليلة العقبة حين توافقنا على الإسلام، وما أحب أن لي بها مشهد بدر، وإن كانت بدراً أذكر في الناس. وكان من خبري حين تخلفت عنه في غزوة تبوك أني لم أكن قط أقوى مني، ولا أيسر، حين تخلفت عنه في تلك الغزوة. والله ما جمعت قبلها راحلتين قط، حتى جمعتهما في تلك الغزوة.

ولم يكن رسول الله يريد غزوة إلا ورّى بغيرها، حتى كانت تلك الغزوة، فغزاها رسول الله في حر شديد، واستقبل سفراً بعيداً ومفاوز، واستقبل عدواً كثيراً. فجلّى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة غزوهم، وأخبر الناس بوجههم الذي يريدون، والمسلمون مع رسول الله كثير، لا يجمعهم بذلك كتاب حافظ «يريد بذلك الديوان» فقلّ رجل يريد أن يتغيب، إلا ظن أن ذلك يخفى، ما لم ينزل فيه وحي. وغزا رسول الله ﷺ حين طابت الثمار والظلال، فتجهز رسول الله والمسلمون معه، فطفقت أغدو لكي أتجهز، معهم، فأرجع ولم أقض شيئاً، وأقول في نفسي: أنا قادر على ذلك إذا أردت، فلم أزل أتمادى في ذلك حتى استمر الناس بالجد. وأصبح رسول الله غادياً والمسلمون معه، ولم أقض شيئاً، فهممت أن أرتحل فأدركهم، فيا ليتني فعلت. ثم لم يقدر لي ذلك، فطفقت إذا أخرج في الناس بعد خروج رسول الله، يحزنني ألا أرى لي أسوة، إلا رجلاً مغموصاً عليه في النفاق، ورجلاً ممن عذره الله من الضعفاء. ولم يذكرني رسول الله حتى بلغ تبوك، فقال وهو جالس في القوم بتبوك: ما فعل كعب بن مالك؟ فقال رجل من بني سلمة: يا رسول الله! حبسه حب برديه، والنظر في عطفيه. فقال له معاذ بن جبل: بئس ما قلت، والله يا رسول الله! ما علمنا عليه إلا خيراً. فسكت رسول الله. قال كعب: فلما بلغني أن رسول الله توجه قافلاً من تبوك، طفقت أتذكر الكذب وأقول: بم أخرج من سخط الله غداً؟ واستعنت على ذلك بكل ذي رأي من أهلي، فلما قيل: إن رسول الله قد أظل قادماً، زاح عني الباطل، حتى عرفت أني لم أنج منه بشيء أبداً، فأجمعت على الصدق. فأصبح رسول الله قادماً، وكان إذا قدم من سفره بدأ بالمسجد فركع فيه ركعتين، ثم جلس للناس، فلما فعل ذلك جاءه المخلفون يعتذرون إليه، ويحلفون له، فقبل

منهم علانيتهم، وبايعهم، واستغفر لهم، ووكل سرائرهم إلى الله. حتى جئت فتبسم تبسم المغضب، ثم قال: تعال، فجئت أمشي حتى جلست بين يديه، فقال: ما خلفك؟ ألم تكن قد ابتعت ظهرك؟ قلت: يا رسول الله! إني لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا، لرأيت أني سأخرج من سخطه بعذر، لقد أعطيت جدلاً، ولكن والله! لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديثَ كذب ترضى به عني، يوشك أن الله يسخطك علي. ولئن حدثتك حديث صدق، تجد علي فيه، إني لأرجو فيه عفو الله، والله ما كان لي عذر، ما كنت أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك. فقال رسول الله: أما هذا فقد صدق، فقم، حتى يقضي الله فيك. فقمت، وثار رجال من بني سلمة، فاتبعوني وقالوا: ما علمناك أذنبت ذنباً قبل هذا؟ لقد عجزت أن تكون اعتذرت إلى رسول الله بما اعتذر إليه المخلفون؟ فقد كان كافيك استغفار رسول الله لك. وما زالوا يؤنبونني حتى كدت أرجع إلى رسول الله فأكذب نفسي.

ثم سألت: هل لقي هذا معي أحد؟ فقالوا: نعم لقيه معك رجلان، قالا مثل ما قلت. وقال لهم الرسول ﷺ مثل ما قال لك. قلت: من هما؟ قالوا: مرارة بن الربيع، وهلال بن أمية. فذكروا رجلين صالحين قد شهدا بدراً. فقلت: لي فيهما أسوة حسنة. ومضيت حين ذكروهما لي. ونهى رسول الله عن كلامنا «أي الثلاثة» من بين من تخلف عنه، وتغير علينا الناس، حتى أنكرت نفسي الأرض، فما هي بالأرض التي أعرف. فلبثنا على ذلك خمسين ليلة. فأما صاحباي فاستكانا في بيوتهما يبكيان، وأما أنا فكنت أشد القوم وأجلدهم، فكنت أخرج فأشهد الصلاة، وأطوف في الأسواق، فلا يكلمني أحد. وآتي رسول الله فأسلم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة، فأقول في نفسي: هل حرك شفته برد السلام أم لا؟

ثم أصلي قريباً منه، وأسارق النظر، فإن أقبلت على صلاتي نظر إلي، وإذا التفت نحوه أعرض عني، حتى إذا طال علي ذلك، من جفوة المسلمين، مشيت حتى تسورت حائطاً لأبي قتادة، وهو ابن عمي، وأحب الناس إلي، فسلمت عليه، فوالله ما رد علي السلام، فقلت: يا أبا قتادة! هل تعلمني أحب الله ورسوله؟ قال: فسكت. فعدت فناشدته، فقال: الله ورسوله أعلم.

ففاضت عيناي، وتوليت. فبينا أنا أمشي في سوق المدينة إذا نبطي من نبط أهل الشام، ممن قدم بطعام يبيعه بالمدينة يقول: من يدل على كعب بن مالك؟ فطفق الناس يشيرون له، حتى جاءني، فأودع لي كتاباً من ملك غسان، وكنت كاتباً، فقرأته فإذا فيه:

«أما بعد، فإنه بلغنا أنّ صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة، فالحق بنا نواسيك». قال: فقلت: وهذه الرسالة من البلايا. فألقيتها في التنور فسجرتها[1]. حتى إذا مضت أربعون من الخمسين، واستلبث الوحي، فإذا رسول رسول الله يأتيني، فقال: إن رسول الله يأمرك أن تعتزل امرأتك، فقلت لها: الحقي بأهلك، فكوني معهم، حتى ينقضي هذا الأمر. قال: فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله. فقالت: إن هلال بن أمية، شيخ ضائع، ليس له خادم، فهل تكره أن أخدمه؟ قال: لا، ولكن لا يقربنك. فقالت: والله مابه حركة إلى شيء، فوالله! ما زال يبكي، منذ كان أمر ما كان إلى يومه هذا. قال كعب: فقال بعض أهلي لو استأذنت رسول الله في أهلك؟ قال: قلت: وما يدريني ما يقول رسول الله، إذا استأذنته بها، وأنا رجل شاب. قال: فلبثت بعد ذلك عشر ليال، حتى كمل لنا خمسون ليلة، من حين نهى عن كلامنا. قال: ثم صليت الفجر صباح خمسين ليلة، على ظهر بيت من بيوتنا. فبينما أنا جالس إذ سمعت صارخاً أوفى على سلع يقول بأعلى صوته: يا كعب بن مالك! أبشر فقد تاب الله عليك. فخررت ساجداً لله تعالى، وعلمت أنه قد جاءني فرج، قال: وآذن رسول الله الناس، بتوبة الله تعالى علينا حين صلاة الفجر. فذهب الناس يبشروننا. ذهب قبل صاحبي مبشرون، وركض رجل إلي فرحاً، ومعه ساع من أسلم، وهو حمزة بن عمر الأسلمي. وأوفى رجل على الجبل، وكان الصوت أسرع إلي من الفرس، فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني، نزعت ثوبي له فكسوته إياهما ببشارته، فوالله! ما أملك غيرهما يومئذ، واستعرت ثوبين فلبستهما وانطلقت إلى رسول الله ﷺ. واستقبلني الناس

---

(١) (سجر): التنور: أوقده، وأججه، والمعنى: أحرقها.

فوجاً فوجاً يهنئونني بالتوبة. يقولون: يهنيك الله بالتوبة عليك، حتى دخلت المسجد، فإذا رسول الله حوله الناس فقام طلحة بن عبيد الله يهرول، حتى صافحني وتلقاني، والله ما قام لي رجل من المهاجرين غيره ولا أنساها لطلحة، فلما سلمت على رسول الله وهو يبرق في وجهي من السرور، فقال: أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك! قال: قلت من عندك يا رسول الله؟ أم من عند الله؟ قال: بل من عند الله. وكان ﷺ إذا سرّ استنار وجهه، حتى كان وجهه قطعة قمر. قال: وكنا نعرف ذلك منه. فلما جلست بين يديه، قلت: يا رسول الله! إنما نجاني الله بالصدق، وإن من توبتي ألا أحدث إلا صدقاً ما بقيت. قال: فوالله! ما زلت بأصدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله إلى يومنا هذا، وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقي. وقد نزلت في توبة الثلاثة الآية:

﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[1].

قال كعب: والله! ما أنعم الله علي بنعمة قط، بعد أن هداني للإسلام، أعظم في نفسي من صدقي رسول الله، ألا أكون كذبته، فأهلك كما هلك الذين كذبوا، فقد قال لهم عز وجل حين نزل الوحي، شر ما قال لأحد، قال:

﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾[2].

---

(١) سورة (التوبة) الآيات: (١١٧ ـ ١١٩).

(٢) سورة (التوبة) الآيات: (٩٥ ـ ٩٦).

وعن كعب قال: لما اجتنب الناس كلامنا، لبثت كذلك حتى طال علي الأمر، فما من شيء أهم إلي من أن أموت، فلا يصلي علي رسول الله أو يموت رسول الله فأكون من الناس بتلك المنزلة، فلا يكلمني واحد منهم، ولا يصلي ولا يسلم علي.

وأنزل الله توبتنا على نبيه، في الثلث الأخير من الليل في بيت أم سلمة، وكانت محسنة في شأني، معتنية في أمري، وهي أول من سمع ذلك من رسول الله. قال: يا أم سلمة! تيب على كعب. فقالت: يا رسول الله أفلا أرسل إليه أبشره؟ قال: إذن يحطمونكم[1] فيمنعونكم النوم سائر الليل، حتى إذا صلى رسول الله صلاة الفجر، أذن بتوبة الله علينا.

الأمر بهدم مسجد الضرار

لما رجع رسول الله من تبوك، قبل أن يدخل المدينة، جاء المنافقون الذين تقدم ذكرهم لما ذهب إلى تبوك، وسألوه أن يأتي مسجدهم ليصلي فيه، فدعا بقميصه ليلبسه، ويأتيه. فنزلت عليه الآية:

﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴾[2].

فدعا رسول الله مالك بن الدخشن[3]، ومعن بن عدي بن عامر بن السكن، ووحشياً، وأمرهم أن ينطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله، فأهدموه وأحرقوه. فخرجوا مسرعين، حتى أتوا بني سالم بن عوف، وهم رهط مالك بن الدخشم فقال مالك لأصحابه: انظروني حتى آتيكم بنار. فدخل عند أهله، فأخذ من سعف النخل فأشعله. ثم خرجوا يشتدون، حتى دخلوا

---

(١) (يحطمونكم): يداهمونكم ويتزاحمون عليكم.

(٢) سورة (التوبة) الآيات (١٠٧ ـ ١٠٨).

(٣) ورد في سيرة (ابن هشام) باسم (الدخشم) كما جاء لاحقاً.

المسجد، وفيه أهله، فحرقوه، وهدموه، وتفرق الذين كانوا يجتمعون فيه. وأمر ﷺ أن يتخذوا ذلك المكان كناسة، تلقى فيه الجيف والقمامات.

حكم اللعان

وكان وصول ﷺ المدينة في رمضان، سنة تسع. وبعد وصوله وجد عويمر العجلاني امرأته حبلى، فقذفها بشريك بن سحماء، فلاعن بينهما ﷺ في المسجد بعد العصر.

إسلام ثقيف بعد إبائها

لما قدم ﷺ من تبوك في رمضان، قدم عليه وفد من ثقيف. والسبب في إيفاد هذا الوفد: أنه لما انصرف رسول الله من محاصرتهم، تبعه عروة بن مسعود، وكان محبباً مطاعاً فيهم، وفيه كانوا يقولون، كما حكى القرآن عنه في آية:

﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ[1] هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾.

وهما مكة والطائف، والرجلان الوليد بن المغيرة بمكة، وعروة بن مسعود الثقفي بالطائف. فأدرك رسول الله ﷺ قبل أن يصل إلى المدينة، فأسلم. والتمس من رسول الله أن يأذن له في الرجوع إلى قومه، يأمرهم بالإسلام. فقال له رسول الله: إنهم قاتلوك. فقال عروة: أنا أحب إليهم من أبكارهم. فخرج يدعو قومه إلى الإسلام، رجاء ألا يخالفوه.

قدم الطائف عشاء، فجاءه ثقيف يسلمون عليه، فدعاهم إلى الإسلام، ونصح لهم فعصوه وأسمعوه من الأذى ما لم يكن يتوقعه منهم، فخرجوا من عنده. فلما كان السحر وطلع الفجر، قام على غرفة في داره يؤذن، ولما تشهد، رماه رجل من ثقيف بسهم، فقتله. فقيل له وهو يجود بنفسه: ما ترى في دمك؟ قال: كرامة أكرمني الله بها، وشهادة ساقها إلي، فليس في

---

(١) (أنزل) في قراءة (حفص) وقراءة (ورش). المحقق.

إلا ما في الشهداء الذين قتلوا مع رسول الله، قبل أن يرتحل عنكم، فادفنوني معهم. فدفنوه أين أمرهم.

ثمّ إن ثقيفاً أقامت بعد قتل عروة أشهراً وهي على وجل من أمرها، من مناجزة من حولها من المسلمين لها. ثم ائتمروا بينهم فرأوا ألا طاقة لهم بحرب من حولهم من العرب، فأجمعوا أن يرسلوا إلى رسول الله رجلاً يطلب لهم الأمان. فكلموا في ذلك عبد ياليل بن عمرو، وكان في سن عروة بن مسعود، فأبى، لأنه خشي أن يفعل به كما فعل بعروة. وقيل: كلموا مسعود بن عبد ياليل فقال: لستُ فاعلاً حتى ترسلوا معي رجالاً. فبعثوا معه خمسة نفر، وهم: شرحبيل بن غيلان، أحد أشراف ثقيف. وكنانة بن عبد ياليل، وهو رئيسهم. وعثمان بن أبي العاص، وهو أصغرهم. وخرج معهم تسعة عشر رجلاً، كلهم من أشراف ثقيف. فلما قربوا من المدينة، رآهم المغيرة بن شعبة الثقفي، فذهب مسرعاً ليخبر بقدومهم رسول الله ﷺ. فلقي أبا بكر فأخبره. فقال له أبو بكر: أقسمت عليك لا تسبقني إلى رسول الله، حتى أكون أنا أحدثه. ففعل. فدخل أبو بكر على رسول الله فأخبره بقدومهم عليه. ثم خرج المغيرة، وعلمهم كيف يحيون رسول الله، فأبوا إلا تحية الجاهلية، وهي: عم صباحاً. ثم أقبلوا على رسول الله، فضرب لهم قبة في ناحية المسجد، ليسمعوا القرآن، ويروا الناس إذا صلوا، وكانوا يفدون إلى رسول الله كل يوم، ويخلفون عثمان بن أبي العاص عند متاعهم. فكان عثمان إذا رجعوا، ذهب إلى رسول الله، يسأله عن الدين، ويقرئه القرآن، وإذا وجد رسول الله نائماً، ذهب إلى أبي بكر. وكان يكتم ذلك عن أصحابه. فأعجب به رسول الله وأحبّه. وقد حفظ سورة البقرة، وتعلم الدين، وقراءة القرآن. وقال أبو بكر في حقه لرسول الله ﷺ: إني رأيت هذا الغلام من أحرصهم على التفقه في الإسلام، وتعلم القرآن.

وكان في وفد ثقيف رجل مجذوم[1]، فأرسل له ﷺ يقول له:

---

(١) قال صاحب (القاموس) عن (الجذام): «علة تحدث من انتشار السوداء في البدن =

إنّا بايعناك فارجع. وفي الخبر المرفوع: لا تديموا النظر إلى المجذوم. وجاء: تكلم المجذوم وبينك وبينه قيد رمح أو رمحين.

وكان خالد بن سعيد بن العاص، هو الذي يمشي بين الوفد وبين رسول الله ﷺ، حتى كتب لهم كتاباً على لسان رسول الله، نصه:

بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد النبي رسول الله ﷺ، إلى المؤمنين. إن عضاه[1] و(ج) وصيده، حرام لا يعضد، من وجد يفعل ذلك، فإنه يجلد، وتنزع ثيابه «وج اسم واد بالطائف»[2] وكان هؤلاء الوفد، لا يطعمون طعاماً يأتيهم من رسول الله، حتى يأكل منه خالد. ولم يزالوا على ذلك حتى أسلموا.

وسألوا رسول الله ﷺ قبل إسلامهم، أن يترك لهم الصلاة. فقال: لا خير في دين لا صلاة فيه. وسألوه أن يترك لهم الزنى، والربا، وشرب الخمر. فأبى ذلك. وسألوه: أن يترك لهم صنمهم (اللات)، لا يهدمها إلا بعد ثلاث سنين من مقدمهم، فأبى. فسألوه أن يتركها سنة فأبى. حتى سألوه شهراً واحداً. وأرادوا بذلك، ألا يرتاع سفهاؤهم، ونساؤهم، وذراريهم، حتى يدخل الإسلام في قلوبهم. فأبى عليهم ذلك.

وعين عثمان بن أبي العاص إماماً للقوم، وقال له: إذا أممت فأخف بهم الصلاة، واتخذ مؤذناً لا يأخذ على أذانه أجراً.

وعند خروجهم من المدينة، قال كنانة لأصحابه: أنا أعلمكم بثقيف اكتموا إسلامكم، وخوفوهم الحرب والقتال، فأخبروهم أن محمداً، سألنا

= كله، فيفسد مزاج الأعضاء، وهيئاتها، وربما انتهى إلى تآكل الأعضاء وسقوطها عن تقرّح».

(١) (العضاه) جمع (العضاهة) سبق شرحه. وهو أعظم الشجر.

(٢) أضاف صاحب القاموس إضافات مفيدة بالنسبة لـ (وج) «اسم واد بالطائف بين جبلي المحترق، و(الأحيجدين). ومنه: آخر وطأة وطئها الله تعالى بوجّ. يريد غزوة حنين، لا الطائف، لأن غزوة الطائف لم يكن فيها قتال. المحقق.

أموراً عظيمة فأبيناها عليه، سألنا أن نهدم اللات، وأن نترك الزنى والربا وشرب الخمر.

فلما رجعوا، وجاءتهم ثقيف، وسألوهم؟ فقالوا: جئنا رجلاً فظاً غليظاً قد ظهر بالسيف، ودان له الناس، ففرض علينا أموراً شداداً. وذكروا ما تقدم. فقالوا: والله لا نطيعه، ولا نقبل هذا أبداً.

فقالوا لهم: أصلحوا السلاح وتهيّؤوا للكفاح ورمّوا حصونكم. فمكثت ثقيف كذلك يومين أو ثلاثة، ثم سرى إليهم الفشل، وقالوا: مالنا والله بالحرب من طاقة. فرجعوا إليه، وأعطوه ما سأل. فعند ذلك قالوا لهم: قد قاضينا وأسلمنا. فقالوا لهم: كتمتمونا؟ قالوا: أردنا أن ينزع الله من قلوبكم نخوة الجاهلية. فأسلموا، ومكثوا أياماً، فقدم عليهم رسل رسول الله لهدم اللات.

وفد رسول الله لهدم اللات

أوفد رسول الله ﷺ إلى الطائف أبا سفيان بن حرب، والمغيرة بن شعبة، لهدم اللات. ومعهما سرية فيها أربعة عشر رجلاً، وقد أراد المغيرة أن يقدم أبا سفيان في هدمها، فأبى ذلك عليه. وقال: ادخل أنت على قومك. فلما دخل المغيرة، ليضربها بالمعول، قام قومه دونه يحمونه، خشية أن يرميه أحد فيهم. وخرج نساء ثقيف من الحجال[1] حسراً مكشوفات يبكين صنمهن، وكانوا يظنون لا يمكن هدمه، لأن الربة تمنع من ذلك. وأراد المغيرة أن يسخر بثقيف، فقال لأصحابه: لأضحكنكم من القوم. فلما علا الطاغية لهدمها، أخذ يرتكض، فصاحوا صيحة واحدة. فقالوا: أبعد الله المغيرة، قتلته الربة. وقالوا: والله لا يستطيع هدمها. فوثب، وقال لهم: قبحكم الله، إنما هي لكاع حجارة ومدر، فاقبلوا عافية الله واعبدوه. ثم أخذ في هدمها، فهدمها إلى أن كسر بابها، وهدم أساسها، حتى سووها بالأرض.

---

(١) (الحجلة): محركة: كالقبة، وموضع يزيّن بالثياب والستور للعروس.

ثم أخذوا حليها وكسوتها، وما فيها من طيب وذهب وفضة، وحملوا ذلك إلى رسول الله ﷺ.

وكان قدم على رسول الله أبو مليح بن عروة بن مسعود، وابن عمه قارب بن الأسود بن مسعود مسلمين، لما قتلت ثقيف عروة. فأمر رسول الله أبا سفيان أن يقضي بين عروة وأخيه الأسود من مال الربة فقضاهما، وأخذا دية قتيلهما الذي قتله أهل الطائف.

بعث رسول الله أبا بكر يحج بالناس وعلي لإعلان نظام الدّولة الإسلامية

لما قرب موسم الحج في السنة التاسعة، بعث رسول الله ﷺ أبا بكر يحج بالناس، فخرج أبو بكر في ثلاثمئة رجل من المدينة، ومعه عشرون بدنة، قلدها رسول الله، وأشعرها بيده الشريفة. وساق أبو بكر خمسة بدن. وبعد خروجه، نزلت: (براءة) فقيل لرسول الله: لو بعثت بها إلى أبي بكر، يعلنها للناس. فقال: لا يبلغ عني إلا رجل من أهل بيتي. فأوفد لذلك علياً، فلحق أبا بكر وهو في الطريق، وكان راكباً القصوى[1] ناقة رسول الله. ولما رآه أبو بكر، سأله: هل استعملك رسول الله على الحج؟ قال: لا، ولكن بعثني أقرأ (براءة) على الناس، وأنبذ إلى كل ذي عهد عهده. و(براءة) متضمنة القواعد الأساسية لسياسة الدولة الإسلامية الجديدة، والقاصة كل نظام ومعاهدة تقدمتاه. وكانا قسمين: عام وخاص. فالعام ما كان متعلقاً بإقرار القبائل على تقاليدهم وشعائرهم، وألا يصد أحد عن البيت إذا جاءه، وألا يعلن حرب في الأشهر الحرم. والخاص ما عقد بين رسول الله وبين القبائل إلى آجال مسماة. وكانت عادة العرب ألا ينبذ العهد إلا من كان قريباً ممن أراد النبذ. فلذلك بعث رسول الله علياً بن أبي طالب، ولم يكلف أبا بكر

---

(١) (القصوى): ذكر (ابن هشام) في السيرة أنها (العضباء). الجزء (٤) صفحة (١٩٠) أما في (لسان العرب) «ويحتمل أن تكون كل واحدة صفة ناقة مفردة، ويحتمل أن يكون الجميع صفة ناقة واحدة، فسمّاها كل واحد منهم بما تخيّل فيها».

بذلك. فمضى أبو بكر في سبيله وحج بالناس، ومضى علي في المأمورية التي انتدب لها. وقد أمره رسول الله أن يؤذن في الناس يدعوهم يوم النحر، إذا اجتمعوا بمنى وأن يقرأ عليهم (براءة)، وأن يعلنهم بأن لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان.

وكان المشركون قبل ذلك يحجون مع المسلمين، ويرفعون أصواتهم بصلاتهم، وهي: لا شريك لك إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك. ويطوفون عراة بالليل. وليس على رجل منهم ثوب. ويقولون في ذلك: نطوف بالبيت كما ولدتنا أمهاتنا، ليس علينا شيء من الدنيا، خالطه ظلم. ولا يطوف من أراد الثياب منهم، إلا بثوب من ثياب الحمس[١]، يستعيره أو يكتريه منهم. وإذا طاف أحد في ثيابه، ألقاها بعد طوافه، فلا يمسها. وكانت النساء تطوف في دروع[٢] مبرجة لا تستر العورة.

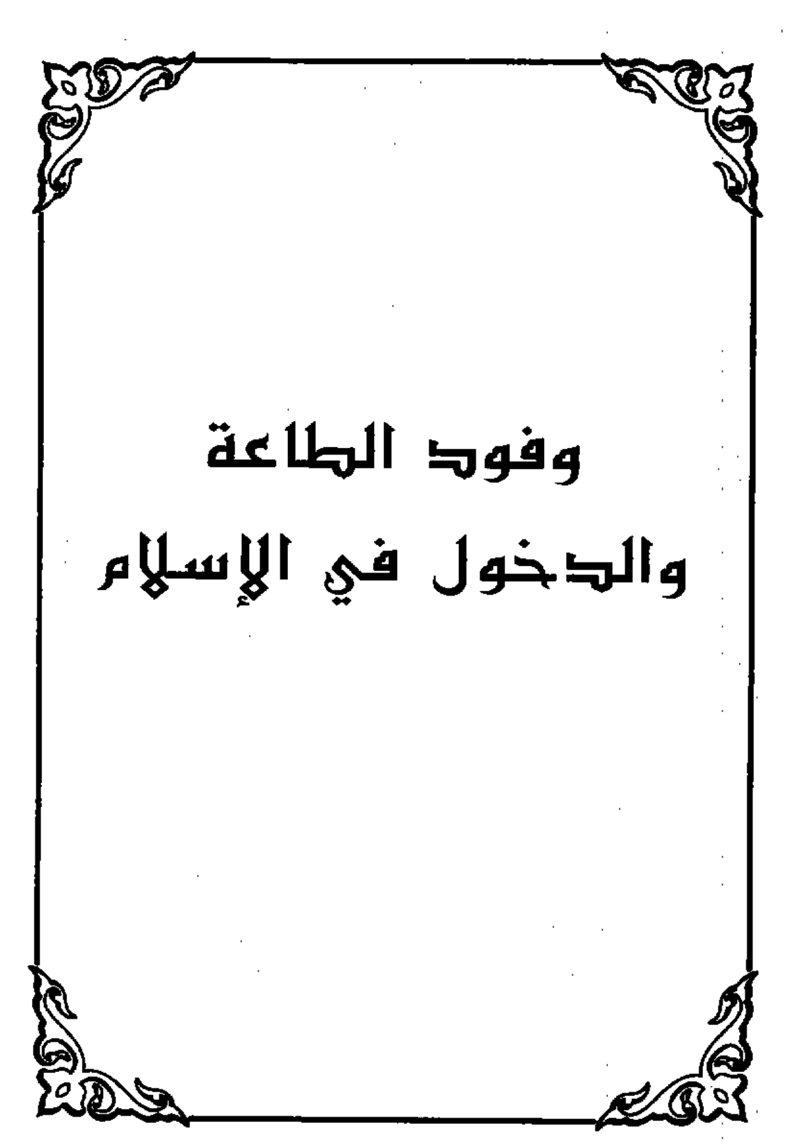
وجاء في رواية جابر: أن أبا بكر قام يوم العيد فخطب في الناس يحدثهم عن مناسكهم، حتى إذا فرغ قام علي فقرأ على الناس (براءة). وقد قرأها يوم عرفة، ويوم النحر، ويوم التروية بمكة، ويوم النفير. وبعد هذا الإعلان، أخذت الوثنية في التقلص والزوال من جزيرة العرب، وحل محلها الإسلام.

* * *

---

(١) (الحمس) قال صاحب القاموس: لقب قريش وكنانة وجديلة، ومن تابعهم في الجاهلية، لتحمّسهم في دينهم، أو لالتجائهم بالحمساء وهي الكعبة؛ لأن حجرها أبيض إلى السواد.

(٢) (الدرع): من المرأة قميصها. جمع أدراع. والدروع جمع (الدرع) من الحديد.



وفود الطاعة والدخول في الإسلام

وفود عدي بن حاتم الطائي على رسول الله ﷺ

كان عدي امرأ شريفاً، ورئيساً في قومه، يأخذ المرباع من الغنائم كما هي عادة أمراء العرب في الجاهلية، فلما سمع بظهور رسول الله كرهه، وقال عن نفسه: ما من رجل من العرب كان أشد على رسول الله حين سمع به مني. فقلت لغلام كان راعياً لإبلي: اعزل أجمالاً من إبلي ذللاً سماناً، فاحتبسها قريباً مني، فإذا سمعت بجيش لمحمد، قد وطىء هذه البلاد فآذنني. ففعل. ثم إنه أتاني ذات يوم، فقال: يا عدي! ما كنت صانعاً إذا غشيك محمداً فاصنعه الآن، فإني قد رأيت رايات، فسألت عنها؟ فقالوا: هذه جيوش محمد. فقلت له: قرب لي أجمالي، فقربها. واحتملت أهلي وولدي، والتحقت بأهل ديني من نصارى الشام، وخلفت بنتاً لحاتم في الحاضر، فأصيبت فيمن أصيب من الحاضر. فلما قدمت السبايا على رسول الله، كساها وحملها، وأعطاها نفقة. وخرجت إلى أن قدمت على الشام، وإني لقاعد في أهلي، إذ نظرت إلى ظعينة تؤمنا، فقلت: هذه ابنة حاتم، فإذا هي، فلما وقعت علي، قالت: أيها القاطع الظالم! احتملت بأهلك وولدك، وقطعت بقية والديك وعورتك. فقلت: أي أخية! لا تقولي إلا خيراً، فوالله مالي من عذر، ولقد صنعت ما ذكرت، ثم تولت وأقامت عندي، وكانت امرأة حازمة. فقلت لها: ماذا ترين في أمر هذا الرجل؟ قالت: أرى والله أن تلحق به سريعاً، فإن يك نبياً، فللسابق إليه فضل، وإن يكن ملكاً فأنت أنت.

فقلت: إن هذا للرأي، فخرجت من الشام حتى جئته ﷺ بالمدينة، فدخلت عليه فسألني: من الرجل؟ فقلت: عدي بن حاتم. فقام وانطلق بي إلى بيته، فوالله إنه لقائدني إليه، إذ لقيته امرأة كبيرة ضعيفة فاستوقفته. فوقف لها طويلاً فكلمته في حاجتها، فقلت: ما هو بملك. ثم مضى بي، حتى إذا وصل بيته، تناول وسادة بيده من أدم، محشوة ليناً[1]، فقدمها إلي

---

(١) (اللين) كل شيء من النخلة، سوى العجوة. ومنه قوله تعالى: ﴿ما قطعتم من لينة، أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله﴾ وقد تكون اللفظة: (محشوة ليفاً) من ليف النخل، وهو نفس المعنى. المحقق.

وقال: اجلس على هذه، فقلت: بل أنت فاجلس عليها. قال: بل أنت. فجلست عليها وجلس في الأرض فقلت: والله ما هذا بأمر ملك. ثم بعد أن دعاني إلى الإسلام، قال: يا عدي بن حاتم! أسلمْ تسلم. قالها ثلاثاً. قلت: إني على دين. قال: إني أعلم بدينك منك. فقلت: أنت أعلم بديني؟ قال: نعم ألست من الركوسية[1] الذين لهم دين. فقلت: بلى. فقال: ألم تكن تسير في قومك بالمرباع[2]؟ فقلت: بلى. فقال: إن ذلك لم يحص لك في دينك. فقلت: أجل والله. ثم قال: لعلك يا عدي! إنما يمنعك من الدخول في هذا الدين ما ترى؟ تقول: إنما اتبعك ضعفة الناس، ومن لا قوة له، وقد رمتهم العرب مع حاجتهم، فوالله ليوشك المال أن يفيض فيهم، حتى لا يوجد من سيأخذه. ولعلك إنما يمنعك من الدخول فيه، ما ترى من كثرة عدوهم، وقلة عددهم؟ أتعرف الحيرة؟ قلت: لم أرها، وقد سمعت بها. قال: فوالذي نفسي بيده! ليتمّنّ هذا الأمر حتى تخرج الظعينة من الحيرة، تطوف بالبيت من غير جوار أحد. وفي رواية: ليوشكن أن تسمع بالمرأة تخرج من القادسية «وهي على مرحلتين من الكوفة» على بعيرها، حتى تزور البيت، لا تخاف أحداً. ولعلك إنما يمنعك من الدخول فيه، أنك ترى الملك والسلطان في غيرهم!؟ وأيم الله! ليوشكن أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل، قد فتحت عليهم. قال عدي: وقد رأيت المرأة تخرج من القادسية على بعيرها حتى تحج البيت. وأيم الله! لتكونن الثانية[3]، ليفيض المال، حتى لا يجد من يأخذه.

وفود فروة بن مسيك المرادي

وفد فروة على رسول الله ﷺ إلى المدينة سنة تسع، مفارقاً لملوك كندة. وكان بين قومه مراد وهمدان قبل الإسلام وقعة عظيمة أصابت فيها همدان من

---

(١) (الركوسية): بين النصارى والصابئين. القاموس.

(٢) (المرباع): ربع الغنيمة الذي كان يأخذه الرئيس في الجاهلية.

(٣) وفي رواية (الثالثة). أ) المرأة تزور البيت، لا تخاف أحداً. ب) فتح القصور البيض من أرض بابل. ج) يفيض المال، حتى لا يجد من يأخذه. المحقق.

مراد ما أرادوا، في يوم يقال له (الروم) وهو من أيام الجاهلية المشهورة، فأسلم وحسن إسلامه، وقد قال في ذلك:

لما رأيت ملوك كندة أعرضت كالرجل، حان الرجل عرق نسائها
فـركبـت راحلتـي أؤمّ محمـداً أرجو فواضلها وحسن ثوابها[1]

وقد سأل رسول الله عما تركته واقعة يوم الروم في نفسه؟ فقال: يا رسول الله! من ذا يصيب قومه مثل ما أصاب قومي يوم الروم؟ ولا يسوؤه؟ فأجابه بما يشجعه فقال: أما إن ذلك لم يزد قومك في الإسلام إلا خيراً.

وقد استعمله ﷺ على مراد وزبيد ومذحج، وبعث معه خالد بن سعيد بن العاص على الزكاة، فكان معه في بلاده، حتى توفي رسول الله ﷺ.

إسلام همدان

روى البيهقي في إسناد صحيح: أن رسول الله ﷺ بعث خالد بن الوليد إلى بطون همدان يدعو من لم يسلم منهم إلى الإسلام، فأقام ستة أشهر، فلم يجيبوه، ثم بعث إليه علياً، وأمر خالداً بالرجوع إليه. وخير من كان مع خالد من الصحابة من شاء منهم بقي مع علي، ومن شاء رجع مع خالد. فلما دنا من القوم، خرجوا إليه، فصف على أصحابه صفاً واحداً، ثم تقدم إليهـم، وقـرأ عليهـم كتـاب رسـول الله، فـأسلمـوا جميعـاً. وكتـب بـذلـك لرسول الله، فلما قرأ الكتاب: خر ساجداً، ثم رفع رأسه، فقال: السلام على همدان، السلام على همدان، نعم الحي همدان، ما أسرعها إلى النصر، وأصبرها على الجهد!

وفـد خولان

وفد على رسول الله عزة من خولان، في السنة العاشرة، وهي من قبائل اليمن فقالوا: يا رسول الله! نحن على من وراءنا من قومنا، ونحن مؤمنون

---

(١) (ثوابها) لعلّ اللفظة وحسن(ثوائها): مقامها، حتى تستقيم القافية، لأن (هاء) الضمير لا تحسب على القافية، وإنما الحرف الذي قبلها. المحقق.

بالله عز وجل، مصدقون برسوله، وقد ضربنا إليك آباط الإبل، وركبنا حزون الأرض وسهولها، والمنة لله ولرسوله علينا، وقدمنا زائرين لك. فقال رسول الله: أما ما ذكرتم من سيركم إلي، فإن لكم في كل خطوة خطاها بعير أحدكم حسنة. وأما قولكم: زائرين لك، فإنه من زارني بالمدينة كان في جواري يوم القيامة. فقالوا: يا رسول الله! هذا السفر الذي لا توى عليه. «هلاك المال وهو بمعنى الإسراف»[1].

ثم سألهم رسول الله فقال: ما فعل (عميانس)؟ وهو صنم خولان، الذي كانوا يعبدونه. قالوا: أبشر، بدلنا الله تعالى ما جئتنا به، وقد بقيت بعد بقايا شيخ كبير وعجوز كبيرة، متمسكون به. ولو قدمنا عليه، هدمناه إن شاء الله تعالى، فقد كنا منه في غرور وفتنة.

ثم سألهم رسول الله فقال: وما أعظم ما رأيتم من فتنته؟ لقد رأيتنا وأسنتنا[2] حتى أكلنا الرمة، فجمعنا ما قدرنا عليه، وابتعنا مئة ثور ونحرناها لعميانس قرباناً، في غداة واحدة، وتركناها ترودها السباع، ونحن أحوج إليها من السباع، فجاءنا الغيث من ساعتنا، ولقد رأينا الغيث يواري الرجال، ويقول قائلنا: أنعم علينا عميانس.

ثم ذكروا لرسول الله ما كانوا يقسمون لهذا الصنم، من أموالهم، وأنعامهم، وحرثهم، فقالوا: كنا نزرع الزرع، فنجعل له وسطه، فنسميه له، ونسمي زرعاً آخر حجرة «ناحية لله» فإذا مالت الريح بالذي سميناه لله جعلناه لعميانس، وإذا مالت الريح بالذي سميناه لعميانس لم نجعله لله. فذكر لهم رسول الله، أن الله تعالى أنزل عليه في ذلك قرآناً، وتلا الآية[3]:

---

(١) تعليق الشيخ ـرحمه الله ـ بين هلالين، غير كاف، فالمعنى لا يقتصر على الإسراف فحسب، وإنما يعني المعنى الشامل للهلاك، بمعنى أن زيارة الرسول ﷺ بالمدينة هي الخير كل الخير، ولا هلاك بعدها، وإنما هي جوار الرسول يوم القيامة. وقد تعني زيارته عليه الصلاة والسلام حياً وميتاً. المحقق.

(٢) و(أسنتنا) أصابتنا سنة جدب وقحط. المحقق.

(٣) سورة (الأنعام) الآية: (١٣٦).

﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾.

قالوا: وكنا نتحاكم إليه، فيتكلم. فقال رسول الله: تلك الشياطين تكلمكم. وسألوا ﷺ عن فرائض الله، فأخبرهم بها، وأمرهم بالوفاء بالعهد، وأداء الأمانة، وحسن الجوار لمن جاوروا، وألا يظلموا أحداً، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة. ثم ودعوه بعد أيام، وأجازهم، أعطى كل واحد اثنتي عشر أوقية ونشاً[(١)] ورجعوا إلى قومهم: ولم يطؤوا أرض خولان حتى هدموا عميانس.

وفود الصدائيين

كان رسول الله ﷺ في السنة العاشرة، جهز حملة على صداء، فيها أربعمئة من الجند، عليها قيس بن سعد بن عبادة، ودفع له لواء أبيض، وراية سوداء، وأمر أن يطأ ناحية من اليمن، منها صداء. ولما نمي خبرها إليهم، أوفدوا إلى رسول الله زياد بن الحارث الصدائي فقال: يا رسول الله! جئتك وافداً على من ورائي من قومي، فاردد الجيش، وأنا لك بقومي. فردّ رسول الله ﷺ قيساً، وخرج زياد إلى قومه، فقدم بعد ذلك وفدهم، وكان مؤلفاً من خمسة عشر رجلاً، معهم زياد بن الحارث. ولما قدموا المدينة، قال سعد بن عبادة: ينزلون علي. فأمر رسول الله بنزولهم عليه. فأقاموا عنده. فبايعوا رسول الله على الإسلام، وقالوا له: نحن لك على من وراءنا من قومنا. ولما عزموا على الرحيل، أعطاهم سعد، وأكرمهم وكساهم. ثم انصرفوا إلى مواطنهم، ففشا فيهم الإسلام.

وأقبل بعد إسلامهم وفد ثالث، وكان مؤلفاً من مئة رجل شهداء[(٢)] حجة الوداع، وقال رسول الله لزياد بن الحارث الصدائي: إنك يا أخا صداء!

---

(١) (النش): نصف أوقية، أو عشرون درهماً.

(٢) شهداء: ممن شهدوا حجة الوداع.

لمطاع في قومك؟ فقال: بلى. من منّ الله عز وجلّ، ومنّ رسوله. فقال ﷺ: أفلا أؤمرك عليهم؟ فقال: بلى، يا رسول الله! فكتب لي كتاباً بذلك. فقال الصدائي: مر لي يا رسول الله بشيء من صدقاتهم. قال: نعم، فكتب له كتاباً آخر بعطائه.

وحكى زياد قال: رافقت رسول الله في هذا الوجه، فلزمت غرز ركابه، وجعل أصحابه يتفرقون عنه، فلما كان السحر، قال: أذن يا أخا صداء! فأذنت على راحلتي. ثم سرنا حتى نزلنا، فذهب ﷺ لحاجته. ثم توضأ وتوضأ المسلمون للصلاة، فجاء بلال يقيم، فقال رسول الله: إن أخا صداء أذن، ومن أذن فهو يقيم فأقمت. ثم تقدم رسول الله فصلى بنا، فلما سلم، قام رجل يشكو من عامله. فقال: يا رسول الله! إنه أخذ بذحول[1] كانت بيننا وبين قومه في الجاهلية. فقال رسول الله: لا خير في الإمارة لرجل مسلم، ثم قام رجل آخر فقال: يا رسول الله! أعطني من الصدقة. فقال: إن الله عز وجل لم يكل قسمتها إلى ملك مقرب، ولا نبي مرسل، حتى جزأها ثمانية أجزاء، فإن كنت جزءاً منها أعطيتك، وإن كنت غنياً عنها، فإنما هي صداع في الرأس، وداء في البطن. فقلت: يا رسول الله! هذان كتاباك. فقال: ولم؟ قلت: إني سمعتك تقول: لا خير في الإمارة لرجل مسلم، وأنا رجل مسلم، وسمعتك تقول: من سأل الصدقة وهو غني عنها، فإنما هي صداع في الرأس، وداء في البطن، وأنا غني. أما إن الذي قلت، كما قلت. ثم سأله رسول الله أن يدله على رجل من قومه يستعمله، فدله على رجل منهم. فاستعمله.

وفد بهراء

بهراء: قبيلة من قضاعة، قدموا إلى المدينة السنة التاسعة، أقبلوا يقودون رواحلهم، فلما انتهوا إلى باب المقداد، خرج إليهم فرحب بهم وبالغ في إكرامهم ما أقاموا. حتى قالوا له: إنك لتنهلنا من أحب الطعام إلينا،

---

(١) (ذحول): ثارات، وأحقاد، وضغائن.

وما كنا نقدر على مثل هذا. وقد أسلموا على يد رسول الله، وأقاموا أياماً، تعلموا فيها الفرائض، ثم ودعوه، وقد أمر لهم بجوائز، وانصرفوا إلى أهليهم فرحين بإسلامهم.

وفد غامد

قبيلة من الأزد باليمن، وكانوا عشرة نفر، قدموا عليه في السنة العاشرة، فنزلوا في بقيع الغرقد وفيه يومئذ أشجار الأثل والطرفاء[1] ثم انطلقوا إلى رسول الله، وخلفوا في رحالهم أصغرهم فأسلموا، وكتب لهم كتاباً فيه شرائع الإسلام، ثم سألهم: من خلفتم في رحالكم؟ قالوا: أحدثنا سناً. فأخبرهم أنه نام عن متاعهم، فأتى آت وأخذ عيبة[2] أحدكم، فقال رجل منهم: ما لأحد عيبة غيري، فقال ﷺ: قد أخذت، وردت إلى موضعها.

فخرجوا حتى أتوا رحالهم، فسألوا الذي خلفوه، فقال: فزعت من نومي ففقدت العيبة، فقمت في طلبها، فإذا رجل كان قاعداً فثار يعدو مني، فانتهيت إلى حيث ينتهي، فإذ حفر، وإذا هو قد غيب العيبة، فاستخرجتها. فجاؤوا إلى رسول الله وأخبروه بما كان من أمر الحارس، الذي خلفوه مع السارق، وأمر ﷺ أبي بن كعب أن يعلمهم القرآن، والأحكام، ثم أجازهم بما كان يجيز به الوفود. فعادوا إلى قومهم فائزين.

وفد الأزد

قدم على رسول الله في السنة العاشرة وفد من الأزد ينتسب إلى جدهم الأعلى: الأزد بن الغوث بن ثابت بن مالك. وكان سبعة نفر أحدهم: سويد بن الحارث الأزدي. فلما دخلوا على رسول الله أعجب بما رأى من

---

(١) (الطرفاء) نوع من الشجر وهو أربعة أصناف منها (الأثل). وفي (معجم ألفاظ القرآن الكريم): (الأثل): شجر طويل مستقيم يعمّر، أغصانه كثيرة التعقّد، وورقه رقيق، وثمره حب أحمر، لا يؤكل. المحقق.

(٢) (العيبة): زنبيل من جلد، وما يجعل فيه الثياب.

سمتهم وزيّهم، فسألهم: ما أنتم؟ فقالوا: مؤمنون. فتبسم من جوابهم. وقال: إن لكل قول حقيقة، فما حقيقة قولكم وإيمانكم؟ قالوا: خمس عشرة خصلة، خمس منها أمرتنا رسلك أن نؤمن بها، وخمس أمرتنا أن نعمل بها، وخمس تخلقنا بها في الجاهلية، فنحن عليها، إلا أن تكره شيئاً منها فنتركه.

فسألهم: ما الخمس التي أمرتكم بها رسلي، أن تؤمنوا بها؟ قالوا: أمرونا أن نؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، والبعث بعد الموت.

ثمّ سألهم: ما الخمس التي أمرتكم أن تعملوا بها؟ قالوا: أمرتنا أن نقول: لا إله إلا الله، ونقيم الصلاة، ونؤتي الزكاة، ونصوم رمضان، ونحج البيت. إن استطعنا إليه سبيلاً.

ثم سألهم: ما الخمس التي تخلقتم بها في الجاهلية؟ قالوا: الشكر عند الوفاء، والصبر عند البلاء، والرضا بمر القضاء، والصدق في مواطن اللقاء، وترك الشماتة بالأعداء.

فقال ﷺ: حكماء، علماء، كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء.

ثمّ قال: وأنا أزيدكم خمساً، فتتم لكم عشرون خصلة، إن كنتم متصفين بالخمس عشرة التي ذكرتم: فلا تجمعوا ما لا تأكلون، ولا تبنوا ما لا تسكنون، ولا تنافسوا في شيء أنتم عنه غداً زائلون، واتقوا الله الذي إليه ترجعون، وعليه تعرضون، وارغبوا فيما عليه تقومون، وفيه تخلدون. ثم أجازهم وعادوا إلى بلادهم.

وفد بني تميم سنة تسع

وفيه: حاجب بن زراة بن عدس، والأقرع بن حابس، والزبرقان بن بدر، وعمرو بن الأهتم، وقيس بن عاصم الختات، ومعتم بن يزيد، وعطارد بن زيد، قدم بهم عينية بن حصن الفزاري، فلما دخلوا المسجد نادوا رسول الله ﷺ: أن اخرج إلينا يا محمد، فتأذى رسول الله من ذلك، وخرج

إليهم فقالوا: جئنا نفاخرك، فأذن لشاعرنا وخطيبنا فأذن لهم[1].

فقام عطارد فقال من خطاب:

الحمد لله الذي له علينا الفضل؛ الذي جعلنا ملوكاً، ووهب لنا أموالاً عظاماً، نفعل فيها المعروف، وجعلنا أعز أهل الشرق، وأكثرهم عدداً، فمن يفاخرنا فليعدد مثل عددنا.

فقال رسول الله لثابت بن قيس: أجب الرجل. فقام ثابت فقال: الحمد لله الذي له السموات والأرض خلقهن، وقضى فيه أمره، وسع كرسيه عمله، ولم يكن شيء قط إلا من فضله، ثم كان من قدرته أن جعلنا ملوكاً.

واصطفى من خير خلقه رسولاً أكرمكم نبياً، وأصدقكم حديثاً، وأفضلكم حسباً، فأنزل عليه كتابه وائتمنه على خلقه، فكان خيرة الله تعالى من العالمين، ثم دعا الناس إلى الإيمان، فآمن به المهاجرون وخير الناس فعالاً، ثم كان أول الخلق استجابة لله حين دعاه نحن، فنحن أنصار الله ووزراء رسوله نقاتل الناس حتى يؤمنوا، فمن آمن بالله ورسوله منع ماله ودمه، ومن كفر جاهدناه في الله أبداً، وكان قتله علينا يسيراً.

فقال الوفد: يا رسول الله! أتأذن لشاعرنا؟ فأذن له، فقام الزبرقان بن بدر فأنشد:

نحن الكرام، فلا حي يعادلنا ... منا الملوك، وفينا تنصب البيع

وكم قسرنا من الأحياء كلهم ... عند النهاب، وفضل العرب يتبع

---

(١) سبق التعرض لهذه الواقعة التي كانت سبباً في نزول سورة (الحجرات) وقد ارتأيت إثباتها لما فيها من إضافات على ما سبق، خاصة قصيدتي حسان، والزبرقان، ووجدت في أسماء أعضاء الوفد بصياغة الشيخ، رحمه الله، تداخلاً، فضبطهم من سيرة (ابن هشام) على النحو التالي: «نعيم بن يزيد، قيس بن الحارث، قيس بن عاصم. عطارد بن حاجب، الأقرع بن حابس، الحتات بن يزيد، الزبرقان بن بدر، عمرو بن الأهتم، عيينة بن حصن الفزاري، وقيس بن عاصم. غير الذي سبق ذكره. المحقق.

إلى أن قال:

فلا ترانا إلى حي نفاخرهم ... إلا استقادوا، وكان الرأس يقتطع

إذا أبينا، ولم يأب[1] لنا أحد ... إنا كذلك عند الفخر نرتفع

فمن يفاخرنا في ذاك يعرفنا ... فيرجع القول والأخبار تستمع

وكان حسان بن ثابت غائباً، فدعاه رسول الله ليجيب شاعر بني تميم، فلما أقبل وسمع قوله، قال على نحوه من البحر والقافية:

إنّ الذوائب من فهر وإخوتهم ... قد بينوا سنة للناس تتبع

قوم إذا حاربوا ضروا عدوهم ... أو حاولوا النفع في أشياعهم نفعوا

يرضى بها كل من كانت سريرته ... تقوى الإله، وكل البر يصطنع

سجيّة تلك فيهم، غير محدثة ... إن الخلائق فاعلم شرها البدع

إن كان في الناس سباقون بعدهم ... فكل سبق لأدنى سبقهم تبع

لا يرفع الناس ما أوهت أكفهم ... عند الدفاع ولا يوهن[2] ما رفعوا

إن سابقوا الناس يوماً، فاز سبقهم ... لا يطمعون ولا يزرى بهم طمع

لا يبخلون على جار بفضلهم ... ولا يمسهم من مطمع طمع

إذا ذهبنا لحي لم ندب لهم ... كما يدب إلى الوحشية[3] الذرع[4]

كأنهم في الوغى والموت مكتنع[5] ... أسد بحلية[6] في أرساغها فرع[7]

أكرم بقوم رسول الله شيعتهم ... إذا تفرقت الأهواء والشيع

---

(١) كتبها الشيخ، رحمه الله، بـ(لم) ولا يستقيم الوزن بها. والصحيح بـ(لا) و(يأبى) غير مجزوم. وهي كذلك في سيرة (ابن هشام) ومن عشرة أبيات. وقصيدة حسان، من تسعة عشر بيتاً. وبين النصين عند (ابن هشام والثعالبي) اختلاف في بعض الألفاظ. وهو أصح عند (ابن هشام). المحقق.

(٢) الصحيح: (لا يوهون).

(٣) الوحشية: بقر الوحش.

(٤) الذرع: ولد البقرة.

(٥) مكتنع: دان ومقترب.

(٦) حلية: مأسدة في اليمن.

(٧) فرع: الميلان.

فإنهم أفضل الأحياء كلهم   إن جد بالناس جد القول، أوشمعوا[1]

فلما فرغ حسان بن ثابت، قال الأقرع بن حابس: إن هذا الرجل لمؤتى له، خطيبهم أخطب من خطيبنا، وشاعرهم أشعر من شاعرنا. ثم عرض عليهم رسول الله الإسلام، فأسلموا، وقد نزلت الآية: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝٤ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾.

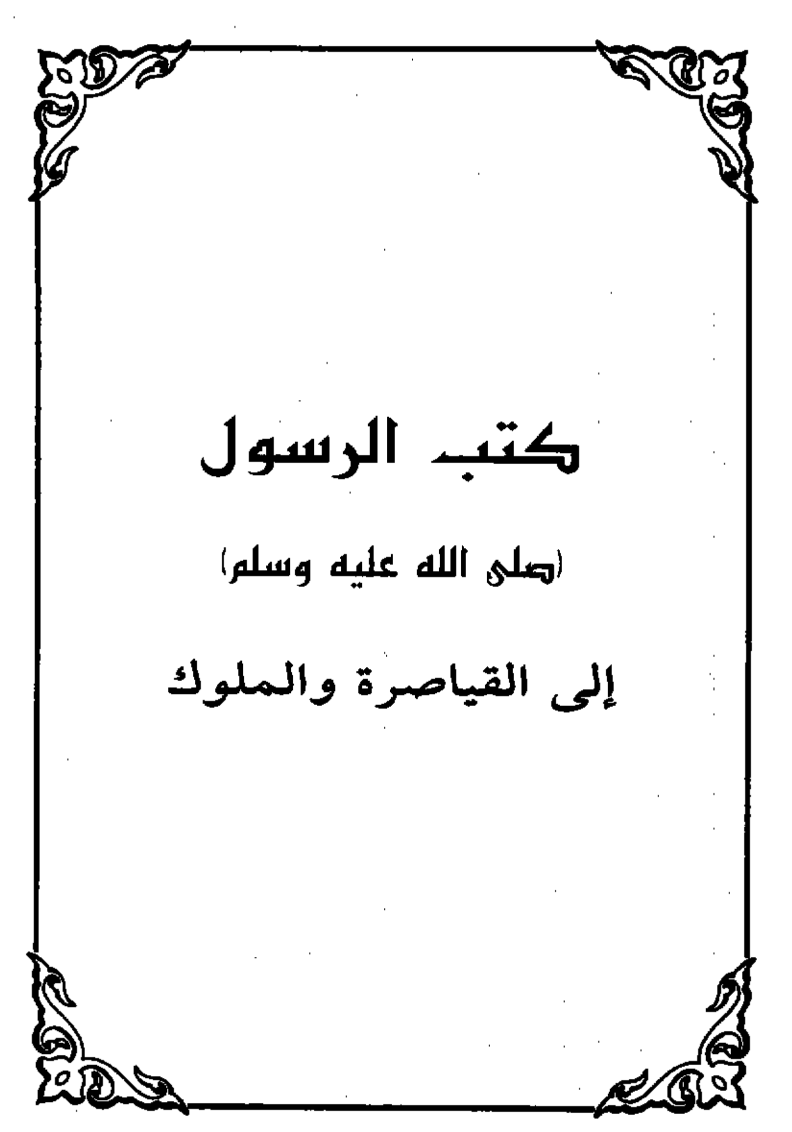
وفد النخع

قبيلة من اليمن، وهم آخر الوفود الذي قدموا على رسول الله ﷺ، جاؤوا إلى المدينة في نصف المحرم، من السنة الحادية عشرة. وكانوا مئتي رجل من النخع، وقد كانوا بايعوا معاذ بن جبل.

وفي رواية: أن النخع بعثوا رجلين: أرطاة بن شرحبيل من بني حارثة، والأرقم من بني بكر إلى رسول الله ﷺ يعلمانه بإسلامهم، فلما قدما عليه، بايعاه على قومهما. وأعجب ﷺ بشأنهما، وحسن هيئتهما. وقال لهما: خلفتما وراءكما من قومكما مثلكما؟ قالا: يا رسول الله! قد خلفنا وراءنا من قومنا سبعين رجلاً، كلهم أفضل منا، وكلهم يقطع الأمر وينفذ من الأشياء ما يشاء، فدعا لهما ولقومهما بخير. وقال: اللهم بارك في النخع! وعقد لأرطاة لواء على قومه، فكان في يده، يوم القادسية، واستشهد يومئذ في تلك الواقعة.

* * *

(١) شمعوا: هزلوا وطربوا.



كتب الرسول

(صلى الله عليه وسلم)

إلى القياصرة والملوك

كتب رسول الله إلى القياصرة والملوك

كتابه إلى قيصر الروم:

كتب رسول الله ﷺ كتبه إلى ملوك العالم، وسيرها مع رسله سنة ست. أرسل كتاباً إلى قيصر الروم (هركلوس) وكان قدم إلى بيت المقدس زائراً، سيره مع دحية الكلبي يدعوه فيه إلى الإسلام، وهذا نصه:

بسم الله الرحمن الرحيم من محمد بن عبد الله، إلى هرقل عظيم الروم. سلام على من اتبع الهدى. أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم، يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإنما عليك إثم الأريسين[1]، ثم رعاياك الذين يتبعونك وينقادون لأمرك. يا أهل الكتاب! تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم: ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا: اشهدوا بأنا مسلمون. وكان ختمه (محمد رسول الله).

فسلم الكتاب إلى دحية، وأمره أن يدفعه إلى قيصر. فخرج به دحية من المدينة إلى الشام، فلما انتهى دحية إلى بصرى، وهي عاصمة الحارث، ملك غسان، تقدم إليه، وأعلمه بالرسالة التي يحملها. فأرسل معه الحارث عدي بن حاتم ليوصله إلى قيصر فذهب به إليه. ولما وصل إلى المقدس وكان هركلوس قيصر هناك، فدخل بلاطه ووضع الكتاب تجاه العرش الذي يجلس عليه، فلما استلم قيصر الكتاب سلمه للترجمان، فقرأه عليه. والصحيح أنه لم يجب رسول الله عنه، بل أمر على ما نقل الرواة أن يؤتى له بمن في الشام، ممن يعني به من رجالات قريش، فأوتي له بجماعة، فيهم أبو سفيان. وكان في تجارة له في الشام، أثناء صلح الحديبية، ولما مثلوا بين يديه قال لترجمانه: سلهم: أيّهم أقرب نسباً لهذا الرجل الذي خرج بأرض العرب؟ يزعم أنه نبي.

---

(١) (الإريسين) مفرد (إرّيس) وفي معناه اختلاف. قيل: الرعية والرعاع. وقيل: الرؤساء وأصحاب الرأي المطاع. انظر (اللسان).

فقال أبو سفيان: أنا أقرب نسباً إليه. فقال: وما قرابتك إليه؟ قال: ابن عمي. فأمره أن يدنو منه، وأن يكون أصحابه خلف ظهره، ليردوا عليه إن أخطأ في الجواب.

ثم قال قيصر لترجمانه: سلهم: كيف نسب هذا الرجل فيكم؟ قال: هو منا ذو نسب. قال: هل قال هذا القول أحد منكم قبله؟ قال: لا. قال: هل كنتم تتهمونه بالكذب على الناس قبل أن يقول ما قال؟ قال: لا. قال: هل كان من آبائه ملك؟ قال: لا. كيف عقله ورأيه؟ قال: لم نعب عليه عقلاً ولا رأينا خطأ. قال: فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟ بل ضعفاؤهم. قال: هل يزيدون أو ينقصون؟ قال: بل يزيدون. قال: هل يرتد أحد منهم سخطة لدينه، أو كراهية له، وعدم رضا به، بعد أن يدخل فيه؟ قال: لا. قال: هل يغدر إذا عاهد؟ قال: لا. ثم قال: ونحن الآن منه في ذمة، لا ندري ما هو فاعل فيها. قال: فهل قاتلتموه؟ قال: نعم. قال: فكيف حربكم وحربه؟ قال: دول وسجال، نداك عليه مرة ويدال علينا أخرى. انتصر علينا مرة يوم بدر، وأنا غائب، ثم غزوتهم في بيوتهم يبقر البطون، وبجدع الآذان والأنوف والفروج. قال: فمايأمركم به؟ قال: يأمرنا أن نعبد الله وحده، ولا نشرك به شيئاً، وينهانا عما كان يعبد آباؤنا ويأمرنا بالصلاة والصدقة والزكاة، والصدق والعفاف، وترك المحارم، وخوارم المروءة. ويأمرنا بالوفاء بالعهد، وأداء الأمانة.

وينقل المؤرخون ورواة السيرة: أن قيصر شرح المغزى من هذه الأسئلة لأبي سفيان ومن حضر معه من العرب، بأن المعلومات التي تلقاها تدل على صدق الرسول، وإذا كان ما قيل لي عنه حقاً، فيوشك أن يملك موضع قدمي هاتين، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه.

ثم أمر قيصر بقراءة ترجمة الكتاب، فلما قرىء علت أصوات من حوله من البطارقة، وكثر لغطهم، ولم يدر الحاضرون من العرب ما قالوا. عند ذلك أمر قيصر بصرفهم. فصرفوا. فقال أبو سفيان لمن كان معه من العرب: لقد أمرّ أمر ابن أبي كبشة! «عظم أمره»، هذا ملك بني الأصفر يخافه! ثم

قال: فما زالت من ذلك اليوم موقناً أن يظهر، حتى أسلمت.

ولم يرد أن قيصر رد الجواب على هذا الكتاب. وقد ذكر السهيلي، بأن رسول الله كتب إليه كتاباً ثانياً من تبوك، واستدل له بخير. في مسند الإمام أحمد، وفي صحيح ابن حبان، عن أنس بن مالك: أن النبي كتب أيضاً من تبوك إلى قيصر، يدعوه، وأنه قارب الإجابة ولم يجب. وقيل أنه أجابه بواسطة سيار[1] تنوخي، قدم به إلى تبوك. قال: جئت محمداً بجواب قيصر، فإذا هو جالس بين ظهراني أصحابه محتبياً. فقلت: أين صاحبكم؟ قيل: هو هذا. فأقبلت أمشي حتى جلست بين يديه، فناولته الكتاب، فوضعه في حجره، ثم قال: من أنت؟ قلت: أنا أحد تنوخ. قال: هل لك في الإسلام دين الحنيفية ملة إبراهيم؟ قلت: إني رسول قوم، وعلى دينهم، لا أرجع عنه حتى أرجع إليهم. فضحك وقال: «إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء، وهو أعلم بالمهتدين». فلما قرأ الكتاب قال: إن لك حقاً، وإنك رسول، فلو وجدت عندنا جائزة جوزناك بها، إننا قوم سفر. فقال رجل: أنا أجوزه. فأتى بحلة، فوضعها في حجره. فسألت عنه، فقيل: إنه عثمان بن عفان.

كتاب رسول الله إلى كسرى:

كتب رسول الله ﷺ كتاباً إلى كسرى هذا نصه:

بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس، سلام على من اتبع الهدى، وآمن بالله ورسوله وشهد أن لا إله إلا الله وحده، لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله. أدعوك بدعاية الله، فإني أنا رسول لله إلى الناس كافة، لأنذر من كان حياً، ويحق القول على الكافرين. أسلم تسلم، فإن أبيت فعليك إثم المجوس الذين هم أتباعك. ثم ختم الكتاب وكان ختمه: (محمد رسول الله).

---

(١) (سيّار): راحل أو مسافر من (السيارة): القافلة. قال تعالى في سورة (يوسف): ﴿وجاءت سيارة، فأرسلوا واردهم﴾ ولم يرد في (اللسان) ولا (القاموس)، (سيّار) كصفة، وإنما كاسم علم.

وسلم الكتاب لحامله عبد الله بن حذافة، فسار به إلى المدائن، ولما دخل بلاط كسرى، استأذن أن يدخل عليه، فأذن له، فدفع إليه كتاب رسول الله، فسلمه إلى ترجمانه، فقرأه عليه، فأخذه ومزّقه، وأمر بإخراج حامل الكتاب، فأخرج. فلما رأى ذلك، قعد على راحلته وعاد إلى الحجاز. فلما ذهبت سورة الغضب عن كسرى، بعث يطلب الرسول حامل الكتاب، فلم يجده. ولما عاد عبد الله بن حذافة، وأخبر رسول الله ﷺ بما فعل كسرى بكتابه. قال ﷺ: مزق كسرى ملكه بيده.

ثمّ إنّ كسرى كتب إلى عامله باليمن، واسمه (باذان) أنه بلغني أن رجلاً من قريش، خرج بمكة يزعم أنه نبي، فسر إليه واستتبه، فإن تاب وإلا فابعث إلي برأسه. يكتب إلي هذا الكتاب؟ الذي بدأ فيه بنفسه، وهو عبدي، وإن لم تكفنيه، فعلت فيك كذا وكذا! يتوعده. فبعث (باذان) بكتاب كسرى إلى رسول الله مع قهرمانه، وأردفه برجل آخر من الفرس، وأمر رسول الله أن ينصرف معهما إلى كسرى، فخرجا، وقدما الطائف، فوجدا رجلاً من قريش فسألاه عن رسول الله؟ فقال: هو بالمدينة. فلما قدما عليه المدينة قالا: الأنشاهنشاه كسرى: بعث إلى الملك باذان، يأمره أن يبعث إليك من يأتي بك، وقد بعثنا إليك، فإن أبيت هلكت وأهلكت قومك، وخربت بلادك. فقال لهما: ارجعا إلي غداً. فلما كان الغد دعاهما، وأخبرهما، بأن الله قد سلط على كسرى ابنه، فقتله. وكتب رسول الله إلى (باذان) يخبره ويبلغه مآل كسرى على يد ولده، شيرويه. ويقول له: إن ربي قتل ربك. ثم جاء الخبر مطابقاً لذلك.

وقدم على باذان كتاب (شيرويه) يخبره، بأنه قتل أباه غضباً لفارس، لأنه قتل أشرافهم فتفرق الناس، فإذا جاءك كتابي هذا، فخذ لي الطاعة ممن قبلك، وانظر الرجل الذي كان كسرى كتب إليك فيه، فلا تزعجه، حتى يأتي لك أمري فيه.

أمّا باذان، فإنه لم يتريث في الأمر، بل بادر لإعلان إسلامه، وتقديم الطاعة لرسول الله، بدل القبض عليه، وإرساله مخفوراً إلى المدائن، وإن كان هذا رابع المستحيلات! والإسلام في إقباله وقد ذاق العرب حلاوة الإيمان،

وأدركوا لذة الحكم والسيادة. وهم يأملون أن ينقضوا على كسرى ويكتسحوا بلاده. وما باذان بالغبي ولا بالبعيد عن بلاد العرب، الذي يخفى عليه ذلك.

كتاب الرسول إلى النجاشي ملك الحبشة:

أرسل رسول الله إلى النجاشي كتاباً، هذه نسخته:

بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله، إلى النجاشي ملك الحبشة. سلم أنت، فإني أحمد إليك الله، الذي لا إله إلا هو الملك القدّوس، السلام المؤمن المهيمن. وأشهد أن عيسى ابن مريم روح الله، وكلمته، ألقاها إلى مريم البتول، الطيبة الحصينة، فحملت بعيسى. حملته من روحه ونفخه، كما خلق آدم بيده. وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له، والموالاة على طاعته. وأن تتبعني وتوقن بالذي جاءني، فإني رسول الله وأدعوك وجنودك إلى الله عز وجل، وقد بلغت ونصحت، فاقبلوا نصيحتي، والسلام على من اتبع الهدى. وكان توقيعه: (محمد رسول الله).

وأعطى الكتاب إلى عمر بن أمية الضمري، وأمره بإيصاله إلى النجاشي. فلما وصل الكتاب إلى النجاشي أعظمه، وبعد قراءته أمر بحفظه، ووضعه في حق من عاج.

وعند تقديم الكتاب ألقى عمر خطبة بين يدي النجاشي، قال:

يا أصحمة[1]! إن علي القول، وعليك الاستماع. إنك كأنك في الرقة علينا منا، وكأنا في الثقة بك منك، لأنا لم نظن بك خيراً إلا نلناه، ولم نحفظك على شر قط إلا أمنّاه، وقد أخذنا الحجة عليك، من قبل آدم. والإنجيل بيننا وبينك شاهد لا يرد، وقاض لا يجور. وفي ذلك موقع الخير وإصابة الفضل، وإلا فأنت في هذا النبي الأمي، كاليهود في عيسى ابن مريم عليه السلام. وقد فرق النبي ﷺ رسله إلى الناس، فرجاك لما لم يرجهم له، وأمنك على ما خافهم عليه: لخير سالف وأجر ينتظر.

---

(١) (أصحمة): قال عنه صاحب (القاموس): أصحمة بن بحر، ملك الحبشة، النجاشي، أسلم في عهد النبي ﷺ.

جواب النجاشي على خطاب عمر بن أمية الضمري:

أشهد بالله أنه للنبي الذي ينتظره أهل الكتاب، وإن بشارة موسى براكب الحمار، كبشارة عيسى براكب الجمل، وإن العيان ليس بأشفى من الخبر، ولكن أعواني من الحبشة قليل فانظرني حتى أكثر الأعوان، وألين القلوب.

جواب النجاشي على كتاب رسول الله[١].

كتاب رسول الله إلى المقوقس ملك القبط:

كتب رسول الله إلى المقوقس ملك القبط، كتاباً منصرفه من الحديبية، واسم الملك جريج بن منيا هذه نسخته:

بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد بن عبد الله إلى المقوقس، عظيم القبط. سلام على من اتبع الهدى. أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم، يؤتك الله أجرك مرتين فإن توليت فإنما عليك إثم القبط. يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون. وختم الكتاب وكان ختمه: (محمد رسول الله).

ولما كتبه قال: أيها الناس! أيكم ينطلق بكتابي هذا إلى صاحب مصر، وأجره على الله؟ فوثب حاطب بن أبي بلتعة، وقال: أنا يا رسول الله! قال: بارك الله فيك يا حاطب! فأخذ الكتاب وشد على راحلته، إلى أن وصل إلى إسكندرية، وأخبر أن الملك يجلس في قاعة من قصره، مشرفة على البحر. فركب سفينة، وحاذى قصر الملك، وأشار بالكتاب إليه، فلما رآه أمر بإحضاره. فلما جيء به نظر إلى الكتاب وقرأه ثم قال لحاطب: ما منعه إن

---

(١) ذهب ابن حزم لإثبات أن النجاشي الذي كتب إليه رسول الله الكتاب وأرسله إليه على يد عمر بن أمية الضمري لم يسلم. وأنه غير النجاشي الذي صلى عليه ﷺ صلاة الجنازة على الغائب، الذي أكرم المسلمين الذين هاجروا إليه. وفي صحيح مسلم ما يؤيد ذلك فليرجع إليه. المؤلف. لم يثبت المؤلِّف نصَّ جواب النجاشي على كتاب رسول الله في مخطوطة (ب) وهو مثبت في طبعة (غ). المحقق.

كان نبياً أن يدعو على من يخالفه من قومه، وأخرجوه من بلده إلى غيرها، أن يسلط عليهم، فاستعاد منه الكلام مرتين. ثم سكت.

فقال له حاطب: ألست تشهد أن عيسى ابن مريم رسول الله؟ فماله حيث أخذه قومه فأرادوا أن يقتلوه، ألا يكون دعا عليهم، أن يهلكهم الله تعالى؟ قال: أحسنت، أنت حكيم، جاء عند حكيم.

ثم قال حاطب: أيها الملك! إنه كان قبلك على هذا العرش رجل يزعم أنه الرب الأعلى «فرعون» فأخذه الله نكال الآخرة والأولى، فانتقم به، ثم انتقم منه فاعتبر بغيرك، ولا يعتبر غيرك بك. إن هذا النبي دعا الناس، فكان أشدهم عليه قريش، وأعداهم له يهود، وأقربهم منه النصارى. ولعمري ما بشارة موسى بعيسى، إلا كبشارة عيسى بمحمد. وما دعاؤنا إياك إلى القرآن، إلا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل. وكل نبي أدرك قوماً هم أمته، فالحق عليهم أن يطيعوه، فأنت ممن أدرك هذا النبي. ولسنا ننهاك عن دين المسيح عليه السلام، ولكننا نأمرك به.

فقال المقوقس: إني قد نظرت في أمر هذا النبي، فوجدته لا يأمر بمزهود فيه، ولا ينهى عن مرغوب عنه، ولم أجده بالساحر الضال، ولا الكاهن الكذاب، ووجدت معه آلة النبوة، بإخراج المستور. وسأنظر!

وأخذ كتاب رسول الله، وختم عليه، ودفعه إلى جارية له. ثم دعا كاتباً له يكتب بالعربية، فكتب إلى النبي ما يأتي:

بسم الله الرحمن الرحيم. لمحمد بن عبد الله، من المقوقس عظيم القبط، سلام عليك، أما بعد: فقد قرأت كتابك، وفهمت ما ذكرت فيه وتدعوا إليه، وقد علمت أن نبياً قد بقي، وقد كنت أظن أنه يخرج بالشام، وقد أكرمت رسولك، وبعثت لك بجاريتين، لهما مكان في القبط عظيم، وعشرين ثوباً من قباطي مصر، وأهديت لك بغلة لتركبها.

ويذكر رواة السيرة: أن من جملة هدايا المقوقس خصياً أسود، اسمه مابور، وجارية ثالثة اسمها (قيسر) أخت مارية وسيرين. وجارية رابعة، سوداء بربرة لرسول الله، وعمائم وطيباً وعوداً ونداً ومسكاً، وألف مثقال

من الذهب، وأقداحاً من قوارير. وأهدى لحاطب مئة دينار، وخمسة أثواب، وحماراً أشهب، يقال له: يعفور، وفرساً اسمه اللزاز، مسرجاً ملجماً، وكمية من عسل بنها، ومربعة للكحل، وقارورة للدهن، ومشطاً ومقصاً وسواكاً ومرآة.

ثم قال المقوقس لحاطب: ارجع إلى صاحبك، وارحل من عندي، ولا تسمع منك القبط حرفاً واحداً. قال حاطب: فرحلت. وبعث معي جيشاً يحرسني، إلى أن دخلت جزيرة العرب. ووجدت قافلة تسير من الشام إلى المدينة، فرجع الجيش، وارتفقت بالقافلة.

كتاب رسول الله للمنذر بن ساوى العبدري ملك البحرين:

كتب ﷺ كتاباً إلى المنذر بن ساوى، ملك البحرين، يدعوه إلى الإسلام. أرسله إليه مع العلاء بن الحضرمي. ولكن لم ينتبه إلى حفظه الرواة، وإنما ذكروا خطاب العلاء له لما قدم عليه، وجواب المنذر عن كتاب رسول الله، ورده عليه فيما سأله عنه.

أما خطاب العلاء فهو:

يا منذر! إنك عظيم العقل في الدنيا، فلا تصغرن عن الآخرة. إن هذه المجوسية شر دين. ينكح فيها ما يستحيا من نكاحه، ويأكلون ما يتكره من أكله، ويعبدون في الدنيا ناراً، تأكلهم يوم القيامة. ولست بعديم عقل ولا رأي، فانظر هل ينبغي لمن لا يكذب في الدنيا ألا نصدقه؟ ولمن لا يخون ألا نأتمنه؟ ولمن لا يخلف ألا نثق به؟ فإن كان هذا هكذا، فهذا هو النبي الأمي، الذي والله! لا يستطيع ذو عقل أن يقول: ليت ما أمر به نهى عنه، أو ما نهى عنه أمر به.

جواب المنذر:

قد نظرت في هذا الذي في يدي، فوجدته للدنيا دون الآخرة. ونظرت في دينكم فرأيته للآخرة والدنيا. فما يمنعني من قبول دين فيه أمنية الحياة، وراحة الموت؟ ولقد عجبت أمس لمن تقبله، وعجبت اليوم لمن يرده. وإن

من إعظام ما جاء به، أن يعظم رسوله.

رد المنذر على كتاب رسول الله:

أما بعد، يا رسول الله! فإني قرأت كتابك على أهل البحرين، فمنهم من أحب الإسلام وأعجبه، ودخل فيه، ومنهم من كرهه. وبأرضي مجوس ويهود، فأحدث لي في ذلك أمرك.

جواب رسول الله ﷺ عن كتاب المنذر:

بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى المنذر بن ساوى. سلام عليك. فإني أحمد إليك الله؛ الذي لا إله إلا هو، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله. أما بعد: فإني أذكرك الله عز وجل، فإنه من ينصح، فإنما ينصح لنفسه. وإنه من يطع رسلي، ويتبع أمرهم، فقد أطاعني. ومن ينصح لهم، فقد نصح لي. وإن رسلي قد أثنوا عليك خيراً. وإني قد شفعتك في قومك، فاترك للمسلمين ما أسلموا عليه، وعفوت عن أهل الذنوب فاقبل منهم. وإنك مهما تصلح فلن نعزلك عن عملك. ومن أقام على يهوديته أو مجوسيته فعليه الجزية.

وقد أسلم المنذر، وحسن إسلامه. وذكر بعض الرواة: أنه وفد على رسول الله إلى المدينة، وعده من الصحابة. ولكن (الربيع)[1] أنكر ذلك. وقال عنه: أسلم، ولكنه لم يفد على رسول الله، وليس بصحابي. وهذا هو الأصح.

كتاب رسول الله إلى جعيفر وعبد ابنى الجلندى ملكي عمان ودخول العمانيين في الإسلام:

أوفد رسول الله ﷺ عمرو بن العاص بكتاب إلى جعيفر وعبد ابني

---

(١) لعل الشيخ يقصد (الإمام الربيع بن حبيب) صاحب (الجامع الصحيح) معتمد الأباضية في الفقه، كما نعته الشيخ نفسه في قائمة مكتبته بخط يده. المحقق.

الجلندى ملكي عمان[١]، هذه نسخته:

بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد بن عبد الله، إلى جعيفر وعبد ابني الجلندى. سلام على من اتبع الهدى. أما بعد، فإني أدعوكما بدعاية الإسلام، أسلما تسلما. إني رسول الله إلى الناس كافة، فأنذر من كان حياً، ويحق القول على الكافرين. وإنكما إن أقررتما بالإسلام وليتكما، وإن أبيتما أن تقرا بالإسلام، فإن ملككما زائل، وخيلي تحل بساحتكما، وتظهر نبوتي على ملككما. وكان ختم الكتاب: (محمد رسول الله).

فسار عمرو بالكتاب إلى عمان، فلما وصل إلى (عبد) وكان أقلهما حجاباً، وأيسرهما لقاء، وأسهلهما خلقاً. فقال: إني رسول رسول الله إليك، وإلى أخيك. قال: أخي المقدم علي بالسن والملك، وأنا أوصلك به حتى يقرأ كتاب صاحبك. قال: وماذا جئت تدعو إليه؟ قال: جئت أدعوكم إلى الله وحده، وخلع ما عبد من دونه، وتشهدوا أن محمداً عبده ورسوله. قال: يا عمرو! إنك ابن سيد قومك، فكيف صنع أبوك؟ فإن لنا فيه قدوة. قلت: مات ولم يؤمن بمحمد، وودت لو كان آمن وصدق به، وقد كنت قبل على مثل رأيه، حتى هداني الله للإسلام. قال: فمتى تبعته؟ قلت: قريباً. فسألني: أين كان إسلامي؟ فقلت: عند النجاشي[٢]، وأخبرته خبره.

---

(١) ضبط (ابن هشام) اسميهما بهذه الصورة: (جيفر وعياذ ابني الجلندى الأزديين، ملكي عمان، وأضاف إلى عمرو بن العاص: (السهمي). المحقق.

(٢) سبقت قصة إسلام فتيان قريش: خالد بن الوليد، وعثمان بن طلحة. وعمرو بن العاص، وقول الرسول في مقدمهم «رمتكم مكة بأفلاذ كبدها». وفي سيرة (ابن هشام) رواية عمرو بن العاص لقصة إسلامه عند النجاشي، يوم كان يستقبل عمرو ابن أمية الضمري، مبعوثاً من رسول الله ﷺ في شأن المهاجرين إلى الحبشة: جعفر وأصحابه. وأن النجاشي هو الذي أقنع ابن العاص بالإسلام، حيث قال له: ويحك يا عمرو! أطعني واتبعه: فإنّه والله لعلى الحق، وليظهرن على من خالفه، كما ظهر موسى على فرعون وجنوده، قال: فقلت له: أفتبايعني له على الإسلام؟ قال: نعم، فبسط يده، فبايعته على الإسلام، وكتمت أصحابي إسلامي. المحقق.

فاستغرب كيف أسلم. ثم قال: ماذا صنع قومه بملكه؟ قلت: أقروه واتبعوه. قال: والأساقفة والرهبان؟ قلت: نعم. قال: انظر يا عمرو ما تقول، إنه ليس من خصلة في رجل أفضح له من كذب. قلت: وما كذبت، وما نستحله في ديننا.

ثم قال: ما رأي هرقل؟ علم بإسلام النجاشي؟ قلت له: نعم. قال: بأي شيء علمت ذلك؟ قلت: كان النجاشي يخرج له خراجاً، فلما أسلم النجاشي وصدق بمحمد قال: لا والله! ولو سألني درهماً واحداً ما أعطيته. فبلغ هرقل قوله، فقال له أخوه: تدع تابعك لا يخرج لك خراجاً، ويدين ديناً محدثاً! فقال هرقل: رجل رغب في دين اختاره لنفسه، ما أصنع به؟ والله لولا الضن بملكي، لصنعت كما صنع. قال: انظر ما تقول يا عمرو؟ قلت: والله صدقتك.

قال عبد: أخبرني ما الذي يأمر به وينهى عنه؟ قلت: يأمر بطاعة الله عز وجل، وينهى عن معصيته، ويأمر بالبر وصلة الرحم، وينهى عن الظلم والعدوان، وعن الزنى وشرب الخمر، وعن عبادة الحجر والوثن والصليب. فقال: ما أحسن هذا الذي يدعو إليه، لو كان أخي يتابعني، لركبنا حتى نؤمن بمحمد، ونصدق به. ولكن أخي أضن بملكه من أن يدعه ويصير ذنباً. قلت: إنه إن أسلم ملكه رسول الله على قومه، يأخذ الصدقة من غنيهم فيردها على فقيرهم. قال: إن هذا الخلق حسن. وما الصدقة؟ فأخبرته بما فرض رسول الله من الصدقات في الأموال. ولما ذكرت المواشي قال: يا عمرو! ويأخذ من سوائم مواشينا التي ترعى في الشجر وترد المياه؟ فقلت: نعم.

فقال: والله! ما أرى قومي، في بعد دارهم، وكثرة عددهم يطيعون بهذا!

قال عمرو: فمكثت أياماً بباب جعيفر، وقد أوصل إليه أخوه خبري. ثم إنه دعاني، فدخلت عليه، فأخذ حجابه بضبعي «عضدي» قال: دعوه. فأرسلوني، فذهبت لأجلس، فأبوا أن يدعوني، فنظرت إليه، فقال: تكلم بحاجتك. فدفعت إليه كتاباً مختوماً، ففض خاتمه، فقرأه حتى انتهى إلى آخره، ثم دفعه إلى أخيه فقرأه.

قال جعيفر: ألا تخبرني عن قريش كيف صنعت؟ فقلت: تبعوه، إما راغب في الدين وإما راهب مقهور بالسيف. قال: ومن معه؟ قلت: الناس الذين قد رغبوا في الإسلام، واختاروه على غيره، وعرفوا بعقولهم، مع هدي الله إياهم، أنهم كانوا في ضلال مبين. فما أعلم أحداً بقي غيرك في هذه الخرجة. وأنت إن لم تسلم اليوم، وتتبعه، تطؤك الخيل، وتبيد خضراؤك، فأسلم تسلم، ويستعملك على قومك. قال: دعني يومي هذا، وارجع إلي غداً، أُجِبْك.

فلما كان الغد أتيت إلى بابه، فأبى أن يأذن لي، فرجعت إلى أخيه، فأخبرته أني لم أصل إليه، فأخذني، وأوصلني إليه.

فقال: إني فكرت فيما دعوتني إليه، فإذا أنا أضعف العرب إن ملكت رجلاً ما في يدي، وهو لا تبلغ خيله هاهنا. وإن بلغت خيله ألفت قتالاً ليس كقتال من لقي.

قلت: إني خارج غداً. فلما أيقن بذلك، خلا بأخيه، فلما أصبح أرسل إلي، فأجاب إلى الإسلام هو وأخوه جميعاً، وصدقا بالرسالة، وخليا بيني وبين الصدقة وبين الحكم، وكانا لي عوناً على من خالفني، ولم يزل بالقوم يعالجهم حتى دانوا بالإسلام.

كتاب رسول الله إلى هوذة ملك اليمامة:

بعث ﷺ إلى هوذة ملك اليمامة كتاباً على يد سليط بن عمرو العامري، نسخته:

بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى هوذة بن علي. سلام على من اتبع الهدى، واعلم أن ديني سيظهر إلى منتهى الخف والحافر، حيث تقطع الإبل والخيل، فأسلم تسلم، وأجعل لك ما تحت يديك. وكان ختمه (محمد رسول الله).

فلما قدم سليط على هوذة بكتاب رسول الله، أنزله وحياه، وقرأ عليه الكتاب. وكان عند هوذة عظيم من عظماء النصارى. فقال: لم لا تجيب؟

فقال: أنا ملك قومي، ولئن اتبعته لم أملك! فقال: بلى والله! لئن اتبعته ليملكنك، وإن الخير لك في اتباعه.

وذكر السهيلي: أن سليطاً قال لهوذة: إن سودتك[١] أعظم حائلة، وأرواح في النار. وإن السيد من متع بالإيمان، ثم تزود بالتقوى. وإن قوماً سعدوا برأيك فلا تشقني به. وأنا آمرك بخير مأمور به، وأنهاك عن شر منهي عنه. آمرك بعبادة الله، وأنهاك عن عبادة الشيطان، فإن في عبادة الله الجنة، وفي عبادة الشيطان النار. فإن قبلت نلت ما رجوت، وإن أبيت فبيننا وبينك كشف الغطاء، وهو أول المطلع.

فقال هوذة: يا سليط! سودني من لو سودك «يعني: ملوك فارس» شرفت به. وقد كان لي رأي أختبر به الأمور، فقدته، فاجعل لي صبيحة ليرجع إلي رأيي، فأجيبك به.

ثم كتب جواباً على كتاب رسول الله، هذه نسخته:

ما أحسن ما تدعو إليه وأجمله! وأنا شاعر قومي وخطيبهم. والعرب تهاب مكاني، فاجعل إلي بعض الأمر، أتبعك.

وأجاز سليطاً بجائزة، وكساه أثواباً من نسيج هجر[٢]، فقدم بذلك على رسول الله، فأخبره خبره.

ولما اطلع رسول الله على كتاب هوذة، قال: لو سألني سبابة[٣] من

---

(١) (سودتك) لعله يقصد سيادتك ومقامك من الملك. ولم أجد صيغة (السودة) في (اللسان) وإنما السؤدد: العزة والشرف. واللفظة في طبعة (غ): سورتك.

(٢) (هجر): مدينة باليمن، واسم لجميع أرض البحرين، يقول المثل: «كمبضع تمراً إلى هجر» وقال عمر رضي الله عنه: «عجبت لتأجير هجرا!» يعني: مهارته في التجارة، ودأبه على المغامرة، وركوب البحر.

(٣) (سبابة) أي: مقدار سبابة من الأرض. والسبابة: الأصبع بين الإبهام والوسطى.

الأرض ما فعلت، باد وباد ما في يديه. وعند منصرف رسول الله من فتح مكة، وافته الأخبار بموت هوذة[1].

كتاب ﷺ إلى الحارث بن شمر الغساني:

وكان أميراً على الشام، وكانت عاصمة إمارته دمشق، وهو خاضع للسيادة الرومية، فبعث إليه رسول الله كتاباً يدعوه به إلى الإسلام، والرجوع إلى حظيرة الأمة العربية. هذه نسخته:

بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى الحارث بن أبي شمر. سلام على من اتبع الهدى، وآمن به، وصدق. وإني أدعوك أن تؤمن بالله وحده، لا شريك له، يبقى لك ملكك. وختم الكتاب، وكان ختمه به (محمد رسول الله).

وانتدب لحمله شجاع بن وهب. قال شجاع: فخرجت حتى انتهيت إلى باب شمر، فأقمت يومين أو ثلاثة، فقلت لحاجبه: إني رسول رسول الله إليه. فقال: لا تصل إليه حتى يخرج يوم كذا، وجعل حاجبه يسألني عن رسول الله، وما يدعو إليه. وكنت أحدثه عنه، فيرق قلبه، حتى يغلبه الخشوع والبكاء، وكان يكرمني ويحسن ضيافتي، ويقول:

أنا أومن برسول الله، وأصدقه، وإنما أخاف من الحارث بن أبي شمر أن يقتلني، وكان يخبرني باليأس منه، ويقول: هو يخاف قيصر.

فخرج الحارث يوماً، وجلس وعلى رأسه التاج، وأذن لي بالدخول عليه: فدخلت، ودفعت إليه كتاب رسول الله. فقرأه ثم رمى به. وقال: من ينزعني ملكي؟ أنا سائر إليه ولو كان باليمن. ثم قال: علي بالناس، فلم يزل جالساً، يعرضون عليه حتى الليل، وأمر بالخيل أن تنعل، ثم قال لي: أخبر صاحبك بما ترى.

---

(١) إلى هنا انتهى الجزء الثاني من (معجز محمد سول الله) طبعة (دار الغرب الإسلامي) (١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م). الطبعة الأولى. ولم تستكمل حتى وفاة الرسول ﷺ. ولا شك أن هذا النقص من المخطوطة التي اعتمدت عليها الطبعة. المحقق.

وكتب إلى قيصر يخبره الخبر، وصادف أن كان عنده دحية الكلبي، يحمل إليه رسالة رسول الله ﷺ، فلما قرأ قيصر كتاب الحارث كتب إليه: أن لا تسر إليه، واله عنه. وأمره أن يشتغل بإعداد الإنزال، لقدوم قيصر إلى بيت المقدس من حمص، فإنه نذر السير إليها مشياً، شكراً لله، حيث كشف عنه جنود فارس، وأظهره عليهم.

لما ورد كتاب قيصر على الحارث، كان شجاع لم يزل مقيماً عنده، فدعاه، وقال: متى تريد أن تخرج إلى صاحبك؟ قال: غداً. فأمر له بمئة مثقال ذهباً، وسيره، ووصله حاجبه بكسوة ونفقة. وقال له: اقرأ على رسول الله مني السلام، وأخبره بأني على دينه. فقدم شجاع على رسول الله المدينة، وأخبره بما كان، وقال عن الحارث: باد ملكه.

إرسال شجاع إلى جبلة بن الأيهم:

ذكر كتاب السيرة، ومنهم ابن هشام: أن رسول الله ﷺ أرسل شجاعاً إلى جبلة بن الأيهم، بما أرسله إلى الحارث. ومدينته بين طرابلس واللاذقية. وأن شجاعاً قال له:

يا جبلة! إن قومك نقلوا هذا النبي من داره إلى دارهم، فآووه، ومنعوه، ونصروه. وإن هذا الدين الذي أقمت عليه، ليس بدين آبائك، ولكنك ملكت الشام، وجاورت الروم، ولو جاورت كسرى، دنت بدين الفرس. وإن أسلمت أطاعتك وهابتك الروم. وإن لم يفعلوا، كانت لهم الدنيا، وكانت لك الآخرة. وقد كنت استبدلت المساجد بالبيع، والآذان بالناقوس، والجمع بالشعانين، وما كان عند الله خير وأبقى.

وقال جبلة: إنه والله! لوددت أن الناس اجتمعوا على هذا النبي، اجتماعهم على من خلق السموات والأرض، وقد سرني اجتماع قومي عليه، وقد دعاني قيصر إلى قتال أصحابه يوم مؤتة فأبيت عليه، ولكني لست أرى حقاً ولا باطلاً، وسأنظر في الأمر.

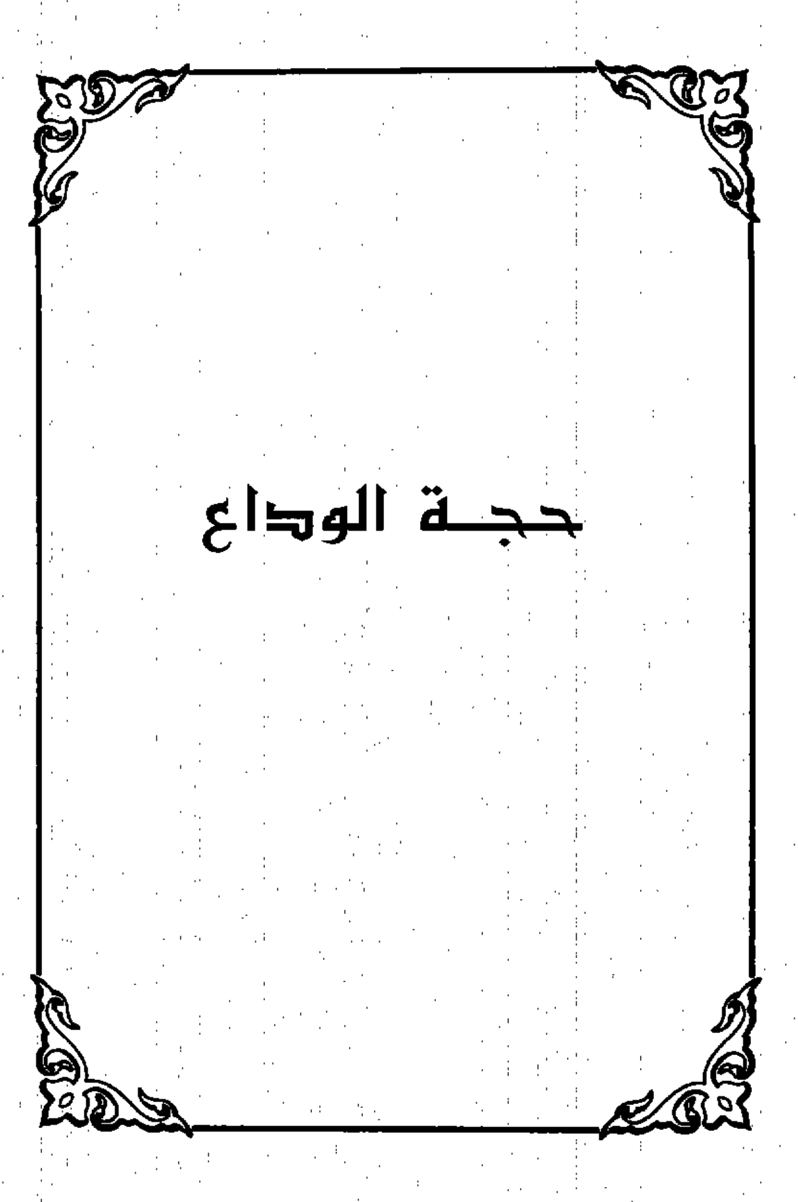
وفي كلام بعض كتاب السيرة: أنه أسلم، ورد جواب كتاب رسول الله،

وأعلمه بإسلامه، وأرسل الهدية، وكان ثابتاً على إسلامه إلى عهد عمر. والتحقيق: أنه ما أسلم إلا بعد فتح الشام في عهد عمر الفاروق، رضي الله عنه. ثم ارتد في قصة معروفة[1] ولحق بقيصر.

* * *

---

(١) بعد أن أسلم جبلة، كتب إلى عمر يستأذنه في القدوم، فسر عمر بذلك وأذن له. فخرج في خمسين ومئتين من أهل بيته وحاشيته، حتى إذا قارب المدينة، عمد إلى أصحابه فحملهم على الخيل، وقلدها بقلائد الذهب والفضة، وألبسها الديباج، وسرف الحرير، ووضع تاجه على رأسه. فلم تبق بكر ولا عانس إلا خرجت تنظر إليه وإلى موكبه. فلما دخل على عمر، رحب به وأدنى مجلسه. وأقام بالمدينة مكرماً. فخرج عمر حاجاً فخرج معه جبلة بمن معه. وحين تطوف بالبيت، وطىء رجل من فزارة إزاره، فانهال يلطم الفزاري لطمة هشم بها أنفه، وكسر ثناياه. فشكا الفزاري ذلك إلى عمر، فاستدعاه، وقال له: لم هشمت أنفه؟ فقال: يا أمير المؤمنين! تعمد حل إزاري، ولولا حرمة البيت لضربت عنقه بالسيف. فقال عمر: أما أنت فقد أقررت على نفسك بالعدوان عليه، فإما أن ترضيه وإلا أقدته منك. فقال جبلة: تقيده بي ماذا؟ قال: مثل ما صنعت به. فقال: أتقتص مني وأنا ملك؟ وهذا سوقي! فقال له عمر: بلى، إن الإسلام سوى بينكما، ولا فضل لك عليه إلا بالتقوى. فقال: إن كنت أنا وهذا الرجل سواء في الدين فأنا أتنصّر. فإني كنت أظن، يا أمير المؤمنين! أني أكون في الإسلام بمكاني في الجاهلية! فقال له عمر: إذن أضرب عنقك، قال: فأمهلني الليلة، حتى أنظر في أمري؟ قال: ذلك إلى خصمك، فقال الرجل: أمهلته. فأذن له بالانصراف. ولما خلا جبلة بنفسه في الليل ركب في بني عمه، وفر إلى القسطنطينية. المؤلف.



حجـة الوداع

حجـة الوداع

وهي لها أسماء كثيرة في الكتب الإسلامية، فقد سميت أيضاً (حجة الإسلام) و(حجة البلاغ) وهي آخر حجة حجها رسول الله، ولم يحج من المدينة غيرها. ويقولون في ذلك: إن قريشاً كانوا يخرجون الحج عن وقته، وكانوا يؤخرونه في كل عام أحد عشر يوماً، حتى يدور الدور إلى ثلاث وثلاثين سنة، فيعود إلى وقته. وحجة الوداع كانت في السنة التي عاد فيها الحج إلى وقته. وكانت سنة عشر.

وقد اختلف الفقهاء في السنة التي فرض فيها الحج، كما اختلفوا في كل شيء وارد من طريق الرواية. ذهب الجمهور إلى أن فرض الحج، كان في سنة ست من الهجرة، وصححه الرافعي من الشافعية، وتبعه النووي. وقيل: فرض سنة تسع، وقيل: سنة عشر. وبه قال أبو حنيفة. وقيل: فرض قبل الهجرة، وذكر أن الرسول حج بعد النبوة، قبل الهجرة، ثلاث حجات. وفي كلام ابن الأثير: كان ﷺ يحج في كل سنة، قبل أن يهاجر. وفي كلام ابن الجوزي: أنه حج حججاً لا يعلم عددها.

وكان يقف بعرفات، ويفيض منها إلى مزدلفة، مخالفاً لقريش، فإنهم كانوا لا يخرجون من الحرم، ويقولون في ذلك: نحن بنو إبراهيم وأهل الحرم، وولاة البيت، وعاكفو مكة، وليس لأحد من العرب منزلتنا. وكانوا يتواصون بألا تعظموا شيئاً من الحل كما تعظمون الحرم، فإنكم إن فعلتم ذلك استخف العرب بحرمكم، وقالوا: قد عظموا من الحل مثل ما عظموا من الحرم، فليس لنا أن نخرج من الحرم، نحن الحمس. فتركوا الوقوف بعرفة، والإفاضة منه إلى المزدلفة، ويرون فعل ذلك لسائر العرب دونهم.

وكان خروجه ﷺ من المدينة، يوم الخميس لست[1] بقين من ذي القعدة.

---

(١) إما أن يكون (الخميس لسبع بقين من ذي القعدة) حتى يصحّ الاحتمال الثاني، أو يكون الثاني (السبت لأربع بقين) فيصحّ الأوّل. أو يكون الاختلاف من الروايتين بالنسبة لنهاية ذي القعدة. المحقق.

وقيل: يوم السبت لخمس بقين من ذي القعدة، سنة عشر، نهاراً بعد أن ترجل وادهن، وصلى الظهر بالمدينة، وصلى العصر بذي الحليفة ركعتين. وفي تلك الليلة، طاف على نسائه التسع، وكن معه في الهودج، ثم اغتسل وصلى الصبح والظهر. ثم طيبته عائشة بذريرة من الطيب، فيه مسك. ثم أحرم بعد أن اغتسل لإحرامه، غير غسله الأول، وتجرد في إزاره وردائه، حتى كان يرى بيض المسك في مفارقه ولحيته. ونقل عن عائشة أنها قالت: كنت أطيب رسول الله لإحرامه، قبل أن يحرم، ولحله قبل أن يطوف بالبيت. وقالت أيضاً: كنت أطيب رسول الله، ثم يطوف على نسائه، ثم يصبح محرماً، ينضح طيباً.

وقبل خروجه ﷺ استعمل أبا دجانة الأنصاري على المدينة. وقيل: سباع بن عرفطة. وأصاب الناس بالمدينة جدري أو حصبة، منعت كثيراً من الناس من الحج معه ﷺ. ومع ذلك فقد رافقته جموع، لا يعلم عددها. اختلف الرواة في تقديرها، من سبعين ألف إلى مئة وعشرين ألف.

وكان ﷺ على راحلته القصوى، وعليها رحل رث يساوي أربعة دراهم، وحين خرج قال: اللهم! اجعله مبروراً، لا رياء فيه. ولا[1].. قالها عند مسجد ذي الحليفة. وأحرم بالحج والعمرة معاً، فكان قارناً. وقد اختلف في هل كان إحراماً بالحج فقط فكان مفرداً؟ أو بالعمرة فقط، ثم أحرم بالحج بعد فراغه من أعمال العمرة، فكان متمتعاً.

وروى الإمام الشافعي: أن رسول الله خرج هو وأصحابه، مهللين محرمين إحراماً، محلقين، ينتظرون نزول الوحي لتعيين ما يصرفون إليه إحرامهم المطلق. أي: بإفراد وتمتع أو قران؟ فجاء الوحي أن يأمر من لا هدي له، أن يجعل إحرامه عمرة، فيكون متمتعاً. ومن معه هدي أن يجعله حجاً فيكون مفرداً؛ لأن من معه هدى، أفضل ممن لا هدي معه. والحج أفضل من العمرة.

ولما استقبل رسول الله ﷺ القبلة لبى، فقال: لبيك اللهمّ لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك. وروي

---

(١) غير واضحة في الأصل، ولا هي موجودة عند ابن هشام، ولا عند الطبري.

أنه زاد على تلك: لبيك إله الخلق لبيك. وروى آخرون أنه زاد: لبيك، حقاً نعبدك ورقاً. والناس معه فيها يزيدون وينقصون، لم ينكر عليهم. فكان ابن عمر يزيد فيها: لبيك وسعديك، والخير في يديك لبيك. والرغبة إليك والعمل.

رعاية رسول الله خواطر النساء

ذكر رواة السيرة: أن جمل عائشة في هذه الرحلة سريع المشي مع خفة حمل عائشة، وكان جمل صفية بطيء المشي، مع ثقل حملها، فصار يتأخر الركب بسبب ذلك، فأمر رسول الله أن يجعل حمل صفية على جمل عائشة، وأن يجعل حمل عائشة على جمل صفية. فجاء ﷺ إلى عائشة يستعطف خاطرها، فقال لها: يا أم عبد الله! حملك خفيف وجملك سريع المشي. وحمل صفية ثقيل وجملها بطيء فأبطأ ذلك بالركب، فنقلنا حملك على جملها، وحملها على جملك ليسير الركب. فقالت: إنك تزعم أنك رسول الله! فقال لها: أفي شك أني رسول الله؟ أنت يا أم عبد الله! قالت: فما لك لا تعدل؟ وكان أبو بكر معهما، فأسكتها، فلامه رسول الله على ما فعل. فقال: أما سمعت يا رسول الله ما قالت؟ فقال: بلى، دعها، فإن المرأة الغيراء لا تعرف أعلى الوادي من أسفله.

تأديب الرسول للصحابة

انظروا لهذا المحرم ما يصنع

لما وصل الركب العرج[1] فقد البعير الذي كان يحمل زاملته ﷺ وزاملة أبي بكر «زادهما» وكان ذلك البعير لأبي بكر، يقوده غلام له، فقال له أبو بكر: أين البعير؟ قال: ضللته البارحة. فقال أبو بكر وقد اعترته حدة: بعير واحد تضله؟ فأخذ يضرب الغلام بالسوط، ورسول الله ينظر إليه، فيقول: انظروا إلى هذا المحرم ما يصنع وتبسّم. لا يزيد على ذلك.

---

(١) (العرج) قال صاحب القاموس: منزل بطريق مكة، منه عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفّان، الشاعر العرجي. وكذلك في (اللسان) وفي (معجم الأدباء).

فلما بلغ بعض الصحابة أن زاملة رسول الله فقدت، جاء بحيس ووضعه بين يديه، فقال ﷺ لأبي بكر، وهو مغتاظ: هون عليك يا أبا بكر. فإن الأمر ليس إليك ولا إلينا. وقد كان الغلام حريصاً على ألا يضل بعيره. وهذا غذاء طيب، قد جاء الله به، وهو خلف عما كان معه. فأكل رسول الله ﷺ، وأكل معه أبو بكر وآخرون، حتى شبعوا.

عند ذلك أقبل صفوان بن المعطل، وكان على ساقة[1] القوم، والبعير معه. وعليه الزاملة، حتى أناخه على باب منزل رسول الله. فقال لأبي بكر: انظر هل تفقد شيئاً من متاعك؟ فقال: ما فقدت شيئاً إلا قعباً كنا نشرب فيه. فقال الغلام: هذا قعب[2] معي.

ولما بلغ سعد بن عبادة، وابنه قيس: أن زاملة[3] رسول الله ضلت، جاءا بزاملة، وقالا: يا رسول الله! بلغنا أن زاملتك ضلت الغداة، وهذه زاملة مكانها. فقال رسول الله: قد جاء الله بزاملتنا، فارجعا بزاملتكما، بارك الله لكما.

ثم نزل رسول الله بذي طوى، فبات بها تلك الليلة، وصلى بها الصبح بعد أن اغتسل، ثم سار فنزل بالمسلمين بظاهر مكة، ودخلها نهاراً وقت الضحى، من ثنية كداء، وهي التي ينزل بها إلى المعلاة «مقبرة مكة» وهي المعروفة اليوم بالحجون، ودخل منها يوم فتح مكة، ودخل المسجد من باب عبد مناف، وهو باب بني شيبه، المعروف الآن بباب السلام. وكان ﷺ إذا أبصر البيت قال: اللهم زد هذا البيت تشريفاً وتعظيماً ومهابة وبراً، وزد من شرفه، وكرمه، ممن حجه واعتمره، تشريفاً وتكريماً، وتعظيماً وبراً.

---

(١) (ساقة) الجيش: مؤخرته. وفي صفة مشيه عليه الصلاة والسلام: كان يسوق أصحابه، أي: يمشي خلفهم تواضعاً، ولا يدع أحد يمشي خلفه. ومنه ساقة الحاج. المحقق.

(٢) (القعب): القدح الضخم الذي يروي.

(٣) (الزاملة): ما يحمل عليها من الإبل، الحقيبة.

وعند دخول المسجد، طاف بالبيت سبعاً، ماشياً، بدأ بالحجر الأسود، فاستلمه، وفاضت عيناه بالبكاء، ثم رمل[1] ثلاثاً، ومشى أربعاً. فلما فرغ قبل الحجر، ووضع يديه عليه، ومسح بهما وجهه. ولما استلم الحجر، قال: بسم الله، والله أكبر. وقال وهو بين الركن اليماني والحجر الأسود: ربنا آتنا في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة، وقنا عذاب النار. وقال لعمر بن الخطاب: إنك رجل قوي، لا تزاحم على الحجر، تؤذي الضعيف، إن وجدت خلوة فاستلمه، وهلل وكبر.

وبعد الطواف صلى ركعتين، عند مقام إبراهيم، وجعل المقام بينه وبين الكعبة، قرأ فيهما مع أم الكتاب: ﴿قل يا أيها الكافرون﴾ و﴿قل هو الله أحد﴾. ودخل زمزم فنزع له دلو، فشرب منه، ثم مج، ثم قال: لولا أن الناس يتخذونه نسكاً، لانتزعت منها دلواً، ونزع له العباس. ثم رجع إلى الحجر الأسود فاستلمه. ثم خرج إلى الصفا، وقرأ: ﴿ ۞إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ وقال: ابدؤوا بما بدأ الله به، وسعى بين الصفا والمروة سبعاً، راكباً على بعيره.

وقال ابن عباس: إن المشي والسعي سنة، وإن رسول الله مشى في السعي، فلما كثر عليه الناس، يقولون: هذا محمد، هذا محمد. حتى خرج العواتق من البيوت. وكان رسول الله لا يضرب الناس بين يديه، فلما كثروا عليه، ركب الناقة وكان يخب في السعي ثلاثاً، ويمشي أربعاً، ويرقى الصفا، ويستقبل الكعبة، ويوحد الله ويكبّره، ويقول: لا إله إلا الله. والله أكبر. لا إله إلا الله وحده، أنجز وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده. ثم يفعل على المروة مثل ذلك.

وأول شيء بدأ به في مناسك الحج، لما قدم مكة: توضأ ثلاثاً، ثم طاف بالبيت، ثم سعى بين الصفا والمروة، كما تقدم. وذكر المفسرون في سبب السعي: أن المهاجرين في حال جاهليتهم، كانوا يهلون بصنمين على شط

---

(١) (رمل): هرول.

البحر «من ناحية جدة» أساف ونائلة، ثم يجيئون فيطوفون الصفا والمروة. يرون ذلك من شعائر الجاهلية. فنزلت في ذلك الآية[1]: ﴿ ۞إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾.

وقال المؤرخون: إن العرب في الجاهلية كانوا يهلون لمناة، ومن أحرم بمناة لا يطوف بين الصفا والمروة. وأنهم سألوا رسول الله عن ذلك بعد الإسلام، فنزلت الآية: ﴿ ۞إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ ثم أمر صلوات الله عليه، من لا هدي له بالإحلال، إن لم يكن أحرم بالعمرة. فإن لم يكن سمع أمره، يحرم بالعمرة. فأحرم بالحج قارناً أو مفرداً، ولم يكن من أصحابه من ساق معه الهدي في حجة الوداع، إلا أبو بكر، وطلحة بن عبد الله، والزبير، وعلي كرم الله وجهه، ساق الهدي معه من اليمن.

والأمر بالإحلال، كان بعد الحلق والتقصير؛ لأنه أتي بالعمرة، فحل له كل ما حرم على المحرم، من الوطء، والطيب، والمخيط، وأن يبقى كذلك إلى يوم التروية، سمي بذلك لأن العرب كانوا يتروون فيه الماء، ويحملونه معهم في ذهابهم من مكة إلى عرفات، لعدم وجود الماء بها في ذلك الزمن. وأمر ﷺ من معه الهدي أن يبقى على إحرامه بالحج، قارناً أو مفرداً. حتى قال بعضهم، وأسند القول لرسول الله: لو استقبلت من أمري ما استدبرت، ما سقت الهدي، وجعلتها عمرة. قال ذلك رداً، لما بلغه عن جمع من الصحابة، قالوا: كنا ننطلق إلى منى، وفرج أحدنا يقطر منياً.

وعن عائشة قالت: دخل رسول الله في حجة الوداع، وهو غضبان. فقلت: من أغضبك يا رسول الله؟ فقال لها: شعرت بأني أمرت الناس بأمر، فإذا هم يترددون. لأنه يرى التمتع أفضل، والقران أشق.

وكان الهدي الذي جاء به رسول الله ﷺ من المدينة، وقدم به عليّ من اليمن، ثلاث وستون لرسول الله، وسبعة وثلاثون لعلي.

وسأل سراقة بن مالك رسول الله، فقال: متعتنا هذه لعامنا هذا أم

---

(١) سورة (البقرة) الآية: (١٥٨).

للأبد، فشبك ﷺ أصابعه، فقال: بل لأبد الأبد، دخلت العمرة في الحجة هكذا إلى يوم القيامة. وكان القصد من ذلك، مخالفة ما كان عليه العرب في الجاهلية، من تحريم العمرة في أشهر الحج. ويقولون: فعل ذلك من أفجر الفجور.

ونهض رسول الله يوم التروية، ونهض معه الصحابة، وهو اليوم الثامن من ذي الحجة، إلى منى، وأحرم بالحج كل من كان أحل. فصلى رسول الله الظهر بمنى، والعصر والمغرب والعشاء. وبات بها تلك الليلة، وكانت ليلة الجمعة. وصلى بهم الصبح. ثم نهض بعد طلوع الشمس إلى عرفة، وأمر أن تضرب له قبة من شعر بنمرة، فأتى ﷺ عرفة ونزل في تلك القبة، حتى إذا زالت الشمس أمر بناقته القصوى، فرحلته، ثم أتى بطن الوادي، فخطب على راحلته خطبة، ذكر فيها أصول الشرع العام:

من تحريم الدماء والأموال والأعراض، ووضع ربا الجاهلية، وأول ربا وضعه ربا عمه العباس، ووضع الدماء في الجاهلية، وأول دم وضعه دم ابن عمه ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب. قتلته هذيل. فقال: هو أول دم أبدا به من دماء الجاهلية، موضوع، فلا يطالب به في الإسلام. وأوصى بالنساء خيراً، وقضى لهن بالرزق والكسوة بالمعروف على أزواجهن، وأمر بالاعتصام بكتاب الله. وأخبر أنه لا يضل من اعتصم به. وأشهد الله على الناس، أنه قد بلغهم ما يلزمهم، فاعترف الناس بذلك. وأمر أن يبلغ ذلك الشاهد الغائب. وهذه خطبته المشهورة:

أيها الناس! إن دماءكم وأموالكم، حرام عليكم، كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا، في بلدكم هذا. ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع، وربا الجاهلية. وأول ربا أضع ربا العباس بن عبد المطلب. فاتقوا الله في النساء، فإنكم أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، ولهنّ عليكم وزقهن وكسوتهن بالمعروف.

أيها الناس! إن الله قد أدى إلى كل ذي حق حقه، وأنه لا يجوز وصية لوارث. والولد للفراش، وللعاهر الحجر. ومن ادعى لغير الله، أو مولى غير

رسول الله، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين. لا يقبل الله له صرفاً ولا عدلاً.

وإنكم لتسألون عني فما أنتم قائلون؟ قالوا: نشهد، أنك قد بلغت، وأديت، ونصحت. فجعل يرفع سبابته إلى السماء، .....[1] إلى الناس ويقول: اللهم فاشهد. ثلاث مرات.

وأمر منادياً أن ينادي بكل ما قاله من ذلك، وهو ربيعة بن أمية بن خلف[2]، أخو صفوان، وكان صبياً. قال له: قل يا ربيعة! يا أيها الناس إن رسول الله يقول كذا، إلى آخر ما تقدم. فيصرخ به وهو واقف تحت صدر ناقته ﷺ.

وبعثت إليه أم الفضل زوجة العباس لبناً في قدح، فشربه أمام الناس، فعلموا أنه لم يكن صائماً في ذلك اليوم، يوم عرفة.

فلما أتمّ[3] خطبته أمر بلالاً، فأذن، ثم أقام فصلّى الظهر، ثم أقام

---

(١) اللفظة غير واضحة، ولعلها (وينكتها) إلى الناس. والنكت: أن تضرب في الأرض بطرف قضيب. أي: يحرّك سبابته في اتجاه الناس، بعد رفعها إلى السماء. المحقق.

(٢) يقول المؤرخون: إنه ارتد بعد ذلك في خلافة عمر بن الخطاب. وسبب ذلك أن عمر خرج ليلة يتفقد الحرس بالمدينة. وكان معه عبد الرحمن بن عوف. فرأوا نوراً في بيت، فانطلقوا يؤمونه، فإذا باب مجاف على قوم، لهم فيه أصوات مرتفعة، ولغط. فقال عمر لعبد الرحمن: أتدري بيت من هذا؟ قال: لا. قال: هذا بيت ربيعة بن أمية، وهم الآن شرب، فما ترى؟ قال: أرى أنا أتينا ما نهى الله عنه. ﴿ولا تجسسوا﴾ فانصرف عمر. ثم..... ربيعة إلى خيبر. فهرب منه إلى الشام، ثمّ لحق بقيصر ومات عنده. المؤلف.

ومو ضع النقاط لفظة غير واضحة. ولعلها (تحرّي) أي قصد. ولكنه لا يحتاج إلى حرف جرّ. ومنه قوله تعالى: ﴿أولئك تحروا رشداً﴾. المحقق.

(باب مجاف) مردود. وفي الحديث: أجيفوا أبوابكم. (شرب) جمع شارب.

(٣) اختصر الشيخ، رحمه الله، خطبة الرسول ﷺ في حجة الوداع. ولعلّه فعل ذلك، لشهرتها وتداولها بين المسلمين. ولكن لأهميتها الدينيّة والتاريخية، رأيت إثباتها كاملة، بنصّها في أغلب كتب السيرة النبويّة. ومن بينها (سيرة ابن هشام) وتاريخ =

= (الطبري) قال عليه الصلاة والسلام، بعد أن حمد الله، وأثنى عليه:
أيها الناس، اسمعوا قولي، فإنّي لا أدري لعلّي لا ألقاكم بعد عامي هذا، بهذا الموقف أبداً. أيها الناس! إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام، إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا، وحرمة شهركم هذا، وستلقون ربّكم، فيسألكم عن أعمالكم. وقد بلّغت، فمن كانت عنده أمانة فليؤدّها إلى من ائتمنه عليها. وإنّ كلّ ربا موضوع، ولكم رؤوس أموالكم، لا تظلمون ولا تظلمون. قضى الله أنه لا ربا. وإنّ ربا العباس بن عبد المطلب موضوع كلّه، وأنّ كلّ دم كان في الجاهلية موضوع، وإنّ أوّل دم أضع دم ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ـ وكان مسترضعاً في بني ليث، فقتلته بنو هذيل ـ فهو أوّل ما أبدأ به من دماء الجاهليّة.

أيّها النّاس! إن الشيطان قد يئس من أن يعبد بأرضكم هذه أبداً، ولكنّه رضي أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم، فاحذروه على دينكم.

أيها الناس! ﴿إنّما النّسيء، زيادة في الكفر يضل به الّذين كفروا يحلّونه عاماً ويحرّمونه عاماً ليواطئوا عدّة ما حرم الله فيحلّوا ما حرّم الله﴾، ويحرّموا ما أحلّ الله، وإن الزّمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، ﴿إن عدّة الشّهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم﴾ ثلاثة متوالية، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان.

أمّا بعد أيها الناس! فإن لكم على نسائكم حقاً ولهنّ عليكم حقّاً، لكم عليهن ألا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه، وعليهنّ ألا يأتين بفاحشة مبيّنة، فإن فعلن فإنّ الله أذن لكم أن تهجروهن في المضاجع، وتضربوهن ضرباً غير مبرّح، فإن انتهين فلهنّ رزقهن وكسوتهن بالمعروف. واستوصوا بالنساء خيراً، فإنهن عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئاً، وإنكم إنما أخذتموهنّ بأمانة الله، واستحللتم فروجهنّ بكلمة الله، فاعقلوا أيها الناس واسمعوا قولي، فإنّي قد بلّغت وتركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلّوا أبداً، كتاب الله وسنة نبيّه.

أيها الناس! اسمعوا قولي فإنّي قد بلّغت، واعقلوه. تعلمنّ أنّ كلّ مسلم أخو المسلم، وأن المسلمين إخوة، فلا يحلّ لامرىء من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس، فلا تظلموا أنفسكم. اللهمّ هل بلغت؟ قال: فذكر أنهم قالوا: اللهمّ نعم، فقال رسول الله: اللهمّ اشهد.

أيّها الناس! هل تدرون أي شهر هذا! فيقولون: الشهر الحرام، فيقول: قل

فصلّى الظهر، ثم أقام فصلى العصر، ولم يصل بينهما شيئاً، وصلاهما مجموعتين في وقت الظهر بأذان واحد، وإقامتين. ولم يجهر بصلاة ركعتي الظهر، فعدها مالك ظهراً مقصورة.

ثم ركب ناقته إلى أن أتى الموقف، فاستقبل القبلة، ولم يزل واقفاً للدعاء من الزوال إلى الغروب. وقد جاء عن بعض الروايات: أنه كان يقول في مناجاته لربّه:

لا إله إلا الله وحده، لا شريك له، له الملك، وله الحمد. وهو على كل شيء قدير. اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر، ومن وسوسة الشيطان، ومن وسوسة الصدور، ومن شتات الأمر، ومن شر كل ذي شر. اللهم إنك تسمع كلامي، وترى مكاني، وتعلم سري وعلانيتي، ولا يخفى عليك شيء من أمري. أنا البائس الفقير، المستغيث المستجير، الرجل المشفق، المعترف بذنبه، أسألك مسألة المسكين، وأبتهل إليك ابتهال المذنب الذليل، وأدعوك دعاء الخائف الضريع. من خضعت لك رقبته، وفاضت لك عبرته، وذل لك جسده، ورغم لك أنفه. اللهم لا تجعلني بدعائك رب شقياً، وكن بي رؤوفاً رحيماً، يا خير المسؤولين ويا خير المعطين.

واستمرّ في هذه المناجاة والابتهال والالتجاء إلى الله، إلى أن غربت الشمس.

وجاء ﷺ جماعة من نجد، سألوه كيف الحج؟ فأمر منادياً ينادي: الحج عرفة. من جاء ليلة جمع المزدلفة، قبل طلوع الفجر، فقد أدرك الحج. وجمع أيام منى ثلاثة. فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه، ومن تأخر فلا إثم عليه.

= لهم: إنّ الله قد حرّم عليكم دماءكم وأموالكم إلى أن تلقوا ربّكم كحرمة شهركم هذا. ثمّ قال: قل: إنّ رسول الله، يقول: أيّها الناس! فهل تدرون أي بلد هذا؟ قال: فيصرخ به، فيقولون: البلد الحرام، قال: فيقول: قل: إنّ الله حرّم عليكم دماءكم وأموالكم إلى أن تلقوا ربّكم، كحرمة بلدكم هذا. ثم قال: قل: أيها الناس! هل تدرون أي يوم هذا؟ فقال لهم ، فقالوا: يوم الحج الأكبر، فقال: قل: إنّ الله حرّم عليكم أموالكم ودماءكم إلى أن تلقوا ربّكم كحرمة يومكم هذا.

وقال: وقفت هنا، وعرفة كلها موقف، وارفعوا عن بطن عرفة. وبعد العصر، والرسول واقف بعرفات على ناقته، نزلت الآية[1]:

﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾.

فكاد عضد الناقة يندق، من ثقل الحالة التي كانت تعتري النبي، عند نزول الوحي.

ولما نزلت الآية، بكى عمر رضي الله عنه. فقال له رسول الله: ما يبكيك يا عمر؟ فقال: أبكاني أنا كنا في زيادة، أما إذا كمل، فإنه لا يكمل شيء إلا نقص. فقال: صدقت. وكانت هذه الآية نعي رسول الله ﷺ، وهي آخر آية نزلت من القرآن. ولم يعش رسول الله بعد نزولها، إلا ثلاثة أشهر، وثلاثة أيام، ثم لحق بربه.

ثم أردف رسول الله ﷺ أسامة بن زيد خلفه، ودفع إلى مزدلفة. وقد ضمر زمام راحلته القصوى، التي خطب عليها في نمرة، حتى إن رأسها ليصيب طرف رجليه بسير العنق، حتى إذا وجد فسحة، سار النص وهو فوق العنق. وكان يأمر الناس بالسكينة في السير. فلما كان في الطريق عند الشعب الأبتر، نزل فيه فبال فتوضأ وضوءاً خفيفاً. ثم ركب حتى أتى المزدلفة التي هي جمع. فقد صلى المغرب والعشاء مجموعتين في وقت العشاء. مقصورتين، بأذان واحد وإقامتين. ثم اضطجع، وأذن للنساء والضعفة «الصبيان» ليرموا ليلاً، أي: أن يذهبوا من مزدلفة إلى منى، بعد نصف الليل بساعة، ليرموا جمرة العقبة، قبل الزحمة. وعن ابن عباس: أنه جعل يوصيهم ألا يرموا جمرة العقبة حتى تطلع الشمس.

وفي البخاري، عن عائشة، قالت: فلأن أكون استأذنت رسول الله، كما استأذنت سودة، أحب إلى من مفروح به، لأرمي الجمرة قبل حطمة الناس. وقد كانت سودة، وهي امرأة ضخمة ثقيلة، استأذنت رسول الله أن تفيض من مزدلفة مع النساء، والضعفة. ومضت أم حبيبة مع جمع بنصف الليل.

---

(١) سورة (المائدة) الآية: (٣).

وعن ابن عباس قال: أرسلني رسول الله ﷺ مع ضعفة أهله، فصلينا الصبح بمنى، ورمينا الجمرة. فلما كان وقت الفجر قام ﷺ وصلى بالناس الصبح بالمزدلفة، مغلساً، ثم أتى المشعر الحرام، فوقف به وهو راكب ناقته، واستقبل القبلة، ودعا الله وكبر وهلل، ووحد. ولم يزل واقفاً حتى أسفر جداً، ثم دفع من المشعر الحرام قبل أن تطلع الشمس. وكانوا في الجاهلية لا ينفرون حتى تطلع الشمس، وأردف خلفه الفضل بن العباس. وجاءته امرأة تسأله؟ فقالت: يا رسول الله! إن فريضة الله على عباده الحج، أدركت أبي شيخاً كبيراً، لا يستطيع أن يثبت على الراحلة، أفأحج عنه؟ قال: نعم. فجعل الفضل ينظر إليها، وتنظر إليه، فجعل رسول الله يصرف وجه الفضل إلى الشق الآخر. فقال له العباس: لويت عنق ابن عمك! قال: رأيت شاباً وشابة، فلم آمن عليهما الشيطان.

فلما وصل ﷺ إلى محبر، حرك ناقته قليلاً، وسلك الطريق التي تسلك على جمرة العقبة، فرمى بها من أسفلها، سبع حصيات. التقطها له عبد الله بن عباس من موقفه الذي رمى فيه، مثل حصى الخذف[1] ثم سقط منه عند جمرة العقبة فأمر ابن عباس بالتقاطه، وأمر بمثلها ونهى عن أكبر منها. وقطع التلبية عند الرمي. وصار يكبر عند رمي كل حصاة وهو راكب ناقته. وبلال وأسامة، الأول آخذ بخطامها، والآخر يظله بثوبه.

وخطب ﷺ بمنى وهو على بعيره، خطبة قرر فيها: تحريم الزنى، والأموال، والأعراض، وذكر حرمة يوم النحر، وحرمة مكة على جميع البلاد. فقال:

يا أيها الناس! أي يوم هذا؟ قالوا: يوم حرام. قال: فأي بلد هذا؟ قالوا: بلد حرام. قال: فأي شهر هذا؟ قالوا: شهر حرام. قال: فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم، عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا، في بلدكم هذا، في شهركم هذا: أعادها مراراً. ثم رفع رأسه وقال: اللهم هل بلغت؟

---

(١) (الخذف): حصاة من حجم النواة، يرمى بها بين السبابتين.

اللهم هل بلغت؟ فليبلغ الشاهد منكم الغائب. ولا ترجعوا بعدي كفاراً، يضرب بعضكم رقاب بعض.

وأمرهم ﷺ بأخذ مناسكهم عنه، لعله لا يحج بعد عامه هذا.

وجاء: أنه خطب في اليوم الأول واليوم الثاني من أيام التشريق، وهو أوسطها. ويقال له: يوم النفر الأول، لجواز النفر فيه. وكما يقال لليوم الثالث من أيام التشريق يوم النفر الآخر. ثم انصرف ﷺ إلى المنحر بمنى فنحر ثلاثاً وستين بدنة. وهي التي قدم بها من المدينة، وذلك بيده الشريفة. لكل سنة بدنة. ثم أخذ من كل بدنة بضعة، فجعل ذلك في قدر، وطبخ فأكل من ذلك اللحم، وشرب من مرقه. ثم أمر علياً فنحر ما بقي، وهو تمام المئة. وقسم جلودها ولحومها وجلالها بين الناس. وأخبر أن منى كلها منحر، وأن فجاج مكة كلها منحر، ثم أمر معمر بن عبد الملك أن يحلق رأسه، فحلقه، فبدأ بشقه الأيمن، ثم ثنى بشقه الأيسر. وقسم شعره، فأعطى نصفه لأبي طلحة الأنصاري، وأعطى النصف الثاني من شعر الشق الأيمن، فرقه الشعرة والشعرة بين الناس.

ثم نهض راكباً في يومه إلى مكة، فطاف طواف الإفاضة قبل الظهر، وشرب من نبيذ السقاية، فعن ابن عباس: مر النبي على راحلته، وخلفه أسامة. فاستقى، فأتيناه بإناء من نبيذ من سقاية العباس، يضعون فيها التمر، والزبيب. فشرب منه وسقى فضله لأسامة وقال: أحسنتم وأجملتم، كذا فاصنعوا. ثم شرب من ماء زمزم، بالدلو. قيل: وهو واقف، وقيل: وهو على بعيره. والذي نزع له الدلو، عمه العباس. ثم رجع ﷺ إلى منى فصلى بها الظهر. وعن عمرو بن العاص: وقف رسول الله في حجة الوداع بمنى على راحلته للناس، يسألونه: لماذا أجل؟ فسئل عما تقدم بعضه على بعض؟ من الرمي والحلق والنحر والطواف؟ فقال: لا حرج. وجاء آخر، فقال : يا رسول الله! لم أشعر أن التحلل قبل النحر، فحلقت قبل أن أنحر. فقال: اذبح ولا حرج. ثم جاء رجل آخر فقال: يا رسول الله! لم أشعر أن الرمي قبل النحر، فنحرت قبل أن أرمي. فقال: ارم ولا حرج. وجاء آخر

فقال: أفضت إلى البيت قبل أن أرمي؟ فقال: ارم ولا حرج. قال: فما سئل عن شيء قدم ولا أخر، إلا قال: افعل ولا حرج. وقال أيضاً، في تقديم السعي بين الصفا والمروة، قبل الطواف بالبيت: فمن شاء قدم السعي عقب طواف القدوم، ومن شاء أخر عن طواف الإفاضة.

وأقام ﷺ بمنى ثلاثة أيام: يرمي الجمار، ماشياً في ذهابه وإيابه، وأمر منادياً أن ينادي في الناس بمنى: أنها أيام أكل وشرب وباءة[1]. ورمى لكل جمرة من الجمرات الثلاث بعد الزوال، قبل صلاة الظهر، سبع حصيات. فبدأ بالتي تلي مسجد الخيف، ويقف عندها للدعاء. ثم التي قبلها وهي الوسطى، ثم يقف للدعاء، ثم جمرة العقبة، ولم يقف عندها للدعاء.

وثبت أن رسول الله ﷺ ألقى في حجة الوداع خمس خطب، الأولى يوم السابع من ذي الحجة بمكة. والثانية يوم عرفة. والثالثة يوم النحر. والرابعة يوم القر، بمنى[2]. والخامسة يوم النفر الأول[3] بمنى أيضاً. وفي هذه الخطبة أوصى بذوي الأرحام.

وفي اليوم الثالث نهض من منى، ونفر معه المسلمون بعد الزوال، وبعد الرمي. واستأذن به عمه العباس في عدم المبيت بمنى، في الليالي الثلاث، من أجل السقاية. فرخص له في ذلك. وضربت له ﷺ قبة بالمحصب، وهو الأبطح. ضربها له أبو رافع، وكان على ثقله، ولم يأمره رسول الله بذلك، فجاء ونزل فيها. وكان ﷺ قال لأسامة: غداً ننزل بالمحصب، وهو المحل الذي تحالف فيه قريش وكنانة على منابذة بني هاشم وبني المطلب حتى

---

(١) (الباءة) و(الباء): النكاح والجماع.

(٢) اسم لليوم الأول من أيام منى، وهو يوم العيد. سمي بذلك لأن الحجاج يقرون فيه في منى.

(٣) ويسمى يوم الأكارع، لأكلهم الأكارع في ذلك اليوم. وهو أيضاً (يوم الروس) لأكلهم الروس في ذلك اليوم. المؤلف.

وفي (القاموس) «راس روساً: أكل كثيراً وجوّد» فهو يوم الأكل الكثير الطيّب. المحقق.

يسلموا إليهم النبي ليقتلوه. وكان ذلك سبباً لكتابة الصحيفة.

ولما نزل ﷺ بالمحصب، صلى به الظهر والعصر والمغرب والعشاء. ورقد رقدة. ثم إن عائشة قالت له: يا رسول الله! أرجع بحجة ليس معها عمرة؟ فدعا عبد الرحمن بن أبي بكر، فقال: اخرج بأختك إلى الحرم، ثم افرغا من طوافكما حتى تأتياني هاهنا بالمحصب. قالت: فاعتمرنا من التنعيم مكان عمرتي التي فاتتني، وفرغنا من الطواف في جوف الليل، فأتيناه وهو بالمحصب. فقال: فرغتما من طوافكما؟ قلنا: نعم. فأذن في الناس بالرحيل. وأمر الناس ألا ينصرفوا إلى بلادهم حتى يكون آخر عهدهم الطواف بالبيت، وهو طواف الوداع.

ودخل ﷺ مكة تلك الليلة، وطاف طواف الوداع، سحراً قبل صلاة الصبح، ثم خرج من الثنية السفلى متوجهاً إلى المدينة. وكان خروجه من المسجد من باب[١] ويقال له: باب الحناطين. فكانت مدة دخوله إلى مكة إلى خروجه منها عشرة أيام.

من كنت مولاه فعلي مولاه

لما قلد رسول الله ولاية همذان من اليمن لعلي بن أبي طالب، وكان صلب الأمر، تألم منه جماعة من الصحابة، منهم: بريدة. وحين قدم مع علي على رسول الله، وهو في الحج وجعل يشكوه لرسول الله، شكاية وجيعة، تغير لها وجه رسول الله. وقال: يا بريدة! لا تقع من علي؛ فإن علياً مني، وأنا منه. ألسنا أولى من المؤمنين بأنفسهم؟ قال: نعم، يا رسول الله! فقال رسول الله ﷺ: من كنت مولاه فعلي مولاه. قال ذلك خاصة لبريدة، لإسكاته عن لمز علي. ثم سكت عن الكلام في هذا الموضوع، إلى أن وصل في طريقه إلى المدينة إلى محل يعرف بـ «غدير خم»[٢] قرب رابغ، جمع الصحابة وخطبهم،

---

(١) غير واضح في الأصل.

(٢) (غدير خم): قال عنه صاحب القاموس: «موضع على ثلاثة أميال بالجحفة بين الحرمين. أو اسم غيضة هناك، بها غدير ماء سمّ، لم يولد بها أحد، فعاش إلى أن =

في بيان فضل علي، وبراءة عرضه، مما تكلم فيه بعض من كان معه في اليمن. ومنهم بريدة، بسبب ما كان منه في حقهم، ورأوه منه بخلاً وجوراً. فقال ﷺ:

«أيها الناس! إنما أنا بشر مثلكم، يوشك أن يأتيني رسول ربيّ فأجيب. وإني لأظن، أن يوشك، أن أدعى فأجيب، وإني مسؤول وإنكم مسؤولون، فما أنتم قائلون؟ قالوا: نشهد أنك قد بلغت، وجهدت، ونصحت. فجزاك الله خيراً. فقال: أليس تشهدون أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله؟ وأن جنته حق وناره حق؟ وأن الموت حق؟ وأن البعث حق بعد الموت؟ وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور؟ قالوا: بلى، نشهد بذلك. فقال: اللهم اشهد.

ثم حضّ على التمسك بكتاب الله، وأوصى بأهل بيته. فقال: إني تارك فيكم الثقلين: كتاب الله، وعترتي، أهل بيتي. ولن يتفرقا حتى تردوا عليّ الحوض. وقال في حق علي، بعد أن قال: ألست أولى بكم من أنفسكم؟ وكررها ثلاثاً. وهم يجيبونه بالتصديق، والاعتراف. ورفع يد علي، وقال: من كنت مولاه، فعلي مولاه.

وأثبت الذهبي زيادات عما تقدم، صححها من طرق، وهي:

اللهم! وال من والاه، وعاد من عاداه، وأحب من أحبه، وأبغض من أبغضه، وانصر من نصره، وأعن من أعانه، واخذل من خذله، وأدر الحق معه حيث دار. وقدح في صحة هذه الزيادة: أبو داود، وأبو حاتم الرازي.

ولما شاع قول رسول الله في علي بن أبي طالب، وتداولته الألسن، بلغ الحارث بن النعمان الفهري، فقدم المدينة، وأناخ راحلته عند باب المسجد، فدخل على رسول الله، وأصحابه من حوله فجاء حتى جثا بين يديه. ثم، قال: يا محمد! إنك أمرتنا أن نشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله. فقبلنا ذلك. وإنك أمرتنا أن نصلي في اليوم والليلة خمس صلوات، ونصوم

= يحتلم، إلا أن ينتقل منها» المحقق.

شهر رمضان، ونزكي أموالنا، ونحج البيت. فقبلنا ذلك منك.

ثم لم ترض بهذا، حتى رفعت بضبعي ابن عمك، ففضلته، وقلت: من كنت مولاه، فعلي مولاه، فهذا شيء من الله، أو منك؟ فاحمرت عيناه ﷺ من الغيظ وقال: والله الذي لا إله إلا هو! إنه من الله، وليس مني. قالها ثلاثاً.

فقام الحارث، وهو يقول: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك، فأرسل علينا حجارة من السماء، أو ائتنا بعذاب أليم. ثم خرج.

ثم قام ﷺ من خم، ولما وصل إلى ذي الحليفة، بات بها لأنه كان ﷺ يكره أن يدخل المدينة ليلاً. ولما أصبح ورأى المدينة، كبر ثلاث مرات. وقال: لا إله إلا الله وحده، لا شريك له له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، آيبون تائبون، عابدون ساجدون، لربنا حامدون. صدق الله وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده. ثم دخل المدينة نهاراً، من طريق المعرس[١].

مرض رسول الله

حكى أبو مويهبة مولى رسول الله ﷺ، قال: قال لي رسول الله، يوم أصبح مريضاً: إني قد أمرت أن أستغفر لأهل البقيع، فانطلق معي. قال: فانطلقت معه. فلما وقف في المقبرة قال: السلام عليكم يا أهل المقابر! ليهن لكم ما أصبحتم فيه، مما أصبح الناس فيه. لو تعلمون ما نجاكم الله منه؟! أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم، يتبع آخرها أولها، الأخيرة شر من الأولى.

ثم أقبل ﷺ بعد ذلك على أبي مويهبة، وقال: هل علمت أني أوتيت مفاتح خزائن الدينا، والخلد فيها، ثم الجنة، وخيرت بين ذلك ولقاء ربي. فاخترت لقاء ربي؟ فقال أبو مويهبة: بأبي أنت وأمي! فخذ مفاتح خزائن

---

(١) قال صاحب القاموس: أعرس القوم، وعرّسوا: نزلوا في آخر الليل للاستراحة، وليلة التعريس: الليلة التي نام فيها الرسول. والموضع: معرس، ومعرّس. وربما جاءت التسمية: طريق المعرس، من هنا؛ لمبيت الرسول ﷺ فيه قبل دخول المدينة. أو هو المبيت العام للراغبين في دخول المدينة نهاراً. المحقق.

الأرض، والخلد فيها، ثم الجنة. فقال: لا، والله! يا أبا مويهبة! لقد اخترت لقاء ربي. ثم رجع ﷺ إلى بيته. فلما أصبح ابتدأ بوجعه من يومه ذلك. ابتدره الصداع، وذهب بعد ذلك إلى قتلى أحد، فصلى عليهم، فرجع معصوب الرأس.

وقالت عائشة: لما رجع من البقيع وجدني وأنا أجد صداعاً في رأسي، وأنا أقول: وارأساه؟ فقال ﷺ: بل أنا وارأساه! ثم قال لها: وما يضرّك، لو مت قبلي؟ فقمت عليك، وكفنتك، وصليت عليك، ودفنتك؟! فقالت: واثكلاه؟ والله إنك لتحب موتي. فلو كان ذلك لظللت يومك معرساً ببعض أزواجك؟ قالت: فتبسم. فقال: وارأساه! لقد هممت أن أرسل إلى أبيك وأخيك، فأقضي أمري، وأعهد عهدي، فلا يطمع في الدنيا طامع. ثم قال: يأبى الله، ويأبى المؤمنون.

وفي رواية أخرى، قالت: قال لي رسول الله في مرضه: ادع لي أبا بكر، حتى أكتب كتاباً، فإني أخاف أن يتمنى متمن، أو يقول قائل: أنا أولى، ويأبى الله والمؤمنون، إلا أبا بكر. ولما ثقل المرض برسول الله، قال لعبد الرحمن بن أبي بكر الصديق: ائتني بقرطاس، حتى أكتب لأبي بكر كتاباً، لا يختلف عليه. فلما ذهب عبد الرحمن ليقوم، قال: أبى الله، والمؤمنون، أن يختلف عليك يا أبا بكر! وروى ابن كثير: أن رسول الله، قد خطب خطبة بين فيها فضل الصديق رضي الله عنه، من بين الصحابة. وذهب بعض أصحاب السيرة إلى القول بأن هذه الخطبة كانت عرضاً، عما أراد ﷺ أن يكتبه في الكتاب. وفي رواية: أنه اجتمع عنده رجال من الصحابة، فقال ﷺ: هل أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده؟ فقال عمر: إن رسول الله قد غلبه الوجع، وعندكم القرآن فارتفعت أصواتهم، فأمرهم بالخروج من عنده. فخرجوا.

وجاء العباس إلى علي بن أبي طالب، وقال: لا أرى رسول الله يصح من مرضه هذا، فإني أعرف وجوه بني عبد المطلب عند الموت. وخرج علي بن أبي طالب من عند رسول الله، وهو في مرضه الذي مات فيه. فقال الناس: يا أبا الحسن! كيف أصبح رسول الله ﷺ؟ فقال: أصبح بحمد الله بارئاً.

فأخذ بيده عمه العباس، وقال له: أنت والله بعد ثلاث عبد العصا[(١)]، وإني لا أرى رسول الله، من وجعه هذا بعد ثلاث، إلا ميتاً، فإني رأيت في وجهه، ما كنت أعرفه في وجوه بني عبد المطلب عند الموت، فاذهب بنا إليه نسأله: فيمن هذا الأمر، فإن كان فينا علمنا ذلك، وإن كان في غيرنا كلمناه، فأوصى بنا؟ فقال علي: والله! لا أسألها رسول الله أبداً.

وقالت عائشة: كان رسول الله في مرضه يدور على نسائه. فاشتد به المرض عند ميمونة، وقيل: عند غيرها من نسائه. فدعا نساءه فاستأذنهن، أن يمرض في بيتي، فأذن له. وكان يقول وهو في بيت ميمونة: أين أنا اليوم؟ أين أنا غداً؟ يريد: يوم عائشة. فأذن له أزواجه أن يكون حيث شاء. فمشى معتمداً بين رجلين من أهل بيته: الفضل بن العباس، وعلي بن أبي طالب. عاصباً رأسه. تخط قدماه الأرض حتى دخل بيت عائشة.

مداواة الحمى بالماء البارد

ولما غمر رسول الله، واشتد به وجعه، قال: هريقوا علي من سبع قرب، حتى أخرج إلى الناس، فأعهد إليهم. قالت عائشة: فأقعدناه في مخضب «إناء من حجر» ثم صببنا عليه الماء، حتى طفق يقول: حسبكم حسبكم. ويشير إلينا بيده، أن قد فعلتن. ثم خرج رسول الله عاصباً رأسه الشريف، حتى جلس على المنبر، وأول ما تكلم به، أن صلى على أصحاب أحد، ودعا لهم. ثم قال: إن عبداً من عباد الله خيره الله بين الدنيا وبين ما عنده، فاختار ذلك العبد ما عند الله. ثم ضعف عن إتمام الخطبة. فقام أبو بكر يتممها عنه، وعرف أن نفسه يريد، فبكى أبو بكر، وقال: نحن نفديك بأنفسنا وآبائنا. فقال: على رسلك يا أبا بكر! لا تبك.

---

(١) (عبد العصا). قال صاحب القاموس: «هم عبيد العصا، أي: يضربون بها. يضرب المثل لمن أخطأ التقدير، ونال جزاءه. يقول العباس لابن أخيه علي رضي الله عنهما. أخطأت في تقديرك مرض رسول الله ﷺ، وفي تقدير من يؤول له الأمر بعد وفاته. المحقق.

أيها الناس! إنّ آمن الناس عليّ، في صحبته وماله، أبو بكر. (هذا حديث صحيح جاء عن بضعة عشر صحابياً) ولكثرة من طرقه عد من المتواتر[1] فإني لا أعلم امرأ، أفضل عندي يداً، في الصحابة من أبي بكر. انظروا هذه الأبواب اللاصقة في المسجد، الأبواب الشوارع، فسدوها، إلا باب أبي بكر، فإني وجدت عليه نوراً.

وفي رواية: سدوا عني كل خوخة في هذا المسجد، إلا خوخة أبي بكر. لا تؤذوني في صاحبي. ولولا أن الله سماه صاحباً[2] لا تخذته خليلاً. لقد قلتم: كذبت، وقال أبو بكر: صدقت. وأمسكتم الأموال وجاء لي بماله. وخذلتموني وواساني[3].

فقال عمر: يا رسول الله! دعني أفتح كوة، أنظر إليك، حيث تخرج إلى الصلاة. فقال: لا. فقال العباس: مالك يا رسول الله؟ فتحت أبواب رجال في المسجد، «يعني: أبا بكر» وصددت أبواب رجال؟ فقال: يا عباس! ما فتحت عن أمري، ولا سددت عن أمري. وفي ذلك إشارة صريحة، لاستخلافه من بعده. فتح بابه بعد أن كان أمر بسده من قبل؛ لأجل خروجه إلى المسجد، ليصلي بالمسلمين.

ثم قال ﷺ: يا معشر المهاجرين! استوصوا بالأنصار خيراً، إنهم كانوا عشيرتي التي آويت إليهم، فأحسنوا إلى محسنهم، وتجاوزوا عن مسيئهم.

أيها الناس! إن من أحس في نفسه شيئاً فليقم أدع الله له. فقام إليه رجل، فقال: يا رسول الله! إني لمنافق، وإني لكذوب، وإني لنؤوم. فقال له عمر: ويحك أيها الرجل، لقد سترك الله لو سترت على نفسك! فقال رسول

---

(١) التعليق بين قوسين من المؤلف.

(٢) يشير عليه الصلاة والسلام إلى الآية الكريمة: ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ سورة التوبة الآية: ٤٠.

(٣) يقصد عليه الصلاة والسلام سبق أبي بكر في بداية الدعوة إلى الإيمان به، وتصديقه، وتأييده بماله. رضي الله عنه. المحقق.

الله: يا بن الخطاب! فضوح الدنيا أهون من فضوح الآخرة. اللهم ارزقه صدقاً وإيماناً، وأذهب عنه النوم، إذا شاء. ثم نزل رسول الله ﷺ، وعاد إلى بيته.

إنابة أبي بكر في الصلاة بالناس

ليلة أصيب رسول الله ﷺ، أذن بلال لصلاة العشاء، فقال: ضعوا لي ماء في المخضب، فاغتسل، فأغمي عليه، ثم أفاق، فقال: أصلى الناس؟ فقيل له: ينتظرونك يا رسول الله! والناس ملمومة في المسجد ينتظرونه للصلاة. فأرسل إلى أبي بكر، بأن يصلّي بالناس. فأتاه الرسول، فقال له: إن رسول الله يأمرك أن تصلي بالناس. فقال أبو بكر لعمر: يا عمر! صل بالناس. فقال عمر: أنت أحق بذلك.

وفي رواية: أن بلالاً دخل على رسول الله ﷺ، فقال: الصلاة يا رسول الله! فقال: لا أستطيع الصلاة خارجاً، فمر عمر، فليصل بالناس. فخرج بلال، وهو يبكي. فقال له الصحابة: ما وراءك يا بلال؟ فقال: إن رسول الله لا يستطيع الصلاة خارجاً، فبكوا بكاءً شديداً. وقال لعمر: إن رسول الله يأمرك أن تصلي بالناس. فقال عمر: ما كنت لأتقدّم بين يدي أبي بكر أبداً. فادخل على نبي الله، وأخبره أن أبا بكر على الباب. فدخل عليه بلال، فأخبره بذلك، فقال: نعم ما رأى، مر أبا بكر فليصل بالناس. فقالت عائشة: إن أبا بكر رجل أسيف[1] رقيق القلب، إذا قام مقامك، لم يسمع الناس من البكاء. فقال ﷺ: مروا أبا بكر فليصل بالناس. فعاودته عائشة القول. فقال: مروا أبا بكر فليصل بالناس. فقالت لحفصة: قولي له: إن أبا بكر إذا قام مقامك، لم يسمع الناس من البكاء، فمر عمر، فليصل بالناس. ففعلت حفصة، فقال رسول الله لحفصة: إنكن لأنتن صواحب يوسف. فقالت حفصة لعائشة: ما كنت لأصيب منك خيراً. مروا أبا بكر فليصل بالناس. والمنقول عن عائشة: أنها إنما قصدت بذلك خوف أن يتشاءم الناس

---

(١) (الأسيف): السريع الحزن، الرقيق القلب.

بأبي بكر فيكرهونه، حيث قام مقامه ﷺ. فقد جاء عنها أنها قالت: ما حملني على كثرة مراجعته ﷺ إلا أنه لم يقع في قلبي، أن يحب الناس بعده رجلاً، قام مقامه أبداً. ولا كنت أرى أنه يقوم أحد مقامه إلا تشاءم الناس منه. فخرج بلال وأمر أبا بكر بالصلاة، فقام، وصلى بالناس.

ولما رأى الأنصار أن النبي ﷺ يزداد وجعاً، طافوا بالمسجد في وجل شديد، وأشفقوا من موته. فدخل عليه الفضل بن العباس، فأخبره بذلك. ثم دخل عليه علي، وأعلمه بحال الأنصار. ثم دخل عليه العباس فأخبره بالقلق المستحوذ على الناس. فخرج النبي ﷺ متوكئاً على علي والفضل والعباس أمامه، ورأسه كان معصوباً، يخط الأرض برجليه، حتى جلس على أسفل مرقاة من المنبر، وثار الناس إليه، ثم خطب فيهم، يوصيهم، فاستهل خطابه بحمد الله، والثناء عليه بما هو أهله، ثم قال:

«أيها الناس! بلغني أنكم تخافون من موت نبيكم، هل خلد نبي قط فيمن بعث إليه، فأخلد فيكم؟ ألا وإني لاحق بربي، وإنكم لاحقون بي فأوصيكم بالمهاجرين الأولين خيراً. وأوصي المهاجرين فيما بينهم بخير فإن الله يقول: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾.

وإن الأمور تجري بإذن الله. ولا يحملكم استبطاء أمر على استعجاله؛ فإن الله عز وجل لا يعجل لعجلة أحد، ومن غالب الله غلبه، ومن خادع الله خدعه.

﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ﴾[1].

وأوصيكم بالأنصار خيراً، فإنهم الذين تبوؤوا الدار والإيمان من قبلكم، أن تحسنوا إليهم، ألم يشاطروكم في الثمار؟ ألم يوسعوا لكم في الديار؟ ألم يؤثروكم على أنفسهم وبهم الخصاصة؟

ألا فمن ولي أن يحكم بين رجلين، فليقبل من محسنهم وليتجاوز عن

---

(١) سورة (محمد) الآية: (٢٢).

مسيئهم. ألا ولا تستأثروا عليهم. ألا فإني فرطكم[1] وأنتم لاحقون بي. ألا وإن موعدكم الحوض. ألا فمن أحب أن يرده علي غداً فليكف يده ولسانه إلا فيما ينبغي.

يا أيها الناس! إن الذنوب تغير النعم، فإذا أبر الناس بربهم... وإذا أفجر الناس عضوا...[2].

ثم عاد ﷺ إلى بيته، ثم لا زال أبو بكر يصلي بالناس، سبع عشرة صلاة. وصلى النبي مؤتماً به، ركعة ثانية من صلاة الصبح يوم: وفاته، ثم قضى الركعة الثانية[3] منفرداً.

فقد حكت عائشة: أن النبي وجد خفة، وأبو بكر في الصلاة، فخرج بين رجلين «لصلاة الظهر» فلما رآه ذهب ليتأخر، فأومأ إليه ألا تتأخر. وأمرهما أن يجلساه إلى جنب أبي بكر، عن يساره. وفي رواية ثانية: عن يمينه. وأنه دفع في ظهر أبي بكر، وقال: صل بالناس. ومنعه من التأخر. فجعل أبو بكر يصلي قائماً، كبقية الصحابة. ورسول الله يصلي قاعداً.

وروى الترمذي: أنه ثبت لديه أن النبي ﷺ صلى في مرضه خلف أبي بكر مقتدياً به، ثلاث مرات. وتخلف أبو بكر في مرض النبي مرة عن صلاة الصبح. فقال رسول الله ﷺ لعبد الله بن زمعة بن الأسود: مر الناس فليصلوا. فقدم عبد الله: عمر بن الخطاب، يصلي بالناس. فلما سمع رسول الله صوته، أخرج رأسه الشريف من حجرته حتى أطلعه للناس، ثم قال: أليس هذا صوت عمر؟ فقالوا: بلى يا رسول الله! فقال لا، لا. ثلاث مرات. يأبى الله ذلك والمؤمنون، إلا أبا بكر. قال ذلك ثلاثاً. فبعث ﷺ إلى أبي بكر، فجاء فصلى بالناس، وقال عمر لعبد الله بن زمعة: ويحك ماذا

---

(١) (فرط) القوم، يفرطهم فرطاً وفراطة: تقدّم إلى الورد، لإصلاح الحوض والدلاء. وفرط، فروطاً: سبق وتقدم. المحقق.

(٢) لفظتان من جنس واحد غير واضحتين. المحقق.

(٣) لعل الصواب: (الركعة الأولى).

صنعت يا بن زمعة؟ والله ما ظننت حين أمرتني، إلا أن رسول الله أمرك بهذا. فقال عبد الله بن زمعة: ما أمرني رسول الله بذلك، ولكن حيث لم أر أبا بكر، ورأيتك أحق من حضر بالصلاة، دعوتك. وفي آخر يوم من حياة رسول الله، وهو يوم الإثنين، أخرج رأسه من الستارة، والناس خلف أبي بكر في صلاة الصبح، فأراد الناس أن ينحرفوا، فأشار إليهم أن امكثوا. وتبسم رسول الله، لما رأى من هيئة المسلمين في صلاتهم، سروراً منه بذلك. ثم ألقى الستار، وفتح الباب فخرج فقام على باب عائشة. فكاد المسلمون يقتتلون في صلاتهم، فرحاً برسول الله، حين رأوه. فأشار إليهم أن اثبتوا على صلاتكم. ثم رجع فعرف أبو بكر أن الناس لم يصيبوا ذلك إلا رسول الله، فنكص عن مصلاه، فدفع رسول الله في ظهره، وقال: صل بالناس. وجلس إلى جنبه، فصلى قاعداً. فلما فرغ من الصلاة أقبل على الناس، رافعاً صوته حتى خرج من باب المسجد، وهو يقول:

«أيها الناس! سعرت النار، وأقبلت الفتن كقطع الليل المظلم. إنّي والله! ما تمسكون علي شيئاً، إني لم أحل إلا ما أحل القرآن، ولم أحرم إلا ما حرم القرآن».

ولما فرغ رسول الله من كلامه، قال له أبو بكر: يا رسول الله! قد أراك أصبحت بنعمة من الله وفضل، كما نحب، واليوم يوم بنت خارجة «زوجة أبي بكر» أفآتيها؟ قال: نعم. ثم دخل البيت وخرج أبو بكر إلى أهله بالسنح، وانقلبت كل امرأة من نسائه ﷺ إلى بيتها. وما أقبلت ساعة الضحى، حتى ختمت أنفاس الرسول الزكية، ولحق بالرفيق الأعلى، فقد عاوده الوعك، فرجع إليه من كان ذهب من نسائه، وأخذ يعالج سكرات الموت، صار يغمى عليه، ويفيق، ويشخص بصره إلى السماء، فيقول: في الرفيق الأعلى. وكان عنده قدح فيه ماء، فكلما اشتد عليه الأمر، يدخل يده في القدح، ثم يمسح وجهه بالماء ويقول: اللهم! أعنّي على سكرات الموت.

وكانت فاطمة الزهراء إلى جانبه ﷺ لما تأتيه الغمرة، تقول: واكرب أبتاه! فيقول لها: ليس على أبيك كرب بعد اليوم. ثم قال: لا إله إلا الله،

إن للموت لسكرات، اللهم! أعنّي على سكرة الموت. ودخل عبد الرحمن بن أبي بكر، ومعه سواك يستن به من عسيب النخل. فنظر إليه رسول الله، وكان على صدر عائشة، فعرفت أنه يريده، لأنه كان يحب السواك. فناولته إياه، فاشتد عليه. فقالت: أليّنه لك؟ فأشار برأسه: أن نعم. فلينته، فأعطته إياه، فاستن به، ثم أغمي عليه، حتى ظنوه قضى، فلددوه «سقوه لدوداً»[1] وجعل يشير إليهم ألا يفعلوا به، وهم يظنون أن الحامل له على ذلك، كراهية المريض للدّواء. فلما أفاق، قال: ألم أنهكم أن تلدوني؟ لا يبقى أحد في البيت إلا لدّ، وأنا أنظره، إلا العباس، فإنه لم يشهدكم. قالوا له: عمك العباس أمر بذلك، وكنا تخوفنا أن يكون ذات الجنب[2]. فقال: أنا أكرم عند الله من أن يعذبني بها.

وأعتق رسول الله يومئذ أربعين نفساً. وكانت عنده تسعة دنانير أمر عائشة أن تتصدق بها، بعد أن وضعها في كفه. وعند اشتداد الأمر به أرسلت عائشة خلف أبي بكر، تدعوه، وأرسلت حفصة خلف عمر، وفاطمة خلف علي، فلم يصل أحد منهم، إلا بعد وفاة رسول الله ﷺ. فقد توفي، وهو على صدر عائشة، حين زاغت الشمس، لاثنتي عشرة ليلة، خلت من ربيع الأول.

لا يترك بجزيرة العرب دينان

هذه آخر كلمة فاه بها رسول الله، ﷺ ثم قال: الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم. وجعل يتغرغر بها في صدره، ولا يفيض بها لسانه. وكانت مدة مرضه ثلاث عشرة ليلة.

ولما فاضت روحه الشريفة، صاحت فاطمة تقول: واأبتاه! أجاب داعياً

---

(١) (اللدود) ما يصب من الدواء في أحد شقي الفم.

(٢) (ذات الجنب) هي الدبيلة والدمّل الكبيرة التي تظهر في باطن الجنب، وتنفجر إلى داخل، وقلّما يسلم صاحبها. وفي الحديث: «ذو الجنب شهيد» و«ذات الجنب شهادة» انظر (اللسان). المحقق.

دعاه! يا أبتاه الفردوس مأواه. يا أبتاه! إلى جبريل ننعاه.

وعن عائشة قالت: من سفاهة رأيي، وحداثة سني، أني أخذت وسادة فوسدت بها رأسه الشريف من حجري، ثم قمت مع النساء أبكي وأنتدم «تضرب خدها»[(١)] وسجى ﷺ بثوب حبرة[(٢)] وبردة من برود اليمن. عند ذلك دهش الناس، فطاشت عقولهم، واختلفت أحوالهم.

فأما عمر بن الخطاب فخبل، وأما عثمان فأخرس، وأما علي فأقعد. وجاء أبو بكر، وعيناه تهملان دموعاً، فقبل النبي ﷺ، وقال: بأبي أنت وأمي، طبت حياً وميّتاً. وتكلم كلاماً مؤثراً، أسكن به نفوس المسلمين، وهدأ روعهم. وقد كان عمر انتحى ناحية من المسجد، وجعل يقول: والله! ما مات رسول الله! ولا يموت رسول الله حتى يقطع أيدي ناس من المنافقين كثير، وأرجلهم. ويتوعد من قال: أنه مات بالقتل والقطع. ونقل عنه، أنه قال: إن رجالاً من المنافقين يزعمون أن رسول الله مات، ولكن ما مات، ولكن ذهب إلى ربّه، كما ذهب موسى بن عمران، ثم رجع إلى قومه بعد أربعين ليلة، بعد أن قيل: قد مات. والله! ليرجعن رسول الله كما رجع موسى، فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم. ولا زال يتوعد المنافقين حتى أزبد شدقاه. فقام أبو بكر وصعد المنبر، وقال كلاماً بليغاً هذا نصّه:

---

(١) (أنتدم) هكذا كتبها الشيخ، رحمه الله، وشرحها بين هلالين، وهي غير صحيحة، ولا تحمل هذا المعنى، وضرب الخد هو (اللطم) ضربه بالكف مفتوحة. وحاشا أم المؤمنين أن تلطم خدّها. وقد بايع رسول الله ﷺ المؤمنات بعد فتح مكة على ألا يلطمن خدوداً، ولا يشققن جيوباً، ولا يدعين الويل، والثبور».
وإنما اللفظة الصحيحة: (ألتدم) كما وردت في (سيرة ابن هشام): المرأة ضربت صدرها في النياحة، وهذا أمر طبيعي، وتصرف بشريّ. والوفاة وفاة أفضل خلق الله عليه الصلاة والسلام. وإذا ثبتت الأولى وقد جاء في (الطبري): «وضربت وجهي» فقد أرجعتها أم المؤمنين رضي الله عنها إلى حداثة السنّ، وسفاهة الرأي. وقد فقد كبار الصحابة صوابهم ناهيك بالفاروق رضي الله عنه، في وفاة الرسول فكيف بأمّ المؤمنين عائشة، أحبّ أزواجه إليه؟! المحقق.

(٢) (الحبرة): ضرب من برود اليمن.

«أيها الناس! من كان يعبد محمداً، فإنّ محمداً قد مات. ومن كان يعبد الله، فإن الله حي باق. وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل، أفإن مات أو قتل، انقلبتم على أعقابكم، ومن ينقلب على عقبيه، فلن يضر الله شيئاً، وسيجزي الله الشاكرين»[١].

ولما سمع عمر الآية، قال: كأني لم أسمع بها في كتاب الله قبل الآن! لما نزل بنا. ثم قال: إنا لله وإنا اليه راجعون، صلوات الله وسلامه على رسول الله، وعند الله نحتسب رسول الله.

وكان أبو بكر مسترسلاً في خطابه: فقال الله لمحمد: إنك ميت وإنهم ميتون. وقال: كل شيء هالك إلا وجهه، له الحكم وإليه ترجعون. وقال: كل من عليها فان، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام. وقال: كل نفس ذائقة الموت، وإنما توفون أجوركم يوم القيامة. ولما ذاعت وفاة رسول الله ارتجت المدينة، وذهب الصحابة طرائق قدداً[٢] فيمن يخلفه ﷺ في الحكم؟ وأخيراً تدارك الخلاف عمر، وأبو عبيدة بن الجراح، وأسيد بن حضير، وغيرهم من أكابر الصحابة، وأجمعوا الرأي على بيعة أبي بكر، رضي الله عنه. ولم يتخلف عنه إلا نفر قليل من بني هاشم، والخزرج. كما سنفصله في محله. فعقدت له البيعة في سقيفة بني ساعدة، ثم في المسجد. وبعد أن استقر له الأمر، شرع الصحابة في تجهيز رسول الله ودفنه. وذلك يوم الثلاثاء. وقد اختلفوا، هل يغسلونه ﷺ في ثيابه، أو يجرد منها كما تجرد الموتى. فقال قائل: لا تغسلوه، فإنه كان طاهراً. فقال أهل البيت: صدق، إنه كان طاهرا. فقال العباس: لا ندع سنة برأي؟ فقال قائل: اغسلوه وعليه ثيابه. فقاموا إلى رسول الله ﷺ، وعليه قميص ومحول مفتوح، يصبون عليه الماء، ويدلكونه، والقميص دون أيديهم. والذين تولوا غسله هم: علي ، والعباس، والفضل، وهيثم ولدا العباس. فكان العباس وولداه يقلبونه،

---

(١) سورة (آل عمران) الآية: (١٤٤).

(٢) (قدد): مختلفة.

وعلي يغسله، وأسامة وشقرن[1] يصبان الماء. وقد لف علي على يده مخرقة، وأدخلها تحت القميص يغلس بها جسده الشريف.

وعن علي كرم الله وجهه، قال: أوصى رسول الله ألا يغسله أحد غيري. وقد نصبت عليه ﷺ كلة رفيعة، من ثياب يمانية في جوف البيت، وأدخل علي فيها.

وفي رواية ابن ماجه: أنه غسله ﷺ علي، والفضل، وأسامة بن زيد يناول الماء، والعباس واقف. وغسل ﷺ ثلاث غسلات، واحدة بالماء القراح[2] واحدة بالماء والسدر، والثالثة بالماء مع الكافور. وغسل من ماء بئر غرس، وهي بئر بقباء، وذلك بوصية منه، أوصى بها علياً. وطيبوه بالكافور في مواضع سجوده ومفاصله.

وكفن في ثلاثة أثواب سحولية «من قطن أبيض، عمل سحولية من قرى اليمن ليس فيها قميص، ولا عمامة. «أزرار ورداء ولفافة» وعن عائشة، أنهم أتوا ببرد أحمر، لفوه فيه. ولكنهم ردوه بعد دفنه.

ثم جمروه عوداً ونداً ومسكاً، واحتملوه حتى وضعوه على سريره، وسجوه، ووضعوه على شفير قبره.

ثم دخل عليه الصحابة جموعاً، جمع بعد جمع، بقدر ما يتسع البيت. وأول من دخل عليه أبو بكر وعمر، في رجال من كبار المهاجرين والأنصار. فقالوا: السلام عليك أيها النبي! ورحمة الله وبركاته. ثم صفوا صفوفاً، لا يؤمهم أحد. وكان أبو بكر وعمر في الصف الأوّل، الذي حيال رسول الله فقالا: اللهم! إنا نشهد أنه ﷺ قد بلّغ ما أنزل إليه، ونصح لأمته، وجاهد في سبيل الله، حتى أعز الله دينه، وتمت كلمته. فاجعلنا إلهنا ممن تبع القول الذي أنزل معه، واجمع بيننا وبينه، حتى تعرفه بنا، وتعرفنا به. فإنه كان

---

(١) (شقران). وليس (شقرن).
(٢) (القراح): الماء الخالص لم يمزج بشيء.

بالمؤمنين رؤوفاً رحيماً. لا نبتغي بالإيمان به بديلاً، ولا نشتري به ثمناً أبداً.
فيقول الناس من خلفهم: آمين آمين.

وقد صحح بعض الرواة: أن هذا الدعاء كان ضمن صلاة الجنازة بأربع تكبيرات. فقد جاء في المصادر الموثوقة: أن أبا بكر دخل عليه ﷺ، فكبر أربع تكبيرات، ثم دخل عمر، فكبر أربعاً، ثم دخل عثمان فكبر أربعاً، ثم طلحة بن عبد الله، والزبير بن العوام، ثم تتابع الناس أرسالاً يكبرون عليه.

وقال ابن كثير: صلى عليه الناس فرادى، من غير إمام يؤمهم، مجمع عليه. ولا يقال: لأن المسلمين لم يكن لهم حينئذ إمام، لأنهم لم يشرعوا في تجهيزه عليه الصلاة والسلام، إلا بعد تمام البيعة لأبي بكر. وقد ذهب الجمهور: أنهم صلوا عليه أفراداً. فكان يدخل عليه فوج بعد فوج يصلون فرادى، ثم يخرجون. ثم يدخل فوج آخر، فيصلون كذلك.

ونقل ابن الماجشون: أنه صلى على رسول الله، اثنان وسبعون صلاة. كحمزة. ولما سئل: من أين لك هذا؟ قال: من الصندوق الذي تركه مالك بن أنس، رحمه الله بخطه، عن نافع عن ابن عمر: صلى عليه الرجال الأحرار أولاً، ثم النساء الأحرار، ثم الصبيان، ثم العبيد، ثم الإماء.

مدفنه ﷺ ولحده

واختلف المسلمون في المكان الذي يدفن فيه؟ فمن قائل: يدفن في البقيع. ومن قائل: ينقل ويدفن عند إبراهيم الخليل. واختار أبو بكر أن يدفن في المكان الذي قبض فيه. وقال: إن الله لم يقبض روحه إلا في مكان طيب.

وفي رواية: قال: عندي في هذا خبر، سمعت رسول الله يقول: لا يدفن نبي إلا حيث قبض. وفي لفظ: لا يقبض الله روح نبي إلا في الموضع الذي يجب أن يدفن فيه.

ولما وقع الاتفاق على ما اختاره أبو بكر حول فراشه. ثم اختلفوا أيضاً: هل يجعل له لحد؟ أو يجعل له شق؟ وكان في المدينة شخصان أحدهما يصنع اللحد، والآخر يصنع الشق. والأول هو أبو طلحة زيد بن سهل، يحفر

لأهل المدينة. والثاني أبو عبيدة بن الجراح يحفر لأهل مكة. فقال عمر: ترسلون لهما، وكل من حضر منهما نزلناه. فأرسل العباس خلفهما رجلين، فقال. اللهم خر لرسولك، فسبق أبو طلحة، فصنع لرسول الله لحداً، وأطبق عليه بتسع لبنات. وقد جاء في الحديث: الحدوا ولا تشقوا، فإن اللحد لنا، والشق لغيرنا. وروي عن سعد بن أبي وقاص، عن رسول الله، أنه قال في مرض موته: الحدوا لي لحداً، وانصبوا علي اللبن نصباً، كما صنع لرسول الله من قبل رأسه. رواه البيهقي، مصححاً عن ابن عباس.

وقد وضع سريره ﷺ عند مؤخر القبر، فكان رأسه الشريف عند المحل الذي يكون فيه رجلاه، فلما أدخل القبر سل من قبل رأسه. ودخل قبره العباس، وعلي، والفضل، وهيثم، وشقران. وفرش شقران في اللحد قطيفة حمراء، وقيل: بيضاء. كان يجعلها ﷺ على رحله، إذا سافر؛ لأن الأرض كانت ندية، وقال: والله لا يلبسها أحد بعدك. فدفنت معه. وقيل: أخرجت عملاً بوصيته[1] فقد روى البيهقي عن أبي موسى: أنه أوصى ألا تتبعوني بصارخة ولا مجمرة[2] ولا تجعلوا بيني وبين الأرض شيئاً.

دفنه ﷺ

كان دفنه ﷺ ليلة الأربعاء. فعن أم سلمة: كنا مجتمعين نبكي تلك الليلة، لم ننم، فسمعنا صوت المساحي، فصحنا وصاح أهل المسجد، فارتجت المدينة صيحة واحدة. فأذن بلال بالفجر. فلما ذكر النبي ، بكى وانتحب. فزادنا حزناً. فيالها من مصيبة! ما أصابنا بعدها من مصيبة إلا هانت، إذا ذكرنا مصيبتنا به ﷺ.

قال ابن كثير: والذي نص عليه أكثر من واحد من الأئمة، سلفاً وخلفاً،

---

(١) ويؤيد هذا قول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها فيما سبق: «أنهم أتوا ببرد أحمر، لفوه فيه، ولكنهم ردوه بعد دفنه» ورجح (ابن هشام) قول (شقران) مولى رسول الله ﷺ. المحقق.

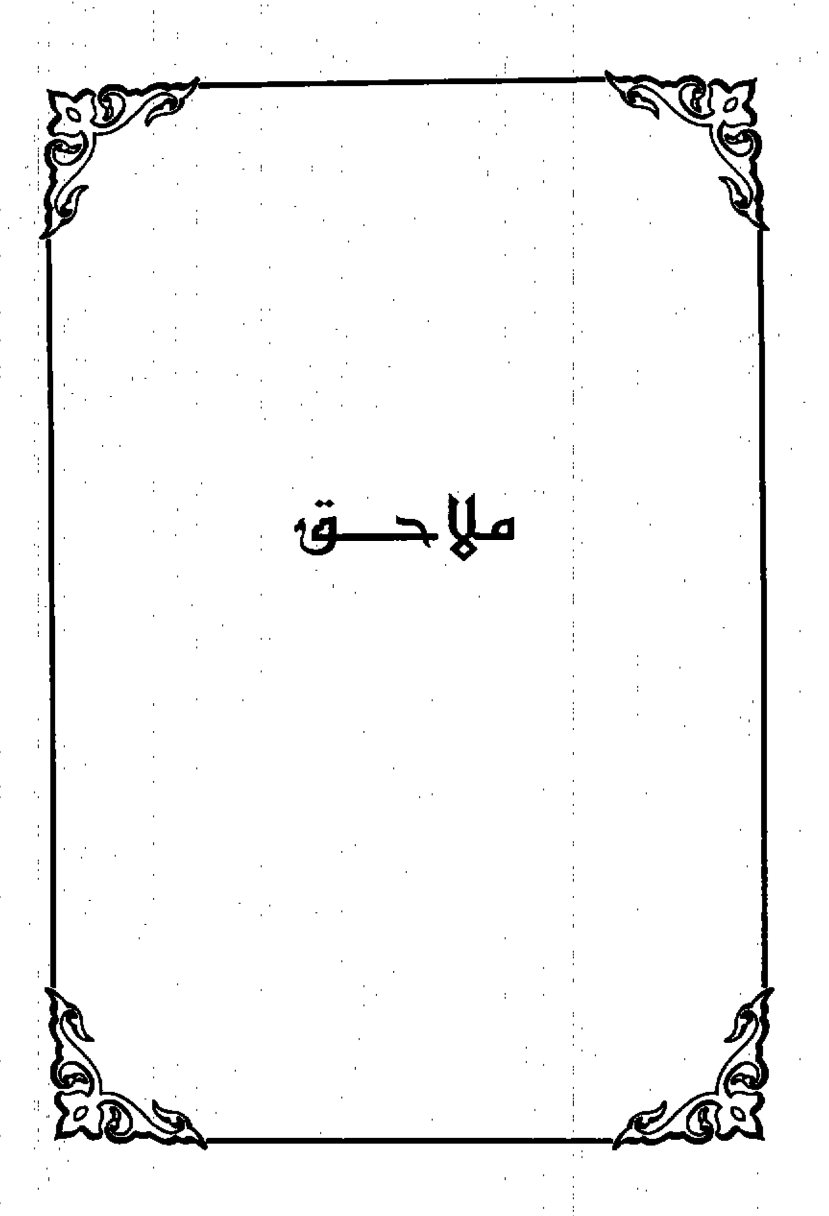
(٢) اللفظة غير واضحة، ولعلها: (ولا بمجمرة).

أنه ﷺ توفي يوم الإثنين، قبل أن ينتصف النهار. والذي حققه العلماء: أنه مكث بقية يوم الإثنين، وليلة الثلاثاء، وبعض ليلة الأربعاء. وكان السبب في تأخير دفنه: اشتغال الصحابة بأمر البيعة، حتى تمت لأبي بكر الصديق.

وعن أنس بن مالك: ما نفضنا الأيدي من دفن رسول الله ﷺ، حتى أنكرنا قلوبنا. ولما دفن قالت فاطمة رضي الله عنها: كيف طابت نفوسكم أن تحثوا على رسول الله التراب؟ وهل طابت نفوسلكم أن دفنتم رسول الله في التراب ورجعتم؟ وقالت لعلي كرم الله وجهه: يا أبا الحسن! دفنتم رسول الله؟ قال: نعم، قالت: كيف طابت قلوبكم أن تحثوا التراب عليه كان نبي الرحمة؟ قال: نعم، ولكن لا راد لأمر الله.

ورش بلال قبره الشريف بقربة، بدأ من قبل رأسه، وجعل عليه من حصباء العرصة، حمراً وبيضاً، ورفع قبره عن الأرض قدر شبر.

* * *



ملاحق

كيف شرّعت الصلاة

على الجنـــازة في الإسـلام

لم تكن الصلاة على الجنازة مشروعة في صدر الإسلام، ولو كانت معروفة لصلى النبي ﷺ على زوجه خديجة، ومن مات قبلها من المسلمين، كالسكران ابن عم (سودة) أم المؤمنين. ولم تشرع في أوّل الهجرة، فقد مات أسعد بن زرارة في السنة الأولى من الهجرة ولم يصل عليه، ومات عثمان بن مظعون في السنة الثانية، ولم يصل عليه.

وكانوا في الجاهلية يغسلون الميت، ويكفنونه، ويصلون عليه. وذلك بأن يقدم وليّ الميت بعد أن يوضع على سريره، ويذكر محاسنه كلها، ويثني عليه. ثم يقول: عليك رحمة الله. ثم يدفن.

وقد ذكر أصحاب الحديث: أنّ أول صلاة صليت على الميت في الإسلام، هي الصلاة على قبر البراء بن معرور، فإنه ﷺ لما قدم المدينة وجد البراء قد مات، فذهب هو وأصحابه، فصلّى على قبره. وقد جاء أنه كبر في صلاته أربعاً، وروى أحاديث هذه الصلاة تسعة من الصحابة.

أم أيمن حاضنـة رسول الله ﷺ

واسمها (بركة) كانت مولاة لآمنة بنت وهب، أم النبي ﷺ تزوجت في الجاهلية عبيد الحبشي بن زيد، وكان قدم مكة، وأقام بها، ثم نقل أم أيمن إلى يثرب، فولدت له أيمن، ثم مات عنها، فرجعت إلى مكة. ثم لازمت النبي ﷺ بعد النبوّة، إلى أن تزوجها مولاه زيد بن حارثة. وإنما رغب فيها زيد لما سمعه من رسول الله وهو يقول: من سّر أن يتزوج امرأة من أهل الجنّة فليتزوّج بأمّ أيمن. فجاءت منه بأسامة. فكان يقال له: الحب بن الحب.

وحكى عنها ابن الجوزي: قال: أصاب أم أيمن عطش في طريقها، لما هاجرت على قدميها إلى المدينة، وليس معها أحد، وذلك في حرّ شديد.

وعن عائشة، قالت: شرب رسول الله ﷺ يوماً، وأم أيمن عنده.

فقالت: يا رسول الله! اسقني. فقلت لها: ألرسول الله تقولين هذا؟ فقالت: ما خدمته أكثر. فقال لها رسول الله ﷺ: صدقت، فسقاها. وكانت سوداء فاحمة؛ ولهذا خرج ابنها هذا في السواد، وكان أبوه زيد أبيض.

الطعن في ابن إسحاق

ذكر ابن المدائني، وابن معين الناقدين: أن ابن إسحاق ليس بحجة. ووصفه مالك بن أنس رضي الله عنه بالكذب، قال: وما ابن إسحاق؟ إنما هو رجل من الدجاجلة، أخرجناه من المدينة.

وقال بعضهم: ابن إسحاق، من جملة من يروي عنه يحيى بن سعيد شيخ مالك. وقال بعضهم: ابن إسحاق فقيه، لكنه يدلّس. ويقولون: إنما طعن فيه مالك، لأنّه بلغه عنه، أنّه قال: هاتوا حديث مالك فأنا طبيب بعلله.

الدار التي ولد فيهـا ﷺ

ولد ﷺ في الدار التي عند الصفا قرب دار الأرقم. ولما هاجر النبي إلى المدينة وضع عقيل بن أبي طالب يده عليها[1]، ثم انتقلت إلى أولاده بعد وفاته إلى أن باعوها إلى محمد بن يوسف أخي الحجاج، عامل العراق المعروف. قال الفاكهي: باعوها له بمئة ألف دينار. ولما حجت الخيزران أم الرشيد، أخرجت تلك الدار من دار ابن يوسف، وجعلتها مسجداً، كما جعلت دار الأرقم. ولما حجت زبيدة، جدّدت بناء المسجد الذي أقامته الخيزران على دار الرسول.

أما الدار التي باعها عقيل قبل إسلامه من دور النبي في مكة فهي دار خديجة رضي الله عنها، ويقال. بها مولد فاطمة، رضي الله عنها، اشتراها معاوية ممن اشتراها من عقيل، أيام خلافته، وبنى عليها مسجداً.

---

(١) يؤيد هذا قوله ﷺ لما سأله أسامة بن زيد يوم فتح مكة: أين تنزل غداً، تنزل بدارك. فقال ﷺ: (وهل ترك لنا عقيل من دار؟!) المحقق.

وكانت قابلته التي استولدته ﷺ. . . .[1] (الشفاء) والدة عبد الرحمن بن عوف، وأم أيمن دايته.

برمك

جدّ الوزراء البرامكة، أصله من خراسان، كان على دين المجوسية، ثم أسلم وجاء إلى الشام في دولة عبد الملك بن مروان، فاتصل به، فحسن موقعه عنده، وعلا قدره. وكان كاتباً بارعاً، ومحصلاً لعلوم كثيرة.

ولما زالت دولة بني أميّة، وجاءت دولة بني العباس صار وزيراً للسفاح ثم لأخيه المنصور. وكان ابنه خالد من قواد أبي مسلم لما قدم من خراسان لإزالة خلافة بني أميّة. وما زال شأنهم في صعود إلى أيام الرشيد، فبلغوا مبلغاً لم يبلغه من سلفهم من وزراء الدّول.

الأصل في تحريم نكاح بنت الأخ من الرضاعة

روى عن علي بن أبي طالب قال: قلت: يا رسول الله! مالك لا تتوق في قريش «أي: لا تختار ولا تتزوج منهم» قال: أو عندك؟ قلت: نعم، أمامة بنت حمزة، وهي أحسن فتاة في قريش. قال: تلك ابنة أخي من الرضاعة، وإن الله حرّم من الرضاعة ما حرّم من النسب، وقد أرضعتها ثويبة، وأرضعتها امرأة سعدية، غير حليمة مرضعة الرسول، اسمها خولة، وهي غير خولة بنت المنذر، مرضعة ولده إبراهيم من مارية القبطية.

اجتناب النبي تقاليد الجاهلية من صغره

روت لنا أم أيمن حاضنته، قالت : كان لقريش صنم اسمه (بوانة) تعظمه قريش، وتذبح له القرابين، وتحلق عنده، وتعكف عليه، في كل سنة مرة، يوماً إلى الليل. فكان أبو طالب يحضره مع قومه، ويكلّم رسول الله أن يحضر ذلك العيد. فيأبى ذلك. حتى رأيت أبا طالب غضب عليه، ورأيت

---

(١) غير واضح في الأصل.

عماته غضبن عليه أشد الغضب. وجعلن يقلن: إنا نخاف عليك مما تصنع من اجتناب آلهتنا. ويقلن: ما تريد يا محمد أن تحضر لقومك عيداً، ولا تكثر لهم جمعاً. فلم يزلن به، حتى ذهب فغاب ما شاء الله، ثم رجع مرعوباً فزعاً. فقلن: ما دهاك؟! قال: إني أخشى أن يكون بي لمم. فقلن: ما كان الله ليبتليك بالشيطان، وفيك من خصال الخير ما فيك، فما الذي رأيت؟

قال: إني كلما دنوت من صنم من تلك الأصنام التي عند الصنم الكبير (بوانة) أرى رجلاً، يتمثل أبيض، طويلاً، يصيح بي: وراءك يا محمد! لا تمسّه. قالت: فما عاد إلى عيدهم، حتى بعث ﷺ.

السبب في تحريم ما ذبح على النصب
وما أهل بـه لغير الله

في البخاري عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه: أن النبي لقي زيد بن عمرو بن نفيل قبل أن ينزل عليه الوحي، وقد قدمت إلى النبي ﷺ سفرة فيها شاة، ذبحت لغير الله عز وجلّ، فأبى أن يأكل منها، وقال: إني لست آكل ما تذبحون على أنصابكم، ولا آكل إلا ما ذكر اسم الله عليه.

وروت عائشة، قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: سمعت زيد بن عمرو بن نفيل، يعيب كل ما ذبح لغير الله تعالى، فكان ﷺ يقول لقريش: الشاة خلقها الله عز وجلّ، وأنزل لها من السماء ماء، وأنبت لها من الأرض الكلأ، ثم يذبحونها على غير اسم الله، فما ذقت شيئاً ذبح على النصب، حتى أكرمني الله برسالته.

بقيع الغرقد

أول من دفن ببقيع الغرقد: كلثوم بن الهدم، الذي نزل عليه رسول الله ﷺ بقباء لما قدم المدينة. وقيل: أول من دفن به، أسعد بن زرارة. وقيل: عثمان بن مظعون. والتحقيق: أنّ أوّل من دفن به من المهاجرين: عثمان بن مظعون، وقد مات في ذي الحجة من السنة الثانية من الهجرة. وأوّل من دفن به من الأنصار، على ما أثبته ابن زيدي في الوفيات: كلثوم. ولم يذكر تاريخ

وفاته. ثم من بعده أبو أمامة أسعد بن زرارة، في شوال من السنة الأولى من الهجرة. وفي النور عن الطبري، أنه مات بعد قدومه ﷺ المدينة بأيام قليلة. وأوّل من مات من الأنصار: البراء بن معرور، مات قبل قدومه ﷺ المدينة مهاجراً، بشهر. ولما حضرته الوفاة أوصى أن يدفن، ويستقبل به الكعبة، ففعلوا به ذلك. ولما قدم رسول الله ﷺ المدينة، صلى على قبره، هو وأصحابه، وكبروا أربعاً. وهي أول صلاة صليت على القبر.

وفود تميم الداري وأصحابه

وفد تميم الداري ومن معه على رسول الله ﷺ مرّتين: الأولى بمكة، والثانية بالمدينة. ووفد معه إلى المدينة أخوه نعيم، وأربعة آخرون. وكانوا على دين النصرانية، فأسلموا وحسن إسلامهم. وقد سألوا رسول الله في الأولى، أن يقطعهم أرضاً من الشام، فال: حيث شئتم. فقال أبو هند: فنهضنا من عنده نتشاور في الأمر.

فقال تميم: نسأله في بيت المقدس وكورتها، فقال له أبو هند: هذا ملك العجم، وسيصير ملك العرب، فأخاف ألا يتمّ لنا! فقال تميم: نسأله بيت جبرون وكورتها. فاتفقنا على ذلك فعدنا إلى رسول الله ﷺ فذكرنا له ذلك، فدعا بقطعة من أدم كتب لنا عليها كتاباً نسخته:

«بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب ذكر فيه ما وهب محمد رسول الله للداريين، أعطاه الله الأرض، فوهب لهم بيت عينون، وجبرون، والمرطوم، وبيت إبراهيم إلى الأبد. شهد عباس بن عبد المطلب، وخزيمة بن قيس، وشرحبيل بن حسنة».

قال: وأعطانا الكتاب، وقال: انصرفوا حتى تسمعوا أني قد هاجرت. فانصرفوا. ولما هاجر رسول الله إلى المدينة، قدموا عليه وسألوه أن يجدّد لهم الكتاب، فكتب لهم كتاباً، هذه نسخته:

«بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أنطى[1] محمد رسول الله لتميم الداري وأصحابه أني أنطيتكم بيت عينون وجيرون وبيت إبراهيم برمّتهم. وجميع ما فيهم، نطية بت. ونهيت وسلمت ذلك لهم، ولأعقابهم من بعدهم، أبد الأبد. فمن آذاهم فيه أذاه الله. شهد أبو بكر بن أبي قحافة، وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، ومعاوية بن أبي سفيان.

إخضاع نجران

(نجران): بلاد واقعة على سبعة مراحل من مكّة، وهي من أرض اليمن، تتألف من ثلاث وسبعين قرية، وقراها تنقسم إلى قسمين: قسم يدين بالوثنية العربية، وقسم بالنصرانية. ولم يكن لرسول الله ﷺ ليدعها وشأنها بدون ضمّها لمملكته الجديدة. فشرع أولاً في دعوة الوثنيين منهم إلى الإسلام. وسيّر لهم خالد بن الوليد، وأمره أن يدعوهم إلى الدين ثلاثاً، فإن أجابوه، أقام فيهم يعلّمهم الإسلام والأحكام. وإن أبوا أخضعهم بالقوة. فخرج إليهم خالد في السنة العاشرة من الهجرة، ونزل على بني الحارث بن كعب، فأجابوه إلى الإسلام، فأقام بينهم يعلّمهم الشرائع والأحكام. وكتب بذلك إلى رسول الله. ثم انتدب منهم وفداً لملاقاة رسول الله ﷺ وبيعته عن قومهم، وخرج بهم إلى المدينة.

وفد بني الحارث بن كعب

قدم وفد الحرثيين إلى المدينة مع خالد بن الوليد، وفيهم قيس بن الحصني بن يزيد بن قينان ذي الغصة، ويزيد بن عبد المدان، وغيرهما من الرؤساء، لمبايعة رسول الله ﷺ فبايعوه. وعادوا إلى قومهم في أواخر شوال، السنة العاشرة، فأرسل إليهم عمرو بن حزم بن قتيبة، ليتولى صدقاتهم.

---

(١) (أنطى) لغة من (أعطى) وفي قراءة: ﴿إنا أعطيناك الكوثر﴾. قراءة بالنون (اللسان) وبعض أهل الشام حتى الآن يقولون: (أنطيت) عوض (أعطيت). المحقق.

وفد نصارى نجران

أما ما يتعلق بنصارى نجران، فقد أخرج البيهقي في الدلائل، من طريق سلمة بن عبد يشوع عن أبيه، عن جدّه: أن رسول الله ﷺ كتب إليهم يدعوهم إلى الإسلام، ولما رغبوا عن الإسلام، أحدق بهم من كل مكان، ولم يسعهم إلا أن يمالئوه. ويخطبوا ودّ رسول الله ﷺ، فألفوا وفداً من ستين رجلاً. وأرسلوهم إلى المدينة لبيعتهم، أربعة عشر من أشرافهم، وثلاثة من رؤسائهم، وهم:

عبد المسيح، أميرهم، والأيهم بن وائل، ومن الأشراف... [1] وشرحبيل بن وداعة الهمذاني، وعبد الله بن شرحبيل الأصبحي، وجبار المحارثي، وكرز بن علقمة.

وجاؤوا راكبين، عليهم الحبرات، وثياب غير مخططة، وأردية الحرير، مختمين بخواتم الذهب. وكانت لهم صلة بملوك الروم. وأسقفه له عندهم منزلة، فهم يكرمونه ويشرفونه، ويمولونه. وبينما كانوا يسيرون في طريقهم، إذ عثرت بغلة الأسقف، أبو حارثة، وكان يسير إلى جانبه أخوه كرز. فقال هذا: تعس محمد! فقال له الأسقف: بل تعس أمك. فقال له: ولم يا أخي؟ فقال له: إنه للنبي المنتظر. وقال: فما يمنعك من اتباعه؟ وأنت تعلم أنه هو! قال: إن هؤلاء الملوك أعطونا أموالاً كثيرة، وأكرمونا، فلو آمنا بمحمد لأمسكوا، فوقع هذا القول من قلب أخيه موقعاً عظيماً، وما زال يضمره حتى أسلم.

وكان وصولهم إلى المدينة بعد وقت العصر. ولما دخلوا المسجد، قاموا يصلّون صلاتهم. فأراد بعض الصحابة منعهم، فنهاهم رسول الله عن ذلك، وقال: دعهم يصلون، تألفاً لهم، لئلا تتقبض نفوسهم، فاستقبلوا الشرق، وأتموا صلاتهم، وبعد ذلك عرضوا هديتهم على رسول الله، وهي بسط فيها

---

(١) غير واضح في الأصل.

تصاوير ومسوح[1]، فقبل المسوح، وردّ البسط.

ثمّ جعلوا يسألونه عن الدّين، ويجادلونه فيه، إلى أن تكلموا عن المسيح، وتأليهه، كما هو مفصل في سورة (آل عمران) في نحو ثلاثين آية. فقد قالوا:

ما شأنك تذكر صاحبنا، تزعم أنه عبد الله ورسوله؟ وكانوا من غلاة النصرانية في القول بألوهية المسيح. فقال: أجل، إنه عبد الله ورسوله. وجعل رسول الله يفند أقوالهم بالدلائل الإلهية، ويجادلهم بالتي هي أحسن. فقالوا: إذا لم يكن إلهاً، فكيف خلق من غير أب؟ من أم طاهرة؟ فتلا عليهم آية: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾[2].

ثم قال: إن خلق آدم بلا أب ولا أم، أبدع في الخلق من عيسى من أم بلا أب، ولم يقل أحد بألوهيته. فأفحمهم.

ولما عرض عليه الإسلام ودعاهم إليه، قال له الأسقف: كنا مسلمين قبلك. فردّ عليه ﷺ قوله، فقال: يمنعك من الإسلام ثلاث: عبادة الصليب. وأكل لحم الخنزير، وادعاء بأن الله هو المسيح، و﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾[3].

ولما علم ﷺ أنهم يتصاممون عن قبول الحق، ويعرضون عن الهداية، أراد أن يتحداهم فيما زعموا، فدعاهم إلى الملاعنة، إن كانوا مصرّين على ما يظهرونه من عقائدهم، ولم يكن ذلك عن عصبية ونفع، كما صرّحت به الآية الشريفة: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾[4].

والمعنى: أنكم إذا رأيتم الاعتراف صراحة بالتوحيد لله تعالى، وقبول الإيمان بما ورد في الإسلام فما عليكم إلا قبول الملاعنة، نتلاعن أبناء ونساء

---

(١) (المسح): الكساء من الشعر. جمع (مسوح).

(٢) سورة (آل عمران) الآية: (٥٩).

(٣) سورة (المائدة) الآية: (١٧).

(٤) سورة (آل عمران) الآية: (١٧).

ورجالاً، لتحقيق اللعنة بالمبطل الكاذب منا، إلى الأبد. فاستكبروا هذه الدعوة، واستمهلوه فيها. فأمهلهم. فخلا بعضهم إلى بعض، وقالوا: إنه لنبيّ، وما لاعن قوم قط نبياً إلا هلكوا عن آخرهم. وإن أنتم أبيتم إلا دينكم، فواعدوه، وصالحوه ثم ارجعوا إلى بلادكم آمنين. وقيل: إنهم استشاروا في ذلك من نفى من يهود بني قريظة وقينقاع فأشاروا عليهم بالصلح، وترك الملاعنة، فقبلوا مشورتهم، ثم عادوا إلى رسول الله، وقالوا: نحن لانباهلك. وقال أميرهم: يمنعنا أن نعترف بك، ونصدّقك فيما جئتنا به: الخوف من غضب (هرقل) ومنع مدده عنا.

ونقل الإمام الرازي: أن الأسقف، أبا حارثة بن علقمة، أسرّ لأخيه كرز، بأنه يعترف بصدق محمد، في أقواله، إلا أنه لا يقرّ له بذلك، خوف ذهاب منزلته عند الروم، وانقطاع ما يمدّونه به من مال وجاه، فكشف القرآن عن هذا السرّ في آية:

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾[1].

فقد بيّنت لنا الآية أن ما زيّن للناس من حبّ الشهوات، هو الذي يصرف قلوبهم عن الحق، وصدّهم عن الاهتداء به. وذلك شرّ، لا خير فيه. وهذا من أدق أساليب القرآن الحكيم في تنبيه الأذهان إلى إدراك سرائر النفوس، وإرشادها على طريق المثل والحكاية.

ثم إن وفد نجران جنح للصلح، وقبل الخضوع لحكم رسول الله ﷺ فصالحهم على الجزية، وهي ألفا حلّة، ثمن كل حلّة: أربعون درهماً. وألفا أوقية من فضة، يؤدونها في السنة، النصف في صفر، والنصف الآخر في رجب. وعلى أن يضيفوا رسل رسول الله. وشرط عليهم ألا يأكلوا الربا، ولا يتعاملون به. وجعل لهم ذمة الله وعهده ألا يفتنوا عن دينهم،

---

(١) سورة (آل عمران) الآية: (١٤).

ولا يعشروا[1]. وكـانـوا زهـاء الأربعين ألـف. وبقـوا على ذلـك، إلى أن استخلف عمر بن الخطاب، وأجلى أهل الكتاب من الحجاز. وأجلاهم عن نجران، واشترى منهم عقارهم وأموالهم، فخرج بعضهم إلى الشام، وبعضهم إلى العراق.

تقويم
وقائع التاريخ الإسلامي

ـ السنة التي ولد فيها رسول الله ﷺ:

أجمع رواة التاريخ: أن ميلاد رسول الله ﷺ كان عام الفيل. قال بعضهم: ولد بعده بشهر، وقيل: بأربعين يوماً. وقيل: بخمسين يوماً. وقيل: بخمس وخمسين يوماً. وقيل: بشهرين وعشرة أيام. وقيل: بعشر سنين. وقيل: بخمس عشرة سنة. وقيل: بعشرين سنة.

وكانت ولادته يوم الإثنين، من شهر ربيع الأول. والمشهور لاثنتي عشرة منه، وقيل: لثماني. وعليه كما ذكر في (عيون المعارف) إجماع أهل التاريخ.

واختلف في مكان ولادته ﷺ، فقيل: بمكة، وعليه قيل بالدار التي كانت لمحمد بن يوسف الثقفي، أخي الحجاج، وقيل: بالشعب، شعب بني هاشم «وهو المحلّ الذي يزار الآن» وقيل: بالردم، وقيل: بعسفان.

ـ السنة الرابعة من مولده ﷺ:

ولد أبو بكر الصديق بمنى.

ـ السنة السادسة من مولده ﷺ:

كانت وفاة آمنة أم الرسول بالأبواء، وقيل: بشعب أبي ذئب بالحجون،

---

(١) (ولا يعشروا) لا يؤخذ منهم العشر. وفي الحرث: «ليس على المسلمين عشور، إنما العشور على اليهود والنصارى» وفي حديث آخر: «احمدوا الله، إذ رفع عنكم العشور» يعني: ما كانت الملوك تأخذه منهم. المحقق.

محل مقابر أهل مكّة الآن. وقيل: في دار رائعة بالمعلاة، وفيها ولد عثمان بن عفان.

ـ السنة السابعة من مولده ﷺ:

استقل بكفالة الرسول جدّه عبد المطلب، وفيها أصابه ﷺ رمد شديد. وفيها خرج جدّه عبد المطلب لتهنئة سيف بن ذي يزن الحميري بالملك.

ـ السنة الثامنة من مولده ﷺ:

كانت وفاة جدّة عبد المطلب، وكفالة عمه أبي طالب له من بعده. ومات كسرى أنو شروان ملك فارس.

ـ السنة التاسعة من مولده ﷺ:

سافر به عمّه أبو طالب إلى بصرى من أرض الشام، وهي مدينة هوازن.

ـ السنة العاشرة من مولده ﷺ:

وقعت حرب الفجار الأولى.

ـ السنة الثانية عشرة من مولده ﷺ:

كانت حرب الفجار الثانية، وكان سفر عمّه أبي طالب به إلى بصرى. وعليه الأكثرون.

ـ السنة الثالثة عشرة من مولده ﷺ:

ولد عمر بن الخطاب.

ـ السنة الرابعة عشرة من مولده ﷺ:

كانت حرب الفجار الثالثة.

ـ السنة السابعة عشرة من مولده ﷺ:

سافر ﷺ إلى اليمن في تجارة مع عميه: الزبير بن عبد المطلب، والعبّاس.

ـ السنة الخامسة والعشرون من مولده ﷺ:

سافر ﷺ إلى الشام مع ميسرة في تجارة لخديجة.

ـ السنة الثلاثون[1] من مولده ﷺ:

تزوج ﷺ بخديجة، وولد علي بن أبي طالب في الكعبة.

ـ السنة الرابعة والثلاثون من مولده ﷺ:

ولد معاوية بن أبي سفيان، ومعاذ بن جبل.

ـ السنة الخامسة والثلاثون من مولده ﷺ:

هدمت قريش الكعبة، وبنتها، وكلفوه بالحكومة فيمن يضع الحجر الأسود في مكانه.

ـ السنة السابعة والثلاثون من مولده ﷺ:

. . . . . يبصر الأنوار، ويسمع الأصوات.

ـ السنة الأربعون من عمره ﷺ:

كان ينزل عليه الوحي مناماً، مدّة ستّة أشهر.

ـ وفي السنة الثالثة من النبوّة، والثالثة والأربعين من عمره:

توفي ورقة بن نوفل.

ـ وفي السنة الرابعة من النبوّة:

كان إظهار الدّعوة.

ـ وفي السنة الخامسة من النبوّة:

كانت الهجرة الأولى إلى الحبشة، وفيها اشتدّ العذاب على المستضعفين، وقتلت سميّة أم عمار بن ياسر، وولدت عائشة رضي الله عنها.

ـ وفي السنة السادسة من النبوّة:

---

(١) في (تاريخ الطبري) وهو ابن خمسة وعشرين، وخديجة يومئذ ابنة أربعين سنة. وهذا سهو من الشيخ؛ لأنّ الزواج كان بعد عودته عليه الصلاة والسلام من تجارة خديجة في الشام.

أسلم حمزة، وعمر بن الخطاب. وكان إسلام حمزة قبل عمر بثلاثة أيام. وتقاسمت قريش وتعاهدت على معاداة بني هاشم وبني المطلب، في خيف بني كنانة بالأبطح.

ـ وفي السنة العاشرة من النبوّة:

مات أبو طالب، وماتت خديجة. وكان يسميه رسول الله ﷺ: عام الحزن. وفيها تزوج رسول الله ﷺ سودة بنت زمعة في مكّة. وفيها عقد على عائشة[1].

ـ وفي السنة الحادية عشرة من النبوّة:

كان ابتداء إسلام الأنصار.

ـ وفي السنة الثانية عشرة من النبوّة:

كان الإسراء، وفيها وقعت بيعة العقبة الأولى.

ـ وفي السنة الثالثة عشرة من النبوّة:

كانت بيعة العقبة الثانية الكبرى. «يسمّيها بعضهم العقبة الثالثة» ويجعلون ابتداء اسلام الأنصار في العقبة الأولى. وفي هذه السنة أراد أبو بكر الهجرة إلى الحبشة. فلما بلغ برك الغماد، ردّه ربيعة بن الدغنة، سيد الغارة.

ـ وفي السنة الرابعة عشرة من النبوّة:

هاجر رسول الله إلى المدينة، وكانت هجرته في صفر، وقيل: في غرة ربيع الأول. وفيها كان بناء المسجد النبوي، ومساكن أزواج الرسول، ومسجد قباء، والمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، وبداية خدمة أنس بن مالك لرسول الله ﷺ.

---

(١) تختلف الروايات في سنّ أم المؤمنين عائشة، يوم عقد عليها الرسول ﷺ بمكة ويوم تزوج بها بالمدينة، بين سبع سنين، إلى تسع وعشر. وعن (الطبري) قول بست سنين. وقد جاء في هذا الكتاب رواية عن عائشة، حكاية عن أمّها: فأسلمتني إليه، فأجلستني على حجره، وأنا ابنة تسع سنين». المحقق.

ـ وفي السنة الثانية من الهجرة:

زيد في صلاة الحضر ركعتان، وتركت صلاة الفجر، وصلاة المغرب. وأقرت صلاة السفر على الفريضة الأولى. وفيها ابتدأت الغزوات: غزوة الأبواء، غزوة ودّان. وفي هذه السنة بني رسول الله بعائشة[1]. وفيها شرع الآذان. وفيها صلى النبي صلاة الجمعة. وفيها أسلم عبد الله بن سلّام. وفيها بعث رسول الله ﷺ عمّه حمزة يعترض عير قريش. وبعث ابن عمّه عبيدة بن الحارث إلى بطن رابغ. وبعث سعد بن أبي وقاص إلى الخوار، يعترض عيراً لقريش. وتزوّج علي بفاطمة. وفيها كانت غزوة بواط. وغزوة العشيرة، وسريّة عبد الله بن حجش إلى بطن نخلة. وفيها كان تحويل القبلة. وبناء مسجد قباء. وفيها فرض صيام شهر رمضان. وغزوة بدر الكبرى. ووفاة رقية بنت النبي. وشرعت زكاة الفطر. وصلاة عيده، وفرضت زكاة الأموال. وغزوة قرقرة الكدر. وسريّة سلام بن عمر. وغزوة بني قينقاع. وغزوة السويق. وموت عثمان بن مضعون. وشرّعت التضحية. وصلاة عيدها.

ـ وفي السنة الثالثة من الهجرة:

خرجت سريّة محمد بن مسلمة لقتل كعب بن الأشرف. وتزوّج عثمان أم كلثوم. وغزوة غطفان. وغزوة بحران، وسريّة زيد بن حارثة إلى قردة. وتزوج حفصة. وتزوج زينب بنت خزيمة. وولادة الحسن. وغزوة أحد. وغزوة حمراء الأسد. وعلوق فاطمة بالحسين.

ـ وفي السنة الرابعة من الهجرة:

خروج سريّة أبي مسلمة إلى قطن ووفاته. وسريّة عبد الله بن أنيس إلى عرنة لقتل سنان بن خالد. وسريّة القراء إلى بئر معونة. وقصة الرجيع. وسريّة عمرو بن أمية الضمري لقتل أبي سفيان. وغزو بني النضير. ووفاة

---

(١) ذكر الشيخ في صلب الكتاب أن البناء بأم المؤمنين كان بعد سبعة أشهر أو ثمانية من الهجرة.

زينب بنت خزيمة. وغزوة ذات الرقاع. وتشريع صلاة الخوف، وولادة الحسين. وغزوة بدر الصغرى. وتزوّج أم سلمة. وتحريم الخمر.

ـ وفي السنة الخامسة من الهجرة:

غزوة دومة الجندل، غزوة المريسع. وتشريع التيمم. وتزوج جويرية. وقصة الإفك، وغزوة الخندق. وغزوة بني قريظة. وقصّة أولاد جابر، وتزوج زينب بنت جحش، ونزول آية الحجاب. وفرض الحجّ.

ـ وفي السنة السادسة من الهجرة:

سريّة محمد بن مسلمة إلى القرطاء. وقصة ثمامة. وغزوة بني لحيان، وغزوة الغابة، وسرية عكاشة إلى الغمر. وسرية محمد بن مسلمة إلى ذي القصة. وسريّة أبي عبيدة بن الجرّاح إلى مصارع أصحاب محمد بن مسلمة. وسرية زيد بن حارثة إلى أم قرقة. وسرية عبد الله بن عتيك لقتل أبي رافع. وسريّة عبد الله بن رواحة إلى أسير بن رزام اليهودي بخيبر، وسريّة زيد بن حارثة إلى حسمى. غزوة الحديبية. تشريع حكم الظهار، تحريم الخمر على وجه القطع. وتزويج رسول الله أم حبيبة.

ـ وفي السنة السابعة من الهجرة:

اتخاذ الختم. إرسال الكتب والرسل إلى الملوك بدعوتهم إلى الإسلام. غزوة خيبر. فتح وادي القرى. الدخول بأم حبيبة، سريّة عمر بن الخطاب إلى طائفة من هوازن، عمرة القضاء، تزوج ميمونة، سريّة أبي العوجاء إلى بني سليم.

ـ السنة الثامنة من الهجرة:

إسلام خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وعثمان بن طلحة. سريّة غالب بن عبد الله الليثي إلى بني الملوح. وسريته إلى مصاب أصحاب بشير بن سعد بفدك. اتخاذ المنبر الشريف. سرية شجاع بن وهب إلى بني عامر. سرية كعب بن عمير الغفاري إلى ذات أطلاح. سرية مؤتة، سرية عمرو بن العاص إلى ذات السلاسل، سرية أبي عبيدة بن الجراح إلى سيف البحر، سرية أبي قتادة إلى بطن إضم. سرية عبد الله بن أبي حدرد إلى الغابة. سرية سعد بن

زيد الاشهل إلى مناة. سرية خالد بن الوليد إلى بني جذيمة. غزوة حنين، سرية أبي عامر إلى أوطاس. سرية الطفيل إلى ذي الكفين. غزوة الطائف. ولادة إبراهيم. قدوم الوفود على رسول الله. وفد هوازن. وفاة زينب بنت رسول الله ﷺ.

ـ السنة التاسعة من الهجرة:

بعث عيينة بن حصن الفزاري إلى بني سليم. بعث الوليد بن عقبة بن أبي معيط إلى بني المصطلق. سرية قطبة بن عامر إلى بني خثعم. سرية الضحاك الكلابي إلى بني كلاب، سريّة علقمة بن مجزز إلى الحبشة، بعث علي بن أبي طالب إلى الغلس. بعث عكاشة بن محصن إلى الجباب. إسلام كعب بن زهير. هجرة ﷺ لنسائه، غزوة تبوك. سرية خالد بن الوليد إلى أكيدر، وإرسال كتابه من تبوك إلى هرقل. هدم مسجد الضرار. قصة كعب بن مالك وصاحبيه. قصة اللعان وحكمه. إسلام ثقيف. تشريع حكم الزنى ورجم الغامدية. وفاة النجاشي وصلاة الرسول عليه. وفاة أم كلثوم، موت عبد الله بن أبي بن سلول. حج أبي بكر الصديق. إعلان أن الإسلام دين الدولة، وإبطال ما عداه من الممارسة في جزيرة العرب.

ـ في السنة العاشرة من الهجرة:

قدوم عدي بن حاتم من الشام. بعث أبي موسى الأشعري، ومعاذ بن جبل إلى اليمن، يدعوان الناس إلى الإسلام. بعث خالد بن الوليد إلى بني الحارث بن كعب بنجران. استقدام خالد وإرسال علي إليهم. بعث جرير بن عبد الله البجلي إلى تخريب ذي الخلصة، وبعثه أيضاً إلى ذي الكلاع. بعث أبي عبيدة بن الجراح إلى أهل نجران. قصة بديل وتميم الداري. وفاة إبراهيم ولد رسول الله.

ـ السنة الحادية عشرة:

حجة الوداع، قدوم وفد التمتع، وسير أسامة بن زيد إلى بني وقصة (الأسود العنسي).

الهجرة الأولى إلى الحبشة

سنة (٥) والعودة منها كانت في شوال من السنة

ـ كان إسلام عمر تتمة عدد الأربعين من الرجال، وإحدى وعشرين امرأة.

وقائع السنة الأولى من الهجرة إلى المدينة

ـ أول جمعة صلاها رسول الله في السنة الأولى من الهجرة بقباء.

ـ بناء المسجد النبوي ومساكن الرسول.

ـ بنى النبي بعائشة، بعد قدومه إلى المدينة بثمانية أشهر.

ـ زيد في صلاة العصر، ركعتان بعد مقدم الرسول إلى المدينة بشهر.

ـ وعلى رأس سبعة أشهر عقد لحمزة على سرية لمناوأة قريش، في ثلاثين رجلاً من المهاجرين.

ـ عقد لواء لعبيدة بن الحارث بن المطلب.

ـ عقد لواء سعد بن أبي وقاص وتسييره إلى الأبواء من ذي القعدة.

ـ خروجه ﷺ في منتهى السنة إلى ودان لقتال قريش وبني ضمرة من كنانة.

ـ السنة الثانية

ـ غزوة الأبواء.

ـ غزوة ودان، وبينهما ستة أميال. سرية عبد الله بن أبي جحش من جمادى الآخرة، ولما غنم عبد الله عير قريش، قال: إن لرسول الله خمس ما غنمتم وذلك قبل أن يفرض الخمس. وهي أوّل غنيمة، وأوّل خمس فرض في الإسلام. وفيها صرفت القبلة من الشام إلى الكعبة يوم الثلاثاء، النصف من شعبان في صلاة الظهر، وفيها فرض صوم شهر رمضان. وفيها فرضت زكاة الفطر. وفيها سنّ الخروج إلى المصلّى لصلاة العيد. غزوة بدر في شهر

رمضان غزوة بني قينقاع. غزوة الكدر، غزوة السويق.

ـ السنة الثالثة من الهجرة:

ـ قتل كعب بن الأشرف. قتل أبي رافع ـ غزوة أحد ـ غزوة حمراء الأسد.

ـ السنة الرابعة من الهجرة:

ـ غزوة الرجيع ـ إيفاد عمرو بن أمية الضمري لقتل أبي سفيان ـ غزوة بئر معونة ـ إجلاء بني النضير ـ غزوة ذات الرقاع ـ بدر الثانية.

ـ السنة الخامسة من الهجرة:

غزوة الخندق ـ غزوة قريظة.

ـ السنة السادسة من الهجرة:

غزوة بني لحيان ـ غزوة ذي قرد ـ غزوة بني المصطلق من خزاعة ـ حديث الإفك ـ عمرة الحديبية ـ سرية عكاشة بن محصن الأسدي في ربيع الآخر ـ سرية محمد بن مسلمة ـ سرية أبي عبيدة بن الجراح إلى ذي القصة في ربيع الآخر ـ سرية زيد بن حارثة بالجموم ـ سرية زيد إلى العيص في جمادي الأولى ـ سرية زيد إلى الطرف إلى بني ثعلبة في جمادى الآخرة ـ سرية زيد بن حارثة إلى حسمى في جمادى الآخرة ـ سرية زيد إلى وادي القرى في رجب ـ سرية عبد الرحمن بن عوف إلى دومة الجندل في شعبان ـ سرية علي بن أبي طالب إلى فدك في شعبان ـ سرية زيد بن حارثة إلى قرضة في رمضان في بني نزارة ـ سرية كرز بن جابر الفهري إلى العرينيس في شوال ـ وفيها أجدب الناس جدباً شديداً، فاستسقى رسول الله بالناس في رمضان ـ وفيها كاتب الملوك المجارين له، وسير بكتبه أفراداً من رجاله:

أرسل حاطب بن بلتعة إلى المقوقس ـ وشجاع بن وهب الأسدي إلى الحارث بن أبي شمر الغساني ـ ودحية الكلبي إلى قيصر ـ وسليط بن عمر العامري إلى هوذة بن علي الحنفي وعبد الله بن حذافة إلى كسرى ـ وعمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي ـ والعلاء بن الحضرمي إلى المنذر بن ساوى.

ـ السنة السابعة من الهجرة:

غزوة خيبر ـ صلح فدك ـ سرية عمر بن الخطاب إلى عجيرة هوازن ـ سرية بشر بن سعد إلى بني مرّة بفدك في شعبان ـ سرية غالب بن عبد الله الليثي إلى أرض بني مرّة ـ سرية غالب أيضاً إلى بني عبد بن ثعلبة ـ سرية بشير بن سعد إلى اليمن والجباب في شوال ـ إتمام عمرة القضاء ـ سريته إلى مؤتة ـ غزوة ابن أبي العوجاء السلمي إلى بني سليم.

ـ السنة الثامنة من الهجرة:

سريّة غالب بن عبد الله الليثي الكلبي إلى كلب الليث وإلى بني الملوح ـ سرية شجاع بن وهب إلى بني عامر في ربيع الأوّل ـ سرية كعب بن عمير الغفاري إلى ذات الأطلاح، ناحية الشام وهم من قضاعة ـ وفي صفر أسلم خالد بن الوليد وعمرو بن العاص، وعثمان بن طلحة ـ غزوة ذات السلاسل إلى أرض بلى وعذرة ـ غزوة الخبط في رجب ـ سرية أبي قتادة إلى جشم في شعبان ـ غزوة أبي قتادة إلى أضم، وهي وقعت حين خروجه ﷺ فاتحاً إلى مكة ـ غزوة مؤتة في جمادي الأولى ـ فتح مكّة ـ غزوة خالد بن الوليد إلى بني جذيمة ـ هدم خالد بن الوليد صنم (العزّى) في رمضان ـ هدم عمرو بن العاص (سواع) برهاط، وكان لهذيل ـ هدم سعد بن زيد (مناة) ـ غزوة هوازن ـ حصار الطائف ـ إرسال عمرو بن العاص إلى جعيفير وعياذ ابني الجلندى من الأزد ـ بعث كعب بن عمير إلى ذات أطلاح ـ بعث عيينة بن حصن الفزاري إلى بني العنبر من تميم.

ـ السنة التاسعة:

إسلام كعب بن زهير الشاعر ـ غزوة تبوك ـ قدوم عروة بن مسعود مسلماً، وقتله في الطائف قدوم وفد ثقيف في رمضان ـ غزوة علي بن أبي طالب لطيّ، وهدم الفلس في ربيع الآخر.

الوفود:

لما فتح رسول الله مكة، وأسلمت ثقيف، وحارب الروم في تبوك، خافه العرب، وحسبوا له حساباً كبيراً، وأدركوا أنهم لا طاقة لهم بحربه، وإنما

كانوا ينتظرون قريشاً لمكانتها. وهي التي نصبت الحرب لرسول الله، وأبت تصديقه. فلما استولى على مكة، وأسلمت قريش، علمت العرب أنه لا مفر لهم من إطاعته، والدخول في الاسلام، فدخلوا في دين الله أفواجاً، من تلقاء أنفسهم، كما ورد ذلك في سورة النصر: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾.

فقدم عليه ﷺ وفد أسد ـ وفد بلي في شهر ربيع الأول ـ وفد الزاريين[1]، وهم عشرة نفر ـ وفد بني تميم ـ وورود كتب حمير، مقرّين بالإسلام ـ حج أبي بكر بالمسلمين ـ إعلان على منع المشركين من ممارسة دينهم.

وضع النظام الإداري، وتفريق الرسول لعماله على البلاد ـ موت عبد الله بن أبي بن سلول، وكان ابتداء مرضه في شوال ـ نعي النجاشي، وكان موته في رجب.

ـ السنة العاشرة:

وفد نجران ـ قدوم وفد غبشان في رمضان ـ وفد عامر في رمضان ـ وفد الأزد ـ وفد مراد ـ إرسال فروة بن عمر الجذامي النفاثي رسولاً إلى رسول الله بإسلامه، وقد صلبه الروم على باب يقال له (عقرب) بفلسطين، ضربوا عنقه ثم صلبوه ـ قدوم وفد زبير ـ وفد عبد القيد ـ وفد بني حنيفة ـ وفد كندة ـ وفد محارب ـ وفد الرهاوين ـ وهم بطن من مذحج ـ وفد عبس ـ وفد صداف في حجة الوداع ـ وفد خولان، وكانوا عشرة ـ وفد بني عامر بن صعصعة ـ وفد طي، كتاب مسيلمة، يذكر أنه شريك رسول الله في النبوّة،

(١) وفد الزاريين، أدرجه الشيخ ـ رحمه الله ـ في صلب الكتاب كعنوان فقط، بهذا الترتيب قبل وفد بني تميم. ولما لم أجد له مضموناً استبعدته. ولعله نسبة إلى (الزارة): حي من أزد السراة، أو موضع بالبحرين. كما جاء في (معجم البلدان) و(اللسان). المحقق.

ارسال خالد إلى اليمن، ثم إرسال علي، وإسلام همدان ـ إرسال عمال الرسول إلى الجهات لإقامة النظام المالي:

عيّن المهاجر بن أمية بن المغيرة إلى صنعاء، وزياد بن لبيد الأنصاري إلى حضرموت، وعدي بن حاتم إلى طيّ وأسد، ومالك بن نويرة على حنظلة، والزبرقان بن بدر، وقيس بن عاصم على بني تميم، والعلاء بن الحضرمي على البحرين، علي إلى نجران.

حجّة الوداع ـ قدوم عبد الله بن جرير البجلي مسلماً في رمضان، وبعثه إلى ذي الخلصة، لهدم صنم بجيلة وخثعم وأزد السراة ـ إسلام باذان عامل الفرس في اليمن، وبيعته لرسول الله.

ـ السنة الحادية عشرة.

تجهيز جيش أسامة، وانتقاد المنافقين، تأميره له. مرض رسول الله ﷺ. وفاته.

* * *

وفــود القبائل على رسول الله ﷺ

وفد هوازن بالجعرانة (٢)
وفد مالك بن عوف النصري، أواخر سنة ثمان (٢)
وفد بني تميم، سنة تسع في المحرم (٣)
وفد نصارى نجران بعد الهجرة (١)
وفد تميم الداري، مرتين. مرة بمكة، ومرّة بالمدينة بعد الهجرة.
وفد عامر بن صعصعة (٣)
وفد ضمام بن ثعلبة ـ سنة تسع
وفد عبد القيس من البحرين إلى المدينة (٣)
وفد بني حنيفة إلى المدينة (٣)
وفد طي إلى المدينة (٣)
وفد عدي بن حاتم الطائي إلى المدينة (٣)
وفد عروة من اليمن إلى المدينة (٣)
وفد بني زيد إلى المدينة (٣)
وفد كندة من اليمن إلى المدينة (٣)
وفد أزد شنوءة من اليمن إلى المدينة (٣)
وفد رسول الحارث بن كلال إلى المدينة بعد واقعة تبوك (٣)
وفد فروة بن عمر الجذامي إلى المدينة (٣)
وفد همدان من اليمن بعد رجوع رسول الله من تبوك (٣)
وفد نجيب إلى المدينة قبل حجة الوداع (٣)
وفد بني ثعلبة، مرجعه من الجعرانة إلى المدينة (٢)
وفد بني سعد هزيم قضاعة اليمن (٣)
وفد بني فزارة إلى المدينة (٣)
وفد بني أسد إلى المدينة (٣)

وفد بني عذرة إلى المدينة (٣)

وفد بكير من قضاعة إلى المدينة (٣)

وفد بني مرة بن لؤي بن غالب إلى المدينة (٣)

وفد خولان من اليمن (٣)

وفد بني محارب إلى المدينة (٣)

وفد صدى من اليمن (٣)

وفد نفر من غسان إلى المدينة

وفد سلامان إلى المدينة

وفد رجال من بني عبس إلى المدينة

وفد حمير سنة تسع

وفد طارق بن عبد الله المحاربي

وفد بهراء من اليمن إلى المدينة

وفد غامد من اليمن، سنة عشر. إلى المدينة.

وفد الأزد من اليمن إلى المدينة.

وفد بني تميم إلى المدينة.

وفد النخع من اليمن إلى المدينة.

* * *

الفهارس العامة

فهرس الآيات الشريفة

سورة البقرة(٢)

سورة آل عمران (٣)

سورة النساء (٤)

سورة المائدة (٥)

سورة الأنعام (٦)

سورة الأعراف (٧)

سورة الأنفال (٨)

سورة التوبة (٩)

سورة يونس (١٠)

سورة هود (١١)

سورة يوسف (١٢)

سورة الرعد (١٣)

سورة إبراهيم (١٤)

سورة الحجر (١٥)

سورة النحل (١٦)

سورة الإسراء (١٧)

سورة الفرقان (٢٥)

سورة الشعراء (٢٦)

سورة النمل (٢٧)

سورة القصص (٢٨)

سورة العنكبوت (٢٩)

سورة الروم (٣٠)

سورة لقمان (٣١)

سورة الأحزاب (٣٣)

سورة فاطر (٣٥)

سورة يس (٣٦)

سورة ص (٣٨)

سورة الزمر (٣٩)

سورة غافر (٤٠)

سورة فصلت (٤١)

سورة الزخرف (٤٣)

سورة الدخان (٤٤)

سورة الجاثية (٤٥)

سورة الأحقاف (٤٦)

سورة محمد (٤٧)

سورة الفتح (٤٨)

سورة الحجرات (٤٩)

سورة الحشر (٥٩)

سورة الممتحنة (٦٠)

سورة الجمعة (٦٢)

سورة المنافقون (٦٣)

سورة الحاقة (٦٩)

سورة المدثر (٧٤)

سورة النازعات (٧٩)

سورة عبس (٨٠)

سورة الليل (٩٢)

سورة الشرح (٩٤)

سورة العلق (٩٦)

سورة العصر (١٠٣)

سورة الكوثر (١٠٨)

سورة الكافرون (١٠٩)

سورة النصر (١١٠)

سورة المسد (١١١)

سورة الإخلاص (١١٢)

* * *

فهرس الآثار والأحاديث النبوية

* * *

فهرس الأعلام

- خ -

- د -

- ذ -

- ر -

- ن -

* * *

فهرس الأماكن

- ت -

- ث -

- ج -

- ح -

- خ -

- د -

- ذ -

- ر -

- ظ -

- ع -

- غ -

- ف -

* * *

فهرس القبائل

- ت -

- ث -

- ج -

- ح -

- ك - ل -

- م -

- ن -

- هـ -

فهرس الموضوعات

* الدور الثاني للإسلام

الرسول ﷺ
في مواجهة كيد اليهود والمنافقين

*** مشروعية القتال**

* غزوة بدر الكبرى

*** رسول الله ﷺ بين اليهود والمنافقين**

* غزوة الأحزاب

* اليهود ونكث العهود

* كلمة الله العليا

* السرايا في طريق الدعوة إلى الإسلام

* بيعة الرضوان وصلح الحديبية

* السرايا في طريق نشر الدعوة

* إسلام فتيان قريش

*** السرايا وحملات التأديب**

*** وفود الطاعة والدخول في الإسلام**

*** كتب الرسول ﷺ إلى القياصرة والملوك**

* حجة الوداع

* ملاحق

* * *



الدكتور صالح الخرفي

بطاقة تعريف

* الشهادات العلميـة:

- دكتوراه الدولة بـ (مرتبة الشرف الأولى) من قسم اللغة العربية، كلية الاداب جامعة القاهرة سنة 1970 بأطروحة عن (الشعر الجزائري الحديث).
- الماجستير بتقدير (امتياز) سنة 1966م برسالة عن (شعر المقاومة الجزائرية). جامعة القاهرة.
- ليسانس في اللغة العربية وآدابها سنة 1960م. جامعة القاهرة.

* الوظائف العلمية والإدارية وطنياً وقومياً:

- مدير إدارة الثقافة بالمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (1976 - 1992) بترشيح من الجزائر وانتخاب من المجلس التنفيذي للمنظمة في دورته السابعة عشرة.
- رئيس تحرير (المجلة العربية للثقافة) الصادرة عن إدارة الثقافة بالمنظمة منذ سنة 1981م.
- رئيس تحرير مجلة (الثقافة) التي صدرت عن وزارة الإعلام والثقافة الجزائرية، من أول صدورها سنة 1971 - 1976م.
- رئيس (دائرة اللغـة والأدب العربي) بجامعة الجزائر من سنة (1976 1971م).
- أستاذ الأدب العربي والأدب الجزائري الحديث بدائرة اللغة والأدب العربي بجامعة الجزائر متدرجاً من (مساعد) سنة 1964 حتى (أستاذ) سنة 1976.
- مسؤول العلاقات الثقافية بين الجزائر والبلاد العربية في أوّل وزارة للتربية بعد الاستقلال سنة - 1964 1962م.
- تولى منذ سنة 1984 حتى 1990م مسؤولة المدير العام المساعد بالإنابة لقطاع الثقافة في المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم بتونس.

* العضويـة العلمية والفكرية والأدبية:

- عضو مؤازر ـ (مجمع اللغة العربية الأردني) سنة 1989م.
- عضو مراسل بـ (مجمع اللغة العربية) بدمشق سنة 1986م.
- عضو اللجنة الوطنية للتعريب في وزارة التعليم العالي والبحث العلمي بالجزائر من سنة (- 1976 1971م).
- عضو لجنة إصلاح التعليم العالي بوزارة التعليم العالي والبحث العلمي في الجزائر سنة (1971م).
- عضو مؤسس لـ (اتحاد الكتّاب الجزائريين) سنة 1964م.
- عضو المجلس الإداري (اتحاد الطلبة المسلمين الجزائريين) فرع تونس سنة 1956م.

* الجوائز والأوسمة وشهادات التقدير:

- (شهادة تقدير) من رئيس الجمهورية الجزائرية لمؤلفاته ونضاله في خدمة الثقافة الوطنية في الذكرى

الخامسة والعشرين لاسترجاع الاستقلال والسيادة الوطنية الجزائرية سنة 1987م.

- (وسام المقاوم) أثناء حرب التحرير الوطني، في الذكرى الثلاثين لاندلاع الثورة الجزائرية من وزارة المجاهدين 1984م.
- الوسام الثقافي من رئيس الجمهورية التونسية، تقديراً لجهوده في سبيل تمتين الأواصر الثقافية بين الشعبين التونسي والجزائري سنة 1972م.
- (جائزة الشعر الأولى) في الذكرى العاشرة للاستقلال من وزارة الإعلام والثقافة الجزائرية سنة 1972م.
- (جائزة الشعر) من (المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب) في القاهرة سنة 1959م.

*** النشر العلمي والفكري والأدبي:**

●● في الأبحاث والدراسات:

1 ـ (شعراء من الجزائر) معهد البحوث والدارسات العربية، القاهرة، 1969م.
2 ـ (صفحات من الجزائر) ش. و. ن. ت، الجزائر، 1974م.
3 ـ (الشعر الجزائري الحديث) ش. و. ن. ت، الجزائر، 1975م.
طبعة ثانية م. و. ك، الجزائر، 1984م.
4 ـ (الجزائر والأصالة الثورية) ش. و. ن. ت، الجزائر، 1978م.
5 ـ (شرر المقاومة الجزائرية) ش. و. ن. ت، الجزائر، 1982م.
6 ـ (في ذكرى الأمير عبد القادر الجزائري) م. و. ك، الجزائر، 1984م.
7 ـ (في رحاب المغرب العربي) دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1985م.

●● في الشعر:

8 ـ (صرخة الجزائر الثائرة) وزارة المعارف. الدوحة، قطر، 1985م.
9 ـ (نوفمبر) وزارة المعارف. الدوحة، قطر، 1961م.
10 ـ (أطلس المعجزات) ش. و. ن. ت، الجزائر، 1967م.
طبعة ثانية م. و. ك، الجزائر، 1982م.
11 ـ (أنت ليلاي) ش. و. ن. ت، الجزائر، 1974م.
12 ـ (من أعماق الصحراء) بيروت 1992م.
في سلسلة الأدب الجزائري الحديث:
13 ـ (المدخل إلى الأدب الجزائري الحديث) ش. و. ن. ت. 1983م.
14 ـ (عمر بن قدور الجزائري) م. و. ك، الجزائر، 1984م.
15 ـ (حمود رمضان) م. و. ك، الجزائر، 1985م.
16 ـ (محمد السعيد الزاهري) م. و. ك، الجزائر، 1986م.
17 ـ (محمد العيد خليفة) م. و. ك، الجزائر، 1986م.
18 ـ (الأديب الشهيد أحمد رضا حوحو) في الحجاز: 1945 ـ 1935م)، بيروت، 1992م. دار الغرب الإسلامي.
19 ـ عبد العزيز الثعالبي: من آثاره وأخباره في المشرق والمغرب (دار الغرب الإسلامي)، بيروت، 1995م.
20 ـ الرسالة المحمّدية: تأليف الثعالبي. (تحقيق). دار ابن كثير دمشق ـ بيروت 1997.